

جامعة العلوم الإسلامية العالمية

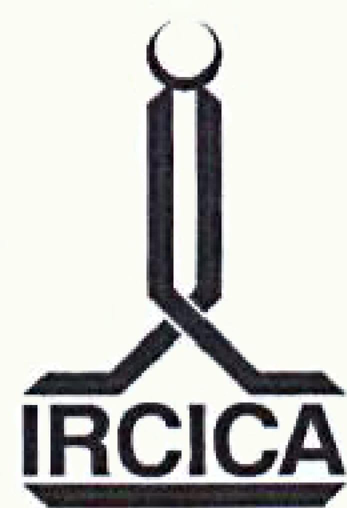


مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول

التراث العمراني في بلاد الشام

بحوث ندوة التراث العمراني العثماني في بلاد الشام

عمان ٢٠١٤م


IRCICA



جامعة العلوم الإسلامية العالمية



مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية

التراث العمراني في بلاد الشام

بحوث ندوة التراث العمراني العثماني في بلاد الشام

عمان ٢٠١٤م

إستانبول ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م



منظمة التعاون الإسلامي
مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية
Alemdar Caddesi No. 15 Bâbıâli Girişi
34110 Cağaloğlu Fatih İstanbul, Turkey
Phone | +90 402 00 00
Fax | +90 212 258 43 65
ircica.org
ircica@ircica.org

التراث العمراني في بلاد الشام: بحوث ندوة التراث العمراني في بلاد الشام، عمان ٢٠١٤

تاريخ البلدان الإسلامية رقم السلسلة: ٧
ISBN 978-92-9063-318-1
إستانبول ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م

إشراف: د. خالد أرن

فهرسة وتصنيف

بحوث ندوة التراث العمراني في بلاد الشام (٢٠١٤: الأردن)

التراث العمراني في بلاد الشام (بحوث ندوة التراث العمراني في بلاد الشام، عمان ٢٠١٤م)؛ تقديم خالد أرن.– إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ٢٠١٨م.

٤٨٢، ٥٨ ص.: صور ملونة، زخارف، مخططات، خرائط؛ ٢٤سم.– (تاريخ البلدان الإسلامية رقم السلسلة: ٧)

العنوان بالتركية: Bilâdü'ş-Şam'da Mimarî Miras Uluslararası Sempozyumu (Amman 2014)

يتضمن مصادر ومراجع.

النص بالعربية والتركي

ISBN 978-92-9063-318-1

١. الشرق الأوسط –حضارة-- ندوات. ٢. العمران--الشرق الأوسط--ندوات. I. أرن، خالد. II.– عنوان. III. سلسلة.

956.903--dc22

الإعداد للنشر: أ. د. صادق أوناي، أ.د. فاضل بيات، أ.د. نجاة صائم خليل، د. بتول آياز
إخراج: صلاح الدين أويغور
الطباعة والتجليد:

Basıldığı yer /Printed /المطبعة
Seçil Ofset Ltd. Şti. İstanbul/ TURKEY
Tel: +90 (212) 629 06 15
www.secilofset.com

المحتويات

تقديم

خالد أرن*

لا يخفى على متابعي نشاطات مركزنا/مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية التابع لمنظمة التعاون الاسلامي (إرسيكا) أن مهمة حماية التراث المعماري الإسلامي تحتل مكانة متميزة في برامج المركز، ويشهد لذلك ما قام به من ترميم لبعض المباني التاريخية الاسلامية. وفي هذا الميدان يقوم المركز بتنظيم فعاليات على شكل برامج متعددة الأبعاد تشمل ورشات عمل معمارية للحفاظ على المواقع والمعالم، ومشروعات لصيانة المعالم في مواقعها، وإحداث بنك معطيات حول المواقع والمعالم في الدول الأعضاء بالمركز. وفضلا عن كل ذلك يقوم المركز بإقامة الندوات والمؤتمرات لتحقيق جزء من أهدافه ونشاطاته المختلفة. ومنذ تأسيسه في سنة ١٩٧٩م نظم العديد من الندوات والمؤتمرات في مقره باستانبول أو في المراكز والجامعات المختلفة في الدول الاسلامية المختلفة.

وإيماناً من المركز بأهمية العمل المشترك والتواصل مع المؤسسات والمراكز العلمية في الدول الاعضاء فقد أقام العديد من الندوات والمؤتمرات بالمشاركة مع هذه المؤسسات والمراكز العلمية المختلفة. ولم يكتف المركز بإقامة هذه الندوات والمؤتمرات بل قام بنشر الأوراق المقدمة لها ووضعها في متناول المعنيين بها. ويسعدنا أن ننشر اليوم أعمال ندوة "التراث العمراني العثماني في بلاد الشام" والأوراق المقدمة فيها والتي انعقدت في رحاب

* الدكتور، مدير عام مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إرسيكا.

الجامعة الاسلامية العالمية في عمّان بالمملكة الاردنية الهاشمية بين يومي ٣-٥ آذار/ مارس ٢٠١٤م بمشاركة نخبة خيّرة من الباحثين والخبراء من تركيا والأردن وفلسطين وسوريا ومصر والعراق والسعودية ومصر ولبنان والبوسنة والهرسك والسويد وإيطاليا.

ومما يجدر ذكره أن هذه الندوة لم تكن هي الندوة الاولى التي نلتقي فيه مع الاشقاء في المملكة الاردنية الهاشمية، فقد سبقتها ندوات ولقاءات كثيرة. وتربط مركزنا علاقات وثيقة مع الحكومة الاردنية تمتد إلى الايام الاولى لتأسيس مركزنا، وكان الملك الراحل المغفور له الملك الحسين بن طلال يولي اهتماما ورعاية خاصة بمركزنا، واستمر هذا الاهتمام والرعاية من لدن جلالة الملك عبد الله الثاني والحكومة الاردنية إلى يومنا هذا. وتعبيرا لهذا الاهتمام فقد تولّت سمو الاميرة وجدان الهاشمي ولسنوات طويلة عضوية ورئاسة مجلس إدارة مركزنا. كما تشرف المركز باستقبال سمو الأمير الملكي الحسن بن طلال وسمو الأمير الملكي علي بن نايف والعديد من كبار رجال الدولة في الاردن وذلك في مقره بسراي يلدز باستانبول.

لا يخفى على مؤرخي الحقبة العثمانية أن الدولة العثمانية أضفت على ولاياتها ومنها العربية نوعاً من الهدوء والاستقرار السياسي والأمني، وكان لهذا الاستقرار دور مهم وأساسي في انتشار العمارة العثمانية، دينية كانت أم مدنية، كالجوامع والقصور والخانات والحمامات والجسور. الخ. وانعكس كل ذلك إيجابياً على النتاج العمراني والمعماري للولايات المختلفة ومنها ولايات بلاد الشام.

ومما لا شك فيه أن بلاد الشام شهدت حركة عمرانية واسعة خلال العهد العثماني، وخير دليل على ذلك تلك المباني التراثية المنتشرة في المدن الشامية المختلفة. ويعود هذا الانتشار الى عوامل كثيرة لعبت دوراً كبيراً في هذا

الخصوص، تأتي على رأسها الأوقاف التي انتشرت انتشاراً واسعاً في العهد العثماني. واستثمرت المؤسسات الوقفية الكثير من المباني ذات الطابع التجاري كالدكاكين والخانات والحمامات، وذلك لتحقيق غايات الوقف الخيري من صيانة المباني الوقفية والأعمال ذات النفع العام. لذلك فقد كان نشوء المؤسسات الوقفية في المدن حافزاً كبيراً لقيام الأعمال العمرانية باعتبار أن الأوقاف وفّرت الأساس الشرعي والمال اللازم لها.

وكان للسلاطين العثمانيين وولاتهم وكبار مسؤوليهم دور كبير في انتشار تلك المباني التراثية التي تولى بناءها أشهر معماري العصر، وخير مثال على ذلك نجده فيما قام به المعمار سنان من مبانٍ خالدة في الدولة العثمانية ومنها المباني المنتشرة في بلاد الشام.

وتعكس الآثار المعمارية العثمانية القائمة اليوم في بلاد الشام ما قام به العثمانيون من حركة إعمار واسعة امتدت طوال حكمهم في هذه المنطقة، وهي تدل على ثراء وتطور العمارة والعمران في العهد العثماني. ولكن مما يؤسف له أن هذه الآثار لم تنل حقها في البحث والدراسة، وبقيت جوانب كثيرة منها مجهولة. ولهذا فإن من المهام الملقاة على الجامعات والمؤسسات البحثية العمل على كشف هذه الجوانب وذلك بتوجيه طلبة الدراسات العليا والباحثين في مجال التاريخ والآثار والعمارة على دراستها وتوفير المستلزمات المادية والمعنوية لهم. وبهذه المناسبة ينبغي أن أشير إلى أن مركزنا باشر بتنفيذ مشروع إنشاء قاعدة معطيات حول المواقع الأثرية والمعالم التاريخية في الدول الإسلامية، وما زال العمل متواصلا فيه حتى اليوم.

ولا يفوتني بهذه المناسبة ان اذكر ان أهم مشروع في مجال التراث المعماري يفتخر مركزنا القيام به هو مشروع "القدس ٢٠١٥"، وهو برنامج تعاوني دولي طويل المدى، يستهدف دراسة التراث المعماري في القدس

بالتعاون مع المؤسسات والمنظمات المعنية في العالم. وقد جرى تنفيذه في جوانب متعددة بدأ بتعليم وتدريب طلاب العمارة وتخطيط المدن وانتهى بتقديم النتائج التي خرج بها البرنامج إلى المحافل الدولية المعنية بموضوع القدس، وهو في الواقع يمثل محاولة ذات طابع خاص تستهدف مخاطبة الرأي العام العالمي بقدر ما تستهدف أيضاً مخاطبة الاوساط العلمية والاكاديمية.

وبهذه المناسبة أود أن أعبر هنا عن شكري وتقديري لحكومة المملكة الاردنية الهاشمية متمثلة بوزارة الثقافة لرعايتها هذه الندوة، كما أشكر الأستاذ الدكتور صلاح جرار رئيس الجامعة الاسلامية آنذاك والأستاذ الدكتور محمد الأرناؤوط والأستاذ الدكتور جنكيز طومار لمساهمتهم وجهودهم في تنظيم هذه الندوة معنا، كما أشكر كل الباحثين الذين ساهموا في إغناء الندوة بآرائهم وأفكارهم ومداخلاتهم فضلاً عن الأوراق التي قدموها والشكر موصول إلى الاستاذة الدكتورة نجاة صائم خليل الخبيرة في المركز لمراجعتها أوراق الندوة وإلى السيد صلاح الدين اويغور لإخراجه الكتاب.

العمارة العثمانية في بلاد الشام من خلال كتب الرحلات العربية

عماد عبد السلام رؤوف*

شهد أدب الرحلات العربية ازدهاراً ملحوظاً في العصر العثماني، بوصفه يمثل الجانب العملي الذي ظل حياً ومستمراً من جوانب علم الجغرافيا العربية، وكان من ملامح ذلك الازدهار أنه شمل مختلف أنواع الجغرافيا، الطبيعية والبشرية والاقتصادية والثقافية، بل والعمرانية، فتكلموا في مجال الجغرافيا الطبيعية على أشكال الأرض التي كانوا يمرون بها وما كانوا يجتازونه من الجبال والهضاب والوديان والسهول، ولفتت أنظارهم ألوان التربة وطبيعة الصخور والحجارة، كما شمل اهتمامهم بالجغرافية البشرية ما كانوا يمرون به من مجتمعات، حضرية وريفية وبدوية، وخصائص كل منها من العادات، وعبروا عن اهتمامهم بالجغرافيا الاقتصادية من خلال ملاحظات ذكية عن درجة خصوبة الأرض وما ينبت فيها من نباتات مختلفة ووفرة مواردها المائية أو قلتها من الأنهار والجداول والآبار، فضلا عن الأسواق وطرق التجارة والقوافل، كما انهم أبدوا اهتماماً شديداً، بحكم كون معظمهم من العلماء، بالحياة الثقافية والعلمية في المدن التي كانوا ينزلون فيها، فنوهوا بمن كانوا يلتقون به من العلماء أمثالهم، وأشاروا إلى ما اطلعوا عليه من مؤلفاتهم، وما منحوه لهم، أو أخذوه منهم، من الإجازات العلمية.

---

* الأستاذ الدكتور.

ومن المهم أن نذكر أن ملاحظات أولئك الرحالين لم تكن اعتباطية، تخلو من منهج ينتظمها، وتقاليد تتبعها، وإنما كانت تتبع قواعد عامة أو تقاليد كتابية أرسيت عبر العديد من كتب الرحلات السابقة، حتى أصبح تسجيل عالم ما لوقائع رحلته يعد من مكملات الغاية التي توخاها من رحلته نفسها، إن كانت لأداء مناسك الحج، أو لطلب العلم ولقاء العلماء، أو غير ذلك من شؤون. وصار اطلاع العلماء على رحلات سابقة قبل قيامهم برحلاتهم هم تقليداً يمكن أن نلمحه لدى عدد من هؤلاء.

وصار من ثوابت تلك القواعد والتقاليد العناية بوصف ما يمر به الرحالة من المدن والقرى، وما تضمه من المنشآت المختلفة، وما يصادفه في طريقه من منشآت خدمية أخرى، بوصفها تمثل شواخص أثرية ملفتة للنظر من ناحية، ومثيرة لنزعة الحنين إلى الماضي من ناحية أخرى، ولأنها تقدم من ناحية ثالثة فائدة عملية لمن تقع في أيديهم هذه الرحلة من القراء، لا سيما الرحالين التالين.

ويتناول البحث الذي نقوم به عرضاً تحليلياً ومقارناً لما احتوته نماذج من كتب الرحلات العربية قام بها أصحابها في فترات مختلفة من العصر العثماني، ولغايات متنوعة، وهذه النماذج هي:

١. رحلة بدر الدين محمد بن محمد الغزي الدمشقي (المتوفى سنة ٩٨٤هـ/١٤٩٩م).

٢. رحلة محمد كبريت المدني (المتوفى سنة ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م).

٣. رحلة فضل الله بن محب الله المحبي (المتوفى سنة ١٠٨٢هـ/١٦٧١م).

٤. رحلة إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري (المتوفى سنة ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م).

٥. رحلة عبد الغني النابلسي (المتوفى سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م).

٦. رحلتان لمصطفى بن كمال الدين البكري الدمشقي (المتوفى سنة ١١٦٢هـ/١٧٤٨م).

٧. رحلة عبد الله السويدي (المتوفى سنة ١١٧٤هـ/١٧٦٠م).

٨. رحلة عبد الغني النابلسي (المتوفى سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م).

٩. رحلة طه الباليساني (المتوفى سنة ١٢٠٤هـ/١٧٧٨م).

١٠. رحلة عبد القادر آل أبو السعود المقدسي (النصف الأول من القرن ١٣هـ/١٩م).

والملاحظ أن جميع هذه الرحلات هي لفئة العلماء، وأن تقاليد الكتابة فيها تستجيب لاهتماماتهم العلمية أصلاً.

فمحمد الغزي كان من كبار علماء دمشق، تلقى العلم على أيدي علمائها صغيراً، وانتقل إلى القاهرة حيث واصل دراسته فيها، ثم عاد إلى دمشق ليتولى فيها مشيخة القراء في الجامع الأموي، والتدريس في كثير من مدارسها، وألف عددا من الكتب المهمة، منها كتاب وصف فيها وقائع رحلته في بلاد الشام وبلاد الروم سماها (المطالع البدرية في المنازل الرومية)[1].

ومحمد كبريت المدني كان عالماً، له كتاب في وصف المدينة المنورة وتاريخها، وقد مكنته خبرته في هذا المجال في تسجيل ما شاهده من معالم أثناء رحلته من المدينة إلى إستانبول سنة ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م سماها (رحلة الشتاء والصيف)[2].

والمحبي كان قد ورث هذه تقاليد أدب الرحلات عن رجال أسرته، فجده، وأبوه كانا قد سجلا وقائع رحلتيهما في كتب اطلع عليها هو وأفاد منها في

(١) حققها المهدي عبد الرواضية، دار السويدي، أبو ظبي، ٢٠٠٤. ورمزنا لها في هذا البحث باسم (الغزي) التماسا للاختصار.

(٢) حققه محمد سعيد الطنطاوي، ١٣٨٥. ورمزنا لها في هذا البحث باسم (كبريت).

رحلته التي قام بها سنة ١٠٥١هـ/١٦٤١م، حيث كانت معه في أثناء قيامه بها. وقد أطلق على رحلته عنوان (الرحلة الرومية) تمييزاً لها عن رحلة أخرى له سماها (الرحلة المصرية)[٣].

وإبراهيم بن عبد الرحمن الخياري من أسرة علمية، وتولى الخطابة في المسجد النبوي، ثم سافر إلى إستانبول ساعياً لاستعادة منصبه الذي فقده، ووصف في طريق ذهابه وإيابه وقائع رحلته التي سماها (تحفة الأدباء وسلوة الغرباء).[٤]

ومصطفى البكري الدمشقي (المتوفى سنة ١١٦٢هـ)، كان صوفيا شاعرا مرهف الحس، تأثر بشيخه عبد الغني النابلسي، في فهمه لمؤلفات ابن عربي، قام برحلات عديدة إلى القسطنطينية والعراق وحلب وبلاد الشام ومصر والحجاز، منها رحلته إلى القدس التي سماها (الخمرة الحسِّية في الرحلة القدسية)[٥]، ورحلة أخرى إلى العراق سماها (كشط الصدأ وغسل العراق وما جاورها من البلدان)[٦].

وأما عبد الله السويدي فقد كان علامة عصره في العراق ورائداً في بعض مجالات التأليف[٧]، وقد أراد أن يحيي هذا النوع من الأدب فيما سجله من

---

(٣) حققنا الرحلتين وجمعنا بينهما في كتاب واحد سميناه (الرحلتان الرومية والمصرية)، دمشق ٢٠١٢. ورمزنا لها في هذا البحث باسم (المحبي).

(٤) المحبي: خلاصة الأثر، ج ١، ص ٢١. ونفحة الريحانة، ج ٤، ص ٣٦٦. حققها د. رجاء محمود السامرائي في ثلاثة أجزاء، بغداد، ١٩٧٩-١٩٨٢. ورمزنا لها في هذا البحث باسم (الخياري).

(٥) حققها د. محمد الحزماوي، ونشر مقتبسات منها على موقع (دهشة) سنة ٢٠٠٧، وهي ما اعتمدناه في هذا البحث، ولم يثبت المحقق أرقام صفحات المخطوط لنشير إليها، ورمزنا لها في هوامش هذا البحث باسم (البكري).

(٦) منه نسخة فريدة في مكتبة جامعة كمبردج، منها نسخة مصورة في المجمع العلمي العراقي برقم ٨ جغرافيا، وهي التي اعتمدناها.

(٧) إن أفضل ترجمة له هي ما كتبه في مقدمة كتابه (النفحة المسكية)، وينظر أيضا محمد خليل المرادي: سلك الدرر، ج ٣، ص ٨٦، وفصلنا القول في ترجمته في مقدمتنا لكتابه هذا، ط ٢، بيروت، ٢٠١٢، ص ٥-٧١. ورمزنا لها باسم (السويدي).

وقائع في أثناء رحلة انطلق فيها من بغداد لغرض أداء الحج عن طريق بلاد الشام سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، وأطلق عليها اسم (النفحة المسكية في الرحلة المكية)[٨].

وعبدالغني النابلسي الدمشقي كان من الفئة نفسها، عالماً أديباً شاعراً، قصد إستانبول في شأن من شؤونه فمر ببلاد الشام وأولى اللقاء بالعلماء فيها اهتماماً كبيراً، لكنه تناول أيضاً وصف ما نزل به أو رآه من منشآت، وسمى رحلته (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز)[٩].

وطه الباليساني شيخ صوفي، أخذ الطريقة القادرية عن رجالها في قريته في كردستان، ولأسباب لم يوضحها قام بعدد من الرحلات الطويلة في العراق والأناضول وبلاد الشام ومصر والحجاز، استغرقت ثلاثة عقود ونيِّف، حتى استقر في دمشق ليكتب مختصرا لوقائع تلك الرحلات[١٠].

ويعد أبو السعود المقدسي أنموذجا آخر على تلك الفئة، فهو من أسرة علمية معروفة في القدس، ومع أنه لم يكن أديباً بارزاً، لكنه أراد أن يتأسى بمن سبقه من الأدباء الذين أثروا رحلات سابقة، فكتب في أثناء رحلة قصد بها إستانبول سنة ١٨٥٨م ما شاهده من منشآت مختلفة، وقد سقط أول هذه الرحلة فضاع بذلك عنوانها الذي اختاره لها مؤلفها[١١].

---

(٨) حققنا هذه الرحلة، الطبعة الأولى، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠١، والطبعة الثانية، بيروت، الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠١٢، وقد رمزنا لها في هوامش هذا البحث باسم (السويدي).

(٩) حققها رياض عبد الحميد مراد، دار المعرفة، دمشق ١٩٨٩، ورمزنا لها باسم (النابلسي).

(١٠) حققنا هذه الرحلة ونشرناها باسم (رحلة طه الكردي الباليساني، في العراق وبلاد الشام والأناضول ومصر والحجاز) الطبعة الأولى، مديرية الثقافية الكردية، بغداد ٢٠٠١، ودار مؤكرياني، أربيل ٢٠٠٨، واعتدنا الطبعة الأخيرة في احالاتنا إليها، وقد رمزنا لها في الهوامش باسم (الباليساني).

(١١) حققنا هذه الرحلة وسميناها (رحلة من نابلس إلى اسلامبول)، حيث لم يكن لها عنوان، وهي في طريقها إلى النشر إن شاء الله، ونشرنا مقدمة التحقيق على موقع (الألوكة).

ومن أولئك الرحالين من قدم ملاحظات لا يستهان بأهميتها عن الجغرافيا الحضرية، فتكلم عن المدن والقصبات والقرى، وميز بينها تمييزاً حسناً، وتحدث عما رآه فيها أو في الطرق المؤدية إليها من المنشآت الدينية والعسكرية والخدمية المختلفة، وهي:

١- الخانات
٢- الجوامع والمساجد
٣- المدارس والتكايا
٤- الأضرحة والمشاهد
٥- الحمامات
٦- البرك والأحواض والسبيلخانات
٧- القلاع والحصون

الخانات

تعد الخانات الواقعة على الطرق التجارية، أو تلك التي في المدن، أكثر المعالم التي اهتم بها الرحالون في ذلك العصر، ففيها يجد الرحالة المأوى الآمن والمثوى المريح نسبياً فضلا عن الطعام والماء، كما يجد الكلأ لدابته، وتقدم تلك الخانات خدماتها بصفة مجانية غالبا، حيث ينفق عليها من أوقاف يرصدها عليها واقفوها من المحسنين، وأكثرهم من الولاة وأمثالهم من المسؤولين[١٢]، وفي الغالب فإنها تنشأ في آخر كل مرحلة من مراحل الطريق،

---

(١٢) كان الاهتمام بتأمين الطرق التجارية، يمثل في العصر العثماني، ضرورة سياسية فضلا عن ضرورتها الاقتصادية، ذلك أن تهديد تلك الطرق المستمر من قبل قطاع الطرق كان يمثل مسا بهيبة الدولة ويضر بمصالحها، فكان (تطبيع) الوضع على الأرض في مثل هذه الطرق المقفرة يعني استقرار النظام السياسي برمته، ولذا فقد اتجه كثير من الواقفين، من الولاة والأمراء والقادة، إلى إنشاء الخانات الحصينة على طول تلك الطرق. وفي الغالب فإن تلك الخانات كانت تقترن ببناء وحدات خدمية متكاملة، تشمل: ثكنة لمبيت الجند، جامعاً، ومدرسة،

فتكون بذلك محطات ضرورية لسالكي تلك الطرق تمكنهم من مواصلة رحلتهم من مدينة إلى أخرى.

ويمكن أن نعد محمد الغزي من أوائل الرحالين الذين أولوا مثل هذه المنشآت اهتمامهم، فذكر مثلاً أن خان شيخون "مكان موحش مُعطِش يُسقى فيه من بئر على بعير"(١٣)، ونوّه وهو في عقبة بقراص بنواحي حلب بأن "في آخرها خان ومقيل"(١٤).

وأشاد محمد كبريت المدني بالأبنية التي شاهدها في قرية سراقب ومنها خانها(١٥)، ووصف خان مرعي بأنه "بنيان عظيم، وحوله زراعات"(١٦)، وسجل إعجابه بخان القطيفة فقال: "بها الخان الذي هو للواردين وقاية وجُنَّة، وهو الخان الذي لا يُرى له عديل، ولا يدانيه في محاسنه مثيل..."(١٧).

وسجل المحبي ملاحظات مهمة تلك الخانات، من ذلك قوله عن خان القطيفة الواقع على مفترق طريقي دمشق- حلب، ودمشق- الرحبة، بأنه واحد من جملة من المنشآت الخيرية التي أنشأها في هذه البلدة والي دمشق سنان باشا (تولاها من سنة ٩٩٤هـ إلى ٩٩٧هـ/١٥٨٥- ١٥٨٨م) فقال" وباني هذه الخيرات ومُرتِّب تلك المبرّات، المرحوم المغفور له سنان باشا، الوزير الأعظم-رحمه الله تعالى- على ما أحسن في وضع بنيانه وأحكم، وهو صاحب الخيرات المأثورة في أكثر البلاد، وحاوي المساعي المشكورة بين العباد، من

وحماماً، ومنشآت أخرى. وهذا أدى إلى تحول تلك المحطات إلى نوى عمرانية أخذت بالتحول إلى حواضر سكنية مزدهرة. ينظر محمد الأرناؤوط: الوقف في العالم الإسلامي، بيروت ٢٠١١، ص ٨٢-١٠١.

(١٣) الغزي، ص ٥٢.
(١٤) الغزي، ص ٨٢.
(١٥) كبريت، ص ٢٠٣.
(١٦) المصدر نفسه.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٢١٠.

رائح وغاد". ووصف ارتياحه خلال مكوثه في هذا الخان فقال" ولما نزلنا في هذا الخان المذكور، حصل لنا فيه كمال السرور، وترحَّمتُ على من سنَّ الخير في ذلك المكان، ودعوت للنظر فيه بخير وإحسان"[١٨].

ووصف الخان الذي نزل فيه في قلعة المضيق إلى الشمال الغربي من مدينة حماة فقال "فنزلت في خانها الحسن، وتأملت بناءه المستحسن، وهو خان منازله واسعة، وقبابه شاسعة، بناه صاحب المساعي الخيرية، والإحسانات المرضية، المرحوم مصطفى آغا آغاة دار السعادة، رزقه الله الحسنى وزيادة"[١٩]. ووصف خان الشغور بأنها قرية ليس فيها إلا هذا الخان، وهو مهدوم الجدران، وبالي الأطلال والأركان.. فنزلت على جانبه وزالت أتعاب أكداري"[٢٠]. وحينما مر بقرية الزنبقية على الضفة الشرقية لنهر العاصي وصف خانها بأنه "مبني لأبناء السبيل من الترك والعرب، قيل أن بانيه المرحوم سنان باشا عليه من الرحمة ما يشاء"[٢١].

ونوه إبراهيم الخياري ببعض ما مر به من الخانات فوصف القنيطرة بأن فيها "خان متسع الأكناف أتم اتساع، يشتمل على بركة ماء في وسطه، وخانات تسكن في جهاته، وأماكن حسنة جداً"، وأنه[٢٢] "خان قائم البناء، ظاهر السناء"، وأشاد بسعة رحابه[٢٣]، ومثل هذا ما سجله عن خان رآه في مرحلة على طريق طبرية إذ قال أنه "الخان القائم البناء، المشرق السناء"، ومع ذلك فإنه لاحظ أن

---

(١٨) المحبي، ص ٣٣ و٣٤.
(١٩) المحبي، ص ٤٢ وكان مصطفى أغا الشهير بآغا دار السعادة أحد (مراكز القوى) في عهد السلطان مصطفى الأول، وهو الذي تولى عزله سنة ١٠٢٧هـ/١٦١٨م، وله أعمال عمرانية في استانبول وفي القاهرة. ينظر علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج ٢، ص ١٨٢.
(٢٠) المحبي، ص ٤٣.
(٢١) المحبي، ص ٤٣.
(٢٢) الخياري، ج ١، ص ١٧٧.
(٢٣) الخياري، ج ٢، ص ١٦٣.

"فيه أماكن خربة"(٢٤). وكانت بعض الخانات من السعة بحيث ضمت جوامع تلقى فيها الخطبة أيام الجمع، ففي عيون التجار صلى الخياري في جامع وسط الخان مع خطيبه(٢٥). وقدم ملاحظات مفيدة عن خانات أخرى، فخان بلدة قاقون قرب الرملة "كبير الوضع" يقابل قلعتها، وخان بلدة بيت جبرين لها "خان خرب"(٢٦)، ووصف خان القصير بأنه خان شتوي، إشارة إلى أن فناءه كان مغطى(٢٧)، فقال "خان كبير ينزله المسافرون أيام الشتاء"(٢٨)، وقال عن خان النبك أنه يضم في وسطه على مسجد "لطيف جدا" فهو خان متسع إذن، عامر بمن حوله من أهل قريته(٢٩). ولفتت نظره الوظيفة العسكرية للخانات الواقعة على طريق الحاج، فقال عن خان الحسيا أنه "جرت عادتهم بأن العسكر الشامي الذي يخرج للحرس إذا وصل إليها سقط عنه ذلك، قام به عسكرها فتسلم عسكرها الحاج للغفر وعاد الأولون إلى وطنهم"(٣٠). وتحدث عن خان في حمص "معد للمسافرين، عجيب بناؤه"(٣١)، وذكر أن بقرب قلعة المضيق "خان جديد عمره وجدده محمد آغا قزلار"(٣٢). أما خان الشغر الواقعة على نهر العاصي فهو "الخان العظيم الوضع الذي لم نر إلى الآن أعظم منه وصفاً ولا أتقن صنعاً، فيه أماكن كثيرة للمسافرين معدة لنزولهم"، وأشار إلى ما يشتمل عليه هذا الخان من منشآت فقال "وفي وسط الخان محل مرفع على أركان أربعة تحته بحرة ماء بهار فوار عظيم وتخت من خشب يجلس عليه، وفوقه

---

(٢٤) الخياري، ج ٢، ص ١٦٣.
(٢٥) الخياري، ج ٢، ص ١٦٤.
(٢٦) الخياري، ج ٢، ص ١٦٨ و٢٠١.
(٢٧) إن كون هذا الخان مغطى الفناء، هو الذي شجع السلطات السورية إلى التفكير لاتخاذه مستشفى للمجانين. الخياري، هامش ١٧٧.
(٢٨) الخياري، ج ١، ص ١٧٧.
(٢٩) الخياري، ج ١، ص ١٧٨.
(٣٠) الخياري، ج ١، ص ١٨٠.
(٣١) الخياري، ج ١، ص ١٨٢.
(٣٢) الخياري، ج ١، ص ١٨٦.

مسجد مربع به طاقات ومحراب يصعد إليه بدرج، وفي مقابل باب الخان بصدره تكية عامرة البناء ظاهرة السناء مشتملة على أماكن متعددة"، وأبدى إعجابه بمطبخه.

وتحدث عبد الغني النابلسي عن خان نزل به عند باب مدينة حمص، فإذا به يشبه أن يكون مجمعاً من خانات عدة، ومرافق متنوعة، فقال "هو خان كبير مشتمل على خانات، فإذا دخلت بابه رأيت صحناً كبيرا واسعاً في أطرافه حجر لأبناء السبيل، وعن يمين الصحن باب كبير فيه خان فيه أواوين وحجر أيضا، وجدول ماء صغير متشعب من العاصي، وهو يساره صحن طويل يشقه جدول من العاصي عليه ناعورة صغيرة"[٣٣].

ووصف خاناً في قرية النبك فذكر اسم مؤسسه وتاريخ تأسيسه، إذ قال أنه "الخان الذي بناه صالح باشا الوزير الأعظم، تغمده الله برحمته ورضوانه في سنة أربع وسبعين بعد الألف"، يريد به صالح باشا الموستاري وكان نائب الشام (توفي سنة ١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م) ووصف مشتملاته، ووظائفه، وما ينفق عليه، وإدارته، ثم قال" وعليه أوقاف كثيرة في دمشق الشام، وفيه وظائف وأجزاء تقرأ، وله ناظر بجميع أوقافه"[٣٤].

وتحدث مصطفى البكري الدمشقي عن خان وحيد يظهر أنه نزل فيه وهو خان جب يوسف، ووصفه بأنه "خان ضيق"[٣٥]، وسكت عن الخانات العديدة التي لابد أن نزل بها في أثناء رحلاته، ويمكن تفسير ذلك الموقف بسبب مروره بها في رحلات سابقة فلم يعد فيها ما يلفت نظره. وعلى الضد من هذا، نالت الخانات، لاسيما الضخمة منها، اهتمام عبد الله السويدي البغدادي، فهذا النوع من المنشآت لا وجود له في بلاده في عصره، لذا جاء

---

(٣٣) السويدي، ص ٢٧٥.
(٣٤) النابلسي، ص ١٠١.
(٣٥) البكري، غير مرقم الصفحات.

وصفه إياها أكثر دقة وتفصيلا، فحينما تحدث عن خان تومان فحدد موقعه بأنه على ثلاثة فراسخ من حلب، ونوه بمتانة بنيانه بأنه "خان محكم رفيع"، وبسبب تسميته بأن "امرأة اسمها تومان بنته"[٣٦].

ولم يفته أن يتطرق إلى المواد التي بنيت بها الخانات، فذكر عند حديثه عن خان في معرة النعمان أنه "من أحسن الخانات، رفيع البناء، محكمة سطوحه، مغشية بصفائح الرصاص"، وسر التفاتته هذه أن الرصاص لم يكن من المواد الداخلة في البناء في العراق، وتطرق إلى ما يضمه الخان من منشآت أخرى فقال "في وسطه قسطل ماء لأبناء السبيل، وفي وسطه مسجد ذو قبة شاهقة مطلية أيضاً بالرصاص" وأن للخان نفسه "طاقات ورواقات في جميع دوره لأبناء السبيل"، وسجل كتابة تذكارية على بابه فيها اسم باني الخان[٣٧]، فقال "وله باب رفيعة ملبسة بالحديد، مكتوب على طاقها في الحجر:

هذا ما بنى حامي الدفاتر السلطانية مراد جلبي

وقد ذكر عند دخوله حماة أنه "في الجانب الغربي خان كبير وقفه الوزير أسعد باشا ابن إسماعيل باشا والي دمشق الشام المعروف بابن العظم لأبناء السبيل"، ونقل نص كتابة تذكارية على الخان تتضمن ثلاثة أبيات تؤرخ لبنائه، هي:

نور هذا الخان قد أشرق من … نور ربى ليس يُطفيه العدا
دام وجه الحق من إنشائه … للورى مأوى فوفى المقصدا
وبشـــرى سعده قد أرخوا … أســـعد خان بمجد شـيدا

(٣٦) السويدي، ص ٢٥٤.
(٣٧) فاته أن يذكر تاريخ التأسيس المثبت في اللوحة المذكورة وهو سنة ٩٧١هـ، وقد تحول هذا الخان منذ سنة ١٩٨٧ إلى متحف خاص بمدينة المعرة.

وأسعد باشا هذا تولى حماة قبل أن يتولى دمشق، ويعد هذا الخان من أهم منشآته، ويحمل الشطر الأخير تاريخ تأسيسه وهو سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٧م. ووصف خاناً قريباً من بلدة الرستن، فقال أنه "خان قديم في وسطه جامع له قبة"(٣٨).

ونزل في خان عند باب حمص فوصف مخطط بنائه بقوله أنه "خان كبير مشتمل على خانات، فإذا دخلت بابه رأيت صحناً كبيراً واسعاً في أطرافه حجر لأبناء السبيل، وعن يمين الصحن باب كبير فيه خان فيه أواوين وحجر وإصطبل، ومقابل الوجه باب كبير أيضاً فيه أواوين وحجر أيضاً، وجدول ماء صغير متشعب من العاصي، وعن يساره صحن طويل يشقه جدول من العاصي، وعليه ناعورة صغيرة"(٣٩). ومثل هذا قوله أن في قرية حسية، على الرغم من صغرها، "خان كبير لأبناء السبيل" وأن هذا الخان من السعة بحيث يشتمل على خان يخطب فيه، وأنه يضم فضلا عن ذلك بركة ماء كبيرة(٤٠). ووصف خاناً في قرية النبَك فقال "في داخله خانان للشتاء، وفيه جامع خطبة"(٤١).

وحينما نزل في القطيفة نزل في خانها فأعجب بسعته وفخامة بنائه فقال "هو كبير واسع، وفي باطنه خان آخر.. وفيه أيضا خان آخر للشتاء"، وأن في الخان "جامع كبير يخطب فيه "وأن لهذا الجامع منارة، ولاحظ أن هذا الخان يضم "قلعة صغيرة وخانقاه"، بل أنه لم يتردد بتسجيل إعجابه بطهارة مرافق الخان الصحية، فقال: "وفيه مراحيض يجري الماء إليها بسواقي فيسوق النجاسات" ولاحظ وجود بركة للماء فيه وقدر مساحتها بعشر في عشر أذرع، وأن في صحن المراحيض بركتا ماء حار(٤٢)، فهو هنا لا يتحدث عن خان

(٣٨) السويدي، ص ٢٦٠.
(٣٩) السويدي، ص ٢٧٥.
(٤٠) السويدي، ص ٢٧٧.
(٤١) السويدي، ص ٢٧٨.
(٤٢) السويدي، ص ٢٧٩.

طريق، وإنما على مؤسسة خدمية كبيرة تضم عدداً من الخانات ومرافق دفاعية ودينية مختلفة. ومما ذكره في رحلته خان يسمى خان الزبيب إلى الجنوب من عمان، وقال: "لعله كان يوضع فيه الزبيب"، وهذا الخان والقلعة إلى جواره هي من إنشاء السلطان مصطفى الثالث ١١٧١-١١٨٧هـ/١٧٥٧-١٧٧٣م.

وشغلت الخانات اهتمام طه الكردي الباليساني فنوه بعدد منها، وكان مما ذكره خان قديم مر به في طريقه إلى بلدة البيرة، فوصفه بأنه: "كبير واسع في فلاة من الأرض" وأن: "على بابه مسجد مهجور بعضه خراب وبعضه عامر، ومنارة محكمة البناء بالحجارة". وأثارت هيئته رغبته في معرفة تاريخه وهوية مؤسسه، فقال: "دخلته وتأملت بناءه، ورأيت على حجارته ومنارته تاريخ عمارته واسم من عمره - رحمه الله- كان وزيراً من وزراء آل عثمان مر في زمانه بهذه الأرض فأمر بعمارة هذا الخان والمسجد جزاه الله تعالى عن الناس خيراً وشكر سعيه"[٤٣].

وأشار إلى خان على باب الشط في البيرة، وآخر بعيد عن الشط[٤٤]، ولاحظ مدى التشابه بين عمارة الخان وعمارة القلعة، فقال في حديثه عن معرة النعمان أن فيها "خان عامر كالقلعة على الطريق وفيه الناس"[٤٥]، وقال في أثناء حديثه عن قرية عيشة أن بناءه "كالقلعة نصفه للمسافرين ونصفه لأهلها وكبيرهم، وفي نصف المسافرين مسجد صغير وله منارة صغيرة، وبجنب جدار المسجد حوض ماء عذب واسع، وأخبرونا أن الماء هذا بعيد نبعه ساقه إلى هذا المكان المرحوم جناب سليمان آغا هو للناس الساكنين في هذا الخان،

---

(٤٣) الباليساني، ص ٦٠.
(٤٤) الباليساني، ص ٦١.
(٤٥) الباليساني، ص ٦٥.

وهو عمر المسجد الذي فيه وحوض الماء، وله قصر فوق باب الخان، وله مخادع وشبابيك تطل على الطريق إلى جهة الشام"(٤٦).

ووصف خان قطيفة بأنه: "كناية عن قلعة واسعة به برّاني وجوّاني، وتحدث عن مشتملات الخان فقال أن فيه "مسجد وحوض ماء، وفي دهليز الخان دكاكين يبيعون الشعير والخبز واللبن والبيض والدبس وغير ذلك على المسافرين"(٤٧)، وأبدى إعجابه بخانين في سرمين احدهما مقابل للآخر، وقال: "وهذان الخانان في غاية الإتقان والبناء" وأنهما "على طرف البلد"(٤٨)، وأشار إلى خان في قلعة بريج، وآخر في قرية حسة، وأثنى على دورهما في استتباب الأمن في الطريق، وقال أن بسبب رئيس خان بريج "ما أحد من الناس يخاف من العرب إن كان رائح إلى الشام أو جاي إلى الشام"(٤٩)، وذكر أن في قرية قارة خانين "الواحد خراب باقي منه بعض الجدران، والواحد ملصق بالقرية"، وحينما مر بقرية النبك لاحظ أن "بجانبها خان عظيم واسع محكم البناء، وفيه مسجد صغير وله منارة صغيرة، ويجري تحت ذلك الخان نهر ماء معين صافي كالزلال بارد حلو يُدوِّر حجر الطاحون"(٥٠).

وأشار عبد القادر المقدسي إلى عدد من الخانات التي نزل فيها في طريق رحلته من نابلس إلى اسلامبول، ووصف بعضها وصفاً جيداً فقال عن خان قديم قرب جلجولية أنه "كبير محكم البناء قديم، من آثار الإفرنج، والظاهر أنه كان كنيسة"()(٥١)فهذه الملاحظة ذكية كما ترى وتدل على فهم لا بأس به لتطور العمارة في هذه البلاد. كما نوه بخانات أخرى نزل بها مثل خان اللد.

---

(٤٦) الباليساني، ص ٧٠.
(٤٧) الباليساني، ص ٧٥.
(٤٨) الباليساني، ص ٦٦.
(٤٩) الباليساني، ص ٧٢.
(٥٠) الباليساني، ص ٧٤.
(٥١) المقدسي، الورقة ٥.

الجوامع والمساجد

اهتم الرحالون بالجوامع والمساجد التي يمرون بها في أثناء رحلاتهم، ليس بوصفها أماكن عبادة فحسب، وإنما لما توفره من جو مريح للتطهر وللتأمل وقضاء بعض الوقت متمتعين بدفئ رواقاتها شتاءً، ومتفيئين ظل سقائفها صيفاً، وكان (الاعتكاف) فيها سُنة محببة حرص كثير من الرحالين على اتباعها، وهو الأمر الذي أتاح لهم الاطلاع على عمارة هذه المنشآت، وتأمل ما تضمه من عناصر جمالية، بل قراءة ما سجله منشئوها عليها من كتابات تذكارية تسجل تواريخ إنشائهم إياها. من ذلك أن الرحالة الغزي إشار إلى جامع البحر، أحد جوامع دمشق، وقال أنه "يشقه نهر لطيف"(٥٢)، ونوه عند مروره عقبة بقراص بأن "هناك مسجد قديم البنيان"(٥٣).

ولم يفت المحبي في أثناء نزوله في القطيفة أن يشيد بما تضمه من مؤسسات خيرية أنشأها والي دمشق الشهير سنان باشا، من بينها "جامع ذو بناء مستحسن"(٥٤)، ونوه بالجوامع التي دخلها في المدن التي على طريقه، ومنها جامع راس العين، فوصفه بأنه كبير رحيب، كما نوه بجامع حمص الكبير(٥٥)، ولفت نظره منبره الأثري فوصف ما انتهى إليه في عهده، فقال "وقد رأيت أنا بجامع حمص منبراً معظماً قديماً حسنا مطعماً، وكأنه تخلخل وتضعضع وتقلقل وتقنع، فسُمِّرت بعرضه دفة بيضاء ثقيلة خشنة عريضة طويلة غير مجلوة ولا مصقولة"(٥٦).

(٥٢) الغزي، ص ٢٢٢.
(٥٣) الغزي، ص ٨٢.
(٥٤) المحبي، ص ٣٣.
(٥٥) الغزي، ص ٣٩.
(٥٦) الغزي، ص ٤٧.

ونوه إبراهيم الخياري بالمساجد التي مر بها، من ذلك أنه حينما وصف خان القطيفة أشار إلى وجود مسجد إلى جانبه "حسن قائم بناؤهما فائق وضعهما" وهما من إنشاء والي دمشق سنان باشا(٥٧). ولاحظ أنه يوجد بلصق الخان الكائن على طريق القنيطرة "مسجد لطيف"(٥٨)، وأن في عيون التجار "جامع حسن بمنارة مرتفعة".

وتطرق عبد الغني النابلسي إلى بعض المساجد المقامة عند الأضرحة التي كان يقصدها بالزيارة، وسكت عن غيرها، فقال في وصف الجامع الذي أمر بإنشائه السلطان سليم الأول عند قبر الشيخ الصوفي محيي الدين ابن عربي، بقوله: "ودخلنا إلى جامع السلطان الملك المنصور المؤيد سليم خان عليه الرحمة والغفران، ونزلنا إلى حضرة الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر الشيخ محيي الدين بن عربي.."(٥٩).

وذكر أن بالقرب من مزار الشيخ قُسَيم "مسجد لطيف"(٦٠)، وأن في قرية النبك "مسجد يقال أن أبا العباس الخضر رؤي فيه"(٦١)، وأن عند ضريح كعب الأحبار "مسجد لطيف، وقبره تحت حائط ذلك المسجد القبلي"، وأن قبري الصحابيين وحشي وثوبان في حمص هما في "جامع كبير فيه منبر ومنارة، يسمى جامع السر، أحدهما بجانب الآخر وعليهما قبة واحدة صغيرة"(٦٢). وأنه وجد قبر من يدعى مسعود المغربي في "مسجد هناك لطيف"(٦٣).

---

(٥٧) الخياري، ج ٢، ص ١٦٢.
(٥٨) الخياري، ج ٢، ص ١٦٣.
(٥٩) النابلسي، ص ٧٤.
(٦٠) النابلسي، ص ٨١.
(٦١) النابلسي، ص ١٠٢.
(٦٢) النابلسي، ص ١١٤ و١٢١.
(٦٣) النابلسي، ص ١٢٢.

وتحدث عن جامع الشرفاء حيث دفن أحد الصالحين، وصرح بتسميته الأولى، فقال هو: "جامع يسمى سابقا جامع الأكراد، وهو الآن مشهور بين أهل حمص بجامع الشرفاء، وفيه منبر ومنارة، وفيه قبر يقولون أنه دفن فيه الشيخ عمرو"(٦٤)، وأن قبر أبي موسى الأشعري في "مسجد صغير هناك"، وأن قبر عكاشة بن مُحصن في "مسجد صغير فيه محراب"(٦٥)، وقبر أبي يزيد البسطامي في "جامع بمحراب ورواقات وعمارات للخدام والمجاورين"(٦٦)، وأن جامع إبراهيم بن أدهم "من أعظم الجوامع.. وله منبر ومنارة"(٦٧)، وأن قبر الشيخ العليمي "في جامع هناك له مبارك، وعليه قبة وعنده منارة"، وتطرق إلى عمارة حديثة جرت عليه، فقال "وقد كان انهدم جامعه فعمره الشيخ محمد والد الشيخ أبي الهدى المذكور وعمر له منبراً للخطبة"(٦٨)، ووصف مزار الفضل بن العباس بأن "عنده جامع فيه قبة"، وأن "الجامع المبارك المسمى بالجامع الأبيض وهو جامع كبير متهدم.. يقال أن تحته خال كالمسجد الأقصى، ويقال أن نبي الله صالح عليه السلام مدفون هناك"(٦٩).

ووصف مسجدا مطلا على نهر الغضبان وصفاً جميلا، حدد فيه موقعه من النهر، وشكله العام، فقال أنه "لطيف البناء، ظريف الفناء، فيه رواق مطل على نهر جار فيه ماؤه سلسال، عذب رائق زلال يسمى بنهر الغضبان، وهو تارة ناقص وتارة ملآن، وذلك المسجد مُكتَنف بجسرين عاليين مبنيين بالحجارة يدخل الداخل من كل جسر منهما في باب من أبواب المدينة إلى جهة ذات عمارة"(٧٠).

(٦٤) النابلسي، ص ١٢٢.
(٦٥) النابلسي، ص ١٢٣.
(٦٦) النابلسي، ص ١٣٨.
(٦٧) النابلسي، ص ١٧٣.
(٦٨) النابلسي، ص ٣٩٩.
(٦٩) النابلسي، ص ٤٠٠.
(٧٠) النابلسي، ص ٢٠٦.

وحينما دخل مسجداً في قلعة حسية لاحظ وجود كتابات على الحائط القبلي "بخط بعض الناس" وأن في آخر تعليقة منها عبارة تقول "كتبه عطاء الله القاضي بدمشق الشام"(٧١). ولفت نظره تصميم الجامع الكبير في غزة، وتوصل إلى "أن أصله كان كنيسة"(٧٢)، وقال أن جامع شهاب الدين أحمد بن عثمان "جامع مبارك عظيم الجوانب والبنيان(٧٣)"، وتوقف عند جامع الجاولي في غزة، فوصفه بأنه "جامع كبير واسع، جميعه مبني بألواح الرخام وأحجار السماقي في أول الزمان، وهو خراب الآن، والرخام ساقط حول جدرانه وفي صحنه الخارج من عدم تقيد النظار عليه بعمارته ومرمته.. وأنه خرب اليوم، وهو منفصل عن العمران، وقد ردموا بابه واستغنى الناس عن الصلاة فيه"(٧٤)، وذكر أنه في خارج قلعة القدموس "جامع واسع عظيم فيه محراب ومنبر ومنارة"(٧٥). وعني عبد الله السويدي بذكر المساجد والجوامع التي مر بها في أثناء رحلته، فأظهر إعجابه الشديد بجامع السليمانية في دمشق، الذي "بناه المرحوم السلطان سليمان"، وعده من عجائب دمشق، بل "من عجائب الدنيا" ووصفه بقوله: "هو جامع جليل تحيط به البساتين من جوانبه الأربعة، في وسط صحنه بركة ماء واسعة فيها خمس فوارات، وفيه مطبخ يطبخ فيه الطعام، وله حجر متعددة، سقوف قبابها مطلية بالرصاص، وكذا قبة الجامع، وله منارتان حسنتان.. إلا أن مصلاه صغير"(٧٦).

وكان عبد القادر المقدسي حريصاً أيضاً على أن لا تفوته بركة الصلاة في مساجد المدن والقصبات والقرى حيثما مكنته الظروف من الإقامة فيها، وقد

---

(٧١) النابلسي، ص ١٠٥.
(٧٢) النابلسي، ص ٤٣٤.
(٧٣) النابلسي، ص ٤٣٧.
(٧٤) النابلسي، ص ٤٣٧.
(٧٥) النابلسي، ص ١٦٨.
(٧٦) السويدي، ص ٣١٩.

جاء وصفه لبعض هذه المساجد دقيقاً. من ذلك مثلاً كلامه على جامع الرملة الكبير إذ قال" وجدته جامعاً محكم البناء، وله صحن واسع، وفي وسط الصحن قبة شاهقة، وهو ثلاثة أكوار ممتدة من المغرب إلى المشرق، وأما الكور الأوسط فإنه أعلى من اللذين من جانبيه، والمنبر من الرخام، وهو مقابل للباب، وفوق الباب سُدّة المؤذنين"[٧٧] ولم يفته أن يقارن بينه وبين جامع آخر في مدينة نابلس، من حيث التصميم، فقال" وهذا الجامع يشبه جامع النصر الذي هو في مدينة نابلس في جميع بنائه وأكواره وإحكامه، لأنهما كانا كنيستين في زمن الإفرنج، ولما فتح المسلمون بلادنا عملوا غالب الكنائس جوامع". ومثل ذلك وصفه لجامع يافا الكبير الكائن في شمالي المدينة القديمة بأنه "مربع الأركان، وعلى دائر الصحن أروقة من كل الجهات، وفي كل رواق من الجهة الغربية حجرة لطلبة العلم، وفي وسط الصحن مزولة تعرف منها الأوقات"[٧٨] بل أنه نصَّ على هوية مؤسسه، وما كان عليه قبل عمارته، فقال "وكان قد عمَّره وشيَّده محمد باشا أبو نبُوت، وكان قبل عمارته آل إلى الخراب، ولما عمَّره المذكور زاد في صحنه وأوقف عليه أوقافاً". وهذه إشارة إلى قيام محمد أبو نبوت بإزالة سجن المحمودية الذي كان قائماً شمال المسجد وإدخال أرضه في صحنه[٧٩].

المدارس والتكايا

لم تمثل المدرسة أولوية تذكر لدى الرحالين الأوائل الذين مروا بالمدن في بلاد الشام، ربما لغلبة اهتماماتهم الصوفية على وجدانهم، فلم يشر محمد الغزي إلا إلى مدرسة واحدة من مدارس حلب الكثيرة هي المدرسة الشرفية، وهي إشارة

(٧٧) المقدسي، الورقة ٦.
(٧٨) المقدسي، الورقة ٩.
(٧٩) محمد باشا أبو نبوت من أشهر ولاة يافا، نال رتبة الوزارة سنة ١٢١٩هـ/١٨٠٤م وله إصلاحات مهمة في يافا وفي بيروت وفي أماكن أخرى.

عابرة، ومثله مصطفى البكري في رحلته إلى القدس، إذ لم يذكر من مدارس هذه المدينة إلا المدرسة الأسعدية التي بناها أسعد أفندي مفتي ديار الروم[٨٠]. أما في رحلته (كشط الصدأ وغسل الران في زيارة العراق وما ولاها من البلدان) فقد أشار في أثناء مكوثه في حلب إلى المدرسة الخسروية، وهي أول مدرسة عثمانية أنشئت في هذه المدينة، إذ أمر بإنشائها السلطان سليمان القانوني وعهد إلى المعمار سنان باشا بوضع تصميمها وأشرف على إنشائها والي حلب خسرو باشا سنة ٩٥١هـ/١٥٤٦م[٨١] وكانت هذه المدرسة تشمل عدداً من الحجرات أعدت لنزول الزائرين، فقال "ونزلنا في الخسروية رحم الله بانيها وأسكنه المنازل العلوية"[٨٢]، ونوه بأسماء عدد كبير من العلماء والصوفية الذين قصدوا زيارته في هذا المكان، مما يمكن القول بأن المدرسة كانت تمثل المأوى المناسب والهادئ للعلماء الذين يمرون بالمدينة، أمثال البكري، ليبيتوا فيه مدة مكوثهم فيها، حيث جرى الحصول على الإجازات من الشيوخ، واستنساخ ما ألفوه من الرسائل التي يتسع الوقت إلى نسخها.

وبالمقابل، فإننا وجدنا عبد الله السويدي، الذي كان كبير مدرسي بغداد، يظهر اهتماما شديدا بالمدارس ومستوى ما كان يدرس فيها وبأوقافها المرصدة للأنفاق عليها، فقال عن المدرسة الملحقة بجامع السليمانية بدمشق أنها "ذات حجر كثيرة، في صحنها بركة ماء، عشر في عشر، ذات فوارات خمس، وموضع التدريس قبة واسعة تفتح شبابيكها على البساتين من الجوانب الأربعة، وجميع قباب الحجر وسطوحها مصفحة بصفائح الرصاص، بحيث أن الرصاص الذي فيها يقاوم مالا عظيماً لا يحصى، وسمعت ممن جاب البلاد أنه قال: ما في

---

(٨٠) البكري.
(٨١) موقع (جواهر حلب) وموقع (وزارة الأوقاف السورية).
(٨٢) كشط الصدأ وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من بلدان، الورقة ٣.

مملكة آل عثمان مثل هذه المدرسة" ولكنه انتقد إدارتها بقوله: "لا عيب فيها سوى أن أصوات العلم فيها خامدة، ولا يصرف عشر العشر من أوقافها، وإنما يأكله الجهلة، نعوذ بالله من ذلك"[٨٣].

وفضلا عن المدارس، فقد عني العثمانيون بإنشاء التكايا في عدد من المدن التي امتدت إليها سلطتهم، لا سيما تكايا البكتاشية الخاصة بالضباط والجنود المنتسبين إلى اورطات الينكجرية، وتكايا المولوية، وكلاهما وجد انتشاره في الشام منذ دخول العثمانيين إليها، وقد أشار الرحالة الغزي إلى تكية المولوية في دمشق[٨٤]، وذكر المحبي أن مما أنشأه والي دمشق الوزير سنان باشا في قرية القطيفة في شمالي دمشق "تكية لطيفة سامية"[٨٥]. كما أشار إلى" زاوية القطب الرباني سيدي وملاذي حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني.. وفيها الآن جماعة من ذريته وولده"[٨٦].

ووصف الرحالة إبراهيم الخياري التكية التي في قرية سعسع الواقعة على الطريق بين دمشق والقنيطرة فقال أنها عامرة "جار لها بعض المرتب، ويتبطن المنزل نهر عذب"[٨٧]، وكان الغزي قد ذكر أن هذه التكية هي من إنشاء سنان باشا والي دمشق المتقدم. وأعجب بالمطبخ الملحق بالتكية الملحقة بخان الشغر، وقال أنه" محل الطبخ به قدران عظيمان يطبخ فيهما كل يوم طعام ويوزع في طياس[٨٨] من النحاس للفقراء المقيمين والواردين"[٨٩]. ووصف

(٨٣) السويدي، ص ٣١٩.
(٨٤) كبريت، ص ٢٢٢.
(٨٥) المحبي، ص ٣٣.
(٨٦) المحبي، ص ٤٠.
(٨٧) الخباري، ج ٢، ص ١٦٢.
(٨٨) جمع طاس.
(٨٩) الخياري، ج ١، ص ١٨٧.

خان بيلان بأنه "خان كبير ينزله المسافرون شتاء" وأنه والمسجد المقابل "كلاهما من إنشاء مولانا السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان"(٩٠).

وذكر عبد الغني النابلسي أن في قرية النبك "تكية للمسافرين"(٩١)، أنشأها صالح باشا الموستاري نائب الشام، وهو مصطلح جديد، ربما كان يعني دارا مخصصة للإقامة والتعبد فترات أطول مما تتيحه الخانات عادة. ونوه بالزاوية القادرية في حماة وذكر أنها "مطلة على نهر العاصي"(٩٢)، كما أشار إلى زاوية المغاربة في جنوب طرسوس، حيث دفن أحد صلحائهم(٩٣).

وأشار طه الكردي الباليساني إلى الزاوية التي عمرها والي دمشق أسعد باشا العظم، وكانت "قبة قهوته الكائنة خارج باب الفراديس على نهر الشام المسمى برده".

الأضرحة والمشاهد

كانت قبور الأولياء والصالحين تمثل قيمة روحية وأخلاقية عالية في مجتمع ذلك العصر، فهي تقصد لزيارتها أولا، وقراءة سورة الفاتحة على أرواح أصحابها، والدعاء عندها، تبركاً بقدر أولئك المدفونين فيها، وكان الرحالون يقصدونها لكل تلك الأسباب، بل كانت هي سبباً لرحلاتهم أحياناً، أمثال مصطفى بن كمال الدين البكري وعبد الغني النابلسي.

ويعد الأخير أنموذجا لأولئك الرحالين، فهو قد صرح في مقدمته أن هدف رحلته هو التبرك بزيارة أصحاب الأضرحة ليس إلاً، وحقق هذا الهدف فعلا، فقد أحصى كل قبر في البلاد التي مر بها، وتجشم العناء الكبير في زيارتها، والتبرك بها، حتى لو استقر عنده أن منها ما لم يكن لأصحابها، وإنما هي

(٩٠) الخياري، ج ١، ص ١٩٢.
(٩١) النابلسي، ص ١٠١.
(٩٢) النابلسي، ص ١٥٤.
(٩٣) النابلسي، ص ٢٠٤.

منسوبة إليهم، وهكذا فإنه وصف غالباً تلك الأضرحة، وبدأ بقبر جده إسماعيل فعين أن من عمرها هو "المرحوم درويش باشا صاحب الجامع العظيم المشهور في دمشق الشام"، يريد به والي دمشق درويش باشا بن رستم باشا، الذي تولاها من ٩٧٩ إلى ٩٨٣هـ/ ١٥٧١-١٥٧٥م، ولما يزل جامعه هذا من أهم الجوامع العثمانية في دمشق. وقال أن جَدّه المذكور كان "أول من دفن فيها في القبر الكبير الذي له شباك من الحجر المنحوت مطل على الطريق"[٩٤]، وذكر أن قبر عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق "عُمّرت عليه عمارة مشهورة عند أهل الشام".

وسجل إعجابه الشديد بالعمارة التي أقامها السلطان سليم الأول على قبر الصوفي الشيخ ابن عربي، ووصف هيئة هذا القبر من تلك العمارة فكشف عن أن للشيخ قبرين" قبر مسامت لأرض الجامع المذكور، يدخل إليه من باب في داخل الجامع معقود عليه القبة الشريفة، وعليه هيبة وجلالة منيفة، وقليل من الناس من يعرفه ويزوره منه، وكان الناس قديماً يزورونه منه، ثم رأوا في ذلك حَرَجا من غلق الأبواب التي في داخل الجامع، فعدلوا عنه إلى القبر الثاني الذي هو الآن مشهور به على مسامتة ذلك القبر الذي في المكان الحالي، والقبر الثاني ينزل إليه بدرج من خارج الجامع المذكور، وعليه قبة معقود بالأحجار يسامت أرض الجامع"[٩٥]، وذكر أن مزار الشيخ قسيم "عليه قبة قد بنيت"[٩٦]، وأن مزار الشيخ حابس "عليه عمارة لطيفة الطول والعرض، وليس له في داخل قبته قبر معين على وجه الأرض"[٩٧]، وأن سعد بن أبي وقاص "مدفون في داخل جامع صغير، عليه قبة صغيرة"[٩٨]، وأن قبر مسعود المغربي "عليه قبة معقودة"، وأن قبر الشيخ محمد السرجاوي "عليه قبة صغيرة"، وأن

---

(٩٤) النابلسي، ص ٤٩.
(٩٥) النابلسي، ص ٧٤.
(٩٦) النابلسي، ص ٨٩.
(٩٧) النابلسي، ص ١٠٠.
(٩٨) النابلسي، ص ١١٤.

قبر السيدة تاجة "قبر متهدم عليه بعض عمارة"، وأن قبر والدة إبراهيم بن أدهم "قبالتها محراب كبير عال، وعليها عمارة أصلاً"، وأن مزار عبد الله المغاوري "مزار على شط البحر وعليه قبة صغيرة"، وعند حديثه عن مزار الشيخ الأوزاعي ذكر أن من عمرته" امرأة من بيت سبفا"، ووصف داخله بأن "عليه قبة وفيه محراب.. وعلى الجانب الأيسر من المحراب طاقة صغيرة تدل على قبر الشيخ، ومدفون تحت الحائط القبلي وقبره ظاهر إلى الخارج"(٩٩)، وذكر أن قبر عثمان الكردي في "قبة بيضاء عظيمة"(١٠٠)، وأن مقام صيدون "فيه قبره، وعليه قبة مبنية"(١٠١)، وأن على قبر نبي الله صالح "قبة مبنية تطأطئ من خلالها الرؤوس"(١٠٢)، وأن قبر الشيخ محمد العَلَمي "في داخل قبة، وعنده عمارة عظيمة، وجامع شريف، بمنارة عالية فوق الجبل"(١٠٣)، وأن قبر الشيخ ريحان "في داخل قبة بناها الشيخ خير الدين المفتي"(١٠٤)، ووصف مقام علي بن عليم في "في ساحة واسعة تحيط بها جدران أربع، ولها باب مقفل في غير أيام الزوراء" وقال أن "القبر الشريف مبني بالرخام وحوله تأزير منيف في جانب من تلك الساحة السماوية، وفي قبلتها عقد من القبو غربا يشرق فيه المحراب"(١٠٥) ومثل ذلك كثير(١٠٦).

---

(٩٩) النابلسي، ص ٢٤٥.

(١٠٠) النابلسي، ص ٢٥٤.

(١٠١) النابلسي، ص ٢٥٨.

(١٠٢) النابلسي، ص ٢٩٥.

(١٠٣) النابلسي، ص ٣٤٠.

(١٠٤) النابلسي، ص ٤٠٠.

(١٠٥) النابلسي، ص ٤١١.

(١٠٦) تنظر مثلا الصفحات ٤١٩ و٤٢٠ و٤٤٣ و٤٢٤ و٤٢٥ و٤٢٨ و٤٣٤ و٤٣٥ و٤٣٦ و٤٥١ و٤٥٣ و٤٥٥٥ و٤٦٨.

الحمامات

تعد الحمامات التي كان يُنشئها المحسنون في المدن، أو في الخانات التي في الطرق التجارية، من المنشآت المهمة التي أفاد منها الرحالون أثناء انتقالهم بين المدن والقرى والمفاوز، ففيها يمكن للرحالة أن ينفض عنه وعثاء الطرق وغبارها، بل أن يجد فيها المياه المُسَّخنة في الشتاء، وما يحتاجه من راحة في الصيف، وكان إنشاء مثل هذه المرافق الخدمية يجري غالباً ملحقا بالخانات الكبيرة في الطرق، حيث يؤمها الرحالون مجاناً، أو مستقلة في المدن التي يمكن التمتع بخدماتها لقاء شيء من المال. من ذلك أن الرحالة محمد كبريت المدني أشاد بحمام مصطفى باشا في دمشق، فعده من محاسن الشام، وقال: "إنه لا نظير له في تلك الأقطار ولا مُداني، وذلك لما اشتمل عليه من حُسن الصنعة ومحاسن المباني"[١٠٧]. وأبدى إعجابه بما في بلدة سراقب من الحمامات[١٠٨].

ووصف عبد الغني النابلسي حماماً دخله في حماة فقال أنه بقرب الجسر، وقال: "تنعمنا بأنواع الأنعام، ولم تخل من طرائف التلاحين"[١٠٩]، وأن في قلعة طرابلس "حمام لطيف، عذب الماء، نقي نظيف"[١١٠].

وأظهر عبد القادر المقدسي إعجابه الشديد بحمام السراي في بيروت، وكان قد دخله واغتسل فيه، فقال "وجدناه في غاية التنظيم، وفي دائرة التخوت الخشب، وعلى كل تخت طراحة، ومن فوقها سجادة... ودخلنا بيت الحرارة فوجدناه فرجة للناظرين، وفي وسطه مصطبة مربعة الأركان نحو خمسة أذرع

(١٠٧) كبريت، ص ٢٢٤.
(١٠٨) كبريت، ص ٢٠٣.
(١٠٩) النابلسي، ص ١٥٤.
(١١٠) النابلسي، ص ٢٢٠.

في خمسة أذرع، وارتفاعها ذراع، يجلس عليها من يشرب الدخان والتنباك والقهوة.. وسائر بلاطه من الرخام، وهو في غاية الإتقان"(١١١).

البرك والأحواض والسقايات

توفر البرك وأحواض المياه والسقايات للمسافرين الماء الصالح للشرب، أو للحفظ في أوان خاصة لينقل على ظهور الدواب، ولما كان إسقاء الماء يعد أكثر الأعمال ثوابا، فقد حرص كثير من المحسنين على إنشاء مشاريع الشرب الأنيقة على الطرق الخارجية، كما حرص بعضهم على تخليد ذكراهم بكتابات تذكارية تدون في أماكن ظاهرة من سقايات الشرب طلباً لترحم الشاربين.

ذكر محمد الغزي أن بظاهر حمص على نحو ميل "بركتها المعظمة التي تصاد منها السمك الكبار"(١١٢).

والتفت الرحالة إبراهيم الخياري إلى بعض تلك المشاريع، فقال عن منطقة تقع على الطريق بين القنيطرة وعين التجار بأنها تضم الجب الذي ألقي فيه النبي يوسف، ووصف هذا الجب بأنه "مبني بالحجارة المنحوتة.. وفي أعلاه قبة مرتفعة ذات أركان أربعة وأبواب.. وفي أعلاه قبة مرتفعة ذات أركان أربعة وأبواب كذلك، والقبة فوق الجب تمنع سقوط المطر ونحوه بها"(١١٣). ووصف البركة التي بالقرب من بيت لحم بأنها "بركة عظيمة، ويقال أن قريباً منها بركتان أخريان، وأن ماء بيت المقدس ينصرف إليه من هذه"(١١٤).

---

(١١١) المقدسي، الورقة ١٢.
(١١٢) الغزي، ص ٤٤.
(١١٣) الخياري، ج ٢، ص ١٦٤.
(١١٤) الخياري، ج ٢، ص ١٩٦.

ووصف مصطفى البكري هذه البرك بقوله أن عددها ثلاث برك، كل واحدة عليا أكبر من أختها السفلى، وثمة بركة بجانب جب يوسف، ووصفها بأنها "بركة واسعة الجوانب"(١١٥).

وكان المؤسسون حريصين على تزويد الخانات والقلاع بمصادر المياه، وفي هذا ذكر الخياري أن القلعة الكائنة في ناحية عيون التجار يحيط به سور يضم منشآت خدمية وبيوت "وماء عذب يستقي النازلون منه"(١١٦)، وأنه يوجد في مدينة الرملة "بركة عظيمة عند منزل الحجاج تمتلئ من ماء المطر"(١١٧). وأضاف عبد الغني النابلسي أن الماء يجري "في طريق له بين تلك الجبال والأودية مغطى بالبنيان عليه، حتى يصل إلى حرم بيت المقدس، ويخرج من الكأس الرخام الذي هو لديه"(١١٨)، ووصف النابلسي بركة في جنوب طرسوس تسمى بركة البداوي بأنها "بركة كبيرة فيها أسماك كثيرة، وقد أخبرنا أن سمكها لا يصاد، وكل من صاده وأكل منه يمرض وذلك ببركة الشيخ البداوي المدفون هناك على حافة البركة"(١١٩)، وأشار إلى بركة عند تكية المولوية في جبل لبنان "يجري إليها الماء في نهر هناك عال في ذيل ذلك الجبل يمر في الجهة العالية من تلك التكية.. وفي ذلك الوادي طواحين على تلك الأنهار دائرة"(١٢٠)، وحينما زار مدرسة الأوزاعي رأى هناك "الحمام الذي مات فيه الأوزاعي"، واستدرك قائلا "وهو الآن خراب وقد تهدم بعضه"(١٢١).

---

(١١٥) البكري.
(١١٦) الخياري، ج ٢، ص ١٦٤.
(١١٧) الخياري، ج ٢، ص ١٧٠.
(١١٨) النابلسي، ص ٣٥٣.
(١١٩) النابلسي، ص ٢١.
(١٢٠) النابلسي، ص ٢٠٦.
(١٢١) النابلسي، ص ٢٣٥.

وعني عبد الله السويدي بقراءة ما كان يكتب على السقايات، أو السبيلخانات، من كتابات تؤرخ لها، من ذلك أنه حينما دخل خان أسعد باشا العظم في حماة سجل كتابة على طاقها تتمثل بثلاثة أبيات من الشعر يحمل آخرها تاريخ التأسيس، وهي:

خليلي قف جنب السبيل فقد ندا واشرب بماء السلسبيل مبردا
وادع لمن أنشأه دعوة صالح بدوام ملك لا يزال مؤبدا
بالسعد والأفراح قد أرخته فالأجر يبقى والثواب الأسعدا

كما أنه نوه بعيون للماء وبرك، منها عين الزرقاء وبركة القطراني، وقد قال فيها أنها "بركة عظيمة مشرفة على الخراب تمتلئ من ماء المطر"(١٢٢).

القلاع والحصون

تغيرت وظائف القلاع والحصون في بلاد الشام في العصر العثماني عنها في العصور السابقة، فلم تعد مهمتها الدفاع عن البلاد ضد غزو خارجي محتمل، وإنما لحماية الداخل من أخطار قطاع الطرق والخارجين عن القانون من زعامات القبائل الثائرة، ومن هنا فقد تداخلت مهامها مع خانات الطريق، فباتت تمثل محطات يأوي إليها المسافرون من تجار ورحالين، لما توفره من أمن قوامه حصانة المكان من جهة ووجود قوى عسكرية وظفت لهذا الغرض، وقد عُنيت الدولة العثمانية بتأسيس هذه القلاع في الفلوات الموحشة لا سيما على طريق الحج، وتجهيزها بالجنود اللازمين لحمايتها وما يحيط بها، وإبدالهم بغيرهم في أوقات دورية منتظمة.

---

(١٢٢) السويدي، ص ٣٥٧.

وقد عبر المحبي عن شعوره بالأمن حين قدم إلى قلعة حسية بقوله "فقدمناها ونحن من اللصوص في خشية"[(١٢٣)]، وذكر أن في مكان يسمى عيون التجار "قلعة عامرة على تل مرتفع"[(١٢٤)]، وأن في قاقون قرب الرملة "قلعة على تل عال"[(١٢٥)]، وقال عن القلنسوة أنها "قلعة... بها واقعة مشهورة"[(١٢٦)].

وإذا لم تكن القلعة تتخذ وظيفة الخان، ففي الأقل تبنى الخانات قريبة منها لتكون في حماها. وفي هذا يذكر الخياري في وصفه منطقة قاقون أنه على يسار المار فيها قلعة، وعلى يمينه خان، وأن بيت جبرين بها "قلعة وخان خرب"، مما أكد اقتران القلعة بالخان في مهمة إيواء المسافرين وحمايتهم. ووصف قلعة معان بأنها "قائمة البناء يسكنها جماعة من أهل البلاد لا طائفة من العسكر كغيرها من القلاع لعدم الاعتناء"[(١٢٧)]. وذكر أن قلعة القطراني "قلعة عظيمة البناء لائحة الإشراق والسناء.. بها جماعة من أهلها مقيمون بها يبيعون منها التبن وما يناسبه من أعلاه"[(١٢٨)].

ووضح عبد الله السويدي مهام هذه القلاع حين ذكر وهو في طريقه إلى الحج منطقة المزاريب فقال أن "قلعتها حول عين منخفض واديها تجري فيه السيول" وذكر أنه أقام فيها أياما، وقال عن القطراني أن "فيها قلعة صغيرة، فيها حُرّاس، وعادة الحجاج يضعون أمتعتهم من زاد وغيره فيها ليأخذوها إذا رجعوا"[(١٢٩)]، وكانت هذه القلعة قد أمر بإنشائها السلطان سليمان القانوني سنة ٩٦٧هـ/١٥٥٩م لحماية الحجاج. وذكر مثل ذلك عن قلعة عنزة إذ قال أنها

(١٢٣) المحبي، ص ٣٥.
(١٢٤) الخياري، ج ٢، ص ١٦٤.
(١٢٥) الخياري، ج ٢، ص ١٦٨.
(١٢٦) الخياري، ج ٢، ص ١٦٥.
(١٢٧) الخياري، ج ١، ص ٨١.
(١٢٨) الخياري، ج ١، ص ٨٥.
(١٢٩) السويدي، ص ٣٥٧.

"قلعة ينزلها الحاج الشامي، وفيها حرس وبركة تمتلئ من المطر، وعادة الحجاج [أنهم] يودعون بعض أمتعتهم فيها ليأخذوها إذا رجعوا"(١٣٠). ويدل هذا الصنيع على مبلغ ثقة الحجاج بنزاهة الحراس والجنود الموكلين بحفظ ذلك المتاع من أن تمتد أيديهم إلى ما ائتمنوا عليه.

وقد تسمى القلعة قصراً، فقد ذكر السويدي أن حول عين الزرقاء "قلعة صغيرة تسمى بقصر شبيب وفيها حُراس يتعاقبون كل عام"(١٣١). وهذه القلعة يعود بناؤها إلى العصر العثماني.

خاتمة

قدم الرحالون المسلمون الذين سافروا عبر بلاد الشام معلومات مهمة، عبرت عن اختلاف ثقافتهم، والغايات المتنوعة من رحلاتهم، وتشمل هذه المعلومات:

١- تعيين مواقع المنشآت في المدن، أو في الطرق الخارجية.

٢- تسجيل النصوص التذكارية التي دونها المؤسسون على تلك المنشآت تخليداً لما قاموا به من محاسن الأعمال النافعة. وبعض هذه النصوص قد زال فيما بعد.

٣- الوصف العام لشكل المنشآت الخارجي، ارتفاعها وفخامة مظهرها وما أضيف إليها من القباب والمآذن.

٤- وصف دواخل تلك المنشآت من الحجر والأواوين والقباب والأعمدة وغير ذلك.

(١٣٠) السويدي، ص ٣٥٩.

(١٣١) السويدي، ص ٣٥٥.

٥- ما كانت تقدمه تلك المنشآت من خدمات عامة، لا سيما الخانات والسقايات، وطبيعة إدارتها من خلال سلوك متولي أوقافها والقائمين عليها.

٦- تعيين مؤسسي تلك المنشآت من الوزراء والأمراء والسلاطين والصدور العظام.

٧- حالة المنشأ في وقت زيارته، إن كان عامراً أو خرباً، آهلاً أو متروكاً.

٨- أصل المنشأ إن كان مقاماً أم كنيسة أو غير ذلك، وما أحيط به من كرامات وبركات.

وهكذا فإن أدب الرحلات العربية يقدم مادة غنية عن المعالم العمرانية في بلاد الشام إبان العصر العثماني، فيه من التوثيق، والوصف، والملاحظة، ما من شأنه أن يكون موضع عناية الباحثين في هذا الضرب من فنون الأدب.

[illegible] وعادة

[illegible] ويدل

هذا المشتبع على مبلغ ثقة الحجاج بنزاهة الحراس والجنود المكلفين بحفظ

[illegible]

وقد تسمى القلعة قصراً، فقد ذكر السويدي [illegible] "قلعة

[illegible]

[illegible]

خاتمة

قدم الرحالون المسلمون الذين سافروا عبر بلاد الشام معلومات مهمة عبرت عن اختلاف ثقافتهم والغايات المتنوعة من رحلاتهم وتضمنت هذه المعلومات:

١- تعيين مواقع المنشآت في المدن، أو في الطرق الخارجية.

٢- تسجيل النصوص التذكارية التي دونها المؤسسون على تلك المنشآت تخليداً لما قاموا به من مختلف الأعمال النافعة، وبعض هذه النصوص قد زال فيما بعد.

٣- الوصف العام لشكل المنشآت الخارجي، ارتفاعها وفخامة مظهرها وما أضيف إليها من القباب والمآذن.

٤- وصف دواخل تلك المنشآت من الحجر والأواوين والقباب والأعمدة وغير ذلك.

---

(١٣٠) السويدي، ص ٢٥٩

(١٣١) السويدي، ص ٢٥٩

دور العوامل السياسية والاجتماعية في تطور العمارة العثمانية في بلاد الشام

"حلب ودمشق أنموذجا دراسة تاريخية (١٥٥٠ - ١٨٠٠م)"

عبد الرحمن محمد جيلان صغير*

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي محمد وعلي آله وصحبه أجمعين، أما بعد...

اكتسبت بلاد الشام أهمية كبيرة للدول الطامحة والطامعة في التوسع، لأنها تحتل موقعاً استراتيجياً مهماً على البحر المتوسط، وهي حلقة وصل بين قارة آسيا وأوروبا وأفريقيا، إذ أنها المتنفس البري للدولة العثمانية إلى الحرمين الشريفين وإلى الشمال الأفريقي بالإضافة إلى كونها مركزاً مهماً للتجارة في هذه الحقبة الزمنية، ولذا فقد اكتسبت أهمية بالغة لدى الدويلات القديمة، فتنافست في السيادة عليها، ولم يقتصر الحال على الدويلات المحلية فحسب، بل تدخلت قوى أخرى خارجية، ونافست الدويلات المحلية وسيطرت عليها حقبة من الزمن، ولما كانت بلاد الشام بهذه الأهمية التجارية، فإن كبار التجار من الأقطار الإسلامية تهافتت عليها واهتمت بها من أجل أهداف تجارية بحتة، ولذا فقد أدت هذه الحركة المتواصلة في بلاد الشام إلى دفع التجار إلى مواكبة التطورات التجارية فطوروا في جانب البناء، لأن الاحتياجات إلى المباني للتخزين والتسوق أدت إلى الاهتمام بهذا الجانب، وتداخلت الاحتياجات مع العوامل السياسية والاجتماعية فشكلت أحد ركائز تطور البناء وتميزه، إذ أن

(*) الدكتور.

الدولة العثمانية قد دفعت وبقوة في تشييد المباني العامة والأسواق ودور العبادة والمدارس وغيرها من المرافق لسد الاحتياج ولفت أنظار الجماهير إلى عظمتها وقوتها.

وعلى الرغم من أن البناء ارتبط بالعوامل الاجتماعية منها؛ التجمعات السكانية، الأسواق دور العبادة، مؤسسات الدولة، وغيرها من المنشآت الحيوية التي ساهم في تشييدها المجتمع بكل فئاته وهو بذلك يشكل أحد ركائز التميز والتنوع في هذه الحقبة التاريخية من تاريخ بلاد الشام في عصره العثماني، ومن يتتبع هذه الحقبة يشاهد أن الأمر لم يكن قاصراً على عامل الحاجة فحسب، بل هناك عوامل سياسية أثرت في شكل البناء، إذ أن تعدد الدويلات المحلية، وتلك التي قدمت من الخارج، قد أثرت في التنوع في أشكال العمران وجلبت معها تقنيات مختلفة عما هي عليه في بلاد الشام.

وقد لعبت العوامل الجيولوجية والمناخية والاجتماعية والثقافية الدور نفسه في توجيه البناء في تلك الحقبة الزمنية.

كما أن أهمية بلاد الشام كموقع ومركز تجاري يدر الدخل قد دفع الطامعين إلى مهاجمتها، وهذا الوضع حتم على القائمين عليها اتخاذ التدابير الدفاعية ذات الطابع العسكري من إقامة المحارس والأسوار وسد بعض الفجوات التي يتسلل منها العدو، وهذا عامل آخر ساهم في توجيه شكل البناء ومواده المستخدمة في هذه الحقبة المناطة بالدراسة.

ويمكن توضيح ذلك من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: دور العوامل السياسية

والمقصودُ بالعوامل السياسية هي تلك المتغيرات الطارئة على بلاد الشام، والمتمثلة بتقلب الدول والحكام وتداخلها بين العوامل المحلية والإقليمية والدولية -إن جاز التعبير- فلذا كانت هذه المتغيرات السياسية كفيلة بالتأثير على

النسيج العمراني وتطوره. ونعرض لذلك من خلال، (الدولة بالمؤسسات العامة، التكايا، الأسواق، المساجد، المياه، تخطيط المدن، الاهتمام بالأمن وغيرها...).

وشهدت الشام في أوائل القرن السادس عشر الميلادي تغيرات كبيرة في بنيتها السياسية فأصبحت منذ عام ١٥١٦م، تحت نفوذ دولة عالمية كبيرة هي الدولة العثمانية بعد سقوط دولة المماليك ومن الطبيعي أن تستفيد بلاد الشام ذات الموقع المهم جداً للدولة العثمانية والتي أصبحت تتوسط أملاكها الممتدة من اليمن في أقصى جنوب جزيرة العرب إلى البلقان في أوربا ومن وسط آسيا شرقاً إلى المغرب العربي غرباً[١].

فلذا استفادت بلاد الشام من الإمكانيات الهائلة للدولة العثمانية وخاصة التجارية منها إذ أن بلاد الشام أصبحت أهم مراكز الدولة العثمانية التجارية وقد أثر هذا الازدهار في الجوانب التجارية على الحركة العمرانية فازدهرت وتوسعت بحسب متطلبات الأسواق والسكن وقامت المحطات على طرق القوافل التجارية، وكانت مدينتي دمشق، وحلب من أعظم مدن الشام ازدهاراً.

وقد اهتم سلاطين بني عثمان وولاتهم ببناء المؤسسات الحكومية والدينية والعلمية وبالغوا في العناية بها وعملوا على ديمومتها فأوقفوا الأوقاف من أجل ذلك واعتنوا بمصادر التمويل ومن أهم تلك المصادر بناء الأسواق وتنظيم تجارتها، ولم يقتصر الجهد في هذا الجانب على السلطنة وعمالها بل شاركت جموع أهل الشام في ذلك وكانت المنافسة على أشدها وخاصة في أعمال الخير.

---

(١) ابن طولون، شمس الدين محمد بن على بن أحمد الصالحي، مفاكة الخلان في حوادث الزمان، بعناية خليل منصور، دار الكتب العلمية -بيروت، لبنان ص ٣٧٨- د. حسن الضيقة، الدولة العثمانية الثقافة والمجتمع والسلطة، ط. أولى، ١٩٩٧م، دار المنتخب العربي، بيروت- لبنان، ص ١٧.

ومن الملاحظ أن هناك شحاً في المعلومات عن العمارة بمختلف أنواعها في كتب التاريخ العام، وقد اقتصرت المهمة في هذا المجال على كتب الجغرافيا أو مشاهدات الجغرافيين والبلدانيين من الرحالة، وكانت هذه المعلومات، وبصفة عامة، لا تتطرق إلى التفاصيل إلا في بعض الجوانب من العمران، وقد نالت بعض مدن الشام النصيب الأوفر لدى من كتبوا عنها، ومن تلك المدن دمشق وحلب- وعليهما نخصص الدراسة- فوصفوها ووصفوا مبانيها وأحوالها، نتيجة لأهميتها التجارية، وفيما يأتي بيان عن نماذج بنائها وأسباب ازدهارها:

أولاً: مؤسسات الدولة

إن تطور عمارة الشام في مختلف الحقب الزمنية لم يكن صدفة، بل كان نتاجاً للتأثيرات والتقلبات السياسية والثقافية، وتأثيرات الحضارات التي تعاقبت على حكمها، وكذا تأثيرات الشعوب المجاورة فنقلت إليها بعض فنون البنيان، وخاصة فيما يتعلق بمؤسسات الدولة، وممّا ركزت عليه الإدارات المحلية التي قامت في الشام من مؤسسات ترتبط بها فسبغتها بأمجادها وتركت عليها بصمات فنها وعظمة إزدهارها وكانت الدولة العثمانية واحـدة من تلك الدول التي أبقت على آثار فنها المعماري في الشام وشواهده مازالت ظاهرة للعيان ومنها:

١-المؤسسات الخدمية

لم تحط الدولة العثمانية رحالها في بلاد الشام حتى باشرت برعاية العامة والطبقة الفقيرة منها وبذلت من أجل ذلك الأموال والجهد ومن أهم مؤسساتها الخدمية التي لفتت بها أنظار الرعية، التكية وهي مؤسسة خدمية تقوم برعاية شؤون الفقراء والصوفية والنزلاء الغرباء والحجاج ومع أن هذه

المؤسسة كانت في طابعها خدمي إلا أن الدولة العثمانية اهتمت ببنائها وأصبحت من معالمها الرائعة وحملت أصالة الفن المعماري العثماني ويظهر أن إمبراطورية بني عثمان قصدت من ذلك لفت الأنظار إليها وكسب تأييد عامة الشعوب الإسلامية التي تقع في إطار سيطرتها ومن أبرز التكايا في بلاد الشام:

أ-التكية السليمانية في دمشق

سميت نسبة إلى السلطان سليمان القانوني الذي أمر ببنائها عام ١٥٥٤م في الموضع الذي كان يقوم عليه قصر الظاهر بيبرس المعروف باسم قصر الأبلق في مدينة دمشق وهي من تصميم المعماري التركي معمار سنان، أشهر معماري عثماني. وأشرف على بنائها المهندس ملا آغا.وانتهى من بنائها سنة ١٥٥٩م في عهد الوالي خضر باشا، أما المدرسة الملحقة بها فتم بناؤها سنة ١٥٦٦م في عهد الوالي لالا مصطفى باشا.والتكية السليمانية مثالاً رائعاً للعمارة في العصر العثماني، وهي من أبنية دمشق التاريخية وأبرز ما يميز طراز التكية السليمانية مئذنتاها النحيلتان اللتان تشبّهان المسلّتين أو قلمي الرصاص لشدة نحولهما، وهو طراز لم يكن مألوفاً في دمشق حتى تلك الحقبة، وقد اتخذ في إنشائها التصميم العثماني ذات القباب والأروقة. وتتألف التكية من صحن واسع تتوسطه بركة كبيرة مستطيلة الشكل، وتتوزع حول الصحن مجموعة من المباني، ويحيط بمباني التكية سور حجري، وللتكية ثلاثة أبواب غربي وشرقي وشمالي، أما الباب الشمالي فتتقدمه قبة صغيرة محمولة على أربعة أعمدة وهناك مسجد في جنوب الصحن، وهو مربع الشكل طول ضلعه ١٦م، تغطي سقفه قبة كبيرة هي أنموذج عام للقباب العثمانية، لها رقبة متعددة النوافذ وطاسة نصف كروية مصفحة بالرصاص، وفي جدران الحرم شبابيك مطلة على الحدائق، ونوافذ القبة المتعددة.

وفي شرقي الصحن وغربه مساكن الدراويش، ولكل مجموعة منها رواق يتألف سقفه من قباب محمولة على أعمدة، فيه غرف، كل غرفة منها مسقوفة بقبة، وفي كل جناح ست غرف مربعة الشكل، طول ضلعها سبعة أمتار، ويقوم في شمال الصحن جناح فيه المخازن والمطابخ وقاعتان واسعتان طول كل منهما أربعون متراً، ويتوسط القاعتين الكبيرتين بناء مؤلف من تسع غرف يتقدمه رواق محمول على أعمدة. ويستخدم بناء التكية السليمانية حاليا متحفاً حربياً[٢].

ب-التكية المرادية

تقع تكية مراد باشا بمحلة السويقة ضمن منطقة الميدان خارج أسوار مدينة دمشق القديمة وتعتبر من أجمل المباني العثمانية الأثرية القائمة حتى الآن بحي السويقة على طريق الميدان في دمشق، وبدأ مراد باشا في تشييدها عام ١٥٦٨م، وانتهى من بنائها في عام ١٥٧٣م، وعرفت التكية بعدة أسماء منها:

١- تكية جامع مراد باشا: نسبة لمشيد هذه التكية والي الشام العثماني مراد باشا.

٢- تكية جامع النقشبندي: نسبة للطريقة الصوفية المعروفة النقشبندية.

٣- جامع المرادية: نسبة لمؤسسها مراد باشا الوالي العثماني في زمن السلطان العثماني سليم الثاني ابن السلطان سليمان خان القانوني[٣].

(٢) نقلاً عن مقالة موقع نسيم الشام- مقالة جريدة الوسط الكويتية في ٢٠١٢/٨/١٧م.
(٣) نقلاً عن مقالة بموقع إدلب الأربعاء ١٠ آذار ٢٠١٠م.

٢-قصر العظم

يعتبر قصر العظم من أهم وأجمل القصور في الفترة العثمانية، أمر ببنائه والي دمشق أسعد باشا العظم عام ١٧٤٩م ليكون داراً لسكناه بعد ولايته على الشام ويقع القصر وسط مدينة دمشق القديمة بين الجامع الأموي شمالاً وسوق مدحت باشا جنوبا بالقرب من البزورية ويمتد على مساحة (٥٥٠٠م^{2}) يعتبر هذا البناء من أهم المباني التاريخية الضخمة الموجودة في مدينة دمشق القديمة، وواحداً من أفضل نماذج العمارة المبكرة في دمشق للحقبة العثمانية وقد اختار أسعد باشا العظم موقع هذا القصر بعناية فائقة ليجسد المكانة والقوة السياسية والاجتماعية لقوة الإمبراطورية التي يمثلها. إذ جعله قريباً من المسجد الأموي وهذه كانت عادة الحكام في تلك الفترة إذ أن اغلب الحكام اهتمت باتخاذ مواقع للبنايات العامة في المناطق المزدحمة بالسكان وذلك لخدمة المجتمع ولذا كان موقع القصر في وسط المدينة القديمة ذات أهمية سياسية واقتصادية وتمثلت الأهمية السياسية أنه قد جاور أكبر رمز ديني في دمشق المتمثل بالجامع الأموي، وأما في الجانب الاقتصادي فقد جاور هذا القصر سوقين من الأسواق الرئيسية في المدينة القديمة، حيث يتمركز في نقطة تقاطع مهمة بين طرق القوافل المارة بمدينة دمشق القديمة، بين الجامع الأموي وبين الشارع المستقيم الذي يدعى في يومنا هذا شارع مدحت باشا. وتذكر المصادر التاريخية أن عدد من عمل في إنجاز هذا المشروع قد بلغ (٨٠٠) عامل من مختلف الحرف وأن الزمن الذي استغرقه بناء القصر عامان، وقد تم تقسيمه من الداخل بشكل رائع يبرهن على التطور الذي بلغته بلاد الشام في هذه الحقبة فقد احتوى على عدد من القاعات متعددة الأغراض منها قاعات الاستقبال، والمعشة، والخدم، إضافة إلى الحمام والمرآب. كما أقيمت به جميع

الخدمات العامة التي تدل على الرخاء التي بلغته دمشق في تلك الحقبة الزمنية من حكم الدولة العثمانية.

ولم تكن تلك القصور التي بناها ولاة الدولة العثمانية في مدن الشام على نفس الطرز أو بنفس التأثير الذي لعبه قصر العظم في دمشق القديمة لأنها كانت غير ثابتة في منطقة بعينها فقد عمد الحكام إلى اتخاذ مناطق بعيدة نسبياً من الأهالي طمعاً في تحقيق الأمن، والرفاهية والبعد عن مراقبة السكان وتجنيب الحاشية الاحتكاك بالرعية فكانت اغلب قصور الحكام والولاة تبنى في أطراف المدن لتك الاعتبارات(٤).

ثانياً: الأسواق التجارية

نمت التجارة في بلاد الشام نتيجة للاستقرار بشكل ملحوظ لأن اتساع الدولة العثمانية قد جعل التنوع الاقتصادي من أبرز سماتها ونتيجة للموقع المتميز لبلاد الشام فقد تجمعت دول عديدة لتمرير تجارتها المتنوعة في أملاك الدولة العثمانية ومثلت تلك التبادلات التجارية عنصراً فاعلاً في التجارة الدولية وكانت أبرز مدن الشام وأكثرها تألقاً في خضم هذا التنافس مدينتي حلب ودمشق وكانت الأولى أكثرها شهرة فكانت تصلها أغلب البضائع التي تساق إلى حواضر الإمبراطورية ومنها المنسوجات والبن والحرير والتوابل وغيرها من صنوف الصناعات والمنتجات(٥).

ونتيجة للازدهار التجاري فقد تطلب ذلك إقامة الأسواق والقيساريات وخاصة في المدن ذات النشاط العالي في جوانبها التجارية من أجل؛ استقبال البضائع والتبادل التجاري والتخزين ومن أبرز المشروعات التجارية التي أقامها

---

(٤) نقلاً عن المديرية العامة للآثار والمتاحف دمشق.

(٥) أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة: لطيف فرج، ط.الأولى، دار الفكر، القاهرة ص ٣٦.

ولاة الدولة العثمانية في حلب ودمشق والتي لعبت دوراً بارزاً في تنمية المدينتين في النواحي الاقتصادية والمعمارية ما يلي:

أولاً: أسواق حلب

١-قام أبشير باشا في عام ١٦٥٣م، ببناء أربع قيساريات وخان والعديد من الحوانيت وأقيمت في الضاحية الشمالية ورش النسيج والسباغة ونتيجة للتوسع في هذه المتاجر والورش فقد ازداد عدد السكان في حلب فكان لابد من مواكبة هذه الزيادة بزيادة مساحة المدينة العمرانية وإقامة أحياء جديدة وخاصة في المناطق التي توسعت فيها الأنشطة التجارية والصناعية ومن الملاحظ أن تغيراً طرأ على مدينة حلب بعد قيام أبشير باشا بالتوسع في البنايات ذات الطابع التجاري ونتج عن ذلك:

أ- توسعت حلب في اتجاه الشمال الشرقي فأنشأت الضاحية الشمالية الشرقية للمدينة وامتدت المشروعات التجارية في اتجاه الشرق(٦).

ب- بناء وحدات متخصصة للصناعات ومنها المسبغة التي شيدت على حافة نهر قويق التي بلغت مساحتها (٦٨٠٠م٢) بطول (١٧٠ متراً) وعرض (٤٠ متراً) وبها (٥٣ غرفة) في الطابق الأرضي و(٥٨ في الطابق العلوي) ومزودة بحمام مخصص للدباغين ومسجد يقع بالقرب منها.

ت- توسعت المباني السكنية في اتجاه الضاحية الشمالية الشرقية إذ أقيمت عدد من المساكن لأرباب الحرف.

ث- زادت حركة القوافل التجارية مما دفع الحكومة والسكان إلى التوجه نحو التوسع في المباني الخدمية لمواكبة هذه الزيادة(٧).

---

(٦) المصدر نفسه، ص ١٥٠.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٩٩.

ج- نمو سكان الضواحي في حلب فقد ارتفع عدد سكان الضواحي من (٤٠٠٠ نسمة) في عام ١٥٣٧م إلى (١٨٧٤٣ نسمة) في عام ١٦٨٣م. وبلغت نسبة الزيادة في عدد السكان بحولي ٨٣% وبذلك شكلت الضواحي أكثر مناطق حلب جذباً للسكان بفعل النمو الاقتصادي والعمراني ولذا بلغ عدد سكان الضواحي في عام ١٦٨٣م، ثلثي سكان حلب ولم يكن يتجاوز نصف عدد السكان في العصر المملوكي وزادت مساحتها (من ٩١ هكتاراً) في أواخر العصر المملوك إلى (٢٠٠،٥ هكتار) ومن هنا يتضح أن النمو العمراني قد نمى بأكثر من النصف وكذا واكب هذا النمو الزيادة السكانية[٨].

ح- ولم تفقد المدينة القديمة في حلب حيويتها نتيجة لتوسع الضواحي وازدهارها وإنما بقيت تمثل نبض القوة الاقتصادية للمدينة طوال الحكم العثماني فقد احتوى وسط المدينة على (٢١ سوقاً) من بين (٥٦ سوقاً) في حلب كلها و(١٩ قيسارية) من بين (٥٣ قيسارية) وكانت أغلب المنتجات ذات الأهمية تباع فيها وعمارة الأسواق تختلف في نسقها من سوق إلى آخر. وشكل وسط مدينة دمشق نفس الأهمية فقد احتوى وسط المدينة على (١٧سوقاً) من بين (٤٤ سوقاً) في دمشق كلها و(٢٧ خاماً) من بين (٥٧ خاناً)[٩].

وكانت أكبر القيساريات اتساعاً قيساريات حلب فقد بلغت مساحة خان الجمرك (٦١٦٧م^2) وبلغ متوسط (١٩ خان) في وسط المدينة (٢٢٨٢م^2) وكانت الخانات مباني رائعة وهي أكبر المباني التجارية التي شيدت في حلب في العصر العثماني والظاهر أن تكلفتها كان باهظاً جداً لأن من وصف تلك المباني يدل على أن الإنفاق عليها كان كبيراً وكانت القيساريات مؤشراً على

(٨) المصدر نفسه، ص ١٥١.
(٩) المصدر نفسه، ص ١٧٧

عظمة الأنشطة التجارية للمدن الشامية أبان الحكم العثماني وقد تحدثت أغلب الدراسات أن بمدينة حلب ما يقرب من (١٠٠ خان) وفي دمشق (٥٧ خان) وشكلت تلك المباني ذات المنافع المتعددة للسكان قيمة معمارية وفنية رائعة[١٠].

٢-خان قورت بك

بمدينة حلب يعتبر من أبرز المنشآت العثمانية الباقية في مدينة حلب فأبعاده الرحبة وطرازه المعماري المتميز وبداخله سوق مربع الشكل كان هدف السوق يقوم بخدمة نزلاء الخان ومن أبرز ما تميز به من طراز معماري ممره الرئيسي الذي تعلوه القباب وبه مدخل جميل رائع البناء يوصل هذا المدخل إلى فناء الخان الذي يوجد به حوض ماء كبير. وبه مخازن في الأدوار الأرضية ويوجد به غرف لسكنى التجار[١١].

٣-خان الجمرك

يحتوى هذا الخان على قيسارية بطول (٧٩ متراً) وعرض (٦٥ متراً)، ويوجد أيضاً بالخان (٥٢ مخزناً) في الدور الأرضي و(٧٧ غرفة) في الطابق العلوي ويوجد بفنائه مسجد صغير وحوض للماء ويعتبر هذا الخان أحد منجزات الفن المعماري الحلبي في العصر العثماني[١٢].

ولذا توسعت مساحة الأسواق في مدينة حلب فقد بلغت مساحتها في المدينة القديمة بالقرب من الجامع (٥ هكتار) في نهاية العهد المملوكي وبعد

---

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٨٧.

(١١) نقلاً عن موقع خانات حلب.

(١٢) أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ص ١٩٠.

السيطرة العثمانية توسع مساحة هذا السوق فبلغ أكثر من (١٠ هكتار). فكانت الزيادة نتيجة للنشاط والازدهار التجاري ١٠٠%[١٣].

ثانياً: أسواق دمشق

١-خان أسعد باشا العظم

يقع خان أسعد باشا في دمشق القديمة في وسط سوق البزورية أحد الأسواق التراثية في دمشق. بناه الوالي أسعد باشا العظم سنة ١٧٥٣م أي بعد أربع سنوات من بناء قصر العظم الشهير كأجمل بناء إسلامي وهو ملك خاص لوالي دمشق أسعد باشا العظم ثم انتقلت ملكيته فيما بعد إلى عدد من التجار، وتبلغ مساحة هذا الخان (٢٥٠٠م^2) وطوله (٥٢ متراً) وعرضه (٤٦ متراً) ويمتاز بواجهة عريضة في وسطها بوابة ضخمة وفي واجهته الجنوبية الغربية (٣١ مخزناً). وبه دهليز عريض يستوعب غرفتين للحراسة ومصعدي الدرجتين، وفي وسط الباحة بركة مثمنة. وجدران الباحة التي تشكل واجهات الغرف مبنية بالحجر الأسود والأبيض. ويتكون من طابقين الطابق السفلي: ويحوي (٢١ مخزناً) والطابق العلوي: يتألف من أروقة مشرفة على الباحة، وخلفه (٤٥ غرفة)، وجناح للخدمات[١٤]. وجميع الغرف مغطاة بقباب صغيرة، وذات أبواب ونوافذ ما زالت تحتفظ بأصالتها، ولا مثيل لتنظيم هذا الخان في بلاد الشام وبرزت فيه تفاصيل العمارة العثمانية وبشكل ملفت للنظر ويظهر أن المغزى من تشييد هذا الخان لم يكن اقتصادياً فحسب بل كانت هناك اعتبارات أخرى قد دفعت الباشا إلى تشيده منها:

---

(١٣) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(١٤) د. عبير عرقاوي، التطور التاريخي لخان أسعد باشا العظم، مجلة دمشق للعلوم الهندسية، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، ٢٠٠٦م، ص ٣٧٥.

- الحصول على أموال وفيرة لتسيير شئون أوقافه.
- لفت الأنظار إليه وإلى قوته وقوة الإمبراطورية العثمانية التي كان يمثلها(١٥).

٢- خان سليمان باشا

شيد في عام ١٧٣٢م، وقد سقف بقبتين كبيرتين مرتفعتين فوق مثلث كروي بين العقود.

٣- وخان السفرجلانية

المشيد في عام ١٧٥٧م، الذي زود بثلاث قباب.

٤- وخان الصرانية

والمشيد في نفس الفترة السابقة فقد زود بقبتين(١٦).

وماثلت دمشق مدينة حلب في التوسع في مساحة الأسواق فقد بلغت مساحة الأسواق (٨،٧ هكتار) وامتدت المساحة من الشارع الروماني القديم في الجنوب إلى الجامع الكبير في الشمال الشرقي إلى القلعة في الشمال الغربي، وكانت أسواق دمشق أكثر مناعة من سابقتها المعتمدة في حلب إذ أن السلطات القائمة على المدينة لعبت دوراً في تطوير هذا النوع من البناء وذلك بقيامها بإدخال بعض التعديلات عليها فقد شيدت في دمشق قيساريات مسقوفة تعلوها القباب وهذا يدل على أن الفن المعماري العثماني ذات الطابع المتميز بالقباب قد أخذت به معظم المباني العامة في دمشق وأصبح تأثيره واضحاً على المنشآت ذات الطابع الاقتصادي بالإضافة إلى المباني الدينية(١٧).

---

(١٥) أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ص ١٩٢.
(١٦) المصدر نفسه، ص ١٩١.
(١٧) المصدر نفسه، ص ١٩٠.

ثالثاً: دور الاقتصاد في التوسع المعماري

ونتيجة للتوسع في الجانب الاقتصادي لوحظ التطور في المدن الكبرى بالشام من خلال الزيادة في مساحة تلك المدن فمثلاً مدينة حلب زاد ت مساحتها من (٢٣٨ هكتاراً) في بداية القرن السادس عشر إلى (٣٦٧ هكتاراً) في بداية القرن التاسع عشر، وأما دمشق فقد توسعت مساحتها من (٢١٢ هكتاراً) إلى حوالي (٣١٣ هكتاراً) في نفس الفترة، أي: أن الازدهار العمراني في هذه الفترة بلغ مداه، إذ تقدر نسبة الزيادة في المساحة لكلى المدينتين بـ(٥٠٪)، ويدل هذا التوسع على ازدياد عدد السكان وتوسع المشاريع التنموية المرافقة لهذه الزيادة. ونتج عن هذا التوسع العمراني في المدينتين:

- زيادة في عدد السكان فقد ارتفع سكان حلب بعد السيطرة العثمانية (من ٨٠ ألفاً) في عام ١٥٣٧م إلى (١١٥ ألفاً) في عام ١٦٨٣م ثم ازداد هذا العدد إلى (١٢٠ ألف) في عام ١٨٠٠م. أي أن نسبة الزيادة في سكان حلب بلغ (٥٠٪)، وأما مدينة دمشق فقد زاد عدد سكانها في الفترة نفسها من (٥٢ ألفاً) إلى (٩٠ ألفاً)[١٨].
- أصبحت حلب أسرع مدن الشام في النمو العمراني إذ تشر أغلب الدراسات التي تناولتها أنها أكثر مدن الشام نمواً وتسبب هذا النمو المتسارع إلى جذب أعداد هائلة من السكان ونتيجة لذلك فقد دفعت زيادة السكان بأسعار العقارات إلى أعلى معدلاتها.
- تدخلت الحكومة المحلية لمعالجة أزمة السكن فقامت بنقل المعامل الصناعية والمدابغ إلى خارج المدينة وكان ذلك في سنة ١٦٠٠م

(١٨) المصدر نفسه، ص ٤٥، ٤٦.

وقصدت الحكومة المحلية من وراء هذا العمل توفير المساكن للسكان بعد النمو الملحوظ في عدد السكان[١٩].

- التوسع خارج أسوار مدينة حلب من أجل مواكبة التطور السكاني ولذا شجعت الحكومات المحلية إقامة أحياء جديدة خارج الأسوار عرف سكانها بسكان الضواحي.
- عملت الإدارة المحلية في حلب على تخطيط الشوارع الرئيسية وعلى الأرجح أن تلك المخططات كانت في بداية القرن السابع عشر وتم الاستفادة من كل المساحات داخل المدينة فتم إنشاء المباني وشق الطرق وبشكل منتظم وكانت الضواحي قد شهدت تنظيماً دقيقاً فقسمت الأراضي بشكل هندسي بالغ الدقة وكان حي الجديدة هي الأكثر بروزاً في التخطيط الدقيق فقد تقسمت الأرض إلى أربع قطع تبلغ مساحة كل قطعة (٤٠٠م^{2}). ولا يستبعد أن السلطنة العثمانية كانت تدفع وبقوة الإدارة المحلية في حلب إلى العناية بهذه المدينة وكان الهدف في الأساس تنشيطها كمركز تجاري وإدخال عناصر سكانية جديدة إلى المدينة وضواحيها[٢٠].

وعلى الجملة، يمكن القول بأن النمو العمراني وفي نطاقه الواسع قد نال الاهتمام الواسع من الإدارة المحلية وسلطة الدولة العثمانية على حد سواء. وهناك عوامل كثيرة ساعدت على توازن البناء منها المبادرات الأهلية التي عملت على تقسيم الأراضي وهياكل البناء كما أن الأوقاف قد لعبت دوراً مهماً في تخطيط العمران وازدهاره وهناك عوامل أخرى ساهمت إلى حد كبير في

(١٩) المصدر نفسه، ص ٤٨.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٦٣. د. عبير عرقاوي، التطور التاريخي لخان أسعد باشا العظم، ص ٣٨١، وما بعدها.

نمو البناء والحفاظ على طابعه المميز منها تدخل السلطات المركزية والمحلية على حد سواء في نقل المدابغ والورش إلى خارج المدن وكان المقصود من ذلك الحفاظ على مظهر المدينة والتوسع في أحيائها[٢١].

وفي دمشق تم تخطيط حي الميدان، ومجموعة من الشوارع المتوازية على مساحة تبلغ حوالي ثلاثة هكتارات، وسعة كل واحد منها بين خمسة وأربعة أمتار وتوصل هذه الشوارع بشارعين رئيسيين كما تعين حدود قطع أرض متلاصقة يبلغ عرض كلاً منها ٤٠ متراً في الجزء الشرقي و٣٠ في الغربي[٢٢].

رابعاً: توفير المياه

تدخلت الإمبراطورية العثمانية في توجيه التطور العمراني في حلب وعملت على خلق جو من الاستقرار لذا فقد اهتمت بالمياه ونظافة المدينة وأصدرت عدد من المراسيم منها:

- مرسوم عام ١٧٤٢م الذي قضى بتوجيه إمدادات المياه في مدينة حلب، فقد أصدر السلطان قراراً بصيانة القنوات التي تغذي حي الكلاسة بمدينة حلب.
- ثم أصدر قراراً آخراً بإصلاح أحد الأسبلة في المدينة.
- وصدر مرسوماً في عام ١٧٣٣م، بتشييد مذبح للمدينة.
- وأصدرت القرارات بتحسين أوضاع المدينة في عام ١٧٣٩م، تحدث القرار الصادر من الأستانة بتوسيع ممرات المدينة المزدحمة وإصلاح الشوارع والأحياء وترميم الآثار وتجديد الحمامات وإنشاء خانات

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٦٨.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٩٧.

جديدة وترميم الخانات القديمة والاهتمام بالحدائق(٢٣). ومن المحتمل أن قرارات الدولة المركزية كانت أكبر من هذه الأمثلة التي سيقت من قبل ويظهر أن الخطوات التي اتخذت لتحسين مدينة حلب ذات الموقع الاستراتيجي المهم للدولة كان برعاية الأستانة وحتى نقل المدابغ التي قامت بها الحكومة المحلية كان بمباركة السلطان.

- وقد شهدت مدينة حلب إنشاء مشروعات مياه وأسندت مهمة متابعة تدفق المياه وإصلاح القنوات إلى القضاء وتركت للقضاء صلاحيات واسعة للحفاظ عليها وذلك بما يمتلكه القضاء من أموال خصصت لتلك الأغراض-أموال الأوقاف- وتدخلت الحكومة المركزية في بعض الفترات الحرجة لسد العجز عن كاهل الحكومات المحلية.

وأظهر الباشوات اهتماماً بالغاً في هذا الجانب فقاموا بصيانة القنوات وإصلاح الأسبلة، وقد عانت حلب من عدم قدرة القنوات القديمة على سد احتياجاتها وخاصة في الضاحية الشرقية للمدينة إذا لعب التوسع العمراني وزيادة السكان إلى عجز كبير في موارد المياه مما سبب اضطراباً في تلك الأحياء. فتدخلت الدولة لحل الإشكال وعملت على توسيع القنوات ومد أجزاء المدينة المختلفة بالمياه وتشييد عدد كبير من الأسبلة في مدينة حلب لسد حاجة السكان من المياه وتدل تلك المشروعات المهمة للدولة العثمانية على اهتمامها بمدينة حلب من أجل تزويد سكانها بالمياه اللازمة والدليل على

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

تلك العناية أن الأسبلة في بداية القرن التاسع عشر بلغت في مدينة حلب وحدها (٢٠٠سبيل)[٢٤].

وفي دمشق كانت المياه تصلها من نهر بردي والنهر يمر في الجزء الشمالي من المدينة وكانت القنوات المتصلة به تحمل الماء إلى الأحياء عن طريق نظام متقن التوزيع، وكانت مشروعات المياه في دمشق تقع تحت سلطة القاضي[٢٥]، ومن أجل الحفاظ عليها تم تكليف موظفين لمتابعة صلاحية القنوات ومتابعة تدفق المياه إلى أحياء دمشق وكانت المياه تسري بانتظام في أغلب أوقاتها إلا أنها لم تسلم من التخريب بسبب الاضطرابات أو العوامل الطبيعية مثل الزلازل أو تدحرج الصخور التي كانت تسد تلك القنوات فقد قطعت المياه عن دمشق في عام١٧٥٣م لمدة ثلاثة أيام، وتسبب زلزال عام ١٧٥٩م، إلى قطع المياه عن مدينة دمشق لمدة إحدى عشر يوماً، وفي تلك الحوادث العارضة كانت الحكومة المركزية تتدخل للحد من تدهور الوضع فعندما انقطعت المياه في عام ١٧٥٢م، تدخل الوالي العثماني أسعد باشا في هذا العام لترميم القنوات التي تسبب خرابها بانقطاع المياه عن حي الشاغور[٢٦].

خامساً: بناء المساجد

أمر السلطان العثماني سليم خان الأول الملقب بـ (ياوز- الصاعقة) بعد فتحه دمشق؛ ببناء مسجد وتكية وتربة فوق مرقد المتصوف الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي الصوفي الأندلسي تكريماً له حيث أن السلطان سليم كان شديد

---

(٢٤) أحمد البديري: حوادث دمشق اليومية، تحقيق: د. أحمد عزت عبد الكريم، ط ١٩٥٨م، ص ١٨١، ٢٢٤، للأعوام ١٧٥٣م، ١٧٥٩م- أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ص ١٢٠.

(٢٥) أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ص ١١٩.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١١٩.

الإعجاب بآراء الشيخ محي الدين الصوفية، وعلى أي حال فقد كان المقصد الأساسي من عمل السلطان هو التقرب من أهالي مدينة دمشق بهذا الصرح الجميل في سنة ٩٢٣هجرية الموافق ١٥١٧للميلاد من القرن السادس عشر(٢٧) وسار خلفاء بني عثمان على منهجه في الإهتمام ببناء المساجد في كل ولايات السلطنة العثمانية. ونكتفي هنا بهذا النموذج ونحيل القارئ إلى المصادر والمراجع التي تناولت عمارة المساجد في العصر العثماني لأن مقام البحث لا يسمح بحصر كل ما عمر من مساجد في دمشق وحلب.

سادساً: بناء الدولة العثمانية وولاتها المحطات على طرق الحجيج والقوافل التجارية

تعد الطبقة الحاكمة من أبرز الطبقات الاجتماعية مساهمة في التطور العمراني إذ تمتعت تلك الطبقة بصلاحيات واسعة وقد شكل اتصالها بالحكومة المركزية أحد العوامل المؤثرة في توجيه البناء وازدهاره(٢٨). ونجد ذلك جلياً في تلك المنشآت العمرانية التي أقيمت على طرق القوافل التجارية والحجيج ومن النماذج على ذلك:

١- القطيفة: وتقع القطيفة في إقليم القلمون على الطريق الذي يربط بين دمشق وحمص وكانت هذه المحطة في السابق وقف للبيمارستان النوري ولكنها خربت، وعندما تولى سنان باشا أمر دمشق في أيام الحكم العثماني بادر بعمارتها وذلك لأهميتها لقوافل الحجيج ومن أهم المنشآت التي قام

(٢٧) ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ص ٣٧٦.

(٢٨) أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ص ٥٥.

بنائها جامع وتكية للخدمات العامة وتقديم الطعام، وخان للمسافرين، ورباط للنزلاء وحمام، ودكاكين قدرت بعشرة[٢٩].

وذكرت بعض المصادر القطيفة وأهميتها كمحطة للقوافل فعند مرور كبريت[٣٠] بها في عام ١٦٢٩م وصفها بقوله" روضة غناء، وغيضة حسناء كأنما قطفت من فردوس الجنة، وبها الخان الذي هو للواردين... وهو الخان الذي لا يرى له عديل ولا يدانيه في محاسنه مثيل". وذكرها الرحالة العثماني أوليا جلبي في عام ١٦٤٧م، بأن القطيفة من أوسع خانات الشام وأكثرها قدرة على استيعاب الواردين إليها بقوله: "خان القطيفة عظيم جداً حتى لو دخلته قافلة مؤلفة من عشرة آلاف رجل بخيلها وجمالها لوسعها وزاد"[٣١].

٢-سعسع: ومن المحطات التي أنشأت بأوامر سلطانية من السلطان العثماني قرية سعسع وهي تبعد عن دمشق (٤٠ك) -على طريق دمشق فلسطين مصر- وسبب إنشائها يعود إلى اعتداءات البدو المتكررة على قوافل الحجاج فعندما بلغ السلطان العثماني تلك الأخبار من تقطع البدو ومنعهم للحجيج من الحج أمر واليه وقاضيه في دمشق بإقامة محطة للحماية في سعسع وكان ذلك الأمر في سنة ١٥٨١م، وقد دعا الأمر السلطاني السكان المحليين للسكنى في سعسع بشرط حفظ الأمن مقابل العفو عنهم من الضرائب، ومن أهم المنشآت

---

(٢٩) ابن الجيعان، بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر بن عبدالغني، القول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمر، ط ١٩٨٤م، طرابلس، ص ٨٠. أحمد وصفي زكريا، الريف السوري -محافظة دمشق- وصف طبوغرافي وتاريخي أثري عمراني اجتماعي زراعي للأقضية والنواحي والقرى العائدة إلى محافظة دمشق، ط ١٩٥٥م، دمشق، ص ١٩٨- د. محمد الأرناؤوط: معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر الميلادي، ط ١٩٩٣م، دار الحصاد، دمشق، ص ٥٤.

(٣٠) هو محمد بن عبدالله الحسني الموسوي اشتهر بكبريت، ومن أشهر كتبه (رحلة الشتاء والصيف).

(٣١) كبريت: رحلة الشتاء والصيف، ط. بيروت، ص ٢١٠.

التي أقيمت في سعسع: جامع، وتكية للخدمات العامة وتقديم الطعام، بيوت لإقامة المسافرين، رباطان لنزلاء الصوفية، مجموعة من الدكاكين، حمام، طاحون لطحن الغلال.

وبقيت سعسع حتى زلزال عام ١٧٦٣م، الذي ألحق بدمشق وضواحيها أضراراً بالغة، ولكنها لم تندثر فقد ذكرها بعض الرحالة الذين زاروا الشام بعد هذا التاريخ وأنها تقوم بالخدمات لنزلائها ويظهر أنها رممت بعد الزلزال[٣٢]. وكان الهدف في الأساس من قيام تلك المحطات الحفاظ على أمن القوافل وتقديم الخدمات لها.

المحور الثاني: العوامل الاجتماعية ودورها في تطور البناء أو انتكاسه

وفيه يتم عرض دور المجتمع في التطور العمراني، الأمن ودوره، الأهالي ودورهم في حفظ الأمن، التسامح الاجتماعي مع الجاليات غير المسلمة ودوره في التنمية والعمران، التدهور العمراني أسبابه.

على الرغم من أن العوامل السياسية قد لعبت دوراً بارزاً في إنعاش العمران في حلب ودمشق، إلا أن الفضل في كل ما حصل من نهوض اقتصادي وازدهار عمراني فيهما وفي الشام كلها في هذه الحقبة الزمنية راجع إلى أصحاب العمل، وهم سكان تلك المدن والمقيمون بها والمرابطون على ترابها، والثابتون بها ثبوت جبالها. فعلى كواهل هؤلاء قامت المنشآت الاقتصادية، فالمال ملك للتجار من المقيمين والوافدين، والعمل والإنتاج لأهل البلد، وهم مقابل الجهد والعمل لا يتقاضون إلا أجراً زهيداً. وكانت مساهمات ذلك المجتمع في تلك الفترة واضحة للعيان.

(٣٢) أحمد البديري الحلاق، حوادث دمشق اليومية، ص ٢٣٣- أحمد الخالدي، رحلات في ديار الشام، ط ١٩٤٦م، يافا، ص ٥٠، ١١٦.

- ويبدو أن عوامل قد لعبت أدواراً في تلك التنمية الباهرة في الحقبة العثمانية، ولم تكن تقتصر على جنس بعينة بل هناك ثمة عوامل اجتماعية، وأمنية واقتصادية كان لها الدور نفسه في تلك التنمية ويمكن عرض ذلك من خلال:

١-تنوع المجتمع في الدولة العثمانية: شكل المجتمع المتنوع في بلاد الشام أحد ركائز التنمية والازدهار العمراني وذلك بسبب اختلاف أنشطتهم فقد شهدت المدن الكبرى أنشطة متنوعة وزادت هذه الأنشطة في عصر الدولة العثمانية إذ أن اتساع مساحة الدولة وسهولة التنقل في أراضيها قد دفع أعداد كبيرة من سكان الإمبراطورية إلى التجول في ربوعها المختلفة ومنها بلاد الشام واستقرارها في مدينتي حلب ودمشق فكانت مجموعات من البشر تنتقل إلى بلاد الشام إما بدافع التجارة أو التعلم أو الحج إلى الحرمين إذ كانت بلاد الشام المنفذ المهم للدولة العثمانية في الوصول إلى الحجاز وكانت بعض المجموعات المهاجرة تستقر في مدن الشام وتجلب معها مهاراتها وإمكاناتها المادية فعملت تلك المجموعات على تنشيط الاقتصاد وانعكس هذا النشاط على فن العمارة.

٢- تسامح الإمبراطورية العثمانية مع الجاليات غير المسلمة: أدى هذا التسامح مع الجاليات غير المسلمة ورعاية مصالحها إلى ازدهار العمران وتطوره(٣٣).

٣- قوافل الحج ودورها في الازدهار العمراني: نشطت الدولة العثمانية وحكامها في استثمار موسم الحج فعمل حكامها على تأمين الطرق وبناء المحطات وخاصة في المدن التي تمر بها القوافل ومن خلال ما قامت به أكدت قوتها وسلطتها السياسية والدينية من خلال الاهتمام بقوافل الحجيج وكانت

(٣٣) أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ص ٤١، ٤٤.

ولاية دمشق من أهم الولايات التي اعتنت بتنمية المراكز الخدمية التي ساهمت بخدمة الحجاج وبذلت الدولة العثمانية أقصى اهتمامها فكان متولي دمشق يقوم بقيادة قافلة الحجاج بنفسه[٣٤].

ورغم أن الحج كانت مناسبة دينية إلا أنه تم استثماره للتبادل التجاري فكانت القوافل التجارية تلازم الحجاج مستغلة الحماية العثمانية لقوافل الحجيج وكان موسم الحج يدر دخلاً هائلاً على المدن التي تمر بها القوافل ومن ذلك مدينة حلب فقد حصلت على أرباح هائلة من إقامة الحجاج بها وكانت دمشق أعظم مدن الشام استفادة حتى بنيانها الحضاري تأثر بتلك القوافل ومن أجل مواكبة متطلبات قوافل الحجيج فقد أنشأت بضواحي دمشق منطقة أطلق عليها الميدان وتعتبر هذه المنطقة من أكبر المناطق التي أنشأت في العصر العثماني وشكلت ملتقى لقوافل الحجيج في الجهة الجنوبية من دمشق على طريق الحجاز والمناطق الزراعية باتجاه حوران[٣٥].

٤- عناية الدولة العثمانية والحكومات المحلية بالأمن: لعبت القوات الأمنية في سائر المدن الشامية ومنها حلب ودمشق أدواراً مهمة للحفاظ على الاستقرار والأمن وكانت قوة الإنكشارية هي الأكثر أهمية إذ أن أغلب المهمات الأمنية كانت تقع على عاتقها ومن أبرزها حماية مقرات الحكومة والولاة والتصدي لأي اضطرابات.. وسخرت الدولة العثمانية إمكاناتها وقوتها لتوطيد الأمن في بلاد الشام بشكل عام وحماية حدودها من الأخطار الخارجية وخاصة الغزوات الصليبية. وقد ساهم الأمن الذي تمتعت به المدن الشامية ومنها حلب ودمشق في أغلب فتراتها في العهد العثماني في تنشيط الجوانب الاقتصادية فانتعشت التجارة والعمران على حد سواء وظهرت مآثر الدولة

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٣٥) أحمد البديري، حوادث دمشق اليومية، ص ٢٠٦- أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ص ٤٠.

العثمانية وقوتها في تلك المعالم المدنية والعسكرية وكسبت بتلك الأعمال احترام جماهير المدن الشامية.

٥- مساهمة المجتمع المحلي في حفظ الأمن: عملت الأحياء الدمشقية والحلبية على حفظ أمنها فكونت مليشيات من الأحياء لحمايتها من أي: هجوم وكانت هذه المليشيات تقوم بمنع وقوع الجرائم في الحي ومنع الغرباء من دخوله وخاصة في الليل.

٦- التقسيمات الإدارية: ساعدت تقسيمات المدينة إلى أحياء في ضبط المخالفات وقيام التحريات في حالة وجود اضطرابات داخلية ففي دمشق أرسل أسعد باشا في عام ١٧٤٦م، إلى مشايخ الأحياء يأمرهم بالقبض على اللصوص وقطاع الطرق الموجودين في أحيائهم وإلا تم فرض غرامات باهظة على تلك الأحياء وهذه بدورها عملت على تحمل أهل الحي المسئولية فلذلك كانت تلك الأحياء على درجة عالية من اليقظة حتى لا تقع تحت طائلة المساءلة والغرامة[٣٦].

٧- الاهتمام بنظافة المدن: اهتمت الدولة والسكان بنظافة المدن ففي حلب كان أصحاب الحوانيت يدفعون أجور الكناسين والمكلفين بتنظيف السوق للحفاظ على مظهر المدينة وأسواقها ومن أجل المحافظة على نقاء البضائع في الأسواق تم تكليف مجموعة من العمال عرفت بالرشاشين، مهمتهم رش الشوارع بالماء لترطيب الجو مقابل أجر معلوم من كل تاجر[٣٧].

٨- مواجهة الكوارث الطبيعية باستخدام مواد بناء مقاومه للكوارث وخاصة الحرائق: كانت الحرائق أكثر الكوارث فتكاً بالمدن ويظهر أن تركيبة المباني في الشام قد منعت إلى حد كبير تلك الكوارث ويعود ذلك إلى نوعية

(٣٦) النقاط السابقة يراجع، المحفوظات القومية السورية بدمشق، وأوامر سلطانية حلب، سجل (رقم ٤)، ص ٢١٧، ٢١٨، رقم (٤٤٨)، - أحمد البديري، حوادث دمشق اليومية، ص ٢١٨.
(٣٧) أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ص ١١١.

البناء إذ كان أغلب بيوت الشام مبنية من الحجر والقرميد والطوب واللبن، وتعتبر تلك المواد ضعيفة الاشتعال على عكس البيوت التي كانت تصنع من مواد قابلة للاشتعال مثل الخشب، وعلى الرغم من متانة البناء في دمشق فقد تعرضت دمشق لعدد من الحرائق في الأعوام (١٦٤٠-٤١-٧٢-٧٣- ١٧١١ -١٢-١٣-١٧١٥م)[٣٨].

وعلى الرغم من تلك العوامل التي ساهمت في نمو العمران وازدهاره إلى أن هناك ثمة أسباب أخرى مرت بها مدينتي حلب ودمشق أدت بدورها إلى انتكاسات خطيرة أضعفت اقتصادها، وأوقفت ازدهارها، ويمكن إرجاع ذلك إلى عدد من العوامل منها:

التدهور الأمني: على الرغم من أن القوات الأمنية قد لعبت دوراً بارزاً في التطور العمراني إلا أنها ساهمت في بعض فترات الحكم العثماني لبلاد الشام في تدهور العمران وذلك بسبب الإضطرابات التي تحدث في أوساطها ومنها الإنكشارية وغيرها من القوات العثمانية النظامية أو المتطوعة ففي دمشق كانت بداية تلك الإضطرابات بسبب إرسال الباب العالي في عام ١٦٥٩م، بضع مئات من الجند لإخضاع الإنكشارية المحلية في دمشق مما أدى إلى تفاقم الوضع الأمني في دمشق بل وتداخلت المشكلة بين العسكريين والأهالي إذ مالت بعض الأهالي وخاصة من سكان حي عمارة الواقع داخل سور المدينة مع الجند المكلفة بإخضاع الانكشارية المحلية، كما أن الإنكشارية المحلية تلقت العون والتأييد والمساندة من الأحياء الواقعة خارج سور مدينة دمشق وخاصة منطقة الميدان، ويذكر البديري أنه في عام ١٧٤٦م، قرر حاكم دمشق مهاجمة الإنكشارية المحليين فقصف أحياءهم بالقنابل، وفرق جموعهم فهدأت الأوضاع في دمشق وتحسنت أحوال الناس على حد وصف البديري ولكنها

(٣٨) المصدر نفسه، ص ١١٤.

ما لبثت أن عادت تلك الاضطرابات في عام ١٧٤٨م، بعد صدور الأمر السلطاني برحيل القابقولي عن دمشق ولكن تلك الأوامر لم تنفذ، وفي عام ١٧٤٩م تسببت الاضطرابات في نهب (١٩٠٠بيت) وكانت الكارثة أكبر من ذلك بكثير في عام ١٧٥٧م، إذ تسبب الصراع في نهب (٢٤ألف بيت)[٣٩].

ثم اشتعل النزاع وزادت ضراوته بعد عزل أسعد باشا عن ولاية دمشق في عام ١٧٥٧م، فاندلعت الاضطرابات بدمشق في مايو واستمرت حتى أكتوبر من نفس العام. ونتيجة لتلك الاضطرابات فقد طلب أهالي دمشق من كل الغرباء الرحيل عن المدينة وعلى الرغم من تحقق هذا المطلب إلا أن الاضطراب زادت وبشكل مخيف فقد وصف البديري أن ما حدث لدمشق بعد وصول الوالي الجديد من نهب وتخريب بالكارثة فوصفها بأنها تشبه تلك الكارثة التي حلت بدمشق في أيام تيمور لنك[٤٠].

وكانت الأهالي في حلب في بعض الفترات تقوم بثورات عارمة كانت أسبابها في أغلب الأحيان اقتصادية وأشدها وأعنفها كان في عام ١٦٥٥م وعام ١٧٩١م، فقد رفضت جموع سكان حلب استقبال الباشوات والولاة التي عينتهم السلطنة العثمانية.١٠٩المدن الكبرى. وكانت أغلب أحداث التمرد في حلب ودمشق في ضواحيها[٤١].

وعلى الرغم من تلك الإضطرابات التي سادت بعض المدن إلا أن الأمن والطمأنينة كانت سائدة في أغلب أوقاتها وهذا بدوره عمل على تنشيط الحركة العمرانية في أغلب مدن الشام[٤٢].

---

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٠٨- د. حسن الضيقة، الدولة العثمانية الثقافة والمجتمع والسلطة، ص ٩٠.

(٤٠) أحمد البديري، حوادث دمشق اليومية، ص ٥، ٦٦، ٦٨- أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ص ٥٩.

(٤١) أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ص ١٥٤.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١١٠.

وفي الختام يمكن لهذا البحث المتواضع أن يصل إلى النتائج التالية:

١- أثر الاستقرار على الازدهار العمراني في الشام في أيام الدولة العثمانية.

٢- كان للرخاء الاقتصادي دورٌ في التغلب على العوامل المناخية في حلب ودمشق، إذ استخدم سكانها الحجارة التي جلبت من المناطق المجاورة أو استخدام مواد مقاومه للبرودة والحرائق مثل الطوب المحروق وغيرها من المواد.

٣- ازدهرت الصناعة في ضواحي مدينتي حلب ودمشق فتوسعت المدينتين خارج الأسوار.

٤- كان للجور والظلم دورٌ في إضعاف التطور في بعض فترات الحكم العثماني لبلاد الشام.

[illegible] الأمر [illegible] تلك الأخيرة إلا [illegible] وفي عام ١٧٤٩م تسببت الاضطرابات في نهب (١٩٠٠ بيت) وكانت [illegible] أكثر من [illegible] [39] [illegible] ولاية دمشق في [illegible] حتى أكتوبر من نفس العام، ونتيجة لذلك [illegible] من كل [illegible] إلا أن الاضطراب زادت وبشكل مخيف فقد [illegible] لدمشق بعد [illegible] تشبه تلك الكارثة التي حلت بدمشق في أيام تيمورلنك [illegible]

وكانت الأهالي في حلب في بعض الفترات تقوم بثورات عارمة كانت أسبابها في أغلب الأحيان اقتصادية وأشدها وأعنفها كان في عام ١٦٥٥م وعام ١٧٩١م، فقد رفضت جموع سكان حلب استقبال الباشوات والولاة التي عينتهم السلطنة العثمانية على المدن الكبرى، وكانت أغلب أحداث التمرد في حلب ودمشق في ضواحيها[41].

وعلى الرغم من تلك الاضطرابات التي سادت بعض المدن إلا أن الأمن والطمأنينة كانت سائدة في أغلب أوقاتها وهذا بدوره عمل على تنشيط الحركة العمرانية في أغلب مدن الشام[42].

---

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٨٠١؛ د. حسن الضيقة، الدولة العثمانية الثقافة والمجتمع والسلطة، ص ٩٠.

(٤٠) أحمد البديري، حوادث دمشق اليومية، ص ٦١، ٦٧-٦٨؛ أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ص ٥٩.

(٤١) أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ص ١٥٤.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٢١٠.

نظام الجامع العثماني وأثره في تخطيط بعض الجوامع الشامية "حلب ودمشق أنموذجاً"

جمال صفوت سيد حسن*

تمهيد

مع ظهور نجم العثمانيين كإمارة مستقلة بشمال غرب الأناضول بنهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي[1]، وحتي إعلان سقوط

---

* الدكتور.

(١) كانت الدولة العثمانية في بدايتها مجرد إمارة صغيرة من الإمارات التركمانية التي نشأت في شمال غرب الأناضول في فترة انهيار دولة سلاجقة الروم، ويرجع الفضل في تأسيسها إلى الأمير ارطغرل بك (توفي سنة ٦٨٢هـ/١٢٨١م)، وقد هيأت الأقدار لهذه الإمارة أن تحتل موقعا فريداً من ساحل بحر مرمره، حيث استقروا في مقاطعة (بثينا) التي عرفت فيما بعد بولاية خوند فندكار Hundavendigar)، فبفضل هذا الموقع الجغرافي جعلها بعيدة عن الإمارات التركمانية القوية في جنوب الأناضول وجنوب غربه، وبفضل هذا الموقع الممتاز أيضاً كان على العثمانيين أن يواصلوا قتالهم ضد الدولة البيزنطية، لذلك كانوا يزودون قوتهم على نحو متصل، بأفواج جديدة من المقاتلين التركمان القادمين من الشرق، الذين كانوا يتحرقون شوقا- للعمل كمجاهدين أو غزاة دفاعاً عن العقيدة، وقد اكتسبت الإمارة العثمانية من خلال هذه الأصول الغازية نوعاً من التقليد العسكري وحرية الحركة مما أتاح لها أن تتوسع وتزدهر، كما أتاح لها في النهاية فرصة الاستحواذ على جميع الإمارات التركمانية الأكثر ثباتا وتكوين الإمبراطورية العثمانية. ولمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع أنظر: *Alderson, A.D., The Structure of Ottoman Dynasty*, Oxford, 1956. Wittek, p. , *The Rise of Ottoman Empire*, London 1958, pp. 33-51. Kafadar, C., *Between Two Worlds, The* Imber, C., *The Ottoman State*, London, 1995, pp. 29-59. *Construction of the Ottoman Empire (1300-1650)*, Library of Congress, 2002, pp. 87-11. Inalcık, H., *The ottoman Empire, The Classical Age (1300-1600)*, Translated by Norman Itzkowitz & Cloin Cahen, C., *Pre Ottoman Turkey*, pp. 19-31. Davison, Imber, London, 1973, pp. 55-58. R. H., *Turkey*, New Jersey, without date, pp. 15-31.

الخلافة العثمانية في عشرينيات القرن العشرين[٢]، ظهرت العديد من التخطيطات المعمارية للجوامع والمساجد العثمانية، منها طراز الجامع القبة[٣] وطراز الجامع الايواني[٤] والطراز العربي

كوبرلي، محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، ط ٢، مصر، ١٩٩٣م. ياغي، إسماعيل أحمد، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، ط ١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٩-١٥. عامر، محمود أحمد، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، الجمعية التعاونية للطباعة، دار الرحاب ٢٠٠١م، ص ١٣-٣٣. أبو زيدون، وديع، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، الأهلية للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٢٠-٣٢.

(٢) أعلن مصطفي كمال أتاتورك في عام ١٩٢٤م سقوط الخلافة العثمانية وقيام الدولة التركية الحديثة.

(٣) يتكون هذا الطراز في جوهره من مساحة مربعة، تختلف من مسجد لأخر، يتوسط صدرها المحراب، وتغطي هذه المساحة قبة يختلف قطرها وارتفاعها من مسجد لأخر أيضاً، وتقوم هذه القبة على منطقة انتقال من الحنايا الركنية أو المثلثات الكروية أو المثلثات التركية أو المقرنصات، وكانت هذه المساجد في حالة إستخدامها كمساجد جامعة، تزود بالمنابر، رخامية كانت أم خشبية، هذا ويتقدم غالبية تلك المساجد رواق خارجي (سقيفة) تغطي بالقباب أو الأقبية أو الاثنين معاً، وفي أحيان قليله كانت تغطي بأسقف خشبية مسطحة، كذلك تشتمل غالبية تلك المساجد على مئذنة وأحياناً مئذنتين. الحداد، المجمل في الآثار والحضارة الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق، ط ١، ٢٠٠٦، ص ٥٣٨-٥٣٩. هذا وقد مر ذلك الطراز بعدة مراحل من التطور كان الهدف الرئيسي منها هو توسعة المسجد ليستوعب أكبر عدد من المصلين. الحداد، المجمل، ص ٥٣٩.

(٤) جوهر التخطيط في هذا الطراز هو المساحة الوسطي المربعة وإيوان واحد جهة القبلة، ويغطي المساحة الوسطي قبة غالباً، بينما يغطي الإيوان قبة أو نصف قبة أو قبو، وفي أحيان قليلة بل ونادرة يغطي الإيوان نصف قبة يتقدمها قبو، أما المساحات التي تكتنف المساحة الوسطي المربعة من جانبيها فهي تشغل نفس إمتداد تلك المساحة الوسطي من جانبيها (أي المحور العرضي) ومن هنا يظهر إيوان القبلة بارزاً عن سمت جداري جهة القبلة لتلك المساحات الجانبية، وبسبب ذلك إتخذ المسجد شكله المميز على هيئة حرف T، وهذه المساحات الجانبية غالباً ما تكون على هيئة حجرتين أو أكثر، وفي أحيان أخري تكون هذه المساحات الجانبية على هيئة إيوانين صريحين، بواقع إيوان بكل جانب، وفي هذه الحالة يصبح المسجد ذا ثلاثة إيوانات حول المساحة الوسطي (المركزية) وهنا يشغل كل من الإيوانين نفس إمتداد المساحة الوسطي (أي المحور العرضي)، وبالتالي يظهر إيوان القبلة بارزاً أو على هيئة حرف T. ولمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع أنظر: Kuran, A., *The Mosque in Early Ottoman Architecture*, The University of Chicago press, Chicago and London, 1968, p. 72. Goodwin, G. F., *A history of ottoman architecture*, Newyork, London,

الغـــير التقليدي(٥) وطراز الجامع التقليدي(٦) الذي إصطلح الباحثون على تسميته بالطراز الكلاسيكي أو العثماني(٧).

وللحق فلم تكن كل تلك التخطيطات من ابتكارات العثمانيين أنفسهم، فقد سادت بعضها في عصور سابقة على العصر العثماني، ولكن يرجع الفضل إلى العثمانيين في تطوير بعض هذه التخطيطات وإدخال بعض المعالجات المعمارية عليها تبعاً للظروف المناخية أو تبعاً لذوق المعمار نفسه(٨).

1987, p. 73. Oney, G., *Beylikler Devri Sanatı XIV-XV yuzyil (1300 - 1453)*, Ankara,1987, pp. 13-14. Hillenbran, R., *Islamic Architecture (form, function and meaning)*, The American University in Cairo press, 2000, p. 117.

أصلان آبا، أوقطاي، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد محمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول (ارسيكا)، إستانبول, ١٩٨٧م، ص ١٦٢. تحرير: إحسان أوغلي، أكمل الدين، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول (ارسيكا)، مجلدين، إستانبول، ١٩٩٩م، م٢، ص ٦٩٥. الحداد، المجمل، ص ٥٣٦. عبد الحافظ، عبد الله عطية، دراسات في الفن التركي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧، ص ٢٥٩.

(٥) ويسمى أيضاً "طراز المسجد ذو الأروقة دون الصحن"، ويتمثل جوهر التخطيط في هذا الطراز في خلوه من الصحن الأوسط، ومن ثم أصبح يتكون من مساحة مستطيلة أو مربعة تقسم إلى أروقة بواسطة عدد من البائكات تختلف من مسجد لأخر، وتتكون هذه البائكات من صفوف من الأعمدة (حجرية أو رخامية وأحيانا من الجرانيت أو الخشب) أو الدعامات تعلوها عقود غالباً، إما تتجه موازية لجدار القبلة فحسب، أو عمودية على جدار القبلة فحسب، وإما أن تكون متقاطعة (أي تتجه عقود البائكات عمودية على جدار القبلة وموازية له في ذات الوقت ولاسيما في المساجد التي تغطي بالقباب أو الأقبية أو الاثنين معاً)، وأحياناً كان لا يعلو الأعمدة أو الدعامات عقود، وفي هذه الحالة كان السقف الخشبي للمسجد يرتكز على كمرات أو عوارض خشبية أو الدعامات مباشرة. Unsal, B., *Turkish Islamic Architecture*, pp. 15-16. الحداد، بحوث ودراسات في العمارة الإسلامية، (الكتاب الأول) دار نهضة الشرق، ط ١, (١٩٩٦)، ط ٢ (٢٠٠٠)، ص ١٦٧-١٦٨.

(٦) ويسمى أيضاً بالطراز الإمبراطوري، وفيه يتكون تخطيط الجامع من قسمين رئيسيين أحدهما مغطي ويمثل الجامع نفسه والأخر مكشوف، ويعرف هذا الجزء المكشوف في الاصطلاح باسم الحرم "Harim - Avlu".

(٧) الحداد، المجمل، ص ٤٩٨.

(٨) ومن تلك التطورات على سبيل المثال، ما قام به المعمار العثماني من معالجات وإضافات على تخطيط جامعي عيسي بك بمدينة آياثلوق (٧٧٦هـ/١٣٧٤-١٣٧٥م) وإسحاق بك ضمن

هذا ومع بداية حركة التوسعات العثمانية في الشرق العربي خلال الربع الأول من القرن العاشر الهجري/١٦م وفتح العديد من المدن الشامية(٩) كحلب ودمشق وطرابلس الشام ومعرة النعمان والقدس الشريف، شيد العثمانيين بتلك المدن أعمال معمارية متنوعة من مجمعات ومساجد وجوامع ومدارس وزوايا وتكايا وأضرحة وخانات وقلاع وأسوار وأبواب وقصور ومنازل ومطاعم خيرية، بعض هذه العمائر شيّدعلى الطراز العثماني الخالص، والبعض الأخر منها ظهرت بها الكثير من التأثيرات العثمانية سواء في بعض العناصر المعمارية أو في العناصر الزخرفية.

هذا ويقتصر الباحث في هذه الورقة على دراسة تخطيط الجامع العثماني ومراحل تطوره وأثره على تخطيط بعض الجوامع الشامية وذلك في مبحثين:

يتناول المبحث الأول تخطيط الجامع العثماني ومراحل تطوره، في حين يتضمن المبحث الثاني الأثر العثماني في تخطيط الجوامع الشامية.

المبحث الأول: تخطيط الجامع العثماني ومراحل تطوره

كما سبق القول فقد استخدم العثمانيون في بداية عهدهم في تشيّد جوامعهم ومساجدهم تخطيطات معمارية كانت سائدة خلال العصور

كمليته بمانيسه (٧٦٦هـ/ ١٣٦٨م) بغرب الأناضول وكلاهما يتبع التخطيط العربي التقليدي، فقد عمد المعمار إلى إقامة حاجز بين المقدم وبين بقية الجامع، وبهذه الطريقة أصبح الجامع يبدو وكأنه مكون من قسمين أحدهما مغطي ويمثل المقدم والأخر مكشوف ويمثل الحرم والذي إصطلح على تسميته بـ"Avlu" وتلك من الإرهاصات الأولي لهذا النوع من التخطيط الذي أضحي سمة مميزة من سمات تخطيطات المساجد والجوامع الإسلامية خلال العصر العثماني وإطلق عليه الباحثون التخطيط الكلاسيكي التركي أو التخطيط الإمبراطوري.

(٩) كانت بلاد الشام مقدسة في نظر العثمانيين، فكانوا يطلقون على بعض المدن مثل دمشق صفات دينية مثل "شام شريف" و"باب الكعبة" وغيرها من الصفات الحميدة، هذا ونظراً لهذه الأهمية فقد أعد العثمانيون العدة لفتح هذه البلاد وتم ذلك على يد السلطان سليم الأول العثماني عقب إنتصاره على السلطان المملوكي قانصوه الغوري في معركة مرج دابق في عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م.

الإسلامية السابقة على العصر العثماني، ولكن ينسب إلى العثمانيين التطوير في هذه التخطيطات وهو ما جعلنا نطرح نظرية مهمة مفادها أن العثمانيين استطاعوا من خلال التخطيط المعماري الواحد الوصول إلى أكثر من تخطيط[١٠].

ومن التخطيطات المعمارية التي سادت بالجوامع والمساجد العثمانية، طراز المسجد القبة، والمسجد الايواني، وطراز الجامع ذو الأروقة دون الصحن، والطراز الكلاسيكي "العثماني- الإمبراطوري".

أولاً: تخطيط الجامع القبة[١١] (شكل ١)

يعد طراز المسجد القبة من أكثر الطرز المعمارية التي استخدمها العثمانيون في بداية عهدهم حيث وصلتنا أنماط عديدة من هذا الطراز وجدت

(١٠) فعلى سبيل المثال استطاع المعمار العثماني من خلال الإضافات الجانبية على تخطيط الجامع القبة إلى الوصول إلى تخطيط القلب والجناحين، ومن خلال التخطيطين السابقين تم الوصول إلى التخطيط الايواني أو حرف T المقلوب ومن خلال بعض المعالجات على التخطيطات السابقة تم عمل التخطيط الكلاسيكي المعروف بالتركي أو الإمبراطوري.

(١١) قسم أ.د محمد حمزة الحداد، طراز المسجد القبة إلى ستة أنماط، فبخلاف النمط الأول والثاني والذي سبق الحديث عنهما، نجد النمط الثالث والذي أطلق عليه مصطلح (القلب والجناحين) حيث قام المعمار بزيادة مساحة المسجد الداخلية من الجانبين (المحور العرضي) عن طريق إضافة رواقين غالباً أو إيوانين أحيانا عموديين على جدار القبلة ويشرفان على المساحة الوسطي (القبة)، ومن الملاحظ أنه يغلب على تصميم المساجد وغيرها من العمائر التي صممت وفق ذلك النمط الاتجاه الطولي (العمودي على جدار القبلة) غالباً بينما توجد بعض النماذج الأخرى التي يغلب عليها الاتجاه العرضي (أي الموازي لجدار القبلة)، إما النمط الرابع فلم يقتصر التطور فيه على توسيع المساحة الوسطي الداخلية للمسجد من الجانبين (المحور العرضي) فحسب وإنما امتد التطور فشمل أيضاً علاوة على ذلك توسيع هذه المساحة من العمق (المحور الطولي)، وقد قسم سيادته هذا النمط إلى أربعة نماذج، إما النمط الخامس، وفيها تم توسيع أو زيادة مساحة المسجد الداخلية عن طريق إضافة أربعة إيوانات أو دخلات صغيرة غير عميقة في أغلب الأحيان ولكنها أكثر إمتداداً تحيط بمربع القبة من جهاته الأربع، إما النمط السادس والتي تمت الإضافة فيه خارج كيان المساحة الداخلية للمسجد عن طريق زيادة عبارة عن ثلاثة أروقة (بلاطات) تحيط بمربع القبة من ثلاث جهات عدا جهة القبلة، ويغطي هذه الأروقة قباب صغيرة. الحداد، المجمل، ص ٥٣٨

في المدن العثمانية المختلفة[١٢]، بعضها يندرج تحت النمط الأول البسيط والذي ينحصر تخطيطه في جوهره في مساحة مربعة تعلوها القبة ويتقدم هذه المساحة المربعة رواق خارجي (سقيفة)[١٣] غالباً، وأحياناً تخلو هذه المساجد

-٥٤٩. ولمزيد من التفاصيل عن نفس الموضوع أنظر: الحداد، بحوث ودراسات (الكتاب الأول)، ص ١٤١-١٦٠.....، العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي (١٤٢٣/ ٢٠٠٢م، ص ١٦٨-١٩٤.....، طراز المسجد القبة، طرز المسجد القبة في المدينة المنورة والهفوف (الكتاب الأول) دراسة تحليلية للتخطيط وأصوله في العمارة الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق ط ٢، ٢٠٠٤م، ص ١١-٣٨. موسوعة العمارة الإسلامية في مصر (من الفتح العثماني إلى نهاية عهد محمد علي ٩٢٣-١٢٦٥هـ/١٥١٧-١٨٤٨م)، المدخل، الكتاب الأول، دار زهراء الشرق ٢٠٠٤م، ص ١٠٥-١١٢.

(12) Kuran, A., *The Mosque in Early Ottoman Architecture the University of Chicago Press*, Chicago and London, 1968, pp. 30-31. Oney, G., *Beylikler Devri Sanatı*, p.4.

مانتران، روبير، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ج ١, ط ١, دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٣م، ج ٢، ص ٣٦٣-٣٦٤.

(١٣) أطلق الأتراك على الرواق الخارجي أو السقيفة مصطلح (صون جماعت يري) (Son Cemaat yeri)، أي مكان الجماعة المتأخرة. وقد ذكر أحد الباحثين أن عنصر السقيفة أضيفت إلى تخطيط المساجد الأناضولية وذلك في عصر الإمارات التركمانية، وأصبح تخطيط المسجد بعدها عبارة عن مربع تعلوه قبة وتتقدمه سقيفة مغطاة بالقباب أو الأقبية أو بالاثنين معاً أو بالسقف الخشبي. تيمور، هدايت علي، جامع الملكة صفية، مخطوط رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآثار جامعة القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٤٥. ولكن بعد البحث والدراسة اتضح لنا أن عنصر السقيفة التي تتقدم المساجد في طراز المسجد القبة قد ظهر بالأناضول منذ القرن ٧هـ/١٣م، وتتضح أقدم نماذجها في مسجد طاش في قونية (٦١٢هـ/ ١٢١٥م) حيث يتقدم المسجد سقيفة ثلاثية يتوجها أقبية نصف برميلية. الحداد، طرز المسجد القبة، ص ١٩.

هذا وقد ظهر عنصر السقيفة ببعض العمائر الإسلامية خارج حدود منطقة الأناضول، ومن أقدم نماذجها الباقية فتوجد بمسجد بوفتاته بسوسة (٢٢٣-٢٢٦هـ/ ٨٣٨-٨٤١م). الريحاوي، عبد القادر. مظاهر التجديد المعماري في مصر الفاطمية، مستخرج من كتاب دراسات وبحوث في الآثار والحضارة الإسلامية (الكتاب التقديري للآثاري عبد الرحمن عبد التواب) وزارة الثقافة، المجلس الأعلى للآثار، ج ١, ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٣٢٩.

كما وجدت نماذج لها بالعمائر الإسلامية في مصر ومن أمثلتها السقيفة التي تتقدم كل من مشهد السيدة رقية (٥٢٧هـ/ ١١٣٢م) ومسجد الصالح طلائع بالقاهرة (٥٥٥هـ/١١٦٠م). تيمور، مسجد الملكة صفية، ص ٤٥.

من مثل هذا الرواق، ومن هذه النماذج على سبيل المثال وليس الحصر كل من:

جامع حاج أوزبك[١٤] في إزنيك (٧٣٤هـ/١٣٣٣م) وجامع علاء الدين بك في بورصة[١٥] (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) وجامع حاجي حمزة في إزنيك (٧٤٤هـ/١٣٤٥م)[١٦] ومسجد خداوندكارفي توزلا (٧٦٧هـ/١٣٦٦م)[١٧] ومسجد خوجه يدغار في انونو (٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)[١٨] وجامع بايزيد يلدريم في مودورنو (٧٨٤هـ/١٣٨٢م)[١٩]، ومسجد شاه ملك بأدرنه (٨٣٢هـ/١٤٢٨م) ومسجد الأغوات بأستنبول (يؤرخ بالنصف الثاني من القرن الـ ٩هـ/١٥م) والجامع العتيق (اسكي جامع) في اسكي زغرا (شتارازاجورا حالياً) ببلغاريا (٨١١هـ/١٤٠٩م) ومسجد حمزه بك في سالونيك باليونان (٨٧٢هـ/١٤٦٧م) ومسجد السليمانية بجزيرة رودوس (٩٤٧هـ/١٥٤١م) ومسجد باش جارشا

---

(١٤) يعرف هذا الجامع، بجامع السوق وهو يتألف من مساحة مربعة يبلغ طول ضلعها (٧,٩٠م) يتوجها قبة ويتقدمها سقيفة، والجامع متأثر بشكل واضح بعمارة المساجد السلجوقية. Kuran, A., *The Mosque*, pp. 30-31. Aslanapa, O., *Türk Sanatı (14 yüzyıl)*, 1972-1973, p.175.

(١٥) بورصة (بروسة)- يقع القسم الأكبر من مدينة بورصة ضمن بحر مرمره في شمال غرب تركيا ويحدها بحر مرمرة شمالاً وتتلاقي حدودها من الشمال كذلك مع حدود ثلاث ولايات كبري وهي استانبول وقوجه لي وسقارية ومن الشرق يحدها ولاية بيله جك ومن الجنوب كوتاهية وبالكسير بالإضافة إلى بحيرة إزنيك، وتمتد حدود بورصة الجنوبية حتى المناطق الشمالية لبحر ايجه، وللمدينة شهرة كبيرة في مجال الفنون والعمارة الإسلامية. ولمزيد من التفاصيل عن هذه المدينة أنظر: عبدالحافظ، دراسات في الفن التركي، ص ١٣١-١٣٥.

(١٦) عبد الحافظ، دراسات في الفن التركي، ص ٣٠١-٣٠٢.

(١٧) الحداد، العمارة الإسلامية، ص ١٧٠.

(18) Kiziltan, A., *Anadolu Beyliklerinde Camii*, pp. 106-107, Sekil, 57.

(١٩) وهو عبارة عن مساحة مربعة تقريباً (٢٠,٧٠x ١٩,٦٥م) يتقدمها سقيفة عبارة عن بائكة ثلاثية يتوجها ثلاثة قباب أصغرها حجماً القبة الوسطي، كما يشتمل الجامع بالطرف الشمالي الغربي من تخطيطه على مئذنة. كما تعد قبة هذا الجامع والتي وصل قطرها إلى (١٩,٦٥م) أكبر القباب الباقية في العمارة الأناضولية خلال القرن ٨هـ/١٤م. Kuran, A., *The Mosque*, pp. 40-41.

بسراييفو (أوائل القرن الـ ١٠هـ/١٦م) ومسجد سنان بك في مدينة كوماتوفو بمقدونيا (أواخر القرن الـ ٩هـ/١٥م) وفي مسجد المرادية في مدينة فلورا بألبانيا (يؤرخه كيل بالنصف الأول من القرن الـ ١٠هـ/١٦م)[٢٠].

وظهرت نماذج من هذا الطراز ببعض العمائر الجنائزية في العصر العثماني أيضاً ومنها كل من تربة بايزيد يلدريم وتربة حاجي سلطان في بورصة[٢١].

كما ابتكر العثمانيون نمطاً متطوراً من أنماط المسجد القبة، وفي هذا النمط لم يعد التخطيط قاصراً على مجرد المساحة المربعة التي تعلوها القبة وتتقدمها السقيفة أم لا، وإنما قام المعمار بتوسعة هذه المساحة من الخارج، عن طريق زيادة عبارة عن ثلاثة أروقة (بلاطات) تحيط بمربع القبة من ثلاث جهات عدا جهة القبلة، ويغطي هذه الأروقة قباب صغيرة، ومن الملاحظ أنه يتوسط صدر كل رواق من الرواقين الجانبين لهذه الزيادة محراب صغير غالباً، وقد ذكر أحد الأساتذة أن نماذج هذا النمط قليلة للغاية ويعد مسجد أورخان غازي في بلاجيك (٧٥٧-٧٧٦هـ/ ١٣٥٦-١٣٧٤م) أهم النماذج التي ظهرت فيها مثل هذه التطورات، ثم ظهرت هذه التطورات بعد ذلك ب مسجد لاري جلبي بادرنه (٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)[٢٢].

وعلى آية حال فقد دخل على تخطيط المسجد القبة تطورات وإضافات مختلفة فيما بعد كان الغرض منها هو توسعة مساحة المسجد ليستوعب أكبر عدد من المصلين، هذه التطورات والإضافات التي كانت بمثابة إرهاصات

---

(٢٠) الحداد، العمارة الإسلامية، ص ١٧٠- ١٧٤.

(21) Kuran, A., *The Mosque*, pp. 30-70.

(٢٢) الحداد، المجمل، ص ٥٤٩.

لظهور طراز معمارية عديدة منها على سبيل المثال الطراز الكلاسيكي العثماني "الإمبراطوري"[٢٣].

ثانياً: طراز الجامع الايواني (شكل ٢)

عرف هذا النوع من التخطيط بمسميات مختلفة منها، طراز بورصة أو بروسة الثالث وطراز حرف T المقلوب (The Reverse T) وطراز المسجد ذو الوظائف المتعددة وطراز المسجد ذو الأجنحة أو المساحات الجانبية وطراز المسجد ذو التخطيط المحوري الصليبي أو المتقاطع (Cross-Axial Mosque) وطراز المسجد الزاوية، والطراز الايواني للمسجد[٢٤].

هذا وقد ذكر بعض الباحثين أنه بخلاف الوظيفة الأساسية لهذا الطراز من المساجد وهي الصلاة، فقد كانت الحجرات الجانبية به تستخدم كنزل للفقراء والمحتاجين[٢٥].

---

(٢٣) ولمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع أنظر: Kuran, A., *The Mosque*, pp. 31-202. Arik, O., "Turkish art and architecture (Seljuk, Interregnum and Ottoman Empire Periods", *Turkish Historical Society*, Ankara, 1985, pp. 85-88. Akurgal, E., *L'art en Turquie, Office du liver*, France, 1981, pp. 116-117. Aslanapa, O., *Türk Sanatı (14 yüzyıl)*, pp. 17-18.
تيمور، جامع الملكة صفية، ص ٤٤-٦٦. أصلان أبا، فنون الترك، ص ١٧٠. مانتران، تاريخ الدول العثمانية، ج ٢، ص ٣٦٥. الحداد، طراز المسجد القبة، ص ٢٥-٣٨.

(٢٤) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع أنظر: Kuran, A., the mosque, p.72. -Goodwin, G. F., A history, p.73.- Oney, G., *Beylikler Devri Sanatı*, pp. 13-14. -Hillenbrand, R., Islamic Architecture, p.117.
أصلان أبا، فنون الترك، ص ١٦٢. أوغلي، الدولة العثمانية، م٢، ص ٦٩٥. الحداد، المجمل، ص ٥٣٦. عبد الحافظ، دراسات في الفن التركي، ص ٢٥٩.

(25) Kuran, A., the mosque, pp. 72- 205. Oney, G., *Beylikler Devri Sanatı*, p. 12.
أوغلي، الدولة العثمانية، م٢، ص ٦٩٦. الحداد، العمارة الإسلامية، ص ١٩٤. عبدالحافظ، دراسات في الفن التركي، ص ٢٦٠.

وجوهر التخطيط في هذا الطراز هو المساحة الوسطي المربعة وإيوان واحد جهة القبلة، ويغطي المساحة الوسطي قبة غالباً، بينما يغطي الإيوان قبة أو نصف قبة أو قبو، وفي أحيان قليلة بل ونادرة يغطي الإيوان نصف قبة يتقدمها قبو، أما المساحات التي تكتنف المساحة الوسطي المربعة من جانبيها فهي تشغل نفس إمتداد تلك المساحة الوسطي من جانبيها (أي المحور العرضي) ومن هنا يظهر إيوان القبلة بارزاً عن سمت جداري جهة القبلة لتلك المساحات الجانبية، وبسبب ذلك اتخذ المسجد شكله المميز على هيئة حرفT[٢٦]، وهذه المساحات الجانبية غالباً ما تكون على هيئة حجرتين أو أكثر، وفي أحيان أخري تكون هذه المساحات الجانبية على هيئة إيوانين صريحين، بواقع إيوان بكل جانب، وفي هذه الحالة يصبح المسجد ذا ثلاثة إيوانات حول المساحة الوسطي (المركزية) وهنا يشغل كل من الإيوانين نفس إمتداد المساحة الوسطي (أي المحور العرضي)، وبالتالي يظهر إيوان القبلة بارزاً أو على هيئة حرف T[٢٧].

هذا ويعد هذا النمط من التخطيط من أكثر الأنماط التي أستخدمت بجوامع المدن العثمانية المختلفة ومنها على سبيل المثال:

جامع أورخان بك في إزنيك (٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) وجامع أورخان بك في بورصة (٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م) وجامع المرادية في بورصة (٧٦٢-٧٩٣هـ/١٣٦٠-١٣٨٩م) وجامع بايزيد يلدريم في بورصة (٧٩٣- ٧٩٨هـ/١٣٩٠-١٣٩٥م) وجامع بايزيد باشا في أماسيا (٨١٧- ٨٢٢هـ/١٤١٤- ١٤١٩م) والجامع

هذا وقد كان يطلق على الحجرات (المساحات) الجانبية، تاب خانه (طب خانه) (Tabhane)، ولهذا السبب فقد كانت الجوامع التي تحتوي على مثل هذه الحجرات الجانبية تعرف بالجوامع ذات التاب خانة (الطب خانه). عبد الحافظ، دراسات في الفن التركي، ص ٢٦٠.

(٢٦) الحداد، المجمل، ص ٥٣٦.

(٢٧) الحداد، المجمل، ص ٥٣٦.

الأخضر (يشيل جامع) في بورصة (٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م) وجامع المرادية بادرنه (٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م) ومسجد شهاب الدين باشا في فيليه (بلوفديف ببلغاريا) (٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م) وجامع حمزة بك في بورصة (يؤرخ بالنصف الثاني من ق ٩هـ/ ١٥م)[٢٨]. وجامع يخشي بك (Yesil Imaret)[٢٩] في تيره (٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م) وجامع كزان أغلو (Kazanoglu) في تيره (القرن ٩هـ/١٥م)[٣٠]، ومسجد عيسي بك في أسكوب(٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م)[٣١].

هذا ولم يقتصر إستخدام هذا الطراز على المساجد فحسب، بل صممت على أساسه بعض أنماط العمائر الخيرية ومنها تلك المنشآت التي أصطلح على تسميتها باسم (عمارت[٣٢])، منها على سبيل المثال:

عمارت غازي أورنوس في كوموتيني (كومولجينه) باليونان (٧٧٧-٧٨٢هـ/١٣٧٥-١٣٨٠م)[٣٣] وعمارت نيلوفر خاتون المعروفة بزاوية نيلوفر

---

(28) Kuran, A., the mosque, pp. 72-136. Oney, G., *Beylikler Devri Sanatı*, p.14.

(٢٨) الحداد، المجمل، ص ٥٣٦- ٥٣٧. الحداد، العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية، ص ١٩٦.

(٢٩) يشيل عمارت (دار المرق الخضراء)، ويطلق عليه جامع يخشي بك، يقع هذا الجامع بالمحلة الجديدة بمدينة تيره، بناه الأمير عبد الله أوغلو خليل (يخشي بك) أحد قادة السلطان مراد الثاني، ويمتاز هذا الجامع بظهور نصف قبة تعلو المحراب، ويشغل مكان الجامع حالياً متحف مدينة تيره. ولمزيد من التفاصيل عن هذا الجامع أنظر: Aslanoglu, I, "Tire'de Camiler ve Üç Mescit", *Orta Dogu Teknik Üniversitesi, Mimarlık Fakültesi*, 1978, pp. 36-37. Sekil, 28.

(٣٠) يقع هذا الجامع بمدينة تيره وذلك في منطقة تسمي ألاني ششمه أو سبيل ألاني (Alani Cesme) بمقاطعة (Duatepe) جنوب شرق المدينة، ويتقدم المدخل الشمالي لهذا الجامع سقيفة، كما يشتمل الجامع على مئذنة .Aslanoglu, I, Tire de camiler, pp. 169-170

(٣١) الحداد، العمارة الإسلامية، ص ١٩٦.

(٣٢) عمارت (Imaret) وتعني (المطبخ الخيري)، كانت تخصص لطهي الطعام وإعداد المرق وتوزيعه على المقيمين بالمنشأة وكذلك من يرد إليها من الضيوف ومن فقراء المنطقة التي يقع بها، وكان لهذه الوحدة المعمارية تخطيط معين فكانت تتكون من مطبخ وفرن ومخازن للأرزاق وقاعة للطعام وحجرات المستخدمين. عبد الحافظ، دراسات في الفن التركي، حاشية ٢٨٩، ص ٢٧٧.

(٣٣) الحداد، المجمل، ص ٥٣٧.

خاتون بإزنيك (٧٨٩هـ/١٣٨٧م) وعمارت يعقوب جلبي في إزنيك قبل عام (٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م)[٣٤] وعمارت ميخال أوغلو محمد بك في اهتمان ببلغاريا (٧٩٣-٧٩٨هـ/١٣٩٠-١٣٩٥م)[٣٥]، وعمارت أورخان بك في بلاجيك(ق ٨هـ/ ١٤م) وعمارت يعقوب بك في كوتاهية (٨١٤هـ/١٤١١م)[٣٦].

ومع مرور الوقت دخل على هذا النوع من التخطيط عدة تطورات فيما بعد، تلك التطورات التي لم تكتف على توسعة المسجد من الداخل فقط بل شملت المسجد من الخارج أيضا[٣٧].

ثالثاً: طراز المسجد ذو الأروقة دون الصحن[٣٨]

ساد هذا النمط من التخطيط ببعض المساجد والجوامع العثمانية منذ أواخر القرن الـ ٨هـ/ ١٤م، ومن نماذجه على سبيل المثال:

(34) Goodwin, G. F., A history, pp. 75-76. Oney, G., *Beylikler Devri Sanatı*, p.14. الحداد، المجمل، ص ٥٣٧

(٣٥) الحداد، المجمل، ص ٥٣٧.

(36) Oney, G., *Beylikler Devri Sanatı*, p.14.

(٣٧) كان من أهم هذه التطورات ظهور النصف قبة أعلى المحراب والتي ظهرت أول نماذجها في مسجد البيلربي (بكلربكي) (٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م) والذي ينسب إلى يوسف باشا في أدرنة، ثم تطورت بعد ذلك في مسجد يخشي بك في تيره (٨٥٠هـ/١٤٤٦م). أصلان آبا، فنون الترك، ص ١٨١. ولمزيد من التفاصيل عن هذه التطورات أنظر: الحداد، العمارة الإسلامية، ص ١٩٩-٢٠٦.

(٣٨) يعرف هذا الطراز أيضاً بالطراز العربي غير التقليدي، ويتمثل جوهر التخطيط في هذا الطراز في خلوه من الصحن الأوسط، ومن ثم أصبح يتكون من مساحة مستطيلة أو مربعة تقسم إلى أروقة بواسطة عدد من البائكات تختلف من مسجد لأخر، وتتكون هذه البائكات من صفوف من الأعمدة (حجرية أو رخامية وأحيانا من الجرانيت أو الخشب) أو الدعامات تعلوها عقود غالباً، إما تتجه موازية لجدار القبلة فحسب، أو عمودية على جدار القبلة فحسب، وإما أن تكون متقاطعة (أي تتجه عقود البائكات عمودية على جدار القبلة وموازية له في ذات الوقت ولاسيما في المساجد التي تغطي بالقباب أو الأقبية أو الاثنين معاً)، وأحياناً كان لا يعلو الأعمدة أو الدعامات عقود، وفي هذه الحالة كان السقف الخشبي للمسجد يرتكز على كمرات أو عوارض خشبية أو الدعامات مباشرة. Unsal, B., *Turkish Islamic Architecture*, pp. 15-16.

جامع خداوندكار في فيلبه (بلوفديف ببلغاريا) ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م بينما يؤرخه كيل بعصر السلطان مراد الثاني ٨٢٦-٨٣٤هـ/١٤٢٢-١٤٣٠م[٣٩]، ومسجد (Sara-chane) في اماسيا (٧٩٨هـ/ ١٣٩٩م)[٤٠]، وجامع بايزيد يلدريم في برجامة (٨٠١هـ/ ١٣٩٨م) والجامع الكبير في بورصة (٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م) وأسكي جامع (الجامع العتيق)[٤١] في أدرنه (٨٠٦-٨١٧هـ/١٤٠٣-١٤١٤م)، الجامع الكبير في المحلة الجديدة (Yeni Mahalle) بمدينة تيره[٤٢]، ومسجد مراد الثاني في أسكوب (٨٤٠هـ/١٤٣٦م) ومسجد الخنكار أو الحاكم في البسان بألبانيا (٨٩٦-٩٠٥هـ/ ١٤٩٠-١٥٠٠م) ومسجد بايزيد الثاني في بيرات بألبانيا (٨٩٨هـ/١٤٩٢م) ومسجد عتيق باشا في ذنجرلي كوي في إستنبول (٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م)[٤٣].

الحداد، بحوث ودراسات (الكتاب الأول)، ص ١٦٧-١٦٨. المجمل، ص ٥٣٠. هذا وقد قسم أ.د. محمد حمزة الحداد، المساجد التي تنتمي إلى هذا الطراز إلى ثلاثة أنماط، النمط الأول وفيه تسير عقود البائكات موازية لجدار القبلة، ويتراوح عدد هذه البائكات بين بائكة واحدة وست بائكات، وبالتالي فإن عدد الأروقة (البلاطات في هذا النمط يتراوح بين رواقين وسبعة أروقة، ومن أقدم النماذج التي صممت وفق هذا النمط في العمارة الإسلامية، المسجد الملحق بقصر جبل سيس (٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥م) وهو يشتمل على بائكة واحدة تحصر فيما بينها رواقين موازيين لجدار القبلة، إما النمط الثاني ففيه تسير عقود البائكات عمودية على جدار القبلة، والنمط الثالث وفيه تسير عقود البائكات في الاتجاهين العمودي والموازي (الطولي والعرضي) لجدار القبلة في ذلك الوقت، وتسقف مساجد هذا النمط بالأقبية أو القباب أو الاثنين معاً، ومن أقدم نماذجه في العمارة الإسلامية صهريج الرملة بفلسطين (١٧٢هـ/٧٨٨م) وتسقفه الأقبية البرميلية. الحداد، المجمل، ص ٥٣١-٥٣٥.

(٣٩) الحداد، العمارة الإسلامية، ص ٢٠١.

(40) Akurgal, E., L art en turquie, p.119.

(41) Sönmez, Z., *Anadolu Türk Islam Mimarsind Sanatcilar*, Istanbul, 1989, p.388, Plan, 82.

(٤٢) والجامع عبارة عن مساحة مربعة الشكل أبعادها (٢٣,٩٠x٢٣,٤٠م) يتقدمها سقيفة تشرف على الخارج من خلال بائكة خماسية، كما يشتمل الجامع بالطرف الشمالي الشرقي، عند إلتقاء الواجهة الشمالية بالواجهة الشرقية على مئذنة. Aslanoglu, I., Tire de camiler, pp. 24-25, Palan, 17.

(٤٣) الحداد، العمارة الإسلامية، ص ٢٠٦-٢٠٧.

هذا ويذكر أحد الباحثين أن هذا النمط من التخطيط أنتقل إلى الأناضول بتأثير من عمائر الأيوبيين والمماليك في بلاد الشام(٤٤).

رابعاً: **الطراز التقليدي "الكلاسيكي-العثماني-الامبراطوري"** (شكل ٣)

يعد الطراز الكلاسيكي آخر طرز عمارة المساجد الإسلامية عامة والعثمانية خاصة، وهو الطراز الذي أبدع فيه المعمار الفذ سنان وتلاميذه من بعده، ويتكون هذا الطراز من قسمين أساسيين متلازمين مثل تلازم وجهي العملة- قسم مغطي ويمثل الجامع الرئيسي وهو ما يعرف خطأ في المراجع العربية والأجنبية "ببيت الصلاة "، وقسم مكشوف ويمثل الحرم "Avlu".

هذا وقد ذكرت في أحدي الدراسات السابقة(٤٥) أن إرهاصات هذا النمط من التخطيط يرجع إلى عصر الإمارات التركمانية(٤٦) وبخاصة ما كان منها بغرب الأناضول، فظهر في جامع إسحاق بك ضمن كليته في مانيسا (٧٦٨هـ/

---

(44) Oney, G., *Beylikler Devri Sanatı*, p. 8.

(٤٥) جوامع أسرة بني رمضان في ضوء مشاهدات الرحالة التركي "أوليا جلبي والواقع" بحث ألقي ضمن فاعليات الندوة الدولية "صورة العالم الإسلامي في سياحة نامه أوليا جلبي" والتي عقدت في رحاب جامعة آل البيت بالتعاون بين مركز دراسات العالم الإسلامي ومركز ارسيكا خلال الفترة من (١٨-٢٠ ديسمبر ٢٠١١م)، ص ١٤.

(٤٦) عرفت هذه الفترة بمسميات مختلفة منها، عصر البكوات، الإمارات، ملوك الطوائف، المشيخات، عصر إمرة الأمراء، أمراء الغزاة (الغازيان) أو البكلر بكي، ويعد هذا العصر من العصور التاريخية المهمة في سلسلة التاريخ الإسلامي، حيث كانت أغلب هذه الإمارات- إمارات غزاه مجاهدين ضد الفرنجة ولنشر تعاليم الدين الإسلامي، وقد لعبت بعض هذه الإمارات والتي كانت تقوم على نظام الأخية (الفتوة) دوراً مهماً في حماية ثغور الدولة السلجوقية من هجمات البيزنطيين وفي غزو وضم بعض الممتلكات البيزنطية إليها، واتخذت هذه الإمارات من الدولة السلجوقية أنموذجاً لها، كما كانت للحضارة السلجوقية تأثير كبير على مدنهم. ولمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع أنظر: سيد، العمائر الدينية، ص ٦-٤٩.

١٣٦٦م) وهو أحد الأعمال المعمارية لأسرة بني صاروخان[٤٧]، وفي جامع عيسي بك في سلجوق (٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) وهو أحد الأعمال المعمارية لأسرة بني أيدين[٤٨]، فالناظر إلى تخطيط أي من الجامعين لأول وهلة يجد قسمين يكاد ينفصل إحداهما عن الآخر، قسم يمثل المقدم ذو التطورات الجديدة وخاصة في حال إشرافه على الصحن، فلم يعد المقدم يشرف بكامل اتساعه على الصحن ولكن أضاف المعمار جدار رابع في الجهة الشمالية يتخللها عدد من الفتحات لأبواب وشبابيك، أما القسم الثاني فيمثل الحرم، وتلك من الإرهاصات الأولي لظهور التخطيط الذي أصطلح على تسميته بالطراز التقليدي " الكلاسيكي التركي"[٤٩].

هذا ويذكر أ.د محمد حمزه الحداد أن هذا الطراز (الكلاسيكي– العثماني) لا يقتصر فقط على النموذج المثالي له وهو النموذج الذي يشتمل على القبة المركزية وأنصاف القباب الأربعة الصغيرة في الأركان، وإنما يندرج تحت هذا النمط كل النماذج التي أضيف إليها حرم (بدلا من الرواق الخارجي أو السقيفة) سواء أكانت تتبع طراز المسجد القبة بنمطه البسيط أو المتطور أو طراز المسجد الإيواني[٥٠].

---

(٤٧) بني صاروخان (٧٠٠-٨١٣هـ/١٣٠٠-١٤١٠م), اسم أسرة تركمانية استقرت بأمر نفسها بالأناضول الغربية عندما انهارت دولة سلاجقة الروم، وصارت أمورها تتبع التقاليد التركية القديمة. ولمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع أنظر: سيد، العمائر الدينية، ص ٢٢-٣٣.

(٤٨) بني أيدين (٧٠٠-٨٢٩هـ/١٣٠٠-١٤٢٥م)، تقع هذه الإمارة في جنوب غرب الأناضول وينسب لأمراء هذه الإمارة الأهتمام بالبناء والتشييد، فشيدوا العمائر في ربوع الإمارة المختلفة. ولمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع أنظر: سيد، العمائر الدينية، ص ١٠-٢١.

(٤٩) سيد، جمال صفوت، العمائر الدينية بغرب الأناضول إبان عصر الإمارات التركمانية "البكوات" مخطوط رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار جامعة القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٢٣٢ -٢٣٣.

(٥٠) الحداد، المجمل، ص ٥٥٠.

ولعل هذا يتطابق أيضاً مع النظرية التي سبق وأن طرحناها بأنه يمكن الوصول من التخطيط المعماري الواحد إلى أكثر من تخطيط.

هذا ويعد جامع أوج شرفه لي في أدرنه[٥١] (٨٤١-٨٥١هـ/ ١٤٣٧-١٤٤٧م) أول جامع عثماني شيّد على هذا النمط، ثم تطور هذا النمط من التخطيط خلال العصر العثماني وبخاصة في الجوامع السلطانية وجوامع الصدور العظام والوزراء وتوجد نماذج كثيرة لها بالعديد من المدن العثمانية سواء داخل تركيا أو خارجها، ومن نماذجها على سبيل المثال: مسجد الخنكار في سراييفو (٨٦٦هـ/ ١٤٦٣م) ومسجد بايزيد الثاني ضمن كليته في أدرنه (٨٨٩ - ٨٩٤هـ/١٤٨٤ - ١٤٨٨م) ومسجد السلطان بايزيد (٩٠٧ - ٩١٢هـ/ ١٥٠١-١٥١٢م) ومسجد السليمية (٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م) ومسجد سنان باشا في بشكطاش (٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م)[٥٢] وجامع الشاهزاده محمد (٩٥١ - ٩٥٥هـ/ ١٥٤٤-١٥٤٨م) وجامع السلطان أحمد (١٠١٨-١٠٢٧هـ/ ١٦٠٩-١٦١٧م) وجامع الوالدة الجديد "يني جامع" (١٠٢٣-١٠٧٤هـ/١٦١٤-١٦٦٣م) جامع

(٥١) أوج شرفه لي، أي المسجد ذو الشرفات الثلاثة، شيد في عصر السلطان مراد الثاني (٨٤١-٨٥١هـ/ ١٤٣٧- ١٤٤٧م)، وتظهر في هذا المسجد الكثير من الملامح المعمارية البارزة للعمارة العثمانية، فيشتمل المسجد على قبة ضخمة مقامة على قاعدة سداسية يبلغ قطرها (٢٤,١٠م) بالإضافة إلى أربع قباب صغيرة تلاصق القبة الكبرى، إما الحرم فيشتمل على اثنتين وعشرون قبة تشتمل على زخارف فنية منفذة من خلال إستخدام قطع صغيرة من البلاطات الخزفية ذات اللون الأزرق في منتهي الروعة والجمال. ولمزيد من التفاصيل عن هذا المسجد، أنظر: Yetkin, Suut Kemal, *Türk Mimarisi*, Ankara, 1970, pp. 180-182. Arel, A., Üç Şerefeli Camii ve Osmanlı Mimarisinde Tipolojk Sınıflandırma Sorunu, Mimarlik no, 116, Istanbul, 1973, pp. 17-20. أصلان آبا، فنون الترك، ص ١٨١-١٨٣.

(٥٢) فتحي، أميره عماد، الجامع المدرسة في إستانبول خلال النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير الآثار جامعة القاهرة، ٢٠١١م، ص ٢١٦ -٢١٧.

السلطان محمد الفاتح بعد تجديده عام ١١٨٥هـ/ ١٧٧١م) وجميع المساجد السابقة بمدينة إستانبول[٥٣].

المبحث الثاني: الأثر العثماني في تخطيط الجوامع الشامية

أعقب الفتح العثماني لبلاد الشام نهضة معمارية وفنية كبيرة، حيث ينسب لسلاطين بني عثمان وولاتهم الكثير من الأعمال المعمارية بمدن الشام المختلفة[٥٤] كحلب ودمشق وطرابلس الشام ومعرة النعمان والقدس، وظهر الطابع العثماني في العمائر المشيّدة بتلك المدن واضحاً جلياً وبخاصة في عمارة الجوامع والمساجد.

هذا وقد أورد كل من الرحالة محمد عاشق وأوليا جلبي في رحلتيهما إلى بلاد الشام أوصافاً عديدة لبعض هذه الجوامع وبخاصة تلك الموجودة بمدينتي حلب ودمشق، وشمل الوصف الكثير من العناصر المعمارية وبخاصة المآذن والقباب[٥٥].

---

(٥٣) الحداد، العمارة الإسلامية، ص ٢٠٧-٢٢٠.

(٥٤) الشهابي، مآذن دمشق تاريخ وطرز، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٩٣م، ص ٣٢٥.

(55) Mehmed Aşık ibn 'Omer Bayezid, *Menâzirü'l-Avâlim*, ms. Süleymaniye Library, Halet Efendi 616, fol. 228r. The term Rum, literally "Rome", was used to denote the central lands of the Ottoman realm during this period. Evliya Çelebi, Seyahatnâme, ms. Süleymaniye Library, Hacı Beşir Ağa 452, fols. 75v-76r, 130v-105r.

أولاً: جوامع مدينة حلب

تضم مدينة حلب عشرات العمائر التي شيّدت خلال العصر العثماني[٥٦]، ومن هذه العمائر بعض المساجد والجوامع التي شيّدت وفق الطراز العثماني الوافد منها على سبيل المثال: جامع خسرو باشا ضمن مجمعه والمؤرخ بسنة (٩٥٣هـ/ ١٥٤٦-١٥٤٧م) وجامع العادلية (٩٦٣هـ/١٥٥٥-١٥٥٦م) وجامع عثمان باشا ضمن مجمعه والمؤرخ بسنة (١١٤٠هـ/ ١٧٣٠م).

جامع خسرو باشا ضمن مجمعه بحلب (٩٥٣هـ/ ١٥٤٦-١٥٤٧م) (شكل ٤).

هذا الجامع هو جزء من مجمع معماري كبير شيّد من قبل خسرو باشا الوالي العثماني على مدينة حلب على يد المعمار الفذ سنان[٥٧]، وتؤرخ

(٥٦) تعددت أنواع هذه العمائر بين العمائر الدينية ومنها الجوامع والمساجد سواء التي شييدت وفق النمط المحلي أو تللك التي شييدت وفق الطراز الوافد والتي يتناولها البحث، فضلاً عن العديد من الزوايا والتكايا منها التكية الاخلاصية (١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م) والتكية المولوية (منتصف القرن الـ ١٠هـ/ ١٦م) والزاوية الخليلية (١٢٠٤هـ/١٧٩٠م)، فضلاً عن عدد لا بأس به من المدارس منها على سبيل المثال: المدرسة الشعبانية (١٠٨٧-١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م) والمدرسة الأحمدية (١١٣٦هـ/ ١٧٢٣-١٧٢٤م)، والعمائر التجارية وبخاصة الخانات ومنها خان جلبي (٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م) وخان أحمد باشا (٩٩١هـ/ ١٥٨٤م) وخان الوزير(١٠٩٣هـ/ ١٦٨٣م)، والعمائر المدنية كالمنازل ومن أشهرها منزل آجك باشا.

(٥٧) بلغت الأعمال المعمارية لسنان ما يقرب من ٤٤١ عملا معماريا امتدت لتشمل كثيرا من أنحاء الدولة العثمانية، فشيد جامع محمد باشا البوسني في صوفيا عاصمة بلغاريا، وجامع خسرو باشا المعروف بجامع الخسروية في حلب والذي نحن بصدد الحديث عنه، وجامع السلطان سليمان، ومطعم السلطان الخيري في دمشق، وقام في مكة بترميم قباب الحرم المكي وبناء مطعم خيري باسم خاصكي سلطان، ومدرسة السلطان سليمان، وله إلى جانب ذلك أعمال معمارية في البصرة والقدس والمدينة المنورة ومصر، غير أن الأعمال التي حفرت اسمه بين عباقرة العمارة في التاريخ هي تلك الموجودة بمدينة استانبول. ولمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع أنظر: Saud, Rabah., Sinan, A., great Ottoman Architect and Urban Designer., Foundation for science Technology and civilization, Fstc Limited, 2007.

المجموعة المعمارية التي تعرف بالخسروية خلال الفترة من (٩٤٣-٩٤٤هـ/١٥٣٦-١٥٣٧م).

هذا ويشتمل المجمع المعماري على عدة عناصر معمارية، فبخلاف الجامع توجد مدرسة ومطعم خيري (عمارت) وقيسارية وخان وسوق وعدد كبير من الحوانيت (الدكاكين)[٥٨].

يقع الجامع بالناحية الجنوبية من المجمع وهو أكبر عناصره مساحة، يتبع تخطيط هذا الجامع طراز المسجد القبة فهو عبارة عن مساحة مربعة بصدر هذه المساحة جهة القبلة المحراب على جانبيه شباكان بواقع شباك بكل جانب وعلى نفس محور المحراب باب الدخول الرئيسي للجامع على جانبيه شباكان بواقع شباك بكل جانب.

هذا ويتقدمه الجامع في الجهة الشمالية رواق خارجي (سقيفة) يتوجه خمس قباب متماثلة الحجم، ويشرف الرواق الخارجي على الخارج من خلال بائكة خماسية العقد، كما يكتنف الضـلعين

الشمالي الشرقي والشمالي الغربي للجامع مئذنتان بواقع مئذنة بكل جانب.

هذا ويعد جامع خسرو باشا أول جامع شيّد على نمط المسجد القبة بمدينة حلب حيث لم يظهر هذا التخطيط في الجوامع المشيدة بتلك المدينة من قبل، كما أن وجود مئذنتين متماثلتان يكتنفان الواجهة الرئيسية للجامع من العناصر التي سادت الجوامع العثمانية وأطلق عليها جفته منارة " مئذنة تؤام"[٥٩].

(58) Kafesciolu, Cigdem, in The Image of Rum: Ottoman Architectural Patronage in Sixteenth-Century Aleppo and Damascus, p.71.

(59) Goodwin, G. F., A history of ottoman, p.33. وخلال العصر العثماني (عهد الإمبراطورية) تعددت المآذن بالجوامع فبلغت في جامع اوج شرفه لي بادرنه أربعة مآذن ثم زادت أعدادها

جامع العادلية ضمن مجمعه بحلب (٩٦٣هـ/ ١٥٥٥-١٥٥٦م) (شكل ٥)

هذا الجامع هو جزء من مجمع معماري كبير أيضاً شيّد من قبل الوالي العثماني دوقة كين محمد باشا حاكم المدينة وذلك في عهد السلطان سليمان الأول "المعظم أو سليمان القانوني"[٦٠]،هذا ويشتمل مجمع العادلية على عدة عناصر معمارية، فيضم بخلاف الجامع ثلاث خانات وأربعة أسواق و١٥٧ حانوت وذلك بالجهتين الشمالية الغربية والشرقية من المجمع[٦١].

هذا ويذكر أحد الباحثين أن تسمية الجامع بالعادلية لأنه يقع بجوار دار العادلية، أو ربما أطلق عليه هذه التسمية نسبة إلى عائلة العادلية الحلبية[٦٢].

وعلى آية حال فيعد جامع العادلية من أهم وأجمل الأعمال المعمارية العثمانية بمدينة حلب وأحد أهم الأعمال المعمارية للمهندس الفذ سنان، والجامع مبني كله بالحجر ويتبع تخطيطه طراز المسجد القبة، فهو عبارة عن مساحة مربعة بصدر هذه المساحة جهة القبلة المحراب على جانبيه شباكان بواقع شباك بكل جانب وعلى نفس محور المحراب باب الدخول الرئيسي للجامع على جانبيه شباكان بواقع شباك بكل جانب، أما الضلعين الشرقي والغربي للجامع فيشتملان على ستة نوافذ مستطيلة بواقع ثلاثة بكل ضلع.

هذا ويتقدم الجامع بالجهة الشمالية رواق خارجي مغطي بخمسة قباب متماثلة ذات قطاع مدبب يشرف من خلال بائكة خماسية العقد على مساحة مستطيلة مغطاة بسقف مسطح تشرف هي الأخرى على الخارج من خلال بائكة

بالجوامع بعد ذلك حتى وصلت ست مآذن كما بجامع السلطان أحمد (الجامع الأزرق).
Hillenbrand, R., *Islamic Architecture*, pp. 164-165.

(٦٠) الريحاوي، عبدالقادر، العمارة العربية الإسلامية في سوريا، دمشق، وزارة الثقافة والتراث الوطني، ص ٢٣١.

(61) Kafesciolu, Cigdem., "In The Image of Rum": *Ottoman Architectural*, p.71-72.

(٦٢) حرتياني، محمود، جامع العادلية وما حوله، مجلة عالم نوح، ٢٠١٠/١١/٢٩.

من أحد عشر عقد مدبب، كما يشتمل الضلع الشمالي الغربي للجامع على مئذنة عثمانية الطراز.

والناظر إلى تخطيط جامع العادلية يراه يتطابق إلى حد كبير مع جامع خسرو باشا من حيث التخطيط والعناصر المعمارية ويكون الفارق بين الجامعين هو أن الرواق الخارجي بجامع العادلية يتقدمه ساحة مستطيلة بنفس حجم الرواق تقريباً، كما أن جامع العادلية يشتمل على مئذنة واحدة فقط بعكس جامع خسرو باشا والذي يشتمل على مئذنتين.

٣- جامع عثمان باشا ضمن مجمعه بحلب (١١٤٠هـ/ ١٧٣٠م) (شكل ٦)

هذا الجامع هو جزء من مجمع معماري كبير أيضاً شيّد من قبل الوالي العثماني عثمان بك الدروكي(٦٣)،ويشتمل المجمع بخلاف الجامع على عدة عناصر معمارية من أهمها المدرسة التي عرفت بالعثمانية، والجامع يتبع طراز المسجد القبة فهو عبارة عن مساحة مربعة طول ضلعها ١٢,٥٠م بصدر هذه المساحة جهة القبلة المحراب على جانبيه شباكان بواقع شباك بكل جانب وعلى نفس محور المحراب باب الدخول الرئيسي للجامع.

هذا ويتقدمه الجامع في الجهة الشمالية رواق خارجي (سقيفة) يشرف على الخارج من خلال بائكة ثلاثية العقد، كما أما الضلعان الشرقي والغربي للجامع فيشتملان على ستة شبابيك بواقع ثلاثة بكل جانب.

(٦٣) هو عثمان باشا الوزير ابن عبد الرحمن باشا بن عثمان باشا يكن الدوركي الأصل. الحلبي المولد والنشأة. ترقى في العديد من الولايات المناصب والرتب حتى أصبح رئيساً للوزراء وانتهت به الحال في ولاية جدة ومشيخة الحرم المكي فأقام في مكة حتى أدركته الوفاة سنة ١١٦٠هـ ودفن فيها http://www.ittihadhalap.com/forum/showthread.php?t=23977

ثانياً: جوامع مدينة دمشق

بعد إلحاق دمشق بالإمبراطورية العثمانية في بدايات القرن الـ ١٠هـ/ ١٦م عكست عمارة[٦٤] دمشق الفنون المعمارية التي كان السلاطين العثمانيون مغرمين بها، وهذا ما أضفى على دمشق وجهاً جديداً، جعلها درة في العمارة في حينها.

هذا وقد اهتم سلاطين آل عثمان وولاتهم بالأبنية الوقفية بشكل رئيس، ولهذا قاموا بنقل النموذج المعماري السائد في إستانبول إلى دمشق[٦٥].

وعلى أية حال تضم مدينة دمشق الكثير من العمائر الإسلامية التي شيّدت خلال العصر العثماني[٦٦]، ومن هذه العمائر المساجد والجوامع، بعضها شيّد على الطراز المحلي كجامع الشيخ محي الدين بن عربي المعروف

---

(٦٤) دخلت دمشق في حكم العثمانيين عقب انتصارهم على المماليك في معركة مرج دابق عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م وأصبحت مركزاً لإحدى الولايات الرئيسية في الدولة العثمانية حتي عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م (عدا الحقبة ما بين عامي ١٢٤٧-١٢٥٦هـ/١٨٣١-١٨٤٠م، حيث حكمها إبراهيم باشا بن محمد علي والي مصر) وكانت المدينة طوال العصر العثماني زهرة مدن الشام وريحانتها حيث ينسب للعثمانيين الفضل في الاعتناء بعمائرها المتنوعة وزخرفتها بشتي أنواع الزخارف التي تعكس الروح التركية. الشهابي، قتيبة، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٦م، ص ١٢.

(٦٥) شتيفان فيبر، أمكنة وأزمنة، ٢٥ عاماً من الأبحاث الأثرية في سورية ١٩٨٠-٢٠٠٥دمشق حاضرة شرق أوسطية وبنيتها وعمارتها، ٢٠٠٥م، ص ٣٤.

(٦٦) تعددت أنواع العمائر العثمانية بمدينة دمشق بين العمائر الدينية فبخلاف المساجد شيد العثمانيين الكثير من المدارس، منها المدرسة السليمية (٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م) والمدرسة السنانية (منتصف القرن الـ ١٠هـ/١٦م) والمدرسة الفاتحية (١١٥٦هـ/١٧٤٣م)، كما شيدوا المجمعات المعمارية (الكليات) ومنها مجمع السليمانية (١٥٤٤-١٥٦٨م)، فضلاً عن العديد من الزوايا والتكايا منها التكية السليمانية (٩٦١-٩٦٦هـ/١٥٥٤-١٥٥٩م) ومن العمائر المدنية القصور والمنازل منها: قصر الأعظم (١١٦٣هـ/ ١٧٤٩م) وبيت إسطنبول (منتصف القرن الـ ١٢هـ/ ١٨م) ومنزل عبد الله باشا (منتصف القرن الـ ١٣هـ/١٩م) وبيت شامية (١٢٨٠-١٢٨٣هـ/ ١٨٦٣-١٨٦٦م)، ومن العمائر التجارية الخانات مثل خان سليمان باشا (١١٤٥هـ/١٧٣٢م) وخان أسد باشا (١١٦٥هـ/ ١٧٥٣م)، هذا فضلاً عن عدد من المطاعم الخيرية منها المطعم الخيري لسليمان الأول (٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م).

بالسلمي(٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)[٦٧]، والبعض الآخر شيّد وفق الطراز العثماني الوافد منها الجامع الملحق بالتكية السليمانية (٩٦٢- ٩٦٧هـ/ ١٥٥٤- ١٥٥٩م) وجامع مراد باشا (٩٧٥هـ/ ١٥٦٨م) وجامع درويش باشا (٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م) وجامع السنانية (٩٩٥-٩٩٩هـ/ ١٥٨٦-١٥٩٠م).

الجامع الملحق بالتكية السليمانية[٦٨] (٩٦٢-٩٦٧هـ/ ١٥٥٤-١٥٥٩م) (شكل ٧).

التكية السليمانية هي بناء متكامل يضم مسجد ومتحف وسوق للمهن اليدوية والتراث ومدرسة ومطعم خيري، شيّد على يد المعمار العثماني سنان[٦٩].

هذا ويعد الجامع أهم العناصر بهذه التكية ويتبع طراز المسجد القبة وهو عبارة عن مساحة مربعة يبلغ طول ضلعها ١٦م مغطاة بقبة، بصدر هذه المساحة

---

(٦٧) يعرف هذا الجامع أيضاً بجامع الخنكار أو جامع السليمي، يقع في شارع الشيخ محي الدين بمنطقة الصالحية عند سوق الجمعة(ساحة بين البرلمان وشارع بورسعيد حاليا)، ويعد جامع بن عربي أول جامع عثماني بدمشق أمر ببنائه السلطان سليم الأول بعد فتح المدينة عام ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م، وتروي لنا المراجع التاريخية بعض الروايات حول بناء الجامع منها أن السلطان سليم رأى الشيخ محي الدين في منامه وأمره ببناء مقام له فوق الضريح، وعندما سأله السلطان عن مكان قبره أجاب الشيخ اتبع بغلتك البيضاء وهي تدلك عليه. والعرف الشعبي عند السلاطين المسلمين يفيد بأنهم عادة ما كانوا يقتنون بغلة بيضاء تيمناً بالرسول. وتقول الحكاية أن السلطان سليم الأول تبع بغلته البيضاء فدلته على المكان الذي يعتقد أن الشيخ ابن عربي قد دفن فيه منذ ٢٠٠عام. الشهابي، دمشق، ص ٣٩٦.

(٦٨) سميت بالسليمانية نسبة إلى السلطان سليمان القانوني الذي أمر ببنائها عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤ م في الموضع الذي كان يقوم عليه قصر الظاهر بيبرس المعروف باسم "قصر الأبلق"، وهي عبارة على شكل تكية من جهة الغرب ومدرسة في الشرق وسوق يمتد بين هذه المدرسة ونهر بردي، والتكية من تصميم المعماري التركي سنان أشهر معماري عثماني في ذلك الوقت وأشرف على بنائها المهندس ملا آغا، بدأ بناؤها عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤ وانتهى عام ٩٦٧هـ/ ١٥٥٩ في عهد الوالي خضري باشا، أما المدرسة الملحقة بها فتم بناؤها عام ٩٧٤هـ/١٥٦٦م في عهد الوزير والمشير لالا مصطفى باشا. الريحاوي، عبد القادر، العمارة العربية الإسلامية في سوريا، ص ٢٣٩-٢٤٧. الشهابي، دمشق تاريخ وصور، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٦م، ص ١٨٧.

(٦٩) الريحاوي، عبد القادر، العمارة العربية الإسلامية في سوريا، ص ٢٣٩-٢٤٧.

جهة القبلة المحراب على جانبيه شباكان بواقع شباك بكل جانب وعلى نفس محور المحراب باب الدخول الرئيسي للجامع على جانبيه شباكان أيضاً، أما الضلعان الشرقي والغربي للجامع فيشتمل كل منهما على شباكان كل منهما على محور الأخر. هذا ويتقدم الجامع في الجهة الشمالية رواق خارجي (سقيفة) يشرف على الخارج من خلال بائكة ثلاثية العقد. كما يكتنف الضلعين الشمالي الشرقي والشمالي الغربي للجامع مئذنتان عثمانيتا الطراز بواقع مئذنة بكل جانب(٧٠).

جامع درويش باشا (٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م) (شكل ٨)

يقع هذا الجامع في جادة الدرويشية(٧١) وهو ضمن مجموعة معمارية كبيرة تتألف من عدة عناصر، فبخلاف الجامع توجد تربة ومكتب للصبيان وسبيل للماء، شيّدت هذه المجموعة من قبل الحاكم العثماني لمدينة دمشق درويش

---

(٧٠) تم تجديد هاتين المئذنتين في حوالي منتصف القرن الـ ١٢هـ/ ١٨م، وفي عام ١٩٢٨م وعلى أثر الزلزال الذي ضرب مدينة دمشق حدث ميل قليل في المئذنة الغربية مع ظهور تشققات من جهات متعددة، ثم أستمر الميل حتي بلغ مقداره ٣٥سم مما أضطر دائرة الأوقاف الإسلامية إلى هدمها وإعادة عمارتها من جديد كما كانت عليه في السابق. الشهابي، مآذن دمشق، ص ٣٣١.

هذا ويذكر الدكتور قتيبة الشهابي أن مئذنتي جامع التكية السليمانية تعدان بداية الأنحراف عن مألوف عمارة المآذن الأيوبية والمملوكية، وإدخال جديد لطراز مآذن عمارة إستانبول العثمانية إلى دمشق، تلك المآذن المميزة بكثرة أضلاع الجذع بشكل يصبح معها أقرب إلى الدائرة، فضلاً عن إلى ارتفاع المئذنة بالمقارنة مع ارتفاعات المآذن الأخرى. الشهابي، مآذن دمشق، ص ٣٣١.

(٧١) عرفت هذه الجادة قديماً باسم سوق الأخصاصية، وتمتد من المدخل الغربي لسوق الحميدية إلى باب الجابية جنوبا، ثم تبدلت تسميتها إلى الدرويشية عند بناء جامع درويش باشا ومجموعته العمرانية فيها، تحتوي جادة الدرويشية بخلاف مجموعة درويش باشا على حمام الملكة الذي يرجع إلى أيام الوالي عثمان باشا الارملي ويؤرخ بعام ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م، وجامع السياس (القصاصي) والذي يقع قبالة جامع درويش باشا والذي جدد عام ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م. الشهابي، دمشق، ص ٢٦٧-٢٦٨.

باشا وذلك عام (٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)[٧٢]،يتبع تخطيط هذا الجامع الطراز التقليدي (الكلاسيكي-العثماني) والمكون من قسمين متلازمين تلازم وجهي العملة، قسم مغطي ويمثل الجامع نفسه وهو عبارة عن مساحة مستطيلة يتوجها في الوسط قبة مركزية ضخمة فضلاً عن ستة قباب أخري ملاصقة لها بالجهتين الشرقية والغربية بواقع ثلاثة قباب بكل جهة، وقسم مكشوف ويمثل الحرم، وهو عبارة عن مساحة مستطيلة أيضاً تشتمل بكل من الجهتين الشرقية والغربية على فتحة باب تؤدي إلى ساحة الحرم، كما يشتمل الحرم بالجهة الجنوبية منه على سقيفة مغطاه بخمسة قباب صغيرة وتشرف على الحرم ببائكة خماسية العقد، هذا ويشتمل الضلع الشمالي للشرقي للحرم على مئذنة عثمانية الطراز[٧٣] كما يتوسط الحرم أيضاً نافورة ثمانية الشكل.

جامع السنانية (٩٩٥-٩٩٩هـ/ ١٥٨٦-١٥٩٠م) (شكل ٩)

يقع جامع السنانية خارج أسوار مدينة دمشق القديمة مقابلاً لباب الجابية ولسوق باب سريجة والمتمم لسوق الدرويشية[٧٤].

---

(72) Sauvaget, Jean, *Les Monuments Historiques de Damas,* 83 - 84. Beirut: Imprimerie Catholique, 1938. Burns, Ross, *Monuments of Syria, a Historical Guide*, 96. I.B. London: Tauris & Co, London, 1992.

(٧٣) تتميز هذه المئذنة بجذع كثير الأضلاع (٢٠ ضلعاً) خال من الزخارف ألا من شريطين من خطوط الميساندر (أسلوب زخرفي يتميز بتعرج مساره) في أعلاه وفي أسفله وترتفع فوقه شرفه مضلعه على غراره تتدلي منها المقرنصات ويحيطها درابزين مفرغ الزخارف كما تعلوها مظلة ساترة مضلعة أيضاً ويحاكي الجوسق بأضلاعه المتعددة أضلاع الجذع وتزين أعلاه نوافذ صماء وترتفع فوقه قلنسوة مخروطية مضلعه على شاكلته ومصفحة بالتوتياء. الشهابي، مآذن دمشق، ص ٣٣٥-٣٣٦.

(74) Sauvaget, Jean. *Les Monuments Historiques de Damas*, Beyrouth: Imprimerie Catholique, 1932. p, 84-86.

الشهابي، مآذن دمشق، ص ٣٣٩.

وكما ذكر الشيخ الفاضل عبد القادر بن بدران طيب الله ثراه من أن جامع السنانية مشهور معروف عند باب الجابية، وكان موضعه أولا مسجداً قديماً، يقال له مسجد رحبة البصل، فجدده الوزير العثماني سنان باشا أثناء فترة حكمه لدمشق (١٥٨٩-١٥٩٣م) وجعله جامعاً عظيماً، فجاء جامعاً لجميع المحاسن وأوقف عليه أوقافا عظيمة[٧٥].

يتبع تخطيط هذا الجامع الطراز التقليدي (الكلاسيكي-العثماني) والمكون من قسمين متلازمين تلازم وجهي العملة، قسم مغطي ويمثل الجامع نفسه وهو عبارة عن مساحة مستطيلة يتوجها في الوسط قبة مركزية ضخمة على جانبيها رواقان طوليان يتوجهما سقف مسطح، وقسم مكشوف ويمثل الحرم، وهو عبارة عن مساحة مستطيلة أيضاً يتوسطه نافورة مثمنة الشكل، وتضم أضلاع الحرم الشمالية والشرقية والغربية على فتحة باب مستطيلة الشكل، كما يشتمل الحرم بالجهة الجنوبية منه على سقيفة مغطاه بسبعة قباب صغيرة وتشرف على الحرم ببائكة سباعية العقد، كما يشتمل الجامع على مئذنة عثمانية الطراز وذلك بأعلى المدخل الغربي[٧٦].

ثالثاً: جوامع القدس الشريف

حظيت المساجد والجوامع باهتمام العثمانيين في مدينة القدس الشريف، فقاموا بتجديد المسجد الأقصى الشريف ومسجد قبة الصخرة وبالغوا في الصرف على هذين المسجدين، كما قاموا ببناء بعض المساجد الجديدة، منها:

---

(٧٥) الشهابي, دمشق، ص ٢٩٩، الارمشي، عماد، جامع السنانية، د.ت. ص ٢.

(٧٦) تتميز هذه المئذنة بالجذع المتعدد الأضلاع لدرجة أصبح معها أقرب إلى الأسطوانة منه إلى الجذع المضلع، يعلو الجذع شرفة أسطوانية ذات مقرنصات بسيطة يحيطها درابزين أسمتي مفرغ وتغطيها مظلة على غرارها، وفوقها جوسق وقلنسوة مخروطية ومدببة جداً. الشهابي، مآذن دمشق، ص ٣٣٩.

١- مسجد خاصكي سلطان (٩٦٤هـ/١٥٥٦م) وهو جزء من المجمع المعماري الذي بنته خاصكي سلطان والذي عرف بلفظة العمارة العامرة.

٢- جامع سنان كيخيا بقلعة القدس الشريف (قبل عام ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م).

كما قام العثمانيين ببناء بعض المآذن العثمانية الطراز ببعض المساجد والجوامع بالقدس الشريف ونواحيها[٧٧].

الخاتمة

وفي ختام الحديث عن موضوع نظام الجامع العثماني وأثره في تخطيط بعض الجوامع الشامية يخلص الباحث ببعض النتائج المهمة منها:

١- أثبتت الدراسة أهمية بلاد الشام وقدسيتها بالنسبة للعثمانيين حتى أنهم كانوا يطلقون على بعض المدن مثل دمشق صفات دينية مثل "شام شريف" و"باب الكعبة" وغيرها من الصفات الحميدة.

٢- أثبتت الدراسة ظهور نهضة معمارية وفنية عقب الفتح العثماني لبلاد الشام بعكس ما ذكره الحاقدون، حيث أهتم سلاطين آل عثمان وولاتهم بتشيّد العمائر المختلفة فبنوا المجمعات والمساجد والجوامع والمدارس والزوايا والتكايا والأضرحة والخانات والقلاع والأسوار والأبواب والقصور والمنازل والمطاعم الخيرية، وقاموا بنقل النموذج المعماري السائد في إستانبول إلى أغلب المدن الشامية وبخاصة دمشق.

٣- أوضحت الدراسة أن طراز المسجد القبة كان أكثر الطرز المعمارية شيوعاً في تخطيط المساجد والجوامع بمدن الشام المختلفة يليه

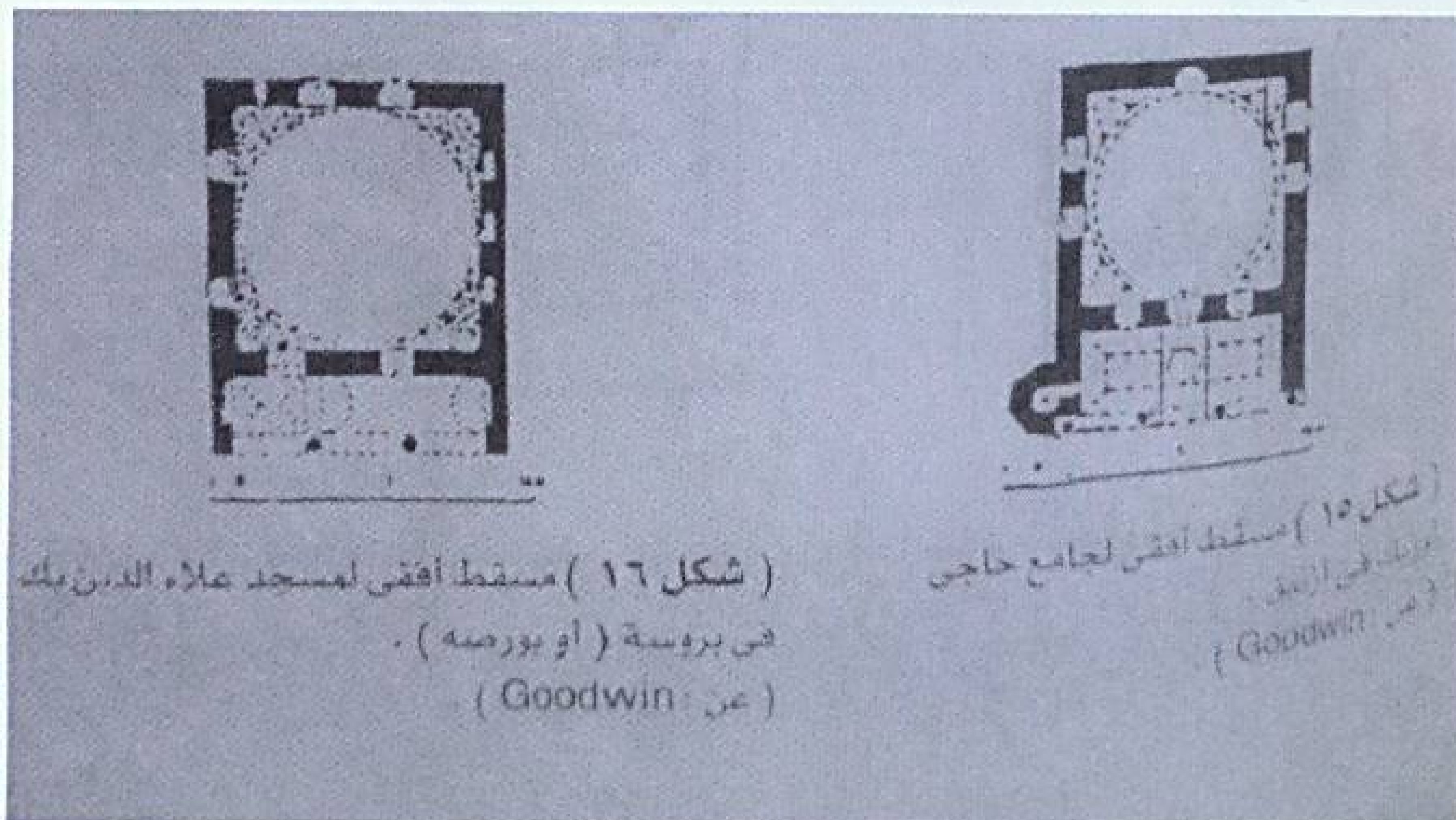
(٧٧) اليعقوب، محمد أحمد، التطور العمراني لمدينة القدس الشريف في القرن الـ ١٠هـ/١٦م، ورقة بحث منشورة ضمن أعمال الندوة العلمية التي عقدت في رحاب جامعة آل البيت في الفترة من (١٨-١٩/١٠/١٩٩٩م، تحت عنوان (الدولة العثمانية بدايات ونهايات)، جامعة آل البيت ٢٠٠١م، ص ١٦٠-١٦٢.

الطراز التقليدي "الكلاسيكي- العثماني" والتي أبدع فيها المعمار الفذ سنان كثيراً.

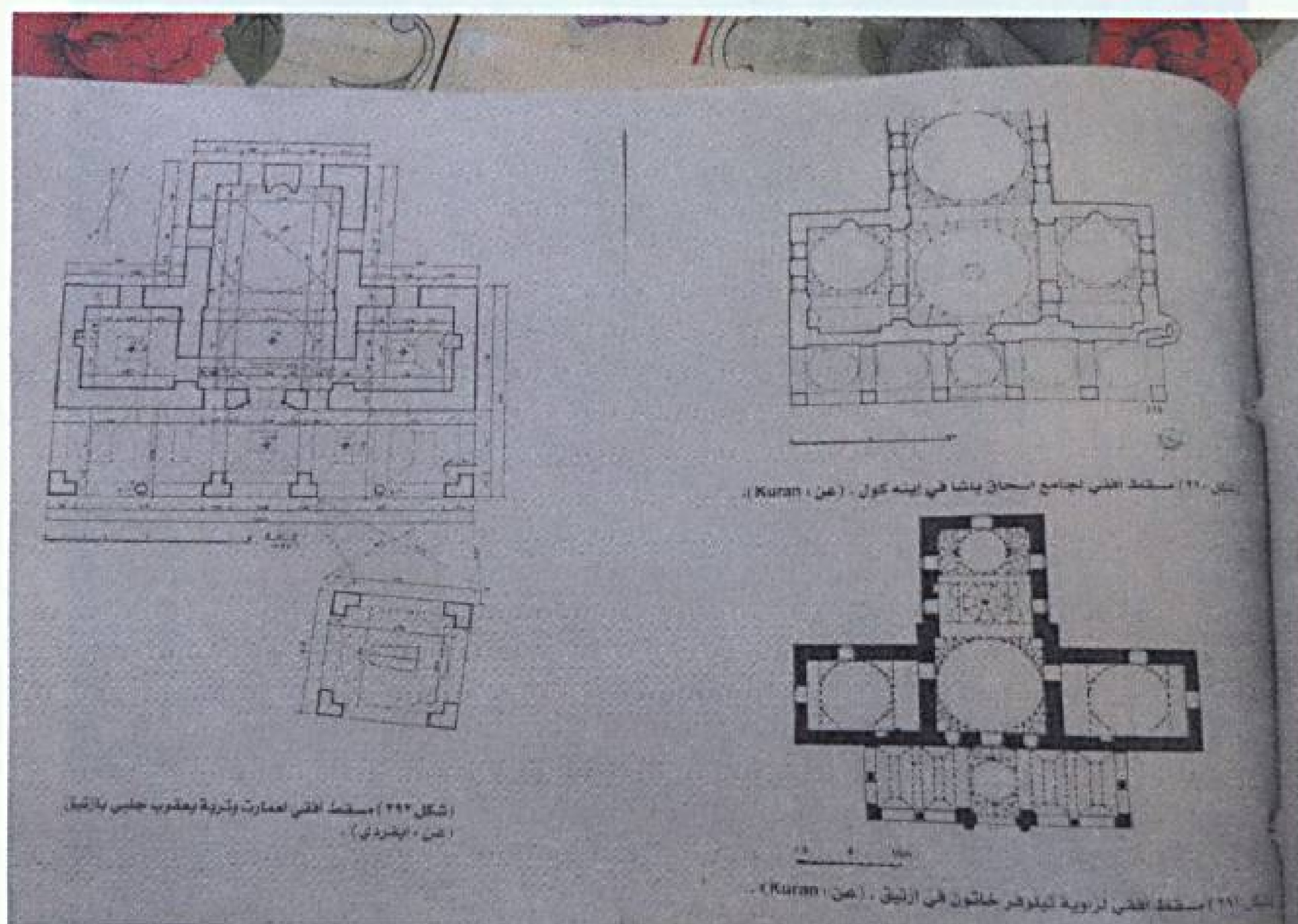
٤- أوضحت الدراسة أيضاً أن التأثير العثماني على الجوامع الشامية لم يقتصر فقط على التخطيط بل تعداه إلى العناصر المعمارية والزخرفية والتي جاءت بالكثير من المساجد والجوامع وفق الطراز العثماني الخالص.

وعلى هذا يؤكد الباحث أن أغلب المساجد والجوامع الشامية التي شيّدت خلال الفترة من (أوائل القرن الـ ١٠هـ/ ١٦م وحتى أواخر القرن الـ ١٢هـ/١٨م) ما هي إلا حلقة من حلقات التشيّد والتطوير للجامع العثماني في إستانبول عاصمة الخلافة العثمانية آنذاك.

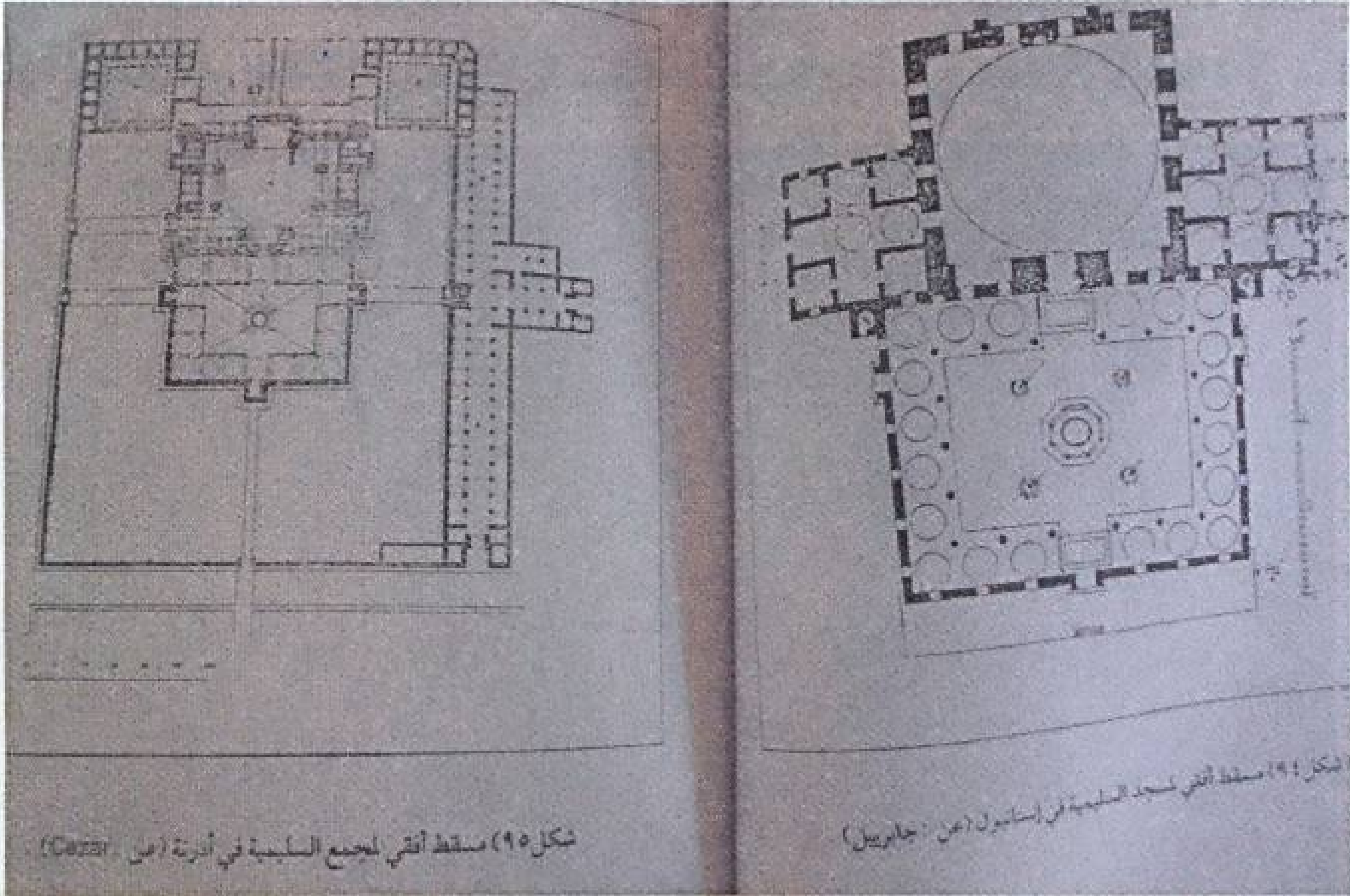
الأشكال واللوحات



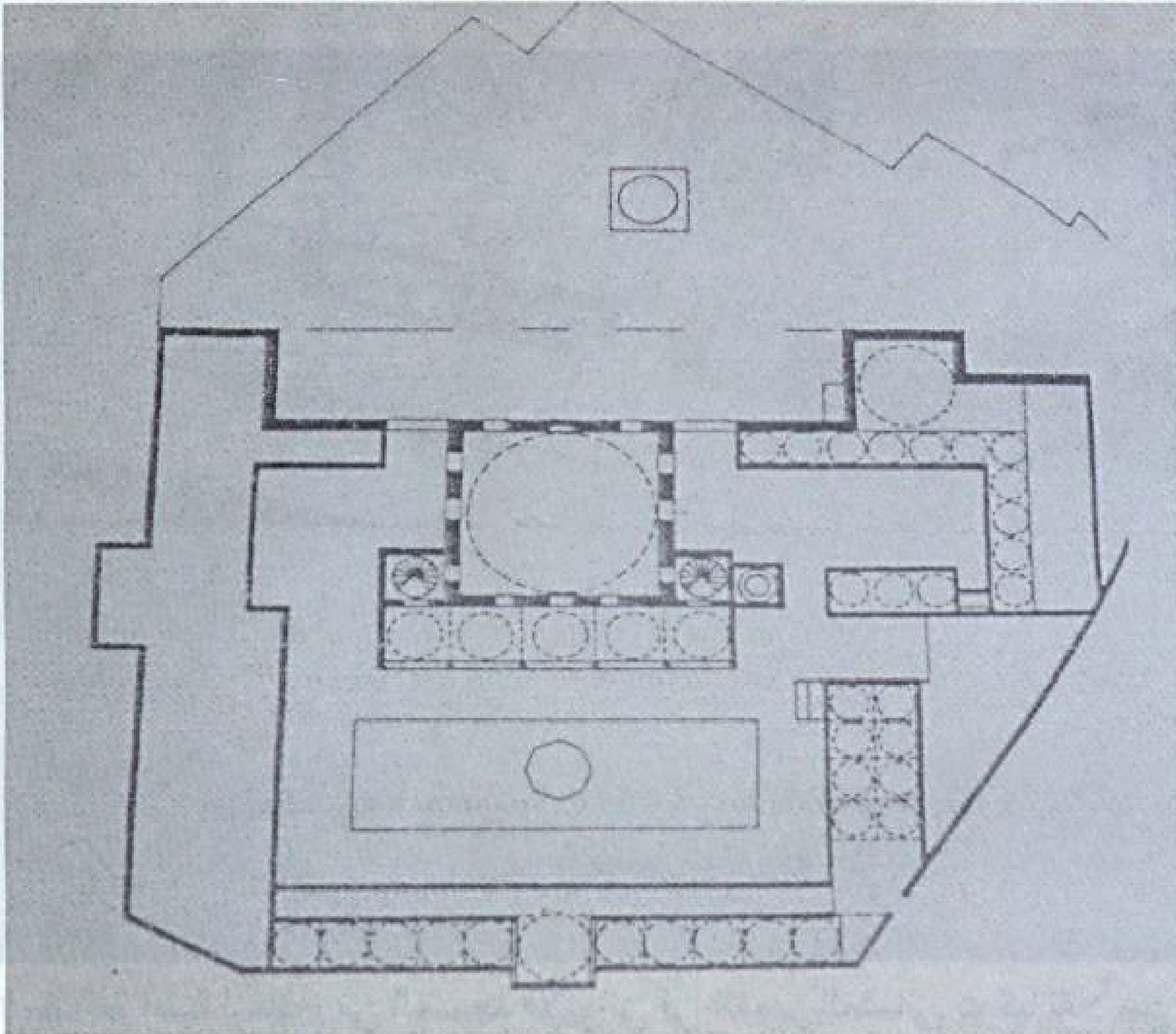
شكل ١: مساقط أفقية لنماذج من المسجد القبة في العصر العثماني بتركيا نقلاً عن الحداد



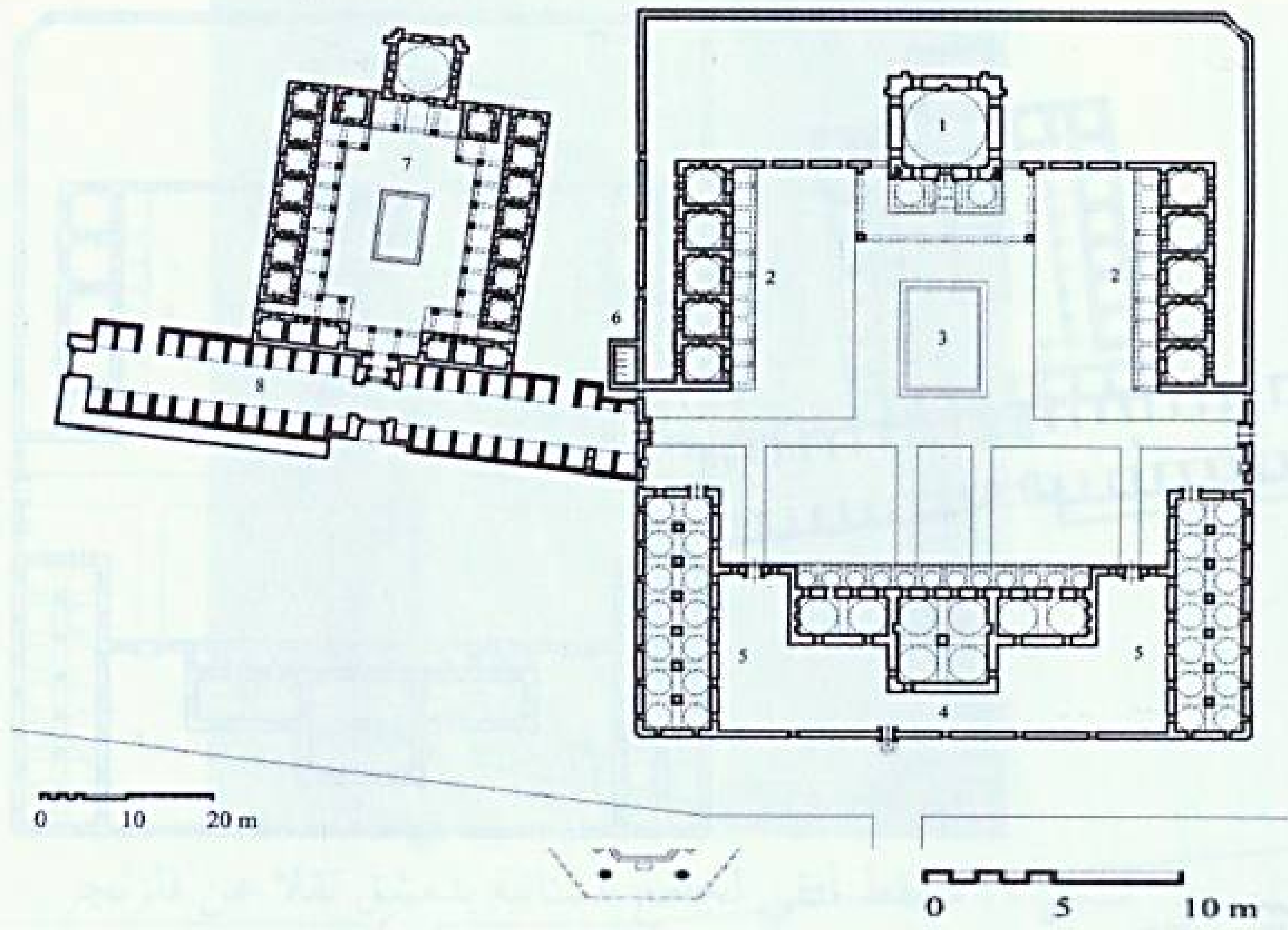
شكل ٢ مساقط أفقية لنماذج من المسجد الايواني في العصر العثماني بتركيا نقلاً عن الحداد



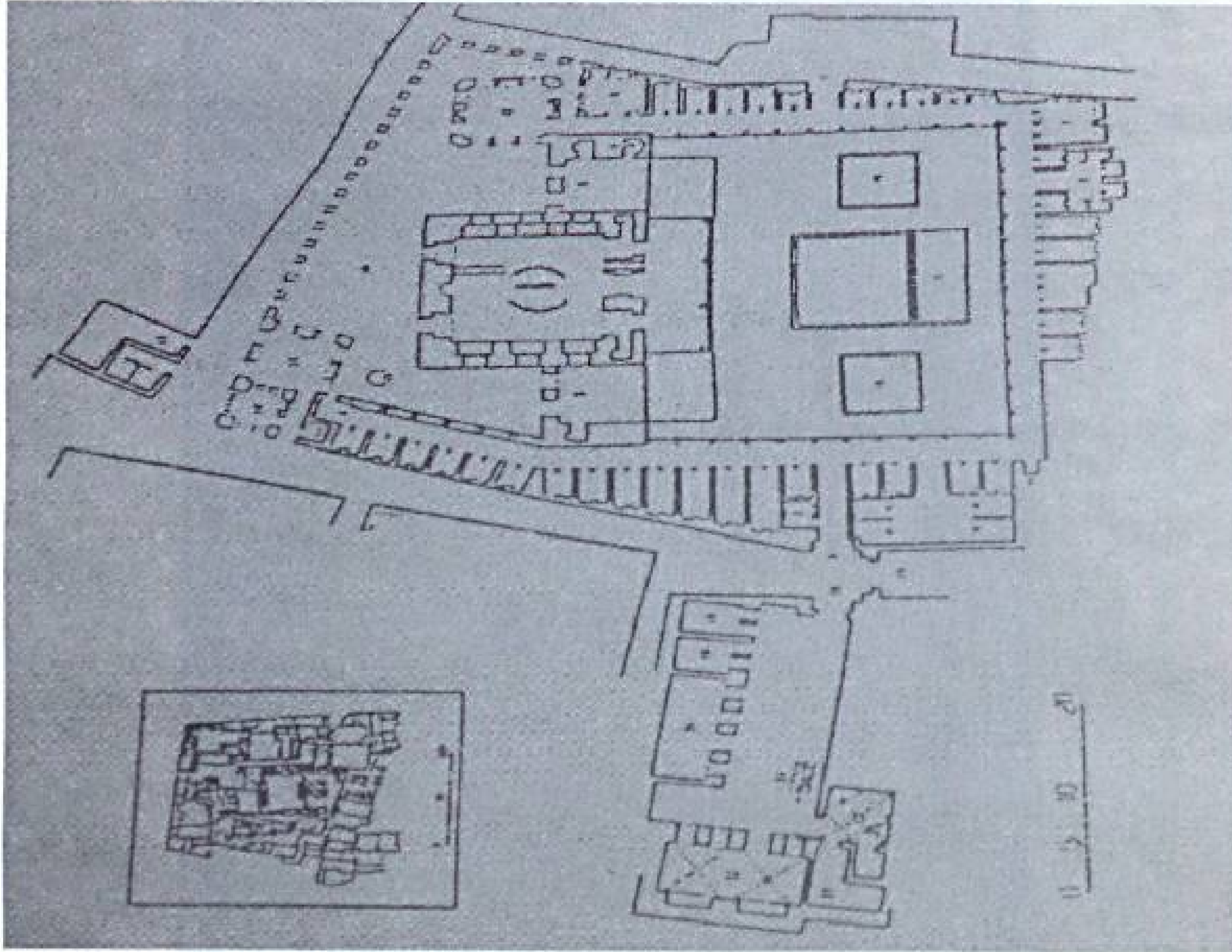
شكل ٣: مساقط أفقية لجوامع تتبع الطراز الكلاسيكي بإستانبول، عن الحداد



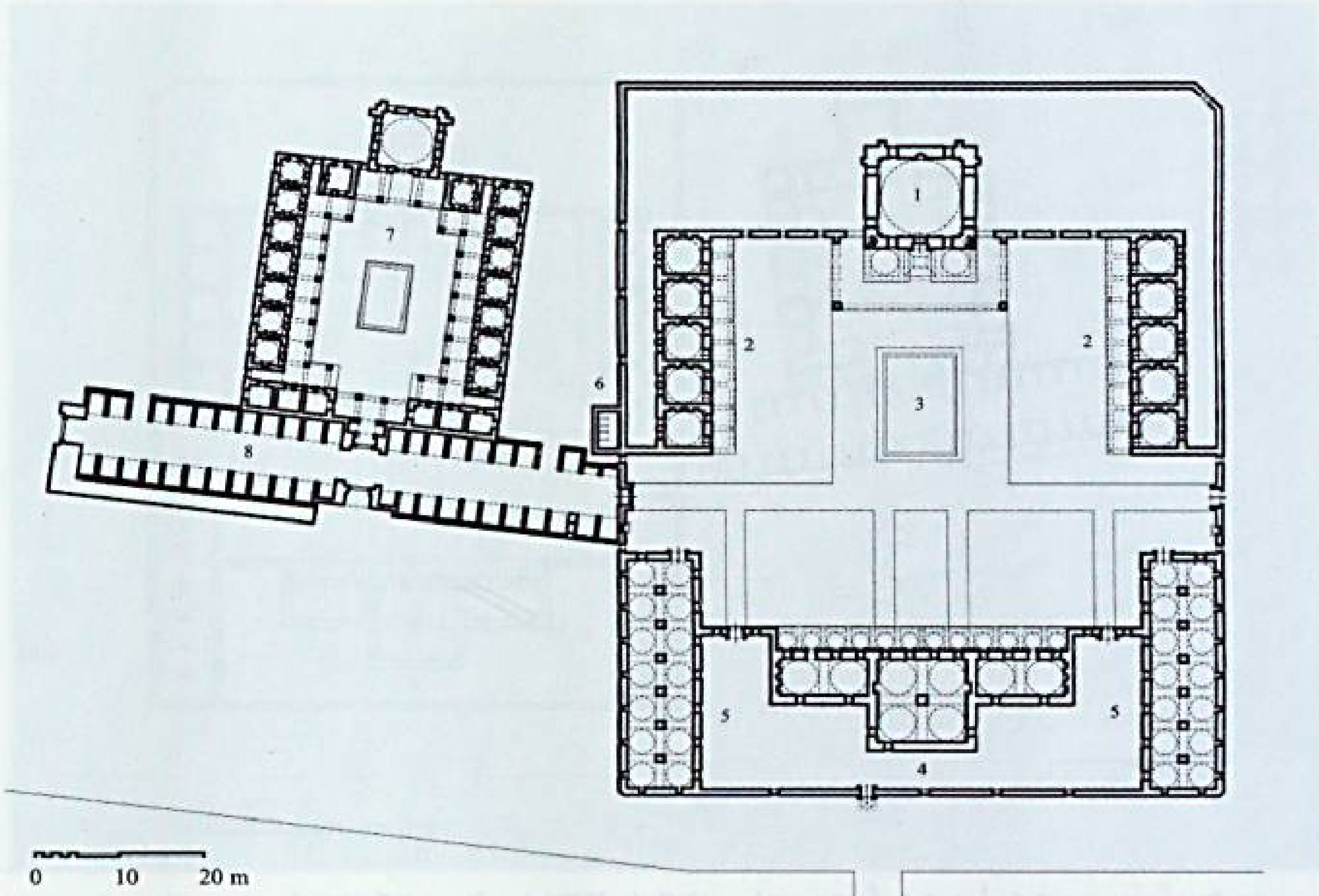
شكل ٤: مسقط أفقي لمسجد خسرو باشا ضمن مجمعه بحلب، نقلا عن جودين



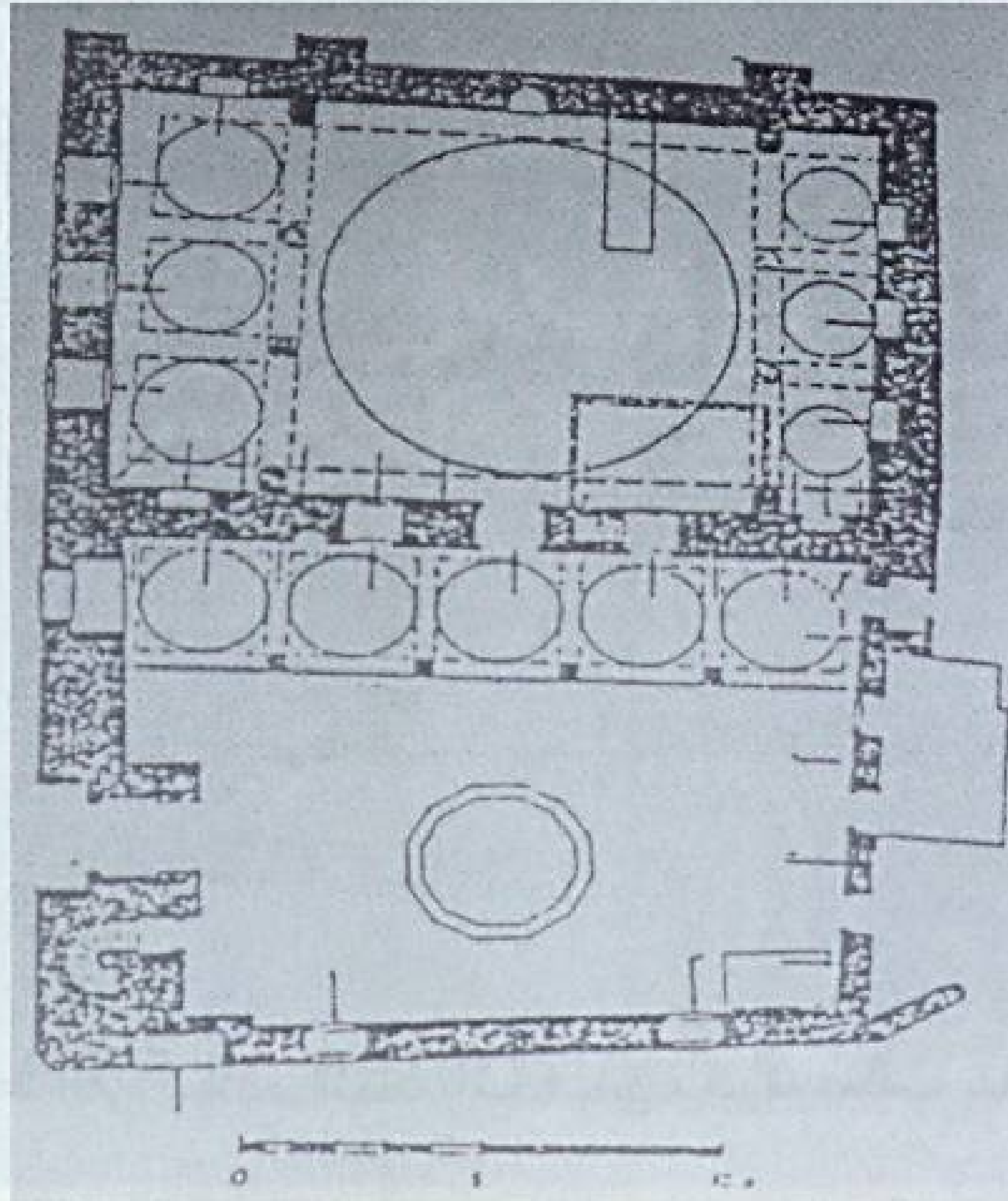
شكل ٥: جامع العادلية بحلب نقلاً عن Archnet



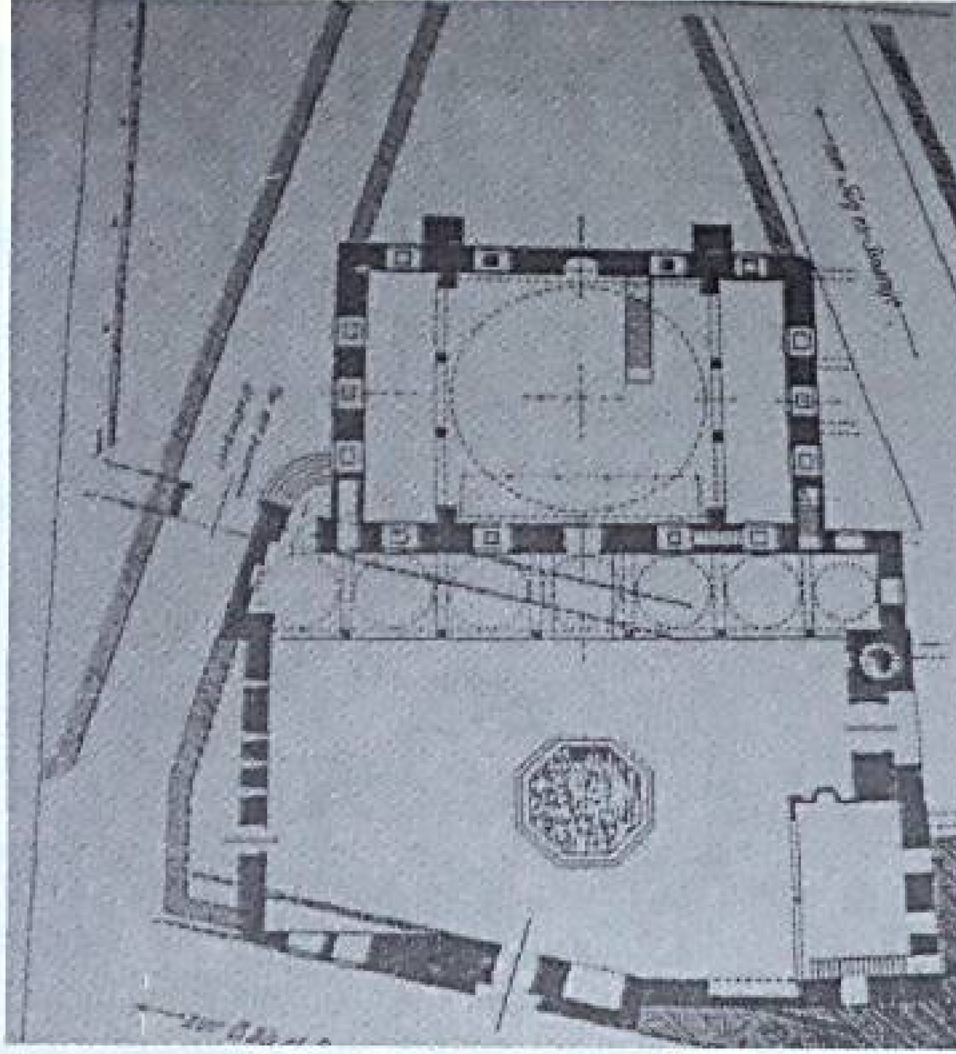
شكل ٦: مسقط أفقي لجامع عثمان باشا ضمن مجمعه بحلب نقلا عن سوفاجيه



شكل ٧: مسقط أفقي للتكية السليمانية بدمشق (يظهر به جامع السليمانية رقم ١)
نقلاً عن Archnet



شكل ٨: مسقط أفقي لجامع درويش باشا بدمشق نقلا عن سوفاجيه



شكل ٩: مسقط أفقي لجامع السنانية بدمشق نقلا عن فلزنجر



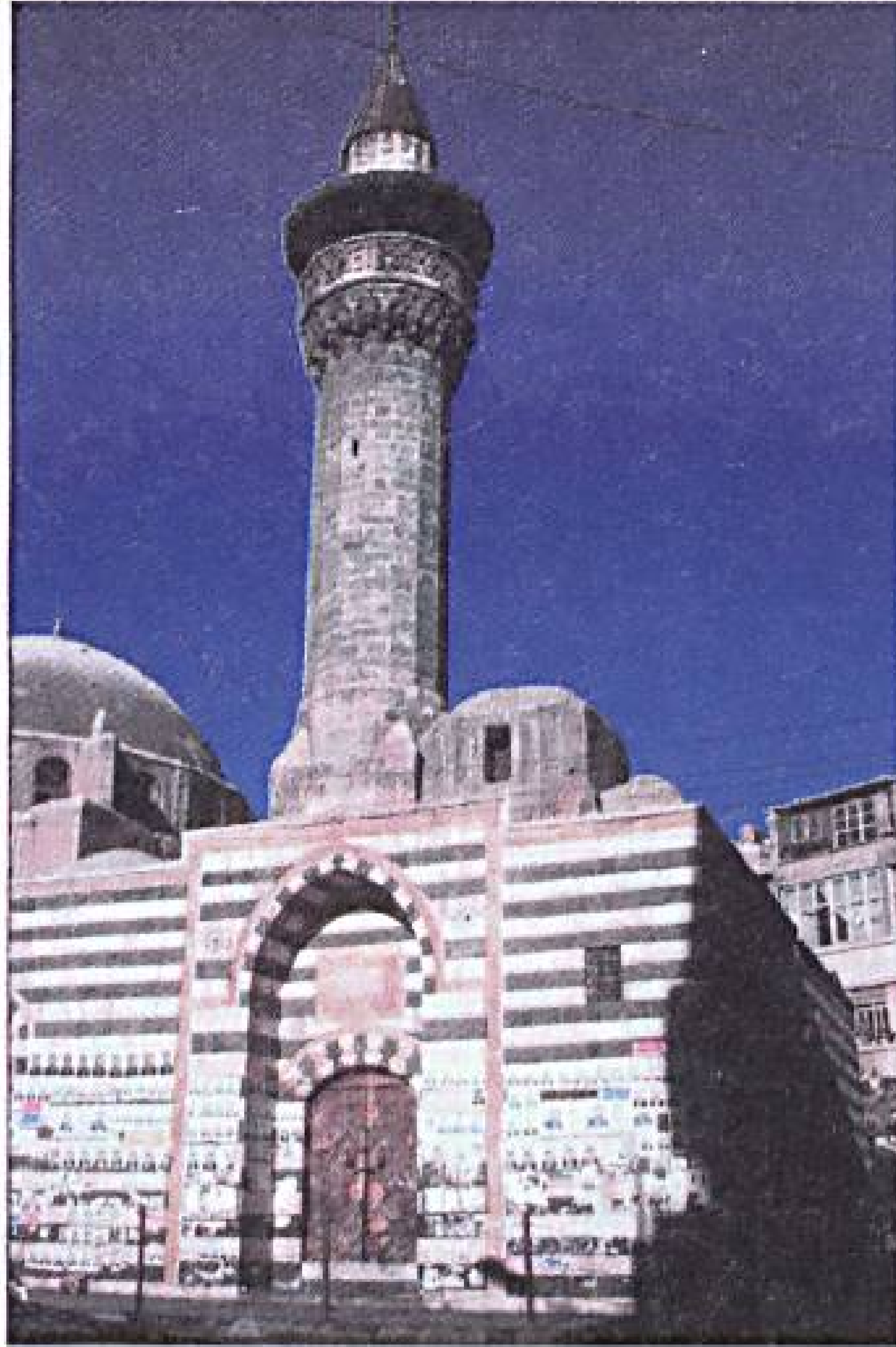
لوحة ١: جامع خسرو باشا ضمن مجمعه بحلب



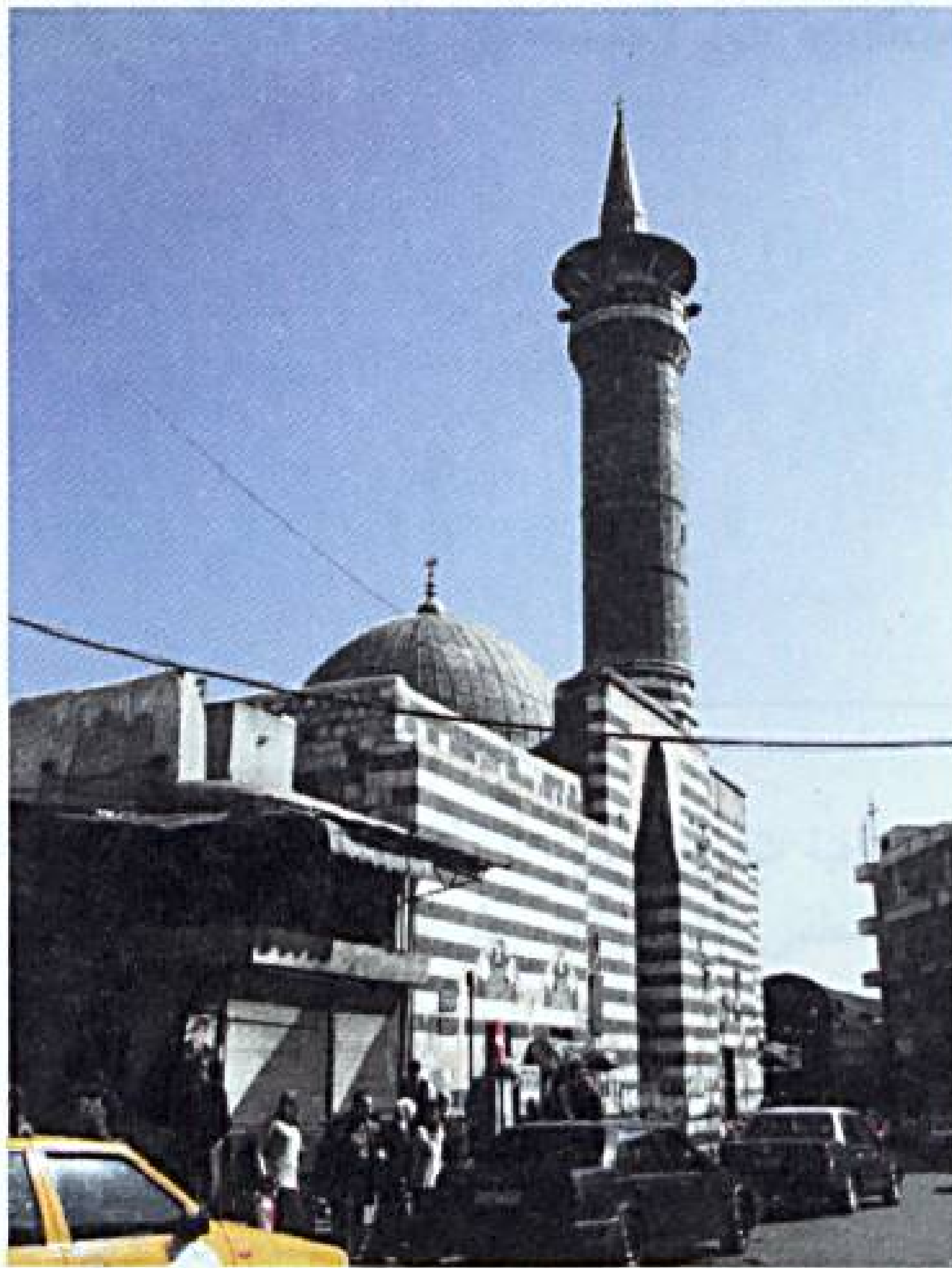
لوحة ٢: جامع العادلية ضمن مجمعه بحلب



لوحة ٣: الجامع الملحق بالتكية السليمانية



لوحة ٤: جامع درويش باشا بدمشق



لوحة ٥ جامع السنانية بدمشق

الجامع المبارك في القنيطرة والأبنية المتصلة به معماريا
في القرن السادس عشر

أسماء رمضان الشيخ خليل*

الموقع الجغرافي

ناحية شعرا أحدى نواحي لواء دمشق، في هضبة الجولان وهي هضبة سهول مغطاة بالبازلت[١]. وقرية القنيطرة التي تتبع إداريا ناحية شعرا في القرن السادس عشر، تقوم في هضبة الجولان[٢]، وتتميز بموقعها بالنسبة للريف الذي يحيط بالقرية[٣]، سكانها من المسلمين السنة، والعلوية، والدروز، والنصيرية، والمسيحية[٤].

---

* الدكتورة.

(١) رجاء دويدري، جغرافية سورية، ص ٤٦، أحمد وصفي زكريا، الريف السوري، ص ٥٥٠.

(٢) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، وقف على طبعهما خليل بن أحمد مردم بك، مطبعة الترقي بدمشق، ص ١٦.

(٣) أحمد وصفي زكريا، الريف السوري، المطبعة العمومية، دمشق، ١٩٥٧م.ص ٥٥٠؛ مؤلف مجهول.

(٤) زكريا أحمد وصفي، القرى والبلدات في جنوب الشام، دار رسلان، دمشق، ط ٢٠٠٨،١، ص ١٨٩.

تقع في منطقة استراتيجية إذ تربطها طرق تصل إلى مرجعيون لبنان، ومن القنيطرة إلى دمشق، ومن القنيطرة إلى صيدا بيروت، ومن قنيطرة إلى درعا، ومن القنيطرة إلى جسر بنات يعقوب ـ طبريا ـ الناصرة ـ حيفا[٥].

فيها تلال في الشمال والشمال الغربي تحصر التلال سهل يحيط بالقنيطرة من الجهة الشمالية والشمالية الغربية، واغلب السهول فيها رملية ذات طبقات بركانية يستخرج منها الرمل الأسود. وكانت تسقى أراضي القنيطرة من مسايل ماء المطر[٦].

وموقع القرية الاستراتيجي حدد المكان الذي أقيم عنده الجامع، حيث أقيم في مركز النشاط الحضري. وفي طريق ارتياد التجار كون المنطقة نقطة ربط هامة لأكثر من أقليم جغرافي وكيان إداري.

إضافة إلى توفر مصدر المياه إذ كانت تصلها المياه من قرية الجن التي تقع على سفح جبل الشيخ ويسيل فيها نهر الجناني[٧]،ونظرا لارتفاعها وكونها قرب الينابيع. وقابلية أرضها لإنبات الأشجار وكثرة الخيرات فيها، جعل المنطقة مركزاً لتجمع السكان.[٨] وتميزت المنطقة بهواء غير عفن وماء غير آسن.[٩] وكان المناخ من أسس بناء الجامع وعدت من ميزات موقعه.

---

(٥) زكريا أحمد وصفي، القرى والبلدات في جنوب الشام، ص ١٨٩.
(٦) أحمد وصفي زكريا، الريف السوري، ج ٢، ص ٥٥٠.
(٧) أحمد وصفي زكريا، الريف السوري، ج ٢، ص ٤٣٢.
(٨) محمد ماجد خلوصي، عمارة المساجد، دار قابس، بيروت، ١٩٩٨، ص ٦٣
(٩) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، وقف على طبعهما خليل بن أحمد مردم بك، مطبعة الترقي بدمشق، ١٩٢٥ص ١٦.

تاريخ الجامع

ولكلمة الجامع دلالة سياسية، فهو المسجد الذي يؤم فيه من يمثل الدولة في صلاة الجمعة، فهو المسجد الرسمي وقد تميز بكبر حجمه، بالنسبة للمساجد الصغيرة.[١٠]

تم بناء الجامع المبارك سنة ٩٧١ هـ / ١٥٦٣ م وأنشأه الوزير مصطفى باشا إبن عبد الرحمن لالا مصطفى[١١] وقد ولي دمشق بين عامي ٩٧١ / ١٥٦٣ م.[١٢] ويعود تاريخ أنشاء الجامع حسبما كتب فوق عتبته العليا، والتي يفهم منها عام البناء هو ٩٧١هـ / ١٥٦٣م.

وذكرت الوقفية سبب بناء الجامع لخلو القرية من السكان وتعرض المسافرين للخطر، وأن تعمير الجامع والمرفقات الأخرى، كان السبب في تعمير القرية من جديد وجعلها آهلة بالسكان.[١٣]

---

(١٠) لطفي فؤاد لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، وزارة الثقافة دمشق، ٢٠١١، ص ٤٣٢.

(١١) يوجد جامع آخر لمصطفى لالا باشا. بناه الوالي في حديقة سامي باشا مردم بيك سنة ٩٧٢ هـ / ١٥٦٤ م، والذي هدم عند تحويل الحديقة إلى سوق الهال المعروف في شارع الملك فيصل. تعلو المدخل كتابة تؤرخ لبناء الجامع وهي ٩٧٢هـ / ١٥٦٥م، وأقام أحفاده بديلا عنه قرب الطرف الغربي لشارع بغداد سنة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م، وأقاموا هذا الجامع في هذا الموقع بديلاً عن الجامع القديم. قتيبة الشهابي، مآذن دمشق، وزارة الثقافة ١٩٩٣، دمشق، ص ٢٤٣. لطفي فؤاد لطفي، التاريخ العمراني لدمشق ١٥١٦-١٩١٨م، وزارة الثقافة دمشق، ٢٠١١م، ص ٤٣٦.

(١٢) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، وقف على طبعهما خليل بن أحمد مردم بك، مطبعة الترقي بدمشق، ١٩٢٥، ص ٢٠.

(١٣) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ١٦.

ما كتب في الكتب التاريخية عن الجامع

ما ذكرته المصادر التاريخية كان عن الخان الملاصق للجامع المبارك، فقد ذكر وقوع زلزال في الشام أدى إلى سقوط خان القنيطرة سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م ولم تسلم منه الناس ولا الدواب.(١٤)

كما يذكر وصفي زكريا وجود بناء تاريخي واحد باقي في القنيطرة في منتصف القصبة وهو الخان الذي بناه مصطفى لالا باشا التركي، وبناؤه من الحجر الكلسي المنحوت. وتاريخ سقوط خان مصطفى لالا باشا من الزلزال كان بعد قرنين من بناءه(١٥)،مما يعني إعادة ترميم الخان لاحقا.

نوع المباني

تنوعت المباني التي بناها لالا مصطفى باشا في القنيطرة وهي مباني وقفية متلاصقة وتضم (الجامع، والخان، والقيسارية، والحمام). وكان وقف المباني من المهام التي يقوم بها الولاة(١٦).وقد يتم ذلك بطلب من الدولة بعد أن يتم منحهم إقطاعات على سبيل الملك. وكانت الدولة العثمانية تخصص أموال لصالح خانات الطرق(١٧)، والخان الذي أوقفه مصطفى لالا باشا خان خيري على طريق تجاري يستفيد من أوقاف مخصصة له(١٨).

---

(١٤) البديري الحلاق، حوادث دمشق اليومية (١٧٤١ - ١٧٦٢م)، مطبوعات الجمعية العربية للدراسات التاريخية، ط ١، ١٩٥٩م، ص ٢٢٣.

(١٥) زكريا أحمد وصفي، القرى والبلدات، ص ١٨٩.

(١٦) يحيى فؤاد، جرد أثري لخانات دمشق، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، إصدار المديرية العامة للآثار والمتاحف في سوريا، مجلد٣١، ١٩٨١م، ص ٧٦.

(١٧) يحيى فؤاد، جرد أثري لخانات دمشق، مجلة الحوليات الأثرية، ص ٧٦.

(١٨) أنظر وقفية الوزير لالا مصطفى باشا، وقف على طبعهما خليل بن أحمد مردم بك، مطبعة الترقي بدمشق، ١٩٢٥، ص ٢٣.

وتظهر القنيطرة كقرية في دفاتر تحرير الأراضي كالدفتر ٤٠١، ويعود لسنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م، والدفتر ٤٧٤، والذي يعود لسنة ٩٧٧هـ /١٥٦٩م[١٩] في حين سجلت في دفتر المالية٥٨١٦[٢٠]، كناحية وهذا يدل على التغيرات الإدارية في أوضاع القنيطرة والذي تأتى من سرعة النمو الاقتصادي وتطوير العمران فيها.

ونلحظ زيادة في النمو السكاني للقرية إذ بلغ عدد سكان القرية حسب دفتر التحرير ٤٠١ والذي يعود لسنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م ٣١خانة(عائلة)، وزاد في أحصاء سنة ٩٧٧هـ/ ١٥٧٠م. أي بعد خمس سنوات من الإحصاء السابق إذ بلغ عدد السكان ٦٢ خانة و٨ مجرد(أعزب) حسب الدفتر ٤٧٤[٢١].

وفي فترة الدراسة للقرية بلغ ١٥٥ نفر، وفي الفترة التي تلت بناء الجامع وصل العدد إلى ٣١٨ نفر، وهذا دليل على أثر المنشآت التي أقيمت في القرية على نهضتها وبالتالي زيادة عدد السكان فيها[٢٢].

وصف الجامع

بني الجامع في جهة القبلة ضمن ساحة كبيرة[٢٣] والجامع مربع الشكل، تحيطه من ثلاث جوانب جنينة مستديرة[٢٤]. وقد وصف كاتب الوقفية الجامع بالفريد وقد يكون ذلك لوجود جنينة خارج محيط الجامع.

---

(١٩) دفتر تحرير. TDV. İstanbul.474. TDV. İstanbul. 401

(٢٠) دفتر مالية. MAD.5816, ye1026 A.H/1617 A,D

(٢١) دفتر تحرير. TD. Istanbul.474. TD. Istanbul.401

(٢٢) تم الحساب حسب الطريقة المتبعة في إحصاء عدد السكان للخانات المذكورة في العهد العثماني بضربها بالعدد ٥ وهو الحد الأعلى لأفراد الأسرة الممكن. أنظر، أسماء رمضان خليل، الريف في العهد العثماني، دار الراية، عمان، سنة٢٠١٠، ص ٦٣.

(٢٣) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ١٩.

(٢٤) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ١٩.

القباب والمحراب

ويضم المسجد نوعين من القباب الداخلية والخارجية. وكانت القباب عنصر أساسي في التسقيف بجميع المباني الدينية بشكل خاص في العصر العثماني في تركيا والبلاد التي كانت تحت الحكم العثماني[٢٥].

القباب الداخلية

وسقف الخانات بالقباب والعقود نمط روماني أدخله العثمانيون في بناء الخان[٢٦]. والقباب كأحد أشكال التسقيف كانت نمط عام في البناء العثماني، وبنيت القباب في الجامع المبارك فوق القناطر، وكان عدد القباب يختلف من جهة لأخرى ففي الجهة الجنوبية بنيت قبتين، وفي الرواق الشمالي الذي يؤدي لباب الجامع بنيت خمس قباب، وزاد عدد القناطر فيها[٢٧].

وبنيت قبة أمام المحراب تميزت بإرتفاعها وتقوم على أعمدة تمسكها، وامتازت كذلك بكبر حجمها وتشكيل سطحها الخارجي بطريقة اختلفت عن باقي قباب الجامع، وبوجود عدة نوافذ فيها ليدخل منها النور وينير المكان.

وفي الجهة الجنوبية من داخل الجامع بمواجهة القبلة قبة مبنية بالطين، قامت على أربعة قناطر مبنية من الحجارة المنحوتة، ومسقوفة بالرصاص من جميع جهاتها[٢٨]. وتشابهت بهذه الطريق في البناء مع الجامع الأموي الذي رصصت جدرانه بالرصاص[٢٩]. والجهة الشرقية والغربية من الجامع لم تقم

---

(٢٥) صالح لمعي مصطفى، القباب في العمارة الإسلامية، دار النهضة، بيروت، ص ٢١
(٢٦) لطفي فؤاد لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، وزارة الثقافة دمشق، ٢٠١١، ص ٣٠٩.
(٢٧) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢١.
(٢٨) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ١٦.
(٢٩) حسن زكي صواف، دمشق الأسطورة والتاريخ، دار المكتبي، دمشق، ط ١، ٢٠١٠م، ص ٥٠٤.

فيها قباب ولا قناطر. فكان هناك تباين في طريقة بناء أقسام الجامع، مما يدل على الاهتمام بفنيات البناء.

وفي الجهة الشمالية داخل الجامع على جانبي سدة القراء توجد حجرتان شرقية وغربية، سقفت كل واحدة منهما

بقبة بنيت من الحجارة والطين لتثبيت حجارة البناء، وداخل القبة مسقف بالجبس ومن الخارج رصصت بالرصاص[٣٠].

وصنع المنبر والقبة التي فوقه من الخشب[٣١]. وتشابهت بذلك مع قباب مصر التي كانت من الخشب[٣٢].

القباب الخارجية

وكانت القباب هي سقف للبيوت التي بنيت في الطابق العلوي قرب منارة (مئذنة) الجامع ومطلة على شرفة المنارة. وتميزت قباب البيوت بقوة بنائها[٣٣].

وقامت القباب على أروقة الجامع الخارجية في الممشى الشرقي والغربي اللذان يتفرعان من جهة الشمال ولم تبنى كسقف واحد للجامع فبنيت خمس قباب كسقف تغطي الممشى مبنية من الحجارة والطين، مسقوفة بالرصاص من الخارج.

وهناك قبة خارجية كبيرة راكبة على أربعة قناطر وهي من الحجر المنحوت. بنيت فوق بركة ماء المسلخ.

(٣٠) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ١٦.
(٣١) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، وقف على طبعهما خليل بن أحمد مردم بك، مطبعة الترقي بدمشق، ١٩٢٥، ص ١٩.
(٣٢) صالح لمعي مصطفى، القباب في العمارة الإسلامية، دار النهضة، بيروت، ص ٢٠
(٣٣) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢١.

والقباب كنمط تسقيف للمباني أتبعت كذلك في مساجد مصر وتستخدم لتغطية أروقتها[٣٤].

جدار الجامع الداخلي

داخل جدران الجامع يوجد شبابيك حديد من ثلاث جهات القبلة والشرق والغرب. هذه الشبابيك تطل على الجنينة الدائرية الخارجية[٣٥].

أروقة الجامع

والجامع محاط بأروقة وهي أبنية بشكل أقواس وتقوم على أكثر من قوس ورفعت الأقواس على أعمدة في ساحة الجامع الداخلية والخارجية من جهات الجامع الأربع. وكانت أعمدة الأروقة من الحجارة الملونة المنحوتة المجلية، وفوق الأقواس قامت القباب[٣٦].

الأروقة الداخلية

وفي داخل الجامع يوجد رواق واحد فقط، عليه قبة مبنية من الطين، مرصص ظهرها من جميع الجهات بالرصاص ومركبة على أربع قناطر (أقواس) مبنية من الحجر المنحوت[٣٧].

الأروقة الخارجية

أول الأروقة في الساحة من جهة شمال الجامع وسمي بالرواق اللامع، ومنه تفرعت طريقين طريق تؤدي إلى جهة الشرق وطريق آخر إلى جهة الغرب

---

(٣٤) صالح لمعي مصطفى، القباب، ص ٢٠

(٣٥) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢٠.

(٣٦) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢١.

(٣٧) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ١٩٢٥، ص ٢٠.

بينهما ممشى مبلط، يوصل منه إلى باب الجامع وتغطي الرواق خمس قباب مبنية من الحجارة، مرصصة ظاهرها بالرصاص بدقة، وركبت القباب على عضائد وأربعة أعمدة من حجارة زرزورية (زرقاء اللون) مبنية من الحجارة[٣٨].

في الجانب الشرقي رواقان مبنيان من الحجارة والطين، ركبا على عضائد منحوتة ومسقفان بالرصاص[٣٩].

وبالجهة الشرقية في القبو المغلق يوجد رواق مرصص، مركب على ثماني قناطر ومن هذا الرواق يوصل إلى باب يؤدي إلى البيوت التي فيها أغراض خدماتية.

إن العمائر الدينية العثمانية في القرن الرابع عشر كما وصفها أرنست كونل تقوم على أسس البناء التي كانت في الفترة السلجوقية فهي عبارة عن بهو له دعائم منتظمة متعددة الأروقة وفوق كل مربع قبة صغيرة مستقلة وينفذ الضوء إليها من نوافذ في أعلى القباب[٤٠]. وقد استمر هذا الشكل المعماري في القرن السادس عشر.

العيون وبرك الماء

وبجهة الغرب من الرواق اللامع باب يصعد منه إلى المنارة (المئذنة)، وتوجد عين ماء تجاه هذا الرواق بنيت حولها بركة وبلط حولها بالقيشاني. ومحيط البركة كان من الجبس[٤١].

---

(٣٨) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢٠.
(٣٩) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢٠.
(٤٠) أرنست كونيل، الفن الإسلامي، ترجمة أحمد مرسي، دار صادر بيروت، سنة ١٩٦٦، ص ١٦٣
(٤١) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢٠.

وفي جنينة الحديقة الخارجية توجد بركة ماء، يأتيها الماء من دولاب حمام الأغتسال(٤٢).

وفي جهة الباب الغربي يوجد بئر من عين ماء، وبه دولاب من خشب لاستخراج الماء منه إلى خزانة الحمام وبركته، وإلى سبيل الماء الذي يجري بظاهر جدار الميضآت لشرب المارين(٤٣).

بعد الساحة التي أمام الحمام يوجد باب يوصل إلى المسلخ وفيه بركة منخفضة حولها مصاطب مستديرة، ويعلوها قبة كبيرة تتسم بجمالها تقوم على أربع قناطر(أقواس) من الحجر المنحوت(٤٤).

المحراب

واتخذ المحراب شكل نصف دائري محيطه أسود وداخله شديد البياض ووصف بأنه (كحاجب حوراء) وبنيت أمامه قبة كبيرة(٤٥).و يكون المحراب عادة على شكل طاقة نصف دائرية أو مضلعة مجوفة تسع أن يقف فيها رجل.

والمحراب في قبة الصخرة مجوف على شكل حنية ذات مسقط دائري، وكذلك المحراب الذي بالجامع الأموي(٤٦).

ويتشابه المحراب الذي في الجامع المبارك مع وصف محراب قبة الصخرة. فهو نصف دائري محيطه أسود داخله شديد البياض، والنصف الأسود الذي يشبه الحاجب يشبه شكل الحنية ذات المسقط الدائري في قبة الصخرة.

---

(٤٢) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢٠.

(٤٣) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ٢٢.

(٤٤) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢٢.

(٤٥) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ١٦.

(٤٦) عفيف بهنسي، المحراب الأول في المسجد الأموي، الحوليات الأثرية العربية السورية، مديرية المباحث والآثار، دمشق، مجلد ٣١، سنة ١٩٨١، ص ١٤.

منارة (مئذنة) الجامع

وكانت منارة الجامع متوسطة الطول مستقيمة ووصفت في الوقفية بجمالها. بنيت المنارة في الجهة الغربية من الرواق اللامع ومن الرواق باب يصعد إلى هذه المنارة بدرج من الحجارة[٤٧]. وكان للمنارة شرفة مفتوحة مطلة على حرم الجامع في والشرفة مبلطة مقور[٤٨].

جدار حرم الجامع

وكان الجدار الشرقي الخارجي لباب الجامع المبارك منطقة تجمع الخدمات ففيه كل ما ينفع الناس على مستوى الخدمات الإجتماعية اللازمة لأبناء المنطقة التي يقع فيه الجامع.

ففي طرف الجانب الشرقي إلى جهة الشمال باب يتوصل منه إلى المكان الخالي المعد لقضاء الحاجة، وبظاهر الجدار مناطق للوضوء (الميضآت)على سبيل ماء جاري، يستفيد منه المسافرين القادمين إلى القنيطرة.

بالساحة الخارجية وبظاهر الجدار الشرقي عشرة محلات تجارية تقوم على عضائد (أعمدة من أعلى السقف لأسفله)، وعمل البناء على شكل قبو من الحجر المنحوتة يفتح إلى جهة حوش القلعة المنصورة الخاقانية[٤٩].

وعند هذا الجدار كان الارتباط مع القلعة من خلال قبو مغلق، على استواء ساحة الجامع ومغلق من جميع الجهات، وارتباط الحوانيت بالقلعة دليل على الارتباط المعماري الوظيفي للأركان المبنية بالمسجد والمحيطة فيها.

فبناء هذا الجامع قام على فكرة تدعيم المدينة المصغرة التي مركزها الجامع ومنها تتوزع المراكز التي تنتفع منها.

---

(٤٧) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ١٦.
(٤٨) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ١٧.
(٤٩) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢١.

أبواب الجامع

تتوزع الأبواب في أماكن عدة من نواحي الجامع

الأبواب الداخلية

أولها الباب الذي يكون منه الدخول إلى الجامع من جهة الرواق اللامع إذ ينتهي الرواق إلى باب الجامع الداخلي،

ويغلق الباب الداخلي بقفلين[٥٠].

الأبواب الخارجية

وتتعدد الأبواب الخارجية في محيط الجامع. يدخل إلى الجامع من الباب الشرقي للجامع وهو باب يتميز بجماله وصلابته فهو مبني من الحجارة المصفحة بالحديد يقوم على قناطر مبنية من الحجارة ومنه يكون الدخول إلى ساحة الجامع الخارجية[٥١].

وباب صغير يصعد منه إلى منارة الجامع، من جهة الرواق اللامع[٥٢].

وبطرف الجانب الشرقي إلى جهة الشمال باب يؤدي إلى مكان الخلاء المعد لقضاء الحاجة[٥٣].

وهناك باب غربي تم تجديده يفتح على الحمام بجهة الشمال، ومن جهة شمال الحمام باب آخر يفتح على حوش مختص بالحمام يؤدي إلى المسلخ[٥٤]. ومن الشرق باب ذو سلاسل يؤدي إلى القلعة المنصورة[٥٥].

(٥٠) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢٠.
(٥١) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ١٩.
(٥٢) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢٠.
(٥٣) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢٠.
(٥٤) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢٢.
(٥٥) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢٣.

أبواب الخان

أبواب الخان السفلي والمرافق الملحقة به:

وبالجهة الشرقية من ساحة الجامع رواق معمول كالقبو مرصص من جميع جهاته، وفيه عدة أبواب للحوانيت الموجودة فيه باب يتجه إلى الكيلار (بيت المؤونة) وباب يوصل لمطبخ لطعام المسافرين، وباب يوصل منه إلى القرن، وأبواب لحجرات سكن خدم الجامع ومرافقه من كناسين وطباخين وبوابين وحراس، معمول في قبو من الحجارة والطين. وبقرب الرواق من الخارج يوجد مخزن لخزن الغلال وعليه باب قوي الإغلاق[٥٦].وتعدد غرف الخدم والعاملين في الخان والجامع. دليل على كبر الخان والقيسارية والجامع.

الأبنية المتصلة بالجامع المبارك

المساجد من أهم المؤسسات الإسلامية وكانت تتكامل الخدمات فيه بحيث أصبح المسجد مكان إشعاع بكل ما ينفع الناس على مستوى الخدمات الإجتماعية اللازمة لأبناء الحي الذي يقع فيه المسجد، فاشتمل المسجد في القرية على عدد من المرافق ليتمكن بها من أداء وظيفته. ومن الخدمات التي تتوافر فيه وجود فصل دراسي أو أكثر لتحفيظ القرآن الكريم لمن يرغب في ذلك من المسلمين[٥٧].

المقومات التي قامت عليها المساجد في الدولة الإسلامية، ضمن الحيز الفراغي الحضري للمسجد، كان يشبه النسيج الحضري للمدينة الإسلامية التقليدية، فتأثر بنفس العوامل التي شكلت المدينة العربية الإسلامية[٥٨].فكان بناءاً مصغراً للمدينة.

(٥٦) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢١.
(٥٧) محمد ماجد خلوصي، عمارة المساجد، ص ٣٦
(٥٨) محمد ماجد خلوصي، عمارة المساجد، ص ٢٤

وقد أندمج مع الجامع المبارك في القنيطرة، عدد من المرفقات كجزء أساسي متلاصق به، وعمارة المساجد في النمط العثماني قد أختلط بتخطيط المدرسة[٥٩]. فكان الجامع المبارك مكان إشعاع علمي بوجود كتاب صغير فيه.

وكتاب الصغار من أهم ملحقات الجامع أقيم في طابق علوي للساحة الخارجية من الباب الشرقي، حتى يكون منفصلا بأعماله العلمية التي تدرس للأطفال، بعيدا عن نشاطات الجامع الدينية، والمكتب لتعليم الأطفال المسلمين الأغنياء والفقراء يتعلمون فيه القرآن، ويتعلمون الصلاة، والكتابة والقراءة، والآداب، وتربية النفس يشتمل على إيوان(مكان الجلوس الصيفي، ذو ارتفاع عالي، وفتحته الأمامية قوسية، ومغلق من الجهات الثلاث)[٦٠]. وعلى جانبي الإيوان غرفتان ومقعد، وفيه كانون يوقد به النار للتدفئة، ويصعد للمكتب بسلم من الحجر، ولمكتب الصغار باب خاص[٦١]. ويوجد إلى جانب المكتب غرف لطبخ الطعام وادخار المؤن كذلك. كما يوجد إلى جانبها إسطبل للدواب إلى غير ذلك من المباني النافعة[٦٢]، فالمنافع التي تتبع الكتاب كانت في الطبقة السفلى من الباب الشرقي.

ورغم صغر القرية إلا أن الاهتمام بتنمية الريف كان أحد أسس التحضير الذي سارت عليه الدولة بشكل عام في الدولة العثمانية، وقد سمي الحيز بالحضري لأنه ساهم في رفع سوية القرية في عدة نواحي.

(٥٩) أرنست كونيل، الفن الإسلامي، ص ١٦٣
(٦٠) لطفي فؤاد لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، وزارة الثقافة دمشق، ٢٠١١، ص ٥٢٠.
(٦١) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ١٩.
(٦٢) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ١٧.

الخانات

وقد استخدمت كلمة الخان في العصر الإسلامي للدلالة على خانات الطرق في المدن، وظلت كلمة خان مخصصة لخانات الطرق[٦٣]. وإقامة الخانات تقليد متبع من أيام الرومان إذ أقاموا فنادق خاصة بالمسافرين، كم أنشأوا في المدن الأسواق المغلقة والمغطاة[٦٤].

يوجد في القنيطرة خانين قديم، وجديد. الخان القديم تم تجديد بناؤه من قبل لالا مصطفى باشا، عندما قام بتعمير الجامع المبارك.

ذكرت الوقفية بأن مصطفى باشا قام ببناء خان في قرية القنيطرة ووصف بأنه كبير ليكون منزلاً للمسافرين بين مصر والشام والزائرين للقدس الشريف ومشهد الخليل، وكان هذا الخان سببا في تعمير القرية وجمع سكانها وزيادة عددهم بعد أن كانت منطقة مضطربة[٦٥]. ويعود سبب أنشائه إلى كثرة قطاع الطرق وأهل الفساد من الأعراب عند جسر يعقوب إذ يقومون بالتعرض للتجار وسائر أبناء السبيل ويقومون بإتلاف أموالهم[٦٦]، ولأن ما بقي بالقرية هو أطلال الخان القديم، يرتاده المسافرون وهم خائفين لأن القرية لم تعد مأهولة بالسكان[٦٧]. بني الخان في طابق علوي فبنيت عدة بيوت عند منارة جامع لالا مصطفى إذ تم تخصيص غرف خاصة للمسافرين للإقامة فيها، ووصفت الغرف

---

(٦٣) يحيى فؤاد، جرد أثري لخانات دمشق، ص ٦٩.
(٦٤) يحيى فؤاد، جرد أثري لخانات دمشق، ص ٧١.
(٦٥) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ١٦.
(٦٦) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، خليل مردم (ناشر)، ص ٢٤-٢٥.
(٦٧) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، خليل مردم (ناشر)، ص ٢١.

بأنها رفيعة يعلو كل بيت قبة حصينة، ولكل بيت باب خاص، وسرر يتكئ عليها المسافرون(٦٨).

وقد كان الخان في الجامع المبارك يحوي طوابق علوية يقيم فيه المسافرين، وطوابق سفلية إنفصلت عن الخان وكانت على الطريق وارتبطت بالسوق المغلق في القبو المغلق(٦٩). واحد مكونات المباني التي ارتبطت بالخان والجامع المبارك بيوت طبخ طعام المسافرين، وتم توفيره للمسافرين القادمين بالشتاء بشكل خاص، ليتحملوا مقاساة برده(٧٠). وقدرت طبيعة المنطقة الباردة، وأهمية موقع القنيطرة الاستراتيجي والتجاري. في الجامع المبارك. ويمكن أن نطلق على الخان في العهد العثماني بأنها خانات طرق تقدم الطعام مجانا، إضافة للإقامة فيها. وغابت في العهد العثماني تسمية القيسارية وأصبح الخان هو التسمية العامة لهذه المنشآت التجارية أو السياسية أو العسكرية، وكانت الوظيفة التجارية للخان هي إيواء القوافل وتخزين السلع وأعداد الدكاكين للبيع والشراء، وهناك أصناف من الخانات تخصصت بأعمال الفنادق، فكانت تستقبل المسافرين، وفيها مساجد للصلاة ومطابخ لطهي الطعام، وحمام للأغتسال(٧١). والخان التجاري المغطى بالقباب هو نموذج معماري عثماني(٧٢).

ولم يكن هذا حال الجامع المبارك فقط فالتوزيع الجغرافي للخانات كان موافقا لتوزع النشاط التجاري فالمنطقة المحيطة بالجامع الأموي مثلا أحد هذه

(٦٨) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، وقف على طبعهما خليل بن أحمد مردم بك، مطبعة الترقي بدمشق، ١٩٢٥، ص ١٦.
(٦٩) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ١٦.
(٧٠) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ١٦.
(٧١) الصواف، دمشق، ص ٥٦٨.
(٧٢) لطفي فؤاد لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، وزارة الثقافة دمشق، ٢٠١١، ص ٧١.

التجمعات، وكانت الأسواق التجارية الهامة المحيطة بالجامع من ثلاث جهات: الشرق والغرب، والجنوب[٧٣].

والوصف الذي للخانات في العهد العثماني يتفق مع وصف الخان الذي بني ملاصقا للجامع المبارك بجوار المنارة (المئذنة)، فقد شيدت الخانات في العصر العثماني حسب الطراز المملوكي القائم على أفنية متعددة الطبقات وكانت الأماكن في أسفلها تستخدم مخازن وإسطبلات أما العليا فتستعمل للسكن كما كانت بعض هذه الخانات تتألف من أروقة كبيرة مربعة متساوية المساحة فوق كل منها قبة صغيرة[٧٤]. والاختلاف عن هذا الوصف هو أن أماكن سكن المسافرين كانت جهة المنارة(المئذنة)[٧٥]، ومناطق الخدمات المرتبطة بها كانت عند مدخل الجامع من جهة الشرق

حدود الخان

ويحيط بجميع ما ذكر ووصف أعلاه حدود أربعة، فمن القبلة الطريق وتمامه الخان القديم الذي جدد بناءه مصطفى لالا باشا[٧٦].

ومن الشرق حوش القلعة المنصورة الخاقانية، ومن الشمال الطريق، ومن الغرب كذلك وفيه الباب الصغير المجدد[٧٧].

ويمكن القول إن بناء الجامع والخان بقرب القلعة معناه أن هذه المباني أدت خدمات مباشر لقاطني القلعة.

ومن الواضح من عرضنا للمباني التي قام بإنشائها مصطفى لالا باشا أن الخان وباقي المرافق الملحقة بالخان لتقديم الخدمات للمسافرين هو الأساس

---

(٧٣) يحيى فؤاد، جرد أثري لخانات دمشق، ص ٨١.
(٧٤) أرنست كونيل، ص ١٦٩، محمد خلوصي، عمارة المساجد، ص ٥١٦ .
(٧٥) أنظر التخطيط الهندسي المرفق للجامع في نهاية البحث.
(٧٦) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ١٩٢٥، ص ١٦.
(٧٧) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢٢-٢٤.

لهذه المباني، والجامع المبارك هو أحد المراكز الهامة التي ألحقت بالخان. وزودت الخانات التي ارتبطت بالجامع بالدكاكين والمخازن والأسواق، وبيوت طبخ الطعام. أي أن مكان العبادة كان ملحق بهذه المنافع المتعددة التي ألحقت بالخان الذي بني إلى جانب الجامع المبارك وكانت إقامة مسجد في القرية أساس لزيادة تجمع السكان المسلمين، في حين كانت قرية القنيطرة قرية نامية قبل دخول العثمانيين إليها. لكونها في الطريق التجاري ويرتادها المسافرون، لذلك كانت إقامة الجامع مكملة لصورة المكان وظيفيا، كما أن غالب السكان في القرية من المسلمين الرافضة أو غير المسلمين.

إضافة إلى ذلك فقد قام مصطفى باشا قام بتجديد الخان القديم وموقعه حسب الوقفية غير موقع الخان الذي قام مصطفى باشا ببنائه قرب المنارة، والعمائر الأخرى التي تم بناؤها من قبل مصطفى باشا هي لخدمة المسافرين وليس المصلين بشكل خاص.

الشرفات

وتعتبر الشرفة أحد المكونات الأساسية في بناء الجامع والشرفة وهي وحدة هندسية في مباني العمارة الإسلامية وتوجد الشرفات في المساجد، وهي تعطي نهاية جميلة أعلى المباني. وأقيمت شرفة واحدة في الجامع المبارك وكانت قرب المنارة ومطلة على الحرم أقيمت في باحة مطلة على السماء، ومنها يكون الآذان. وكانت الشرفة مبلطة مقورة تميزت بجمالها[٧٨].

(٧٨) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢٢. ٢٤.

منطقة الأقبية ومنافعها

وكان الجدار الشرقي لباب الجامع المبارك هو منطقة تجمع الخدمات ففيه كل ما ينفع الناس على مستوى الخدمات الإجتماعية اللازمة لأبناء الحي الذي يقع فيه المسجد، وتجمعت هذه المنافع الخدماتية في بناء مغلق كالقبو.

أقيمت المرافق والحوانيت كصفوف على شكل قبو من الحجر المنحوت مغلق قامت على أوتاد[٧٩]، إضافة إلى خمسة حجرات لإقامة التجار والمسافرين لكل حجرة باب خاص يغلق من قبل ساكنه، قام هذا القبو الذي ضم المرافق والحوانيت وحجرات النوم على تسعة قناطر، سقوفها مقببة من الحجارة. وهي كالقيساريات التي أنشأها الرومان وكانت في عهدهم تدل على المعابد، ثم سميت بها بعض المدن التي قامت حول هذه المعابد، وبعد الفتوحات أخذها العرب لتدل على الأسواق المسقوفة والمغلقة في المدن[٨٠]. ويذكر بعض الباحثين أنه لا فرق بين القيسارية والخان، إذ كانت المنشآت متداخلة الاختصاصات والنشاطات، ومختلفة الأماكن والمساحات التي بنيت عليها، إلا أنها متشابهة في هندستها[٨١].

وعند الجدار الشرقي كان الارتباط مع القلعة من خلال قبو مغلق، وكأن هناك ارتباط معماري وظيفي للأركان المبنية بالمسجد والمحيطة بها، فبناء الجامع المبارك قام على فكرة تدعيم المدينة المصغرة التي مركزها الجامع ومنها تتوزع المراكز الوظيفية.

المنطقة من جهة الجدار الشرقي للجامع المبارك، حجرات خاصة للتجار والمسافرين أي أنها خاصة بالتجار الذين يردون السوق، وهي غير الغرفة التي

(٧٩) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ٢١.

(٨٠) يحيى فؤاد، جرد أثري لخانات دمشق، ص ٦٩.

(٨١) لطفي فؤاد لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، وزارة الثقافة دمشق، ٢٠١١، ص ٢٧٩.

أقيمت في الطبقة العلوية للمسافرين. والقيسارية تمتاز بقبواتها العظيمة وعقودها الضخمة[٨٢]، وقد ظلت القيسارية مخصصة للتجارة أكثر حتى نهاية العهد المملوكي،كدار الضيافة تقدم الطعام بالمجان للمسافرين أو المارين[٨٣]. وقد استمر استخدام المخازن المقبية (المغطاة بقبو)حتى نهاية القرن ١٢هـ/ ١٨م[٨٤].

ووصف الجامع والمباني المرتبطة به أكدت أن القيسارية بما فيها من حوانيت وحجر للنوم أختلفت عن الخان الذي في الطابق العلوي، الذي كان فقط لإقامة المسافرين، أي أن كلمة قيسارية كانت موجودة ببناءها الحقيقي في العهد العثماني، ولم توصف بأنها خان حسب الوقفية.

كان الرواق الذي في الجهة الشرقية على شكل قبو مغلق كذلك ويقوم على ثمانية أقواس، وفي هذا الرواق مطبخ لإطعام المسافرين، وكيلار (بيت المؤونة)، وفرن، ولكل منها باب خاص، وخارج هذا الرواق مخزن لتخزين الغلال عمل كالقبو ومرصص كبقية المباني التي ذكرت كجزء من مباني الخدمات الملتصقة بالجامع[٨٥]. ووجود مخزن لخزن الغلال، وكانت هذه أحد الوظائف المستودعية التي ارتبطت بالسوق المقبب (القيسارية) التي أقيمت كجزء ملحق بالجامع المبارك. وكانت القيسارية التي أقيمت في توابع الجامع المبارك تقع ضمن النمط الفراغي الخارجي والتي تضم الكتل الخارجية للمسجد، والأنماط الفراغية المفتوحة بما فيها ما يحيطه من شوارع أضافة إلى الحوانيت والمرفقات الخدمية الملحق به[٨٦].

---

(٨٢) صالح الألفي، الفن الإسلامي، دار المعارف، ط ٣، القاهرة، ص ١٢٣.
(٨٣) الصواف، دمشق، ص ٦٥٤؛ يحيى فؤاد، جرد أثري لخانات دمشق، ص ٧٠.
(٨٤) يحيى فؤاد، جرد أثري لخانات دمشق، ص ٨٠.
(٨٥) وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ص ٢١.
(٨٦) محمد ماجد خلوصي، عمارة المساجد، دار قابس، بيروت، ١٩٩٨، ص ٢٤.

الحمامات

وفي طرف الجانب الشرقي الذي فيه الرواقان المعقودان إلى جهة الشمال باب يتوصل منه إلى المكان الخالي المعد لقضاء الحاجة، وبداخله ستة مرافق، وبظاهر الباب الشرقي عشرة حوانيت تفتح إلى جهة حوش القلعة، وبظاهر جدار الشرقي الميضآت لوضوء المصلين(٨٧).

ويوجد باب غربي تم تجديده من قبل مصطفى باشا يفتح إلى حمام بجهة الشمال، وله باب من جهة الشمال يفتح على حوش واسع يتبع للحمام، وتوجد ساحة دائرية أمامه تم تزيينها، ثم هناك غرفة ذات حرارة عالية وعدة مقصورات وأجرنة ماء عددها تسعة، وعليها عشرة قباب فيها زجاج لإدخال النور للمكان(٨٨)، والأرض مبلطة بأنواع مختلفة من البلاط، وأقميم ممسوك عليه قدران من النحاس، وبه دولاب من خشب لاستخراج الماء من بئر هناك من عين ماء، يصب إلى خزانة الحمام وبركته والى السبيل المذكور من جهته، ويغلق على الاقميم باب مخصوص، ويعلوه بيت الحمام ومنافعه. وهذا المعدات المذكورة جميعا هي لتحضير الماء الساخن للأستحمام.

وحدود هذا الحمام من الجنوب: الطريق ونهايته الخان الذي جدد بناؤه لالا مصطفى باشا. ومن الشرق حوش القلعة المنصورة الخاقانية، ومن الشمال الطريق. ومن الغرب: طريق وفيه الباب الصغير الجديد المذكور أعلاه(٨٩).

---

(٨٧) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ٢٢.
(٨٨) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ٢٠.
(٨٩) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ٢٢- ٢٣.

مواد البناء

يمكن القول أن مواد البناء الرئيسية التي استخدمت في بناء مسجد الجامع، كانت الحجارة السوداء(٩٠)، التي كانت من البيئة المحلية، إذ غلب على القنيطرة الحجارة السوداء لأن أرضها بركانية. فالسهول فيها رملية ذات طبقات بركانية يستخرج مها الرمل الأسود(٩١). ومادة بناء الجامع الثانية هي من الرخام. أمتاز بشدة لمعانه وصفاءه(٩٢).

كما استخدم الحجر الكلسي ويتميز بديمومته. ولا يحتاج إلى جهد كبير في نحته ويعقد مع الحجارة والجص والكلس مع التراب فتلتحم أكثر. واستخدم الكلس والطين في تثبيت حجارة البناء، واستخدمت الحجارة واللبن في عقد سقف المخازن(٩٣)، وقد ذكر وصفي زكريا أن نوع الحجارة التي بني منها الخان هي حجارة كلسية(٩٤).

ومن المواد الرئيسية التي بنيت فيها الأروقة والقناطر هي الحجارة وكانت بألوان متعددة(٩٥). وتنوعت المواد التي بنيت منها القباب، فقبة الجامع المبارك بنيت من الحجارة والطوب ومدهونة بالكلس من الداخل(٩٦) والقبة التي كانت عند المنبر كانت من الخشب. وكانت القباب تسقف بالرصاص من خارجها لمنع تسرب مياه الأمطار، فكان لمناخ القرية أثر في تحديد مواد البناء.

---

(٩٠) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ١٦.
(٩١) زكريا أحمد وصفي، القرى والبلدات، ص ١٨٧.
(٩٢) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ١٦.
(٩٣) لطفي فؤاد لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، وزارة الثقافة دمشق، ٢٠١١، ص ٥٠٧.
(٩٤) زكريا أحمد وصفي، القرى والبلدات، ص ١٨٩.
(٩٥) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ٢٠.
(٩٦) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ٢١.

وبنيت الأعمدة من حجارة زرقاء اللون[٩٧]. وكان الجبس أحد المواد الداخلة في بناء الجامع المبارك، فالمنطقة المحيطة بالبركة كانت من الجبس.

تاريخ الخانات

استخدم العثمانيون الفن الروماني في بناء الخانات من حيث استخدام القباب والعقود كسقوف، واستخدامهم الحجارة الملونة في الجدران أو الأقواس[٩٨]. كما بينا أعلاه.

وكذلك الحال في الحمام استخدموا نمط الحمام الروماني البيزنطي، إذ يحتوي على عدة قاعات القاعة التي تقع وسط الحمام وتكون دافئة، وقاعة تليها وجوها ملئ بالبخار نتيجة ارتفاع درجة حرارتها وفيها يكون الاستحمام إذ توجد فيها مقصورات، ومجهزة بمقاعد حجرية، ومصاطب من أجران وحجر ورخام، وفي الحمام مدخنة، وقباب منزلة[٩٩].

ويذكر أن الطراز المعماري العثماني في البناء هو استمرار للطراز السلجوقي، ورغم الحديث عن طراز عثماني خاص في البناء للمساجد وهو وجود ساحة واسعة وأروقة متعددة، وقباب صغيرة فوق الأروقة. هذا كنمط عام للبناء، إلا أن المتتبع لنمط البناء في الجامع المبارك أو الخان يجد أن العمارة فيها كانت مزيج من طراز بناء في عهود مختلفة روماني بيزنطي، مملوكي، سلجوقي.

---

(٩٧) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ٢٠.
(٩٨) لطفي فؤاد لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، وزارة الثقافة دمشق، ٢٠١١، ص ٣٠٩.
(٩٩) لطفي فؤاد لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، وزارة الثقافة دمشق، ٢٠١١، ص ٣٣٤.

الزخارف

كان ذكر الزخارف الفنية في الجامع المبارك محدود مما أدى لمحدودية الصورة عنها، وأغلب التزيين كان في طريقة البناء. وتنوعت أشكال الزخارف المستخدمة في بناء الجامع والمباني الأخرى التي إرتبطت به

فاتخذ المحراب الشكل نصف دائري محيطه أسود وداخله شديد البياض[100]، كان التنويع بألوان الحجارة من أشكال التزين فاستخدم بلاط ذو حجارة سوداء، وكان هناك الاهتمام بتزيين وأستخدام الرخام الذي أمتاز بشدة لمعانه[101].

كذلك استخدم النقش على الحجارة التي بنيت منها القباب، وقد وفرت عمارة القباب مجالاً رائعاً لإبراز النحت والزخارف في الجس والحجر[102] والتنويع الموجود في السطوح، واستغلال القيم اللمسية في سطوح الخامات الطبيعية[103].

الأعمدة كانت حجارتها منحوتة ملونة ومجلية[104]، وفي أعمدة أخرى كانت الحجارة (زروزرية) زرقاء. واستخدام اللون في الفن الإسلامي يؤدي وظيفة جمالية، فيستعمل اللون الأزرق والأخضر والذهبي[105]. واستخدم في الفن الإسلامي الوان الخامات الطبيعية[106].

---

(١٠٠) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ٢٠.
(١٠١) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ١٦.
(١٠٢) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ١٦.
(١٠٣) صالح الألفي، الفن الإسلامي، دار المعارف، ط ٣، القاهرة، ١٠٦. ص
(١٠٤) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ٢٠.
(١٠٥) صالح الألفي، الفن الإسلامي، ص ١٠٥.
(١٠٦) صالح الألفي، الفن الإسلامي، ص ١٠٥.

وصف أحد الأروقة باللامع. ويصف روقان آخران أنهما يقومان على أوتاد مضغوطة ومنحوتة، ثم مطلية بالنحاس.

والمحراب الذي بالجامع، كانت حجارته منوعة ومنقوشة وكانت القناطر تبنى من حجارة منحوتة. وفي قناطر أخرى كانت ملونة ومنحوتة ومجلية(١٠٧).

وداخل القباب جصص بالجبس كشكل من أشكال التزيين. كما وجد في القباب فتحات نوافذ من الزجاج.

واستخدام الخشب في صناعة المنبر وقبته من نفس الخشب، كذلك سدة القراء كان فيها نقش على الخشب بنقوش متنوعة.

وذلك بإستخدام الأساليب الصناعية والزخرفية التي كانت إمتداد للأسلوب السلجوقي فقد استخدم التجميع والتعشيق والتخريم في زخرفة الأخشاب في منابر الجوامع في إسطنبول، وقد تستخدم كذلك في المحراب(١٠٨). أو الأسلوب الفاطمي استخدم الزخارف الهندسية التي تقوم على الشكل النجمي(١٠٩).

كم استخدم النحاس مطلي بالذهب في هلال المنبر. فكان التزيين من خلال تنويع أنوع المواد، النحاس والذهب، وقد استخدم اللون الذهبي بسخاء في الفن الإسلامي(١١٠). والرصاص واللاطون(النحاس الأصفر) كما في بركة الماء إذ كانت مبلطة باللاطون النفيس (النحاس الجيد).

وكان التزيين كذلك في طريقة تصميم المبنى، فأحد أشكال التزيين كثرة الشبابيك المطلة على الحديقة وشكل الجنينة المستديرة حول الجامع.

---

(١٠٧) كتاب وقفية الوزير لالا مصطفى، ص ١٦.

(١٠٨) ربيع حامد خليفة، الفنون الإسلامية في العصر العثماني، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة ٢٠٠٥، ص ٢٠٤

(١٠٩) سعاد ماهر محمد، الفنون الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ص ٣٢٦

(١١٠) صالح الألفي، الفن الإسلامي، ١٠٥ ص.

المدارس العثمانية في حلب وأثرها في الحياة العلمية

مزاحم علاوي الشاهري*

المقدمة

تصدى للإنجازات العمرانية العثمانية عدد غير قليل من المؤرخين وبحقب مختلفة ومن بين ابرز من اعتمدنا عليهم كتاب نهر الذهب بتاريخ حلب لكامل الغزي وأعلام النبلاء لمحمد راغب الطباخ، أما في حقل تراجم العلماء فقد اعتمدنا على أبي الفضل محمد خليل المرادي في كتابه "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر وكتاب محمد المحبي الموسوم خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، فضلا عن المراجع الحديثة ويأتي في مقدمتها كتاب الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب لمحمد اسعد طلس، وحلب دراسات تاريخية وجغرافية حول البنية العمرانية والتركيبة الاجتماعية والحركة الاقتصادية لهايتنزغاوبهواويغن فيرت.

يتناول البحث أهم المدارس العثمانية في حلب التي ورد ذكرها في سير العلماء الحلبيين والكتب المهتمة بالعمارة العثمانية في حلب، ويحاول البحث بيان أثر المدارس العثمانية في حلب في الحياة العلمية ودور علماء حلب في تلك المدارس وعلاقاتهم العلمية والوظيفية مع العاصمة العثمانية وكما يلي.

أولاً: المدارس العثمانية في حلب.

ثانياً: أثر المدارس العثمانية في الحياة العلمية.

---

* الأستاذ الدكتور.

ويشتمل البحث كذلك على خاتمة وملاحق لنماذج من تصاميم المدارس العثمانية في حلب.

أولاً: المدارس العثمانية في حلب

عرفت مدينة عددا من المدارس العثمانية التي ظلت على حيويتها فضلا عن تمتعها بخصائص معمارية ظلت شاهدة على مستوى التطور العمراني والبراعة المعمارية للعهد العثماني، وقد أشارت المصادر التاريخية في مدة البحث إليها وكما يلي:

المدرسة العثمانية[١]

هي المدرسة الرضائية المشهورة بالمدرسة العثمانية[٢] التي بناها عثمان باشا عبدالرحمن باشا الدروكي (ت١١٦٠هـ-١٧٤٧م)على النمط التركي الجميل المتقن الريازة[٣] وهو الذي عمل والده برتبة رئيس الجاويشية في الباب العالي ثم ولاية حلب، بينما تولى ابنه عثمان وظيفة محصل للأموال الأميرية بحلب وتدرج في وظائف الدولة حتى تقلد وظيفة مشيخة الحرم المكي ومات بها[٤]، يقول طلس: "شرع الواقف بعمارة جامعه لصيق داره في سنة ١١٤١هـ-١٧٢٨م فاشترى الدور التي كانت من أهلها بالأثمان المضاعفة[٥]... وكمل في

---

(١) ينظر الشكل رقم (١).

(٢) كامل الغزي-نهر الذهب بتاريخ حلب (حلب: ١٩٢٦) ١٥٦/٢-١٧٢، وتقع في حي الفرافرة داخل محلة باب النصر.

(٣) ترجم له أبو الفضل محمد خليل المرادي- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، نشر دار الطباعة الكبرى (القاهره:١٣٠١هـ)١٥١/٣.

(٤) محمد راغب الطباخ- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (حلب:١٩٢١) ٣١٨/٣.

(٥) هاينتزغاوبهواويغن فيرت-حلب دراسات تاريخية وجغرافية حول البنية العمرانية والتركيبة الاجتماعية والحركة الاقتصادية لاحد مراكز التجارة الدولية في الشرق الأدنى، تعريب وتدقيق

سنة ١١٤٣هـ وهو بثلاثة أبواب له صحن فيه أربعون حجرة للطلاب والمدرسين والمكتبة وقاعات للتدريس وقبلية وايوانان كسرويان عظيمان ومنارة رشيقة شامخة..."(٦)

لقد وصف الطباخ المدرسة العثمانية قائلا: "هذه المدرسة أعظم مدارس الشهباء وأوسعها بناء وقبليتها قبة واحدة شاهقة مبنية على جدران عريضة جدا أمامها صنعتان كبيرتان عليهما أربعة عواميد ضخمة وعلى طرفيها إيوانان كبيران بجانب الأيمن منهما منارة مدورة الشكل عظيمة الارتفاع على نسق منارات الأستانة وقبليها بستان مغروس بشجرة الكباد، وصحن المدرسة واسع جدا في وسطه حوض كبير يجرى الماء فيه...ووراء هذا الحوض مصطبة على طول الحوض يحيط بهذا الصحن الواسع ثلاثة أروقة فيها ٣٤ عامودا من الحجر الأصفر ووراء الأروقة أربعون حجرة وفي الجهة الشرقية حوش صغير تشتمل على عدة حجر وخارج المدرسة في الجهة القبلية منها مكتب وسبيل، وجميع القبب والأسطحة مغطاة بالرصاص... ومن يمين الإيوان الغربي دهليز في صدره قاعة للتدريس لها شبابيك مطلة على البستان وفي شرقيه حجرة واسعة اتخذت مكتبة..."(٧).

وبالمقارنة مع غيرها يقول الطباخ: "إن هذه المدرسة لا نظير لها في البلاد السورية وكثير من البلاد الإسلامية في ضخامة بنائها وسعة أرجائها وغزارة وقفها..."(٨).

وتحديث دكتور صخر علبي نشر وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب (دمشق ٢٠٠٧)، ج ١، ٣٥١- ٣٥٣.

(٦) محمد اسعد طلس- الأثار الإسلامية والتاريخية في حلب، نشر مديرية الأثار العامة في سورية، مطبعة الترقي (دمشق:١٩٥٦) ١٣٦-١٣٧.

(٧) أعلام النبلاء: ٣/٣٢٥-٣٢٦.

(٨) المصدر نفسه: ٣/ ٣٢٦.

أما عن ميزات عمارتها فقد ذكرت لمياء الجاسر: "إنها من حيث التصميم استعمل في تخطيطها نظام المجتمعات وقد ضمت الجامع والمدرسة والمكتب والسبيل والمطبخ إلا أن اغلبها أبنية مستقلة وبمداخل مستقلة، وقد ضمت دون مدارس العهد العثماني إيوانين كبيرين على طرفي القبلية، وبالنسبة للإنشاء فقد استعملت قبة كبيرة في الأروقة والقبة المفتوحة في الباحة والانتقال من الشكل المربع إلى الدائري بمثلثات كروية، واستعملت لأول مرة أربعة مثلثات هرمية مقلوبة في الباحة كما استخدم في إنشائها القوس المدبب كما في واجهات المداخل والأروقة والقوس المجزوء في نوافذ وأبواب الغرف والقوس المجزوء المزرر في النوافذ الخارجية وقوس نعل الفرس المدبب العثماني في نوافذ القبلية والأعمدة المقرنصة الكبيرة في رواق القبلية والصغيرة في الأروقة، والأعمدة الملتحمة بالجدار في المحراب، والجدران سميكة وهي مبنية من الحجارة الصغيرة المنحوتة جيدا والمربوطة بكلاليب من الرصاص والحديد كما استعملت حجارة كبيرة كما في البركة والنجفات والعتبات"(٩).

أما بالنسبة للزخرفة فتنحصر في المقرنصات كما في أعمدة الأروقة والسدة والمنبر والمئذنة، ومزررات بنظام الأبلق كما في المئذنة وبلون واحد في النوافذ ونصوص كتابية كما في البوابات والقبلية والمنبر والمحراب"(١٠).

تشتمل المدرسة على ثلاثة مداخل: الشرقي بوابة قليلة العمق على طرفيها مكسلتان تؤدي إلى باب كبير يؤدي بدوره إلى دهليز تهبط عبر درجاته إلى الصحن، والبوابة مسقوفة بقوس كبير مدبب وعميق، وبسقف الدهليز قبو متطاول، أما المدخل الغربي فهو بوابة قليلة العمق على طرفيها مكسلتان تنتهي

(٩) نضال يوسف- المدرسة العثمانية مبنى فريد بهندسة عثمانية حلبية
www.esyria.sy/ealeppo/index.php?p=storie&category=places&filemame=201011231215011

(١٠) يوسف- المدرسة العثمانية مبنى فريد: ٦-٧.

بباب مسقوف بقوس عميق ومدبب يليه دهليز يؤدي إلى رواق مسقوف بقبو، أما المدخل الشمالي فيؤدي إلى بيت الواقف الذي لم يعد موجوداً، وصحنها كبير نسبيا مرصوف بالحجارة الصفراء، يحتوي على بركة كبيره على جانبيها حديقتان، أما القبلية فهي قاعة كبيرة مربعة الشكل في وسط جدارها الجنوبي محراب تعلوه سدة، وعلى طرفيه نافذتان، يسقف القبلية قبة كبيرة نصف كروية، فوق رقبة أسطوانية فيها (١٦) نافذه صغيرة يعلو كلا منها قوس مجزوء ويتقدمها شرفه، وفي القبلية محراب بسيط بإطار يبرز قليلاً عن الواجهة يعلو تجويفه قوس مدبب، ويضم تجويف المحراب ناصيتين مجوفتين، وغربي المحراب هناك منبر من الحجر الأصفر[١١].

يبلغ عدد الأواوين في المدرسة اثنان (غربي وشرقي) على طرفي القبلية، كبيران أمام كل منهما مسطبة اخفض من المسطبة أمام القبلية ويتقدم القبلية رواق ويحيط بالباحة من جهاتها الثلاث الباقية ثلاثة أروقة ويوجد في المدرسة اكثر من ثلاثين غرفة، وهناك صالة مربعة الشكل في جدارها الجنوبي نافذتان بينهما محراب، يسقف الصالة قبة مدببة فوق رقبة أسطوانية تضم نوافذ والانتقال بالمثلثات الكروية، ويطل الموضأ على الرواق بثلاث نوافذ وباب يعلو كلا منها قوس مجزوء ويسقفه متقاطعات، كما تتميز المدرسة بمئذنتها المضلعة، وتقوم على قاعدة مكعبة يقدر ارتفاعها حتى الشرفة (٣٠م) وتضم (١١٨) درجة وهناك في اسفل البدن إفريز من الحجر الأسود، فوقه مزررات باللونين الأبيض والأسود، والشرفة مكشوفة تقع فوق ثلاثة صفوف من المقرنصات ويحيط بها سياج من البرامق الحجرية، ويلحق بالمدرسة السبيل والمكتب والمطبخ والفرن والمستودع[١٢].

---

(١١) عزيزه سبيني، المدارس الإسلامية في حلب: منارات علم عبر التاريخ (٢)، www.moslimonline.com

(١٢) المرجع نفسه.

لقد أشاد بها الغزي فقال: "هي من أتقن مدارس حلب وأجملها، وناهيك دليلا على إتقان بنائها أنه مر عليها عدة زلازل لم تصدع منها شيئا سوى زلزلة سنة ١٢٣٧هـ-١٨٢١م اندفع منها هلال المنارة فسقط على قمة قبة القبلية فخرقها"[١٣].

قال الطباخ: "إن الواقف شرع في عمارة جامعه المعمور لصيق داره سنة احدى وأربعين مائة.... إلى أن كمل سنة ثلاث وأربعين ومائة والف ووضع فيه منبراً من الرخام الأصفر الفائق وفي صحنه حوضا من الرخام الأصفر بقدر حوض وبنى فيه احدى وأربعين حجرة منها ثلاثون للمجاورين والباقي لأرباب الشعائر..."[١٤].

ويضيف الطباخ نقلاً عن تاريخ ابن ميرو قال: اشترى عدة دور بالأثمان الزاهدة وهدمها وادخل فيها جانبا لداره وبنى المطبخ وبجانبه فرنا لخبز الخبز ومكانا لوضع الذخيرة ومكانا للطباخ والبواب وجميع هذه الأماكن مبنية بالأحجار داخلاً وخارجا ما بها من الخشب إلا إغلاق الأبواب والشبابيك وبنى به حوضا هائلاً من الرخام الأصفر ينزل إليه بدرج من الحجر ورصص قباب الجامع وأسطحته وأسطحة المطبخ بالواح الرصاص المحكم[١٥].

المدرسة الخسروية[١٦]

بناها والي حلب خسرو باشا بن سنان باشا بتولي مولاه فروخ ابن عبد المنان الرومي سنة ٩٥٢هـ-١٥٤٥م في عهد السلطان سليمان الأول القانوني، كان محل بنائها في محلة تعرف بمحلة البهائي، حوت أوقافا ومدارس

---

(١٣) راجع وصفها في: نهر الذهب:١٥٦/٢؛ الطباخ: المصدر السابق:٣١٨/٣.
(١٤) المصدر نفسه: ٣/ ٣١٩- ٣٢٠.
(١٥) المصدر نفسه: ٣٢٠/٣.
(١٦) ينظر: شكل رقم (٢).

ومساجد[١٧] ومن ذلك دار المحب أبو الفضل بن الشحنة الذي عمرها، والمدرسة الأسدية الملاصقة لها[١٨].

أصابها الزلزال سنة ١٢٣٧هـ-١٨٢١م فذهب معظم أوقافها، واختل امر التدريس فيها، واهمل جامعها وصار مأوى للغرباء وغيرهم[١٩]، ثم جدد القبلية والي حلب جميل باشا سنة ١٣٠٢هـ، كما جددت المدرسة سنة ١٣٣٠هـ بجهود الأستاذ الشيخ رضا الزعيم الدمشقي[٢٠].

لقد وصفها الغزي قائلاً: "الخسروية... عمارة عظيمة تشتمل على جامع كبير ومدرسة وتكية ومطبخ... دخل بعمارتها عدة أوقاف ومدارس ومساجد... وكان إنتهاء بنائها سنة ٩٥١هـ وهي أول جامع ومدرسة وتكية بنيت في أيام الدولة العثمانية بحلب من قبل رجالها على النسق الرومي، ولم يبق الآن من هذه العمارة سوى جامعها ومدرستها"[٢١].

ويضيف الطباخ: "فلما تولى الوزارة [خسرو باشا] أمره [أي لفروخ ابن عبد المنان الرومي] بإنشاء جامع وتكية بها فقام بإنشائها بمشارفة معمار رومي نصراني... وإدخال عدة أوقاف فيها منها الدار التي عمرها وأوقفها المحب أبو الفضل ابن الشحنة والمدرسة الأسدية الملاصقة لها ومسجد ابن عنتر

---

(١٧) للمزيد عن أوقاف المدرسة الخسروية ينظر هاينتزغاوبهواويغن فيرت- حلب دراسات تاريخية وجغرافية حول البنية العمرانية والتركيبة الاجتماعية والحركة الاقتصادية لاحد مراكز التجارة الدولية في الشرق الأدنى، تعريب وتدقيق وتحديث دكتور صخر علبي نشر وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب (دمشق ٢٠٠٧) ج ١، ٣٤٢- ٣٤٤.

(١٨) يذكر الغزي أن المدرسة الأسدية هي مدرسة قديمة نسبت إلى الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مروان... وكان لها وقف بدمشق ووقف بحلب..ولم يبق منها الآن سوى القليل ويوحد في دهليزها على يمنة الداخل مطهرة عمرت جديدا.. وفي الجبهة الغربية من الصحن قبلية واسعة وفي الشمالية والشرقية حجر للمجاورين عددها ست وفي الصحن حوض كبير مربع فوق عشر بعشر عمر سنة ١٣١١هـ. ينظر نهر الذهب:٢/ ١٠١- ١٠٢.

(١٩) وزارة الأوقاف-المدرسة الخسروية.

(٢٠) مدارس حلب القديمة (١) مدارس حلب-القديمة aleppo.us/news/view/48/ar/1-.www

(٢١) نهر الذهب: ١١٦/٢؛ طلس - الرجع السابق: ١٣٠.

الملاصق لها وكانت هذه الدار اجد دور حلب العظام مشتملة كما ذكره منشئها في تاريخه على جنينة وبحرة وسبع قاعات بل كان بها فرن يشتغل بها وطشخانات وإصطبلات تليق بها وآبار لخزن الغلال ودهليز يصل إلى حمامه المشهور بحمام القاضي... وفي أعمدة التكية المذكورة عمودان كانا للمدرسة المقدمية الكائنة بزقاق سلار بحلب فأخذهما ومتوليها إذ ذاك محمد جلبي ابن المرعشي..»[٢٢].

يتألف مبنى المدرسة من طابق واحد له ثلاثة مداخل (غربي وشمالي وشرقي) تؤدي إلى صحن كبير يحده شمالا رواق تطل عليه ست غرف، يقع المدخل وسطها، أما شرقا فالمدرسة الشرقية يليها في اتجاه الشمال ثلاث غرف، ثم المدخل الشرقي فالمكتبة التي هي حديثة البناء، وباتجاه الجنوب تقع القبلية وعلى كل من طرفيها قاعة درس، وأمامها جميعا رواق يلي القاعة الغربية فالمئذنة، فغرفة المؤذن أما من الجهة الغربية فتوجد قاعة للمحاضرات حاليا، وفي الغرب منها قسم الإدارة ويتألف من اربع غرف وموزع، يقع خلفها الموضأ، ويليها إلى الشمال المدخل الغربي، الذي تليه كتلة تضم ثلاث غرف مخصصة للخدمات.

تشتمل المدرسة على ثلاث مداخل خارجية، يشكل المدخل الغربي بوابة صغيرة لها مسقط شبه منحرف، قليلة العمق على طرفيها مكسلتان صغيرتان، أما مدخلها الشمالي والذي يعتبر الأساس فتبرز بوابته عن الواجهة خلافا للمداخل الحلبية، بوابة فيها درجتان تهبط على باب كبير، وأخيرا مدخلها الشرقي فيعد المدخل الرئيسي حالياً، ويتكون من باب حديدي، أما المدخل الداخلي فهو مدخل المدرسة الغربية، ويقع على امتداد جدار القبلية والمئذنة، يبرز ويرتفع عن الواجهة على طرفيه ويبدو صحن المدرسة الرئيسي كبيرا

(٢٢) المصدر السابق: ٣/ ١٨٠-١٨١.

ومبلطا بالحجر الأصفر، يضم في وسطه بركة ماء مستديرة تتصل بالصحن من الجهات الأربعة بأربعة ممرات تقسم الحديقة حول البركة إلى أربعة أقسام، يتقدم كل منها باب[٢٣].

أما صحن الناحية الغربية فهو صغير وليس فيه بركة ويتقدم القبلية مدخل على شكل بوابة قليلة العمق لها ناصيتان مجوفتان تضم كل منهما عمودا مزخرفا بزخارف نباتية، وفي كل من جداريها الشرقي والغربي حنية قليلة العمق فوقها رنك دائري مزخرف، وفي جدارها الجنوبي باب يؤدي إلى القبلية، سقفت البوابة بالمقرنصات المثلثية، أما القبلية فكبيرة مربعة، ويحيط بها جدران سميكة، في كل من الجدارين الشرقي والغربي ثلاث نوافذ، وفي الجدار الجنوبي نافذتان على طرفي المحراب، ويحتوي الجدار الشمالي على نافذتين على طرفي الباب المؤدية إلى القبلية، وكان قد الغي الإيوان في هذه المدرسة واستعيض عنه بقاعتين على طرفي القبلية، وللمدرسة رواقان على طرفي باحتها الرئيسية (الجنوبي والشمالي) ورواقان ضمن مدرستها الغربية (قاعة المحاضرات حاليا) على طرفي باحتها الداخلية (الجنوبي والغربي)، كما تضم المدرسة غرف المجاورين وهي عشرة غرف خلف الرواق الجنوبي وعشرة في المدرسة الغربية وتسع في المدرسة الشمالية، فضلا عن قاعة المحاضرات، والمطبخ والمكتبة والإدارة والمدفن، أما مسجد المدرسة الشرقية فهو غرفة مربعة في جدارها الجنوبي محراب بسيط يتقدمه قوس مدبب، وفي كل من الجدارين الشرقي والغربي نافذة عميقة تطل على الحديقة الخلفية، وفي جدارها الشمالي باب يعلوه قوس كبير متدرج ينفتح على الصحن، وتسقف المسجد قبة منخفضة بدون رقبة، والانتقال بالمثلثات الكروية[٢٤].

---

(٢٣) سبيني- المرجع السابق (٢).
(٢٤) المرجع نفسه.

تضم المئذنة المضلعة في قسمها السفلي مزررات استعمل فيها اللونين الأسود والأبيض، وتم إكساء القسم العلوي منها ببلاطات من القيشاني الأزرق زال معظمها، يليها شرفة فوق مقرنصات بدون مظلة، لها سياج من البرامق الحجرية ويستمر البدن مضلعاً وبقطر اصغر ينتهي في الأعلى بقبة مخروطة كسيت بالرصاص، وللمدرسة واجهتان خارجيتان (غربية وشمالية) وواجهتان داخليتان (شمالية وجنوبية).[٢٥]

ويذكر أن الذي صمم مخططاتها سنان معمار الإمبراطورية العثمانية وهي أول جامع على طراز كنيسة أيا صوفيا في إسطنبول وتتألف القبلية من قاعة كبيرة مربعة بطول (١٦) متر ذات قبة ارتفاعها(٢١) متر كتب عليها أسماء الله الحسنة وزينت شبابيكها بالقاشاني، وتقوم منارة رشيقة مستديرة الشكل في الجانب الجنوبي الغربي، أما محرابها فيتميز بزخرفة أحجاره، فضلا عن رواقها المقبب بست قبب أمام القبلية، وعلى طرفي مدخلها تحت منظرته عمودان من الرخام بنقوش بديعة[٢٦].

المدرسة الأحمدية

ترجع إلى العصر العثماني في القرن السابع عشر للميلاد[٢٧] يقول فيها الغزي: "هذه المدرسة في زقاق بني الجلبي ويعرف قديما بدرب السبيعي نسبة إلى الحسين بن احمد بن صالح الحافظ الهمذاني السبيعي الحلبي من أولاد اسحق السبيعي (-٣٧١). أما واقف المدرسة فهو احمد افندي بن طه افندي بن مصطفى افندي (١١٧٧هـ-١٧٦٣م) فقد بنى مدفنا في هذه المحلة تجاه البهرامية الشرقي لوالده ودفن فيه ثم بنى عمارة ملاصقة للمدفن مشتملة على

(٢٥) المرجع نفسه.

(٢٦) مدارس حلب القديمة

(٢٧) تقع في محلة الجلوم وقد كانت تستعمل كمكتبة لدائرة الأوقاف الإسلامية، طلس-المرجع السابق:١٥١.

سماوي فيه تربة وقبور مرخمة وبجوانبها الأربعة رواقات بأعمدة من الرخام وفي الجانب الجنوبي رواق بثلاث قباب راكبات على قناطر وعواميد من الرخام يدخل منه إلى المسجد والمدرسة وفي صدرهما محراب من الرخام الأصفر ومن المسجد يدخل إلى غرفة كبيرة معدة للكتب وبهذا الرواق تسع حجر للطلاب ومطبخ.."[٢٨].

ويذكر أن هذه المدرسة كانت تضم مكتبة غنية بالمخطوطات الهامة حوالي (٣٠٠٠) مجلد فضلا عن الآلات الفلكية النادرة يصفها الطباخ قائلا: "هذه المكتبة أعظم مكتبة في الشهباء وأنفسها وقد حفظتها لنا أيدي الزمان ولم يفقد منها سوى بضع كتب..." ويتبع المدرسة عدد من المباني في المنطقة وكأوقاف لها[٢٩] واشترط واقفها أن يكون المجاورون العشرة في هذه المدرسة من أكراد ما وراء الموصل[٣٠].

المدرسة الشعبانية[٣١]

وهي اليوم من المدارس الإسلامية الكبرى في ضخامة بنائها وجمال ريازتها التركية ومن ملحقات هذه المدرسة مكتب لتعليم الأطفال قراءة القرآن جنوبي هذه المدرسة[٣٢] وهي مدرسة عظيمة البناء، تقع في الطريق المسمى بها في محلة الفرافرة، بناها شعبان آغا بن احمد آغا محصل الأموال الأميرية في سنة ١٠٨٥هـ-١٦٧٤م،" لها صحن واسع قدره خمسون ذراعا في مثلها في وسطه حوض مربع يحيط به حديقة تكتنفها غرف المجاورين وعددها سبع

(٢٨) نهر الذهب:٥٢/٢؛ وللمزيد ينظر ترجمة واقفها في الطباخ- أعلام النبلاء ٦٧/٧-٦٩.
(٢٩) غاوبه- المرجع السابق، ج ١، ٣٥٣- ٣٥٦.
(٣٠) الطباخ- المصدر السابق:٦٨/٧-٧٧.
(٣١) ينظر الشكل رقم (٣).
(٣٢) طلس- المرجع السابق: ٢١٩.

وعشرون وفي شمالي الحوض غرفة واسعة بقبة عالية خصصت للتدريس وكذلك في شرقيه حجرة أخرى، وفي غربيها مطبخ وفي جنوبيها القبلية ذات القبة العالية وقد فرشت ارض الصحن بالرخام"(٣٣).

يتميز بناء المدرسة بجماله إذ تحيط أروقة تعلوها قباب يتألف من طابقين: الطابق الأرضي: ويتكون من مدخل يؤدي إلى الرواق الغربي ثم إلى صحن يحيط به شمالا بدءا من الشرق درجات تؤدي إلى بيت درج يصعد إلى الطابق الأول، (وهو القسم الحديث من المدرسة) يليه جدار مصمت، ومن جهة الشرق نجد المدخل وعلى طرفيه من الشمال غرفتان الأولى منهما كبيرة وهي ناتجة عن دمج غرفتين ومن الجنوب اربع غرف ناتجة عن دمج سبع غرف للمجاورين، ومن جهة الجنوب تكون القبلية في شرقيها حجازية يليها موضأ وفي غربيها تربة، ومن الجهة الغربية رواق خلفه خمس غرف ناتجة عن دمج ثمان غرف للمجاورين أحداهما كبيرة وفيها المكتبة ويتكون الطابق الأول من بيت درج يؤدي إلى استراحة تؤدي شمالا إلى موزع يتصل بغرفة شمالية ومكتبة شرقية وغربا إلى رواق يطل جنوبه على الباحة ويوزع شماليه إلى ستة صفوف تطل على الشارع وينتهي غربا إلى غرفة الإدارة(٣٤).

يكون الدخول إلى المدرسة عبر بوابة صغيره على طرفيها مكسلتان صغيرتان، يليها دهليز في جداريه الجنوبي والشمالي نافذة ويؤدي إلى الرواق غربا، يسقف قبو متطاول مدبب كلا من البوابة والدهليز، وصحنها مربع وكبير رصف بحجر اصفر وأضيف إليه رخام بالونين الأسود والأبيض على شكل مربعات، وتوجد حديقة كبيرة أمام القبلية وفي وسطه، وهناك بركة في الزاوية

---

(٣٣) المرجع نفسه: ٢١٩ وللمزيد عنها ينظر الغزي- المصدر السابق: ١٤٨/٢؛ الطباخ- المصدر السابق: ٤٦٩/٧.

(٣٤) سبيني- المرجع السابق.

الشمالية الشرقية من الحديقة، وتبدو القبلية مستطيلة كما في المدارس الأيوبية، تنقسم بواسطة قوسين مدببين مرتكزين على ظفرين مقرنصين إلى ثلاثة أقسام(٣٥).

وتشتمل على محراب تجويفه اكبر من نصف دائرة يحيط به اطار من افاريز بسيطة وعلى طرفيه ظفران مزخرفان وهناك منبر كبير خشبي في طرفيه أشكال نجمية بارزة فوقها سياج من البرامق الخشبية ويقابل المحراب سدة خشبية لها سياج من البرامق الخشبية ومتدليات من التخاريم الخشبية، وتضم هذه المدرسة حاليا رواقين شرقي وغربي يسقف الشرقي منه قبو متقاطع أما الغربي فيسقفه قبو متقاطع لقبوين لهما الارتفاع نفسه، وتتألف الحجازية من قسمين الأول استمرار للرواق الغربي، والثاني مربع يتصل مع القبلية بباب ونافذة فوقها زخاريف نباتية ويضم محرابا قليل العمق، تحولت غرف المجاورين إلى غرف صف وبعضها مكتبة تطل على الرواقين، أما مدفنها فهو باحة مربعة الشكل مبلطة ببلاط موزاييك حديث، وللمدرسة واجهتان شرقية وشمالية خارجيتان، وثلاث واجهات داخلية شمالية وشرقية وغربية، ومما تقدم يتبين أن المدرسة الشعبانية قد جمعت بين مزايا عمارتي المدارس العثمانية والمدارس الأيوبية، وتركزت الزخرفة في واجهة القبلية شأن اغلب المدارس العثمانية، وفي بوابة المدخل، واستعمل فيها نظام الأبلق(٣٦).

ثانيا: أثر المدارس العثمانية في حلب في الحياة العلمية

حرص أهالي حلب على اتباع أساليب التعليم المعمول بها في المجتمعات الإسلامية والتي تبدأ أول الأمر في تعليم الأطفال في سن مبكرة

---

(٣٥) المرجع نفسه.
(٣٦) المرجع نفسه.

وفي أماكن خاصة تدعى بالكتاتيب والتي تقام عادة بالقرب من المساجد أو المساجد نفسها أو منازل المعلمين انفسهم، وينصب تعليمهم على قراءة القرآن الكريم وتعلم تلاوته ثم تعلم بعض العلوم الدينية وعلوم العربية[٣٧].

وكان على التلميذ أن يدفع لشيخه أجرا زهيداً نهاية الأسبوع وتدعى الخميسية، أما اذا كان الكتاب موقوفاً من بعض الموسرين فيكون التعليم فيه مجاناً[٣٨].

إن المدارس المشيدة في العصر العثماني في مدينة حلب ظلت اغلبها تمارس ما أوقفت عليه من تعليم، وإلزام الطلبة في المدرسة نفسها بدراسة المواد المقررة لها، فعلى سبيل المثال فقد شرط واقف المدرسة الأحمدية أن يكون للمدرسة مدرس عالم له معرفة في جميع العلوم العقلية والنقلية ويكون من صلحاء أكراد ما وراء الموصل على أن يقراء يوم الاثنين والخميس التفسير ويقرا بقية الأيام إلا يوم الجمعة ما اختاره من علوم المواد وغيرها وله في كل يوم (٤٠) عثمانيا فضيا وشرط لها محدثا يقراء الحديث يومي الثلاثاء والجمعة من كل يوم وله عشر عثمانيات وشرط محدثا حنفيا يقرا يومي الأربعاء والأحد وله في كل يوم عشر عثمانيات على أن يكون لكل مدرس من المدرسين الثلاثة معيد وتعيين المعيدين راجع للمدرسين[٣٩].

وكذلك اشترط واقفها أن يكون للمكتبة التي أوقفها حافظ للمكتب يتمتع بصفات نبيلة، يفتح أبواب المكتبة في أربعة أيام الأحد والاثنين والأربعاء والخميس لمراجعة طلاب العلم وله في كل يوم ٢٠ عثمانيا، وتعطى الكتب

---

(٣٧) عبد القادر محمد النعيمي- الدارس في المدارس، تحقيق جعفر الحسيني (دمشق: ١٩٤٨): ٩/١.

(٣٨) إحسان الدين اوغلو- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: تعريب صالح سعداوي صالح (عمان: ١٩٩١): ٣٠٩.

(٣٩) الطباخ-المصدر السابق: ٧/٦٩-٧٠.

للطلاب الساكنين في الحجر بمعرفة المدرس وكفالته(٤٠)، وعن مكتبتها يقول الطباخ: "هذه المكتبة اعظم مكتبة في الشهباء وانفسها وقد حفظت لنا أيدي الزمان ولم يفقد منها سوى بضع كتب منها كتاب بحر الأنساب وهو من نفائس الكتب"(٤١).

أما المدرسة العثمانية فقد اشترط الواقف أن يكون لها مدرسا يجمع بين المعقول والمنقول وقادر على إفادة الفروع والأصول، و يفيد الطلبة في المدرسة المذكورة كل يوم عدا يومي الجمعة والثلاثاء، وان يكون لها محدث يعلم الحديث ولوازمه يقرا كل يوم اثنين وخميس مع واعظ ومعلم وخصصت ثلاثون حجرة إلى ثلاثين طالباً من أهل حلب"(٤٢).

كما اشترط واقف المدرسة الشعبانية أن يقيم بالمدرسة رجل فاضل متضلع بالعلوم... وان يكون ماهرا بالفنون العقلية فيقراء الطالب في كل صباح الفنون العقلية ويعطى له شهريا ثمانية قروش أسدية وان يقطن في الحجرات ثلاثون رجلا من الصلحاء... مجدون في طلب العلم على أن لا يكون مسقط رأسهم ومحل نشؤهم في إيالة حلب بل يكونون من بلدان أخرى:(٤٣).

تولى التدريس في المدرسة الشعبانية الشيخ محمد المرعشي الملقب بساجقلي زاده على قول احمد والخيالي على شرح السعد للعقائد النسفية ما نصه لما وليت تدريس الشعبانية بحلب المحروسة في قريب من تمام الف ومائة من الهجرة الخ ويظهر من هذا انه ثاني من تولى التدريس فيها"(٤٤).

---

(٤٠) المصدر نفسه ٧/ ٧٦-٧٧.
(٤١) المصدر نفسه: ٧/ ٧٦-٧٧.
(٤٢) المصدر نفسه: ٣/ ٣٢١- ٣٢٢، ولمزيد ينظر وقفها ينظر٣/ ٣٢٣- ٣٢٥.
(٤٣) المصدر نفسه: ٧/ ٤٧٠-٤٧١، وللمزيد عن أوقاف المدرسة الشعبانية ينظر: غاوبه- المرجع السابق، ج ١، ٣٦٤- ٣٦٥.
(٤٤) المصدر نفسه: ٧ / ٤٧٢.

ومن الذين درسوا فيها أيضا محمد شهيد الترمانيني ومحمد الزرقا واحمد الزويتيني(٤٥).

أما المدرسة الخسروية فهي أول مدرسة انشت في العهد العثماني أما نظام المدرسة فيقضي بان يكون الطالب الراغب بالانتساب إلى المدرسة متقناً تلاوة القرآن الكريم ويفضل أن يكون حافظا له أو لأجزاء منه، وان يكون متقنا لمبادئ اللغة العربية والفقه وتجري له مسابقة قبول وتعتبر الخسروية من اكبر المدارس الشرعية، وتعرف بأزهر حلب، تخرج منها عدد كبير من العلماء لاتزال مدينة حلب تفخر بهم وتعتز، وقد ذكر الأستاذ أمين عيروض في رسالته "دليل الشهباء" اكثر من مائتين وخمسين عالماً درسوا فيها وتخرجوا أمثال الدكتور الشيخ مصطفى الزرقا والدكتور الشيخ معروف الدواليبي، والشيخ محمد النبهان، والشيخ محمد الحكيم والشيخ عبد الوهاب سكر، والشيخ محمد نجيب خياطة، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والشيخ محمد زين العابدين الجذبة، والشيخ احمد قلاش وغيرهم(٤٦).

أما على صعيد السياسة العثمانية في حقل التعليم فمن المفيد أن نذكر أن التعليم في المدارس العثمانية بدأ مع تأسيس الدولة نفسها وهو نفس النظام الذي كان مطبقا في العهد السلجوقي ثم طرأ عليه تطورات فكان أول تغيير في عهد السلطان بايزيد ثم شهد تطوراً في عهد السلطان محمد الفاتح وبقي ذلك النظام مستمراً حتى افتتاح المدرسة السليمانية في عهد السلطان سليمان القانوني، وعلى العموم فان تسميات المدارس العثمانية كانت مقترنة بطبيعة أسماء المواد التي تدرس فيها كمدارس المفتاح نسبة إلى مقررها "الدارس وهو شرح المفتاح" في البلاغة لمؤلفه سعد الدين التفتازاني، كما كانت تأخذ اسمها أحيانا من قيمة الأجر الذي يتقاضاه المدرس فيها كمدارس التلويح

---

(٤٥) المصدر نفسه:٧/٤٦٦-٤٦٨.

(٤٦) سبيني- المرجع السابق.

الأربعينية إذ كان المدارس يتقاضى أجرا يقدر بأربعين اقجة يوميا وكذلك مدارس الخمسينيات أي التي يتقاضى مدرسها أجرا يوميا قدره خمسون اقجة، ثم انشأ السلطان محمد الفاتح الثمانية في إسطنبول وكانت ارفع المدارس حتى تاريخ إنشاء المدرسة السليمانية في عهد السلطان سليمان القانوني(٤٧).

لقد اختصرت المواد التعليمية في تلك المدارس على العلوم الدينية، مع بعض التغييرات إذا كانت تلك المدارس تدرس طلابها ما يسمى بالجزئيات كالحكمة والحساب وعلم الهيئة (الفلك) والطب والهندسة ويعني هذا أن المدارس تسمح لطلبتها بدراسة العلوم المادية بدل استكمال دراسة العلوم النقلية وكان يطلق على المدرسين الذين يلقون تلك العلوم وخاصة في مدارس الفاتح بذوي الجناحين.

أما على صعيد عهد السلطان سليمان القانوني فقد اعتبرت مدارس دار الحديث أعلى المدارس مرتبة كما لم يكن هناك مدرس أعلى مرتبة من المدرسين في دار الحديث، ومن يرغب منهم في القضاء يعين قاضيا في إحدى المراكز العثمانية ومنها حلب وكذلك الحال بالنسبة للطالب فهو يتدرج في المدارس بحسب استكماله لمناهجها حتى يصل إلى مدارس الصحن أو مدارس السليمانية حتى يمكنه بعد ذلك من ممارسة مهنة التدريس(٤٨).

إن القرون التي خضعت فيها حلب للدولة العثمانية تؤكد لنا إن أبناء حلب قد أسهموا بصورة جلية في الحياة العلمية، فلم يقتصر عطاؤهم على أبناء

---

(٤٧) التعليم الديني في العهد العثماني:
http://www.almotmaiz.net/vb/28602-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B9%D9%84%D9%8A%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86%D9%8A-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%87%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%AB%D9%85%D8%A7%D9%86%D9%8A/

(٤٨) التعليم الديني في العهد العثماني: ١٨.

مدينتهم فحسب بل اختيروا لوظائف علمية ودينية في أرجاء الدولة العثمانية ومنها العاصمة نفسها، ومنهم مفتي الحنفية العلامة احمد الكواكبي الحلبي الذي "دخل طريق المدرسين والموالي في دار الملك ألقسطنطينية المحمية وعزل عن مدرسته بأربعين عثماني" ثم عاد إلى حلب ليتولى فتوى بلدته بعد وفاة والده وكذلك المدرسة الخسروية "باعتبار رتبة السليمانية"، وكانت وفاته بالقسطنطينية يوم الثلاثاء ١٣ من رجب سنة ١١٢٤هـ/ ١٧١٢م ودفن خارج باب أدرنه[٤٩].

ومنهم الفقيه العالم مفتي حلب محمد الاسبيري المولود بعينتاب سنة ١١٣٣هـ/ ١٦٢٣م، قدم حلب وقرأ على مشايخ يطول ذكر أسمائهم ثم دخل القسطنطينية ثم رجع إلى حلب وتوطنها ودرّس بالمدرسة العثمانية واخذ عنه جماعة كثيرون وله من التآليف شرح على ايساغوجي سماه "الفوائد الاسبيرية على الرسالة الأثيرية "، وله "حاشية على شرح المنظومة المحبية للشيخ عبد الغني النابلسي المسماة بالخلاصتين اهدى منه نسخة إلى شيخ الإسلام مفتي الروم محمد شريف افندي فتلقاه بالقبول وارسل له إفتاء حلب من غير طلب ثم وجه له المدرسة الشعبانية ثم المدرسة الكلتاوية واخذ عنه جماعة من علماء حلب منهم الشيخ يوسف النابلسي الشهير بابن الخلال وكيله في المدرسة الشعبانية والسيد عمر وكان معيداً في مادة الأشباه والنظائر ووكيله في المدرسة الخسرويه، وكانت وفاته في شوال سنة ١١٩٤هـ/ ١٦٨٢م[٥٠].

وكذلك عرف من علماء حلب شخصيات لم تشر اليهم كتب التراجم بانهم قد رحلوا إلى القسطنطينية بل مكثوا في مدينتهم ودرسوا فيها من أمثال

---

(٤٩) المرادي- سلك الدرر: ١/١٧٥- ١٨١؛ ومنهم أيضا احمد بن أبي السعود الكواكبي المتوفي سنة ١١٩٧هـ- ١٧٨٢م الذي بني مدرسة بالجلوم ووقف فيها مكتبة قيمة لا تقل أهمية من مكتبة المدرسة الأحمدية، وله مؤلفات للمزيد ينظر: الطباخ -المصدر السابق: ١٠٩/٧- ١١٦.

(٥٠) المرادي- المصدر السابق: ١٢٠/٤-١٢١.

الشيخ حسن بن علي الشهير بالحنبلي الشافعي المعروف بالطباخ، فقد ولد في حلب سنة ١٠٨٠هـ/ ١٥٩٩م واشتغل بطلب العلم، حتى تولى الخطبة بجامع المدرسة الخسروية والجامع الأموي بحلب، وكانت وفاته بعد إيابه من الحج سنة ١١٤٠هـ-١٦٣٠م[٥١].

وكذلك الأديب المدرس حسين بن احمد المعروف بالداديخي الحلبي المولد بحلب سنة ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٣م قرأ على أفاضلها وله تآليف مختلفة منها كتاب في السياسة وله حاشية على الدرر نحو ثلاثين كراسة، وكان مدرسا بمدرسة البولادية خارج باب المقام برتبة السليمانية المتعارفة بين الموالي وقبل وفاته سنة ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م بمدة عشرة سنين لزم داره[٥٢].

كما اختار مدينة حلب الأستاذ الصوفي عبد الجواد الكيالي المولود بسرمين وبها نشا في تربية والده ثم كفله خاله الذي كان يقيم في إدلب، ثم صار يتردد إلى حلب لأجل طلب العلم فقرا على الشيخ عبد القادر المخملجي المقيم بالمدرسة الشعبانية وعلى الشيخ إبراهيم المقيم بالأشرفية الفقه والعربية وغيرهما، وتفرغ لوظيفة الحديث في الجامع الأموي بحلب وجامع بشير باشا، ثم ترك وظيفته وانقطع عن الناس واقبل على الاشتغال بعلم الصوفية ومطالعة كتبه، واخذ عنه أناس كثيرون من حلب وغيرها، وكانت وفاته بحلب سنة ١١٩٢هـ/ ١٧٧٨م، ودفن في بيته بإشارة منه قبيل وفاته[٥٣].

الخاتمة

من كل ما تقدم توصل إلى البحث إلى جملة نتائج يأتي في مقدمتها:

---

(٥١) المصدر نفسه: ٢/٣٠- ٣١.
(٥٢) المصدر نفسه: ٢/٤٩- ٥٠.
(٥٣) المصدر نفسه: ٢/ ٢٣٩-٢٤٠.

١-تميز المدارس العثمانية في حلب بخصائص كاملة من حيث توفرها على قاعات للتعليم وحجرات للطلاب والمعلمين واحتوائها على جامع لإقامة الصلاة واستمرار اغلبها من خلال مبدأ الوقف الإسلامي الذي شكل دعامة قوية لاستمرارها.

٢-خلص البحث إلى تشابه المدارس العثمانية في حلب مع خصائص المؤسسات العثمانية المماثلة في العاصمة العثمانية.

٣-بيان مكانة العلماء الحلبيين في الحياة العلمية والدينية في زمن العثمانيين.

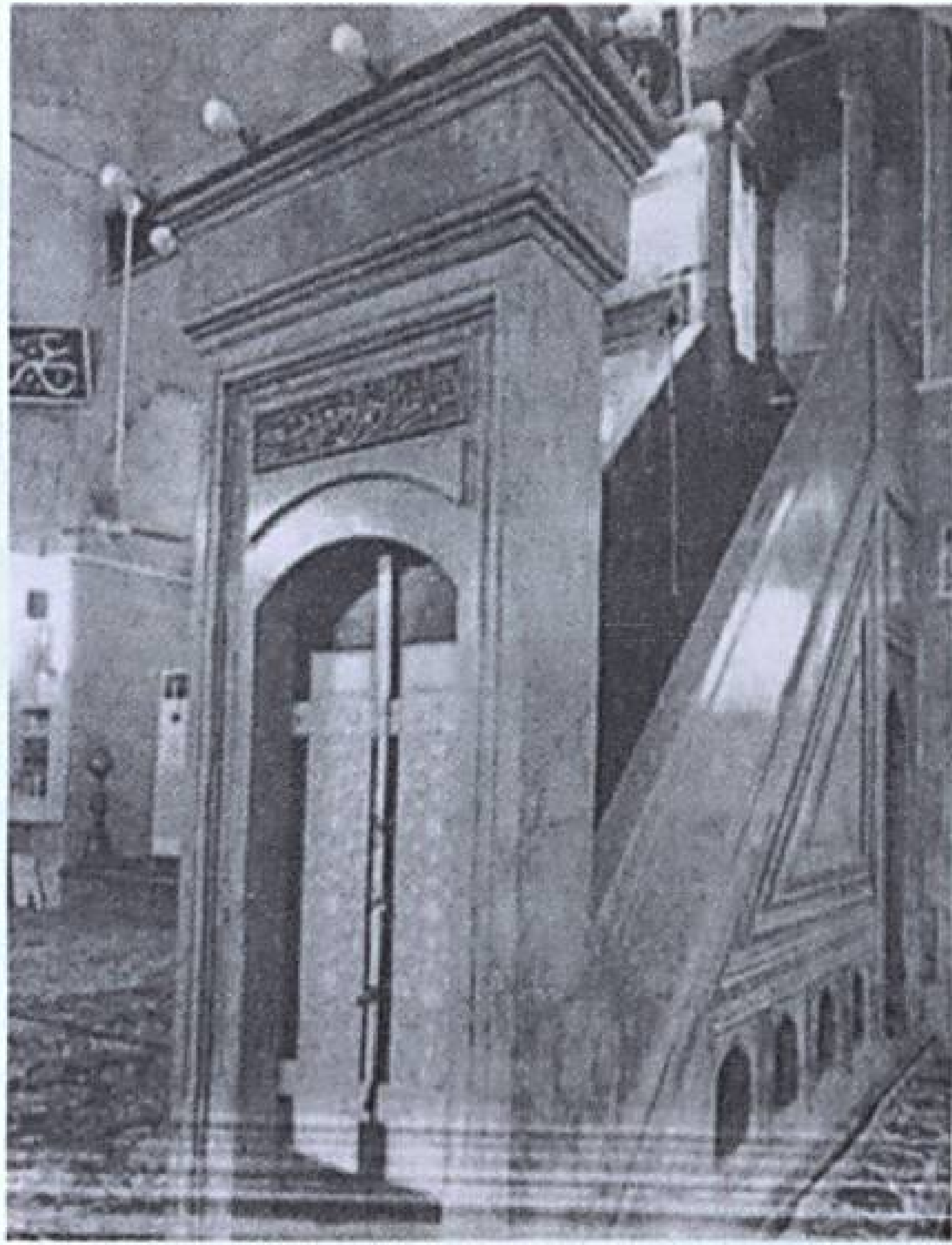
٤-استمرار نظام التعليم الإسلامي في حلب وقدرة علمائه على التواصل مع نظام التعليم في العهد العثماني.



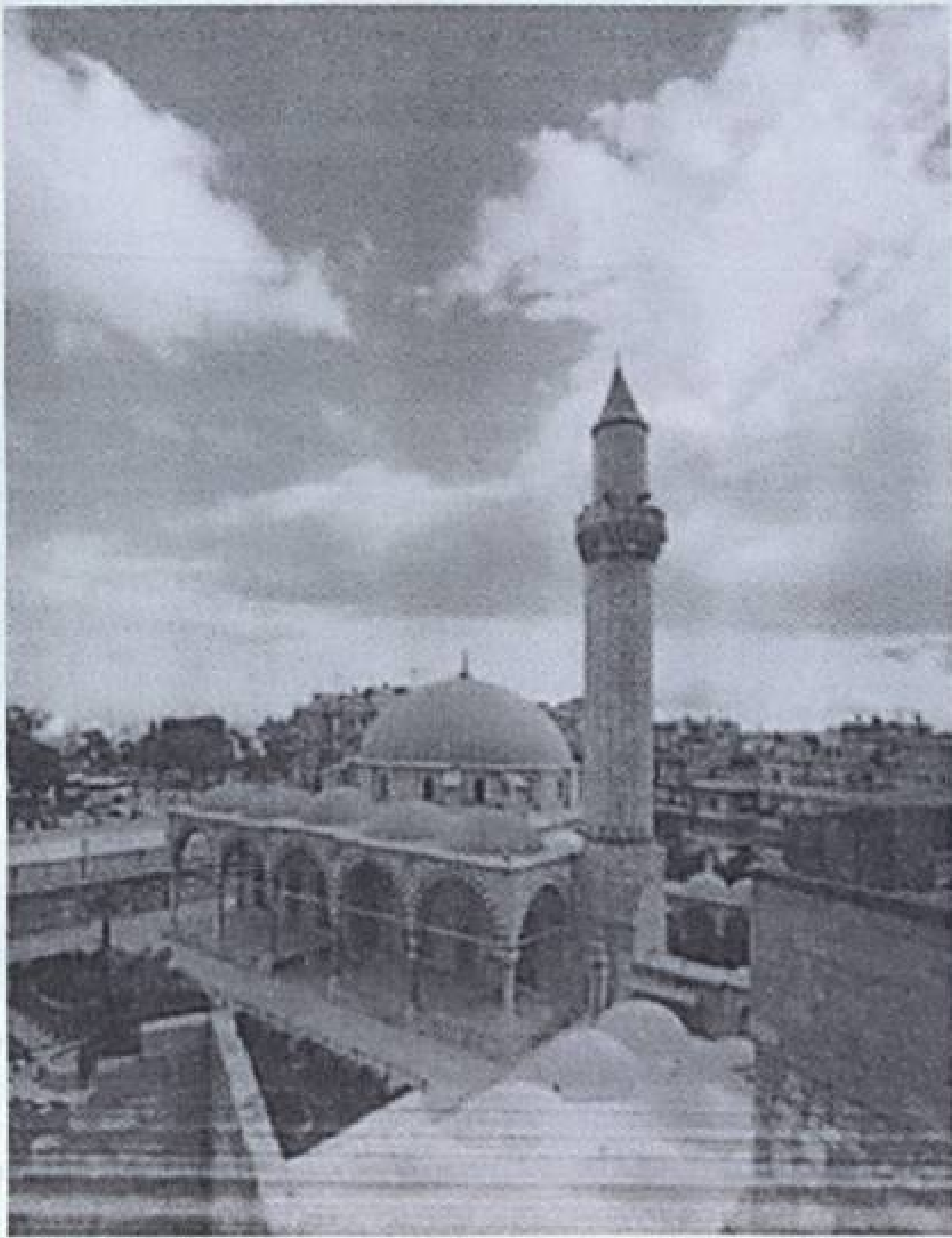
المدرسة العثمانية شكل رقم (١)



شكل رقم (٢) المدرسة الخسروية



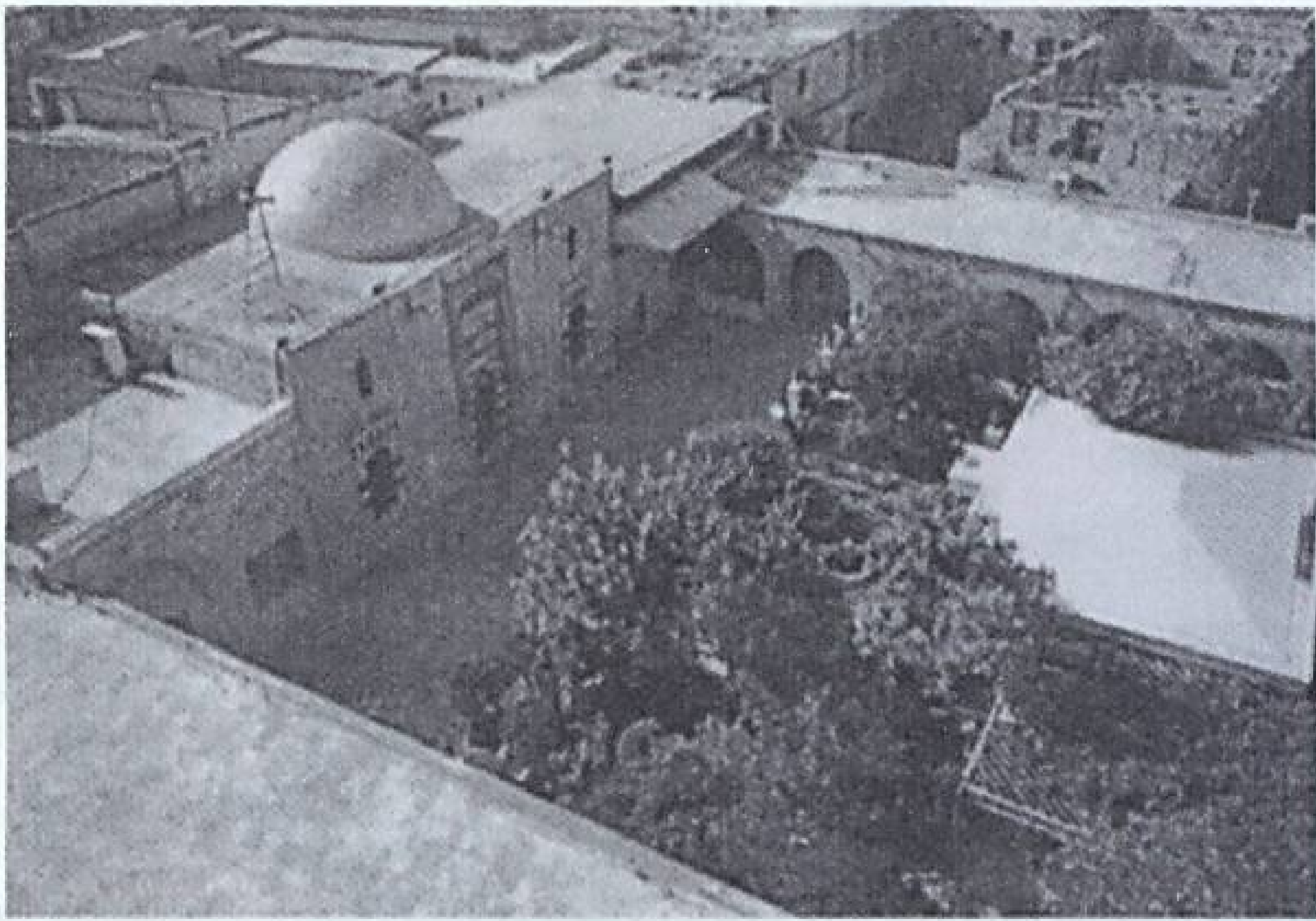


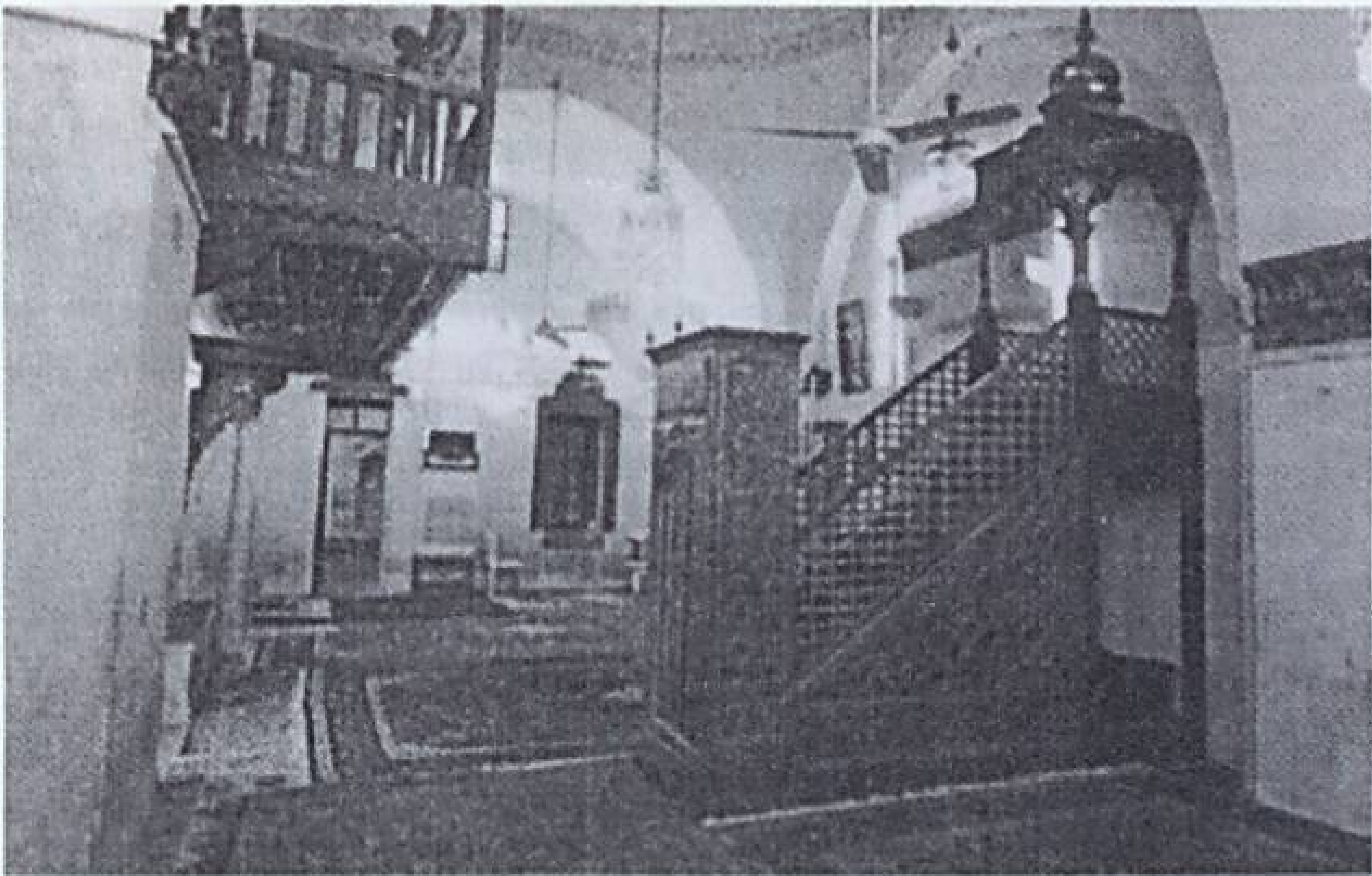




شكل رقم (٣) المدرسة الشعبانية









المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

طاشكبري زاده (ت ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م).

الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، نشر دار الكتاب العربي (بيروت: ١٩٧٥).

الطباخ، محمد راغب بن محمود بن هاشم.

أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، طبعة ١ طبع في المطبعة العلمية (حلب: ١٩٢٦)

الغزي، كامل.

نهر الذهب بتاريخ حلب (حلب: ١٩٢٦).

ألمحبي، محمد.

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المطبعة الوهبية، ١٢٨٤هـ.

المرادي، أبو الفضل محمد خليل.

سلك الدرر في أعيان القرن عشر، دار الطباعة الكبرى (القاهرة: ١٣٠١هـ).

ثانيا: المراجع

إحسان أوغلو- أكمل الدين، تحرير: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: تعريب صالح سعداوي صالح (عمان: ١٩٩١)

طلس، محمد اسعد. الأثار الإسلامية والتاريخية في حلب، نشر مديرية الآثار العامة في سوريا في مطبعة الترقي (دمشق: ١٩٥٦).

غاوبهووايغن فيرت، هاينتر. حلب دراسات تاريخية وجغرافية حول البنية العمرانية والتركيبة الاجتماعية والحركة الاقتصادية لاحد مراكز التجارة الدولية في الشرق الادنى، تعريب وتدقيق وتحديث دكتور صخر علبي نشر وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب (دمشق ٢٠٠٧).

النعيمي، عبد القادر محمد. الدارس في المدارس، تحقيق جعفر الحسيني (دمشق: ١٩٤٨).

ثالثا: شبكة الأنترنت

سبيني،عزيزة. المدارس الإسلامية في حلب: منارات علم عبر التاريخ (٢).
www.moslimon line.com

- وزارة الأوقاف السورية. مدارس حلب القديمة (١-٢).
- موسوعة دهشة. التعليم الديني في العهد العثماني:

http://www.almotmaiz.net/vb/28602-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B9%D9%84%D9%8A%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86%D9%8A-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%87%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%AB%D9%85%D8%A7%D9%86%D9%8A/

نضال، يوسف، المدرسة العثمانية مبني فريد بهندسة عثمانية حلبية.

www.esyria.sy/ealeppo/index.php?p=storie&category=places&filemame=201011231215011

أولاً: المصادر

طاشكبري زاده (ت ٩٦٨هـ/١٥٦٠م).

الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، نشر دار الكتاب العربي (بيروت: ١٩٧٥)

الطباخ، محمد راغب بن محمود بن هاشم.

إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، طبعة ١ طبع في المطبعة العلمية (حلب: ١٩٢٦)

نهر الذهب بتاريخ حلب (حلب: ١٩٢٦) www.moslimonline.com

المحبي، محمد.

خلاصة الأثر في أعيان القرن [illegible]

المواقع:

http://www.ahmetmisis.net/vb/t8804-

[illegible]

ثانيا: المراجع

www.syria.sy/ealeppo/index.php?p=stories&category=places&filename=201011231215011

إحسان أوغلو، أكمل الدين، تحرير: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تعريب صالح سعداوي صالح (عمان: ١٩٩١)

طلس، محمد أسعد: الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، نشر مديرية الآثار العامة في سوريا في مطبعة الترقي (دمشق: ١٩٥٦)

التكيّة المولويّة في طرابلس (لبنان) تاريخاً وعمارة ومشروع ترميمها وتأهيل محيطها

خالد عمر تدمري*

ملخّص البحث

طرابلس مدينة عريقة تجمع بين الأصالة والحداثة، وتأتي مدينتها القديمة في طليعة المدن التاريخيّة الغنيّة بالآثار في لبنان، حيث تحتضن أكثر من ٢٠٠ معلم تاريخي وأثري تعود للحقبتين المملوكيّة والعثمانيّة. من أبرز تلك المعالم التكيّة المولويّة التي تُعدّ بعد تكيّة حلب، ثاني أعظم التكايا المولويّة الموجودة خارج تركيا، وتتألّف من ثلاثة أقسام: قسمٌ للعبادة، وثانٍ للإقامة، وثالثٌ للخدمة والضيافة، وهي بالتالي تعتبر واحدةً من أهمّ المعالم العائدة للحقبة العثمانيّة في لبنان. شكّلت تكيّة طرابلس المولويّة صرحاً دينيّاً وتعليميّاً وخيريّاً في آن، واحتلّت مكاناً بارزاً في تاريخ المدينة على امتداد نحو ٤٠٠ عام منذ أن بناها "صَامْصونجي علي" مندوب السلطنة العثمانيّة في طرابلس سنة ١٠٢٨هـ/١٦١٩م. وقد بدأت المولويّة نشاطها في مدينة قونية أولاً، ما لبث أن انتشرت في تركيا وآسيا الغربية، وأدارت شؤونها الإدارية والإقتصاديّة عن طريق تكاياها (المولويخانه أو الدرويشيّة)، ولا سيّما منها في مدينة طرابلس، حيث رأت في أهلها ميداناً مناسباً لنشاطها الثقافي وحتّى السياسي، بخاصة وأن الطرابلسيّين وجدوا فيها متعةً في مدائحها وأذكارها.

---

* المهندس الدكتور.

إلاّ أن هذا الصرح التاريخيّ تعرّض ومحيطه للتشويه والدمار بعد طوفان نهر أبو علي المجاور عام ١٩٥٥، وأيضاً خلال سنوات الحرب الـ ١٨ التي عصفت بلبنان، حيث طال الدمار الكامل قبّتها وقاعاتها الرئيسة "السماخانه" ومسجدها، وتحوّلت الأقسام الباقية منها إلى مسكن للمهجّرين ممّا زاد من تشويهها وتغيير معالمها.

عام ٢٠٠٧ أطلقت لجنة الآثار والتراث في بلديّة طرابلس (التي نرأسها) فكرة ترميم التكيّة المولويّة العثمانيّة بالتعاون مع إدارة التعاون والتنمية التركيّة "تيكا" التابعة لرئاسة الوزراء التركيّة، وذلك بالتزامن مع الإحتفالات الدوليّة التي أطلقتها الجمهوريّة التركيّة بالتعاون مع منظّمة اليونسكو بمناسبة ذكرى مرور ٨٠٠ عام على ولادة العلاّمة جلال الدين الروميّ مؤسّس الطريقة الصوفيّة المولويّة. وبعد اكتمال الدراسات الهندسية اللازمة التي وضعناها استناداً إلى المعلومات التاريخيّة الموثّقة والصور القديمة النادرة، تم البدء بأعمال الترميم منتصف عام ٢٠١٠.

يتناول هذا البحث التعريف بتاريخ التكيّة المولويّة في طرابلس، وبمميّزاتها التخطيطيّة والعمرانيّة العائدة للحقبة العثمانيّة، وبمشروع ترميمها وتفاصيله الهندسيّة والفنيّة التي شارفت على الانتهاء، كما يتناول التعريف بالمرحة الثانية من المشروع القاضية بتنظيم متحف للصوفيّة داخل التكيّة، واستحداث حديقة في محيطها مميّزة بعناصرها المعماريّة وتصميمها وفن البستنة فيها، وقد تمّ مؤخراً الإنتهاء من وضع الدراسات الهندسية لها.

مقدّمة: واقع مدينة طرابلس القديمة

طرابلس مدينة تجمع بين الأصالة والحداثة، وتأتي مدينتها القديمة في طليعة المدن التاريخيّة الغنيّة في لبنان، وهي المدينة المملوكيّة الثانية بعد القاهرة من حيث عدد معالمها الأثريّة، فضلاً عن تميّز أحيائها بتخطيط مميّز

وفريد يرتكز على الأسس الدفاعيّة العسكرية ولا يزال نسيجها المعماري متكاملاً وقائماً منذ أكثر من سبع مائة عام. وقد أدّت الحروب التي شهدتها البلاد وما رافقها من فوضى في البناء وغياب الرقابة والتنظيم، إلى إلحاق أضرار بالغة في النسيج العمراني لطرابلس القديمة، لم يُصَر حتى وقت قريب إلى وضع خطّة لتفاديها أو الحدّ منها. والجدير ذكره أن هذه المدينة الفريدة بتخطيطها وبتمازج عمارتها المملوكيّة والعثمانيّة، لم تَحْظَ منذ أكثر من خمسين عاماً بالرعاية أو الإهتمام ولم تشهد أية عمليّة ترميم أو تنظيم، بل على العكس أتت المشاريع التي نُفّذت فيها لتضرّ وتهدّم وتخرّب نسيجها العمراني. وليس مشروع تدمير محلّة السُوَيْقة المملوكيّة الممتدّة على ضفّتيّ مجرى نهر أبو علي بعد طوافانه عام ١٩٥٥ إلاّ أحد الأمثلة على هذا التخريب، حيث شُطِرت المدينة التاريخيّة إلى قسمين متباعدين، وتمّ فصلها عن النهر الذي كانت قد تطورت بالتفاعل العضوي معه، وخُرِقت بالطرقات العريضة وبقناة باطونية للنهر مُبالغ في عرضها وارتفاعها حلّت مكان النسيج العمراني التراثي المتكامل، هذا عدا عن فقدان المدينة لجزء هامٍ من تراثها الثقافي والإجتماعي الذي كان هذا الجزء الحيويّ من نسيجها يختصّ بها.

فإثر طوفان نهر أبو علي عام ١٩٥٥ وتنفيذ الدولة مشروع تقويم مجراه بين العامين ١٩٥٨-١٩٦٢، أباحت مديريّة الآثار هدم نحو ثلاث مائة مبنىً سكنيّاً أثريّاً (يفوق عُمر بعضها ٧٠٠ عام)، كانت تشكّل النسيج المعماري لمحلتيّ السويقة وبين الجسرين اللذان تمّ هدمهما بشكل شبه كامل، ليحلّ مكانهما مجرىً باطونيّاً عريضاً للنهر، يحيط به من الجانبين "أوتوستراد" عريض يشطر المدينة إلى قسمين، أحدهما يصل بين الشاطئ والجبل، والثاني مسدود دون مبرّر في جهته الممتدّة تحت سفح القلعة وصولاً إلى التكيّة المولويّة، هذه التكيّة التي تخرّبت بدورها جزئيّاً بفعل الطوفان ثمّ كليّاً بفعل الصواريخ

التي سقطت عليها إبّان الحرب المدمّرة. وهكذا تحوّلت منطقة مجرى النهر من أجمل موقع في المدينة على الإطلاق تغنّى بها الرحّالة والرسّامون والشعراء على مرّ العصور، إلى بؤرة فارغة قابلة لإنتشار العشوائيّات السكنيّة والتجاريّة، التي استشرت وتكاثرت بشكل واسع خلال فترة غياب الرقابة والتنظيم الرسميّين إباء فترة الحرب. وقد ساعد في ذلك وقوع هذه المنطقة في قلب المدينة القديمة ذات الأحياء الشعبية الفقيرة من جهة، وقربها من سوق الخضار القديم الواقع في باب التبّانة من جهة ثانية. كما أدى هذا التمدّد إلى الإضرار بعدد من المعالم الأثريّة التي تعرّض بعضها للهدم المباشر، لتحلّ مكانها بسطات ومحلاّت تجاريّة مخالفة (كهدم حمّام الحاجب المملوكيّ)، وإلى احتلال المهجرين لمباني أثريّة وإقامتهم فيها، وإنشاء عشوائيّات سكنيّة ملاصقة لها وفي محيطها، كما حصل في التكيّة المولويّة وخان العسكر ومحيطهما على سبيل المثال.

أوّلاً: نبذة تاريخيّة عن تكيّة طرابلس المولويّة

شكّلت التكيّة المولويّة في طرابلس صرحاً دينيّاً وتعليميّاً وخيريّاً في آن واحد، واحتلّت مكاناً بارزاً في تاريخ طرابلس المجيد على امتداد نحو ٤٠٠ عام. وقد بدأت المولويّة نشاطها في مدينة قونية أولاً، ما لبث أن انتشرت في تركيا وآسيا الغربية، وأدارت شؤونها الإدارية والإقتصاديّة عن طريق تكاياها (المولويخانه أو الدرويشيّة)، ولا سيّما منها في مدينة طرابلس، حيث رأت في أهلها ميداناً مناسباً لنشاطها الثقافي وحتّى السياسي، بخاصة وأن الطرابلسيين وجدوا فيها متعة في مدائحها وأذكارها.

سنة ١٠٢٨ هـ/١٦١٨م. جاء إلى طرابلس الشام أحد كبار رجالات الدولة العثمانية، قيل إنه ضابط عسكري، من رجال "الباب العالي السلطاني" باستانبول، يُدعى "علي" من مدينة "صَمْسُون" (في تركيا حالياً) في مهمّةٍ رسمية، وفي أثناء

القيام بها جرت له ترتيبات لزيارة معالم طرابلس ومتنزّهاتها، فتجوّل في أسواقها، وزار مساجدها، وصعد إلى قلعتها، ومنها سرّح نظره يتأمل مجرى نهر قاديشا المعروف بنهر "أبو علي" وهو يتهادى في الوادي الذي ينتهي عند أسفل القلعة، وعلى جانبي النهر بساتين البرتقال والفواكه والثمار، وفوق الروابي سهول فسيحة من أشجار الزيتون، فسحره هذا المنظر بجماله وروعته حيث تُطلّ عليه من بعيد قمم جبال الأرز وهي مكسوّة بالثلوج، ونسائم الهواء العليل والنقيّ تلفح الوجوه، وأُعجب بتلك اللوحة الطبيعية الخلاّبة التي أبدعها الخالق. وزاد من إعجابه بالمكان أنه كان على كتف الربوة الشرقية المطلّة على النهر، مقابل القلعة، قصرٌ مبنيّ يتنزّه به أهل البلد، فأراد أن يُبنى قبالة القصر على الضفة الغربية من النهر تكيّة للمولوية، ووُضعت رغبته موضع التنفيذ، وتمّ بناء التكيّة على بعد نحو ٢٠٠ متر إلى الشرق من سفح القلعة، بالقرب من "مقام النبيّ الخضر" عليه السلام، وجعل لها وقفاً من خزينة الدولة للإنفاق على شيوخها وتلاميذها ومصالحها، ولكنّ الوقف لم يكن يوفّر القدر الكافي لإحتياجات من يقيم في التكيّة من الفقراء وإطعامهم.

كان ذلك في أيام والي طرابلس "عمر باشا التوتنجي"، وعندما تولّى "يوسف باشا السيفي" ولاية طرابلس بعده في شهر ربيع الثاني ١٠٢٨ هـ/١٦١٨م. قام في السنة التالية ١٠٢٩هـ/١٦١٩م. بالتنازل عن خان "الغُمَّيضة" (خان العسكر حاليّاً) بمحلّة "القواسير" (محلّة الدبّاغة حاليّاً)، وهو من جملة ممتلكاته، وجعله وقفاً على مصالح التكيّة، وجرى تحرير الوقفية في أواسط شهر رمضان ١٠٢٩هـ/١٦٢٠م، وجاء فيها أنّ الذي أنشأ التكيّة وجدّدها: "الجناب العالي، ذو المفاخر والمعالي، حضرة علي آغا زعرجي باشي السلطاني بالباب العالي"، وحضر شيخ المولويّة من دمشق خصّيصاً ليشهد على هذه الوقفيّة الهامّة. وجرى ترميم الخان بعد ذلك بقرن ونصف القرن للحفاظ

على ريعه المخصّص للإنفاق على شيوخ المولويّة والمريدين والدراويش، والفقراء الذين يمرّون بطرابلس ولا يجدون مأوىً أو معيل، فتستقبلهم المولويّة وتؤمّن لهم المسكن والمأكل والمشرب من هذا الوقف الخيريّ.

وبعد نحو عشرين عاماً من إنشائها، بالتحديد سنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م. زار طرابلس الرحّالة "يحيى بن أبي الصفا" المعروف بـ "ابن محاسن الدمشقي" وذكر أنّ الذي أشار ببنائها رجلٌ يقال له "صَمْصَمْجي علي" في حدود سنة ١٠٢٨هـ/١٦١٨م. وقد جاء إلى طرابلس حوالة من قِبَل السلطنة العليّة. ووصف موقع التكيّة وقال: «إنها في مكانٍ لا نظير له في بُقعة حسنة مُرضية بين جبلين متقاربين أخضرين، وهي بذيل أحدهما مبنيّة بالأحجار، مشرفة على وادي تخطُّه الأنهار، وتحفُّه الأشجار، يتخلّل بين ذلك قطع من المرج الأخضر تحتوي على سائر الأزهار، تنشرح بمرآها الصدور، ويتردّد إليها في غالب الأحيان للتنزّه بها الأعيان والصُدور، ولَعَمري لقد أجاد في بنائها في هذا المحلّ العظيم، وفاز من الله سبحانه وتعالى بالثواب الجسيم، وبالذكر الجميل الدائم المقيم، إلى يوم القيامة المقعِد المقيم».

واستمرّ أتباع المولويّة في طرابلس بإقامة حلقات الذكرفي التكيّة، يترأسّها شيخ التكيّة التي انحصر أقطابها على آل المولويّ نِسبةً إلى مولانا جلال الدين الروميّ، واستمرّت المولويّة في أداء رسالتها حتى العام ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م. عند وفاة شيخها أنور المولويّ حيث أُغلق الجامع والمنزول، وتركها آل المولوي بعد ذلك بنحو عشرين عاماً خلال فترة الحرب.

ثانياً: التكيّة كما وصفها الرحّالة

قبل أن ينصرم القرن ١٧م. زار التكيّة رحّالتان، مستشرق أوروبي وعالم عربي، هما "لوران دارفيو" و"الشيخ عبد الغني النابلسي".

ولقد أبدى المستشرق "دارفيو" دهشته من طريقة عيش الدراويش في التكية المولوية بطرابلس، وحضر عرضاً كاملاً "للفَتْلة المولوية" فكتب يقول: «على بعد فرسخ من المدينة ناحية الشرق، توجد تكية للدراويش كبيرة وجميلة، ولقد بُنيت على منحدر الجبل، ويجري النهر عند أقدامها. وهؤلاء الدراويش يعيشون على طريقة مولاهم وإمامهم، ولهم جميعاً لباس موحد من القماش الجميل ولكنه بسيط، وهم يعتمرون بدل العمامة قبّعة من اللبّاد الأبيض وهي الجزء الأساس من لباسهم والعلامة الفارقة للمؤسسة التي ينتمون إليها. إنهم مخيّرون بين البقاء في التكيّة حيث يحصلون على الغذاء ويتحادثون، وبين الذهاب إلى المدينة والعيش في منازلهم، ولكن عليهم أن يكونوا حاضرين جميعاً في التكيّة صباح يوم الجمعة. ومسجد التكيّة أُلحقت به أروقة مُقَنْطرة، وفي هذه الأروقة مجموعة من السُبُل أو مجاري المياه، وحوض من الحجر حيث يتوضأ الدراويش قبل دخولهم المسجد، ويبدأون صلاتهم الطويلة في الساعة العاشرة صباحاً، وعندما ينتهون يصعد "الدادا" -الرئيس- بواسطة سُلّم من خمس درجات إلى منصّةٍ يؤطّرها درابزين، يجلس عليها على طريقة الخيّاطين في بلادنا، ويفتح القرآن باحترامٍ وتواضع بالغَيْن، ويقرأ مقطعاً من سطرين أو ثلاثة تشكّل مقدّمة للخطبة التي سيُلقيها، وبعد ذلك يقبّل المصحف ثم يُطبقه أو يلفّه ويضعه على رأسه، ويظلّ حاملاً له أثناء الشرح الذي يقدّمه، ويجلس كل الدراويش رُكوعاً ويشكّلون نصف دائرة حول الرئيس، وذلك بترتيب الأقدمية، وعيونهم إلى الأرض، لا يديرون رؤوسهم، ولا يبصقون أو يتمخّطون أبداً كأنهم تماثيل. وهم على هذه الحال يستمعون بانتباه بالغ إلى المديح الذي يوجّهه الرئيس إلى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومهما كان الخطاب طويلاً لا يتحرّك أحدهم أو ينام. وعندما تنتهي الخطبة ينهض الجميع في وقت واحد، بوقار وتواضع، وعيونهم متّجهة إلى الأرض دائماً، ثم يبدأون بالدوران تارةً على

كعبٍ، وتارة على الآخر، وذلك بسرعة تجعل رؤوس الناس الآخرين تدور. أمّا هم فقد تمرّسوا على ذلك من صِغرهم. ويستمرّون بالدوران المرهق ما يقرب من ساعة، وعندما تتوقّف النايات والمزاهر بإشارة من الرئيس، ينزل بوقار حاملاً المصحف بين يديه ويبدأ بالدوران كما فعل الآخرون، ولكن لا يصحبه أحد، ثم يشكّلون حوله دائرة وهم وقوف، العيون نحو الأرض، والأيدي ممدودة إلى الأطراف، وبعد أن يدور لمدّة تساوي مدّة دوران الدراويش، يومئ بإشارة فتتوقف الآلات العازفة فوراً، ويجلس على بساط، ويبدأ المريدون الجُدد بتقبيل يده باحترامٍ بالغ، وعندها تنتهي المناسبة».

وبعد هذا الوصف يعود "دارفيو" إلى القول: «إن الرئيس الذي سلّمت عليه قبل ابتداء المناسبة، كان أجلسني في مكانٍ ملائم لأتمكن من رؤية وسماع كل شيء، وقد قادنا إلى بَهوٍ فائق النظافة، وقُدّمت لنا القهوة والعصير، وبعد أن قمنا بجولة في كل أنحاء التكيّة، ودّعنا الرئيس متمنّياً من كل قلبه أن تُشرح صدورنا ونتحوّل إلى الإسلام لما رأى فينا من هدوء وسكينة وكل ما يمكّننا أن نكون مؤمنين حقيقيين. ولقد عبّرنا عن إعجابنا بهذه التكيّة. ففي الواقع لم يكن هناك أنظف من غُرفها وممرّاتها وشُرفتها، كما لم يكن هناك أنظف من أوانيها وينابيعها المتدفّقة وحمّاماتها، خصوصاً جمال المنظر الذي تُشرف عليه».

أمّا "النابلسي" فقد زار التكية مرتين في رحلتيه إلى طرابلس، الأولى سنة ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م. إذ كتب يصفها ويصف موقعها بقوله: «وصلنا إلى تكيّة المولويّة، وأقبلنا على ذلك الوادي السعيد والمروج النديّة، فإذا هو جنّة للأبصار، ونزهة للنُظّار، فجلسنا في مقعد عالي، يطلع من كل زهرة في سمائه كوكب متلألئ، وفي ذلك المقعد بركة من الماء لطيفة، وحوله الأشجار وعرائش الأعناب به مُطيفة، يجري إليها الماء في نهر هناك عالي، في ذيل ذلك الجبل

يمرّ في الجهة العالية من تلك التكيّة، وفي أسفل الوادي خمسة أنهار جارية بين البساتين كسبائك الفضة النقيّة. وكم في تلك التكيّة من مقعدٍ لطيف البناء، واسع الفناء، نزهة للخواطر، ملاعب للنسمات العواطر، وفي ذلك الوادي طواحين على تلك الأنهار دائرة، كأن قلوبها نُقط وهي عليه دائرة، حتى استقرّ بنا مجلس الإيناس، واطمأنّت خواطرنا بمسامرة الجلاّس، وقُدّمت لنا الضيافة، وحصلنا على كمال المسرّة واللطافة».

وفي رحلته الثانية، كتب "النابلسي" سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م. يصف التكيّة فقال: «...فجئنا إليها فرأيناها كجنّة النعيم، وبها من الماء اللطيف البارد الذي هو شفاء لكل قلب سقيم، وهي مرتفعة البنيان، عظيمة الأركان، تجري من تحتها خمسة أنهر، وهي أشبه ما يكون بالربوة في دمشق الشام. وهناك مقعد لطيف عال يفوق سَناه على بدر التمام، يحاكي صفة العوافي المطلّة على تلك الرياض العاطرة الزكيّة، والأنهار السبعة الجارية.... وفي هذه المولوية أماكن مرتفعة منيفة، وبها ثلاث مقاعد زاهرة لطيفة، المقعد الأول متّسع ذو طوان جديد، يفوق بمحاسنه البدر، وأمامها فسقيّة صغيرة من الرخام الأبيض، يفيض منها الماء إلى فسقيّة أخرى، وأمامه أيضاً مكان مرتفع مُعَدّ لأجل سماع الدراويش، وهو كبير متّسع، عليه قبو عظيم الأركان، وتحت جداره نهر عظيم الجريان، كبير مُحكم البنيان، داخل إلى البلدة، ولهذا كانت مياهها مرتفعة توجد في أعالي القصور. وبين المقعد وهذا المكان المُعَدّ لسماع الدراويش بركة ماء كبيرة طويلة، ينْصَبّ إليها الماء من هذا النهر بأنابيب وعدّتهم ثمانية عشر أنبوباً. وبحذاء هذا المقعد مقعد آخر مرتفع بإيوانين أيضاً، لكن ليس عنده ماء. وتلقاءه أيضاً ساحة أخرى، فيها مقعد صغير بإيوان واحد، يُصعد إليه بسُلّم، وتحته فسقيّة من الرخام، وحواليها بلاط من الرخام، وحول هذه التكية أشجار كثيرة وعرائش العنب وأشجار النارنج، وفيه أنواع الزهور. وفي أسفل

الوادي خمسة أنهار جارية، وفيه عشر طواحين دائرة على تلك الأنهار. وفي ذيل الجبل ممرّ طويل ضيّق كأنه الصراط».

ثالثاً: خصائص تكيّة طرابلس المولويّة ومشروع ترميمها

التكيّة المولويّة في طرابلس هي إحدى أعظم التكايا المولويّة المعدودة الموجودة حالياً خارج تركيا والموزّعة في العالم العربيّ، في حلب ودمشق وحماه والقدس والقاهرة، وتأتي الثانية من حيث المساحة بعد تكيّة حلب المولويّة. وقد تمّ ترميم التكيّة مرتين عبر تاريخها الطويل، الأولى على يدّ "الملاّ مصطفى" كما كان منقوشاً في كتابة تاريخيّة كانت داخل البناء واختفت أثناء الحرب، نُقش عليها هذان البيتان من الشعر:

بمظهر سرّ مولانا جلال الدين .... وهمّة صاحب الداركاه مللى
بناني بيت أرشاد وأرّخني بما وجدّد حسن أورادي وأسّسني على

أمّا المرّة الثانيّة فكانت في عهد والي طرابلس "محمّد خلوصي باشا" عام ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م. كما هو منقوش في الكتابة التاريخيّة المثبّتة فوق مدخلها الرئيسيّ، وكُتب فيها:

أحيا الرسوم المولوية بعدما .... درست خلوصى محمد الوزراء
هنّوه بالفوز العظيم وأرّخوا باري الهنا يجزيه خير جزاء
سنة ١١٨٤(هـ.)

تكيّة طرابلس تتألّف من ثلاث طبقات، وهي مجمّع متكامل يضمّ قاعة للتعليم، ومسجداً، وقاعة مخصّصة للحلقات المولويّة عُرفت "بالسماخانه" أو "السماع خانه"، وقاعة مناسبات كان يجتمع فيها أعيان المدينة ورجالاتها، وقسم مخصّص لإستقبال وإقامة الضيوف الوافدين، ومنزلٌ (دار) لشيخ المولويّة، ومساكن للدراويش، ومطبخ للمقيمين فيها وللزوار والمحتاجين، وحوض ماءٍ للوضوء، وإسطبل ومخازن، وحديقة وشُرفة مطلّة على النهرِ

والقلعة تسرّ الناظرين. وقد تغنى ببنائها وجمال موقعها الشعراء والمؤرّخين والرحّالة والرسّامين العرب والأجانب، فنظموا القصائد وتنافسوا في وصفها، ورسموا ونقشوا لوحات رائعة لها، كما قام أوائل المصوّرين بإلتقاط صور رائعة ونادرة لموقعها الخلاّب على ضفّة النهر بين بساتين الزيتون والليمون.

إلاّ أن هذا الصرح التاريخيّ تعرّض ومحيطه للتشويه والدمار بعد فيضان نهر أبو علي الشهير عام ١٩٥٥م. وتنفيذ مشروع تقويم مجرى النهر المدمّر، الذي أزال أيضاً كل الطواحين الواقعة على ضفاف النهر ومنها "طاحونة آل الذوق" الملاصقة للتكيّة والتي عُرفت باسمها أيّ "طاحونة المولويّة". وأما الخراب الأعظم الذي لحِق بهذا المَعلَم فكان خلال الثمانينيّات من سنوات الحرب القاتمة، حيث طال الدمار قبّتها وقاعاتها الرئيسة، وهجرها آل المولوي ليحتلّها العابثون والمهجّرون وتجّار الآثار، فزادوا فيها تدميراً وتشويهاً وسرقةً لعقودها ونقوشها وحجارتها إلى أن وصلت إلى حالتها التي يُرثى لها اليوم. حتى أن مديريّة الآثار لم تُدرج هذا المَعلم الأثري الهام على لائحة الجرد العام للأبنية الأثرية حتى العام ١٩٩٠م. بعد أن تقدّم بطلب ذلك مؤرّخ المدينة الدكتور عمر تدمري.

بعد مساعٍ حثيثة قمنا بها واستمرت زهاء خمس سنوات مع الأوساط الرسميّة التركيّة، تبنّت رئاسة مجلس الوزراء التركيّة عام ٢٠٠٧ ترميم التكيّة المولوية بالتزامن مع الإحتفالات الدوليّة التي أطلقتها بالتعاون مع منظّمة اليونيسكو بمناسبة ذكرى مرور ٨٠٠ عام على ولادة العلاّمة جلال الدين الروميّ مؤسّس الطريقة الصوفيّة المولويّة، وأسندت إلينا إعداد الدراسة الهندسيّة اللازمة للترميم، حيث قمنا بالتعاون مع فريق من المهندسين في مختلف الإختصاصات، بوضعها في طرابلس معتمدين على المعلومات والصور الموثّقة المتوفّرة من المصادر القديمة والأرشيفات في لبنان

واستانبول. وأطلقت لجنة الآثار والتراث في بلديّة طرابلس-التي أتشرّف برئاستها-في نيسان/إبريل ٢٠٠٧ مشروع ترميم التكيّة المولويّة العثمانيّة بالتعاون مع دائرة التعاون والتنمية "تيكا" التابعة لرئاسة الوزراء التركيّة وموافقة آل المولوي المتوليّن لوقف المولوية.

يهدف مشروع ترميم التكيّة المولويّة إلى تأهيل كامل أقسام المبنى، وإعادة بناء قاعة "السماخانه" الخاصّة بالعروض المولويّة وقبّتها والمسجد المدمّرين كليّاً، وإعادة بناء "مقام النبيّ الخضر" الواقع بجوار التكيّة والذي كان قد أزيل كليّاً في النصف الأول من القرن العشرين وتمّ العثور على موقعه مجدداً أثناء إعداد الدراسة. كما يشمل المشروع، ترميم التكيّة من الداخل والخارج، وتحويل أقسام منها إلى معارض ومتاحف دائمة عن تاريخ التكيّة والطريقة المولويّة، تشمل صور ولوحات ومقتنيات قديمة وعروض بالصوت والضوء، وقسم آخر إلى مكتبة متخصّصة بالتصوّف والمولويّة، إضافة إلى إقامة مقهى ومركز استعلامات سياحيّة، وإحياء الطريقة الصوفيّة المولويّة عن طريق تكوين فرقة مولويّة محليّة تقوم بتقديم العروض في قاعة السماخانه بشكل منتظم.

إنشائيّاً، يعتمد بناء التكيّة المولويّة بشكل أساسي على العقود الحجرية التي تتكوّن من الحجر الرملي المتوسط القساوة. وكما هو معروف فإن العقود هي من أقوى المنشآت وأكثرها صموداً، فهي تعتمد على ثِقلها والضغط الذي يتولد بين حجارته، ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى زيادة اللحمة بين أجزاء البناء بعضها ببعض. وإنطلاقاً من أن مبدأ ترميم المعالم الأثريّة يهدف إلى تحسين صحّة البناء ونوعيته دون التعرّض لقيمته التاريخية، والحؤول دون طمس معالم لمسات البنّائين الأصليين، فكان من شأن الدراسة الإنشائية الترميميّة أن تبحث عن سُبل المحافظة على أسُس الثبات الحالية المعتمِدة على التعاطي مع الجاذبية من خلال وزن الأحجار وطريقة استنادها على بعضها، وعدم الإعتماد

على حوائط ودعامات الباطون المسلح المستحدث، كما قضت الدراسة أيضاً بإعادة التوريق الكلسي الأبيض الذي كان يغطّي الحوائط من الداخل والخارج ويحمي الحجارة الرمليّة، السريعة التفتّت، من عوامل الطبيعة.

شملت دراسة الترميم سبعة مراحل، وُضِع خلالها نحو ١٢٠ مخطّطاً هندسيّاً، فضلاً إلى عدد كبير من التقارير المكتوبة، وهذه المراحل هي:

١- إعداد الدراسات التاريخيّة والمعمارية عن البناء، وإجراء بعض الحفريات الأثرية بداخله (بالتعاون مع المؤرّخ أ. د. عمر تدمري)

٢- إعداد مشروع رفع الواقع الحالي للمبنى وتحديد المشاكل فيه (بالتعاون مع المعماريّة عبير محسن)

٣- إعداد مشروع إعادة البناء وتحديد المراحل التاريخيّة التي مرّ بها إنشاء التكيّة حيث تغيّرت أقسام منها وأضيفت أقسام أخرى خلال القرنين الماضيين (وقد تمّ الإستعانة في هذه المرحلة بأرشيف ضخم من الصور واللوحات القديمة النادرة التي جمعنها بعد بحث طويل من مصادر مختلفة خاصّة وعامّة من أنحاء العالم)

٤- إعداد مشروع الترميم بشقّيه المعماري والإنشائي، فضلاً عن إعداد دراسة للتمديدات الكهربائيّة وإنارة المبنى وأخرى للتمديدات الصحيّة والتجهيزات الميكانيكيّة (بالتعاون مع المهندس المدني سمير بدوي)

٥- إعداد مشروع إعادة بناء قبة مقام النبيّ الخضر

٦- إعداد مشروع إعادة توظيف البناء، حيث تمّ تحديد الأقسام التي ستُعدّ لإستقبال متحف تاريخ المولوية وآل المولوي في طرابلس، ومتحف تاريخ الطرق الصوفيّة والمولويّة، والمكتبة خاصّة بالطُرُق الصوفيّة والفنون العثمانيّة التركيّة، وقاعات المعارض والمحاضرات، وغرف تحضير العروض المولوية، والمقهى السياحي، ومركز الإستعلامات، وغيرها..

٧- إعداد دفاتر الشروط المطلوبة والتي تتضمن كامل المواصفات والكميّات والأسعار.

تمّ إعداد الدراسة في مدّة ثمانية أشهر، وتمّ إرسالها إلى أنقرة بعد حصول موافقة المديريّة العامّة للآثار في لبنان، وحازت بعدها على موافقة المديرية العامّة للأوقاف ودائرة التعاون "تيكا" في تركيا. أمّا أعمال التنفيذ، التي قُدّرت تكاليفها بنحو مليون ونصف مليون دولار، فقد تمّ تلزيمها إلى شركة متعهّدة تركيّة، وذلك تِبعاً للإتفاق الموقّع بين البلدية و"تيكا"، وقد بدأ العمل منتصف عام ٢٠١٠ وانتهى عام ٢٠١٢.

رابعاً: معالجة العشوائيّات وتنظيم الأحياء السكنيّة في محيط التكيّة

في حيثيّات الإتفاقيّة الموقّعة بين بلدية طرابلس ودائرة التعاون والتنمية التابعة لرئاسة الوزراء التركيّة "تيكا" لترميم التكيّة المولويّة، جاء البند الخاصّ بحلّ مشكلة العشوائيّات المنتشرة في محيط التكيّة كشرط أساسيّ على البلدية تنفيذه قبل إطلاق المشروع. وعليه قامت بلدية طرابلس بإحصاء بيوت الصفائح والباطون العشوائية في المنطقة والتي بلغت ٢٣ بيتاً تسكنها ٢٧ عائلة، وعملَت البلدية مع مجلس الإنماء والإعمار على إيجاد سكن بديل لهم في "مشروع القبّة السكنيّ" الذي كان قد أقيم بعد الحرب لإيواء من تدمّرت بيوتهم بفعل الحرب. وعليه تمّت بالفعل عملية إخلاء المنطقة بالكامل من العشوائيّات منتصف شهر كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧ ونُقل سكّانها إلى مشروع القبّة، وقامت البلديّة بهدمها.

وبالتزامن مع إخلاء وهدم العشوائيّات والمخالفات، وقّعت بلديّتا طرابلس وكاتشي أوران التركية بأنقرة إتفاقيّة ثنائيّة للتوأمة والتعاون بين المدينتين، وقرّرتا أن تكون باكورة تعاونهما إعداد وتمويل مشروع لتنظيم محيط التكيّة وصولاً إلى سفح القلعة حيث كانت تنتشر العشوائيّات، عن طريق

إستحداث حدائق مدرّجة منسّقة، وشلاّلات مائيّة متدفّقة من أعلى التلّة بإتجاه النهر، على غرار شلاّلات مشابهة قامت بتنفيذها بلدية كاتشي أوران بصورة جميلة في أنقرة، وإقامة مسرح مكشوف تحت سفح القلعة التي ستتحوّل واجهتها الشرقية إلى شاشة ليليّة لعروض الصوت والضوء التاريخيّة، وتحويل الطريق الغربي المحاذي لمجرى النهر والمسدود في آخره عند التكيّة إلى منتزه عامّ تنتشر فيه الحدائق والمقاهي والمطاعم السياحيّة لتتكامل مع إحياء التكيّة وتحويلها إلى صرح ثقافيّ ودينيّ مميّز.

وعلى التلّة المقابلة للتكيّة والقلعة، أي على الضفّة الشرقيّة للنهر، تقع محلّة ظهر المغر التي أضحت نموذجاً للبناء العشوائيّ الذي يفتقر إلى التنظيم المدني في طرابلس والذي امتدّ خلال فترة التسيّب القانونيّ وأُنشئ من دون الحصول على رخص للبناء. وفي إطار خطّة بلديّة طرابلس لتنظيم محيط التكيّة المولويّة، قامت البلديّة بالتعاون مع مجلس الإنماء والإعمار خلال العامين ٢٠٠٧-٢٠٠٨ بترميم وطِلاء واجهات الأبنية السكنية العشوائيّة بمجملها الواقعة على هذه التلّة، وشملت تأهيل ٣٠٣ مباني، بعض منها ذات قيمة معماريّة تراثيّة، إلاّ أن أكثرها مباني أقلّ من عاديّة تدخل في عداد الأبنية العشوائية، وذلك بكلفة بلغت ٦٦٠,٠٠٠ دولاراً.

وفي خطوة استكمالية للمشروع، تم مؤخراً وضع دراسة هندسية لإقامة حديقة مميّزة تحيط بالتكيّة تساهم في تحسن الوضع القائم حولها وإعادته إلى سابق عهده قبل طوفان النهر حيث كان يزدان بالخضار والماء. أطلق على الحديقة اسم "حديقة مولانا"، وتتضمن إنشاء مسرح دائري الشكل يتسّع لنحو ٣٠٠ شخص تقام في عروض المولويّة في السماء الطلق، كما تتضمّن عدّة منتزهات مزيّنة بالورود والأشجار المختلفة، مع أكشاك للموسيقيين والحرفيين، وبركة ماء ذات تصميم خاص على شكل تنورة الدراويش، وسبيل

ماء عثماني الطراز، وأماكن مخصّصة للجلوس في محيط التكية ومقام الخضر وعلى امتداد الكورنيش النهري. وينتظر البدء بأعمال تنفيذ هذه الحديقة الفريدة من نوعها في المنطقة مع بداية ربيع ٢٠١٤.

خاتمة: المشاركة في الحفاظ على التراث المعماري

إن معظم الأحياء القديمة في المدن اللبنانية، وبشكل خاص داخل المدن الساحليّة الكبرى، هي في حالة تدهور مستمر أو مجمّدة في أحسن الأحوال منذ بداية الحرب الأليمة إلى اليوم، وتتفرّغ تدريجيّاً من سكانها ونشاطاتها مع إنتشار التداعي المديني الممتد إلى الأحياء الإنتقالية المجاورة، أو تآكلها مع كل عمليّة عمرانية أو تخطيطيّة جديدة مُدرجة. حتى أن التدهور المطّرد للأحياء أصبح من ثقافة النشاط العمراني في بعض المدن مثل طرابلس، مع ما تولده من تفكيك للأحياء والدفع في وتيرة التنقلات السكانيّة داخل المدينة ونحو ضواحيها. كل ذلك في غياب السياسات والتشريعات وحتى غياب التوجهات التنظيميّة للتجدد المديني. وتتفشّى ثقافة النموّ الإستهلاكي المستشري في مجتمعنا وهي مُشجَّعة لا بل مروَّجة من قِبَل الإدارة، وتعمل باطّراد على التفكيك المنهجي لمقوّمات البلاد التراثيّة والبيئيّة معاً، وتتجلّى في توجهات الإستثمار العقاري وإنتشار العمران العشوائي مُحوِّرة ملامح البلدات والمدن.

ومع زوال هموم الأحداث اللبنانيّة وبداية إعادة الإعمار، أُثير موضوع التراث المعماري وحمايته من المخالفات والعشوائيّات بزخم على ساحة المثقفين والأكاديميّين في ندوات ودراسات عديدة، وأخذ في بعض نواحيه المنحى المطلبي، وتكاثرت الجمعيات المعنيّة بالتراث والبيئة، كما أصبح موضع اهتمام مباشر من قِبَل جهات دوليّة. وفي هذا الإطار قامت لجنة الآثار والتراث في بلديّة طرابلس، بإطلاق خطّة للنهوض بالمدينة القديمة، وعدد من المشاريع التنمويّة والعمرانيّة والترميميّة بالتعاون مع جهات محليّة ودوليّة،

تهدف جميعها إلى صياغة الأهداف الإستراتيجيّة للتنمية ووضع سياسة للحفاظ على النسيج والتراث العمرانيّ فيها، وإيجاد الحلول للمساكن العشوائيّة والتشوّهات بداخلها، بخاصّة في محيط مجرى نهر أبو علي الذي تشوّه بعد المشروع الكارثي لتقويمه عام ١٩٥٨.

وفي هذا الإطار جاء مشروع ترميم التكيّة المولويّة وإحياء طريقتها الصوفيّة من جديد، الأمر الذي لم يكن من الممكن تحقيقه دون التعاون المثمر والبنّاء بين السلطة المحليّة (الممثّلة ببلدية طرابلس صاحبة المبادرة) والدول الصديقة من جهة (الحكومة التركيّة)، ومشاركة الجهات الحكوميّة المعنية من جهة ثانية (مجلس الإنماء والإعمار ودائرة الأوقاف الإسلاميّة)، والمؤمنة جميعها بضرورة نفض غُبار الحرب عن وجه المدينة وإعادته إلى سابق تألقه، والعمل على تحريك عجلة الإقتصاد والتجارة والثقافة فيها من جديد لإعادة المدينة إلى الخارطة السياحيّة، فإن إعادة الحياة إلى المواقع العمرانيّة التراثيّة تخلق تلقائيّاً ديناميكيّة السياحة الثقافيّة، التي تحتاج لها وتتميّز بتوفر كامل عناصرها مدينة طرابلس العربية الإسلاميّة العريقة.

لقد كان للطريقة المولويّة التي أسّسها العلاّمة جلال الدين الروميّ منذ نحو ٨٠٠ عام في مدينة قونية التركيّة أهميّة كبرى في طرابلس بالنظر إلى تأثيرها في الحياة، ونجاحها في التطبيق وتطوّرها كحركة روحيّة غايتها رياضة النفس وصَقْلها وتطهير القلب وتهذيب الأخلاق وتربية الوجدان وصولاً إلى الكمال الإنساني والروحيّ معرفةً وعلماً واتّصافاً، وإلى معرفة الله عبر توثيق العلائق بين الإحسان والعقل، فكانت بالتالي الصورة المثاليّة للإسلام والدعوة الصادقة إلى التفاني في محبّة الخالق ووحدة الأديان النابعة من مصادر الوحيّ والتخلّق بالفضائل ومراقبة الخواطر. وقد أنتجت المولويّة في طرابلس ثروة غنيّة في علوم الدين من فقه وتوحيد، وفي الأدب من نثر وشعر، وكذلك في

الفلسفة، وأودعت في الأهالي العديد من الأوراد والأحزاب والأدعية والوصايا، بل تعدّى اهتمامَها الأمور الدينيّة والثقافيّة ليصل إلى الأمور السياسيّة في بعض الأحيان.

المصادر والمراجع

تدمري، خالد؛ مشاكل المحافظة على مدينة طرابلس القديمة وطروحات لإعادة تخطيط حمايتها وإحيائها؛ رسالة دكتوراه (باللغة التركيّة)، جامعة المعمار سنان، كليّة العمارة - قسم التخطيط المدني، إستانبول، ٢٠٠٣.

تدمري، خالد؛ وبدوي، سمير؛ دراسة مشروع ترميم تكيّة طرابلس المولويّة؛ تيكا، أنقره، ٢٠٠٧.

تدمري، عمر؛ محلاّت طرابلس القديمة: مواقعها، أسماؤها وسكّانها من خلال الوثائق العثمانيّة؛ بحث منشور في كتاب: المؤتمر الأول لتاريخ ولاية طرابلس إبّان الحقبة العثمانية ١٥١٦-١٩١٨؛ الجامعة اللبنانيّة، طرابلس، ١٩٩٥.

تدمري، عمر؛ تكية الدراويش المولوية بطرابلس في أقدم وثيقة عنها وما كتبه الرحالة العرب والأجانب في وصفها؛ مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة ١٢، العدد ١٤٠، بيروت، ١٩٩٢، ص١٣.

تدمري، عمر؛ وثائق نادرة من سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس، مؤسسة المحفوظات الوطنية، بيروت ٢٠٠٢، ص٢١١.

الحمصي، نهدي صبحي؛ تاريخ طرابلس من خلال وثائق المحكمة الشرعية في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي؛ دار الإيمان، طرابلس، ١٩٨٦.

الصندوق المركزي للمهجّرين؛ الكتيّب الخاص بمشروع إعادة إعمار المنطقة الواقعة بين محلّتيّ باب التبّانة والقُبّة، ١٩٩٨.

لجنة الآثار والتراث في بلديّة طرابلس؛ الكتيّب الخاص عن التكية المولويّة: تاريخها وقصّة ترميمها، طرابلس، ٢٠٠٧.

مجلس الإنماء والإعمار؛ التقرير التمهيدي لمشروع إحياء الإرث الثقافي في طرابلس، بيروت، ٢٠٠٠.

المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية؛ يحيى بن أبي الصفا بن أحمد المعروف بابن المحاسن (١٠٥٣هـ)، تحقيق د. محمد عدنان البخيت، بيروت، دار الآفاق الجديدة ١٩٨١م. ص ٧٦.

موقع مدينة طرابلس على الإنترنت www.tripoli-city.org

Frederick de Jong, The Takiya of the Mawlawiyya in Tripolis, *Osmanlı Araştırmaları*, sayı XIV (the journal of Ottoman studies, issue XIV), Istanbul, 1994 p. 93

المصادر والمراجع

تدمري، خالد: مشاكل المحافظة على مدينة طرابلس القديمة وطروحات لإعادة تخطيط خدماتها وإحيائها، رسالة دكتوراه (باللغة التركية)، جامعة المعمار سنان، كلية العمارة – قسم التخطيط المدني، إستانبول، ٢٠٠٢.

تدمري، خالد وبدوي، سمير، دراسة مشروع ترميم تكية طرابلس المولوية، www.tripoli-city.org

Frederick de Jong, The Takiya of the Mawlawiyya in Tripolis, Osmanlı Araştırmaları, sayı XIV (the Journal of Ottoman studies issue XIV), Istanbul 1994 p. 93

تدمري، عمر، [illegible] الوثائق العثمانية، بحث منشور في كتاب: المؤتمر الأول لتاريخ ولاية طرابلس إبان الحقبة العثمانية ١٥١٦–١٩١٨، الجامعة اللبنانية، طرابلس، ١٩٩٥.

تدمري، عمر، تكية الدراويش المولوية بطرابلس في أقدم وثيقة عنها وما كتبه الرحالة العرب والأجانب في وصفها، مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة ١٤، العدد ١٤٠، بيروت، ١٩٩٢، ص١٣.

تدمري، عمر، وثائق نادرة من سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس، مؤسسة المخطوطات الوطنية، بيروت ٢٠٠٢، ص٢١١.

الحمصي، نهدى صبحي، تاريخ طرابلس من خلال وثائق المحكمة الشرعية في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، دار الإيمان، طرابلس، ١٩٨٦.

القلاع والخانات التركية العثمانية على طريق الحاج الشامية في الديار الأردنية "قلعة القطرانه إنموذجاً"

عبد القادر محمود الحصان*

الموقع

تقع هذه القلعة الشامخة على يمين الطريق الصحراوي السريع الواصل من عمان إلى معان، وتبعد عن العاصمة عمان مسافة ٩٠كم باتجاه الجنوب، وترتفع عن مستوى سطح البحر بمقدار ٧٩٠م، والقلعة بحد ذاتها تبعد عن بلدة القطرانة باتجاه الشمال الغربي ٤كم. وكما هو الحال في معظم القلاع العثمانية فهذه القلعة أيضا شيدت قريبا منها محطة سكة الحديد الحجازية وذلك لأن التاريخ يعيد نفسه مرتين كما نرى من خلال استقراء المواقع الأثرية والكتب التاريخية.

كما أن وادي حنيفة يحد الموقع من الجنوب ويجري من الجنوب الشرقي باتجاه الغرب مع ملاحظة واديا آخر يصب في هذا الوادي اسمه وادي الحفيرة. ومن خلال هذين الواديين كانت فكرة الحصاد المائي وتزويد الموقع بالمياه.

ذكر الموقع في المراجع التاريخية المتعددة

ذكر هذا الموقع في ثلاثة أشكال ضمن كتابات الرحالة والمؤرخين وهي كالتالي: قطرانه، قطراني وقطران وسيتم تبيان ذلك من خلال النصوص اللاحقة عند ذكر منازل الحج.

---

* الدكتور.

بداية ذكرها المؤرخ ابن طولون الصالحي في رحلته إلى الحج في شهر شوال عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م في نهاية الحكم المملوكي للمنطقة إذ قال:" ثم نزلنا بعد المغرب بفلاة قريب خان " القطراني " ويقول مردفا انه وجد بخط الحافظ ابن ناصر الدين في مسودة توضيح التشبيه في حرف القاف قوله: "والقطراني" منزلة معروفة للحاج الشامي بين الحسا ووادي النسور وبها خان خراب"[١] وهاتين المقولتين تؤكدان بأن بناء الخان كان موجودا في العصر المملوكي وفي نهايته على وجه التحديد، ولكنه كان خربا مما حدا بالعثمانيين تجديده وبناءه من جديد في منتصف القرن السادس عشر الميلادي. كما ذكرها الشاعر الصلاح الصفدي شعرا عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م بقوله: في عذاب من بالحساء تغدى وتعشى في الليل بالقطران[٢]

ومن الجدير ذكره إنه في عام ٩٦٧هـ/١٥٥٩م أمر السلطان سليمان القانوني بتعمير قلاع بطريق الحج الشامي وتعيين سنجق لكل قلعة، واحدة بالقطرانة وثانية بمعان[٣].

ومر بها الرحالة المشهور بكبريت في طريق إيابه من إستانبول إلى الحجاز عام ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م وقال ثم أتينا على "القطراني"، بعد معاقبة عقبات ومحاجر، وهو واد فيه قلعة وبركة ماء تفيض على مثلها[٤]. أما الخياري فقد أتحفنا بتحفته (تحفة الأدباء) من خلال ذكره المستفيض للموقع والقلعة على السواء ونقل صورة حية لذلك المشهد الأخاذ أثناء رحلته من الحجاز إلى إستانبول عام ١٠٨٠هـ/١٦٦٩م فيقول: "ثم سرنا حتى ارتفع النهار ودخل في الساعة الثالثة، وصلنا للمنزل المبارك المسمى: بالقطراني فإذا هو واد فسيح به

---

(١) ابن طولون، البرق السامي، مجلة العرب، العام العاشر، ص ٨٧٨.

(٢) الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة ١٢٥٨:٢

(٣) كرد علي، محمد: خطط الشام. ص ٢٨١.

(٤) كبريت: رحلة الشتاء والصيف ص ٢٣٢.

عذوبة هواء ونسيم رطب ولا أقول ريح، فيه قلعة عظيمة البناء لائحة الأشراف والسناء، وجدناها مغلقة الباب ولم ندخلها ولا أحد من الأصحاب. بها جماعة من أهلها مقيمون بها يبيعون منها التبن وما يناسبه بالتدلي من أعلاه. والى جانبها بركة عظيمة الوضع، كثيرة النفع، أخبرني بعض من ذرع جهاتها الأربع أنه تسعون ذرعا بذراع العمل وأن عمقها سبعة أذرع ينقص ماؤها الآن ذراعا واحدا وستة أذرع معمورة بالماء، وأن ماءها هكذا يجتمع من السيل لا من بئر ولا نهر ولا عين، وأن لها مدخلين متسعين والى جانبها بركة صغيرة تكون لتصفية الماء..."(٥).

كما ذكرها ووصفها أولياء جلبي في رحلته المشهورة (سياحة نامه) في أواخر القرن الحادي عشر الهجري (١٠٨١هـ-١٦٧١م) إلى بلاد الشام بقولـــه: " تقع ضمن أراضي لواء قدس الشريف في ولاية الشام تحت سلطة مسؤول مياه قلعة الكرك، وأهل هذه المنطقة متمردون عصاه إلى حد كبير.

القلعة صغيرة الحجم تقع وسط الصحراء وهي مربعة الشكل مدشنة بالحجارة ويبلغ محيطها ٣٠٠ خطوة وليس لها خندق يحيط بها وبوابتها تفتح بإتجاه القبلة، فيها سبع غرف ومخازن ومسجد واحد كما يوجد محافظ قلعة ومعه سبعون جندياً لحماية القلعة ويتم إحضار الطعام والمأكولات من ناحية الكرك وبيعها على الحجاج لتكون تجارة كبيرة رابحة أثناء موسم الحج.

الحمد لله فلقد وجدنا في هذه القلعة العلف رخيصاً بقيمة قرش واحد للوجبة الواحدة ويتم إنزال السلال بداية لوضع النقود الخاصة بأثمان الأشياء المراد شرائها ومن ثم يتم إنزال المواد المطلوبة ويبلغ ارتفاع جدران القلعة ٢٠ ذراعاً، وأمام جدار القلعة الشرقي توجد بركة مياه كبيرة مربعة الشكل،

(٥) الخياري: تحفة الأنباء ٨٥/١.

وطول ضلعها ٢٠٠ خطوة لكل جهة وفي موسم الشتاء الممطر تكون ممتلئة بالمياه العذبة النظيفة حتى بابها وعمقها ٢٠ ذراعاً أيضا[٦].

كما عبرها رحالة دمشقي مجهول الاسم في ذي القعدة عام ١١٢٠هـ/١٧٠٨م، ويقول عنها: "هي قلعة لطيفة ذات عمارة معتبرة محكمة التربيع، مشيدة البناء بالأحجار البيض والكلس والمون، ولها باب من الجهة القبلية... وفي هذه السنة لم ينزل المطر وهذا الماء من العام الماضي"[٧].

كما وصفها الموسوي بقوله "هي واد فيه قلعة وبركة ماء زودت هذه القلعة بالماء والشعير والتبن للتسهيل على الحجاج"[٨].

ومر بها الفقيه الشيخ عبد الغني النابلسي في طريق العودة من أرض الحجاز عام ١١٠٥هـ/١٦٩٣م ووصفها قائلا: "ثم ركبنا وسرنا مع الحجاج في ذلك الطريق السهل الواسع بلا اعوجاج إلى أن أصبح صباح يوم الأحد ٢٨ من المحرم فصلينا صلاة الصبح وأشرفنا على قلعة القطرانة، وهي قلعة متينة البناء فيها طائفة من عسكر الشام ينطرون الماء وهناك بركة كبيرة واسعة يجتمع فيها الماء..."[٩]

كما مر بها الرحالة أبو القاسم الزياني عام ١٢٠٦هـ/١٧٩١م وقال: "البلقاء وهي قلعة ومنها ثمان عشرة ساعة لقلعة قطرانه، وبها يترك الناس أثقالهم إلى الرجوع، فيها بركة عظيمة للماء، وعمارتها العسكر يحرسونها، ومنها في البوغازين (مضيقين بين الجبال - "بوغاز: كلمة تركية تعني المضيق والممر الضيق") جبال مخيفة خمس ساعات[١٠].

(٦) أولياء جلبي: سيحات نامه، مجلد التاسع، ص ٦١١-٦٥٥.
(٧) مجهول الاسم، رحلة دمشقي إلى الحج، مجلة العرب، العام السادس والعشرين، ص ١٩٢.
(٨) الموسوي، رحلة الشتاء والصيف، ص ٢٣١.
(٩) النابلسي، عبد الغني، الحقيقة والمجاز، ص ٤٨٦.
(١٠) الزياني، أبو القاسم، الترجمانة الكبرى، ص ١٨٦.

وذكرها الرحالة السويسري بيركهارت قائلا:" وإلى الجنوب الغربي من القطرانة على مسير يوم واحد توجد قلعة الكرك التي يحضر منها العرب القمح والشعير ليبيعوه إلى قائد قلعة القطرانة وهو بدوره يبيعه للحجاج، وتقع قطرانه قرب دائرة عرض ١٥-٣٠ شمالا وخط طول ٢-٣٦ شرقا على وادي الحفيرة"[١١].

ما عبر منها الرحالة التونسي محمد السنوسي عند رجوعه من الحجاز عام ١٢٩٩هـ/١٨٨١م إذ قال:" قلعة قطرانه: قد قطعنا في هاته المرحلة بوغاز وادي الحصى (وهذا هو الذكر الثاني للمضيق أو الممر باللغة التركية كما أسلفت) في أرض منخفضة، ونحن مستضيئون بنور القمر. وسرنا بياض يوحنا في أرض سهلة إلى أن نزلنا حول هاته القلعة الخربة بناها السلطان سليمان. وليس هنالك ماء. وهنالك ضريح أحد علماء دمشق الشيخ حامد العطار"[١٢].

كما ذكرها عدد من الرحالة الأوروبيين عدا بيركهارت الآنف الذكر مثل: داوتي " قائلا: إنها محطة في منطقة صحراوية تشتمل على مياه عذبة " كما ذكرت ضمن كتابات كل من: ستزن، هيل وبرنو عام ١٨٩٨م[١٣].

أما رحلة سويله مز أوغلي إلى بلاد الشام عام ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م فتذكر لنا الكثير عن هذا الموقع الهام إذ يقول: - قلعة قطرانه: هي مربعة الشكل طول ضلعها ٢٠م وبناؤها محكم إلى حد ما وهي بحاجة إلى الترميم، وأمامها حوض مربع الشكل طول ضلعه ٥٠م وعمقه ٦م، ولم ينظف هذا الحوض أو يرمم بمرور الزمن، ولهذا يكاد أن يكون نصفه قد غمره الطين وحصلت

(١١) بيركهارت، يوهان، رحلات في سوريا الجنوبية، ص ١٧٦.
(١٢) السنوسي، الرحلة الحجازية، ٢/٢٦٧-٢٦٨.
(١٣) بيشة، غازي، دراسة مختصرة للقلاع الإسلامية، غير منشور، دائرة الآثار.

الشقوق في سطوحه الجانبية... وفي ٣ حزيران ١٣٠٦هـ في الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد انطلقنا من قلعة قطرانه نحو الجنوب[١٤].

كما ذكرت القلعة في تقرير محمد علي باشا وذلك بأنها: "قلعة مربعة بقياس ٣٥ وحدة بناء مربعة وهي بوضع جيد وتستخدم كمكان للتخزين وبها بركة كبيرة بقياس ١٠٠ وحدة مربعة وبحاجة للتنظيف والترميم والصيانة إضافة إلى وجود قناة مزدوجة وحوض للتنقية أيضا"[١٥].

ويذكر باربير تأريخ تأسيس القلعة بمنتصف القرن التاسع عشر وهذا يتوافق مع التاريخ الذي ذكره عدنان البخيت عام ١٥٥٩م والمزامن "للفرمان" الذي أصدره السلطان سليمان القانوني بضرورة بناء قلاع في معان والقطرانة وتبوك[١٦]. كما يذكر البخيت في نفس السياق أن حاكم الكرك والشوبك أمر عام ١٥٦٨م بإعادة ترميم وبناء بركة القطرانة وقنواتها وسدها وأرسل لذلك خمسة عشر ألف قطعة ذهبية[١٧].

الوصف المعماري لقلعة القطرانة من الداخل والخارج

إن القلعة عبارة عن بناء مستطيل الشكل بطول ٢٢,٢٠م من الشمال إلى الجنوب في كلا واجهتي البناء الغربية والشرقية بينما يتراوح عرضها من الجهتين الشمالية والجنوبية ١٧,٣٥م، علما بأن متوسط ارتفاع القلعة يتراوح ما بين ١٠م - ١٠,٥م وذلك حسب ميلان سطح الأرض المشيد عليها القلعة. وتقع البوابة في الجهة الشرقية للقلعة وفي منتصفها على وجه التحديد، وتتكون كالمعتاد من برواز خارجي مرتفع غير نافذ نهايته عقد نصف برميلي على شكل قوس (حدوة حصان) بارتفاع ٤م وعرض ٢٦٠سم، وتبدأ البوابة من جهتها

(١٤) سويله مز أوغلي، سليمان شفيق، الرحلة، ترجمة، فاضل البيات، ص ١٤٩.
(١٥) تقرير محمد علي باشا.
(١٦) البخيت محمد عدنان، معان وجوارها... ص ٤٩.
(١٧) نفس المرجع سابق الذكر.

العليا بالإنحناء على ارتفاع مترين، وللحنية برواز من الحجر بعرض ٣٥سم وفي منتصفه حجر غلق ويزين أعلى البوابة ثلاثة نتوءات حجرية بارزة بشكل كروي الأولى العليا على بعد متر واحد من نهاية العقد (حجر الغلق) والأخريان لهما نفس البعد عن حجر الغلق الذي يتوسط البوابة، أما البوابة الخاصة بالدخول فيبلغ ارتفاعها ١٨٥سم وعرضها ١٤٠سم وعمقها للداخل ٣٥سم عرض مدماك واحد تقريبا من الجدار الأساسي الشرقي، كما يلاحظ وجود طلاقة ضيقة طويلة فوق منتصف العقد وأسفل الكرة الدائرية مباشرة بارتفاع ٥٠سم وعرض ٥ سم وعلى محور البوابة المتكاملة وفوقها مباشرة وعلى ارتفاع ٨م توجد سقّاطة خاصة بإسقاط الحجارة والزيت المغلي وأي شيء من شانه حماية البوابة من أي هجوم من الأعداء لاقتحامها ومحاولة فتحها عنوة.

ويلاحظ على يمين المدخل وجود مكان غائر لحجر تذكاري على الأرجح أن يكون من الرخام بارتفاع ٥٠سم وعرض ١٠٠سم وعمق داخلي ٦سم زال الآن وبقي أثره وبقايا الملاط الملصق به لا يزال على مكان اللوحة الحجرية على الأغلب أنها انتزعت من مكانها وكانت تحوي الكتابة التذكارية المتعلقة بالتأسيس واسم المؤسس أو المجدد للبناء.

ونلاحظ من خلال التدقيق بجدران القلعة الخارجية وخاصة الأمامية أن الحجارة مربوطة بمونة بيضاء اللون وهي عبارة عن شيد مطفئ إضافة إلى رمل سيل ناعم وذلك لتثبيت الحجارة ببعضها البعض ومنع تسرب المياه.... الخ. كما نرى أن الحجارة المستخدمة للبناء وخاصة الواجهة الأمامية متناسقة من حيث الحجم والنحت وعدد مداميك الحجارة من الأساس حتى الأعلى ٢٦مدماك حجري تعلوها من الجهات الأربعة، لاستحكامات الدفاعية وهي عبارة عن قباب صغير " راس قمع " بمحاذاة بعضها البعض لإعطاء قيمة جمالية للقلعة واستخدامها من قبل الرماة كساتر دفاعي أيضا. مع وجود السقّاطات

واحدة لكل جهة وكذلك الطلاّقات بأحجام مختلفة للجهات الأربعة أيضا وسيتم دراسة كل نوع على حده لاحقا.

دعونا نحلق معا في أرجاء القلعة الداخلية عابرين المدخل الرئيس سابق الذكر لنكون معا فكرة كاملة عن النظام المعماري المتكامل والبنيتين الحيويتين: الدفاعية الاستطلاعية والمائية الحيوية المتمثلة بالبركة وملحقاتها: بركة التصفية وقناتي التغذية والسد الذي يغذي البركة عبر مرافقه المتعددة.

المدخل الرئيس

إن مدخل قلعة القطرانة الحالي محمي بباب حديدي مكون من ظرفتين ومدعم بمغلاقين داخلي وخارجي لإحكام إغلاقه من الجهتين وحمايته من العبث والتخريب. وتقودنا البوابة هذه إلى ردهة صغيرة المساحة يعلوها سقف تتقاطع فيه العقود الجانبية المدببة وتبلغ مساحة هذه الردهة: ٣٤٠سم طولا وبعرض ٣٠٠سم وارتفاع ٢٥٥سم، ثم نصل إلى الساحة الداخلية وهو الفناء المفتوح " المكشوف " وهذا النظام يذكرنا جيدا بالبيت الحوراني " الشامي المتكامل من حيث الطابق الأول والثاني والساحة المكشوفة مع اختلاف النظام الدفاعي هنا، والذي اعتمد في كافة بلاد الشام والعالم العربي الإسلامي عبر العصور. والساحة هذه مستطيلة الشكل ضيقة الجوانب نوعا ما، إذ بلغ طولها ١٨,٦٠م من الشمال إلى الجنوب و ٤١٠سم من الشرق إلى الغرب، ويوجد درجتين في كلا الجهتين الشمالية والجنوبية بمقدار عشر درجات لكل واحدة منهما ويلاحظ وجود دربزين خشبي للدرجات وكذلك للممرات الفاصلة ما بين الطابق الثاني والساحة مع وجود أبواب خشبية للقاعات الوسطى الغربية وكذلك الساحة الوسطى مبلطة مع دهان الجدران كذلك وكل هذه الأمور تمت ما بين عامي ١٩٧٣-١٩٧٤م نتيجة صيانة وترميم القلعة من قبل دائرة الآثار العامة بالتعاون مع الحكومة التركية كعمل مشترك عكس أهمية الموقع

للجانبيين المتكاملين عبر مسيرة التاريخ المشترك... وترتكز في كل زاوية من زوايا الفناء الخاص بالقلعة الأربع أربع غرف ثم تنقلنا الدرجات إلى الطابق الثاني والذي سننتقل إليه بعد استكمال جولتنا في الأسفل.

ونشاهد في منتصف الجهة الغربية مدخل مربع من الحجر المنحوت يقود إلى مصرف مرتبط مع مستودع الماء "الخزان" وترى من خلال هذه الساحة أنها تفتح على ثمانية غرف تكون الطابق الأرضي، وارغب هنا في تسجيل قياسات القاعة الوسطى الشرقية إذ يبلغ طولها ٤٧٥سم وعرضها ٣٣٠سم أما ارتفاع بوابتها ١٩٥سم و٨٠سم عرضا وله حنت حجري منحوت بإتقان، أما ارتفاع الغرفة فيبلغ ٢٦٨سم وارتفاع الأقواس ٢٣٤سم أما عرض الجدران متساوي ١١٠سم وعرض القوس ٦٠سم بسمك ٢٣سم.

أما القاعة الغربية فهي أكبر من سابقة الذكر إذ تبلغ قياساتها ٤٨٧سم طولا ٤٢٤سم عرضا بارتفاع ٢٩٠سم.وإلى الجنوب من الغرفة سابقة الذكر يوجد إيوانين يقودان إلى الساحة المستطيلة ولهما نفس العرض ٤٢٠سم بعمق داخلي ٥م وقد ركب لهما قاطع خشبي نصف دائري حسب القوسة العليا نصف الدائرية مع الأبواب أيضا.

كما أن الغرف الواقعة على الجهة الجنوبية الشرقية لها نفس القياسات ومشابهة لسابقة الذكر من حيث الحجم والتصميم وإلى أقصى الشمال توجد غرفة صغيرة مشابهة لغرفة المدخل ولها سقف مزخرف وهي بطول ٢٣٠سم وبعمق داخلي يساوي ٤٨٠سم.

وبعد الصعود عبر الدرجات العشر الموجودة في نهاية الساحة من جهتها الشمالية نصل إلى الممر الذي ينقلنا ما بين جهات القلعة الأربع والمطلة على غرفتها الجانبية وساحتها المفتوحة أيضا ومحمي بدرابزين وضع حديثا وما عدا الغرف الجانبية الموجودة على زوايا القلعة الأربع فالغرف الأخرى

وخاصة الشرقية على شكل أقواس وعقود نصف برميلية وبلا أبواب، أما الجهة الغربية فلا يوجد غرف معقودة في الوسط لأنها مهدومة ما عدا الغرفتين الموجدتين في زوايا القلعة الشمالية الغربية والغربية الجنوبية والمدعمة بالشبائح الحجرية الطويلة والدرج هنا موجود في الجهة الشرقية بارتفاع إحدى عشرة درجة، مع ملاحظة عدم وجود الممر العابر ما بين الجهة العليا الواصلة ما بين الجهة الشرقية والغربية لأنه مردوم على الأرجح مثل الغرف الوسطى للطابق الثاني المردومة حاليا أيضا.

إن الجهة الشرقية من الطابق الثاني تتكون من عدة غرف وهي كالتالي بدءا من الشمال إذ توجد غرفة صغيرة عرضها من الشمال إلى الجنوب ٣٢٠سم و٣٥٠سم من الشرق إلى الغرب وتحتوي على شباكين متجهين للشمال والشرق وسقفها مزين ويرتفع عن الأرض ٢٧٠سم وارتفاع بوابتها ١٨٣سم. وعلى يسار هذه الغرف توجد ثلاث قاعات مفتوحة على الساحة الوسطى عبر الممر المدعم بالحماية "الدرابزين" والذي يبلغ عرضه ٥١سم.

أما قياس الأول منهم: العرض من الشمال إلى الجنوب ٣ م وبعمق للداخل من الغرب إلى الشرق ٤٢٠سم، ونلاحظ على الجدار الشرقي المطل على المدخل الأمامي شباك مستطيل الشكل عبارة عن طلاقة لرمي السهام وإطلاق النار.

وعلى يسار هذا الإيوان يوجد إيوان (قاعة) أخرى لجهة الجنوب أصغر من السابقة بعرض ٢٣٠سم ولها نفس العمق ٤٢٠سم وفيها طلاقة باتجاه الشرق على شكل شباك صغير.

أما الإيوان الآخر فتبلغ قياساته ٢٨٠سم العرض و٤٨٠سم العمق الشرقي الموازي للجدار الأمامي للقلعة ولهذه القاعة شباك باتجاه الشرق أيضا. والى

يسار هذا الإيوان توجد غرفة في زاوية القلعة الشرقية الجنوبية تبلغ قياساتها ٢٧٠سم عرضا و٤٧٠سم طولا.

وكما أسلفت فإن الجهة الغربية لا توجد فيها سوى غرفتين في الزوايا وفي الوسط ولا يوجد أي إيوان أو قلعة وعلى الأرجح أنها تعرضت للهدم والردم ولم يتم ترميمها لاحقا وقياسات كل منها غير محددة، ونلاحظ الدرج الصاعد إلى ما يسمى تجاوزا بالطابق الثالث والخاص بالدفاعات السطحية والمراقبة والمتابعة لمحيط القلعة وطريق الحاج الشامي المار بالمنطقة. والدرج يقع في الزاوية الغربية الجنوبية ويصعد بنا عبر ١١ درجة للسطح العلوي الذي يحوي السقاطات الأربع في الجهات الأربع وكذلك الطلاقات الستة والعشرين العلوية التي تغطي بدورها الجهات الأربع.

الطلاقات وأنواعها

ومن خلال استقراء الواقع العمراني للقلعة نلاحظ وجود مجموعة من الأنظمة الدفاعية وتقع على رأسها الطلاقات الخاصة بالمراقبة وإطلاق النار من البنادق أو استخدام النبال مع العلم أن العثمانيين استخدموا البنادق مبكرا منذ بداية القرن السادس عشر، وفي معركة مرج دابق انتصروا على المماليك بسهولة لاستخدامها".

وهذه الطلاقات تقسم هنا إلى نوعين من حيث الشكل والحجم في الجهات الأربع، فالنوع الأول يظهر في الجهة الشرقية الأمامية بأربع طلاقات وكذلك الجهتين الشمالية والجنوبية بثلاث طلاقات أما الغربية فتساوي الأمامية الشرقية إذ تحوي أربع طلاقات وقياساتها تبلغ متر طولا واتساعها ١٥سم وتظهر من الخارج جلية واضحة. مع ملاحظة أن الطلاقتان اللتان تتوسطان الأربع متسعة من الأسفل وشكل كل منها على هيئة ثقب المفتاح المقلوب.

وترتفع هذه الطلاقات عن الأرض بمقدار ٤,٥م وكل منها له عتبة حجرية تعلوه بشكل مزخرف.

أما النوع الثاني فهو أقصر من سابق الذكر وفتحته أصغر قليلا وأعدادها أكبر وتقع على ارتفاع ثمانية أمتار من سطح الأرض وكل منها يبعد عن الآخر بمقدار ١٣٠سم، علما بأن عدد من هذه الطلاقات أغلقت ولم يبقى منها إلا الأعداد التالية ضمن كل جهة على حده: - ستة طلاقات في جهة الجنوب، ثمانية في الجهة الغربية، وخمسة في الجهة الشمالية أما الجهة الشرقية ففيها " ١١ طلاقة" والمفتوح منها سبعة فقط.

السقاطات

جزء مهم من أنظمة الدفاع المستخدمة في هذه القلعة وهي موجودة على الجهات الأربع وتتوسطها بشكل دقيق وأهمها فوق البوابة الرئيسة الشرقية. أما قياسات الأمامية فهي التالي: الارتفاع ١٩٠سم بما في ذلك سقف القبة الحامية وعرضها ١٨٠سم وهي بارزة للخارج بمقدار ٥٥سم عن سطح كل جدار وترتكز على ثلاث ركائز حجرية مشتركة مع الجدار لحملها واهم هذه الشبائح الحجرية الموجودتين على الأطراف وهما مزدوجتين لتحمل الثقل.

أما السقاطات الثلاث الأخرى فهي أقصر قليلا إذ تبلغ قياساتها ١٧٠سم ارتفاع و١٤٥سم عرضا مع عدم وجود قبة فوق كل منهم. مع العلم أن تلك القباب " المحقانية الشكل " متوضعة على الجدار الخارجي وبعضها فوق تلك السقاطات مفرغة من الداخل لحماية المقاتل في حالة الحرب وفي السلم لوقايته من الأمطار وأشعة الشمس.

ويلاحظ أن ارتفاع القباب ٤٧سم، أما الطلاقات الداخلية فتبلغ سعتها الخارجية ٩٩سم وارتفاعها ٩٦سم وعمقها للداخل ١١٨سم.

أما الطلاقات الجنوبية فتبلغ قياساتها كالتالي: - الارتفاع ١,٤-١,٥سم العرض ١٠٧ سم، (على شكل شباك غير نافذ) عرض الفتحة ١٢سم.

المواد المستخدمة في البناء

استخدمت الحجارة الكلسية ذات اللون المائل للبرتقالي وكما أسلفت فبعضها منحوت بشكل برواز مشطوق على شكل " طبزه " وهي متفرقة وموزعة في الجهة الشرقية الأمامية وعلى الأرجح أنها معاد استخدامها ومنقولة من موقع مملوكي أقدم، وفي معظمها تتراوح قياساتها ٣٠سم × ٦٠سم، ويلاحظ استخدام الملاط والحشوات الحجرية في تغطية العيوب الموجودة في مداميك الحجارة غير المنحوتة جيدا ونسبة الشيد المطفي إلى رمل السيل الناعم ١/١ تقريبا.

أما الحجارة البازلتية فقد استخدمت في الشبائح الحجرية الحاملة للأسقف في الغرف الموجودة في زوايا القلعة الأربع وعلى الأرجح أنها أحضرت من منطقة عنيزة البازلتية السوداء. أما الطين العادي فقد استخدم بشكل جزئي لسد الثغرات الداخلية ووضعها ما بين المداميك المكونة للجدار على شكل طين.

مصادر المياه في القلعة

كما هي باقي القلاع والحصون فإن قلعة القطرانة لها بنية تحتية متكاملة لرفدها بالمياه النظيفة، لاستخدامها للشرب والسقاية الخاصة بالدواب والإنسان على السواء، وفي الموقع سد لحجز المياه وتحويلها عبر قناتين مسقوفتين وحوض للتصفية وبركة عملاقة، وهذه هي الطريقة المثلى للحصاد المائي واستثمار الواقع الموضوعي بكل أبعاده نتيجة تفاعل الإنسان مع البيئة...

وتبعد البركة الرئيسة عن القلعة بمقدار ٢٦م باتجاه الجنوب الغربي، أما السد فيقع بإتجاه الجنوب الشرقي على بعد ٧٥م. وسآتي هنا على شرح كل الأمور المتعلقة بالمصادر المائية على كل حده: -

أ- البركة الرئيسة

تبلغ قياسات البركة ٧٠م طولا ومثلها عرضا أي أنها مربعة الشكل أما الارتفاع الحالي (عند دراسة الموقع عام ١٩٩٥م) ٥٢٠سم مع العلم بوجود طمي ترابي متراكم لا يقل عن متر حتى أرضية البركة، وننزل إلى البركة عبر درج مبني من الحجر بمقدار ٢٥درجة ويقع في زاوية البركة الشمالية الشرقية، أما جدران البركة فهي مبنية من الحجر المتنوع البازلتي والكلسي ومقصور بقصارة جدارية مكونة من طبقتين خشنة وأخرى ناعمة. كما يلاحظ وجود غرفة مشيدة بالحجارة في نهاية العهد العثماني مزامنة لسكة الحديد الحجازية في الجهة الغربية الشمالية بمحاذاة جدارها الخارجي كانت تستخدم لضخ المياه لمحطة سكة الحديد والقطار على السواء ولا يزال بداخلها المضخة الحديدية التي كانت مستخدمة حتى بداية الخمسينات من القرن المنصرم وإلى جانبها غرفة مشيدة بالاسمنت بنيت لاحقا للمساعدة في عملية الضخ والتزويد أيضا.

بركة التصفية

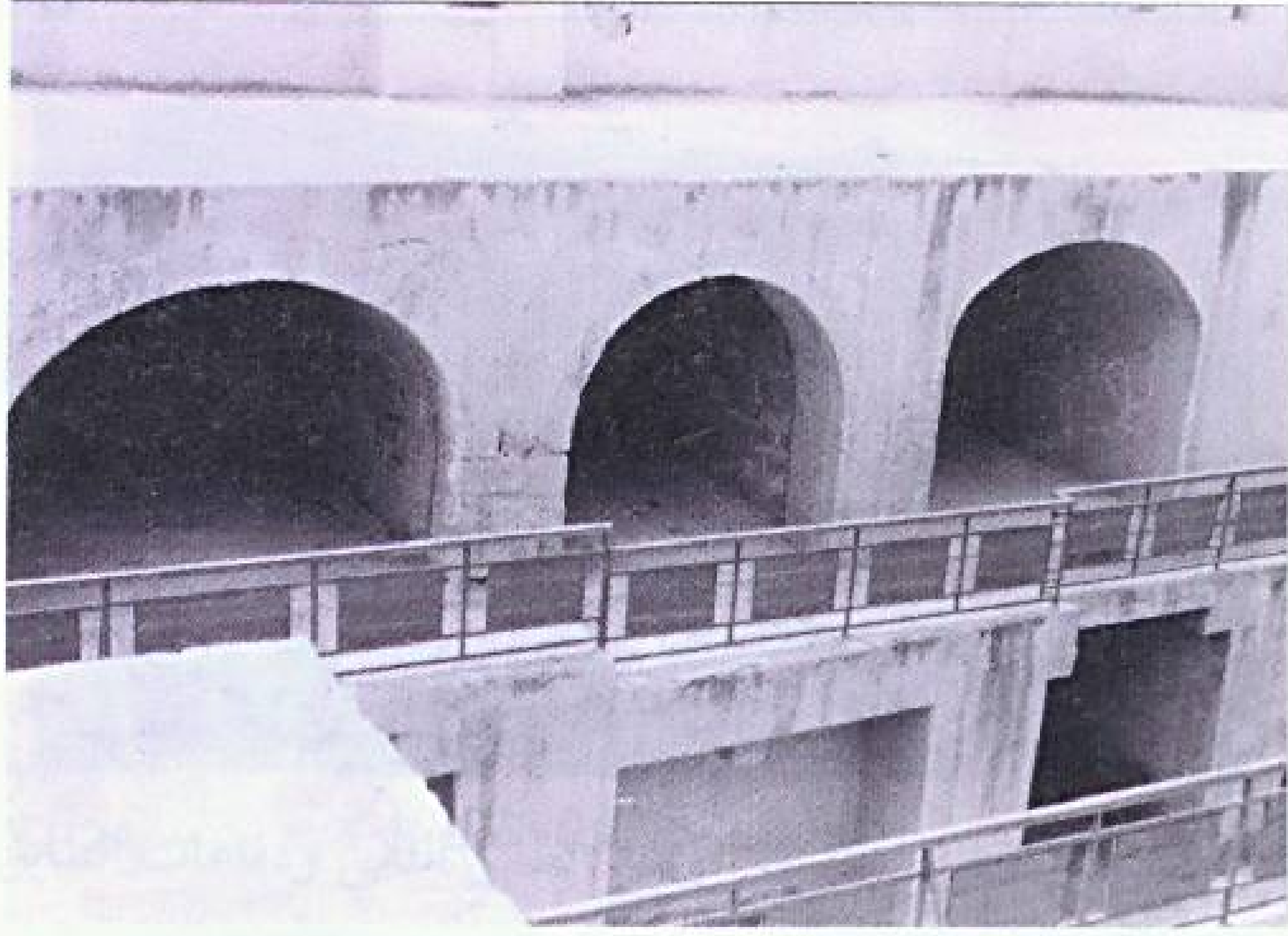
تقع هذه البركة المستطيلة إلى الشرق من البركة الرئيسة وهي بطول ٣٨م وعرض ٦٦٠سم وارتفاع ٢٤٠سم ولها عشر درجات وعرض جدارها متر تقريبا. وجدرانها مقصورة بطبقتين من الشيد المطفي ورمل السيل وتزود هذه المصفاة "البركة" قناة مياه مزدوجة تأتي من السد وهي مغلقة ومشيدة بطريقة متقنة وقوية، ويبلغ عرض القناتين معا مع الحاجز الفاصل بينهما ثلاثة أمتار

أي أن كل قناة بعرض ١٠٥سم والفاصل بينهما بعرض ٩٠سم كما يبلغ طولها ٤,٥سم وهي مبنية بعقد نصف برميلي مكون من ستة حجارة مرتكزة على كتفين حجريين منحوتين بشكل جيد، وارتفاع كل عين للقناتين ٦٠سم.

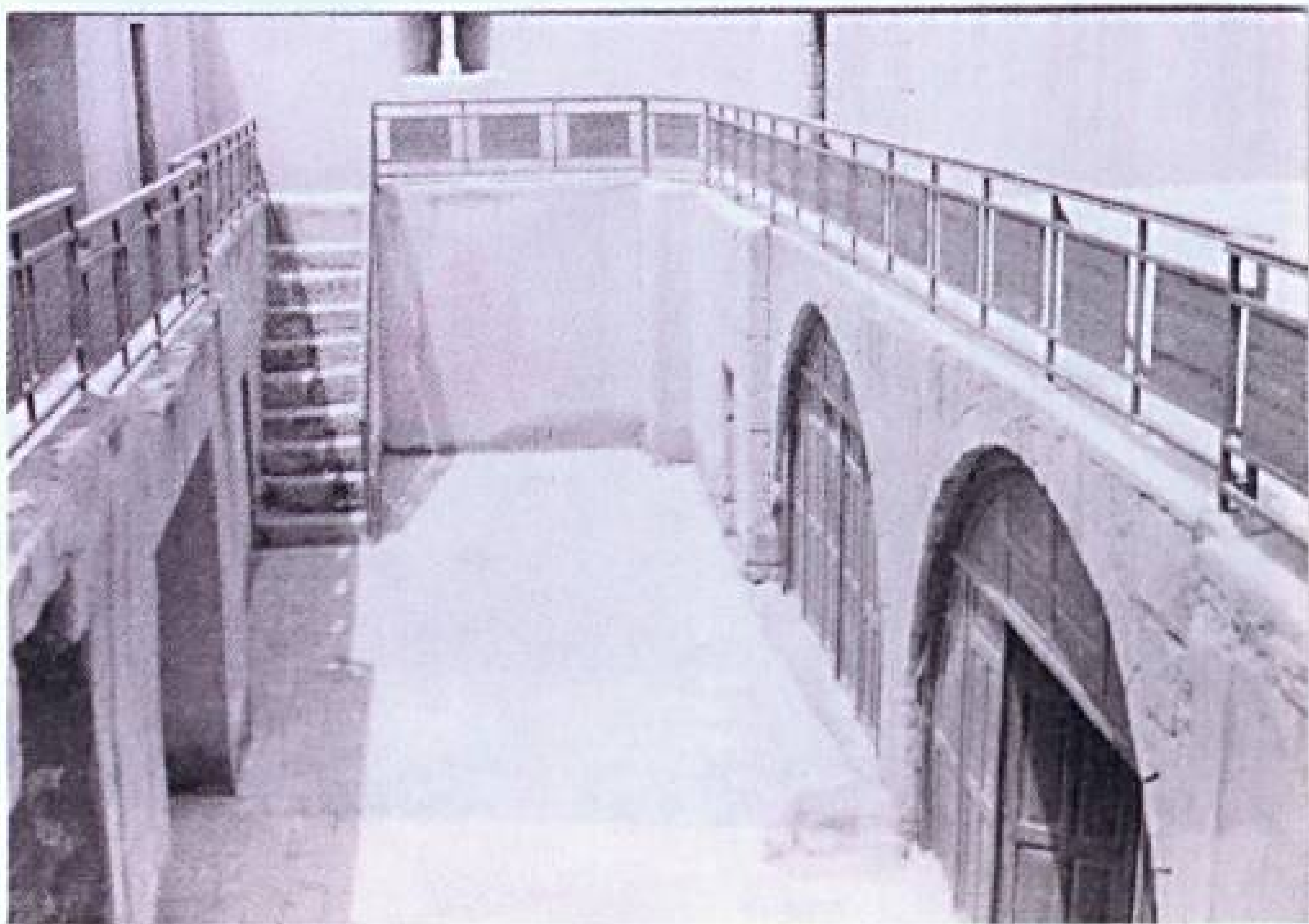
أما السد الذي يزود القناتين وصولا للبركة، فهو مشيد من الحجارة المنحوتة جيدا بارتفاع خمسة مداميك، ويبلغ طول السد المتبقي الآن ١٩,٢٠٠م وعرضه ٢٤٥سم وله قوس للسماح لدخول المياه وتحويلها إلى القناتين ويبلغ قطر هذه القوسة ٢٨٠سم، ويلاحظ وجود جرّار حجري لإيقاف ضخ المياه عند امتلاء البركة وتحويل المياه إلى الوادي.

أما مقبرة الموقع فتقع أمام القلعة والسد من الجهة الجنوبية الشرقية على تلة مرتفعة، وللأسف الشديد تعرضت للتخريب والتدمير نتيجة البحث عن الكنوز المزعومة مما أدى إلى تدنيسها وضياع معالمها رغم وجود عدد من مقابر الأولياء والشيوخ الصالحين الذين توفاهم الله أثناء أداءهم لفريضة الحج عبر العصور العربية الإسلامية.









قلعة القطرانة، البوابة والسقاطات

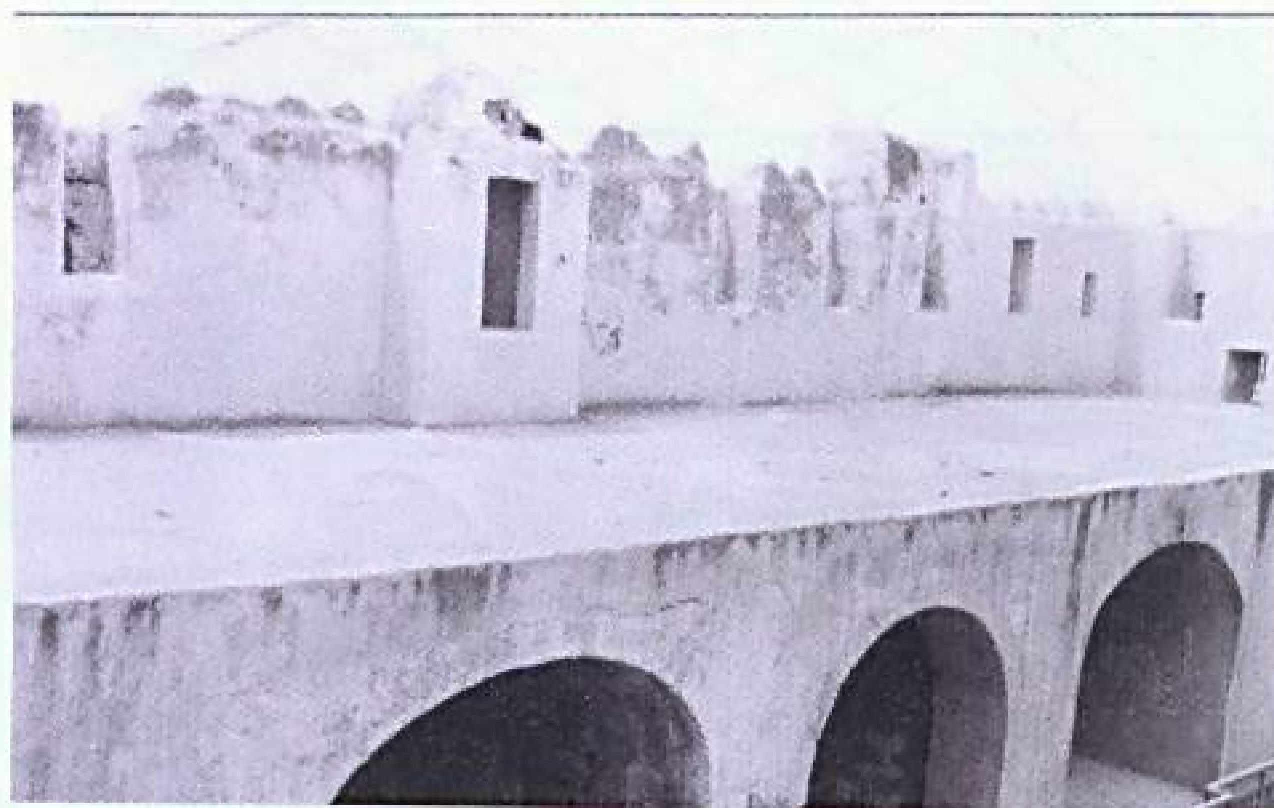


قلعة القطرانة السقاطة



الكتابات على الجدران





سد القطرانة وقنطرة تحويل المياه، اقواس الطابق الثاني ودفاعات الطابق الثالث



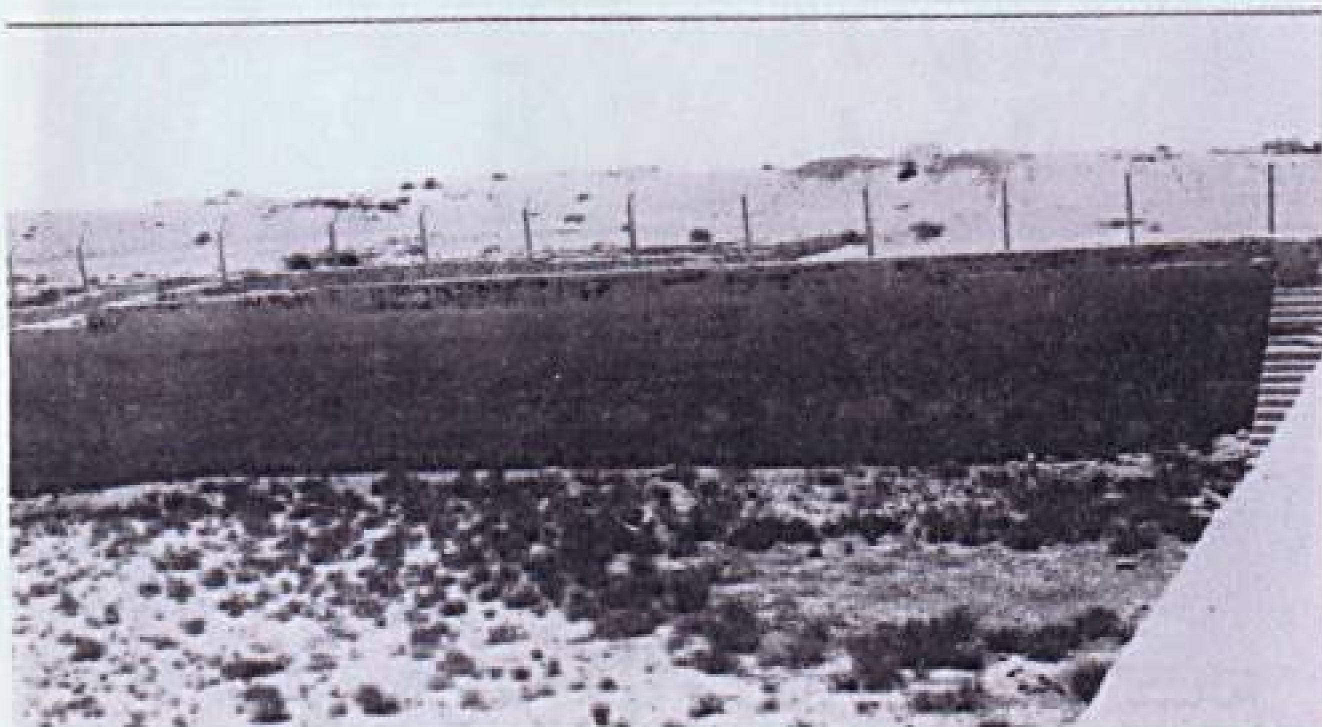
الطابق الثاني من جهة الشمال وتظهر بقايا الشبائح



غرف الطابق الثاني ونظام الطلاقات



بركة القطرانة الكبيرة



بركة القطرانة الكبيرة، ودرجها والمقبرة من خلفها



فتحة دخول المياه لقناة بركة القطرانة ويظهر المغلاق



القطرانه-قناتي المياه اللتان تصبان في بركة التصفية



بركة القطرانه الصغرى-المصفاة



القطرانه – الساحة السماوية والدرج



القطرانه – الجهة الجنوبية

القلاع العثمانية في جنوب الأردن: قلعة (خان) الحسا نموذجاً

محمد نايف العمايرة*

قلعة (خان) الحسا

تعد قلعة (خان) الحسا واحدة من القلاع (الخانات) العثمانية التي بنيت على امتداد طريق الحج الشامي المؤدي إلى الديار المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة وتقع اليوم إلى الشمال الشرقي من محافظة الطفيلة بحوالي (٦٠كم) عن مركز المحافظة وعلى بعد (٦كم) غربي بلدة الحسا وعلى الطريق الصحراوي المتجه من عمان إلى العقبة وكانت من المحطات الهامة القديمة على طريق البر الشامي [1]. (انظر الخريطة المرفقة).

ورغم إختلاف المؤرخين في تاريخ البناء، إلا أن الرحالة التركي سويله مزأوغلي وصف قلعة الحسا بعد زيارتها سنة ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م.

وقال: بنيت قلعة الحسا من الحجر الصلد وهي مربعة الشكل أبعادها ٢٥م، ٣٠م، وفي داخلها بئر ماء وناعور، والمحراب الموجود في داخل القلعة حُفرت عليه الكتابة الآتية:

* الأستاذ الدكتور

(١) سليمان القوابعة، محافظة الطفيلة، دار اليازوري العلمية، ط ٢٠١٢، ص ١٠٧، حتاملة محمد عبده، موسوعة الديار الأردنية، عمان، ٢٠١٠م، ط ١، ج ٢، ص ٧٧ حنان الكردي، القلاع الأثرية في الأردن، ١٩٧٤، ص ٣٤.

يا حسنة لله معبد بناه للتقوى وشيد
ملك يسمى المصطفى سلطاننا من نسل أحمد
فى جنة المأوى له دار منور مقعد[٢]

وهذه الإشارة تدل على أن هذه القلعة (الخان) قد تم بناؤه في عهد السلطان العثماني مصطفى الثالث (١١٧٠هـ/١١٨٧م-١٧٥٧هـ/١٧٧٣م).

وأكد على ذلك العالم النمساوي لويس موزيل (Lois Musil) الذي تحدث لنا سنة ١٩٠٧م عن نفس النقش، وقام برونوف بنشره في كتابه المقاطعة العربية[٣].

ولكن هناك إشارة أخرى عند ابن طولون تبين أن نائب دمشق خرج في سنة ٩١٠هـ لاستقبال الحجاج حيث يقول: (وحصل للوفد بذلك فرحٌ عظيم وأن النائب كان أقام بالحسا إلى أن وصل الوفد)[٤].

وهذه إشارة جعلت البعض يعيد بناء القلعة إلى العصر المملوكي.

ولكن هناك إشارة أخرى عند النابلسي الذي مرّ بالحسا سنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م، أثناء عودته من أرض الحجاز فقال بعد أن غادر عنيزة "حتى أصبح صباح السبت السابع والعشرين من المحرم فصلينا صلاة الصبح، ثم قطعنا جسراً هناك مبنياً بالأحجار الكبار، بحيث يصعب المرور عليه ويحتاج إلى كمال الحذار، ثم بعد طلوع الشمس بنحو نصف ساعة وصلنا إلى المنزل المسمى بالحسا- بالحاء والسين المهملتين- وفيه غدران كثيرة من الماء البارد العذب الزلال، وهناك جبال وتلال ومهاد، وقد نزل الحجاج هناك في أماكن متعددة، ولعلها سميت بالحسا لأن الناس يحتسون الماء منها للمنزل الذي قبلها فأنه ليس فيه ماء، أو أن أصلها أم الحصا، لكثرة ما يوجد فيها من الحصى

---

(٢) سويله مزاوغلي، الرحلة، ص ١٥٣، حاملة، موسوعة الديار الأندلسية، ج ٢، ص ٦٦.

(3) Musil,A., Arabia petraea vol-1-p85 Brunnow RE, die provincia,1905.

(٤) ابن طولون، شمس الدين محمد، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ، مصر، الشام)، ج ١، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٢٧٧.

والحجارة الصغار والكبار فحرفها الناس بالحسا. فنزلنا هناك في الخيام، وأخذت العين حضها من المنام، ولم نزل هناك إلى أن صلينا صلاة الظهر".

يشير النابلسي إلى إشارة في غاية الأهمية وهي أنه ذكر المكان الذي نزلوا فيه باسم المنزل المسمى بالحسا ولم يذكره باسم القلعة أو الخان وأن أقامتهم في الحسا كانت في الخيام، وهذا دليل على أن القلعة لم تكن مبنية خلال هذه الفترة وهي سنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م، وبالتالي تنفي ما ذكره ابن طولون والتي جعلت بعض المؤرخين يجعل البناء في العصر المملوكي، وبالتالي نؤكد على أن البناء تمّ في العهد العثماني، كما أشار النقش السابق.

ويؤكد ما ذكرناه على أن البناء تم في العهد العثماني، إشارة المكناسي إلى قلعة الحسا بعد أن مرّ بالمنطقة سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م، حيث قال "وبعد طلوع الشمس انحدرنا في مضيق بين جبال كثيرة الحجارة يسمونه بغاز الحسا، والحسا قلعة هناك بها بركة ماء وقلعة"[(٥)]. وذكر قلعة الحسا الرحالة محمد السنوسي الذي مر بالبلدة وهو عائد من الحجاز سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م وقال: (هذه قلعة حسنة البناء في بطن وادٍ بأرض جيدة واسعة)[(٦)].

الوصف المعماري[(٧)]

١- **من الخارج**: يتكون الموقع من مبنى القلعة (الخان) حيث أجزاء كبيرة منها مهدمة، كما وتضم بركة ماء صغيرة.

---

(٥) المكناسي، محمد بن عبدالوهاب بن عثمان (ت ١٢١٣هـ)،إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، ط ٢٠٠٣م، ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٦) السنوسي الرحلة الحجازية، ج ٢، ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٧) إسلام محمد عبيدات، الخانات الإسلامية خلال الفترة العثمانية في جنوب الأردن، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٨م، ص ٥٨-٥٩.

الواجهات الخارجية

أ. الواجهة الشمالية (الأمامية)

هذه الواجهة مهدمة تماماً يتعذر تحديد شكلها الدقيق، أنظر الشكل رقم (١/أ)، وتضم المدخل الرئيسي للقلعة (الخان) في وسطها إلا أنه هو الآخر مهدم، ولكن مقارنة مع واجهات البناء الأخرى فإن طول هذه الواجهة ٢٤م، وارتفاعها ٨,٢٥ تقريباً. ألا أن أعمال الترميم التي بدأت عام ١٩٩٥م أعادت إلى هذه الواجهة شكلها الطبيعي ولكن بارتفاع لا يتجاوز الثلاثة أمتار. انظر الشكل رقم (١/ب).

المدخل الرئيسي

بسبب انهيار الواجهة الأمامية للمبنى والتي تضم المدخل الرئيسي للخان فإنه من الصعب تحديد الأبعاد الدقيقة لمنطقة المدخل، ألا أن المدخل يقع تقريباً في وسط هذه الواجهة وأبعاده التقريبية ٣,٣٥م ارتفاعها × ٣,٣٥م عرضاً، وعلى ما يبدو أنه يتألف من أبواب كبيرة مبنية من الحجر الأبيض المنحوت من خلال الردم الساقطة منه. ولكن أعمال الترميم التي تمت للمبنى وضحت لنا المعالم الرئيسة لهذا المدخل كما هي في الشكل رقم (٥).

ب. الواجهة الغربية

يبلغ طول هذه الواجهة ٢٤م، وأقصى ارتفاع لها ٨,٨٥م، وتضم ثلاث فتحات شبابيك وسقاطة، ترتفع هذه الفتحات عن الأرض حوالي ٤م تقريباً، وأبعاد الفتحة الواحدة ٤٥سم طولاً × ٢٠سم عرضاً، أما السقطة فترتفع عن الأرض بمقدار ٣,٥م، وهي على شكل مستطيل أبعاده ١,٣٠م طولاً × ١,٧٥م عرضاً وفي نهايتها السفلية ثلاثة نتوءات حجرية تتدلى للأسفل بمقدار ٢٥سم

والمسافة بين كل نتوء وآخر ٥٠ سم، كما وتضم السقاطة فتحة أبعادها ٥٠ سم طولاً × ٤٠ سم عرضاً تتمركز في وسطها. أنظر الشكل رقم (٢).

ج. الواجهة الجنوبية

طول هذه الواجهة ٢٤م، وارتفاعها ٦,٨٥م حيث أن النهايات العلوية لها مهدمة، وتضم خمس فتحات أبعاد الفتحة الواحدة ٥٠سم طولاً × ٢٠سم عرضاً، وترتفع أربع من هذه الفتحات عن الأرض بمقار ٤م تقريباً، في حين أن الفتحة الخامسة في الزاوية الغربية من الواجهة تقع في قمة الواجهة تماماً. كما وتحوي الواجهة فتحة شباك ترتفع أيضاً حوالي ٤م عن سطح الأرض، أبعاد هذا الشباك ١,٨٥م طولاً × ١,٣٥م عرضاً، وله فتحة واسعة نهايتها العلوية نصف دائرية. انظر الشكل رقم (٣).

د. الواجهة الشرقية

يبلغ طول هذه الواجهة ٢٤م، وارتفاعها ٨,٢٥م وتضم ست فتحات صغيرة قياس الفتحة الواحدة ٢٠ سم طولاً × ١٠سم عرضاً، وترتفع هذه الفتحات عن سطح الأرض بحوالي ٤م تقريباً. انظر الشكل رقم (٤).

٢- من الداخل[٨]:

أ. الطابق الأرضي: انظر المخطط رقم (١)

هذا الطابق مؤلف من خمس غرف، بالإضافة إلى غرفة المدخل (البهو) وأربعة أواوين، وفناء مركزي مكشوف به بئر ماء مقام عليه بناء صغير، كما ويحوي درجين للصعود للطابق الأول. وفيما يلي عرض لهذه العناصر المعمارية:

---

(٨) إسلام عبيدات، الخانات الإسلامية، ص ٥٩-٦١.

١) غرفة المدخل

يقع البهو أمام المدخل مباشرة، حيث أن له سقفاً برميلي ارتفاعه ٢,٥م، ومكون من ريش حجرية طويلة مبنية على شكل قبو ومغطاة بطبقة من القصارة برتقالية اللون، وأبعاد البهو ٥,٨٠م طولاً × ٣,٣٥م عرضاً، أما أرضيته فهي من الحجارة المستوية.

٢) الفناء المركزي المكشوف

هو عبارة عن فتحة سماوية مربعة الشكل تقريباً، أبعادها ١٢,٠٥م طولاً × ١,١٥م عرضاً وأرضية مبلطة بالحجارة، وفي وسطه وعلى طول خط المدخل بئر ماء أقيم عليه بناء مستطيل الشكل أبعاده ٣,١٠م طولاً× ٢,٢٥م عرضاً وارتفاع البناء ١,٩٠م وهو ذو سقف حجري مستوٍ يحوي فتحة رئيسية أبعادها ٧٠سم طولاً ×٦٠سم عرضاً وهذه الفتحة تؤدي إلى قناة حجرية بجانب الحائط مطمورة تحت الأرض لتخترق الجدار الغربي متجهة نحو البركة، كما ويوجد درج جانبي من الجهة الشمالية للبئر عرضه ٧٠سم ومكون من ثماني درجات، وفي الجانب الغربي من البئر يوجد باب يؤدي إلى داخل البئر حيث أن عمق البئر حوالي ١٠متر تقريباً وسقف البناء الخاص بالبئر يقوم على قناطر حجرية. ويضم الجانب الجنوبي من الفناء درجين يقودان إلى الطابق الأول يقع أسفل كل درج قبو صغير.

٣) غرفة (رقم ٢)

تقع هذه الغرفة إلى الغرب من المدخل، والجدار الشمالي الخارجي لها متهدم تماماً مع الواجهة الأمامية للخان ولكن أعمال الترميم التي بدأت عام ١٩٩٥م أعادت لهذه الواجهة شكلها الطبيعي ولكن بارتفاع ٣م. كما شاهدها الباحث، انظر الشكل رقم (١).

أبعاد هذه الغرفة ٨,٨٠م طولاً × ٤,٥م عرضاً، ولها مدخل جانبي ذو عتبة علوية وعضادتين منحوتتين بحفر هندسي غائر، وفتحة الباب ٢ متر طولاً × ١ متر عرضاً (هذا وتتشابه أبواب الخان جميعاً من حيث الشكل والتصميم)، للغرفة سقف برميلي إلا أنه منهار تماماً وأرضية الغرفة مرصوفة بالحجارة.

٤) الأيوانات

تتشابه هذه الأيوانات جميعاً من حيث المساحة والتصميم، حيث أنها تفتح جميعاً على الفناء، وأبعاد الإيوان الواحد ٤,٦٠م طولاً × ٣,٤٠م عرضاً، والسقف في كل منها نصف برميلي، وأرضيته رصفت بحجارة مستوية تماماً.

٥) غرفة (رقم ٤، ٨)

الغرفتان متشابهتان من حيث الشكل والتصميم وأبعاد كل واحدة منها ٤,٢٠م طولاً× ٣,٩٠م عرضاً، وتغلق كل منها بواسطة باب عن الفناء، السقف فيها نصف برميلي في حين أن الأرضية مرصوفة بالحجارة.

٦) غرفة الإصطبل (رقم ٦)

تمتاز هذه الغرفة بمساحتها الكبيرة، إذ يبلغ طولها ٢١,٩٠م وعرضها ٣,٨٠م، وتقع في الجهة الجنوبية من الفناء، ولها مدخل يقع بين الدرجين اللذين يوديان للطابق الأول، كما وتحوي نافذتين يطلان على الفناء، في حين أن سقف هذه الغرفة على هيئة قبو نصف برميلي وأرضيتها مرصوفة بالحجارة مما يوحي بأن هذه الغرفة كانت تستخدم كإصطبل للحيوانات.

٧) غرفة (رقم ١٠)

تشبه هذه الغرفة غرفة رقم (٢) من حيث الحجم والتصميم، إلا أنها تختلف عنها من خلال وجود قنطرتين تحملان السقف نصف البرميلي

ويفصلان الغرفة إلى ثلاثة أجزاء متساوية، والسقف أيضاً فيها متهدم تماماً كذلك الحال بالنسبة للجدار الشمالي الخارجي فهو أيضاً منهار مع الواجهة الأمامية للخان ولكن أعمال الترميم التي بدأت عام ١٩٩٥م أعادت لهذه الواجهة شكلها الطبيعي ولكن بارتفاع ٣م. كما شاهدها الباحث، انظر الشكل رقم (١).

ب. الطابق الأول(٩): انظر المخطط رقم (٢)

معظم أجزاء هذا الطابق متهدمة تماماً، لذا فإن الغرف التي ما تزال قائمة تتوزع في الجانب الجنوبي المطل على الفناء، وهناك مقطع لجدار يقع فوق غرفة المدخل (البهو) مباشرة حيث يضم نافذة أبعادها ٥٠سم طولاً × ٥٠سم عرضاً، ربما كانت تكون فتحة لساقطة لصب الزيت الحار. الجزء الجنوبي من الطابق يتألف من سبع غرف برميلية الشكل هي كما يلي:

١) غرفة (رقم١)

أبعاد هذه الغرفة ٢,٨٠م طولاً ×١,٩٠م عرضاً وتحوي شباكاً صغيراً في الجزء الغربي منها.

٢) الغرفتان (رقم ٣، ٢)

لهاتين الغرفتين نفس الأبعاد والتصميم، وأبعاد الواحدة منهما ٣م طولاً ×٢,٨٠م عرضاً، وتحوي كل غرفة في جدارها الجنوبي شباكاً، أما مداخل هاتين الغرفتين متجاورتان، لكل مدخل فتحة باب (٢م × ١م) تعلوهما عتبة علوية، وعضادتان جانبيتان محفورتان بحفر هندسي غائر، والجدار الجنوبي لكل غرفة يضم فتحة شباك صغيرة.

(٩) إسلام عبيدات، الخانات الإسلامية ص ٦١-٦٣.

٣) المسجد (رقم، ٤): انظر الشكل رقم (٧)

المسجد على شكل مستطيل أبعاده ٣,٦٥م طولاً×٢,٨٠م عرضاً، وأرضيته مرصوفة وتبرز عن أرضية الطابق الأول بمقدار ١٠سم، ومعظم جدران المسجد مقصورة، وفي الجدار الجنوبي أي باتجاه القبلة توجد حنية محفورة بسمك الجدار هي عبارة عن محراب لهذا المسجد، أما السقف فهو نصف برميلي ويفتح مباشرة على ممرات الطابق الأول حول الفناء.

٤) الغرفتان (رقم ٥، ٦)

تتخذ هاتان الغرفتان نفس الأبعاد والتصميم، وأبعاد الواحدة منهما ٢,٨٠م طولاً × ٢,٦٠م عرضاً، والسقف فيهما نصف برميلي، والجدار الشمالي في كل منهما الذي يضم المدخل متهدم تماماً. الجدار الجنوبي في كل غرفة يضم فتحة شباك، ألا أن شباك الغرفة رقم (٥) أكبر وأوسع حيث يبرز للخارج، ومدعم بدعائم بازلتية وحجرية وعتبتين من الحجر تشكلان عقداً لهذا الشباك، في حين أن الشباك الغرفة رقم (٦) صغير جداً.

٥) الغرفة (رقم ٧)

أبعاد هذه الغرفة المستطيلة الشكل ٣م طولاً ×٢,١٠م عرضاً، وتحوي شباكين في الجدارين الجنوبي والشرقي، أما الجدار الشمالي فهو منهار تماماً، والسقف فيها نصف برميلي والأرضية كباقي الغرف مبلطة بالحجارة.

الجانب الشرقي من الطابق الثاني يخلو من معالم واضحة من البناء حيث أنه مهدم تماماً ما عدا بعض الدرجات التي تقع في الجانب الجنوبي الشرقي، وهي كباقي الأدراج مدعمة بقبو حيث أنه هو الآخر منهار، وهذه الدرجات عرضها ٣٠سم وتصل إلى الطابق العلوي.

ج. الطابق العلوي[١٠]

لم تبق ملامح واضحة من هذا الطابق إلا في الجانب الجنوبي حيث توجد بعض الفتحات التي لها نفس الشكل والتصميم، كما وتوجد دعائم حجرية من البازلت وجـدت في
الجانب الشرقي والغربي من هذا الطابق.

مراحل الترميم

قام بأعمال الصيانة والترميم مكتب آثار الطفيلة، وتمت الصيانة لقلعة (خان الحسا) في الفترة الواقعة ما بين ١٩٩٥/٧/١ ولغاية ١٩٩٥/١٠/٥، كما يلي:

أولاً بدأ العمل بتاريخ ٩٥/٧/١ بإشراف مفتش آثار الطفيلة وعشرين عاملاً حيث تم إزالة الأتربة والحجارة المتساقطة في كافة الغرف والقاعات والأقبية الداخلية.

ثانياً تم تعبئة الحفر المجاورة لواجهات القلعة (الخان) الثلاثة.

ثالثاً إعادة وترميم الدرجات السبع للبئر الذي يتوسط الفناء الداخلي للقلعة (الخان) وذلك باستعمال مادة الأسمنت الأبيض والشيد.

رابعاً إعادة وترميم الدرجات التي تصل الطابق السفلي بالعلوي والتي تتكون من إحدى عشرة درجة.

خامساً تم إعادة بعض البوابات الداخلية والتي لا تحتاج إلى دعامات خشبية، وذلك بإعادة بعض الحجارة المتساقطة.

سادساً تم تعبئة الفجوات المتواجدة في الواجهة الشرقية والغربية والتي كانت تشكل خطراً على هاتين الواجهتين.

---

(١٠) إسلام عبيدات، الخانات الإسلامية، ص ٦٣-٦٤.

سابعاً تم تعبئة التصدعات والتشققات الناجمة عن العوامل الطبيعية في أجزاء من الواجهة الغربية.

ثامناً تم ترميم وإعادة بعض الحجارة لقناة الماء التي تصل البركة الخارجية بالبئر الداخلي وإزالة الأتربة عنها.

وفي المرحلة الثانية قامت دائرة الآثار العامة في العام ٢٠٠٣م، على ترميم الواجهة الشرقية منها لأنها الجزء الأكثر الذي تعرض للدمار بفعل الزلازل والتخريب وبلغ عدد مداميك الجدار ٢٦ مدماك، وتتألف الواجهة الواحدة من حجارة كبيرة مشذبة وتم استخدام الإسمنت الأبيض والأسود في إعادة ترميم الجدران وتثبيت الحجارة بطريقة لا تشوه الأثر ليحافظ على جماليته وقيمته الأثرية إلى جانب تعبئة التصدعات والتشققات الناجحة عن العوامل الطبيعية خصوصاً في الواجهتين الجنوبية والغربية بمادة الملاط، إضافة إلى ترميم الدرجات المؤدية للبركة إلى جانب بناء أربعة مداميك من الحجر في الجهة الشمالية للبركة[١١].

ملحقات الخان[١٢]

١. البركة

تعتبر البركة التابعة لقلعة (خان) الحسا صغيرة مقارنة مع برك الخانات الأخرى، إذ تبعد حوالي ٤٨م مباشرة شرق المبنى، وهي عبارة عن مربع طول ضلعه ٢٣م تقريباً، وقاع البركة ملئ بالطين إذ لا يمكن معرفة العمق الصحيح لهذه البركة بسبب الطمم الموجود فيها، إلا أنها تصل في بعض المناطق إلى ٣م وتبلغ الجدران فيها ٧٥سم، وبنيت هذه الجدران من الحجر الجيري وتم

---

(١١) عادل خليل القطامين، واقع السياحة في محافظة الطفيلة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، ٢٠٠٧م، ص ٦٦.

(١٢) إسلام عبيدات، الخانات الإسلامية، ص ٦٤-٦٥.

قصارتها من الداخل. كما توجد في الجزء الشمالي الغربي من البركة مجموعة من الدرجات تنزل للأسفل على طول الجدار الغربي، وتصل بالجدار الغربي قناة عرضها ٢٥سم وطولها ٤,٣م تتجه غرباً نحو القلعة (الخان).

٢. الجسر (انظر الشكل رقم ٦)

على بعد نصف كيلومتر إلى الشمال من القلعة (الخان) تسير طريق مرصوفة بالحجارة فوق جسر يقع فوق وادي الحسا، حيث أن طول الجسر أكثر من ٣٠م وعرضه ١٢م. الجسر مثبت بواسطة قنطرتين واحدة كبيرة في الوسط وأخرى صغيرة في الجزء الشرقي منه، وقد بني الجسر من الحجر الجيري والملاط، ويخدم هذا الجسر الخان في كونه تسير فوقه الطريق التي تؤدي مباشرة إلى مدخل القلعة (الخان)، وتحول دون وقوع ركب القافلة في مجرى الوادي الذي تغمره المياه وقت الفيضانات. والجسر مهدم تماماً وتجري عمليات ترميم وإعادة بناء له (انظر الشكل رقم ٨) كما شاهدها الباحث في آخر زيارة له للموقع بتاريخ ٢٠١٤/١/٩م.

ويبين الجدول التالي الغرف وأعدادها في قلعة (خان) الحسا:

جدول (الغرف وأعدادها في قلعة (خان) الحسا)

شكل الغرفة	عددها
الإيوان	٤
غرفة ذات سقف نصف برميلي	٧
غرفة ذات قناطر وعقود	٢
غرفة الإصطبل	١
غرفة المسجد	١
مجموع الغرف	١٥



(شكل رقم ١/أ)

منظر عام لقلعة (خان) الحسا من ناحية المدخل الرئيسي قبل الترميم (حنان الكردي) القلاع الأثرية في الأردن ١٩٧٤، ص٣٤.

شكل رقم (١ب): الواجهة الشمالية (الأمامية) لقلعة (خان) الحسا بعد عمليات الترميم



شكل رقم (٢) الواجهة الغربية لقلعة (خان) الحسا



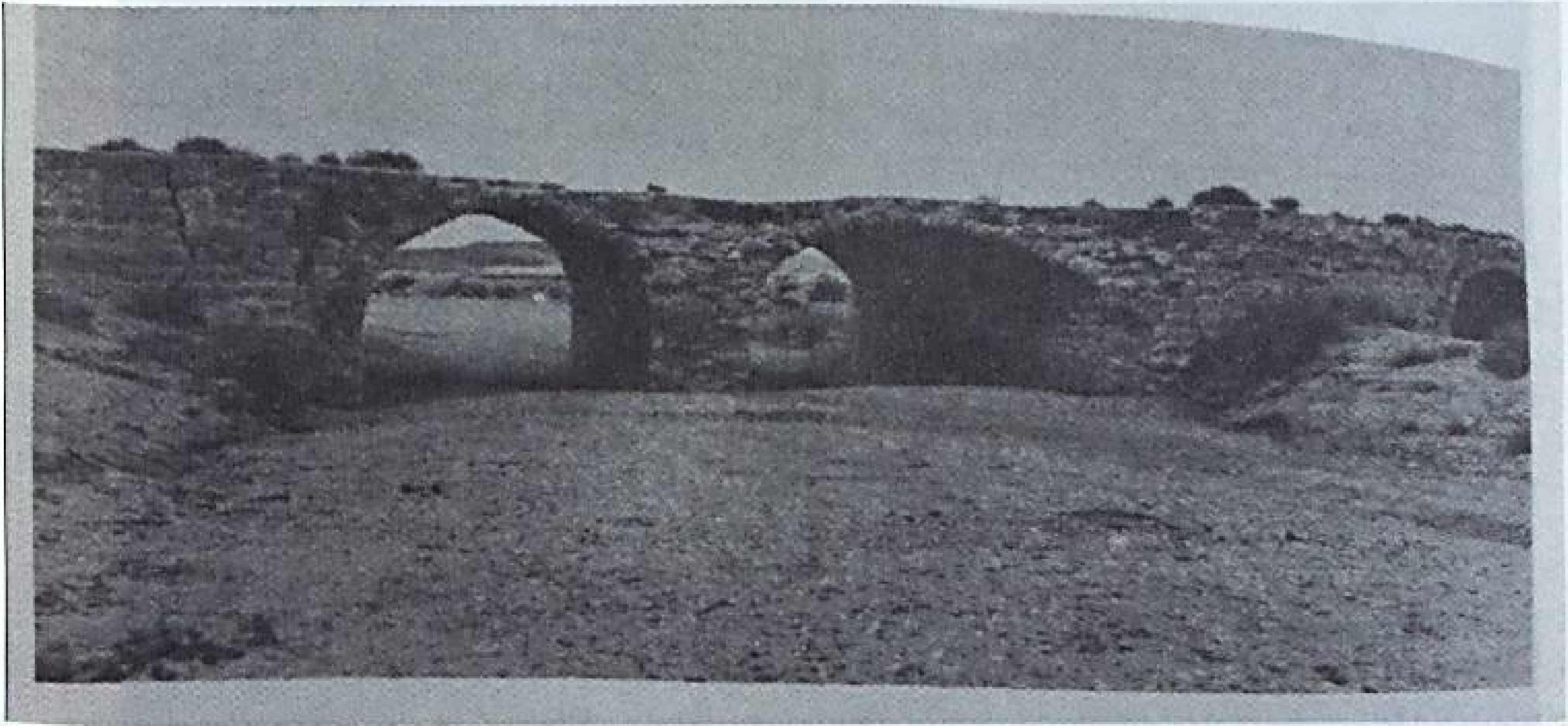
شكل رقم (٣) الواجهة الجنوبية لقلعة (خان) الحسا



شكل رقم (٤) الواجهة الشرقية لقلعة (خان) الحسا



الشكل رقم (٥) المدخل الرئيسي

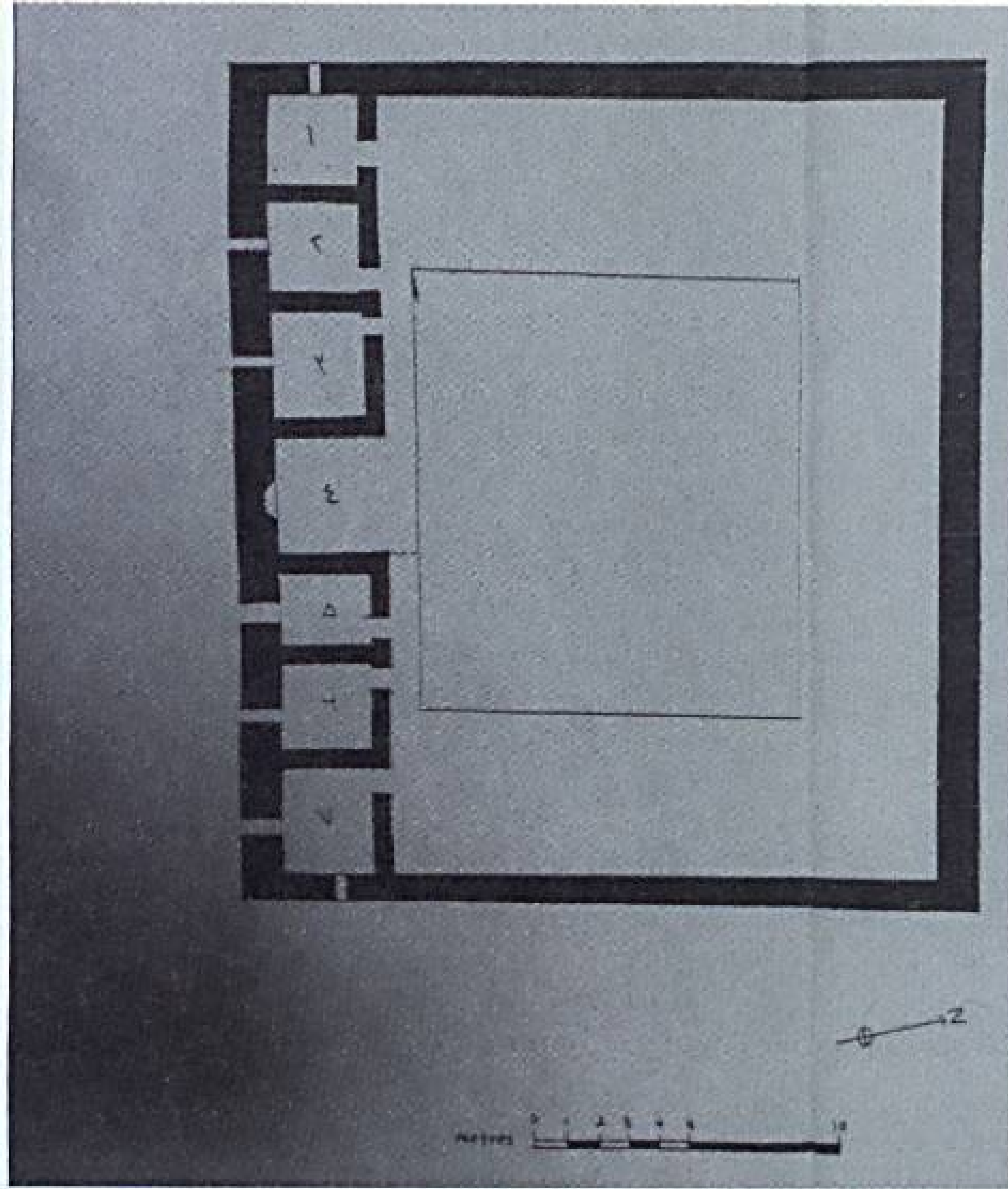


الشكل رقم (٦)

الجسر الذي يعلو مجرى الماء إلى جانب قلعة الحسا /حنان الكردي، القلاع الأثرية في الأردن ١٩٧٤، ص٣٤.

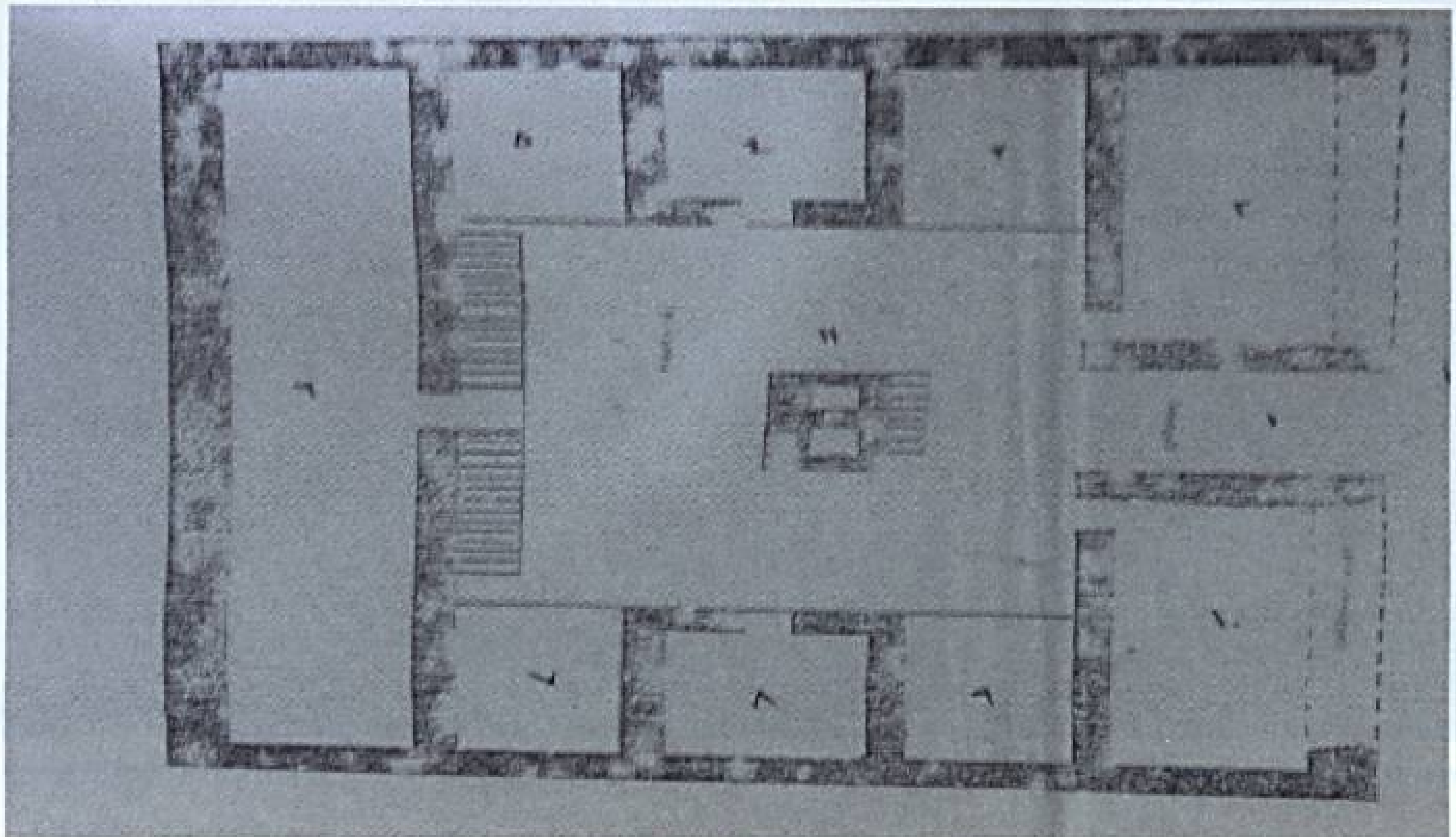


الشكل رقم (٧)



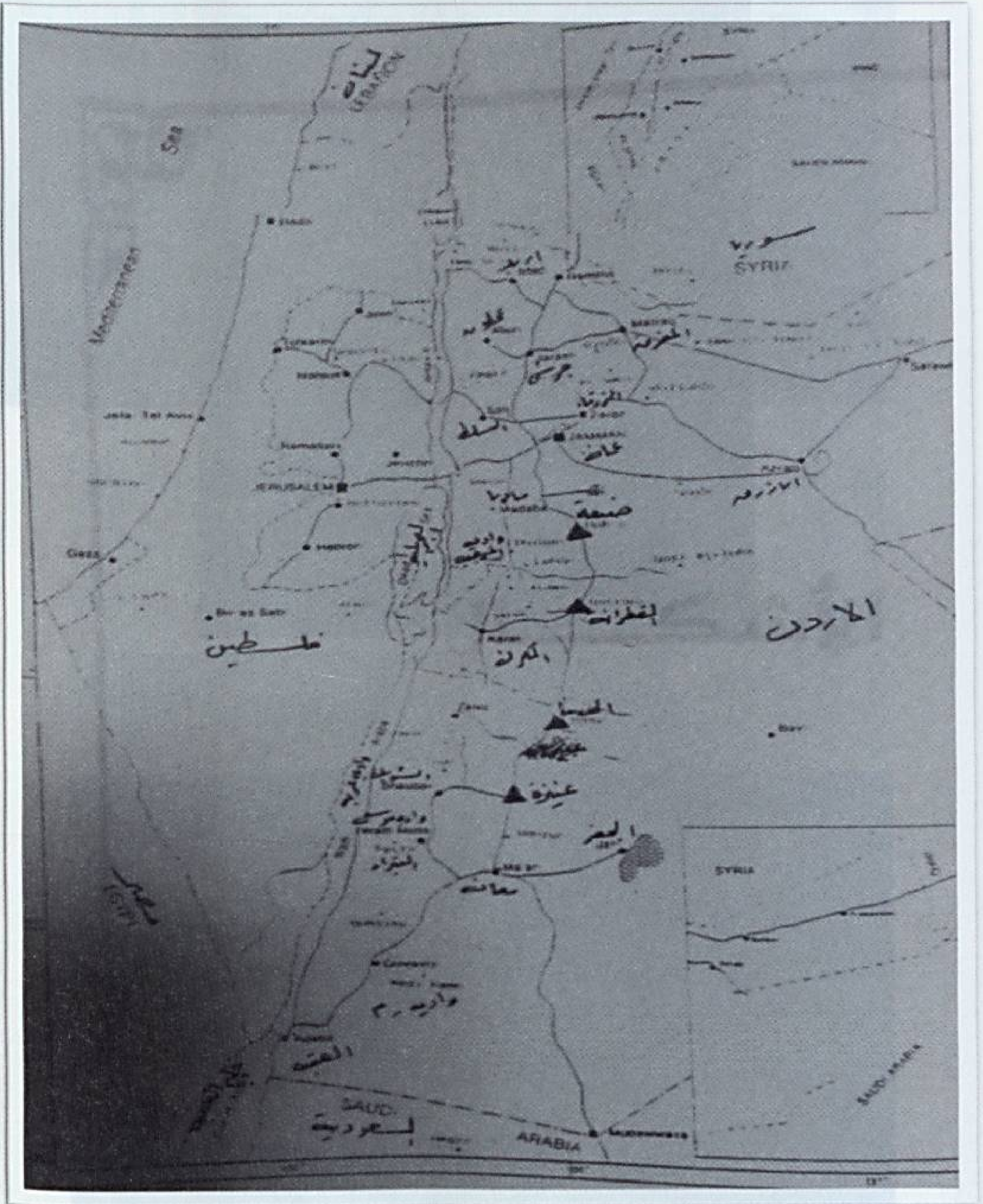
مخطط رقم (١)

مخطط الطابق الأرضي لقلعة (خان) الحسا



مخطط رقم (٢)

مخطط الطابق الأول لقلعة (خان) الحسا



خريطة الأردن

ومواقع القلاع (الخانات) في جنوب الأردن

القلاع (الخانات) العثمانية على طريق الحج الشامي في الأردن

خريطة الأردن

مواقع القلاع (الخانات) في جنوب الأردن

قلعة ضَبْعة العثمانية (دراسة أولية)

إحسان ذنون عبد اللطيف الثامري*

في منعزلٍ عن العمران، إلى الجنوب الشرقي من العاصمة الأردنية عمّان، وعلى بُعد خمسين كيلو متراً منها، يقوم بناء تاريخي قديم، يُعرف بقلعة ضَبْعة، وهو شرقي طريق عمان - العقبة الصحراوي، ويرتبط به بشارع فرعي ضيق غير ممهد. هذا المكان من أراضي لواء الجيزة، ويبعد عنها ١١ كيلومتراً.

لا يُعرف متى أُطلق اسم ضَبْعة على هذه المنطقة، حيث إنها في المدونات الأقدم قِياد. مرّ بها ابن طولون الصالحي في رحلته إلى الحج سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م، فقال: «ثم رحلنا فمررنا على خان خراب يُسمى خان قِياد وقت الغداء، ثم على وادي الشواقة»[١] (المعروف الآن بسواقة). وبعده بستّ سنين أي في سنة ٩٢٦هـ/١٥٢٠م، مرّ بها ابن الشماع، فقال: «فاستمرينا في السير إلى أن نزلنا عند خان قِياد -وهو خان خراب- قبل غروب الشمس بنحو ساعة»[٢]. وذكرها الجزيري (ت نحو ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م) بعد رأس بلاطة وهي

---

* الدكتور.

(١) أسجل خالص الشكر والامتنان لصديقي الدكتور المهدي عيد الرواضية لإرشاداته الكثيرة في هذه الورقة، وكذلك صديقي السيد رضوان محمد ملحاق الجبور من بني صخر، وصديقي الأستاذ عصام بهزاد ارشيد لمعاونتهما ومساعدتهما الجمّة في زيارتي للقلعة. كما أقدم الشكر والتقدير للسيد أكثم سليمان العبادي من دائرة الآثار العامة بوزارة السياحة والآثار لتسهيله مهمة زيارة القلعة.

(٢) ابن الشماع، عمر بن أحمد بن علي الحلبي (ت٩٣٦هـ/١٥٢٩م). عيون الأخبار فيما وقع لجامعه في الإقامة والأسفار، مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية، ورقة ٣٤٠.

أول بلاد البلقاء، قال: «ثم يرحل من رأس بلاطة، فيمرّ على خان قِياد سَحَراً، وينزل الركب وقت العصر بخان القطراني»[٣].

في حين ذكرها عددٌ من المستشرقين الذين مرّوا عليها في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، فذكروها باسم البلقاء، مثل الرحالة الألماني أولريش سيتزن[٤] Seetzen – وهو أول رحالة أوروبي يزور الأردن – الذي مرّ بها سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م. والسويسري بيركهارت Burkhardt الذي زارها بعد ستة أعوام أي سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢ وقال عنها خلال وصفه طريق الحج من دمشق إلى مكة المكرمة: بعد مسيرة يوم من قلعة الزرقاء تصل القافلة إلى قلعة البلقاء. إن لفظة (قلعة) تطلق في هذه الجهات على كل بناء حوله سور، وله ساحة في وسطه، والسور أحياناً يكون من الحجارة، وغالباً ما يكون من الطين، والمهم أن يصدّ العربان المغيرين. وبجوار قلعة البلقاء توجد بركة ماء كبيرة. وقائد القلعة غالباً ما يعين من عسكر دمشق. ويستخدم عرب البلقاء القلعة كمخزن لبضائعهم التي سيروجونها على قافلة الحج حين نزولها على قلعة البلقاء. وتنتهي سلسة جبال البلقاء بمحاذاة الجهة الغربية للقلعة، حيث يقيم بدو البلقاء في خيامهم التي يضربونها حول القلعة[٥].

وذكرها بهذا الاسم أيضاً داوتي Doughty الذي وصفها خلال زيارته للمنطقة سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م قائلاً: «وصلنا إلى قلعة البلقاء منتصف الليل حيث مخيمنا بجانب القلعة التي ترتفع عن سطح البحر ٢٨٧٠ قدم، وتقع القلعة التي رممت

(٣) الجزيري، عبد القادر بن محمد الأنصاري، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة، أعده للنشر حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٩٨٣م. ج ٢، ص ١٢٦٦.

(٤) أو الحاج موسى كما سمّى نفسه. طاف ببلدان كثيرة من العالم الإسلامي، ثم فُقد أثره في اليمن سنة ١٨١١م لارتياب الإمام والناس منه.

(٥) بيركهارت، جون لويس، رحلات في الديار المقدسة من العالم الإسلامي والنوبة والحجاز، ترجمة فيصل أديب أبو غوش، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠٥، ج ١، ص ٣٠٤.

حديثاً إلى الشرق من القدس مباشرة، فوق البحر الميت مباشرة»[٦].

وكذلك الرحالة التركي سويله مز أوغلي الذي زار بلاد الشام سنة ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م، فقد مرّ بها، ووصفها، وعلّق على بعض الأمور المتعلّقة بها، قال: هذه القلعة تم ترميمها حديثاً، ولهذا فهي منتظمة. يُقال: إنه كان فيها عددٌ من الحراس.

هي مربعة الشكل، طول ضلعها ٣٦ متراً[٧]. مبنية من الحجر الصَّلْد.

أمام القلعة توجد بركة تم ترميمها: ١٠م×١٥م بعمق ٦ أمتار، مملوءة بالماء، إلا أن وقوع الجراد فيها أدى إلى تعفّنها؛ ولذلك لا يمكن المرور من جانبها. وقد وقع فيها جرادٌ قبل أسبوع.

محافظو القلعة الأصليون ينطلقون من الشام برفقة الصرّة السلطانية[٨]، ويتقدمون قبل الوصول إلى القلعة ببضعة ساعات، ويفتحون باب القلعة ويكنسونها، ثم ينتظرون القافلة، ويبقون في القلعة لحين عودة الصرّة السلطانية. وعند عودة الصرّة يرافقونها ويأتون إلى دمشق.

وهكذا يبدو أن المحافظين الذين يتم تعيينهم في كل قلعة من القلاع من قبل الدولة بمهمة يوزباشي (رأس مائة/ نقيب)[٩] أو جنود وبراتب يبلغ عدة

---

(6) Doughty, Charles. Travels in Arabia Deserta, Dover publications, New York, 1979 p.57

(٧) طول ضلع القلعة ٢٤-٢٥ متراً كما سنرى بعد قليل، ولعل هذا الرقم الوارد في الرحلة خطأ من أحد الذين عملوا على إخراج هذه الرحلة من صاحب الرحلة نفسه إلى الناشر.

(٨) الصرّة السلطانية: مصطلح يعني كيس النقود الذي اعتادت الحكومة العثمانية إرساله إلى أهالي الحرمين الشريفين سنويا في موسم الحج، وتُسمّى (معلومية) أيضاً. وخاصة بعد أن دخل الحجاز تحت سيطرة العثمانيين، حيث أصبحت الصرّة السلطانية منتظمة، ومن رسوم الإدارة العثمانية الثابتة. تفصيلات أكثر عنها في مقدمة مترجم رحلة سويله مز أوغلي، ص ٦٧.

(٩) من تعليقات مترجم الرحلة.

مئات من القروش[١٠].

كما أن برونو Brunnow الذي زار المنطقة سنة ١٣١٩هـ/١٨٩٨م وفحص بعض الجوانب الأثرية في الموقع ونشرها، أطلق عليها قلعة البلقاء أيضاً[١١].

ويعضد هذا الاسم أيضاً التقريرُ المرفوع إلى محمد علي باشا في ٢٧ صفر سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م، والمحفوظ ضمن وثائق قصر عابدين، حيث ذكرها باسم البلقاء أيضاً، ووصف حالتها وأوصى بصيانتها[١٢].

ولكن اسم خان قِياد وقلعة البلقاء يختفيان فجأة، ليظهر اسم قصر ضَبْعة وقلعة ضَبْعة. ولعلّ من أوائل من ذكره بهذا الاسم هنري فيلد Henry Field الذي زار المكان سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م وقال عنه: حصن قديم يسمى قصر ضَبْعة، جُدد سنة ١٧٦٧م. بالقرب منه بركة للمياه. إن البناء عظيم مدهش. وهناك شرافات أعلى السطح، جوانب الغرف لم تسقط بعد، وهناك سلالم جيدة البناء تناظر تثبيت السقوف، فهو بناء نموذجي للحجاج، وفي نهاية الصحن توجد قنطرة استخدمت لبيع السلع منذ القدم، وهناك أبواب خشبية جميلة في مدخل البناء. وتحدث كذلك عن الإسطبل[١٣].

وقال عنها عبد الله الغازي المكي (ت١٣٦٥هـ/١٩٤٦م) الذي وصف طريق الحج الشامي عبر سكة حديد الحجاز: «بعد الخروج من عمّان، يتّجه

---

(١٠) سويله مز أوغلي، سليمان شفيق بن علي كمالي، رحلة سويله مز أوغلي إلى بلاد الشام (١٣٠٧هـ/١٨٩٠م)، ترجمة فاضل مهدي بيات، منشورات جامعة آل البيت، الأردن، ٢٠٠٠، ص ١٤٦. ويؤسف أن الترجمة العربية ينقصها مما يتعلق بالقلعة ما يقارب الصفحة من الأصل، لم يستطع مترجمها الكريم من الوصول إليها كما قال.

(11) Brunnow, R. E. Die provincia Arabia, auf Grunds Zweier in Den Jahren 1897 und 1898 Unternommenen Reisender, 1905, p.74.

(١٢) أصل هذا التقرير محفوظ ضمن وثائق قصر عابدين، ومنه صورة في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية.

(13) Field, North Arabian Desert Archaeolgical Survey 1925-50, Cambridge, MA, Peabody Museum, 1960 p.84.

الخطّ نحو الجنوب صاعداً سهل الصحراء المائل، فيمرّ من نفق طوله ١٤٠متراً، ويترك بجانبه كثيراً من الآثار القديمة، منها المعبد اليوناني في قصر السهل، والمدينة القديمة في لُبَّن، وكذلك الخزان الروماني والقصر العربي في الجيزة أو قلعة الزيزاء، وقبل أن يصل الخط إلى قلعة ضَبْعة يميل نحو الشرق ويلتقي بأطراف وادي الموجب، وبعد ذلك يتّجه أيضاً نحو الجنوب، فيمرّ من خان الزبيب وقلعة القطرانة وقلعة الحسا...»[١٤].

وهذا ما جاء -أيضاً- في تقرير رُوتلج Routledge المنشور في حولية دائرة الآثار العامة[١٥].

وصف القلعة

تتكون قلعة ضَبْعة من طابقين يرتبطان بدرج يتألف من ١٧ درجة. وهي ذات شكل مربع بأضلاع (واجهات) أربعة طول كلٍّ منها ٢٤-٢٥متراً. وهناك بقايا أربعة أبراج كانت قائمة في أركان البناء. وإلى جانب القلعة بركتان للماء.

الواجهات الأربع

١. الواجهة الشرقية (الأمامية)

طول هذه الواجهة بما فيها البرجان ٢٤متراً، بارتفاع ٧,٥ متراً، وتضم المدخل الرئيس للقلعة، حيث يقع في وسط هذه الواجهة تماماً، وفوقه بقايا

---

(١٤) الغازي المكي، عبد الله بن محمد الحنفي (ت١٣٦٥هـ/١٩٤٦م) إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام، تحقيق عبد الملك بن دهيش، ج ٦، ص ٢٥٩.

(١٥) Archaeological explorations in The vicinity of khirbat Ath-thamayil- 1992 ADJXXXIX لسنة ١٩٩٥، ص ١٢٧-١٤٧ وقد ركّز فيه على العصور القديمة واللُقى الأثرية (قصر الضبعة ص ١٣٧).

سقاطة[١٦]. في الطابق العلوي ثلاثة شبابيك صغيرة ترتفع ٤,٦٠م عن سطح الأرض. وفي النهايتين الشمالية والجنوبية من الواجهة يقوم برجان، بقيت أطلالهما. في البرج الشمالي فتحة شباك ترتفع ٥,١٥م عن الأرض. أما البرج الآخر الواقع في النهاية الجنوبية، فيضم في أعلاه فتحة شباك وكلاهما بعرض ٣ أمتار. ويعلو هذه الواجهة صفٌّ من الشرّافات[١٧] الحجرية بيضوية الشكل. [انظر صورة رقم ٣]

٢. الواجهة الغربية (الخلفية)

هذه الواجهة طولها ٢٤متراً بما في ذلك الأبراج، وترتفع ٧,٥م، وتضم في وسطها دعامة حجرية تسند الجدار، ارتفاعها ٥,٢٠م، وعرضها ٢,٢٠م، وتبرز للخارج بمقدار ٢,٢م، وفي النهايتين الجنوبية والشمالية من الواجهة توجد بقايا برجين، البرج الواقع في النهاية الجنوبية- وهو أحسن أبراج القلعة حالاً - عرضه ٤م، ويضم فتحة صغيرة في أعلاه. أما البرج الواقع في النهاية الشمالية من هذه الواجهة فعرضه ٢,٧٠م ويضم أيضاً فتحة صغيرة بالارتفاع نفسه لفتحة البرج الجنوبي. كما تضم هذه الواجهة خمس فتحات شبابيك ترتفع ٤,٥م عن سطح الأرض.

٣. الواجهة الشمالية

طول هذه الواجهة ٢٤,٣٠م بما في ذلك البرجان، وترتفع ٧ أمتار عن مستوى الأرض. وقد قُسمت بمدماك حجري بارز على طول الواجهة عرضه ٣٠سم يقسم الواجهة إلى قسمين، يفصل الطابق الأرضي عن الطابق العلوي. ويضم الطابق العلوي ثلاث فتحات ترتفع جميعاً حوالي ٥,١٥م، وتضم

---

(١٦) السقاطة: شرفة بارزة في الجدران الخارجية للمباني، تجعل في أرضيتها فتحات، ليلقي منها المدافعون السهام أو الزيوت الحارقة. وتكون في أغلب الأحيان فوق المدخل الرئيس للمبنى.

(١٧) الشرّافات: من العناصر المعمارية في القلاع، وهي صف من الحجارة يُبنى في الأعلى، من أهم أهدافها احتماء المدافعين خلفها.

الواجهة في نهايتيها الشرقية والغربية برجين، تظهر بقاياهما بوضوح. وعلى ارتفاع ٥,٩٠م توجد بقايا ميزاب. كما أن في النهاية الغربية من البرج ميزاباً بارتفاع ٦ أمتار.

٤. الواجهة الجنوبية

طول هذه الواجهة ٢٥متراً بما في ذلك البرجان، وترتفع ٥,٣٠م وتضم على ارتفاع ٤ أمتار فتحتين لشباكين، وفي النهايتين الشرقية والغربية يقوم برجان، البرج الواقع في النهاية الشرقية عرضه ٣ أمتار، ويضم في أعلاه فتحة شباك ترتفع ٤,٧٠م، أما البرج الواقع في النهاية الغربية فعرضه ٤ أمتار، ويضم في أعلاه فتحة ميزاب ترتفع ٤,٧٠م عن مستوى الأرض.

المدخل الرئيس

يقع المدخل الرئيس في منتصف الواجهة الأمامية (الشرقية)، وهو مستطيل الشكل من الخارج أبعاده ٢,٣٠×١,٥٠، أما من الداخل فقنطري الشكل، أو نصف برميلي (قوس) ارتفاعه ٤,٣٠م وعرضه ٣ أمتار. ولفتحته عضادتان منحوتتان تعلوهما عتبة علوية ذات كورنيش محفور يبرز عن الواجهة بمقدار ٥سم وعرضه ٣٠سم، كما يضم المدخل عقداً مدبباً يرتفع عن عتبة الباب بمقدار ١,٣٠سم. وفي وسط العقد نحت لشكل نباتي. أما من الخارج فيحيط بالمدخل عضادتان منحوتتان، تعلوهما عتبة علوية عرضها ٢٠سم. كما أن في المدخل أثر لوجود باب عظيم وطلاقتين لا وجود لهما الآن. لكن هذا المدخل زُوّد بدرفتين من الخشب قميئتين مضافتين له حديثاً أساءت للقلعة ولم تؤد إلى حمايتها من العابثين. [انظر صورة رقم ٤]

الطابق الأرضي

وإذا دخلنا الطابق الأرضي وجدناه يتكون من بهو (مدخل)، وصحن (فناء)

أوسط مكشوف، وست غرف، وإيوان، وبئر ماء في وسط الفناء، ودرج يؤدي إلى الطابق العلوي.

- البهو (المدخل)

يرى الداخل إلى البهو قاعدتين لمصطبتين حجريتين على كل جانب من جانبيه، أُقيما بعد فتحة الدخول من الباب الخارجي مباشرة، ويتخذ البهو شكل قبو له سقف قنطري (برميلي) ويفتح مباشرة على الصحن. [انظر صورة رقم ٥]

- الغرفتان الجانبيتان

في كل جانب من جانبي البهو في الجهتين الشمالية والجنوبية غرفة جانبية، لكل منهما الحجم والتصميم نفسه، أبعاد الواحدة منهما ٧,٥م طولاً و٤,٢٠م عرضاً، والسقف في كل منهما نصف برميلي، وأرضيتهما ترابية غير مرصوفة، ولهما مدخلان متشابهان، فلكل مدخل فتحة مستطيلة تعلوها عتبة علوية وعضادتان جانبيتان منحوتتان بنحت هندسي غائر بسيط، وبجانب كل من المدخلين شباك يفتح على البهو مباشرة، أبعاد كل شباك ٦٠سم طولاً و٦٠سم عرضاً، و٦٠سم عمقاً. [انظر صورة رقم ٦]

- الصحن (الفناء)

وهو في وسط الطابق الأرضي. هذا الصحن عبارة عن ساحة مربعة الشكل تقريباً، أبعادها ٩ أمتار من الجهة الشمالية و١٠م من الجهة الشرقية، وأرضيته مبلطة بالحجارة المستوية. وفي مركز الصحن بئر أسطواني لتخزين المياه، وحول فوهته شكل هندسي ثماني الأضلاع. (مردوم حالياً). [انظر صورة رقم ٧، وصورة رقم ٨]

- غرفة رقم (١) (الشمالية)

تقع في الجانب الشمالي من الصحن، أبعادها ٩ أمتار طولاً و٣,٧٠

عرضاً، ولها سقفٌ مستو تسنده أضلاع من حديد، ارتفاعه ٣,٤٠م. وأرضيتها غير مبلطة بالحجارة. مدخل هذه الغرفة في الواجهة الجنوبية للغرفة (الواجهة الشمالية من الصحن)، وللمدخل فتحة مستطيلة الشكل من الخارج متران × متر، مقوسة من الداخل، ٢٤٠×١١٠، وعتبة علوية وعضادتان منحوتتان بنحت هندسي غائر. كما تضم هذه الواجهة من الخارج (المطلة على الصحن) شباكين للغرفة يفتحان على الصحن، الشباك الأول يقع على يمين الباب وأبعاده ٦٠سم طولاً و٣٠سم عرضاً بارتفاع ١,٧٠م، ويوازي ارتفاع الدرجة السابعة من الدرج الواقع على الجهة نفسها من هذه الواجهة. أما الشباك الآخر فهو أكبر بقليل ويقع على يسار الباب، أبعاده ٦٠سم طولاً و٤٥سم عرضاً، ويرتفع عن أرضية الغرفة بمقدار ٢,٩٠م. [انظر صورة رقم ٩]

- غرفة رقم (٢) (الجنوبية)

أبعاد هذه الغرفة ٨,٥ طولاً و٣,٨٠م عرضاً، سقفها منهار كلياً، وأرضيتها غير مبلطة، بابها مستطيل من الخارج، مقوس من الداخل، بالقياسات نفسها- تقريباً- للغرفة رقم (١)، لكن سقفها منهار تماماً.

- غرفة رقم (٣) بوجه الداخل من الجهة الشمالية

أبعادها ٧م×٤,٤٠ تقريباً، غير مبلطة، فتحة بابها مستطيلة من الخارج ٢,١٠×١متر، ومن الداخل قوس نصف برميلي، كما أن سقفها مقوّس وبه فتحة ناتجة عن انهدام، وشرخٌ سيعمل على هدمه إن لم يُرمّم. [انظر صورة رقم ١٠، وصورة رقم ١١]

- غرفة رقم (٤) بوجه الداخل من الجهة الجنوبية

تقع هذه الغرفة في الجهة الجنوبية من الصحن، وهي تشبه الغرفة رقم (٣) من حيث الحجم والتصميم، لكن سقف هذه الغرفة منهار جزئياً، وأرضيتها غير مبلطة، مدخلها في الجدار الشمالي منها (الواجهة الجنوبية من الصحن).

[انظر صورة رقم ١٢]

• الإيوان

يقع هذا الإيوان في وسط الواجهة الغربية من الصحن ويفتح عليه مباشرة، أبعاده ٥,٢٠ طولاً و٣,٥م عرضاً، وله سقف قنطري (نصف برميلي) وأرضيته مبلطة بارزة عن أرضية الصحن بنحو ١٣سم تقريباً. [انظر صورة رقم ١٣]

الطابق العلوي

يُصعد إلى الطابق العلوي بسلّم يتألف من ١٧ درجة، وتحت السلم كوّة أبعادها ٢,٣٠×١,٥. [انظر صورة رقم ١٤]

١. الواجهة الشرقية

تقابل الصاعد إلى الطابق العلوي. طول هذه الواجهة ٢٠م، وما تبقى من ارتفاعها ٢,٧٠م، تضم ثلاث فتحات لرمي السهام، أبعاد كلٍّ منها ٦٠سم طولاً و٦٠سم عرضاً من الداخل، أما من الخارج ٤٠×١٠ وترتفع هذه الفتحات ٤٠سم عن سطح الطابق. [انظر صورة رقم ١٥]

٢. الواجهة الغربية

طول هذه الواجهة ٢٠ متراً، وأدنى ارتفاع لها ٢,٧٠م، بينما أعلى ارتفاع باق منها ٤م تقريباً. بها ست فتحات لرمي السهام، ٢ علوية و٤ سفلية، أبعاد كلٍّ منها ٦٠سم طولاً و٥٠سم عرضاً، وترتفع هذه الفتحات عن أرضية الطابق ٥٠سم، ما عدا الفتحتين العلويتين فترتفعان ١,١٠سم. [انظر صورة رقم ١٦]

٣. الواجهة الشمالية

طول هذه الواجهة ٢٠,٢٠م، وترتفع ٢,٣٠م، بها ثلاث فتحات لرمي السهام، وتتشابه هذه الفتحات جميعاً من حيث الشكل والتصميم، فأبعاد كلٍّ منها ٦٠سم طولاً و٥٠سم عرضاً، وترتفع عن أرضية الطابق ٨٠سم. [انظر صورة رقم ١٧]

٤. الواجهة الجنوبية

لم أتمكن من الوصول إليها بسبب انهيار سقف الغرفة تحتها، لكنها مشابهةٌ للواجهات الثلاث الأخرى، باستثناء عدد فتحات رمي السهام، فهنا فتحتان فقط. [انظر صورة رقم ١٨]

في أرضية هذا الطابق ميازيب لتصريف مياه الأمطار، ميزابان في كلٍّ من الجانب الشرقي والغربي. [انظر صورة رقم ١٩]

أرضية هذا الطابق (العلوي) مرصوفةٌ بقطع من الحجر الجيري والصوان، أما الحواف التي تطل على الصحن من أرضية هذا الطابق والتي تحوي ميازيب تصريف المياه فقد استخدمت فيه الحجارة الجيرية المشذبة، وتشبه تلك الحجارة المستخدمة في عتبات الدرج.

الأبراج

للقلعة أربعة أبراج مربعة الشكل، هناك غرضان من إنشائها، فهي - ككل الأبراج في الأبنية القديمة - لها غرضٌ كدعامات تستند إليها الجدران، وغرض وظيفي يتمثل بالمراقبة والدفاع.

وهذه الأبراج الأربعة منهارة، ولم يبق منها سوى بعض الأجزاء السفلية. ومن خلال هذه الأجزاء المتبقية وجدنا أنها مختلفة الأحجام والقياسات على نحو بسيط. قستُ أحدها فكان ١٧٠×١٤٠ مقوساً من جهة واحدة إلى الداخل. وهو مزود بطاقاتٍ لرمي السهام لم أتمكن من إحصائها.

ولهذه الأبراج طابق ثان يُصعد له بواسطة درج صغير. وفي نهاية كل برج سقف على هيئة قبو نصف برميلي، لكنها جميعاً - كما أسلفتُ - منهارةٌ. ويمكن ملاحظة الطابق الثاني من أحد الأبراج، وهو الجنوبي الغربي، فهو ما زال واضح المعالم، وله مدخل ودرج صغير أبعاده ٢,٢٥م طولاً و٠,٧٠م عرضاً، ويرتفع نحو مترين تقريباً.

وقد زُوّدت هذه الأبراج بميازيب لتصريف مياه الأمطار، تشبه ميازيب الطابق العلوي من القلعة. [انظر الصور أرقام ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣].

وحول البرج الجنوبي الشرقي، من خارج القلعة، سلسلة من الأحجار شبه دائرية أقامها سكان المنطقة حديثاً. [انظر صورة رقم ٢٤].

بركتا الماء

وإلى الشمال من القلعة بأربعين متراً تقريباً بركتان للماء، كانتا توفران أسباب الحياة لمن فيها، واحدةٌ أكبر من الأخرى. أما البركة الكبيرة فمستطيلة الشكل أبعادها ٢٠,٧٥م طولاً و١٥,٣٠ عرضاً، تم سقفها لاحقاً بسقف إسمنتي بطريقة شوهتها، وكل جوانب البركة مصقولة، وفي الجانب الغربي منها فجوة في الجدار يتم التخلص من خلالها من الماء الزائد حين ارتفاع منسوب المياه. أما في الجانب الشرقي فتوجد قناة مفتوحة عرضها نحو متر تقريباً تتصل مع البركة الصغيرة، والبركة مليئة بالطمم الآن.

وتتصل البركة الكبيرة مع القلعة بواسطة قناة مطمورة تحت الأرض تشير نحو القلعة باتجاه الجنوب تؤدي إلى البئر في وسط الصحن.

أما البركة الصغيرة فهي بمثابة مصفاة لتنقية المياه الطينية قبل دخولها إلى البركة الكبيرة، وأبعاد هذه البركة ٩,٣٠ طولاً و٩ أمتار عرضاً، وهي تشبه البركة الكبيرة من حيث الشكل والتصميم، وهي مردومة الآن تماماً. يبدو من آثارها أنه كان ينزل لها بدرجات في الجانب الشمالي الغربي. أما في الجانب الغربي من هذه البركة فهناك قناة مفتوحة تصل بالجانب الشرقي من البركة الكبيرة. [انظر صورة رقم ٢٥]

قال الرحالة گراي هِلْ Gray Hill وقد زار الأردن سنة ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م عن هاتين البركتين بعد أن بيّن دورهما في خدمة الحجيج: بركة مبنية من الحجارة ومليئة بالمياه، وهناك حفرة أخرى تحبس المياه الموحلة بعد هطول

المطر وذلك لتنقيتها[١٨].

وبعد سنتين فقط من زيارة هِلْ، زار المكان - كما مرّ قبل قليل - الرحالة التركي سويله مز أوغلي، فرأى البركة على أسوأ حال وصف نتانتها. لكن هذا يتنافى مع ما رآه صاحب التقرير المرفوع لمحمد علي باشا كما سيأتي بعد قليل.

قلعةٌ أم قصرٌ أم خان؟

كما مرّ، فإن هذا البناء التاريخي أُطلق عليه ثلاثة مُسمّيات مختلفة: قلعة، قصر، خان. والفرق بين هذه المسميات من حيث الوظيفة والتصميم والغاية كبير.

بدايةً، أستبعدُ كونه قصراً؛ فالقصر -بطبيعة الحال- للملوك والأمراء والكبراء، ولم يرد في الروايات التاريخية أن اتُّخذ هذا الموضع الواقع على سيف الصحراء قصراً لأيّ منهم. كما أن عمران هذا البناء لا يدل بأي حالٍ من الأحوال على كونه قصراً، فليس فيه مما تتصف به القصور.

أحصرُ النقاش إذاً بين قلعةٍ وخان. وأنوّه إلى عدم وجود أيّ نصٍ صريح يشير إلى الهدف من إقامة هذا البناء. لكن الرحّالة بيركهارت لاحظ ملاحظة غاية في الأهمية، مفادها أن أهل المنطقة يطلقون لفظ (قلعة) على كل بناء حوله سور وله ساحة في وسطه[١٩].

لا شك أن الدولة العثمانية حينما انتصرت على المماليك في مصر (مرج دابق سنة ٩٢١هـ/١٥١٦م، والريدانية سنة ٩٢٢هـ/١٥١٧م) نظرت سريعاً إلى بلاد الشام؛ فدخلتها ووطدت نفوذها فيها، ومن ضمنها أراضي الأردن.

وقد شكّلت الأراضي الأردنية ممراً مهماً بين مركز الدولة في اسطنبول

---

(18) Gray Hill, *A Journey East of the Jordan and the Dead Sea*, 1895, p.31.

(١٩) كما في النص الذي أوردناه قبل قليل.

والديار المقدسة في الحجاز، بل إنها المنفذ الوحيد لقافلة الحج الشامي بمن فيها من حجاج تركيا وكل شمال الشام. وخاصة بعد أن أعلن السلطان سليم الأول نفسه خادماً للحرمين الشريفين. لذا، تطلّب الأمر أن تشيع السلطة الأمن والسلام والاستقرار على جانبي هذا الطريق، وتردع اللصوص وقطّاع الطرق، إضافة إلى توفير بعض الخدمات أهمها المياه. وهذه الأهمية الدينية للطريق تبعتها أهمية تجارية وأمنية وسياسية متمثلة في إظهار هيبة الدولة وسيادتها. لهذا كله، حرصت الدولة العثمانية على إيجاد نقاط أمنية على طول الطريق الصحراوي، وتوفير أسباب الحياة، وذلك عبر مجموعة من القلاع الصحراوية الصغيرة والمراكز العسكرية.

وقلعة ضَبْعة من تلك القلاع الصحراوية التي كانت تُبنى على خطوط الطرق لتوفير الحماية لقوافل الحج والتجارة، وبسط الأمن وإخضاع القبائل البدوية على طول الطريق.

ومن المعروف أن الأرض الأردنية تحتضن ثلاث عشرة قلعة على طريق الحج الشامي، هي: الفدين، شبيب، زيزياء، ضَبْعة، خان الزبيب، القطرانة، الحِسا، أذرح، عنيزة، معان، فَصّوعة (المبروكة الآن)، المدورة، العقبة.

أما الخانات فهي عادة ما تكون أبنية كبيرة متعددة الطوابق، يُستغل الطابق الأرضي منها كمستودعات لبضائع التجار النازلين فيها، وإسطبلات لدوابهم توفر لهم الماء والأعلاف، فيما يحوي الطابق (أو الطوابق) العلوي حجرات لنوم التجار والمسافرين تهيء لهم الراحة من عناء الطريق، وقد تكون بعض الخانات ضخمة ومحصنة كخان الفراش بين بغداد والحلّة الذي نزل فيه ابن جبير خلال تنقله، وقال عنه: «وفي هذه القرية المذكورة خان كبير، يحدق به جدار عال له شرفات صغار»[٢٠]. وخان التركمان الواقع بباقدين القريبة من

(٢٠) ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت، (د. ت)، ص ١٧١.

قنّسرين شمالي الشام، حيث وصفه بأنه «وثيق الحصانة». ثم قال: «وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعاً وحصانة، وأبوابها حديد، وهي من الوثاقة في غاية»[٢١]. وكذلك الخان الموجود بقرية تسمى القارة من أعمال حمص، حيث قال عنها: «وبها خان كبير كأنه الحصن المشيد، في وسطه صهريج كبير مملوء ماء يتسرّب له تحت الأرض من عين على البعد، فهو لا يزال ملآن»[٢٢]. وهذا تصميم هندسي مشابه تماماً لما في قلعة ضَبْعة.

ومن هذه الأوصاف نرى أن تصميم بعض الخانات كان يشبه إلى حد بعيد تصميم القلاع، لكن القلاع لا تبنى على غرار الخانات، فغايتها عسكرية استراتيجية تختلف عن غايات الخانات.

هذه القلاع والمراكز العسكرية اتخذت تصميماً موحداً تقريباً، يتناسب والغاية التي أنشئت من أجلها. وعلى الرغم من تشابه تصميم هذه القلاع بالخانات الشامية ذات الحجرات والصحن، إلا أن هذه الوظيفة للمبنى (وظيفة الخان) لا تظهر في الروايات التاريخية، بل إن الثابت من خلال تلك الروايات التاريخية أنه قلعة تضم جنداً يشكلون نقطة ارتكاز أمني على الطريق، ويؤكد ذلك العناصرُ العسكرية التي مرّ ذكرها في وصف المبنى.

البناء والترميم

لعل نصّ ابن طولون الصالحي سابق الذكر أول نصّ يصلنا عن هذا البناء، وهو مؤرَّخٌ بسنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م، أي قبل دخول العثمانيين بلاد الشام بسنتين، لكنه هو وابن الشماع أشارا إلى وجود خان وليس قلعة، وكانت تلك الإشارة إلى (خان خراب) أي: غير قائم، وهذا ما يعني أن ذلك الخان يعود إلى حقبة حكم المماليك، ثم أصابه الخراب وتهدم. ومن إشارتي ابن طولون

(٢١) رحلة ابن جبير، ص ٢٠٥.
(٢٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٠٩.

وابن الشماع هاتين نتأكد من خرابه وعدم وجوده إلّا كأطلال ورسوم؛ فابن طولون أحد المؤرخين المدققين المعروفين بتوثيقهم لكثيرٍ من مفاصل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، ولو كان في هذا الخان أي نشاط إنساني لرصده في إشارة بسيطة على الأقل. أما إشارة ابن الشماع فهي غاية في الأهمية حيث ذكر أن القافلة نزلت (عند) الخان، وليست (في) الخان.

أما النصوص الأخرى فتعود إلى حقبة ما بعد دخول الشام في حوزة الدولة العثمانية. لذا، فإن هذا النصّ التاريخي يؤكد بناء القلعة في حقبة الحكم العثماني، وأنه أنشئ في عهد السلطان سليم الأول، وبعد دخوله الشام وذلك بين عامي ١٥١٧-١٥٢٠م. ويؤكد ذلك إنشاء بركة الماء الخارجية في عهده، لغوث الحجاج من لهيب الحر في الصحراء[٢٣].

ويمكن الاستئناس بما ذكره نجم الدين الغزّي (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م) في خبر تعمير قلعة ذات حج وغيرها من القلاع على طريق الحاج جنوبي الأردن، قال: وفي ذي القعدة الحرام (سنة ٩٦٧ هـ/١٥٥٩م) وصل أمرٌ شريف من قبل المرحوم السلطان سليمان إلى دمشق بتعمير قلاع بطريق الحج الشامي، وتعيين صنجق لكل قلعة، وفي صحبته سباهية (جنود) ومعلمون وفعول، ومعهم ما يكفيهم من الزاد؛ واحدة بالقطرانة، وثانية بمعان، وثالثة بذات حج، ورابعة بتبوك، فعمرت كما أمر، وبقي الانتفاع بها إلى الآن[٢٤].

لهذا، فإن بعض الدراسات الحديثة تُرجع زمن تشييد قلعة ضَبْعة إلى زمن

(٢٣) انظر: Peterssen, A. D. *Early ottoman Forts on the Hajj Route in Jordan*, Oxford, 1986, p. 32

(٢٤) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ج ٣، ص ١٥٧، نقلاً عن الرواضية، مدونة النصوص الجغرافية، ج ١، ص ٥٠٨؛ وانظر: الرشدان، وائل. القلاع العثمانية في جنوب الأردن - دراسة معمارية وصفية، مجلة أبحاث اليرموك، (سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية)، المجلد ٢٤، العدد ٢١ آذار، ٢٠٠٨م، ص ١٤٥.

بناء قلعة معان العسكرية، معتمدةً على التشابه الكبير بين البنائين من حيث التصميم وهندسة البناء والمواد الإنشائية والعناصر المعمارية والدور الوظيفي لوجودهما[٢٥]. وبما أن قلعة معان تحمل لوحةً تؤرخ ما عُمل بأمر السلطان سليمان القانوني ابن سليم الأول سنة ٩٧١هـ/١٥٦٣م. فإن هذا التاريخ (أواخر القرن العاشر الهجري) مقترحٌ لتعيين زمن تشييد هذه القلعة.

ويقترح كارل باربير في دراسته (الدور العثماني في دمشق) أن بناء هذه القلعة تم في العهد العثماني في القرن السادس عشر أثناء حكم السلطان سليم الأول، والذي يتطابق مع رأي الرحالة التركي (كاتب شلبي) ضمن مذكراته المكتوبة في الكتاب المسمى (Cihanname جيهان نامه) أي: (الرسالة العالمية) والتي كتبها عام ١٧٣٢م في إسطنبول[٢٦].لذا فهي عثمانية بكل تأكيد.

تظهر على قلعة ضَبْعة مميزات العمارة العثمانية، فقد جُدد المبنى سنة ١١٨٠هـ/١٧٦٧م على يد إسماعيل باشا أمير الحاج العثماني، ووُثّق هذا التجديد بنقش حفظه برونو Brunnow، وهذا نصه: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[٢٧] جدد هذا المكان المبارك صاحب الخيرات أمير الحاج الوزير في ذي الحجة سنة ١١٨٠هـ/١٧٦٧م»[٢٨].

وحينما وقعت مناطق الأردن في حوزة دولة محمد علي باشا سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣١م إثر دخول ابنه إبراهيم باشا بلاد الشام وانتصاره على جيش العثمانيين، تحرّت السلطات المنشآت والمباني الواقعة في منازل الحج على

(٢٥) عن قلعة معان وتخطيطها وعناصرها الإنشائية والفنية، انظر: الرشدان، القلاع العثمانية في جنوب الأردن، ص ١٤٣.

(٢٦) الحصان، عبد القادر محمود، القلاع والخانات التركية العثمانية على طريق الحاج الشامية في الديار الأردنية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص ١٢٤-١٢٥.

(٢٧) سورة التوبة، الآية ١٨.

(28) Brunnow, *Die provincia Arabia*, p.76.

الطريق المؤدي إلى الديار المقدسة وذلك عبر تكليف شخص (وربما لجنة) عاين كل تلك المنشآت وفحصها ولاحظ ما بها من أضرار، ثم رفع تقريراً عن أعماله، قدّم له بالعنوان الآتي: «تقرير ناطق بالإصلاحات والترميمات اللازمة للقلاع وبرك المياه والموجودة في المراحل والمنازل الواقعة في الطريق بين دمشق الشام ومكة المكرمة التي تمّت معاينتها على قدر المستطاع نزولاً على إرادة حضرة الباشا السر عسكر وامتثالاً لأوامره». لكن الجيش المصري لم يبق طويلاً في بلاد الشام، فقد اضطر للانسحاب سنة ١٨٤٠م بعد أن اجتمعت الدول العظمى (آنذاك) ووجهت له - مع الدولة العثمانية - إنذاراً بالخروج من الشام والانحسار في مصر والسودان فقط[٢٩]. ولا نعلم نتائج ذلك التقرير وما إذا تم شيء من الترميم والإصلاح.

جاء في هذا التقرير وصفٌ عام للقلعة ولحالتها الراهنة آنذاك، وأخيراً أوصى كاتب التقرير بصيانتها وصيانة بركتي الماء. وهذا نص ما جاء عن قلعة ضَبْعة (البلقاء كما يسمّيها): «على بعد ١٤ ساعة من عين الزرقاء تقوم على الطريق قلعة تسمى البلقاء، وهذه القلعة مربعة الشكل مبنية بالحجر طول كل ضلع من أضلاعها ٣٥ ذراعاً معمارياً، وهي جيدة البناء، وقد أنشئ بداخلها بعض الغرف إلا أن واحدة أو اثنتين منها قد تهدمت كلياً بينما بقية الغرف في حاجة إلى الترميم أيضاً، كما أن ركناً من أركان هذه القلعة قد انشق عن البناء وأشرف على السقوط حيث يقتضي ترميم هذا الركن أيضاً، وقد حفر بئراً بداخل القلعة لتوفير الماء لمشروب المأمور الذي يعين للمحافظة عليها. ويؤتى بالماء لهذه البئر بواسطة القرب من البركة الموجودة خارج القلعة،

---

(٢٩) عن سنوات الوجود المصري في الأردن، انظر: أبو صيني، عبد الحميد، الأردن في ظل الحكم المصري (١٨٣١-١٨٤١)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٥.

بيد[٣٠] أنه يقال إن قعر البئر قد أصيب بتلف حيث أخذت المياه التي[٣١] تصب فيه تضيع سدى وبما أن هذه البئر ضرورية لحياة محافظها[٣٢] فلا بد والحالة هذه من ترميم قعرها وقد بنيت بركتان من خارج هذه القلعة ليشرب منها الحجاج، ولكن أسفليهما قد تشقق وأصبحت المياه التي تتجمع فيهما من الأمطار تغور في الأرض، وقد تطرقت الوحول بكثرة إلى هاتين البركتين، وأصبح لا مندوحة عن تطهيرهما، وقد كان في هاتين البركتين عند مرورنا بهما نحو ذراعين من الماء. ولما عدنا إليهما وكانت الأمطار قد هطلت بكثرة وامتلأت البركتان حتى حافتيهما بالماء، لم نجد فيهما سوى ثلاث أذرع وذلك يرجع إلى ما فيهما من خلل.

وخلاصة القول إن هاتين البركتين لا تحتاجان لغير الترميم إذ أن بنائهما متين، فإذا ما أزيلت الوحول المتراكمة فيهما، وتم إصلاحهما جيداً بحيث لا تغور المياه في تلك التي تتجمع فيهما، فسوف لا تكون هناك أية مشقة من ناحية الماء في تلك المرحلة، ويتوفر الماء للحجاج فيهما مدة سنتين، وهناك بركة أخرى طولها ٥٠ ذراعاً معمارياً، وعرضها ١٠ أذرع، وعمقها ٥ أذرع وهي مستطيلة الشكل. وليس في بنائها أي خلل ولكنها تحتاج إلى تطهيرها من الوحول وترميمها، والخلاصة أن الأمر يستدعي تخصيص أوسطه ماهر لهذه القلعة يتولى ترميم وإصلاح بعض نواحيها حتى إذا ما تم ذلك وطهرت البرك من الوحول ورممت توفّر الماء للحجاج وسواهم وكان ذلك سبباً في توفير الراحة والرفاهية للناس».

وأعيد ترميم هذ القلعة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني سنة

---

(٣٠) في الأصل: بين، ولعل الأرجح ما أثبتناه.
(٣١) في الأصل: الذي.
(٣٢) في الأصل: محافظتها، ولعل الأرجح ما أثبتناه.

١٣٠٧هـ/١٨٨٩م، كما جاء في جريدة البشير(٣٣).

لهذا، نجد أن كثيراً من العناصر المعمارية تشترك فيها قلعة ضَبْعة مع القلاع العثمانية الأخرى في المنطقة، والواقعة على طريق الحج، كما لاحظ ذلك واحدٌ من خبراء العمارة العثمانية، وهي:

١. أن هذه القلاع تمتاز بأن مساقطها الأفقية مستطيلة ومربعة.

٢. تمتاز هذه القلاع بوجود مدخل وحيد مباشر يؤدي إلى الساحة المكشوفة.

٣. يقوم تصميمها من الداخل على صحن أوسط مكشوف يفتح عليه إيوانين متقابلين، وعادة ما تتكون هذه القلاع من طابقين. كما يوجد في الصحن بئر ماء لتزويد من بداخلها بالماء.

٤. استخدمت في هذه القلاع العديد من أساليب التسقيفات أو التغطيات منها الأقبية النصف برميلية والأقبية المتقاطعة، وكذلك تم استخدام العقود الموتورة في تتويج فتحات الأبواب والشبابيك. وكذلك تم استخدام العقود المدببة التي تعلو الإيوانات.

٥. استخدام السقاطات التي تعتمد على شرفة حجرية بارزة، ترتكز على ثلاثة كوابيل حجرية، تحصر بينها فتحتين مستطيلتين لسكب الزيوت المغلية أو المقذوفات إلى الأسفل نحو الباب الرئيس، وكذلك نجدها في منتصف واجهات بعض القلاع.

٦. تميزت واجهات القلاع بوجود مستويين من طلاقات السهام، وهذه الفتحات عبارة عن فتحة مستطيلة من الخارج، وأما من الداخل فهي عبارة عن دخلات عميقة متسعة تسمح للمدافعين بإطلاق السهام أو استخدام الأسلحة النارية بكل حرية. ومن الملاحظ أن هذه الدخلات توجت بعتب حجري.

---

(٣٣) انظر: الطراونة، محمد سالم، تاريخ منطقة معان والبلقاء والكرك، منشورات وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٢، ص ٣٦٨.

٧. تميزت هذه القلاع بوجود شرفات في أركان واجهاتها الأمامية، وهي قائمة على كوابيل حجرية لها فتحات مستطيلة الشكل كانت تستخدم لإطلاق النار.

٨. استخدمت في بناء هذه القلاع المواد الأولية الموجودة في بيئتها، فنلاحظ استخدام الحجارة الكلسية (الجيرية)، والحجارة البازلتية، والحجارة الرملية المائلة إلى اللون الوردي والحجارة الصوانية[٣٤].

الملامح الفنية للقلعة

يمكن مشاهدة بعض الملامح الفنية والعناصر الزخرفية لقلعة ضَبْعة والتي حاول - من خلالها - منشؤوها أن يضفوا عليها مسحة جمالية على المبنى. وهذه العناصر الزخرفية هي:

شكل نباتي يعلو المدخل الرئيس للقلعة، وهو عبارة عن حَجَرة تحمل حفراً بارزاً لأشكال نباتية (ورد وورق). [انظر صورة رقم ٢٦]

ويعلو فتحة المدخل الرئيس شريطٌ من الزخارف النباتية (أزهار وأوراق) محفورة، عبارة عن كورنيش رفيع بارز إلى الخارج بـ ٥ سم. [انظر الصورة رقم ٢٧]

كما يعلو المدخل الرئيس عقد نصف دائري، يدخل إلى الداخل بمقدار نصف متر، لكنه يبرز على عضادتي البوابة المزخرفتين بنحت هندسي غائر. ويتكرر هذا العنصر الزخرفي في أبواب الغرف الداخلية أيضاً.

مواد البناء المستخدمة

استُخدم في بناء القلعة الحجر بأنواعه، وبعض الخامات الإنشائية الأخرى كالحديد والأخشاب. ويمكن تمييز أنواع الحجر واستخداماته في بناء القلعة

(٣٤) انظر: الرشدان، القلاع العثمانية في جنوب الأردن، ص ١٥٦.

على النحو الآتي:

١. حجر جيري، وهو حجر كلسي رسوبي، شاع استخدامه في البناء في بلاد الشام. وهو على نوعين: مهندم (هندسي)، وغير مهندم (غير هندسي). استخدم الأول كمادة رئيسة للبناء، واستخدم الثاني - وهو قطع صغيرة غير منتظمة - لسد الفراغات والفجوات بين القطع الهندسية الكبيرة الرئيسة.

٢. حجر البازلت، وهو حجر بركاني سطحي ناتج عن تجمد الحمم البركانية الصاعدة من باطن الأرض وقت ثوران البراكين، ويوصف بأنه قاتم اللون. استُخدم هذا النوع من الأحجار كعنصر بنائي ثانوي.

٣. حجر الصوان، وهو حجر رسوبي يمتاز بصلادته وقسوته، ينتج من عملية فيزيائية تتمثل في ترسب مواد معدنية (أملاح السيليكا) ذائبة في محاليل مائية مشبعة بمصاحبة أملاح أخرى، وذلك نتيجة فقدان الماء وتبخره، فتترسب المعادن الأقل قابلية للذوبان. وقد استخدم هذا النوع من الأحجار كعنصر ثانوي في البناء، وخاصة في سد الفجوات، ورصف الأرضيات، والأسقف.

وفيما عدا ذلك استُخدم الحديد والخشب في الأبواب والشبابيك وكدعامات للسقوف، والطين المخلوط بالتبن، حيث استخدم كملاط وغطاء لبعض الفجوات.

توصيات

من زيارتي لقلعة ضَبْعة[٣٥] وجدت أن حالتها لا تتناسب وأهميتها التاريخية، حيث إنها تتعرض لعوامل الانهيار الطبيعية بشكل متسارع، وكذلك عوامل التخريب البشرية، فضعاف النفوس ممن لا يقدّرون قيمة الآثار، يحفرون فيها بطرق تؤثر على أساساتها وتسيء لها، يبحثون عن أمل مفقود يتمثل في الذهب الذي يُشاع أنه مدفون فيها وفي جنباتها، ناهيك عن عبث

(٣٥) صباح يوم السبت ٢٠١٣/١١/١٦م.

العابثين بأحجارها سرقةً وكتابةً وتشويهاً، وعن من يستخدمها كحضائر للماشية.

يُذكر في هذا المجال- كمثال - البرج الشمالي، كان «صامداً سالماً يمكن الدخول إليه عبر درج» حينما أرّخ له الدكتور يوسف غوانمة في ثمانينيات القرن العشرين[٣٦]، لكنه اليوم - وللأسف الشديد غير قائم. كما يمكن تلمس الخراب الذي طال القلعة من خلال الصور التي التقطها الدكتور المهدي عيد الرواضية، وكان قد زارها شتاء عام ٢٠١٠، ووثق معالمها بالصور[٣٧] وقد أطلعني على تلك الصور، فتأكد لي أن حالتها كانت قبل ثلاث سنوات أحسن من الآن بكثير. لذا، فهي بحاجة إلى اهتمام كبير وصيانة علمية وفنية تعيد لها رونقها وتحافظ عليها من الخراب والزوال.

إن وجود هذا المبنى التاريخي المهم على أرض الأردن ليؤكد أهمية هذه المنطقة تاريخياً، ودورها الكبير في النشاط الإنساني على مرّ الزمن، وخاصة في مواسم الحج. وتزداد هذه الأهمية من وجود هذه القلعة على الطريق الرابط بين العاصمة عمان والجنوب المكتنز بمعالم الحضارة والثقافة والسياحة. لذا، فإني أوصي بالاهتمام بهذه القلعة - وسائر القلاع على هذا الطريق - ترميماً وصيانةً وتوثيقاً وحفاظاً كي تصمد بوجه عوامل التخريب البشري والطبيعي حتى تتمكن الأجيال اللاحقة من رؤيتها - كما رأيناها - والتمتع بجمالها والزهو بها، فهي تراث وطني وإرث حضاري يجب أن نحافظ عليه كما حافظ عليه مَن سبقنا، ونسلمه لمن بعدنا كما تسلمناه ممن سبقنا.

وأدعو إلى تنظيم رحلات مدرسية إلى هذه القلعة والقلاع الأخرى،

---

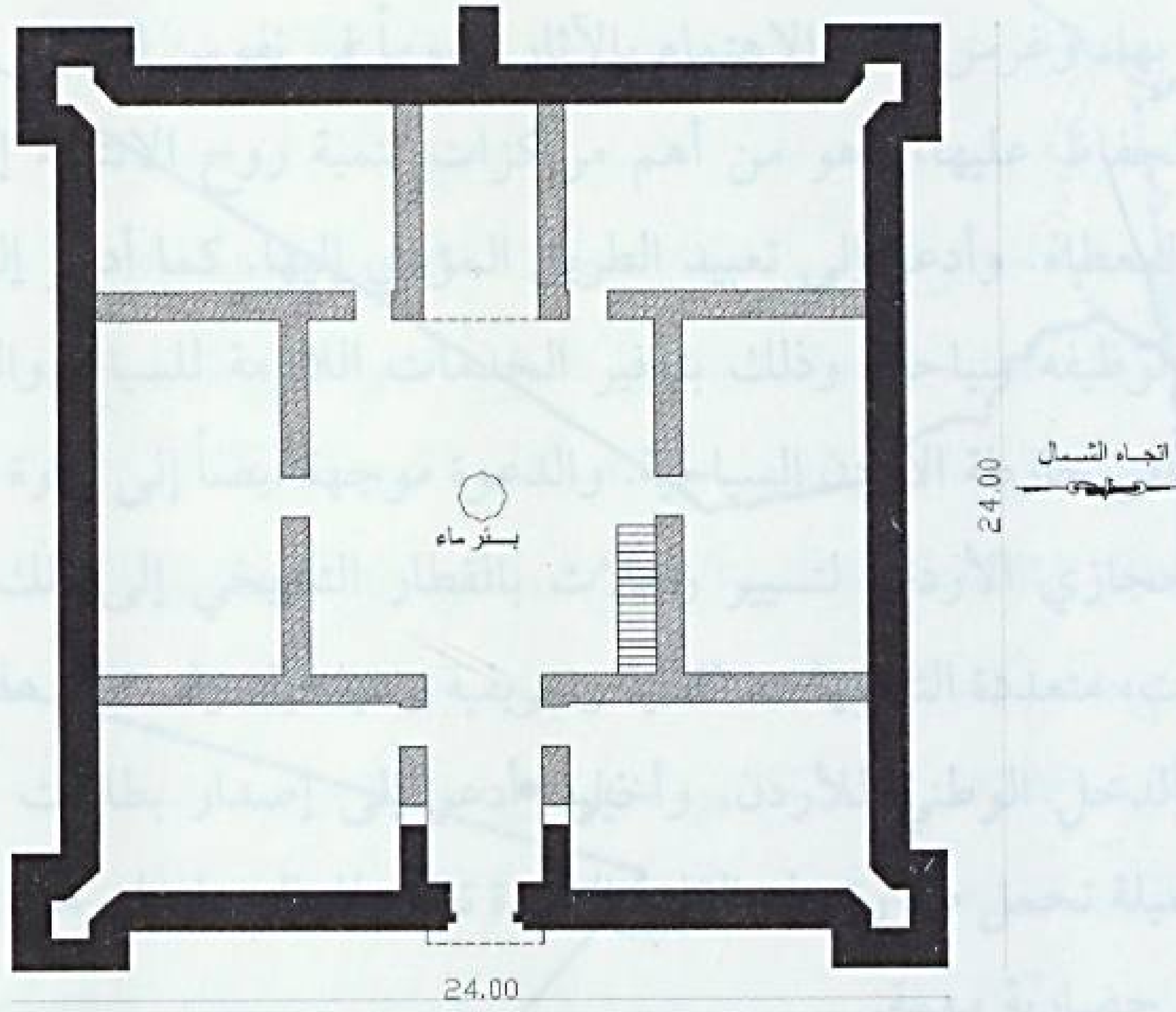
(٣٦) غوانمة، يوسف درويش، تاريخ منطقة شرقي الأردن في عصر المماليك الأول، الجامعة الأردنية، ١٩٩٢، ص ٢٠٢.

(٣٧) من بينها صورة تظهر لوحة إرشادية زرقاء اللون، كتب عليها باللغتين العربية والإنجليزية اسم القلعة وتاريخ بنائها، وهي ملقاة في صحن القلعة، لكنني - خلال زيارتي - لم أرَ لها أي وجود.

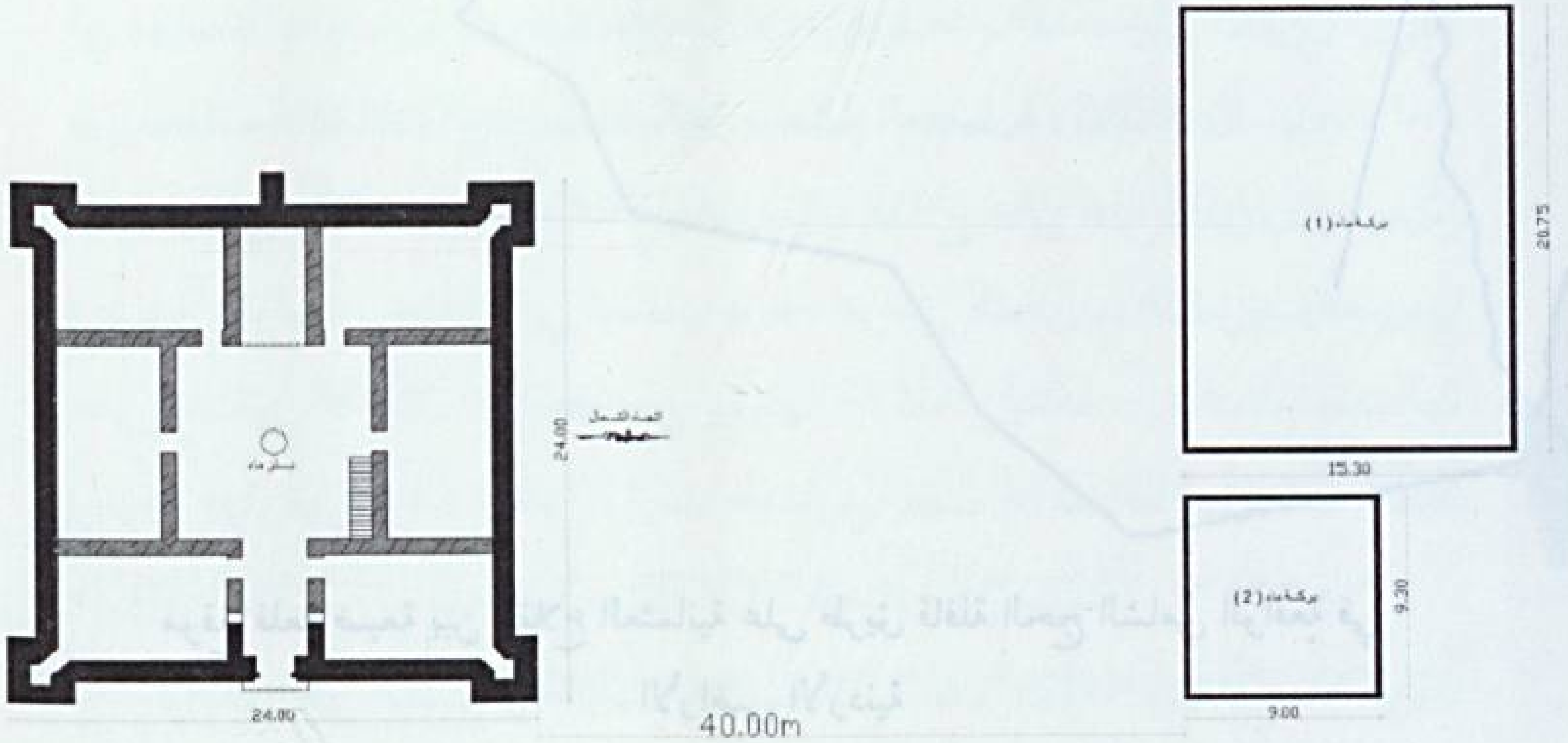
للتعريف بها، وغرس حب الاهتمام بالآثار عموماً في نفوس الطلبة، واحترام الآثار والحفاظ عليها، وهو من أهم مرتكزات تنمية روح الانتماء إلى هذه الأرض المعطاء. وأدعو إلى تعبيد الطريق المؤدي إليها. كما أدعو إلى تهيئة المكان وتوظيفه سياحياً، وذلك بتوفير الخدمات اللازمة للسياح والزائرين، ووضعه على خارطة الأردن السياحية. والدعوة موجهةٌ أيضاً إلى إدارة مؤسسة الخط الحجازي الأردني لتسيير رحلات بالقطار التاريخي إلى تلك القلاع والمحطات، متعددة التوجهات: ثقافية وتعريفية وسياحية، واستثمار هذا الخط في رفد الدخل الوطني للأردن. وأخيراً، أدعو إلى إصدار بطاقات وطوابع بريدية جميلة تحمل صورة هذه القلعة العتيدة تظهر للعالم ما على هذه الأرض من معالم حضارية مهمة.



موقع قلعة ضبعة بين القلاع العثمانية على طريق قافلة الحج الشامي الواقعة في الأراضي الأردنية

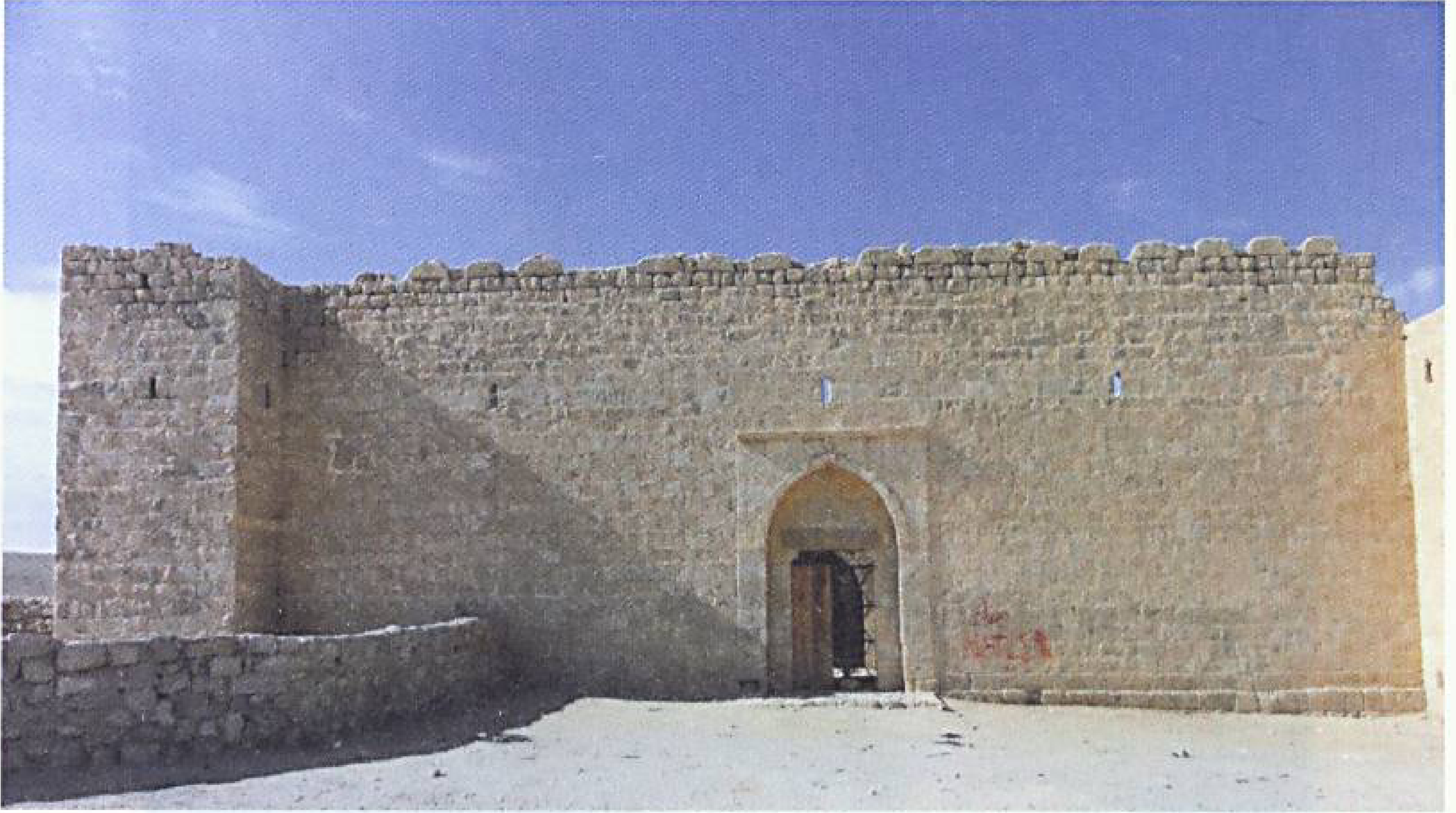


شكل رقم (١) مخطط للطابق الأرضي

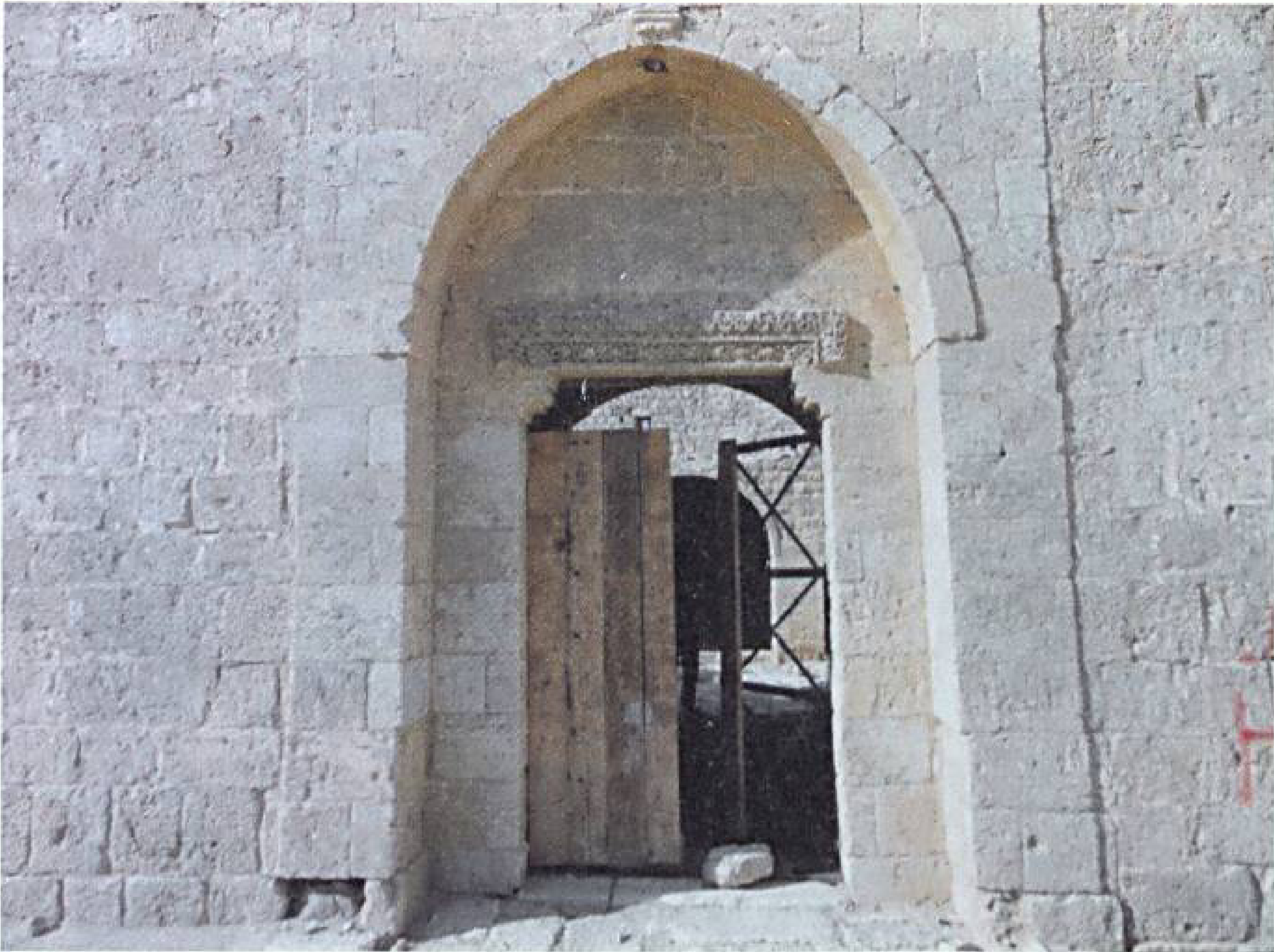


شكل رقم (٢)

مخطط للقلعة يظهر مكان بركتي الماء منها



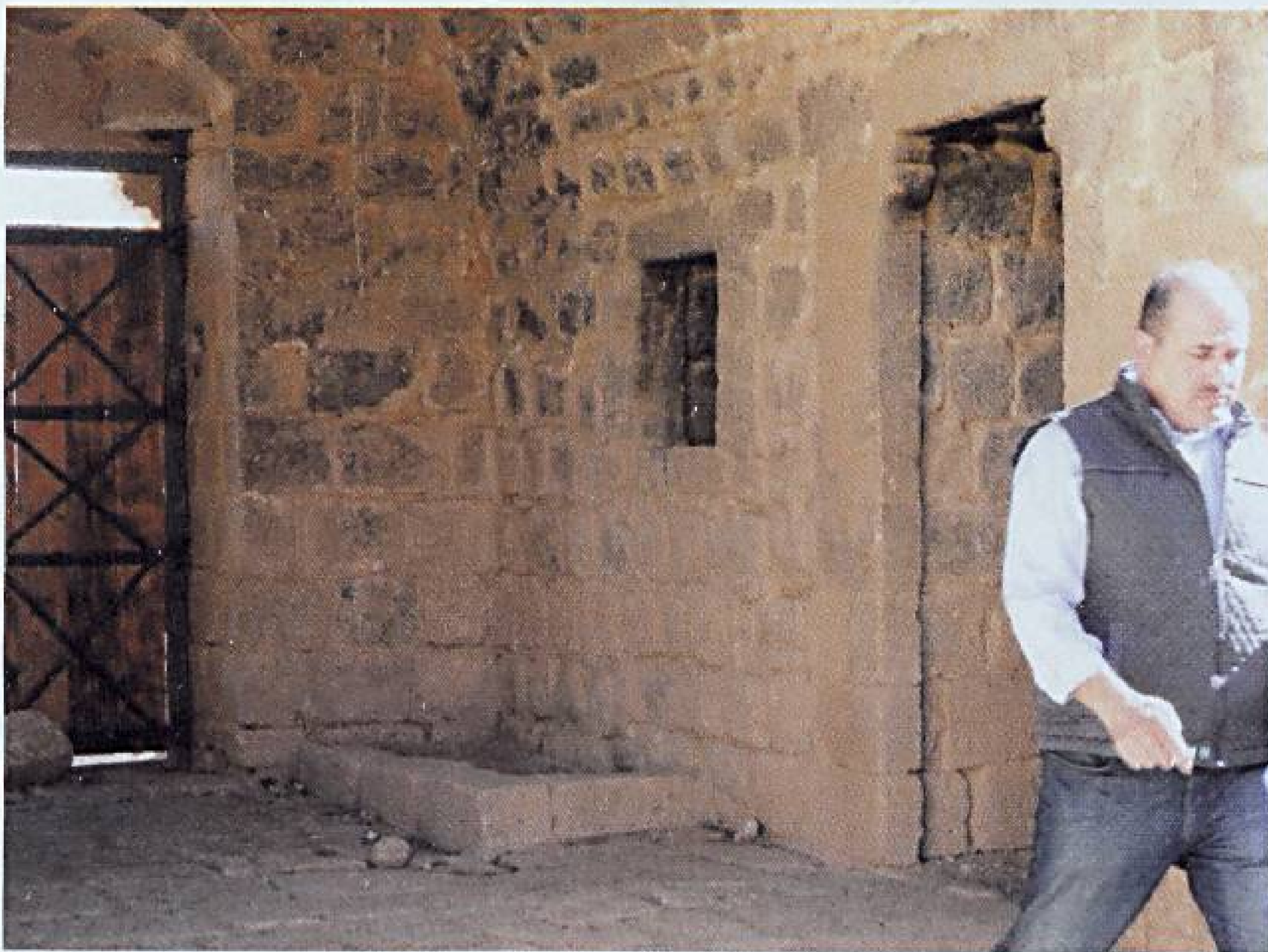
صورة رقم (٣)



صورة رقم (٤)



صورة رقم (٥)



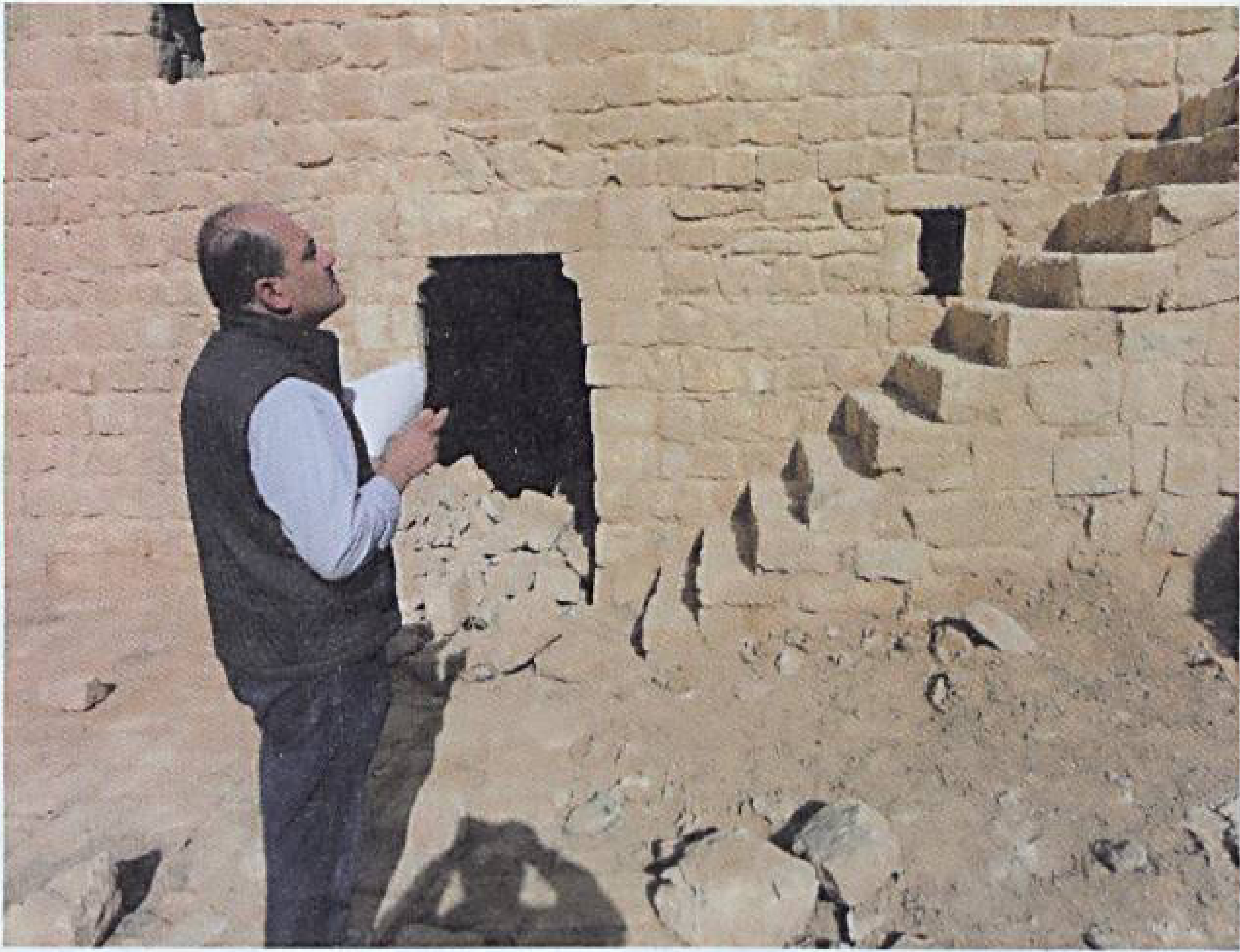
صورة رقم (٦)



صورة رقم (٧)



صورة رقم (٨)



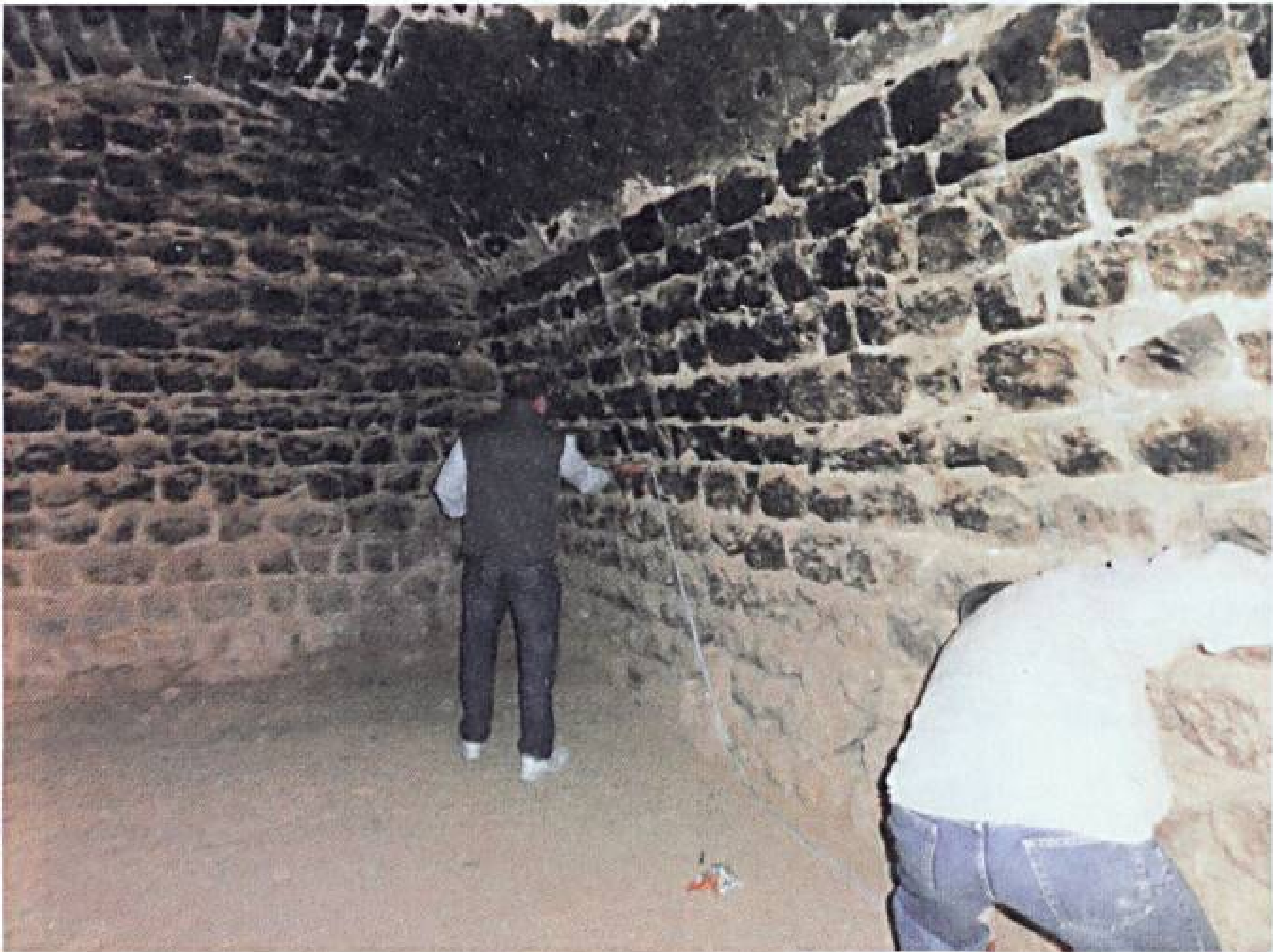
صورة رقم (٩)



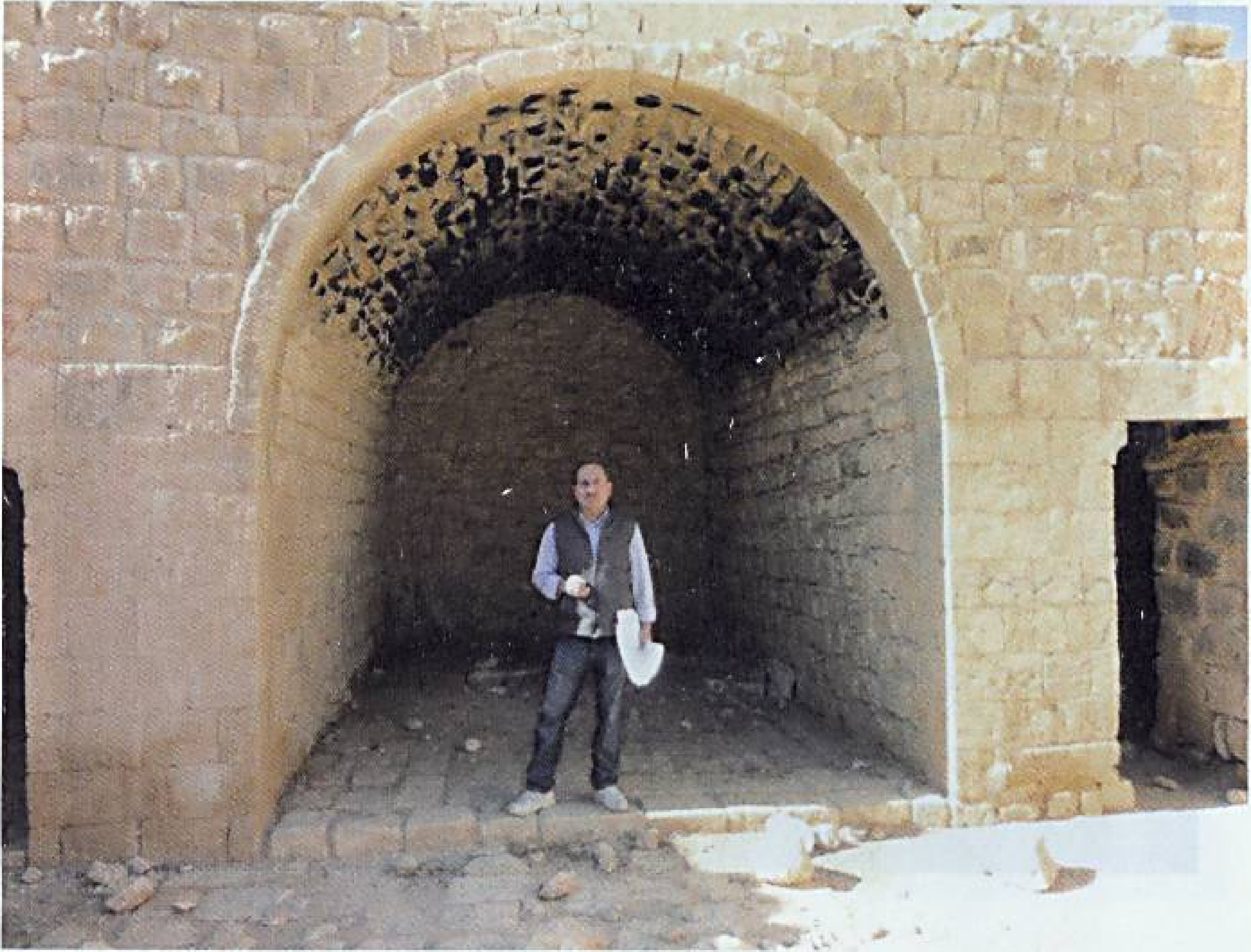
صورة رقم (١٠)



صورة رقم (١١)



صورة رقم (١٢)



صورة رقم (١٣)



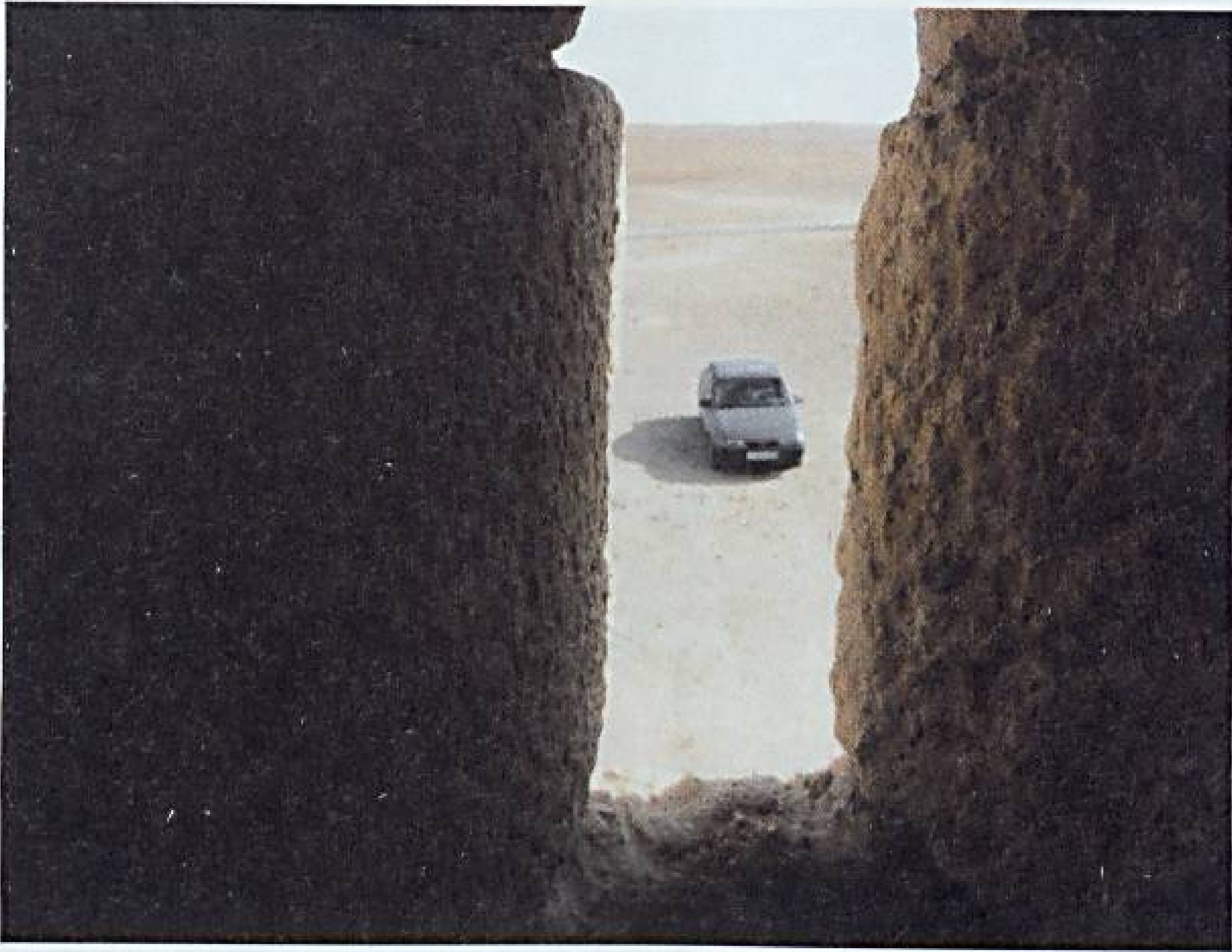
صورة رقم (١٤)



صورة رقم (١٥)



صورة رقم (١٦)



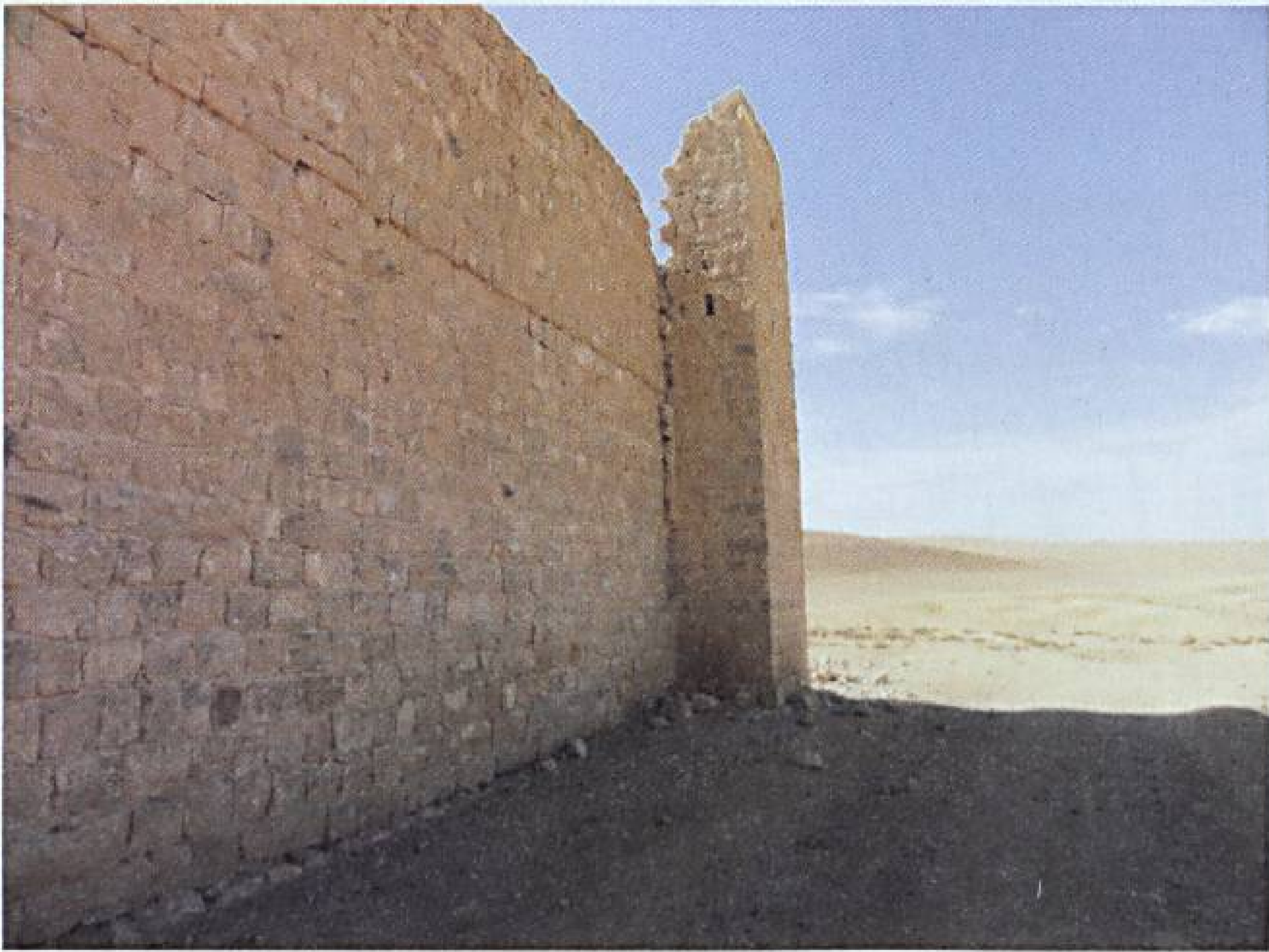
صورة رقم (١٧)



صورة رقم (١٨)



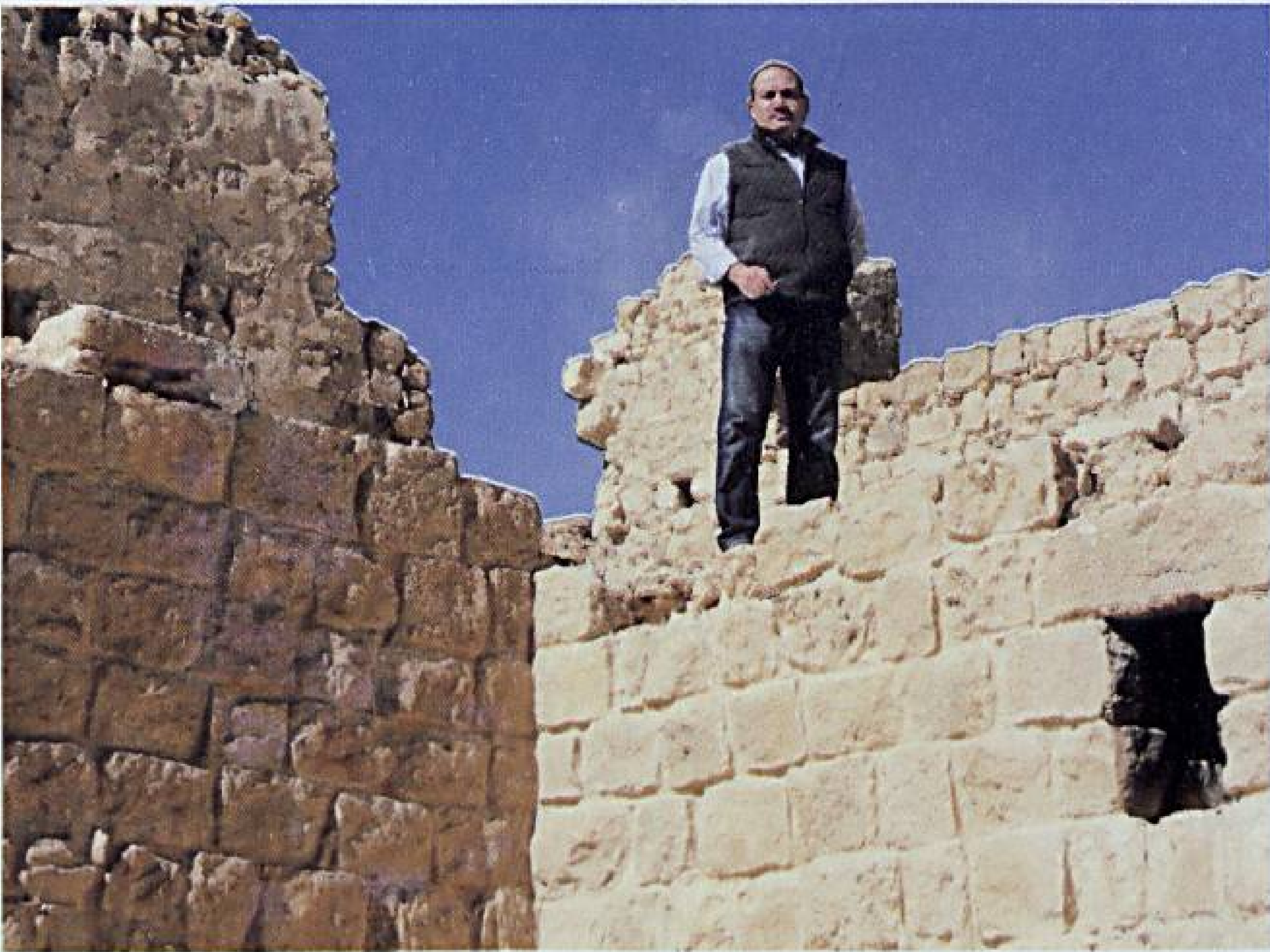
صورة رقم (١٩)



صورة رقم (٢٠)



صورة رقم (٢١)



صورة رقم (٢٢)



صورة رقم (٢٣)



صورة رقم (٢٤)



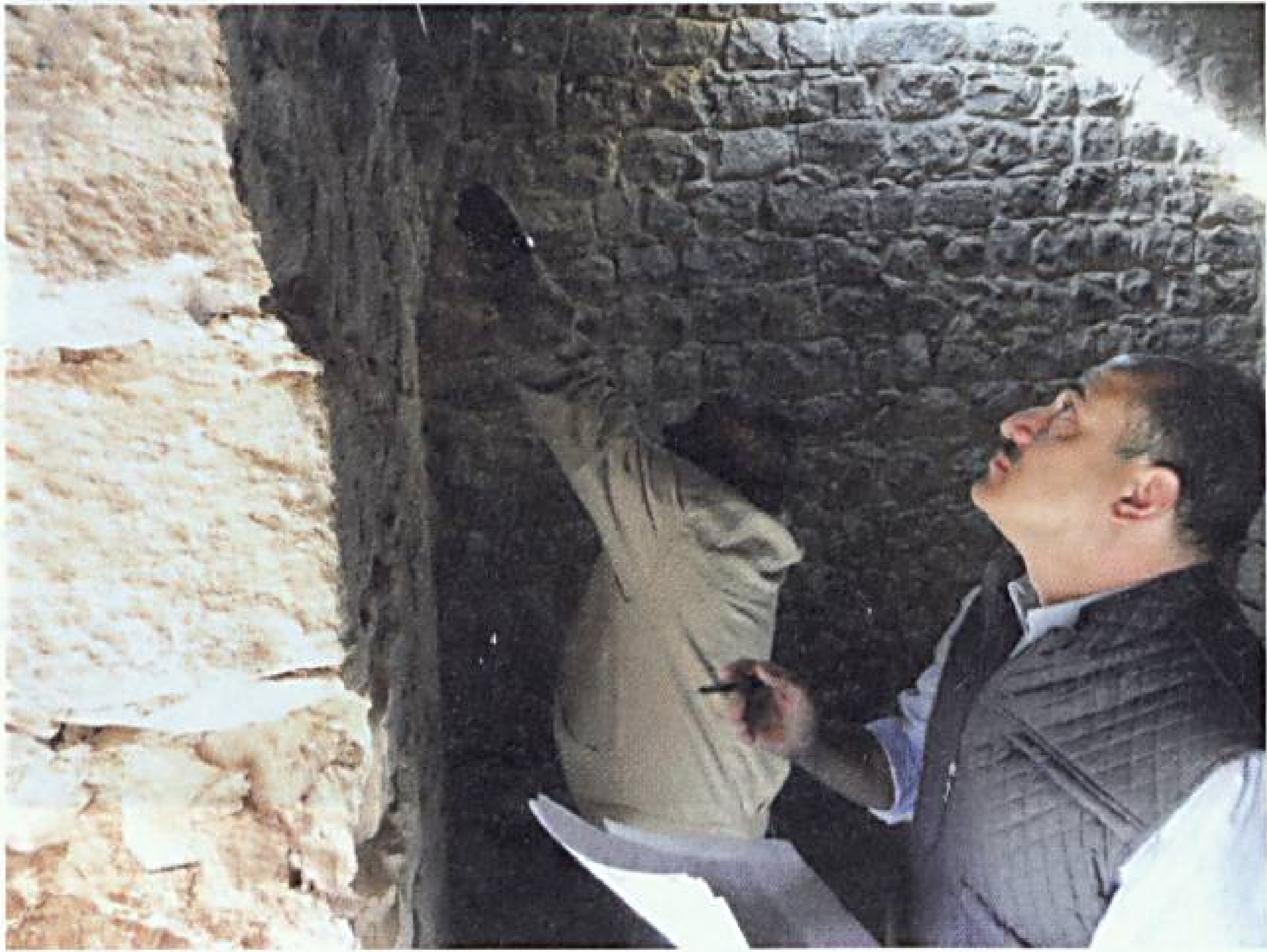
صورة رقم (٢٥)



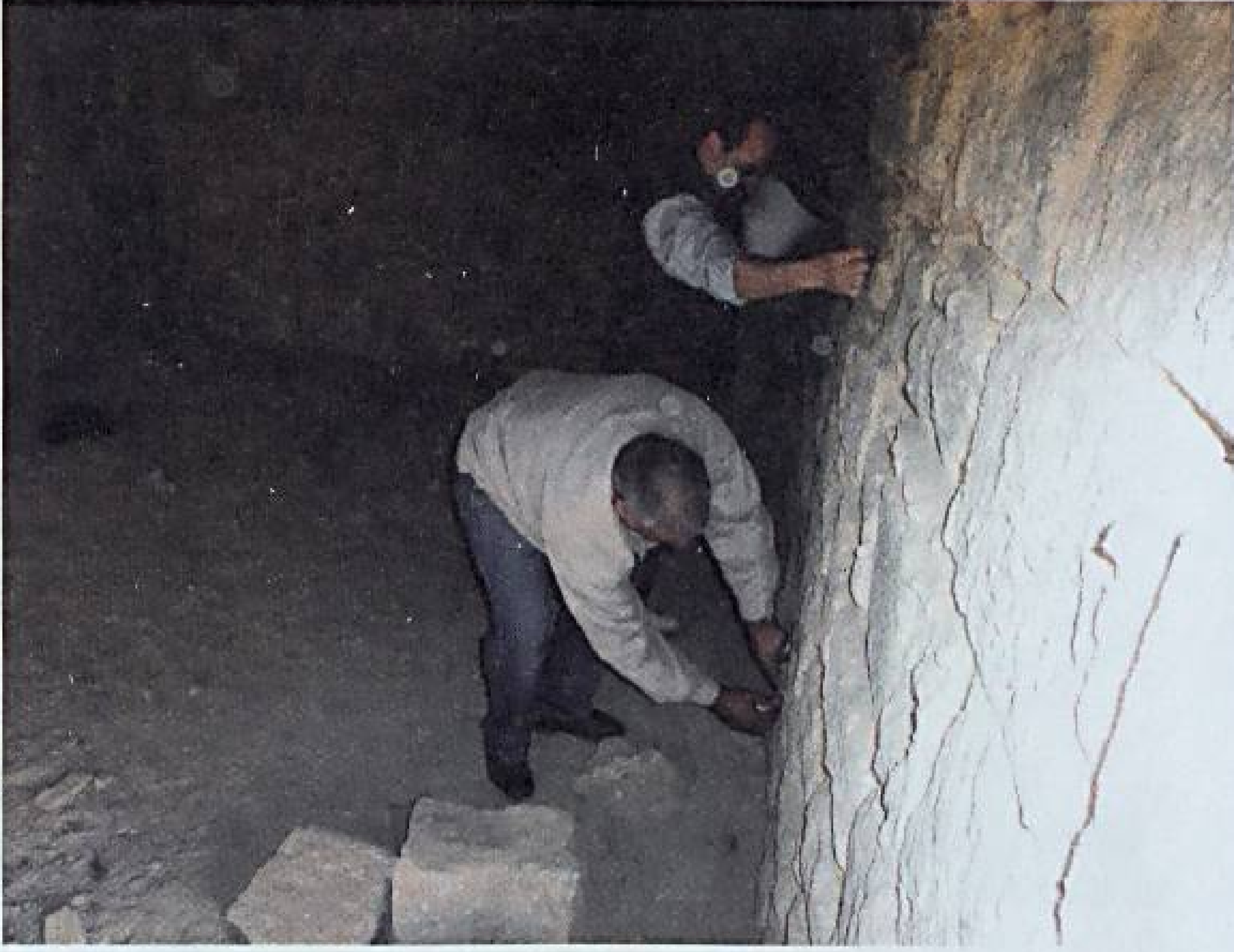
صورة رقم (٢٦)



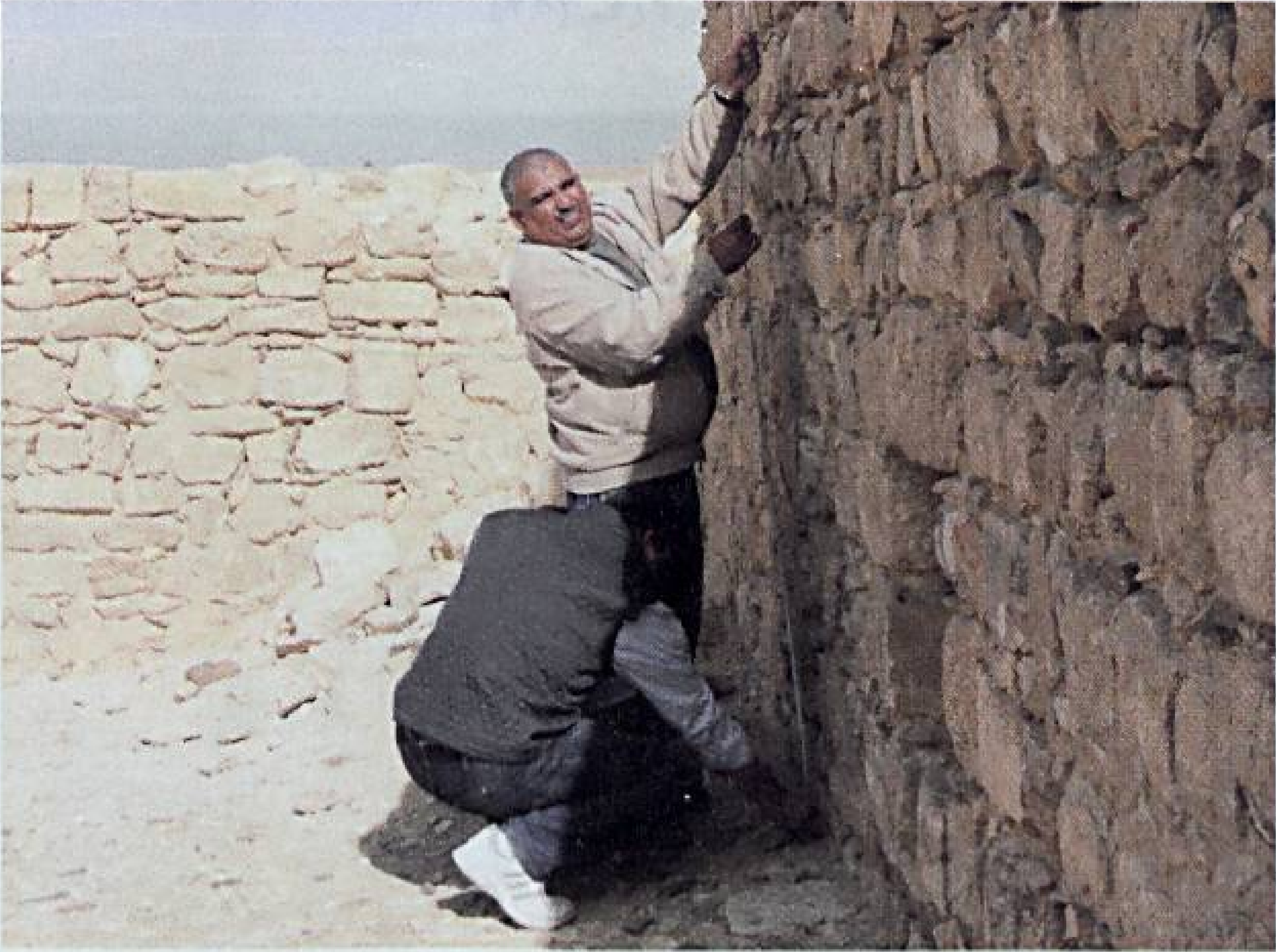
صورة رقم (٢٧)



صورة رقم (٢٨)



صورة رقم (٢٩)



صورة رقم (٣٠)

الخانات العثمانية في لبنان في القرن التاسع عشر
محطة تواصل إقتصادي وإجتماعي مميز

عبد الله سعيد*

تقديم

بعد الاستقرار الأمني والسياسي الذي شهدته متصرفية جبل لبنان، خلال النصف الثاني من القرن التسع عشر، بفعل ارتباطها إداريا مباشرةً بالباب العالي في الأستانة، وإشراف الصدارة العظمي عليها، نمت الخانات في لبنان بشكل عام، وفي جبل لبنان بشكل خاص، وذلك بعد أن أصبحت سنجقاً عثمانياً منظماً على نسق السناجق العثمانية الأخرى (متصرف عثماني، ومجلس إداري، ومحاكم ابتدائية، وضبطية، ودوائر عثمانية تركية وعربية (أقلام حكومية) .وبعد أن أصبحت بيروت مدينة تجارية بامتياز، ومركزاً ثقافياً متنوراً على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط تستقطب التجار والمستشرقين الغربيين والعثمانيين على السواء، والراغبين بنيل درجات التعليم العالي من اللبنانيين الجبليين والعرب في جامعتي القديس يوسف (اليسوعية) والجامعة الأمريكية .لذا، نشأت في بيروت ومدن ودساكر المتصرفية الأبنية العثمانية من خانات وسرايا (سرايات)، وحمامات، وقصور ومساجد تراثية ما زال بعضها ماثلاً للعيان حتى الآن.

---

* (لبنان)

تعريف الخان

إن الخانات، ومفردها خان[١] ، هي كلمة فارسية الأصل تعني منتجعاً على الطريق، أي بمعنى آخر الخان هو منزل مؤثث أو نَزل مفروش مهيأ لمبيت وإقامة المسافرين والتجار وتأمين راحتهم وتقديم الطعام والشراب لهم .لذا، كان الخان، يقوم في أحيانٍ كثيرة بمهام الفندق الصغير في عصرنا الحديث كما أنه يمكن أن يكون دكاناً أو حانوتاً كبيراً للتجار .إذن الخان في العمارة الإسلامية نوعٌ من أنواع العمائر التجارية التي تبنى لتكون مكاناً يقصده التجار للاستراحة وبيع ما يحملونه من سلع.

وقد عُرفت الخانات من حيث وظيفتها منذ مطلع العصر الإسلامي، ولعل أقدم خان أنشئ في هذا العصر هو الخان الذي بناه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عام 109هـ / 728م، بمكان غير بعيد عن قصر الحير الغربي في البادية السورية[٢] مع الزمن، تطورت الخانات في الحقبة المملوكية بتأثير من الازدهار التجاري بين الغرب والشرق، حيث أقيمت الخانات على طول الطرق الرئيسة، وخصوصا بين دمشق والقاهرة، ودمشق وبغداد، وصارت محطات توفر إمكانية المبيت للقوافل والمارة.

ومن الواضح أن مصطلح خان قد توسع استخدامه منذ القرن السابع للهجرة /الثالث عشر للميلاد، ليحل محل كل التسميات السابقة التي أطلقت على استراحات المسافرين في الحقب السابقة، مثل مصطلح" الدار "الذي شاع في سورية والعراق خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وذلك

(١) لطفي المعوش: موسوعة المصطلحات التاريخية العثمانية، عثماني -تركي -عربي، مكتبة لبنان، ناشرون، صائغ، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠١٢، ص ١٢٦

(٢) عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، الطبعة الأولى، دار جروس برس، طرابلس لبنان، ٢٠٠٧.ص ١٣٢

للدلالة على تلك الاستراحات، وكذلك مصطلحا" دار الوكالة"[٣] و"سراي القوافل" اللذان كانا يستخدمان للدلالة على استراحات التجار داخل المدن في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، ثم مصطلحا الفندق والقيسارية[٤] اللذان شاعا في القرن ٧هـ/١٣م. ولقد شيدت الخانات

على طراز يؤمن راحة المسافرين، ويلبي احتياجاتهم، ويسهل قيامهم بعملية بيع وتبادل سلعهم.

في الحقبة العثمانية، و"لأجل ضمان السفر المريح والأمن على هذه الطرقات فقد بادر السلاطين أنفسهم إلى بناء منشآت في إطار الأوقاف، كما شجعوا رجال الدولة والبلاط على أن يحذوا حذوهم في ذلك بعد أن منحوهم الحيازات الكبيرة .وكانت بعض هذه المنشآت تشبه " العمارات "في المدن، إلا أنها كانت تقتصر هنا على الخان واستراحة القوافل وربما على جسر أيضاً... (حيث) قام مراد الثاني في سنة ١٤٤٣م ببناء جسر حجري ... على نهر أركنه Ergene قرب أدرنه .وقد بنى في نهاية الجسر خاناً يستقبل المسافرين ويقدم لهم الوجبات المجانية[٥] "...ثم ازدهرت عمارة الخانات، وانتشرت بشكل ما لبث أن تحول محيطها إلى مكان جذب عمراني، كما حصل لخان العسل بالقرب من حلب حيث كان سبباً لوجود قرية خان العسل حوله، وخان الحرير

---

(٣) خان دار الوكالة في طرابلس يعود إلى العهد المملوكي؛ عمر عبد السلام تدمري :تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في العصر المملوكي، من الفتح المنصوري حتى الآن،٦٨٨ -١٣٩٤هـ/١٢٩٨-١٩٧٤م.دار البلاد، طرابلس ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، الهامش ص ٣٦

(٤) القيسارية، أو القيصرية :هي مبنى ذو فناء داخلي مستطيل الشكل تُفتح عليه دكاكين أو ورش الحياكة، ودومينيك شوفالييه :مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية الأوروبية، نقلته عن الفرنسية منى عبد الله عاقوري، نظر في الترجمة أحمد بيضون، دار النهار، بيروت ١٩٩٤، ص ٣٨٢ و٥١٧

(٥) خليل اينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار. ترجمة محمد الأرناؤوط، الطبعة الأولى، دار المدى الإسلامي، بيروت ٢٠٠٢ ، ص٢٢٧

في سد البوشرية في ساحل المتن الشمالي في لبنان حيث نمت وتوسعت قرية الجديدة المتن لتصبح مدينة كبيرة، وخان يونس في فلسطين حيث نشأت قرية خان يونس على اسم الخان الذي بناه الأمير يونس المعني في القرن السادس عشر للميلاد، وخان الجمهور قرب مدينة بعبدا عاصمة متصرفية جبل لبنان من سنة ١٨٦١م إلى سنة ١٩١٨م، حيث نشأت ونمت قرية الجمهور الحالية هناك على طريق بيروت - دمشق[٦]، وتأسست بالقرب منها مدرسة سيدة الجمهور التي تعد من مدارس الدرجة الأولى الخاصة في لبنان، كما أقيمت على أنقاضه محطة الجمهور لسكة الحديد التي تربط بيروت بدمشق؛ وخان عين صوفر الذي بسبب دوره الاقتصادي انتقل أهالي قرى الجرد والمتن كشارون وبدغان وقبيع للسكن بقربه وبناء قرية صوفر الحالية التي لعبت، من خلال موقعها ألاصطيافي الجميل، وفندقها الكبير، دوراً هاماً، في النصف الأول من القرن العشرين، في السياسة العربية المعاصرة، وكمحطة أساسية على طريق دمشق بيروت آنذاك، أومن خلال استقطابها للمصطافين العرب من زعماء ورؤساء وملوك(مصر والعراق والحجاز ولبنان والأردن وسورية) في تقريب وجهات النظر التوحيدية بينهم والتنسيق بين دولهم، فكانت من ثمرة لقاءاتهم ولادة فكرة الجامعة العربية، عام ١٩٩٤م، وغيرها من الأمثلة العديدة.

أنواع الخانات بالنسبة لموقعها

كانت الخانات حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، موجودة في المدن وفي بعض المناطق شبه النائية، وعلى الطرقات الترابية التي كانت تربط الولايات بعضها بالبعض الآخر .وكان زوار وزبائن تلك الخانات هم من عابري

(٦) لقد تم عام ١٨٥٨م تلزيم شق طريق بيروت - دمشق لشركة فرنسية بهدف تعبيدها ل تصبح صالحة سير العجلات ، (العربات) أسد رستم :لبنان في عهد المتصرفية، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٣م.ص ٩٨٢

السبيل والتجار والقوافل التي كانت تذهب بتجارتها من بلاد مصر إلى بلاد الشام على سبيل المثال، فكانوا يحطون رحالهم بتلك الخانات بعد سفر مرير وشمس حارقة وعطش جمالهم وخيولهم(٧) ولكن مع تقدم العلاقات التجارية بين الغرب الأوروبي ومدن المشرق العربي بشكل خاص والبلاد العثمانية والإسلامية بشكل عام اتسعت دائرة الخانات لتغطي مختلف المدن والطرقات العثمانية ذات الصلة بالتجارة المحلية والإقليمية والقوافل العالمية .وهكذا، كانت الخانات على نوعين:

الأول :وهي التي تبنى على طرق التجارة خارج المدن وتسمى خانات الطرق كخان المديرج وخان

الخفر (خان مراد) وخان مزهر، وخان المصنع والجديدة على طريق بيروت دمشق(٨).

والثاني :وهي التي كانت تبنى داخل المدن بشكل عمارات ترتبط بالأسواق التجارية، وتكملها، وتقوم بوظائف مساعدة لها، كخان الإفرنج وخان الرز وخان الزيت في صيدا(٩)، وخان الصابون وخان الخياطين وخان العسكر في طرابلس(١٠).

---

(٧) مازن علي حاجي :الخان، مقال منشور في مجلة" الحقيقة "الكردية العراقية، تاريخ٥/١/٢٠٠٩.

(٨) مصور خريطة خانات طريق بيروت -دمشق، سالنامة ولاية سورية محرم ١٢٩٨هـ /كانون الأول ١٨٨٠م، وشوال ١٣٠٩هـ /أيار ١٨٩١م .وثيقة رقم١

(٩) الصور المرفقة؛ وطلال ماجد المجذوب :تاريخ صيدا الاجتماعي ١٨٤٠-١٩١٤م. المكتبة العصرية. بيروت-صيدا،١٤٠٣هـ/١٩٨٣.ص ٢٨١-٢٨٢

(١٠) الصور المرفقة؛ وعمر عبد السلام تدمري :تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس...، مرجع سابق الهامش، ص ٣٦؛ وسميح الزين :تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً منذ أقدم الأزمنة حتى عصرنا الحاضر، دار الأندلس، بيروت. ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ٤٣٧ و٤٣٨.

خانات طريق بيروت - دمشق

شاعت الخانات على طرق القوافل الممتدة بين المدن في الولايات العثمانية، وكانت المسافات فيما بينها خارج المدن الكبرى، في بداية قيامها وقبل أن تدخل المنافسة في إنشائها، تُحدد بمسيرة يوم واحد أو أقل بالنسبة لعربات القوافل ولدواب النقل، أي ما يقرب من عشرين أو ثلاثين كيلومتراً[١١]، تبعاً لوعورة الطريق وسهولتها. ولكن في بعض المناطق الجبلية الصعبة المسالك كانت المسافة تُختصر لتصبح ثلاثة أو خمسة أو عشرة كيلومترات، كما هي الحال بالنسبة لخانات طريق بيروت - دمشق على سبيل المثال لا الحصر[١٢]، حيث بلغت المسافة انطلاقاً من مدينة بيروت عام ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م أي من بداية طريق بيروت - دمشق، البالغ طولها، آنذاك، نحو ١١٣ كيلومتراً، فكان أول خان أقيم على هذه الطريق (الشوسة باللغة العثمانية، أي الطريق الصالحة لسير العجلات) وعلى مسافة اثني عشر كيلومتراً عن وسط بيروت، وعلى نحو ١٠١ كيلومتراً من دمشق الشام هو خان الجمهور؛ ثم يليه خان شيخ محمود(خان الشيخ) على مدخل مدينة عاليه (أولى مدن الاصطياف اللبناني) الذي كان يبعد عن خان الجمهور مسافة خمسة كيلومترات وعن بيروت مسافة ١٥ كيلومتراً وعن دمشق مسافة ٩٨ كيلومتراً؛ وعلى بعد خمسة كيلومترات من خان شيخ محمود وعشرين كيلومتراً من بيروت كان يقع خان بودخان(بائع الدخان) في بحمدون المحطة حالياً عند مدخل المتن الأعلى على مفرق قرية القرية التي كانت مركز معامل حل الحرير الفرنسية الحديثة آنذاك، وبإتجاه قصبة حمانا الشهيرة بشاغور مائها العذب وبموقعها ألاصطيافي الهام في جبل لبنان، أي على مسافة ٩٣ كيلومتراً من دمشق الشام .أما خان عين صوفر (قرية

(١١) عبد الرحيم غالب :موسوعة العمارة الإسلامية، الطبعة الأولى، دار جروس برس، طرابلس لبنان،٢٠٠٧، ص ١٤٠.

(١٢) مصور خريطة خانات طريق بيروت -دمشق، الوثيقة السابقة.

صوفر حالياً)، فكان يبعد عن خان بودخان مسافة خمسة كيلومترات، وعن بيروت مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً، وعن دمشق مسافة ٨٨ كيلومتراً؛ ثم خان الدارج أي المديرج التي تشكل عقدة مواصلات بين أقضية الشوف والمتن(قضاء بعبدا) وعاليه والبقاع، كان يبعد مسافة ثلاثة كيلومترات عن خان بودخان، وثمانية وعشرين كيلومتراً عن بيروت، وعلى مسافة ٨٥ كيلومتراً عن مدينة دمشق؛ وكان خان مراد يبعد عن خان الدارج مسافة تسعة كيلومترات وعن بيروت نحو٣٧كيلومتراً، وعن دمشق الشام مسافة ٧٦ كيلومتراً؛ كما كان خان قرية المريجات، أول قرية في البقاع بعد ضهر البيدر، يبعد عن خان مراد مسافة ثمانية كيلومترات وعن بيروت ٤٥ كيلومتراً وعن دمشق نحو ٦٨ كيلومتراً، وكان خان زهير في منطقة سهل بر الياس، يبعد عن خان المريجات مسافة ثمانية كيلومترات وعن بيروت مسافة 53كيلومتراً وعن دمشق الشام مسافة ٦٠ كيلومتراً؛ وكان خان المصنع (نقطة الجمارك والأمن العام اللبنانيين حالياً) يبعد عن خان زهير مسافة تسعة كيلومترات، وعن بيروت مسافة ٦٢ كيلومتراً، وعن دمشق الشام مسافة ٥١ كيلومتراً؛ أمّا خان الجديدة (نقطة العبور السورية اللبنانية ومركز الجمارك والأمن العام السوريين حالياً)، فيقع على مسافة عشرة كيلومترات من خان المصنع، ومسافة ٧٢ كيلومتراً من بيروت وعلى مسافة ٤١ كيلومتراً من دمشق الشام؛ بينما يقع خان قرية ميسلون على مسافة اثني عشر كيلومتراً من خان الجديدة ومسافة تسعة كيلومترات من خان الديماس باتجاه دمشق، وعلى مسافة ٢٩ كيلومتراً من دمشق و ٨٤ كيلومتراً من بيروت. بدوره خان قرية الديماس كان يبعد عن دمشق مسافة ٢٠ كيلومتراً وعن بيروت مسافة ٩٣ كيلومتراً .وأخيراً خان الهامة الذي كان يبعد عن خان الديماس مسافة عشرة كيلومترات تقريباً، كان على مسافة عشرة كيلومترات أيضاً من دمشق الشام، وعلى مسافة نحو ١٠٣ كيلومترات من مدينة بيروت.

وهذا إن دلت دراسة المسافة بين خانات طريق بيروت - دمشق الشام على شيء، فإنها تدل على عدم اعتماد نظرية واحدة لتحديد مسافة الثلاثين كيلومتراً، أو مسير سفر يومٍ واحدٍ للقوافل بين الخان والخان على كامل أراضي الولايات العثمانية. فمن خلال قراءة خريطة خانات طريق بيروت - دمشق الشام، يتبين أن المسافة لم تكن واحدة بالنسبة لخاناتها الثلاثة عشرة، بل تراوحت بين الخان والآخر من ثلاثة كيلومترات، كما هي الحال بين خان الدارج (المديرج) وخان عين صوفر(صوفر)، واثني عشر كيلومتراً بالنسبة لبُعد خان ميسلون عن خان الجديدة .أما لبعد المسافات الأخرى أو قربها لخانيْن عن بعضهما البعض، فلم تتعد العشرة كيلومترات، وكمدل وسطي سبعة كيلومترات(١٣).

كما أنه من خلال قراءة الخريطة الملحقة يظهر عدم اهتمام الدارسين للتاريخ والآثار اللبنانية بخانات

طريق بيروت-دمشق، على الرغم من وفرتها وأهمية الدور الإقتصادي والأمني الذي لعبته خلال القرن التاسع عشر والنصف الثاني من القرن العشرين. وجل ما اهتم به الدارسون والمؤرخون والمهندسون هو خانات مدن بيروت وصيدا وطرابلس(١٤)، وحتى أهملوا الخانات الأخرى مع أنها كانت كثيرة كما

(١٣) مصور خريطة خانات طريق بيروت -دمشق، وثيقة رقم ١.

(١٤) عمر عبد السلام تدمري :تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس...، مرجع سابق، ص ٣٥ و٣٦؛ وعبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، مرجع سابق ص ١٣٢-١٤٦، وسميح الزين :تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً مرجع سابق، ص ٢٣٧و٤٣٨؛ ومحمد البابا : طرابلس في التاريخ، تحقيق فضل المقدم وعمر عبد السلام تدمري، وضع فهارسه وأشرف عليه عبد الله البابا، الطبعة الأولى، جروس برس(طرابلس) ن ١٩٩٥م، ص ٣٦٥-٣٦٦، ونهدي صبحي الحمصي :تاريخ طرابلس من خلال وثائق المحكمة الشرعية في النصف الثاني من القرن السابع عشر، مؤسسة الرسالة ودار الإيمان، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٦، ص٦٢ و٦٣، وفؤاد خوري :من مشارف المئة، لبنان: وجوه حضارية، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، رقم ٣٧ ، بيروت ١٩٨٧ ، ص ٣٩٩-٤٠٤، 212؛ وحسان حلاق :بيروت المحروسة في العهد العثماني، الدار الجامعية ، بيروت ١٩٨٧ ، ص ٩٥-

في زحلة البقاع التي ضمت سبعة خانات، والنبطية في جبل عامل خمسة خانات، وجونية ثلاثة خانات، والبترون أكثر من عشرة خانات، وراشيا الوادي ثلاثة خانات، ومشغرة أربعة خانات، وجزين ثلاثة خانات... الخ(١٥).

هندسة الخان

أما من حيث التصميم، فكان الخان، إجمالاً، مربع المسقط، أو مستطيل الشكل، وغالبًا بطبقتين اثنتين يصل ارتفاعهما إلى ٨أمتار، تحتل أركانه أبراج للمراقبة والدفاع .وقد يحيط به سورٌ خارجي مدعم وبوابة مصفحة ضخمة محكمة الإغلاق ليلاً، وكأنه حصن صغير .وكانت غرف المسافرين موزعة بين الطبقتين أو في الطبقة العليا فقط .وفي بعض الخانات المتواضعة، كانت قاعة النوم مشتركةً على شكل علية واسعة يرقدُ فيها المسافرون على منصاتٍ مرتفعةٍ قليلاً عن الأرض، كما تُستعمل للجلوس عليها نهاراً.

ويحتوي الطابق الأرضي، عادةً، على غرف متعددة واسعة ومناسبة لخزن البضائع، وصالحة كمكاتب محلات ودكاكين للتجار، إضافة إلى وجود إسطبل واسع ومعالف للدواب.(١٦) بينما يحتوي الطابق الأول على غرف صغيرة تفتح على رواق متقدم يلتف حول الأضلاع الأربعة للخان، ويفتح على الفناء بعقود محمولة على دعامات، وتستخدم الغرف للنوم أو كفندق بحيث يحتوي على غرف فخمة لنزول التجار الأغنياء والوجهاء، وأخرى عادية لنزول المسافرين

٤٩٦؛ وعصام شبارو :تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، دار مصباح الفكر، بيروت ١٩٨٧ ، ص ١٧٦-١٧٩؛ ورفعت صدقي النمر ، وصالح لمعي مصطفى ، وحسان حلاق ، وحسن زعرور، وحنان قرقوطي (كتاب مشترك) بيروت في المرحلة العثمانية، منشورات تاريخ العرب والعالم، بيروت، (ب .ت) ص ٣٧-٣٨، وطلال المجذوب :تاريخ صيدا الاجتماعي ١٨٤٠-١٩١٤م. مرجع سابق ٢٨١-٢٨٢، وعيرها الكثير من المراجع والجرائد والمجلات.

(١٥) استطلاع شخصي

(١٦) محمد سعيد القاسمي، وجمال الين القاسمي، خليل العظم: قاموس الصناعات الشامية. حققه وقدم له ظافر القاسمي، دار طلاس. دمشق ١٩٨٨، ص ١١٩

والناس العاديين. وجاءت الواجهات الخارجية للخانات مرتفعة حصينة تؤمن حماية من فيها من اللصوص وأصحاب السوء. وعليه فأغلب الخانات كانت ذات مدخل وحيد ضخم، يسمح بدخول القوافل، وهو مزود بباب كبير وبمتاريس تشبه أبواب الحصون، ويحتوي الخان عادة، في المدن الإسلامية الطابع، على مسجد صغير.

ولقد استُعمِلَت في بناء الخانات مواد تغيرت مع الموقع .فقد تكون من طينٍ أو من قرميدٍ مشوي أو نيئ، كما هي في العراق وإيران ومصر، أو من حجارةٍ كلسيةٍ أو بازلتية كما هي في الشام ولبنان وتركيا. ومن الملاحظ أن خانات السهول كانت أوسع من خانات الجبال[١٧]. كما كانت خانات البلاد الباردة تُلو من الصحن المكشوف .ولقد أخذت الخانات إجمالا، بعد انتشار الإسلام، تصميمين رئيسين :الأول إيراني بِقَاعاتٍ متطاولةٍ موازية للصحن المركزي. ولكن هذا التصميم ما لبث أن أخذ شكل الأواوين.

وقد احتلت البوابة في عمارته مركزًا على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية .أما التصميم الثاني فهو بأربعة أضلاعٍ وصحنٍ مركزيّ تحيط به الأروقة، قديم العهد، يعُرَف بطراز البحر الأوسطي.[١٨] أما النوع الثاني فكان خانات المدُن القديمة التي كانت تشترك مع خانات الطرق في ما تقدم من خدماتٍ؛ وتضم من مرافق، وتُتلف عنها في أخرى، إضافةً إلى ما كان يمكن أن تقدمه المدينة بشكلٍ أفضل لزوارها، كالحمام والمسجد والمطعم وشغل البيطار وغير ذلك من الضروريات والكماليات .وتصميم خان المدينة، بشكلٍ عامٍ، لم يتغير على مر العصور. فأخذ تخطيط صحنٍ مركزيٍ مكشوفٍ يتوسطه حوض. وتحيط بالصحن بوائك أُقيمت الدكاكين تحتها، لتبقى أبوابها محميةً من الحر صيفًا

---

(١٧) أميرة جبر: الرحالة الفرنسيون في موطن الأرز. دراسات وإنطباعات عبر القرن التاسع عشر (١٧٨٨-١٩١٨)، مطبعة خليفة. بيروت، ١٩٩٣، ص ٣٤٠

(١٨) عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٢٢

ومن المطر شتاءً. ومن الناحية الإدارية، قد يكون الخان مؤسسةً دينيةً مرتبطةً بوقفٍ يحُول ريعه لصيانة مدرسةٍ أو مسجدٍ أو إطعام مسكينٍ أو فقيرٍ. كما كان الحال بالنسبة لخان قيسارية صيدا (قيصرية) أي خان الحرير الجاري في أوقاف أحمد كجك باشا العائد ريعها للحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد كانت هذه القيسارية تعرف أحيانا بقيسارية طنطش نسبة إلى ناظر وقفها آنذاك الشيخ محمد طنطش.(١٩)

كما اشتهرت الخانات بواجهاتها المزُينة بزخارف جميلةٍ ومداخلها القوسية الضخمة التي كانت تُغلَق بواسطة مصرعي بابٍ خشبيّ مصفح بالحديد والنحاس. وأصبحت أكثر باحاتها مسقوفة بالقباب والعقود .بينما كانت خانات الطرق تمثل المحطات الحساسة على مفارق الطرق ومجاري المياه ومراكز الحدود، لذلك احتلت خانات المدُن مداخل المدن، خارج السور أو داخله أيام السلم وفي قلب الأسواق وجوار الحمام والمسجد.

ويبدو أن هندسة الخان في الجبل كانت تختلف عنها في المدينة .هذا ما أكده الكونت دي باراديو (de PARADIEU) حين أشار إلى أن الخان في المدينة "يتألف عادة من ساحة تحيط بها عدة أروقة مصوَّنة، ومن طبقتين: واحدة سفلية مخصصة للمخازن والإسطبلات، وثانية علوية، تتألف من عدة غرف ذات شرفات ...أما الخان في الجبل، فما هو بنظره، إلا عبارة عن أكواخ حقيرة سوداء قذرة تعج بالحشرات، ويتكدس فيها البشر فوق البهائم.... أما الجدران، فيراوح ارتفاعها بين سبعة أو ثمانية أقدام .وهي مكسوة بقطع من الخشب المصقول. فيما كان السطح الذي هو عبارة عن رزمة من الحطب الجاف، يرتكز إما على عمود واحد أو اثنين ...وهناك غرفتان متشابهتان كان يشغلهما عربي أو اثنان، كانت توكل إليهما مهمة استيفاء الرسوم المتوجبة على النزلاء، فضلاً عن بيع

---

(١٩) طلال المجذوب: تاريخ صيدا الاجتماعي ١٨٤٠-١٩١٤، مرجع سابق، ص ٢٨٣.

القهوة والفطائر للقوافل التي كانت تمر من هناك ...ويشير ... أخيراً إلى أنه لم يكن للخدم والعبيد والمكارين والأحصنة مكان في الداخل، بل كان عليهم المبيت في الهواء الطلق خارج الخان".[٢٠]

بينما عرفت مدينة بيروت في نهاية القرن التاسع عشر الخانات التي شغل بعضها" بناية كبيرة ضخمة ذات طبقات بعضها فوق بعض وغرف متعددة يستعمل قسم منها مكاتب لأعمال متنوعة، وآخر مساكن كخان أنطون بك المشهور القائم في أقصى الجانب الشمالي من بيروت .وخان فخري بك في الجانب الغربي .وخان تابت لصيق هذا الخان من جهته الشمالية .وخان البربير في وسط سوق القزاز (الزجاج) المشهور قديماً.[٢١]

ولقد كان يُطلق على بعض الخانات المتصلة بالتجارة اسم" قيسارية" كقيسارية الحرير (القيسارية العتيقة) التي بنتها الأميرة أم دبوس زوجة الأمير أحمد شهاب، وقيسارية الصباغة التي بناها الأمير علي شهاب، وقيسارية الأروام التي بناها الأمير يوسف شهاب، ومن ثم تحولت إلى خان بسترس، وقيسارية الشيخ عبد السلام عماد، وقيسارية البارود التي بناها الأمير سليمان اللمعي.[٢٢] بالإضافة إلى قيساريات دير القمر وصيدا وصور وزحلة و طرابلس والبترون ...وغيرها. والقيسارية "...كانت تشتمل على مخازن ودكاكين أكثرها على النمط العربي، أبوابها تعلو عن أرضها بمترٍ تقريباً تُستعمل كشرفة ناتئة يجلس عليها التاجر متربعاً ومثله الخياطون والحدادون وبائعو الأقمشة، وهي قائمة بين الأسواق التجارية .أما تلك الأسواق فكان أغلبها ضيقاً وملتوياً لا يصل إليه أشعة الشمس إلا قليلاً. وفوق تلك المخازن والدكاكين كانت طبقة

---

(٢٠) أميرة جبر: الرحالة الفرنسيون في موطن الأرز...، مرجع سابق، ص ٣٤٠

(٢١) فؤاد خوري :من مشارف المئة، لبنان: وجوه حضارية، مرجع سابق، ٤٠١

(٢٢) الأب لويس شيخو: بيروت تأريخها وآثارها، منشورات دار المشرق، بيروت، طبعة ثالثة، ١٩٦٣، ص ١٢٦

واحدة من المساكن وقل أن زادت عن طبقتين، سقوفها من الخشب القطراني المسمى كريش مستندة على جسور خشبية ضخمة إذا كانت وسيعة، وسطوحها من الحجرية المسماة "عدسة "وهي تمنع تسرب المياه إلى الداخل إذا أُتقن صُنعها، وتتألف من بحصٍ ناعمٍ يؤخذ من شواطئ الأنهر، ومن رمل أبيض فكلس عربي يصير جبله، ومده بسماكة عشر سنتيمترات على طبقة من فضلات الحجر الرملي وغير الرملي تدعى نحاته، وخطبه جيداً مدة يومين بمخباط خشبي"[٢٣] وكان بعض الخانات عظيم الاتساع كخان التماثيلي في طرابلس الذي تم بناءه في عهد المماليك، ثم جدد بناءه الوزير العثماني محمد الدفتردار في عهد السلطان سليم الأول، ويشغل مبنى هذا الخان مساحة سطحية تقدر بـ٢٢٠٢ متراً مربعاً، ويتألف من طبقتين(طابقين)، هما :الطبقة الأرضية التي تضم ٣١غرفة كان يستعملها التجار كمكاتب لتجارتهم وأماكن لإيواء دوابهم، وتتصل بالطبقة الثانية بواسطة ثلاثة سلالم، حيث تتوزع نحو ٤٤ غرفة مخصصة لإقامة التجار ومبيت الوافدين من الأماكن البعيدة.[٢٤] ولكن هذا الخان لم يصل إلى اتساع خان الجمُرك في حلب الذي يعود تاريخه إلى عام ١٥٧٤م. فقد ضم هذا الأخير، اثنين وخمسين مخزنًا، وسبعًا وسبعين غرفة وسوقين مبنيين بالحجر المهُندَم، يصل إليهما الضوء من قببٍ عشر تعلوها . وكان مجموع دكاكينه ثلاثمائة وأربعة وأربعين، وإلى جانبها سبيلان ومسجد[٢٥]، ...الخ.

ولعل أشهر خانات لبنان في القرن التاسع عشر، كان الخان الفرنسي(الإفرنج) في صيدا .فهذا الخان الذي بناه الأمير فخر الدين الثاني في

(٢٣) فؤاد خوري :من مشارف المئة، لبنان: وجوه حضارية، مرجع سابق، ص ٤٠٠

(٢٤) نعيم عصافيري: خانات طرابلس تحَول بعضها مستودعات وتّهدم البعض الآخر. تحقيق نشر في جريدة "النهار البيروتية"، الأحد في ١٤ تشرين الأول، ص ١٣

(٢٥) عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، مرجع سابق، ص١٤٢

أوائل القرن السابع عشر، في حدود عام ١٦٢٠م. أي بعد عودته من منفاه في إيطاليا عام ١٦١٨م. كانت مساحته تبلغ حوالي خمسة آلاف متر مربع، ويتوسطه صحن مربع الشكل، في وسطه حوض تحيط به الأشجار، ويدور حول الصحن أربع محنيات كل منها يتألف من سبعة عقود منكسرة ومرتفعة مكوِّنة البوائك(أمكنة إيواء الدواب) التي تطل على غرف وتسند ما بين العقود ركائز مستطيلة الشكل تنتهي من أعلى بمسطحات مائلة، كما وصفه عام١٨٨٠م، لورته (L.LORTET)، متابعاً بقوله بأنه عبارة عن" مساحة مربعة فسيحة قياس جنبها، مائة وخمسون قدماً، وتحيط بها قناطر عالية ذات قباب، وفيها حوض أنيق من الرخام، تصل إليه المياه من أحد الينابيع المجاورة وتظلله أشجار باسقة من أشجار البلاد الحارة، وشجرات موز كبيرة .وكان هذا الخان الواسع يحتوي وكالة قنصلية فرنسا، ودير للآباء الفرنسيسكان، ومدرسة إبتدائية، وفيه نزل (فندق صغير) ومخازن، ومستودعات للبضائع، ومرابط للخيول وغيرها"[(٢٦)]

ويلي خان الإفرنج شهرةً خان الخياطين في طرابلس المعروف أيضاً بخان الحريريين الذي يعود إلى العصر المملوكي .وكما يدل اسمه، فهو مخصص للخياطين، ويقال إنه بني على بقايا مبنى صليبي مما يزيد من أهميته تاريخياً. ويتميز بتصميم مختلف فهو كناية عن شارع مقفل .وخان المصريين الذي أقيم على ما يبدو في النصف الأول من القرن ١٤ للميلاد ويتألف من فناء تتوسطه بركة ماء وتحيط به طبقتان، خصصت السفلى منهما للبهائم والبضائع، فيما خصصت العليا للنزلاء .وتطل هذه الغرف على الفناء من خلال أروقة معومدة.

---

(٢٦) لويس لورته: مشاهدات في لبنان، فصول عن لبنان من كتاب "سوريا اليوم"، نقلها إلى العربية وعلق حواشيها كرم البستاني، ضمن سلسلة مباحث أجنبية في تاريخ لبنان، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، بيروت، ١٩٥١، ص ٩٨، وأميرة جبر: الرحالة الفرنسيون في موطن الأرز....، مرجع سابق، ص٣٣٩. وانظر الصورة الملحقة رقم٢.

وخان الصابون الذي يتميز بأنه الوحيد الذي لا يزال يحتفظ ببابه الأصلي المصنوع من الخشب، كما لازال حتى اليوم محافظاً على وظيفته في إنتاج الصابون الفاخر وتسويقه .وهناك خان العسكر الذي بُني في عصر المماليك أواخر القرن ١٣ بهدف استعماله كثكنة للجيش مما يفسر اسمه. وهو من أكبر الخانات في طرابلس ويتميز ببنائه الذي يتألف من مبنيين.(٢٧)

وهكذا بُني الخان ليضم مستودعات لحفظ البضائع وإسطبلاتٍ مختلفةً لإيواء العربات وأنواع الحيوانات التي لا تتجانس في الزرائب عادةً. حيث كانت الخيول، مثلاً حسب رأي المكارين وأصحاب مهنة البيطرية، تأنف من روائح الإبل. والبغال لا تسكن مع الحمير. وكانت الإسطبلات مجهزة بلوازم إصلاح المركبات ومعدات البيطرية للعناية بالدواب ورعايتها. وإلى جانب تلك المرافق والخدمات، هناك الحوض للمياه في وسط الصحن ومشرب البهائم، والفرن والمصُلى، وكذلك في بعض الخانات الحمام.

وظيفة الخان الاقتصادية

كان الخان، يعتبر من المؤسسات العامة التي أنشئت في مستهل القرن السابع عشر، لأغراض تجارية، ثم اتسعت أهدافها فيما بعد، لتشمل مهمات سياحية وسياسية وصناعية.(٢٨) من هنا كانت وظيفة الخان في المدينة استقبال التجار بشكلٍ عامٍ، من باعة الجمُلة ومُروجي البضائع ومراسلي المستوردين والوسطاء .وفي هذا المكان كان يتم البيع والشراء، وكأن المكان لم يعد فقط، لإيواء المسُافرين بل لاستقبالهم ريثما يقومون بأعمالهم التجارية .وكما كان لكل بضاعةٍ دار، صار لها أيضاً خانٌ يرتبط اسمه بها :كخان الحرير في سد

---

(٢٧) نعيم عصافيري: خانات طرابلس تحّول بعضها مستودعات وتّهدم البعض الآخر. تحقيق نشر في جريدة "النهار البيروتية"، الأحد في ١٤ تشرين الأول، ص ١٣

(٢٨) أميرة جبر: الرحالة الفرنسيون في موطن الأرز...، مرجع سابق، ص ٣٣٩

البوشرية؛ وخان الرز وخان الزيت وخان الحمص وخان قيصرية الحرير(القيسارية) في صيدا[٢٩]،وخانات الصابون والبطيخ والقطن والدبس والخشب والدباغة والبصل والحرير والرز والرمانة واللوبيا(اللوبياء)، والعدس، والزيت، في طرابلس[٣٠]، وخان الحرير، وخان الصاغة، وخان الملاحة، وخان الشونة، وخان الموسيقى، وخان البيض، وخان القمح في بيروت[٣١]، وخان بودخان على طريق بيروت -دمشق[٣٢]، وخان الحبالين في دمشق، وخان الجوخ في إستانبول، وخان الزيت وخان الحرير في حلب... الخ. أو نسبة لأسماء بعض المهن :كخان الخياطين، والصاغة، والمنجدين، والمصريين أو العجم والعسكر، والأسرى في طرابلس .أو بالنسبة لأصحابها والقيمين عليها: كخان الإفرنج في صيدا نسبة إلى التجار الفرنسيين، وخان الحسين نسبة إلى الشيخ حسين تلحوق، وخان الشيخ محمود(محمود بو عزالدين) ، وخان مزهر نسبة إلى المقدم علي مزهر من حمانا وخان زهير وخان مراد على طريق دمشق الشام -بيروت[٣٣]، وخانات أباظة وكتافاكو وبرتران واليهود وأبو شاقة في صيدا[٣٤]،وخانات البربير، وأنطون بك(أنطون بك نجار أحد كبار التجار البيروتيين)، وحمزة وسلوم(وهو الخان الذي بناه أحمد حمزة سنو وشريكه الياس سلوم)، وسعيد آغا، وشيخ المكارية، وخان السيد، وخان فخري بك،

(٢٩) طلال المجذوب: تاريخ صيدا الاجتماعي ....، مرجع سابق، ص١٨١-١٨٢
(٣٠) سميح الزين: تأريخ طرابلس قديماً وحديثاً....، مرجع سابق، ص ٢٣٧-٢٣٨
(٣١) عصام شبارو :تاريخ بيروت منذ أقدم العصور ....، مرجع سابق، ص ١٧٦-١٧٩
(٣٢) مصور خريطة خانات طريق بيروت-دمشق، مصدر سابق، وثيقة ١
(٣٣) المصدر السابق، وثيقة رقم١
(٣٤) طلال المجذوب: تاريخ صيدا الاجتماعي ....، مرجع سابق، ص٢٨١

وثابت، وخان الحلاج في بيروت[٣٥]، وخانات المهندس، وبدور، والجاويش أو الشاويش، وميلاد، وعلوش، والعبد، والدبليز في طرابلس، أو بالنسبة لموقعها: كخان الجمهور وعين صوفر والمديرج وخان الغفر، وخان المريجات وخان المصنع وخان الجديدة وخان ميسلون والديماس والهامة وغيرها التي كانت تتوزع على امتداد طريق بيروت -دمشق القديمة[٣٦]، وخانات جونية وعبيه والبترون والهري والنبطية وخان السهل والتبانة والبوابة الفوقا، وغيرها الكثير الكثير مما يصعب إحصاؤه بسبب اندثار أثره، وغياب الذاكرة التاريخية. وأخيراً، لا بد من الإشارة هنا إلى أن الخان لعب دوراً بارزاً في التجارة اللبنانية إبان الحقبة العثمانية ولاسيما بعد إنشاء مرفأ بيروت وشق طريق بيروت-دمشق، وتنامي حركة التجارة المحلية والمتوسطية.

فقد كان مركزاً سياحياً وتجارياً في آن واحد. وفي هذا المجال أرخ المستشرقون الفرنسيون للدور الكبير الذي لعبه الخان الفرنسي في صيدا على صعيد نشر تجارة فرنسا في الشرق، حيث " يذكر الأب غودار(GOUDARD) في تلك الحقبة، أن الخان الفرنسي (الإفرنج) ما هو إلا نموذج عن تلك المؤسسات التجارية التي أنشأها باعة مرسيليا في القرن السادس عشر في جميع مدن الشرق الرئيسة. ففيه كانت، حسب قوله، تتكدس منتجات آسيا وأوروبا، وإليه كانت تجلب القرويات الحرير والصوف وخيوط الغزل، فضلاً عن البضائع التي كانت تقلها السفن الفرنسية الأربعون التي كانت تصل صيدا كل سنة. ويخلص الأب المذكور إلى القول: "إن سوق الخان كان يفتح فقط يومي الاثنين والثلاثاء من كل أسبوع وفي الليل كانت مفاتيح البابين الضخمين

(٣٥) عصام شبارو :تاريخ بيروت منذ أقدم العصور ....، مرجع سابق، ص ١٧٦-١٧٩، وفؤاد خوري :من مشارف المئة، لبنان: وجوه حضارية، مرجع سابق، ص٣٩٩-٤٠٤، وحسان حلاق :بيروت المحروسة ....، مرجع سابق، ص ٩٥-٩٦.

(٣٦) مصور خريطة خانات طريق بيروت-دمشق، مصدر سابق، وثيقة رقم١

المخصصين لدخول العربات، تسلم إلى القنصل الفرنسي..." والخان الفرنسي، على حد قول السائح داكين (DAKIN) أشبه بسوق تجارية تتكدس فيها كل منتجات فرنسا المحلية، ومنها كانت تنقل إلى جميع المناطق السورية العثمانية الأخرى .ويؤكد الأب بوراسه(BOURASSE) إن هذا الخان كان منذ القدم مركزاً حيوياً للتجارة الفرنسية .أما السائح دي سالفرت (de SALVESTE)، فيعطينا صورة أوضح عن الوضع التجاري في هذا الخان، ذاكراً " أن فناءه الداخلي كان محاطاً بمخازن تحوي جميع الأصناف التجارية كأكياس القمح والسمسم، وأكداس الصوف والقطن، فضلاً عن صناديق الفاكهة المنوعة. مؤكداً أنه كان بمثابة نزل وإسطبل في آن واحد، إذ كان المسافرون قادرين على نصب خيامهم، وربط جيادهم في الداخل".[٣٧] وكان الخان يقسم إلى خانين:

الخان الكبير، وهو بناء أرضي مستطيل مع ممر داخل القناطر حيث تقوم معارض التجار، وفي الطابق العلوي من الخان، المخازن وغرف نوم التجار والملاحين، وكان ينزل في هذا الخان التجار الفرنجة من مختلف المذاهب من يسوعيين وعازاريين وكبوشيين وفرنسيسكانيين. والخان الصغير، يقع إلى الجنوب الغربي من الخان الكبير ويتصل مباشرة بالبيت القنصلي. و" في خان الحرير في بيروت كان يتم وزن الحرير علانيةً، ويحُدد في اجتماع يضم التجار وأكبر مربي دود القز(الحرير) برئاسة معتمد الحكومة العثمانية سعر الحرير المنُتج محلياً أي الحرير البلدي الجيد والمحلول على الطريقة العربية، ويُدعى السعر" المحدد بالميزان".[٣٨] كما، نجد العديد من الخانات التي أقيمت إلى جانبها قلاع أو أبراج للمراقبة، كما استعملت بعضها كمحطات لعابري السبيل ولجباية الضرائب وضبط المهرب من الحرير والدخان والملح، كما حصل

(٣٧) أميرة جبر: الرحالة الفرنسيون في موطن الأرز....، مرجع سابق، ص ٣١٢

(٣٨) دومينيك شوفالييه :مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية الأوروبية، مرجع سابق، ص ٣٩٨

عامي١٢٧١و١٢٧٢هـ/١٨٥٤و١٨٥٦م ، عندما صادر رجال الجمرك(الكمرك) العثماني كميات من الدخان(التوتن) والحرير المهربة وحجزها على التوالي في خاني عبيه[٣٩] وجونيه من أعمال جبل لبنان .أو كان الخان جزءاً من جهاز البريد في السلطة العثمانية .وفي بعض المدن والقرى والمحطات الأساسية، تحولت الخانات البلدية إلى ما يشبه السوق التجاري وإلى مخازن للبضائع والحيوانات.

وهكذا مع نمو مدينة بيروت في القرن التاسع عشر وازدياد عدد سكانها من خمسة آلاف عام ١٨١٥ إلى ٨٠ ألف عام ١٨٨٠[٤٠] ....، وإنشاء وتوسيع مرفأها التجاري، بالإضافة إلى شق طريق بيروت - دمشق(الكروسة) للعربات، تطورت حركة التجارة ونمت عمليات تبادل السلع والبضائع والحبوب بين الداخل اللبناني والخارج السوري والعثماني برا، والأوروبي والمصري بحراً، إلى جانب تنامي حركة الهجرة اللبنانية السورية إلى الديار المصرية والعالم مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .كل ذلك تطلب تأمين الأماكن الآمنة والمريحة للمسافرين والمتنقلين على الطرقات العامة، وللتجار وسلعهم التجارية بانتظار تصريفها وبيعها في الداخل العثماني أو تصديرها إلى الخارج. لذا نشأت الخانات وتوسعت عدديا، وغطى انتشارها مختلف المناطق اللبنانية ساحلاً وجبلاً وسهلاً. وكانت على نوعين :النوع الأول أقيم على طُرُق السفر خارج المدُن الرئيسة كبيروت وطرابلس وصيدا وصور، وبخاصة على طريق بيروت-دمشق، حيث كان هذا النوع من الخانات يمثل المحطات الحساسة على مفارق الطرق ومجاري المياه ومراكز الحدود. أما الثاني فأنشئ عند مداخل

(٣٩) سليم حسن هشي: سجل محررات القائمقامية النصرانية في جبل لبنان، منشورات المديرية العامة للآثار، قسم الدراسات التاريخية، مخطوطة رقم ٢٥-٦٢، الجزء الأول، بيروت-لبنان ١٩٧٤-١٩٧٥، ص ٦٦، والجزء الثالث، بيروت ١٩٧٧-١٩٧٨، ص ٧٤.

(٤٠) لويس لورته: مشاهدات في لبنان...، مرجع سابق، ص ٤٦.

المدن وفي أحيائها السكنية، وغالباً في جوار الحمام والمسجد، وقرب المرافق التجارية كمحطات القوافل والموانئ البحرية.

ولكن، لم يبق من كل تلك الخانات إلا عدد قليل، واقتصرت خدماتها على استعمال مستودعاتها ودكاكينها من قبل مستأجرين، لا تجمعهم إلا نادرًا تجارةٌ مشتركةٌ أو مِهَنٌ واحدةٌ، وربما سكنت غرفها المتداعية عائلاتٌ فقيرةٌ كما هي الحال في خان الرز في صيدا حيث يسكن اللاجئون الفلسطينيون. وهذا ما ينطبق على طرابلس أيضاً.

ومع تطور المجتمعات المشرقية صناعيا وتكنولوجياً وتجارياً، وبعد شق الطرقات المعبدة وإقامة سكك الحديد، أصبحت الخانات تُتفي شيئاً فشيئاً، ليحل مكانها ما سُمِّي آنذاك ب" النزل" ، أي المكان الذي ينزلون به للمبيت لليلة واحدة أو ليلتين وأكثر. كما ظهرت السيارات والشاحنات والطائرات التي حلت محل الجمال والخيول وقصرت المسافات بين الولايات التي أصبحت بدورها دولاً ذات سيادة وحدود، أو أضحت محافظات ومقاطعات من دول، وسكانها يحملون البطاقات الشخصية وجوازات السفر، فانقرضت بذلك الخانات وتبعها النزل وحلت مكانها الفنادق، واقتصرت الخانات على الطرق العامة والمناطق النائية. وهذا ما جعل الدول تسعى وتعمل على فتح مدارس ومعاهد خاصة لتدريس ما يسمى بالفندقية التي أصبح لها شهادات دراسية عالية للتخصص بها، ككليات ومعاهد السياحة والفندقة في الأردن ولبنان وغيرهما من دول العالم.

بعض الاستنتاجات

لقد كثرت الخانات في المدن اللبنانية الكبيرة كصيدا وطرابلس والنبطية وبعلبك، وجونية وزحلة والبترون وغيرها خلال القرن التاسع عشر، وكانت

بمنزلة الفنادق الصغيرة أي اللوكندات عند الغربيين[٤١] ينزل فيها الغرباء عن المدن من التجار والمكارية، وعابري السبيل، وبعض طالبي الهجرة إلى الخارج .ولكن هذه الخانات ما عدا خان الإفرنج في صيدا، وخان أنطون بك، وخان فخري بك، وخان تابت في بيروت لم تستهوِ المستشرقين الأوروبيين ولا تجارهم ومرسليهم التبشيريين الذين استعاضوا عنها بالأديرة والأبنية الكنسية التي استقبلتهم بحفاوة وأكرمتهم بحسن ضيافتها، والتحدث بلغاتهم.

بينما كان المسافرون الشرقيون ينامون في الخانات التي لا تحتوي على أثاث وفرش، فيضطرون إلى حمل حوائجهم معهم ليتمكنوا من الإقامة في هذه الخانات، التي انتشرت في بيروت بكثرة حتى وصلت إلى أكثر من ثلاثين خاناً، مثل :خان شيخ المكارية، وخان السيد، وخان البربير، وخان حمزة وسلوم ، وخان الشونة، وخان أنطون بك، وخان فخري بك، وخان ثابت، وخان الأروام، وخان سوق الطويلة، وخان الحلاج، وخان الحرير، وخان التوتة، وخان سعيد آغا، وخان الصغير، وخان الموسيقى، وخان النورية، وخان البيض، وخان الكنفاني، وخان الدركة، وخان الصاغة، والخان القديم، وخان الحلواني، وخان سيور، وخان السادات بيهم، وخان الوحوش، والخان الصغير، وخان الأمير أمين، وخان الدباغة، و خان الملاحة، وخان بسترس...، وغيرها مما اندثر أو لم نتوصل إلى إحصائه .وكان في مدينة صيدا مع نهاية القرن التاسع عشر حوالي خمسة عشر خاناً، هي :خان الإفرنج وخان الرز وخان الحرير وخان الزيت وخان القشلة القديمة وخان المطرانية وخان الشاكرية، وخان الفاخورة، وخان البوابة الفوقا، وخان الجسر الأولي على مدخل علمان، وخان أباظة وخان كتافاكو وخان برتران وخان اليهود وخان أبو شاقة...

---

(٤١) فؤاد خوري :من مشارف المئة، لبنان: وجوه حضارية، مرجع سابق، ص٣٩٩

وتعتبر خانات طرابلس الأثرية مقصد السياح وخصوصا علماء الآثار وذلك لأنها تقع في وسط المدينة، وهي من خلال عددها الذي يفوق على العشرين خاناً، أو من حيث مساحتها، تبين أهمية التجارة وخصوصاً الأهمية الاقتصادية لهذه المدينة، وهي :خان الخياطين، وخان المصريين أو العجم، وخان دار الوكالة، وخان المهندس، وخان العسكر، وخان التماثيلي، وخان العبد، وخان الصابون، وخان بدور، وخان الجاويش أو الشاويش، وخان البطيخ، وخان الزيت، وخان ميلاد، وخان علوش،... ، وخان الرمانة، وخان الدبليز، وخان التبانة، وخان البصل، وخان لوبية أو لوبيا، وخان الأسرى بمحلة اليهود، وخان سندمر، وخان الحراج.

ولا ننسى أن الخانات لعبت دوراً هاماً في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين ولايات

وألوية بلاد الشام، وأسهمت ولاسيما في المدن الأساسية، بقيام حركة عمرانية وتراثية، ونهضة حرفية-

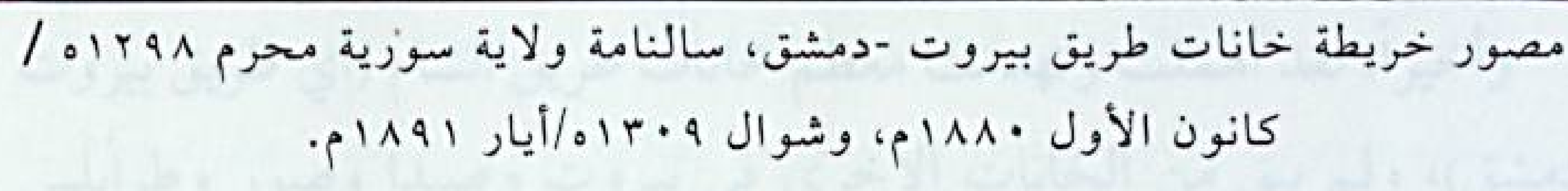
صناعية وتجارية، حيث نشأت بجوار الخان الأبنية السكنية التراثية والدكاكين والقيساريات والمستودعات والمطاعم، والقنصليات ووكالات التجارة المحلية والأجنبية. أما خارج المدن، فأمست محطات تجارية ومراكز جمركية وأمنية كان الخفر على طريق دمشق-بيروت، وبعضها محطات لسكة الحديد بعد اعتمادها في بلاد الشام، كخان مزهر على طريق ضهر البيدر، وخان الوروار في بين كفرشيما والحدث، قرب صيدا، وخان الفاخورة في صيدا، والخان الجديد بين الشويفات وبرج البراجنة على نهر الغدير، على سبيل المثال.

وأخيراً، لقد أهملت وتهدمت معظم خانات طريق الشام (أي طريق بيروت دمشق)، ولم يبق من الخانات الأخرى في بيروت وصيدا وصور وطرابلس

وغيرها من المناطق اللبنانية إلا عدد قليل، اقتصرت خدماتها على استعمال غرفها كمستودعات تجارية وحرفية ودكاكين، أو ربما سكنت فيها بعض عائلات فقيرة. كما يجري حالياً في صيدا يحث تقيم عائلات من اللاجئين الفلسطينيين إلى لبنان منذ العام ١٩٤٨م، وفي طرابلس هي بمعظمها أماكن سكنية للعائلات الطرابلسية الفقيرة أو المهجرة من مناطق الاشتباكات المسلحة في بعض الأحيان.

لذا المطلوب إعادة ترميم الخانات الحالية وبناء الخانات المهدمة إحياء لأهميتها التراثية والعمرانية

ولدورها الاقتصادي السابق في إرساء التواصل التجاري والثقافي بين مختلف مكونات المجتمع العثماني الحضارية في بلاد الشام. كما يمكن إيلاء دراستها التاريخية والتراثية والعمرانية أهمية خاصة، وذلك لما تُتزن من ذاكرة تاريخية مشرقة في تاريخ الحكمين المملوكي والعثماني لبلاد الشام، ونهضتهما الاقتصادية بانفتاحهما على البلدان الشرقية والغربية على حدٍ سواء.



مصور خريطة خانات طريق بيروت -دمشق، سالنامة ولاية سورية محرم ١٢٩٨ه / كانون الأول ١٨٨٠م، وشوال ١٣٠٩ه/أيار ١٨٩١م.



ملحق رقم (١) خان الإفرنج في صيدا.



ملحق رقم (٢) خان الصابون في طرابلس.



ملحق رقم (٣) خان الرز في صيدا.



ملحق رقم (٤) خان قيسارية الحرير في سد البوشرية قرب بيروت.

ملحق رقم (٢) خان الصابون في طرابلس

ملحق رقم (٣) خان الرز في صيدا

تفعيل دور وثائق الأرشيف العثماني في الدراسات المعمارية والعمرانية
(الخانات العثمانية في حلب نموذجا)

م . ربى قاسمو*

ملخص البحث

شكلت وثائق الأرشيف العثماني مادة غنية للدراسات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية التي أنارت لنا جوانب عديدة كانت محل غموض في تاريخ الدول العربية وتاريخ بلاد الشام بشكل خاص .لكن من الملاحظ إن الدراسات المعمارية والعمرانية كانت أقل المجالات نصيبا من الاستفادة منها. حيث لم تتجاوز إعادة رسم الفراغات العمرانية للمراكز الحضرية والريفية بناء على المعلومات الواردة في هذه الوثائق ولم تستفد منها الدراسات المتعلقة بالأبنية المميزة وتاريخها المعماري.

انطلاقا من هذا تبرز أهمية موضوع البحث الذي يعرض أمثلة تمت فيها الاستفادة من الوثائق العثمانية ضمن دراسة أجريت لوضع مخطط لحماية وتطوير الخانات الموجودة في المركز التجاري التاريخي في مدينة حلب[١]. تم اختيار الأمثلة بحيث تغطي مستويات متعددة للمعلومات التي يمكن الحصول عليها من هذه الوثائق. فهناك المعلومات التاريخية العامة والمعلومات

---

* الدكتور.

(١) أجريت الدراسة بما تتضمنه من أعمال توثيق حقلية ودراسات أرشيفية بين عامي ٢٠١٠ و ٢٠١٢ أي قبل الحوادث المؤسفة التي أدت إلى حريق الأسواق وانهيار أجزاء واسعة من المركز التجاري التاريخي في مدينة حلب.

العمرانية التي تساعدنا على فهم توزع المنشآت ضمن النسيج العمراني التاريخي وأخيرا المعلومات المعمارية المتعلقة بفهم الفراغات والوظائف ضمن المبنى الواحد.

ساهم الرجوع إلى الوثائق العثمانية الخاصة بخانات مدينة حلب في تصحيح واستكمال العديد من المعلومات التاريخية والمعمارية الواردة في المراجع السابقة. كما أن المعلومات الواردة في هذه الوثائق وظفت لتوضيح سياق تطور عمارة الخانات المحلية، مما أكد مجموعة من الفرضيات حول تكيف نماذج التصميم مع المتطلبات والوظائف المستجدة لهذه الخانات.

إلى جانب ذلك فإن النصوص المعمارية العثمانية تشكل قيمة استثنائية بحد ذاتها بما تحويه من مصطلحات ومقاييس ومعلومات عن دور المعماريين في مدن الأقاليم، مما يفتح المجال لدراسات تاريخية معمارية مقارنة ذات أهمية بالغة لفهم النشاط العمراني والمعماري في بلاد الشام خلال الفترة العثمانية.

١ - مقدمة

تعد مدينة حلب مركز المنطقة الشمالية في سوريا الحديثة وهي واحدة من أقدم مدن العالم. تميزت المدينة عبر تاريخها الطويل بكونها مركزا مهما للتجارة الإقليمية والدولية بسبب مواردها المحلية وموقعها الجغرافي المتميز. برز الدور التجاري الدولي للمدينة بشكل كبير بدءا من النصف الثاني من القرن الخامس عشر مع تحول طرق التجارة التي تنقل البضائع الآسيوية إلى البحر الأبيض المتوسط جنوبا نحوها[٢]. لذا كان من الضروري تأسيس منطقة تجارية مركزية في المدينة يمكنها أن توفر الحماية والخدمات ووسائل الراحة للتجار المرافقين للقوافل. وهكذا بدأ أمراء المدينة المماليك بتأسيس نواة هذه المنطقة

(٢) للمزيد عن دور حلب في التجارة الدولية والإقليمية انظر ماسترز.

عن طريق إنشاء الخانات الكبيرة وتوسعة الأسواق الموجودة حول الجامع الكبير ضمن حملة بناء واسعة لاتزال أجزاء كبيرة منها باقية إلى يومنا هذا.

مع ضم المدينة إلى الدولة العثمانية في عام ١٥١٦م، تحولت حلب من مدينة تقع على الحدود الشمالية لدولة المماليك إلى مركز حضري داخلي محمي بشكل جيد من العدوان الخارجي .علاوة على ذلك، فان توسع الإمبراطورية العثمانية باتجاه العراق وشمال أفريقيا والحجاز خلق سوقا إقليمية كبيرة يمكن للمسافرين وقوافل التجارة التنقل ضمنها بحرية وبذلك فتح أفاقا جديدة للتجارة في حلب. ترافق هذا مع تطور التجارة الشرقية مع أوروبا ودعم السلاطين العثمانيين لهذه التجارة عن طريق معاهدات الامتياز وتخديم طرق القوافل وإنشاء الموانئ التي تربط المدينة بالبحر المتوسط مثل بياس والأسكندرونة. وهكذا أصبحت حلب تدريجيا ثالث مدينة في الإمبراطورية العثمانية بعد إسطنبول والقاهرة من حيث عدد السكان والنشاط الاقتصادي والنمو العمراني. كانت الحاجة إلى المنشآت التجارية أو الحرفية كبيرا جدا وجاءت المجمعات الوقفية التي أنشأها الولاة العثمانيون بشكل متوال لتلبي متطلبات هذا النمو المتسارع .تميزت هذه المجمعات بالمساحات الكبيرة والأبنية متعددة الوظائف، مما خلق البنية التحتية اللازمة لسير التجارة. ومن جهة أخرى فقد ساهمت التفاصيل المعمارية والزخرفية المتقنة في هذه المنشآت في خلق فراغ مديني متنوع ذو قيمة فنية متميزة. مع إنشاء هذه المجمعات تضاعفت مساحة المركز التجاري وتحول إلى حي مكتف ذاتيا أطلق عليه- وما زال- اسم (المدينة). تألف هذه الحي من شبكة من الشوارع والمحلات التجارية والورش والقيساريات والخانات والمساجد والمدارس والحمامات، كلها مجتمعة تحت سقف واحد[٣] (شكل١) ولقد أشاد الرحالة

---

(٣) انظر ريمون، ص ٢٨-٣٠.

التركي أوليا جلبي الذي زار حلب في القرن السابع عشر بانتظام ونظافة الأسواق المركزية في حلب، أو كما أسماها السوق السلطاني، وأشار إلى وجود سبعين خانا فيها[٤].

تعتبر الخانات المباني التجارية الأكثر أهمية في المركز التجاري التاريخي حيث كانت مبان خدمية ذات وظائف متعددة من جهة ونماذج معمارية تمثل تطور العمارة المحلية من جهة أخرى. يتكون مبنى الخان في العادة من طابقين حول فناء داخلي.

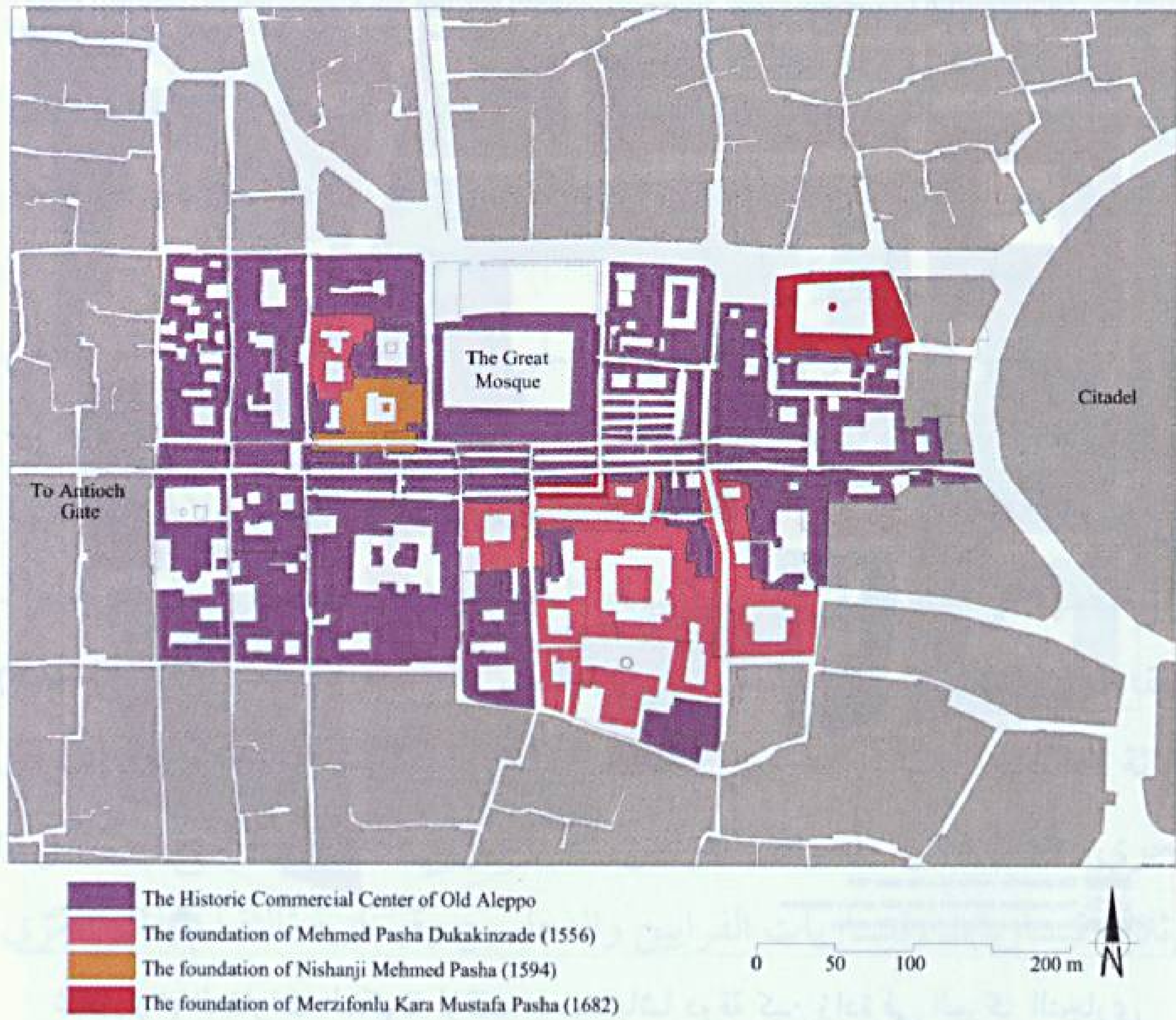
تشغل الطابق الأرضي مجموعة من الدكاكين لتسيير المعاملات التجارية وتخزين البضائع إضافة إلى مجموعة من الخدمات تشمل الإسطبلات والمطاهر (دورات المياه) والمطابخ وغرف الحراسة وغيرها. أما الطابق الأول فيحتوي على غرف معدة لاستقبال المسافرين وتجار القوافل. اكتسبت الخانات لاحقا وظيفة جديدة مع تطور التجارة الدولية وتزايد أعداد الجاليات الأوربية المقيمة في المدينة كمقرات لمكاتب القنصليات وسكن التجار الأوربيين والإرساليات التبشيرية الدينية.

تعاني هذه الخانات التاريخية من مشاكل ذات أسباب ومظاهر متنوعة. فبعضها مهمل في حالة إنشائية متردية وبعضها الآخر يكتظ بالشاغلين والاستعمالات الوظيفية المسيئة. لذا كان من الضروري إنجاز دراسة شاملة تتضمن التوثيق التاريخي والمعماري وتحليل التغيرات والمشاكل بغرض وضع إطار متكامل لحماية هذه الخانات وتطويرها بما يتلاءم مع قيمتها التاريخية والفنية. شملت الدراسة ثمانية عشر خانا يعود معظمها إلى الفترة العثمانية وتتوضع ضمن المركز التجاري التاريخي.

---

(٤) انظر جلبي، ص ١٢٢.

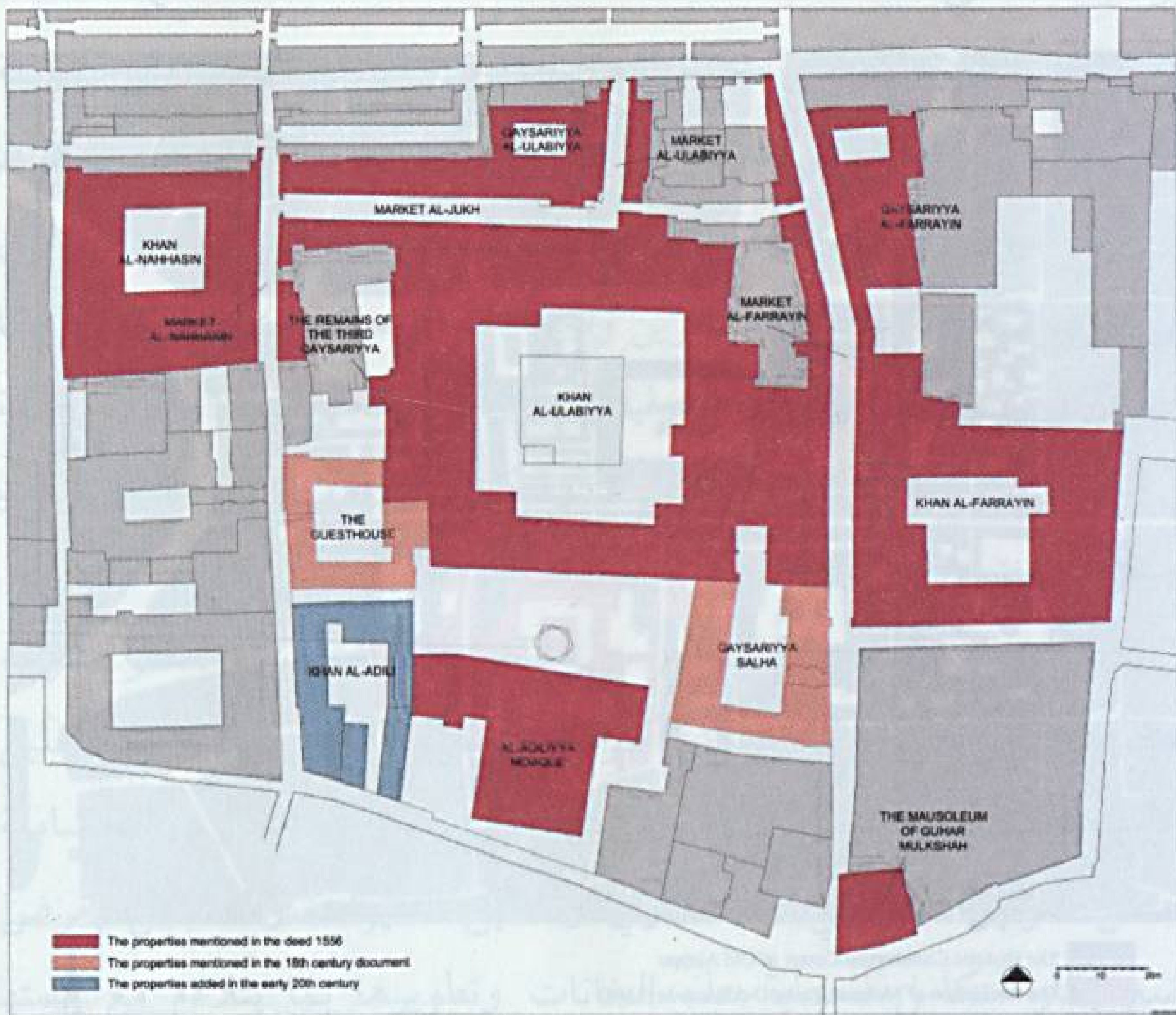
نظرا لنقص وعشوائية المعلومات المتوفرة عن هذه الخانات في المراجع المتداولة عنها، فقد كانت العودة إلى وثائق الأرشيف العثماني أمراً منطقياً لاستخلاص ما يمكن أن يساعد في فهم التصميم الأصلي لهذه المباني وطبيعة التدخلات التي شهدتها باعتبار هذه الوثائق المصدر المكتوب الوحيد عنها في غياب الرسومات الهندسية. وفيما يلي عرض لبعض الأمثلة التي توضح طبيعة المعلومات التي وجدت في نصوص الوثائق وكيف تمت الاستفادة منها لتحقيق أهداف الدراسة.



شكل (١) المركز التجاري التاريخي (المدينة) في مدينة حلب (٢٠١٢)

٢- وقف الوالي محمد باشا دوقة كين زادة

بدأ الوزير محمد باشا دوقة كين زادة بتأسيس وقفه في مدينة حلب عند توليه لها بين عامي ١٥٥١م و١٥٥٣م ليكون بذلك ثاني الأوقاف العثمانية في المدينة بعد وقف خسرو باشا. وقد تميز وقف محمد باشا عن سابقه بإرتباطه بالمركز التجاري وبتعدد مبانيه التجارية مما ساهم إلى حد كبير في تطوير هذا المركز عمرانيا في القرن السادس عشر (شكل٢).



شكل (٢) العقارات المكونة لوقف محمد باشا دوقة كين زادة في المركز التجاري التاريخي (٢٠١٢)

ينحدر محمد باشا من أسرة نبيلة تعود جذورها إلى ألبانيا حيث كان حفيداً لحاكم سنجق دوقة كين. اقترنت هذه العائلة بالبيت السلطاني العثماني بالمصاهرة

فكان والده الصدر الأعظم أحمد باشا دوقة كين زادة ووالدته جوهر ملكشاه حفيدة السلطان بايزيد الثاني وزوجته جوهر الملك المنحدرة أيضا من عائلة بايزيد. تقلد محمد باشا مناصب عدة حتى عيّن واليا في حلب ومن ثم في مصر قبل عودته إلى إسطنبول ووفاته هناك في عام ١٥٥٣م(٥).

كانت الأبنية التجارية التابعة للوقف من خانات وقيساريات أماكن لإقامة القنصليات وعائلات التجار الأوربيين منذ إنشائها وحتى أوائل القرن العشرين. وقد تملكت بعض هذه العائلات لاحقا أجزاء واسعة من الوقف بفعل أنظمة الإيجار طويلة الأمد كنظام الإجارتين والاستبدال وغيرها، وأصبح من العسير حصر العقارات التي شكلت هذا الوقف الكبير. لذلك كان من الضروري الرجوع إلى الوثائق المحفوظة لإعادة رسم توزع أبنية الوقف وفهم علاقاتها مع الفراغ العمراني للمركز التجاري.

في البداية تم الرجوع إلى النص الأصلي لوقفية محمد باشا المحفوظة في أرشيف مديرية الأوقاف في أنقرة، دفتر ٦٠٧. نظمت هذه الوقفية باللغة العربية في عام ١٥٥٦م وسجلت في محكمة حلب، وقد قام الغزي بالإطلاع عليها وتلخيصها في كتابه مع إيراد الأسماء المحلية للعقارات المكونة للوقف(٦). وفقا لما ذكر في الوقفية يتألف وقف محمد باشا من جامع (جامع العادلية) ثلاثة خانات (خانات الفرايين والنحاسين والعلبية) (شكل٣)، أربعة أسواق تحوي ١٥٧ دكانا (أسواق الفرايين النحاسين والعلبية والجوخ) (شكل٤) وثلاثة قيساريات (قيساريات الفرايين والنحاسين وقيسارية ثالثة لم يذكر الغزي

---

(٥) للمزيد عن حياة محمد باشا انظر السجل العثماني، المجلد الرابع، ص ١١٤ وأعلام النبلاء، المجلد الثالث، ص ١٦٦. ونجيب أوغلو، ص ٤٧٥. توفيت والدة محمد باشا جوهر ملكشاه في حلب في عام ١٥٥٢، ودفنت هناك بالقرب من المجمع الوقفي الذي أنشأه. ويعتقد عدد كبير من الباحثين أن وجود المدفن كان أحد الأسباب المعنوية التي دفعت محمد باشا لتأسيس وقفه في المدينة إضافة إلى السبب الاقتصادي المتمثل في أهميتها التجارية المتزايدة.

(٦) للاطلاع على ملخص الغزي انظر: نهر الذهب، المجلد الثاني، ص ٨٩-٩٢.

اسمها). إن جميع هذه المباني ما تزال قائمة حتى اليوم وذات فعالية كبيرة في المركز التجاري فيما عدا القيسارية الثالثة. وفي الحقيقة فإن عدم قدرة الباحثين على الربط بين القيسارية الثالثة وبين الأبنية الموجودة حالياً دعا بعضهم إلى افتراض وجود خطأ أو نقص في نص الملخص الذي أورده الغزي. ولكن بعد مراجعة نص الوقفية الكامل في أنقرة ومقارنة حدود القيسارية المذكورة فيه مع الوضع الراهن، إضافة إلى رفع وتحليل مخططات خان العلبية، كل ذلك بيّن أن القيسارية الثالثة كانت ممتدة بمحاذاة الطرف الغربي للخان ومرتبطة معه بممرات داخلية سدت لاحقا. إن عدم تسمية الغزي لهذه القيسارية يدعونا للافتراض بأنها كانت متعطلة أو غير موجودة عندما قام الغزي بتأليف كتابه في بداية القرن العشرين. وفي الواقع لا تزال آثار هذه القيسارية المتهدمة واضحة في حديقة الحمام المجاور للخان (شكل ٥).



شكل (٣) خان العادلية (٢٠١١)



شكل (٤) سوق النحاسين ومدخل خان النحاسين (٢٠١١)



(شكل ٥) بقايا القيسارية الثالثة المحاذية للضلع الغربي لخان العادلية (٢٠١١)

الوثيقة الثانية التي استفيد منها في هذا الصدد تعود إلى عام ١٧٢٨-١٧٢٩م. وهي من محفوظات أرشيف مديرية الأوقاف في أنقرة. وتتضمن محضر كشف قامت به لجنة من المعماريين بحضور متولي الوقف لحصر الأضرار الحاصلة في أبنية الوقف وتقدير التكلفة اللازمة لإصلاحها[٧]. وقد وجد في الوثيقة ذكر لمجموعة من الأبنية التي لم ترد في نص الوقفية مما يعني أنها أنشئت في وقت لاحق وضمت للوقف. هذه الأبنية تتضمن مطبخاً) عمارة خانة) وداراً للمسافرين) مسافر خانة) إلى الغرب من جامع العادلية وقيسارية إضافية إلى الشرق منه. بعد مقارنة الوصف الموجود لهذه الأبنية مع الوضع الراهن تبين أن كلا من دار المسافرين والقيسارية ما يزال قائماً على الرغم من تعرضهما لعمليات ترميم وتجديد واسعة. أما بناء المطبخ فلا يوجد له أثر، وربما يكون قد انهار بعد الزلزال الكبير الذي ضرب المدينة في عام ١٨٢٢م وتسبب في انهيار العديد من المباني. إضافة لذلك تذكر الوثيقة مدفن والدة محمد باشا المجاور للجامع وخان البنادقة الواقع إلى الغرب من الجامع الأموي الكبير مما يدل على أنهما كانا جزءاً من الوقف أيضاً (شكل ٦).

(٧) الوثيقة محفوظة في أرشيف المديرية العامة للأوقاف في أنقرة، دفتر رقم ٥١٢.



(شكل ٦) مدفن جوهر ملكشاه، والدة محمد باشا (٢٠١٠).

ثالثاً: أورد الطباخ[٨] معلومات تتعلق بوقف محمد باشا فذكر أن متولي الوقف فؤاد بك لعادلي قام بترميم الوقف واسترجاع العديد من الحقوق الضائعة في بدايات القرن العشرين. ومن ضمن أعمال الترميم التي قام بها أنه اقتطع مصبغة كانت عند باب جامع العادلية الغربي مع أجزاء من حديقة الجامع واستحدث خانا صغيراً سمي بخان العادلي. إن موقع هذا الخان المستحدث يتطابق مع موقع المطبخ المذكور في وثيقة القرن الثامن عشر، لذا يمكن

(٨) انظر أعلام النبلاء، المجلد الثالث، ص ١٦٩-١٧٠. مما يؤكد صحة هذه المعلومات وجود العديد من الوثائق التي تعود لبداية القرن العشرين في الأرشيف العثماني تتضمن دعاوى بالإخلاء ورفع الضرر مقدمة من متولي الوقف إلى نظارة الأوقاف.

الافتراض أن المصبغة كانت موجودة على أنقاض المطبخ واستبدلت لاحقا بالخان.

وهكذا نجد أنه عن طريق مراجعة نصوص الأرشيف العثماني المتعلقة بالوقف ومقارنتها مع الوضع الراهن له أمكن تحديد عدد ومواقع عقاراته بدقة وتصحيح الافتراضات الخاطئة حول عدم وجود بعض العقارات. بعد إضافة جميع العقارات المذكورة في الوثائق تبين أن مساحة الوقف الإجمالية بلغت مع بداية القرن العشرين ٢,٣هكتار تقريبا أي حوالي خمس مساحة المركز التجاري التاريخي الإجمالية.

٣- خان الحبال ووقف الوزير محمد باشا النيشانجي

يقع خان الحبال إلى الغرب من الجامع الأموي الكبير وهو يعرف بأسماء متعددة كخان الخيش وخان النيشانجي وخان الفرنسيس (شكل ٧) أنشأه الوزير محمد باشا النيشانجي[٩] في عام ١٥٩٤م وأصبح جزءا من وقفه الذي تأسس عام ١٦٠٠م في إسطنبول وفقا لنص الوقفية المحفوظة في أرشيف مديرية الأوقاف[١٠]. يعلو مدخل الخان لوحة كتابية تؤرخ لبنائه وتذكر اسم محمد باشا واسم المعمار المشرف على البناء فرهاد بن جاويش (شكل ٨).

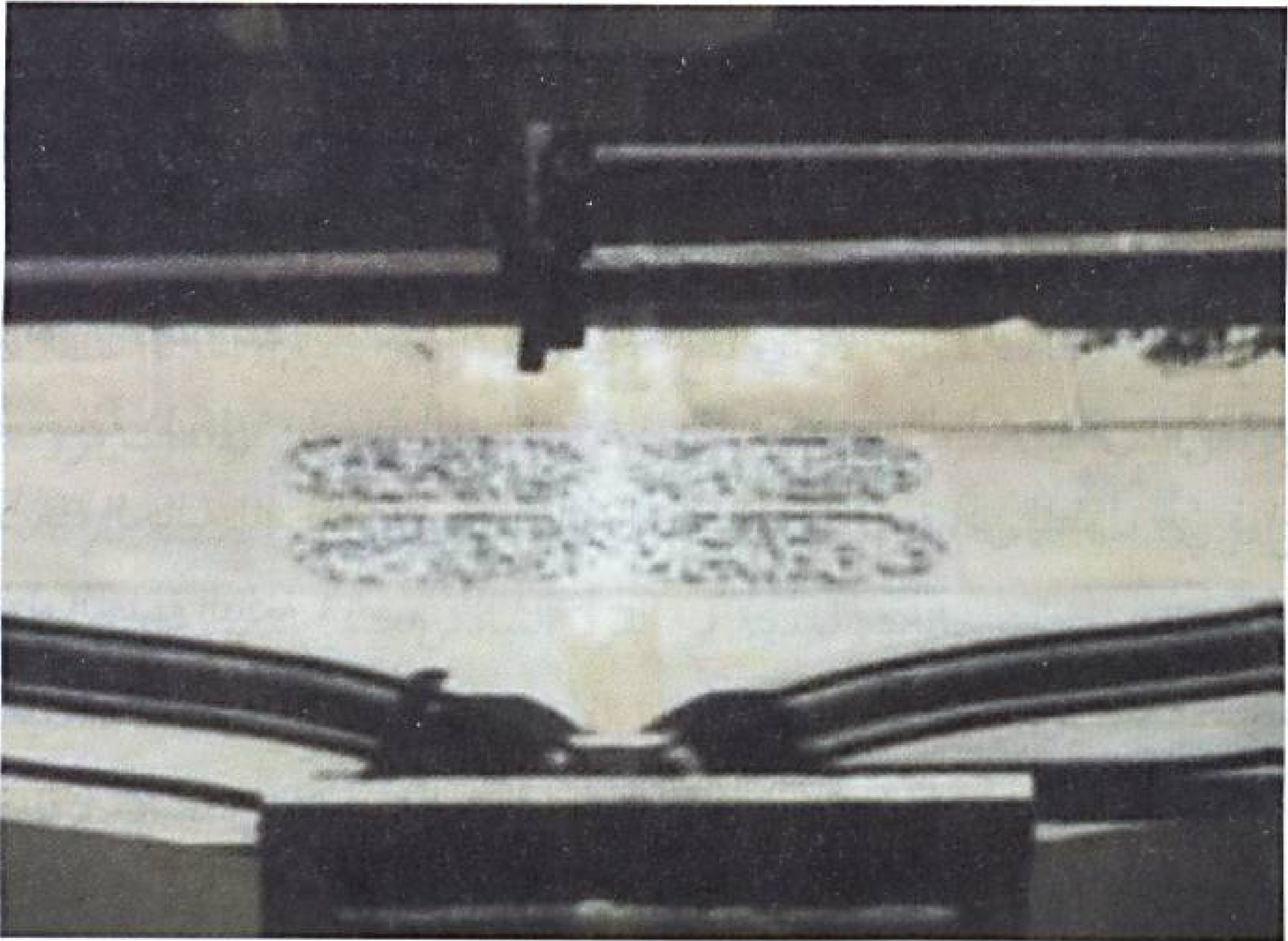
---

(٩) تولى محمد باشا ولاية حلب في عام ١٥٧٤ ثم تقلد عدة مناصب في إسطنبول ثم عين وزيراً حتى وفاته في عام ١٥٩٢. انظر السجل العثماني، المجلد الرابع، ص ١٣١.

(١٠) انظر دفتر رقم ٥٧٢، ص ٢٣٣-٢٤٢.



(شكل ٧) صورة عامة للخان من مئذنة الجامع الكبير (٢٠٠٢)

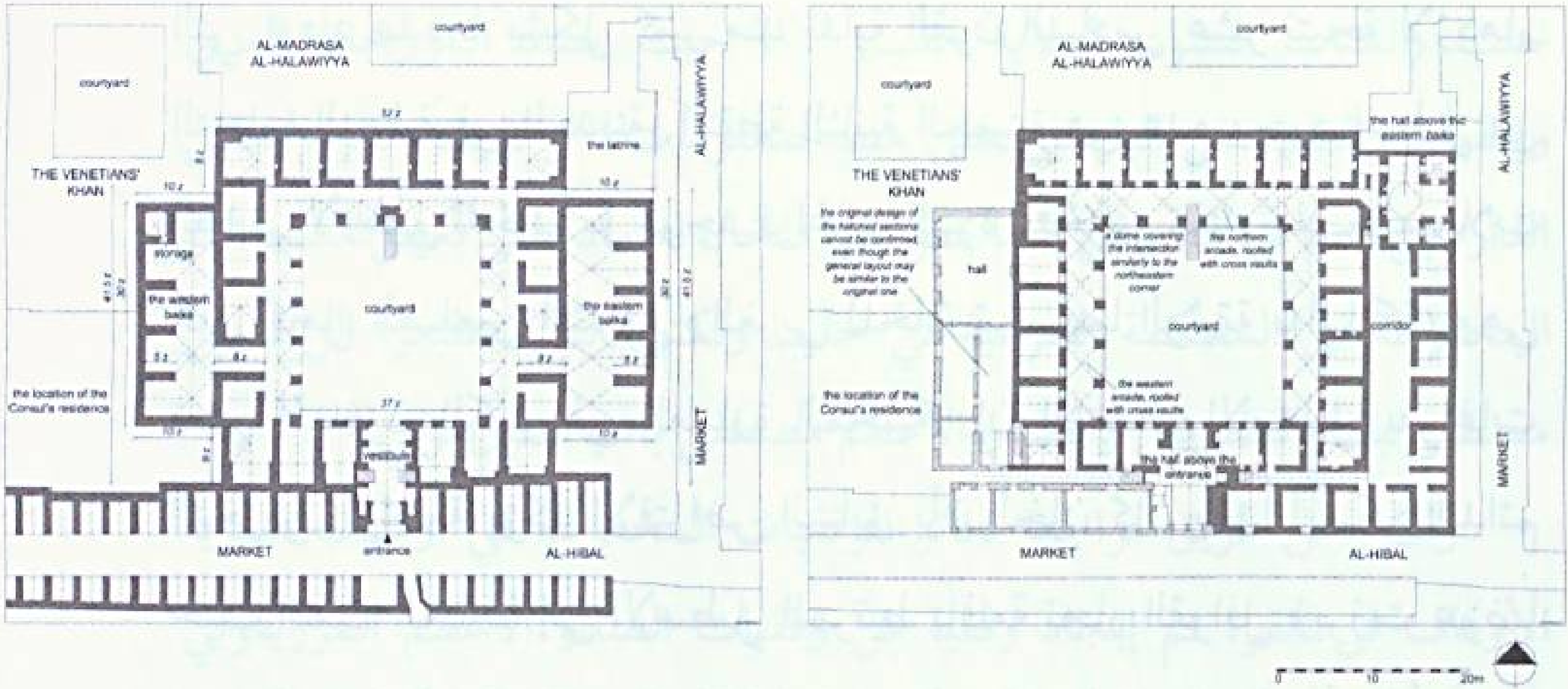


(شكل ٨) اللوحة الكتابية فوق مدخل الخان (٢٠١١)

انتقلت القنصلية الفرنسية لتشغل أجزاء واسعة من الخان في أواخر القرن السابع عشر واستقرت فيه حتى أوائل القرن العشرين[١١]. كما تؤكد عدة وثائق محفوظة في الأرشيف العثماني في إسطنبول أن عدداً من التجار النمساويين أقاموا في الخان في أوائل القرن التاسع عشر وأجروا بعض الإصلاحات والترميمات فيه[١٢]. بعد خروج الفرنسيين من الخان تم بيع الأجزاء التي شغلوها إلى التجار المحليين الذين أجروا بدورهم عدداً كبيراً من التغييرات. إن التغيرات الوظيفية والإنشائية الكبيرة التي شهدها الخان خلال تاريخه جعلت من الصعب فهم التصميم الأساسي وتحديد الأجزاء الأصلية من تلك المضافة لاحقاً. ومن هنا برزت الأهمية الاستثنائية لإحدى الوثائق التي وجدت محفوظة في أرشيف توب كابي العثماني. هذه الوثيقة المكتوبة باللغة العربية قام بإعدادها المعمار المشرف على بناء الخان فرهاد بن جاويش في عام ١٥٩٤م (أي سنة البناء) بغرض حساب تكاليف البناء. تتضمن الوثيقة وصفا شاملاً لفراغات الطابق الأرضي مع أبعاد التأسيس بالذراع إضافة لتعداد بعض فراغات الطابق الأول وتكاليف إنشائها. وقد أمكن بالاعتماد على هذه الوثيقة ومقارنتها مع الوضع الراهن إعادة رسم التصميم الأصلي للخان إلى حد كبير وفهم وظائف فراغاته المختلفة (شكل٩) إضافة إلى ذلك، عند مقارنة الأبعاد المذكورة في الوثيقة مع الأبعاد الحالية للفراغات تبين أن الذراع المستعملة كمقياس للطول هي ذراع البناء الحلبية البالغة ٦٩سم[١٣].

---

(١١) انظر سوفاجيه، ص ٢١٨.
(١٢) هذه الوثائق محفوظة تحت تصنيف Cevdet Hariciye, folder ٤٧ /٢٣٣٠
(١٣) انظر موسوعة حلب المقارنة، المجلد الرابع، ص ٣٦.



(شكل ٩) مسقط الطابقين الأرضين والأول لخان الحبال كما وصفاً في وثيقة القرن السادس عشر (٢٠١٢)

يتألف الخان بناءً على الوصف الوارد في الوثيقة من طابقين وتتوزع أجزاؤه المعتادة من غرف ودكاكين وخدمات حول فناء داخلي. ولكن تصميم الخان يتميز عن خانات القرن السادس عشر المعاصرة له في مدينة حلب في نقطتين. النقطة الأولى هي القاعات الواسعة في الطابق الأول، حيث توجد في الخان ثلاثة قاعات كبيرة الأولى تقع فوق المدخل والثانية والثالثة تشغلان الزاويتين الشمالية الشرقية والشمالية الغربية. وكل قاعة من هذه القاعات مزودة بمرافق خدمية خاصة بها مما يدعو للافتراض بأنها كانت مخصصة للإقامة الدائمة. لقد تميزت خانات المدينة في القرن السادس عشر بشكل عام بوجود قاعات كبيرة فوق مداخلها تطل على الأسواق وعلى الفناءات الداخلية للخانات في وقت واحد، مما جعل هذه القاعات مكانا مفضلا لإقامة القنصليات الأوربية والعائلات التجارية. لذا فإن وجود ثلاثة قاعات في خان الحبال عوضا عن قاعة واحدة (القاعة المعتادة فوق المدخل) يؤكد أن الخان كان معداً منذ إنشائه لتوفير السكن الدائم للقنصليات وعائلات التجار الأوربية

التي ازداد عددها بشكل كبير منذ بداية القرن السادس عشر نتيجة لازدهار التجارة الدولية في المدينة. النقطة الثانية المميزة هي عدم وجود إسطبل في الطابق الأرضي للخان، بل توجد فراغات كبيرة للتخزين تمتد خلف المحلات على كامل الضلعين الشرقي والغربي للخان تسميهما الوثيقة بـ(البائكة) وهي تعني المخزن الكبير في العمارة المحلية. إن استبدال الإسطبل بفراغات التخزين الواسعة يؤكد الافتراض السابق بأن الخان كان معداً للسكن الدائم حيث انتفت الحاجة إلى الإسطبل المرتبط بإقامة تجار القوافل وبرزت عوضا عنها الحاجة إلى فراغات إضافية لتخزين البضائع الخاصة بالتجار الأوربيين المقيمين.

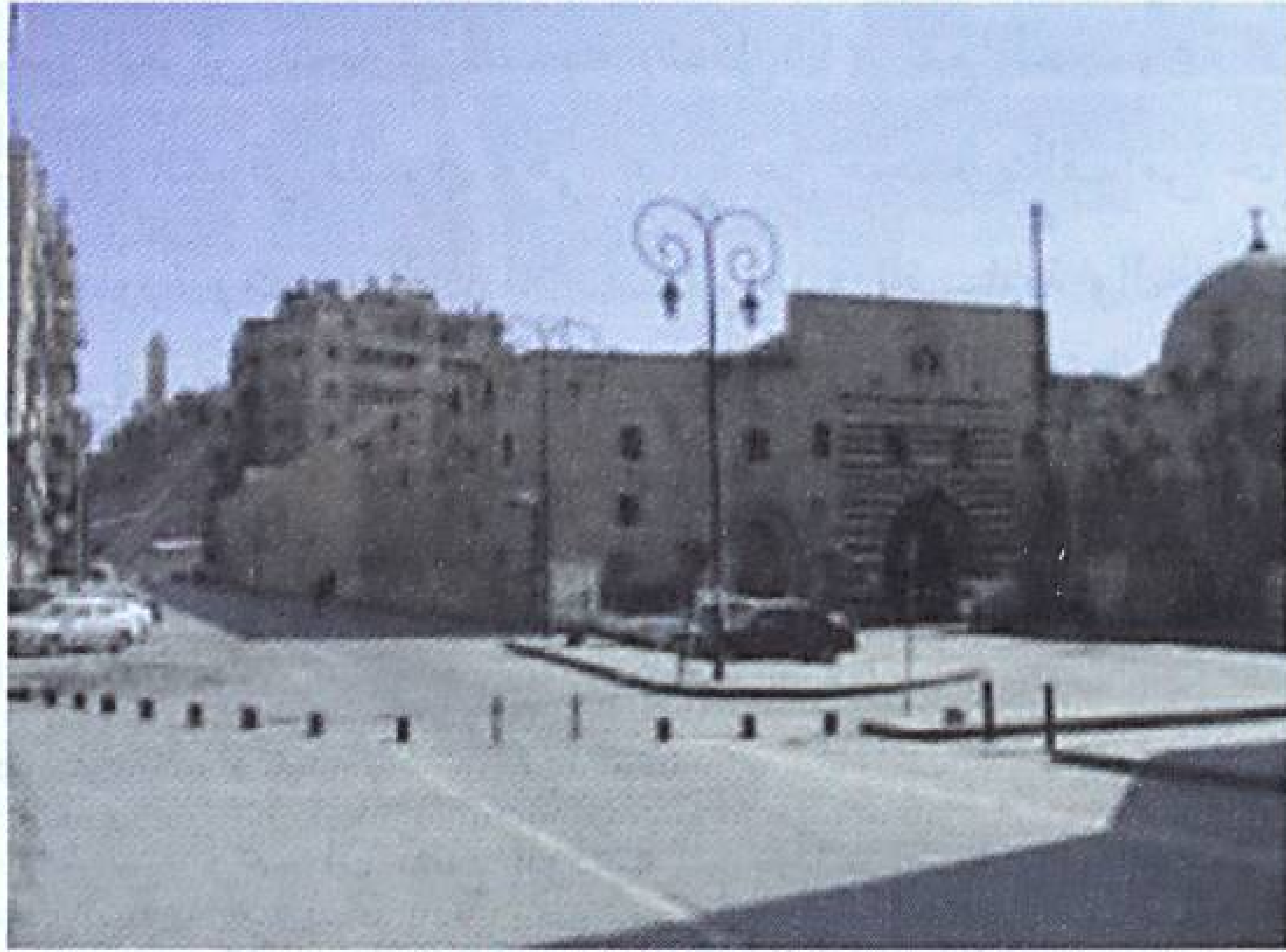
وهكذا نجد أن هذه الوثيقة المتعلقة بالخان كانت ذات فائدة كبيرة في إعادة رسم الأجزاء الأصلية للبناء وفهم وظائفه المتعددة التي تعد مرحلة أساسية في منهجية الدراسة الترميمية للأبنية التاريخية. كما أنها قدمت الدليل المؤكد على أن تطور تصميم الخانات في مدينة حلب لم يكن عن طريق الإضافات اللاحقة للبناء وفقا لما تتطلبه الوظائف المستجدة ولكنه كان منطلقا من فهم الحاجات المستقبلية وتعديل التصاميم الأساسية لتلبية هذه الاحتياجات. وهذا ما يلقي بعض الضوء على دور المعماريين المحليين وتأثيرهم في تطور النماذج العثمانية العامة للمباني التجارية.

٤- خان الوزير ووقف الوزير قرة مصطفى باشا المرزيفوني

يعد خان الوزير من أشهر الخانات في مدينة حلب، حيث يمثل ذروة العمارة المحلية التجارية من حيث المقياس وتقنية البناء والتفاصيل المعمارية المتميزة (شكل ١٠) رغم ذلك فإن المعلومات التاريخية حول إنشائه ظلت غير مؤكدة بسبب عدم وجود سجلات أو وثائق وقفية خاصة به في حلب. وقد أدى ذلك إلى نسبته خطأً إلى الوزير محمد باشا استنادا لما ذكر في سالنامة

حلب (الكتاب السنوي لولاية حلب) [١٤]، حيث استند المؤرخان الغزي والطباخ والعديد من الباحثين على هذه المعلومات[١٥]. لاحقاً، اقترح بعض الدارسين اسم قرة مصطفى باشا كمؤسس للخان اعتماداً على بعض السجلات المحفوظة في المحكمة الشرعية في حلب ولكنهم لم يستطيعوا الربط بين مصطفى باشا المفترض والصدر الأعظم مصطفى باشا المرزيفوني[١٦].

ولكن عن طريق مراجعة دفاتر الوقفيات المحفوظة في أرشيف مديرية الأوقاف في أنقرة تم إيجاد وقفية من وقفيات الصدر الأعظم المرزيفوني المتعددة تتضمن ذكر الخان الوزير والعديد من المنشآت الأخرى في مدينة حلب .هذه الوقفية مؤرخة بعام ١٦٨٢م ومسجلة في محكمة إسطنبول وهذا ما يفسر عدم وجودها في سجلات الأوقاف أو المحكمة الشرعية في حلب.



شكل (١٠) خان الوزير في حلب (٢٠١١)

(١٤) انظر سالنامة حلب ١٩٠٣، ص ٧٢.
(١٥) انظر نهر الذهب، المجلد الثاني، ص ١٥٠، وأعلام النبلاء، المجلد الثالث، ص ٢٣٣.
(١٦) انظر ماسترز، ص ١٢٤.

يعتبر الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا المرزيفوني (١٦٣٤م-١٦٨٣م) واحداً من أهم رجالات الدولة العثمانية في القرن السابع عشر حيث تقلد عدة مناصب مهمة حتى توليه رئاسة الوزراء في عام ١٦٧٦. في عام ١٦٨٣ كان قائد الحملة العثمانية إلى فيينا حيث أمر السلطان محمد الرابع بقتله في بلغراد بعد فشل الحملة أمام الجيش النمساوي البولندي[١٧]. أسس قرة مصطفى باشا عددا كبيراً من الأوقاف في إسطنبول وغيرها من مدن الدولة العثمانية وقد حفظت جميع وقفياته في دفتر خاص في أرشيف مديرية الأوقاف[١٨]. تضم الوقفية التي تحوي منشآت مدينة حلب منشآت أخرى في إسطنبول ومودانيا وأدرنة وكايسيري، يخصص ريعها جميعا لخدمة جامع الواقف في محلة غلطا في إسطنبول.

وفقا لما ورد في نص الوقفية، تتوزع عقارات الوقف في حلب في ثلاثة مواقع ضمن المركز التجاري للمدينة (شكل١١). تقع المجموعة الأولى في الجزء الشمالي الشرقي للسوق وهي عبارة عن مجمع يتألف من خان الوزير وقيسارية مجاورة وسبيلين[١٩]. للأسف تم هدم القيسارية والجناح الشمالي لخان الوزير، قبل توثيقهما، في سنوات الخمسينات عند فتح الشارع الرئيسي الممتد من الجامع الكبير إلى قلعة حلب كجزء من مخطط غوتون التنظيمي للمدينة. تقع المنشأة الثانية عند البداية الشرقية للأسواق المغطاة إلى الشمال من سوق الزرب وهي عبارة عن مبنى من طابقين يحوي دكاكين وغرف وإسطبلا وبئرين. رغم أن نص الوقفية لم يحدد اسما لهذه المنشأة، إلا أن

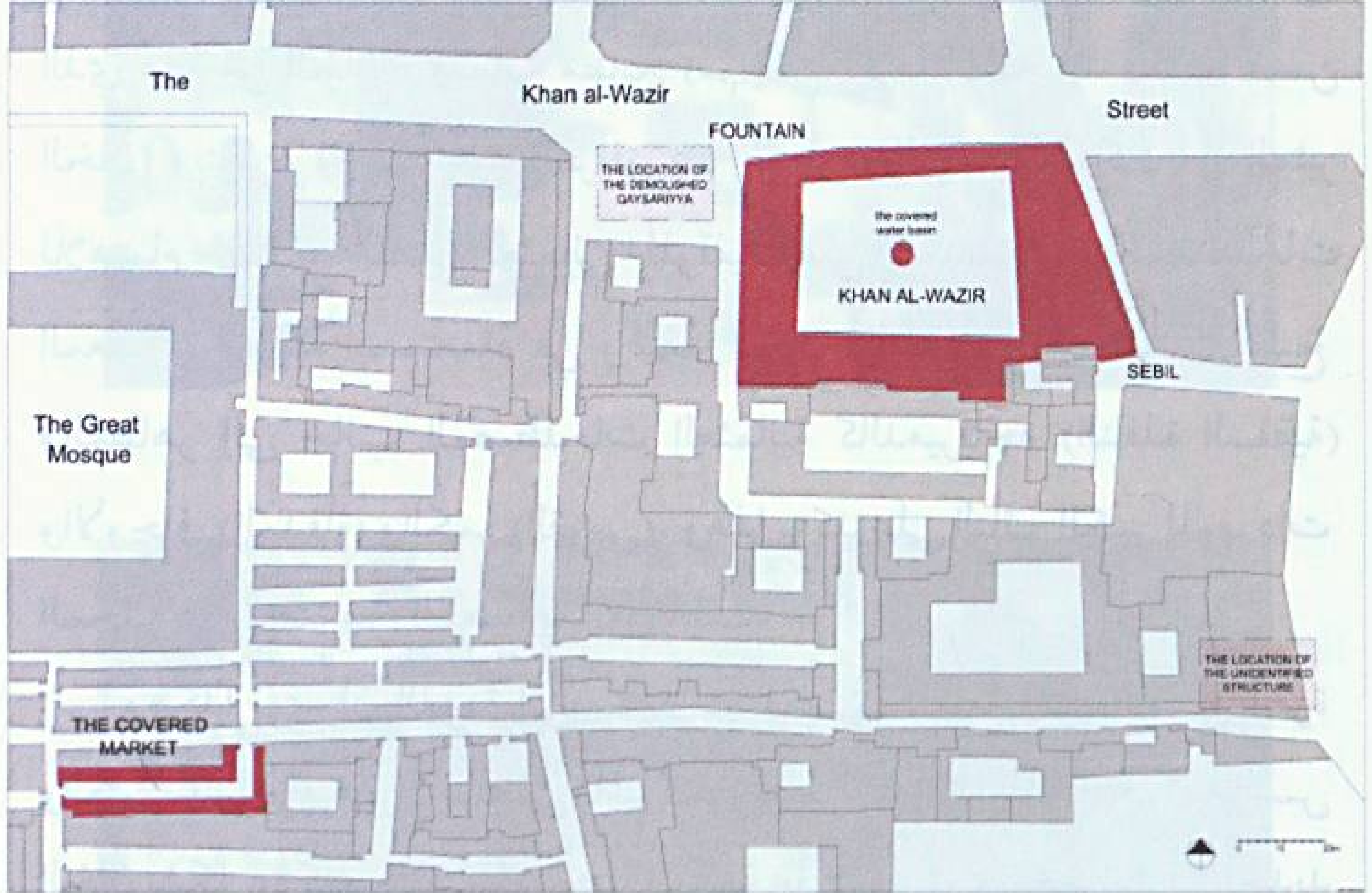
---

(١٧) للمزيد عن حياة الصدر الأعظم المرزيفوني انظر السجل العثماني، المجلد الرابع، ص ٤٠٢، وموسوعة الإسلام، المجلد السابع، ص ٢٥١.

(١٨) دفتر رقم ٦٤١، وهو مؤرخ بتاريخ ٢/ ١٠٨٩- ٣/ ١٦٧٨.

(١٩) أعيد بناء الجناح الشمالي للخان لاحقا بشكل يتناسب مع بقية أجزائه بينما تحول موقع القيسارية إلى ساحة لوقوف السيارات. أما سبيلا الماء فكلاهما متعطل حاليا.

الوصف الموجود لها يمكننا من الافتراض بأنها كانت قيسارية[٢٠]. أما المنشأة الثالثة فهي عبارة عن سوق مغطى يحتوي على ٤٠ دكانا ويقع إلى الجنوب من الجامع الأموي الكبير[٢١].



(شكل ١١) توزع العقارات الوقفية التابعة لوقف قرة مصطفى باشا في المركز التجاري التاريخي في حلب (٢٠١٢)

إضافة إلى تحديد مواقع العقارات الموقوفة ضمن المركز التجاري التاريخي، فإن نص الوقفية يوفر لنا معلومات معمارية قيمة من خلال تعداد فراغات خان الوزير وتسمية وظائفها مما مكن من تصحيح بعض المعلومات الخاطئة التي اعتمدت في مراجع سابقة. أبرز هذه المعلومات هي وجود قيسارية ملحقة بالخان تقع فوق الإسطبلات في الطابق الأرضي وتتألف من

(٢٠) لا يوجد اليوم أثر لهذه القيسارية.
(٢١) يدعى السوق محلياً باسم سوق إسطنبول العتيق.

١٥غرفة تنفتح على ممر خلفي. أما الكتلة الموجودة في وسط فناء الخان والمغطاة بقبة مضلعة فهي بقايا لحوض ماء مسقوف كان يزود بالمياه من قناة المدينة بحق شرعي وليست بقايا لمسجد الخان كما افترض الكثيرون (شكل ١٢). إضافة إلى ذلك فقد كان الخان يحتوي على مطاهر (في الجناح الشمالي الذي هدم من الخان)، وثمانية مطابخ (لم يكن بالإمكان تحديد مكانها ضمن الخان) وبئرين، وجميع هذه المرافق غير موجودة اليوم. ولقد كان من المثير للاهتمام احتواء النص العثماني للوقفية على العديد من المصطلحات المعمارية العربية المستعملة في وصف الخان كالممشى والدهليز والمطبخ والمطاهر إلى جانب المصطلحات العثمانية كالدميرباجه (النافذة السقفية) والأوجاق (المدفأة) والكمر (القوس). وهذا يؤكد على التأثير الكبير للمفردات المحلية في النصوص المعمارية العثمانية.

وهكذا نرى أن العودة إلى سجلات المديرية العامة للأوقاف في أنقرة والعثور على وقفية قرة مصطفى باشا المرزيفوني قد أزال اللبس حول مؤسس الخان بشكل مؤكد. ولقد ساعد نص الوقفية على المستوى العمراني في تحديد مواقع مكونات الوقف ضمن المركز التجاري التاريخي رغم أن العديد من هذه المكونات لم يعد موجودا اليوم. أما على المستوى المعماري فقد ساهم النص في تصحيح بعض المعلومات الخاطئة حول الوظائف الأصلية لفراغات خان الوزير





(شكل ١٢) حوض الماء المسقوف كما يظهر في بطاقة بريدية قديمة (التاريخ غير محدد) وكما يبدو اليوم بعد إشغاله بالوحدات التجارية (٢٠١١)

النتائج والتوصيات

ساهم الرجوع إلى الوثائق العثمانية الخاصة بخانات مدينة حلب في رسم صورة أكثر وضوحا عن تاريخ هذه المباني وتصاميمها الأصلية وبالتالي فهم طبيعة التغيرات الإنشائية والتبدلات الوظيفية التي شهدتها، وهذا ما يعد ركنا أساسيا في منهجية الدراسة الترميمية الهادفة إلى حماية هذه المباني التاريخية. ولقد أوضحت الأمثلة المعروضة نوعية المعلومات التي أمكن استخلاصها من هذه الوثائق وكيف ساهمت في تصحيح واستكمال العديد من المعلومات التاريخية والمعمارية الواردة في المراجع السابقة.

علاوة على ذلك، فإن هذه الوثائق تشكل المصادر التاريخية التي يمكن الاعتماد عليها لتقصي دور المعماريين المحليين في مدن الأقاليم والمهمات التي كانت منوطة بهم كإعداد دفاتر الكشف وإجراء المعاينات الدورية للمباني وغيرها. وفي الحقيقة فإن استعمال ذراع البناء الحلبية والمصطلحات المحلية في الوثائق العثمانية الخاصة بخانات مدينة حلب يعد قرينة هامة على مساهمة هؤلاء المعماريين في عمليات البناء الفعلية.

لقد شملت الدراسة المنجزة حول خانات مدينة حلب بهدف حمايتها وتطويرها ثمانية عشر خانا. ولقد تم العثور خلال البحث في وثائق الأرشيف العثماني على ٣٢وثيقة تتعلق بـ ١٣ خانا، كانت ذات فائدة كبيرة للدراسة المعمارية بشكل أو بآخر، إضافة إلى عدد كبير من الوثائق التاريخية العامة كعقود الإيجار ودعاوى المحاكم وغيرها التي يمكن الاستفادة منها في دراسات أخرى تهدف إلى استقصاء الفعاليات التجارية والدور الاقتصادي لهذه المباني. وفي هذا ما يعطي تصورا عن كمية المعلومات التي يمكن كشفها إذا ما أخذنا بعين الاعتبار جميع مكونات التراث العمراني والمعماري العثماني في بلاد

الشام. لذا لا بد أن تشكل دراسة الوثائق العثمانية جزءاً من منهجية أي دراسة هندسية للمباني المنشأة أو المرممة خلال الفترة العثمانية.

إن تفعيل الاستفادة من وثائق الأرشيف العثماني في الدراسات الهندسية في بلاد الشام يستلزم أولاً تبني مشروع إنجاز قاموس هندسي لغوي وتقني يتضمن المصطلحات المعمارية والإنشائية ووحدات القياس المستعملة مع مخططات وصور توضح معانيها الدقيقة. إن إنجاز هذا المشروع يتطلب مشاركة مراكز بحثية وجامعات تركية وعربية لتوضيح المصطلحات العثمانية والمحلية وهذا سيسهل مهمة المهندسين الباحثين في هذه الوثائق إلى درجة كبيرة. ثانيا: ضرورة الإسراع في إتمام أرشفة الوثائق العثمانية بشكل رقمي لتسهيل الوصول إليها وخاصة بالنسبة للباحثين المقيمين خارج تركيا.

المراجع

أرشيف المديرية العامة للأوقاف، أنقرة تركيا، دفاتر رقم ٥١٢، ٥٧٢، ٦٠٧، ٦٤١.

الأرشيف العثماني، إسطنبول، تركيا، (1801) C.H.47/2330

أرشيف قصر توب كابي، إسطنبول تركيا (1594) T.S. 07821.0001.00

الغزي، ك. (١٩٩٢). نهر الذهب في تاريخ حلب، ثلاثة مجلدات، منشورات دار القلم العربي، حلب.

الطباخ. ر. (١٩٨٨). أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، سبعة مجلدات، منشورات دار القلم العربي، حلب.

سالنامة ولاية حلب للعام ١٩٠٣.

الأسدي، م. (١٩٨٤). موسوعة حلب المقارنة، منشورات جامعة حلب.

الغزي، ك.، (١٩٩٢) نهر الذهب في تاريخ حلب، ثلاثة مجلدات، منشورات دار القلم العربي، حلب.

الطباخ، ر.، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، سبعة مجلدات، منشورات دار القلم العربي، حلب.

سالنامة ولاية حلب للعام ١٩٠٣.

الأسدي، م. (١٩٨٤). موسوعة حلب المقارنة، منشورات جامعة حلب.

Celebi, E. (1935). Evliya Celebi Seyahatnamesi, vol. 9, Anadolu, Suriye, Hicaz (1671- 1672), Istanbul.

Heywood, C. J. (2009). Kara Mustafa Pasha. In *Encyclopedia of Islam*, Ed. by Bearman, P., Bianquis, Th., Bosworth, C.E., Van Donzel, E., and Heinrichs, W.P., Brill.

Masters, B. (1988) The Origins of Western Economic Dominance in the Middle East: Mercantilism and the Islamic Economy in Aleppo, 1600- 1750. New York University Press, New York.

Necipoglu, G. (2005). The Age of Sinan: Architectural Culture in the Ottoman Empire, Prinston Univ. Press, USA

Raymond, A. (1984). The Great Arab Cities in the 16th-18th centuries. New York.

Sauvaget, J. (1941). Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne, des origines au milieu du XIX e siècle, 2 vols, Paris, France.

Sureyya, M. (1891). Sicilli Osmani. 4 vols, Istanbul.

الأسواق العثمانية في بلاد الشام "مدينة حلب نموذجا"

كاظم موسى الطائي *

تقديم

عاشت مدينة حلب ولمدة أربعة قرون منذ نهاية الحكم المملوكي في عام ١٥١٦م عصرا جديدا تمثل بالحكم العثماني إذ شهدت المدينة خلال حكمهم نهضة عمرانية واسعة وذلك بسبب تظافر جهود سلاطينهم وولاتهم بتلك المدينة، فانتشرت فيها المباني العثمانية المهمة ونالت حظا وافرا من التوسع العمراني كان من بين ذلك التوسع ما شمل أسواقها بحيث أصبحت حلب مركزا تجاريا مهما في العهد العثماني بعد مدينتي إسطنبول والقاهرة.

تقع مدينة حلب شمال غرب سوريا على خط طول 12 36° ودائرة عرض9030 37° وتبعد عن البحر الأبيض المتوسط بخط طيران طوله ١٢٠ كم تقريباً.[١]

ويعود وجودها لموقعها الجغرافي الهام كنقطة إرتباط بين البحر الأبيض المتوسط في الغرب وبلاد ما بين النهرين واقصى الشرق الأسيوي في الشرق، وبين آسيا الصغرى في الشمال ومصر وشبه الجزيرة العربية في الجنوب، وتقع المدينة على ارتفاع ٤٠٠م فوق مستوى سطح البحر.[٢]

---

* الأستاذ الدكتور.

(١) عمر وصفي مرتيني، النمو العمراني غير المتوازن في المدينة العربية الكبيرة، حالة خاصة بمدينة حلب، المعهد العربي لإنماء المدن، النمو العمراني الحضري في المدينة العربية، المشاكل والحلول١٩٨٩، ص٦٤٨.

(٢) خارطة سوريا الطبيعية.

مناخ مدينة حلب جزء من مناخ البحر الأبيض المتوسط حيث جفاف فصل الصيف مع ارتفاع طفيف في درجات الحرارة وشتاء بارد ممطر واحياناً تتساقط الثلوج في أوقات محددة من فصل الشتاء، وقد كان للرطوبة النسبية المحدودة دور كبير في جعل أمسيات المدينة الصيفية في غاية اللطافة والراحة.

دخلت مدينة حلب في حكم العثمانيين في ٢٩رجب ٩٢٢هـ/١٥١٦م وللتعرف على حلب أيام الدولة العثمانية لابد من مراجعة وتحليل المصادر الخاصة بالموضوع، لذا فقد تم الاعتماد على كتاب الغزي الموسوم (نهر الذهب في تاريخ حلب ١٩٢٦) والأثار الإسلامية والتاريخية في حلب ١٩٥٧ لمحمد سعد طلس وأعلام النبلاء للطباخ فضلا عن بعض المراجع الحديثة عنها.

كما تم الاعتماد على الروايات والمصادر الأوربية التي تتحدث عن مدينة حلب في العصر العثماني ومن أبرز تلك الروايات رواية شيفاليهدارفيي و Arvieux وCh.d (القنصل الفرنسي في حلب) [٣].

وزيادة على ذلك فقد اظهر البحث البنية المعمارية التي اعتمدت من قبل معماري العهد العثماني وهو ما يتجلى في نماذج الأسواق والخانات التي عرضها البحث والتي تؤكد خصائص العمارة العثمانية الموجودة في حلب.

أولاً: حلب في العهد العثماني

لقد وصفت حلب من قبل الكثيرين من الجغرافيين والبلدانيين ومن الذين وصفوها في القرن السابع عشر للميلاد شيفاليه الذي قال بحقها (تعد حلب، بعد القسطنطينية والقاهرة أجمل وأكبر واغنى مدينة في الدولة العثمانية بدون

(٣) هاينتز غاوبة واويغن، حلب دراسة تاريخية وجغرافية حول البنية العمرانية والتركيبة الاجتماعية والحركة الاقتصادية كأحد مراكز التجارة الدولية في الشرق الأدنى/ترجمة وتدقيق وتحديث صخر علبي،الجزء الأول، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٧، ص ٢٨٤.

منازع، وتقع حلب في منطقة مستوية تنهض بها سبع تلال تقوم على أربعة منها داخل سور المدينة أعلى هذه التلال هو التل الذي ينتصب في مركز المدينة تقريباً وتحتل كامله قلعة محاطة بسور عظيم مبني من الحجارة المنحوتة ومحاطة بخندق عميق تتجمع فيه مياه المطر. لقد تحول القلعة إلى مقر إقامة للباشا ولنائبه في حال غيابه).[٤]

لقد أعطى الحكم العثماني لمدينة حلب زخما حضاريا تمثل في تطور المدينة داخل الأسوار وعلى الأخص مركز المدينة من الناحيتين التجارية والعمرانية فضلا عن العلاقات التجارية ما بين حلب والبلدان المجاورة إذ تطورت كثيراً خلال القرون الأربعة من حكم العثمانيين وزيادة على ذلك فقد طرأ على المدينة تغير داخل الأسوار وهو التغير السياسي والاقتصادي من خلال مساهمة حكامها في النشاط التجاري للمدينة وانعكس ذلك على البنية العمرانية للمدينة من خلال إعادة ترتيب البنية الوظيفية للمدينة عن طريق بناء خانات جديدة ونقل الصناعة إلى اطراف المدينة.

لقد اتضحت صورة مدينة حلب في العصر العثماني بشكل واضح من خلال: التطور العمراني للمحلات السكنية داخل أسوار المدينة وإنتقال الحرف والصناعات إلى اطراف المدينة وبناء الخانات والقيساريات الجديدة وبأعداد كبيرة وناهيك عن سيادة الطراز العثماني في البناء السكني والتجاري و كثرة المؤسسات الدينية الخيرية في العصر العثماني (الوقف) وإنتقال المحلات السكنية إلى خارج أسوار المدينة ففي كتاب سوفاجيه[٥] عن حلب (شكل ١) تذكر الوثائق أن مساحة المعمور من المدينة في القرن السادس عشر قبل العصر العثماني كان حوالي ٣٠٠ هكتار وأبعادها من الشرق إلى الغرب ١٥٠٠م ومن

(٤) درافيو، تاريخ مدينة حلب، ١٧٥٦، ج ٦، ص ٣٥٤-٤٠٣.
(٥) عالم غربي عني بالآثار والتاريخ والعمارة والفنون الإسلامية، وكانت رسالته للدكتوراه عن عمران وتاريخ مدينة حلب، ومن بحوثه الآثار الإسلامية في مدينة حب.

الشمال إلى الجنوب ٢٠٠٠م، أما في منتصف القرن التاسع عشر أيام العصر العثماني فقد بلغت مساحة المعمور منها داخل الأسوار وخارجها حوالي ٥٥٠ هكتار وأبعادها قرابة ٣٥٠٠×٢٢٠٠م.(٦) أي أن نسبة النمو بلغت حوالي ٥٠%، أما من حيث عدد السكان فقد بلغ ١٢٠٠٠٠ نسمة سنة ١٧٩٠م بعد أن كانت سنة ١٥٧٠م ٦٠٠٠٠ نسمة وهذا ما يؤكده توسع المدينة التجاري(٧). لقد اتسعت المدينة شمالاً وشرقاً أبان الحكم العثماني وظهرت الأحياء التركية الجديدة حول مراكز الجند فيها إذ ماتزال أحياء اقيول في الشمال وجب قره مان وحمزة بك في الشرق تحمل أسماءها منذ ذلك الحين (٨)،وإزاء التوسع العمراني للمدينة في العصر العثماني خارج أسوارها فقد وجدت السلطة العثمانية في عام ١٨٨٢م ضرورة ملحة لوضع مخطط تنظيمي للمدينة فقد (داخل سور المدينة مع خارج سور المدينة) وذلك بإزالة سورها الشمالي وشق شارع مستقيم على امتداد السور الشمالي للمدينة فوق خندقها وتم تنفيذ المشروع بالكامل ويشكل شارع الخندق حالياً المصب الرئيسي لعناصر الحركة من الشمال للجنوب وقد قدر سوفاجيه مساحة الوسط التجاري بـ ١٠,٦ هكتار علما أن مساحة هذا الوسط قد تضاعف خلال الحكم العثماني بحيث أنها امتلكت ٥٦ سوقا و٥٣ خانا في ذلك الوسط التجاري. (٩).

---

(٦) علاء الدين لولح، النمو العمراني السريع لمدينة حلب- الأسباب- النتائج - الحلول) المعهد العربي لإنماء المدن، النمو العمراني الحضري في المدينة العربية، المشاكل والحلول، ١٩٨٦، ص ٦٦٥.

(٧) منتديات ستار تايمز/التوسع العمراني لأسواق المدينة في العصر العثماني بمدينة حلب. وللمزيد من المعلومات مراجعة محمود حريتاني، حلب والسلطة العثمانية، الوقف والعمران ١٥١٦-١٩١٦م دار شعاع حلب ٢٠٠٦

(٣) عمر وصفي مرتيني، النمو العمراني غير المتوازن في المدينة العربية الكبيرة، حالة خاصة بمدينة حلب، مصدر سابق ص ٦٥٣.

(٩) عمر وصفي مرتيني، المصدر السابق, ص ٦٥٣.

ثانيا: الأسواق العثمانية في مدينة حلب

تطورت مدينة حلب تجارياً وعمرانياً خلال العصر العثماني فإزدهرت الأسواق ازدهاراً كبيراً ومن اللافت للنظر ارتباط تعدد الأسواق ونوعية البضائع المعروضة فيها بالوضع الاقتصادي ففي فترة الازدهار الاقتصادي تنتشر البضائع الثمينة والغالية في حين تختفي البضائع الثمينة في فترة الركود الاقتصادي[١٠]، وقد تميزت مدينة حلب خلال العصر العثماني بإزدهار اقتصادي كبير حيث تم عرض البضائع الثمينة والمجوهرات العثمانية.

إن تركيبة الأسواق العثمانية في مدينة حلب وبخاصة في المركز التجاري (السوق الرئيسي للمدينة) تشتمل على السوق والخان والقيسارية لذا يمكن القول بإن لدينا في المكان الواحد (سوق+خان+قيسارية) وهذه المجموعة هي وثيقة عمرانية مهمة لدراسة تاريخ الريازة العمرانية وتنظيم الأعمال الاقتصادية لذا سيتم تناول موضوع الأسواق على النحو التالي:

أولا: أنواع الأسواق العثمانية

تعتبر أسواق حلب من اجمل أسواق مدن الشرق العربي والإسلامي لما تمتاز به من طابع عمراني جميل فهي تشتمل على نوافذ للنور والهواء فتؤمن جواً معتدلاً ولطيفاً يحمي الناس من حر الصيف وإمطار الشتاء وبرده ويبلغ تعداد أسواقها ٣٧ سوقا ومجموع أطوالها على الجانبين ١٥ كيلومتر وبمساحة تقدر بـ ١٦هكتار وكانت مادة سقوف الأسواق تتكون من الحصران والقصب

(١٠) حياة ناصر الحجي، أسواق القاهرة في القرنين الثامن عشر والتاسع للهجرة الرابع عشر والخامس عشر الميلادي، بحوث ودراسات في التاريخ العربي تحرير ناظم كلاس، دمشق، ١٩٩٢، ص ١٠٢.

ولما احترقت سنة١٢٨٤هـ/١٨٦٨م امر الوالي العثماني ببنائها مع نوافذ سقفية.(١١)

وأهم محور في مدينة حلب يمتد من القلعة شرقا حتى باب أنطاكيا غربا بطول كيلو متر وعرض نصف كيلو متر وأسواقها موازيه للمحور أو متعامدة معه، أما سقوفها فقد غطيت بأحجار على شكل عقود واحتفظت بأرضيتها الحجرية التي تتلاءم مع فصول السنة ولا تزال تحتفظ بطابعها الشرقي الأصيل حتى الآن ومما يميز ذلك التكامل الرائع في النسيج العضوي للمدينة بوجود الأسواق والخانات مع الكثير من الجوامع والمدارس وغيرها بالأحياء السكنية(١٢).

ويمكن تصنيف الأسواق في وحدتين(١٣)

الوحدة الأولى

وهي الأسواق التي تشكل خطين متوازيين مع الحائط الجنوبي للجامع الأموي الكبير، وهي سوق الحبال، سوق العتيقة، سوق الباطية، سوق الذراع.

الوحدة الثانية

١- وهي السوق المحاذية لجبهة خان الكمرك فإن الناحية الجنوبية منه كانت مشغولة بدكاكين كجزءً من الخان ويبدو أن السوق مع خان الكمرك مبني دفعة واحدة وفي زمن واحد ويحتوي على مدخل أثري وسبيل بإطار مزخرف

---

(١١) موقع مدينة حلب ٢٠١٣ أسواق حلب القديمة.

(١٢) التوسع العمراني لأسواق المدينة في العصر العثماني بمدينة حلب مصدر سابق. وللمزيد من المعلومات مراجعة محمود حريتاني، حلب والسلطة العثمانية، الوقف والعمران ١٥١٦-١٩١٦م دار شعاع حلب ٢٠٠٦.

(١٣) محمد سعد طلس، الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، مطبوعات مديريات الآثار العامة في سوريا، ١٩٥٧، ص ١٤١-١٤٢.

وقباب جميلة وقيسارية بحالة جيدة إذ يمكن القول بإن لدينا في المكان الواحد (سوق+ خان + قيسارية) وهذه المجموعة هي وثيقة عمرانية مهمة لدراسة تاريخ الريازة العمرانية وتنظيم الأعمال الإقتصادية وقد ذكر في الوقفية المعروفة بوقف إبراهيم خان التي نشرها الغزي حيث قال وانشأ محمد باشا بن جمال الدين سنان على الأسواق المتصلة بخان الكمرك من شرقيه وشمالي قيسارية تشتمل على ٥٤ مخزنا وعلى سوق السقطية الذي إنشاه مكانا يشتمل على ميدان فيه ١٥ مخزنا وانشأ باتصال الخان سوقا مشتملا على ١٢٠ دكانا وتميزت هذه المباني بوجود ١٣ قبة تحت كل واحدة منها رحبة فسيحة[١٤]

ويمكن لنا القول أن فترة ازدهار الإمبراطورية العثمانية قد انعكست على التطور العمراني لمدينة حلب فمن خلال وقف دوقة كين زادة محمد باشا أن أسس في عام ١٥٥١م وعلى مساحة ٣ هكتارات بنى جامعاً ضخماً وهو جامع العادلية وثلاث قيساريات وثلاثة خانات هي العلبية والنحاسين والفرايين وأربعة أسواق متجاورة هي النحاسين والدهشة والجوخ وقد بقي وقفا حتى عام ١٩٢٧ عدا بعض أجزاء خان الفرايين[١٥]

ومن أهم الأسواق العثمانية في حلب هي:

١ - سوق المصبغة العثمانية

سوقٌ صغير قديم منذُ القرن السابع عشر للميلاد له طابقان وهو في حالة عمرانية حسنة وهنا يقول الغزي (أي في محلة داخل باب النصر مصبغتان جاريتان في أوقاف المدرسة الرضائية / العثمانية أحدهما تجاه بابها الغربي

(١٤) الغزي كامل، نهر الذهب في تاريخ حلب، ١٩٢٧، ج ٢ ص ٥١٥.
(١٥) أسواق حلب وخاناتها الشهيرة موقع مدينة حلب ٢٠١٠ مصدر سابق.

والأخر تجاه بابها الشمالي المسدود[١٦] والمصبغة محلٌ كبير يصنع فيها الصابون وهذه الصناعة من صناعات حلب القديمة المتقنة.

٢- سوق قره قول الجديدة

تم بناء السوق في القرن السابق عشر للميلاد وهو سوقٌ جميل وعليها زخارف جميلة ويبدو أن هذا البناء كان مدرسة ترجع للعهد العثماني لأن القبة التي ترتكز عليها المقرنصات الجميلة تحملها الأعمدة تيجان جميلة هي أروع مخلفات العهد العثماني في أسلوب بناءه وإن طريقة بناء هذا السوق يدل على الطراز المعماري العثماني الرائع وقد تم تحويل السوق إلى مطحنة بعد أن كان مخفراً أيام الإنتداب الفرنسي[١٧].

٣- سوق السقطية

يمتد غرب سوق العطارين وهو سوق طويل بأجزاء ثلاث يتفرع من السوق عدة محاور تربطه بالأسواق الموازية أهمها المحور المودي لسوق خان الكمرك جنوبا وهو يبدا بقبة فوق السقطية ثم أخرى مع تقاطع سوق الكمرك وأخرى أمام الخان وعلى ضفته الشمالية وقبل نهايته غربا يوجد مدخل يودي إلى سوق المحور ومسجد صغير هو (مسجد الكميني) وقد ذكره ابن الشحنة في الدر المنتخب[١٨].

(١٦) الغزي مصدر سابق ج ٢ ص ١١٦.
(١٧) طلس، مصدر سابق، ص ١٧٨.
(١٨) أسواق حلب وخاناتها مصدر سابق.

٤- سوق البهرمية

وهو امتداد لسوق السقطية باتجاه الغرب وسمي بهذا الاسم لوجود المدخل الرئيسي لجامع ومدرسة بهرام باشا ابن مصطفى ابن عبد المعين المتوفي ٩٩٥هـ والذي تولى حلب سنة ٩٨٨هـ[١٩] ويتألف من ١٧حانوت وسبيل ماء ويختلف سوق البهرمية عن الأسواق الأخرى بأن بعض أجزائه غير مسقوفة ابدأ والجزء المسقوف منه هو المقابل لجامع البهرامية وهو أخر جزء مسقوف من الأسواق تجاه الغرب[٢٠]

٥- سوق الدهشة

ويتفرع من سوق قرة قاش (الحاجب الأسود) إذ يأخذ الأخير الاتجاه شمال جنوب وتتصل نهاياته الجنوبية بين سوق الضرب والعبي ويتفرع عنه من الجهة الشرقية خان خايربك والذي يقابله مدخل سوق الدهشة والسوق غير مسقوف ويأخذ السوق اتجاه شرق غرب وتتسم إرجاء السوق بروعة وجمال بنائه فضلا عن كثرة الأقمشة المعروضة ويحتوي السوق على ٤٩ دكانا[٢١]

٦- سوق الفرايين

يمثل محور دخول رئيسي للمدينة من جهتها الجنوبية واسمه يرتبط بخان الفرايين الملاصق للسوق, ولا يأخذ السوق منحنى مستقيما بل يبقى نصفه الجنوبي بالاتجاه شمال جنوب ثم ينحرف باتجاه شمالي غربي حتى نقطة التقاء سوق العبي بسوق العطارين ويوجد على ضفته الشرقية عنصران هامان هما خان الفرايين الذي يتسم بمدخله الجميل إذ تعلوه قبة جميلة ومدخل آخر

---

(١٩) الطباخ، علام النبلاء ج ٣ ص ٢١٣.
(٢٠) أسواق حلب وخاناتها الشهيرة مصدر سابق.
(٢١) المصدر نفسة.

شمالي الأول قيسارية الفرايين أما من الجهة الغربية فهناك تفرع واحد من طرف السوق ويتكون السوق من ٣٨ دكانا تتاجر بالفرو من اصل ٧٧ دكانا[٢٢].

٧- سوق الجوخ

يلتصق بخان العلبية من الجهة الشمالية ويتألف من ٤٠محلا تتاجر جميعها بالمنسوجات

ويتميز السوق باتساعه وانتظامه[٢٣]

٨- سوق النحاسين

ويأخذ الاتجاه شمال جنوب ومن ثم الدخول إلى خانات النحاسين والعبسي وكذلك حمام النحاسين وجامع العادلية نصفة الشمالي مسقف ويتألف من ٨٤ دكانا ويقول الطباخ (لازال هذا السوق يعرف بسوق النحاسين حتى أن الخان الذي هناك يسمى خان النحاسين والحمام الذي أمامه يعرف بحمام الست التابع لوقف المدرسة الخسروية ويعرف أيضا بحمام النحاسين)[٢٤].

٩- سوق النوال

يقوم في الجهة الشرقية من جامع أبشير باشا، فيه ثلاثة دكاكين في الشرق و ١٣ عشر في الجنوب و١٦ في الشمال ومحل لبيع السمن والعسل ويتضمن ٤ مخازن وثلاث قيساريات[٢٥]

(٢٢) أسواق وخانات حلب القديمة مصدر سابق.

(٢٣) أسواق وخانات حلب القديمة مصدر سابق.

(٢٤) الطباخ, أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٢٨٨

(٢٥) هاينتزغاوبه، مصدر سابق ص ٣٥٠.

تطورت الأسواق كثيراً في العهد العثماني وخاصة السوق المركزي للمدينة وبالنسبة لسوق حرير الممتد بين خان الحرير وخان الحديد الثاني فيفترض أن يعود إنشاؤه إلى أواخر القرن السادس عشر الميلادي وذلك لوجود شبه في طراز البناء والذي يعود إلى عام ١٥٩٤م. وإلى الشرق من سويقة الأحمدية يمتد سوق السقطية الذي أجري مع خان الكمرك كوقف عام ١٥٧٤م.[٢٦]

إن حركة البناء قد تواصلت بإتجاه الشمال فقد بني سوق الأخوان على الجدار الشمالي لسوق خان الكمرك، إن التوسع العمراني للأسواق العثمانية في بلاد الشام (مدينة حلب) قد بدأ في المرتبة الأولى في الطرف الغربي من الجزء الشمالي لزقاق سوق النحاسية الذي يعد كخان النحاسين من ممتلكات وقف جامع العادلية الذي يعود إلى عام ١٥٥٦م، كما إن تسقيف هذا الزقاق يندرج ضمن منشآت خان النحاسين ويصل حتى دكاكين خان البرغل وباتجاه الشرق من خان النحاسين نجد أن سوق الجوخ وسوق العلبية وسوق الفرايين وهي أجزاء من وقف جامع العادلية[٢٧].

وعند المدخل الشرقي لسوق الدهشة يلفت النظر قوس سوق خايربك وإن سوق الدهشة اقدم من سوق خايربك وإن زقاق سوق الدهشة يعلوه قباب ذو مقطع نصف دائري تتخلل ذروتها فتحات مربعة للإنارة وتنفرد فيها بزوايا قائمة الأقبية نصف دائرية التي تعلو الدكاكين ومداخل الدكاكين أخفض من سقفها إلى حد كبير أما بالنسبة لواجهة الجدران الفاصلة بين الدكاكين والمساحات المكللة بأقواس والواقعة بين أبواب واسقف الدكاكين فقد بنيت بحجر منحوت على نحو جميل، وإن زقاق سوق الصابون قد أنشئ بنفس

---

(٢٦) هاينتيزغاوبة، مصدر سابق، ص ٤٥١.
(٢٧) خارطة مدينة حلب الأثرية.

التقنية تماماً ومن المرجح أن يكون سوق الصابون وسوق الدهشة قد شيدا سنة ١٥١٤م.[٢٨]

وأن شكل السوق يبدو على شكل حرف (U) حول جنوب الجامع الكبير وشرقه وهنا تلاقت الحشود البشرية التي تدفقت عبر باب أنطاكية من الغرب وباب النيرب من الجهة الجنوبية الشرقية وعبر باب الحديد من الجهة الشمالية الشرقية وعبر باب الفرج وجنان من الجهة الشمالية الغربية وعبر باب النصر من الجهة الشمالية وكما يتضح من الأشكال (٧-١٠).

ثانيا: الخانات

الخان Han: كلمة فارسية تعني مخزن البضائع وقد سبقتها بالإستعمال كلمة (دار) أو (دار بالوكالة) العربيتان وهي تعني مكان السكن للتجار وعابري السبيل في المدينة الإسلامية وقد تكثف وجودها على طريق القوافل في العالم الإسلامي، وقد انتعشت تلك البنايات بالمدن الإسلامية ابتداءاً من القرن السابع الهجري- الثلاث عشر الميلادي[٢٩]. ويتميز تخطيط الخان في الغالب على حوش مستطيل أو مربع تحيط به الحجرات والمخازن وعادةً ما يتبع تصميمه الاتجاه المعماري التي وجد في كنفه والفرق في ذلك أسلوب بناء الأروقة والحجرات وواسطة التواصل بينهما، والحوش عنصر معماري وغالب ما يكون في كل الاتجاهات المعمارية حيث تربط فيه الأنعام وتكدس به البضاعة وتحيط به الحجرات المخصصة لسكن التجار[٣٠].

وتوجد في حلب مخازن تجارية كبيرة عديدة يسميها أهل البلد خانات وبالإضافة إلى الأهمية التجارية لهذه الخانات فإنها تأخذ على عاتقها إيواء

---

(٢٨) هاينتزغاوبة و اويغن فيرت، مصدر سابق، ص ٤٥٥.
(٢٩) علي توينى، معجم عمارة الشعوب الإسلامية، بيت الحكمة، العراق، ٢٠٠٥، ص ٢٩٠.
(٣٠)) علي تويني، مصدر سابق، ص ٢٩١.

الغرباء الذين تغص بهم المدينة والخان عبارة عن مبنى يتوسطه فناء داخلي تحيط به في الطابقين الأرضي والعلوي أروقة تتوزع خلفها غرف تسقفها أقبية حجرية وجميع الغرف مجهزة بعناية تامة، وتسمى الخانات أحيانا استراحات القوافل ويستخدم الطابق الأرضي كمخازن ومكاتب ومساكن ويستخدم الطابق العلوي كمضافات لزوار المدينة، وهناك خانات منتشرة داخل أسوار مدينة حلب واغلب هذه الخانات مؤجرة لتجار حلب الذين يؤثرونها كمستودعات آمنة ولكل خان باب واحد يغلق بإنتظام مع غروب الشمس ففيه باب صغير يمكن الدخول منه ليلاً وفي الخان غرفة للمسؤول عن الخان الذي يوكل إليه مالك الخان مهمة فرض الرسوم على البضائع الداخلة إلى الخان وتنظيم أمور الخان الأخرى وهناك الحارس الذي يقيم عادة في الخان وفي وسط فناء الخان فثمة بئر يستحصل منه على الماء إلى جانب الخان هناك مطاعم ومقاهي لخدمة التجار.[٣١]

إن كثرة الخانات في حلب بسبب كون المدينة مركزاً تجارياً عظيماً وتتألف هذه الخانات في الغالب من مدخل عظيم في علوه وزخارفه وفتحته تؤدي إلى صحن واسع فيه إسطبلات للدواب وغرف أرضية وعلوية للبضائع والتجار[٣٢]. ومن أهم الخانات هي[٣٣]:

١ - خان الفرايين

من الخانات المهمة في ساحة بزة التجارية. خان جميل من القرن السابع عشر للميلاد فيه غرف تعلوها قباب (٤) وقد ذكرة الغزي بإشارة سريعة بقوله

(٣١) هاينتزغاوبة، مصدر سابق ص ٢٩٣.

(٣٢) طلس مصدر سابق ص ٢٨٨.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٩.

(خان الفرايين وقيسارية الفرايين)[٣٤] ويستخدم الخان حالياً كمخازن لبيع الجملة وهناك إضافات حديثة على الشكل المعماري للخان.

٢- خان الكتان

وهو خان قديم تجاه المدرسة الإصلاحية هنا يصف الغزي الخان فيقول: (كان يعرف بخان السيدة وهي السيدة بنت وثاب النميري أخت شبيب زوجة نصر بن محمود ابن مرداس يقال أنها جهزت جيش غزاة من مالها، وكان هذا الخان مشرفاً على الخراب تنزله قوافل الكروان، ثم في سنة ١٣٣٠هـ شرعت بإعماره مديرية أوقاف حلب، ولما حدث النفير العام ١٩١٤هـ وقفت العمارة ثم في هذه الأيام شرع مديرية الأوقاف الحالي بإتمام عمارته وجعله خاناً يصلح للتجار)[٣٥].

٣- خان الوزير

تم بناء الخان في القرن السابع عشر من قبل والي حلب والخان يمثل احد طراز العمارة العثمانية الرائعة حيث يعد الخان من أجمل خانات حلب وهنا يصف الغزي الخان بقوله: (خان الوزير أنشأه احد ولاة حلب سنة ١٠٩٣هـ وهو خان عظيم يعد من أعظم خانات حلب وجبهة بابه مشتملة على صنعة من البناء والعمارة تستدعي السواح إلى الأقبال عليها لأخذ رسمها والإعجاب بشأنها)[٣٦].

---

(٣٤) الغزي مصدر سابق ج ٢ ١٣٤.
(٣٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩٦.
(٣٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩٦.

٤- خان الكمرك

انجز الوالي محمد باشا إبراهيم خان زادة عام ١٥٧٤م اعظم أوقاف تلك المدة في حلب وبعض المدن السورية الأخرى وكان من أهمها خان الكمرك الذي اعد من روائع العمارة لم اشتمل عليها من زخرفة وجودة بناء اتسمت بأبعادها المتنافسة وقدرت مساحته بنصف هكتار ومجموع حوانيتها ٣٤٤ حانوتاً[٣٧]، والخان يشتمل على أبنية كثيرة ولم يبقى من بنائه القديم سوى المدخل والجبهة والمسجد الصغير في صحنه[٣٨]. ويقول الغزي في نهر الذهب: (من أعظم خاناته، أي خانات محلة الجلوم بل خانات حلب، خان الكمرك القديم المعروف بخان محمد علي الشهيد الصدر الأسبق إبراهيم خان زادة وهو من جملة أوقافه فيما بين سوق العفص وسوق الهواء طوله من ظاهره مائة ذراع في عرض مثلها وفي وسط رحبته جامعٌ عظيم تقام فيه الأوقاف السرية وفي جهاته الأربع حجرات واسعة ذات مخادع ومرافق على أسطحها بيوت للأجانب الأوربيين وغيرهم يتصرفون بها بطريق الأجارتين وباب هذا الخان عظيم ومرتفع كأنه خصٌّ مشيد مبني بالحجر الأصفر والأسود صفاً صفاً)[٣٩].

٥- خان الحبال

وقد تم أنشاءه سنة ١٥٩٤م ويعد من أوقاف نيشانجي محمد باشا الذي بناه في أواخر القرن السادس عشر كما جاء في وقفيته ويقع غربي سوق الحدادين جنوبي خان البنادقة والمدرسة الحلوية، وفي منتصف سوق الجنفاص الموازي لسوق الحور وسوق العطارين من الجهة الشمالية ضمن

---

(٣٧) الأسواق العثمانية في مدينة حلب مصدر سابق.
(٣٨) طلس مصدر سابق ص ١٣٥.
(٣٩) الغزي مصدر سابق ج ٢ ص ٨١.

أسواق المدينة، وقد طرأت على واجهته طرازاً مختلفاً عن واجه الخانات الأخرى لتأثير الجالية الفرنسية فواجهته من الأعلى تذكر المشاهد بعمارة عصر النهضة في أوروبا وبخاصةً النافذتان العلويتان فوق قوس المدخل أما باحته الداخلية فقد تقلصت كثيراً مع مساحته الأصلية [٤٠]

٦- خان المرعشلي

ويتكون الخان من ٢٩ مخزن علوي و٧ مخازن سفلية واهرائين وعشره دكاكين في واجهته الغربية[٤١].

لقد بدأ زمن بناء الخانات الكبيرة في العصر العثماني كخان السيد وخان المرة وخان المجني وخان القاضي وخان الشيباني الذين يقعون في مركز المدينة، وهناك خانات تم بناؤها في أطراف المدينة بالقرب من أبواب المدينة فهناك أربعة خانات قرب باب الجنان واثنان بالقرب من باب النيرب وواحد بالقرب من باب النصر والحديد وقنسرين وباب الفرج. [٤٢]

ويبدو أن الخانات التي قامت على أطراف المدينة كانت بمثابة مستودعات فاقت عددها الخانات في مركز المدينة ونشطت كمراكز للتجارة الدولية.

وكان لأمراء ووزراء الدولة العثمانية دور كبيرة في إنشاء الخانات وجعلها وقفا للمؤسسات الدينية حيث قام محمد باشا ابن كبير الوزراء سنان باشا فقد قام بإنشاء خان الجمرك الواسع الأرجاء كما قام بشراء وبناء أبنية داخل وخارج السوق المركزي وقد أقدم خصيصاً على شراء وبناء حمامات وخانات وطواحين خارج باب انطاكية. [٤٣]

ويمكن تحديد وظائف الخانات بما يلي:

---

(٤٠) أسواق وخانات حلب القديمة مصدر سابق.

(٤١) المصدر نفسه.

(٤٢) هاينتز مصدر سابق ص ٣٠٩.

(٤٣) غاوبه، H.Gaube، ص ١٨٧.

(١) كان للخانات وظيفة مضاعفة فقد كان بمثابة فندق ومكان يتم فيه بيع منتجات البلدان إلى تجار حلب إضافة إلى إقامة الوكالات التجارية في الخانات.

(٢) وجود القنصليات الأوربية حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي في خانات الأسواق المركزية.

(٣) الخانات عبارة عن مستودعات كبيرة مسقوفة بأقبية أمكن فيها حفظ البضائع الكبيرة، كما استعملت الخانات الكبيرة مثل خان الكمرك وخان العلبية على مساجد أيضا إضافة إلى أسواق كاملة ضمن التخطيط الأساسي للخان.

(٤) إن الخانات الموجودة داخل أسوار مدينة حلب اتخذت لتصريف أمور التجارة في حين أن الخانات التي بنيت في أطراف المدينة اتخذت كمستودعات لتفريغ وشحن البضائع، كخان اللباجي وخان الناصر الثاني.

(٥) إن الخانات التي بنيت في أطراف المدينة وخاصة في الضواحي الجنوبية الشرقية قدتم تربية المواشي فيها وتسمينها وبخاصة الأغنام، لتحقيق ربحاً وفيراً عند بيعها.

وقد استمدت الخانات أهميتها من خلال ثلاثة عناصر أساسية هي:

(١) إنها كانت مسقوفة مما يعني استمرار نشاطها طيلة أيام العام ولا يعيق حركة النشاط التجاري حر الصيف ولا برد الشتاء.

(٢) الخانات عبارة عن مراكز صناعية لتعليم الصناعات المحلية حيث يذكر المؤرخون أن بعض الخانات في مدينة حلب هي عبارة عن مراكز لتعليم الصبيان حيث المعلم وحوله الصبيان يعلمهم حرفة صناعة بعض الأدوات.[٤٤]

(٣) إن بعض الخانات انفردت بأنواع معينة من البضائع والسلع حتى اكتسبت شهرة واسعة مثل خان الحرير الذي اشتهر بأقمشة الحرير وخان

---

(٤٤) المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية) ج ٢، القاهرة، ١٨٥٣، ص ٩١.

الحبال حيث كانت تعرض المواد في أيام محددة من الأسبوع فيقصدها التجار لعقد صفقات البيع والشراء.[٤٥]

مما تقدم تبين إن الخانات كانت عبارة عن مراكز تجارية وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحركة البيع والشراء في الأسواق.[٤٦] وكما يتضح من الأشكال (١-٦).

ثالثاً: القيسريات

قيصرية أو قيسرية ومجموعها قياسر أو قياصر ويرجح أن الكلمة مشتقة من اليونانية (قيصري أو سوق القيصر) وإن القيسرية في العصور الإسلامي غلب عليها الطابع العمومي وتوجد إشارة من بعض الباحثين بإن الاسم يرجع إلى مدينة قيصرية في فلسطين[٤٧]. وهناك نوع من المنشآت يعيش فيه الغرباء المتواضعين(العرب والأكراد والأتراك والأرمن) يسمى قيسرية وهي عبارة عن فناء كبير محاط ببيوت رخيصة متواضعة يتكون الواحد منها من غرفتين أو ثلاث غرف، ولجميع القاطنين حق استخدام الفناء وهو مرصوف على نحو غير منتظم ماعدا أمام مداخل البيوت حيث تزرع الأشجار ولا تحتوي القيسرية بئر متصل بشبكة المياه وإنما قساطل تجمع فيها المياه وهذه القيسريات موزعة داخل أسوار المدينة وخارجها، ويطلق القيسرية أيضا على مبان صغيرة منفتحة على أفنية داخلية تستخدم كورشات للنسيج أو مشاغل لحرف أخرى.

تعد القيساريات من المعالم الأثرية التاريخية المهمة في مدينة حلب وهي أبنية مشيدة للصناعة والتجارة والإقامة أي أنها كامن بمثابة فنادق ذلك الزمان وله باب كبير يغلق عند غياب الشمس وفيه باب صغير يسمى (خوخه) لا يفتح

---

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٩٢.

(٤٦) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الطبعة الأولى، القاهرة، ص ٢٨٦.

(٤٧) علي تويني، مصدر سابق، ص ٥٧٩.

إلا عند الضرورة القصوى للقاطنين وقد سكنت عوائل أوربية طوال قرون عديدة هذه القيساريات مثل عوائل مركو بولي، صوله، جيراري[٤٨]

الخاتمة

مما تقدم يتبين لنا أن التراث المعماري لمدن بلاد الشام ناجم عن التفاعل الحضاري بين الإنسان وبيئته الطبيعية ويمكن أن نستنتج ما يلي:

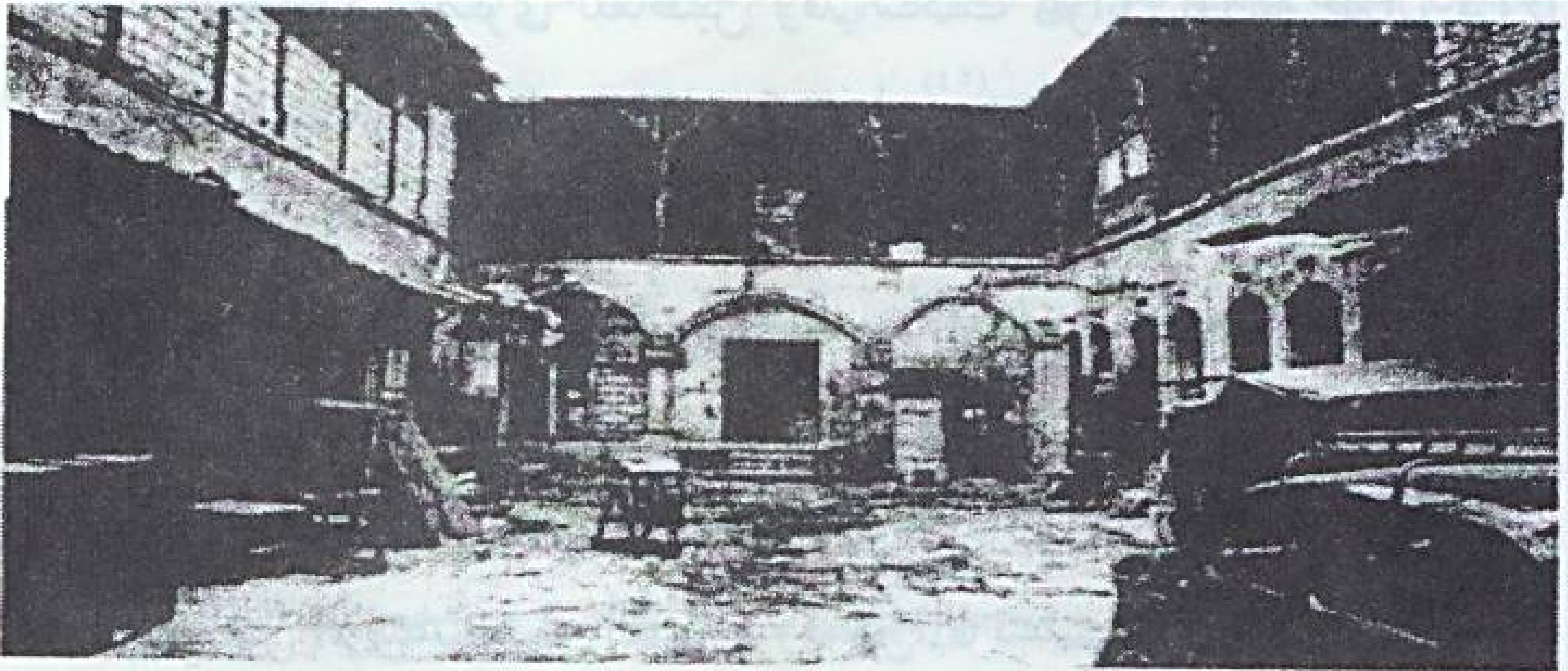
١- لقد شهدت مدينة حلب خلال القرن السادس عشر أي على عهد العثمانيين توسعاً عمرانياً يتضح ذلك من خلال عدد المباني التي شيدت في منطقة المدينة التجارية

٢- للتراث المعماري العثماني دورٌ واضح وكبير في تتطور الأسواق في مدينة حلب من حيث المعالم العمرانية أو من خلال وظيفة الأسواق.

٣- كان للأوقاف العثمانية دوراً رئيسياً ومهماً في توسع وانتشار مباني حلب وقد تنوعت هذه المباني إلى دينية وتجارية ومنها الخانات والقيساريات والدكاكين المنتشرة في أسواق حلب.

---

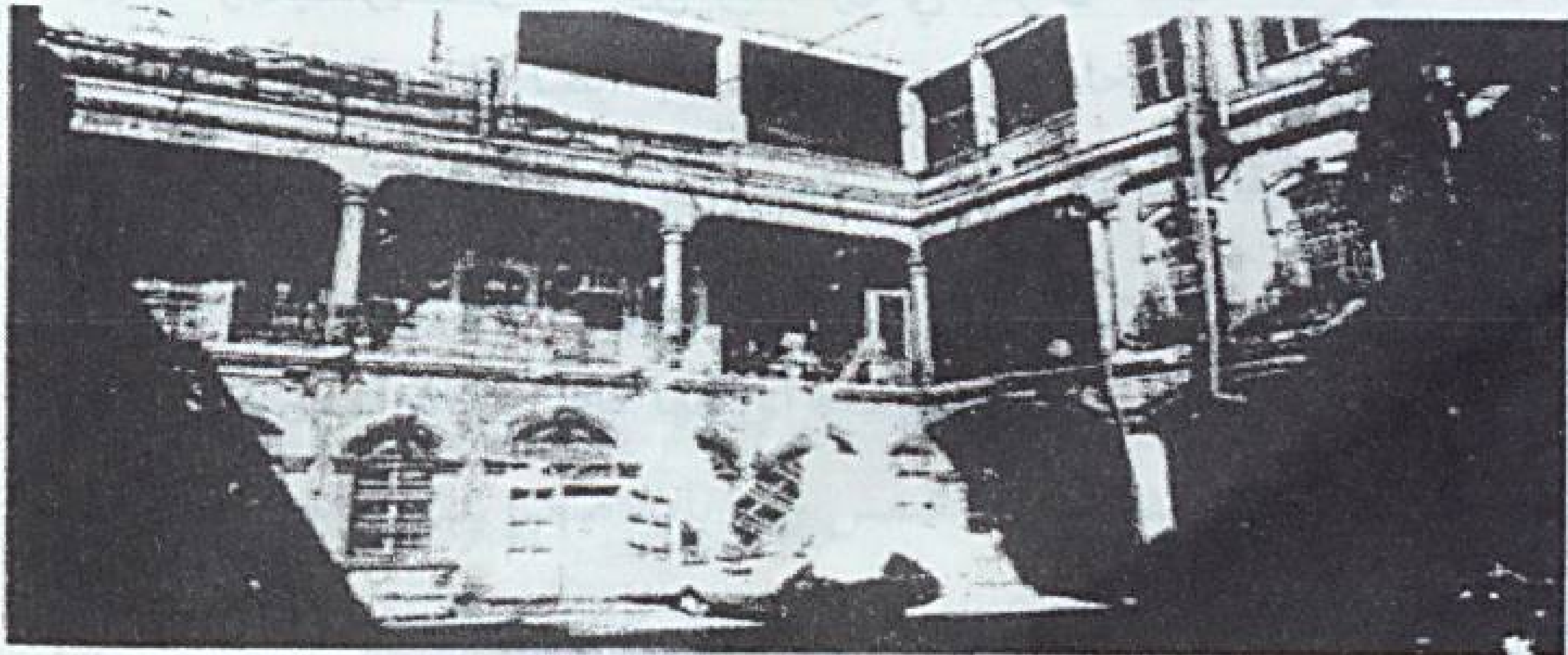
(٤٨) موقع مدينة حلب ٢٠١٣ الخانات والقيساريات المناطق الأثرية والمتاحف.



١. فناء خان الزعيم الذي يعود إلى العصر العثماني المتأخر

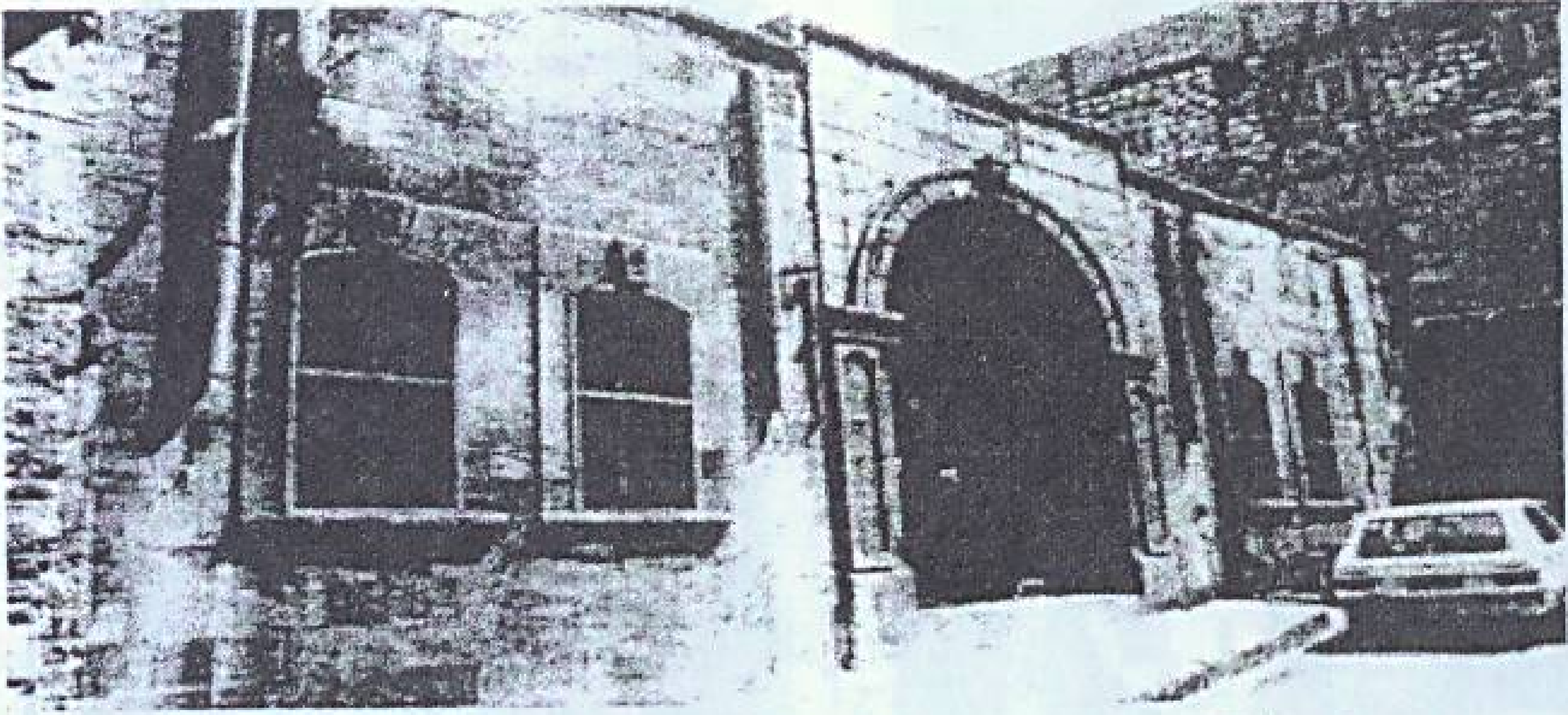


٢.فناء خان الجديد الذي يعود بناؤه إلى عام ١٩٢٩م

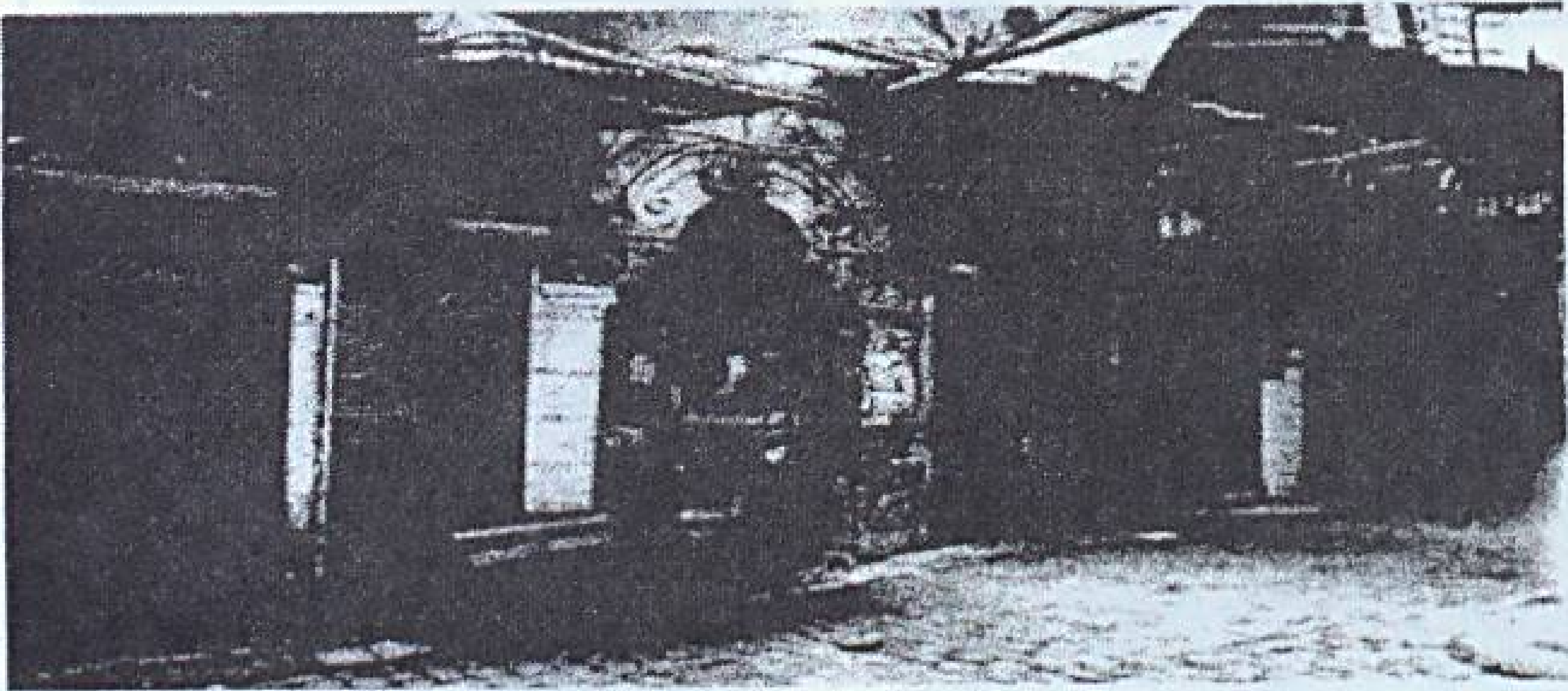


٣. فناء خان الميسر الذي يعود إلى عام ١٩١٠م

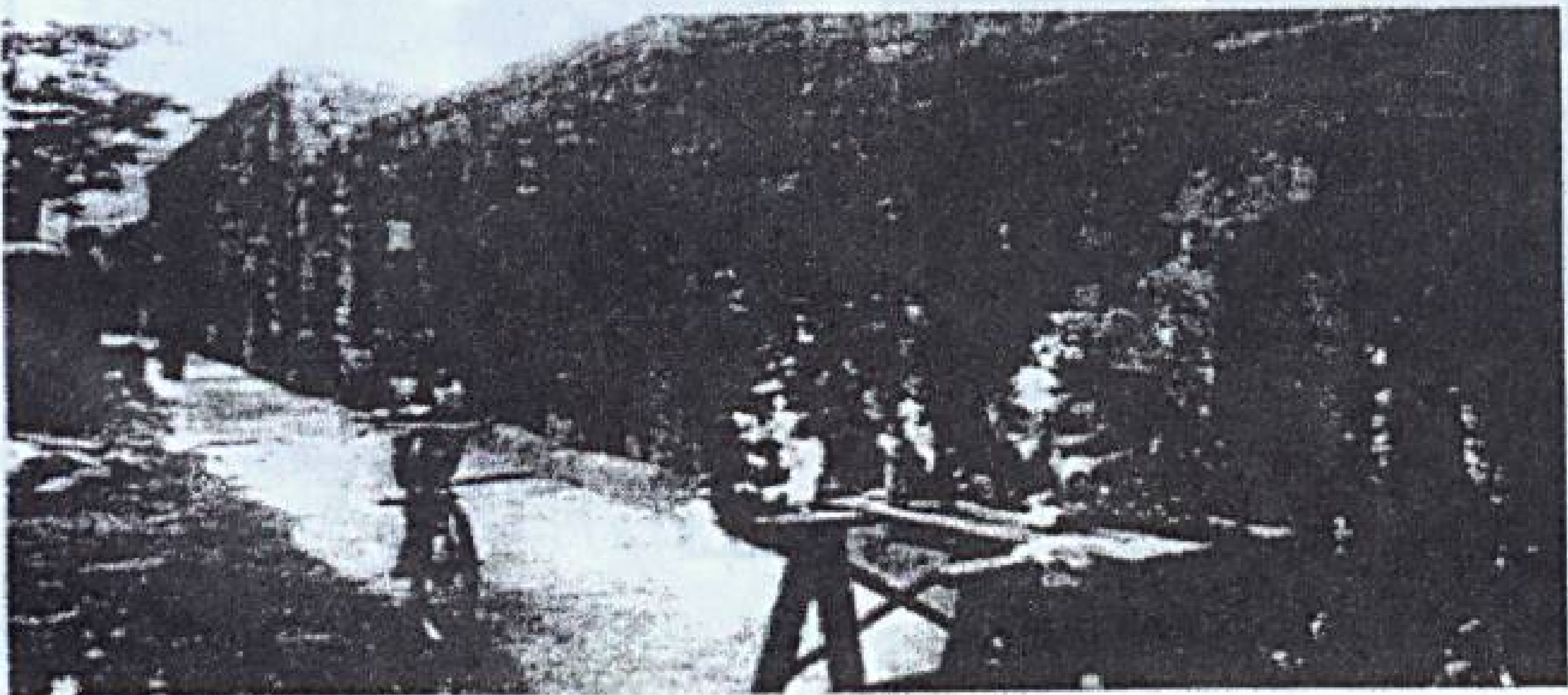
المصدر: هاينتز غاوبة، مصدر سابق، جزء الثاني



٤. خان الكتان الذي يعود بناؤه إلى عام ١٩١٢م



٥. خان الجلبي

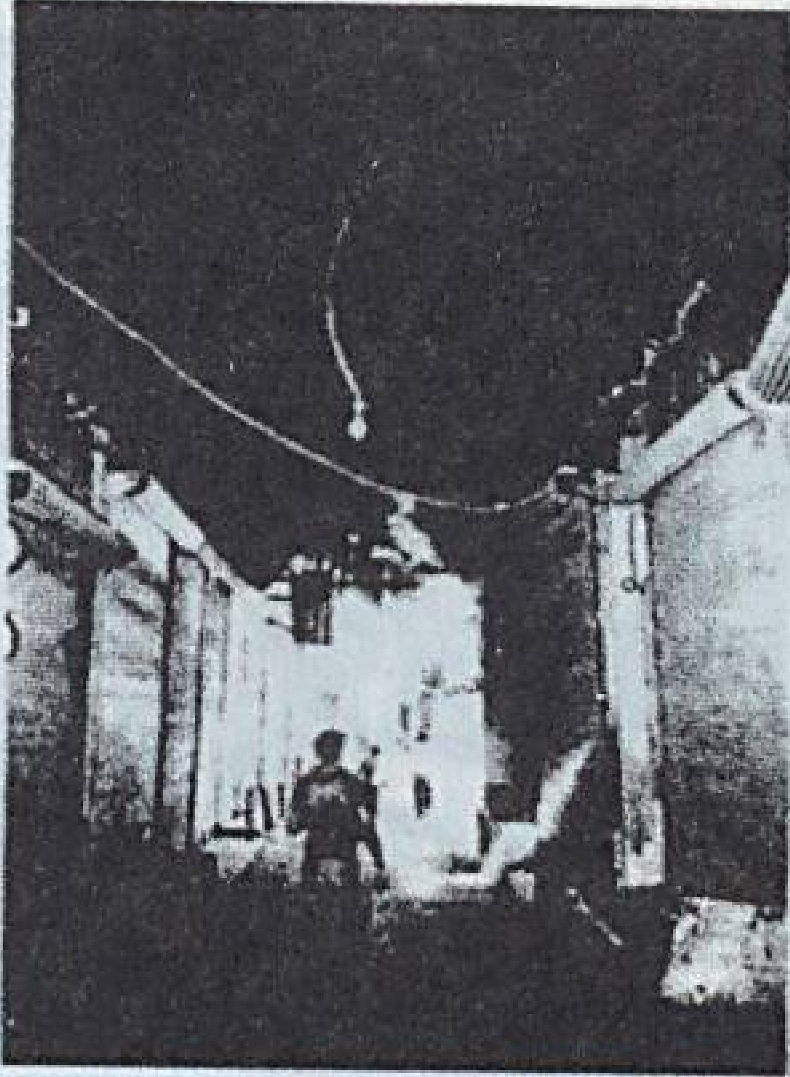


٦ . قيسرية أوج خان

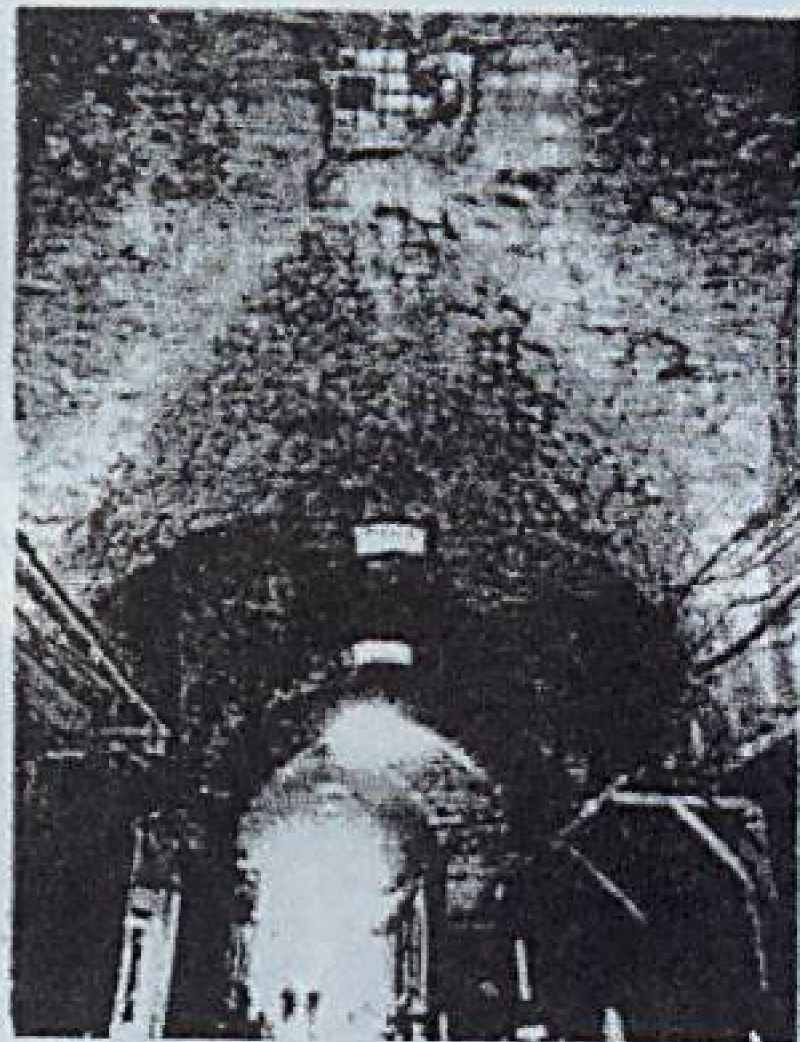
المصدر نفسه



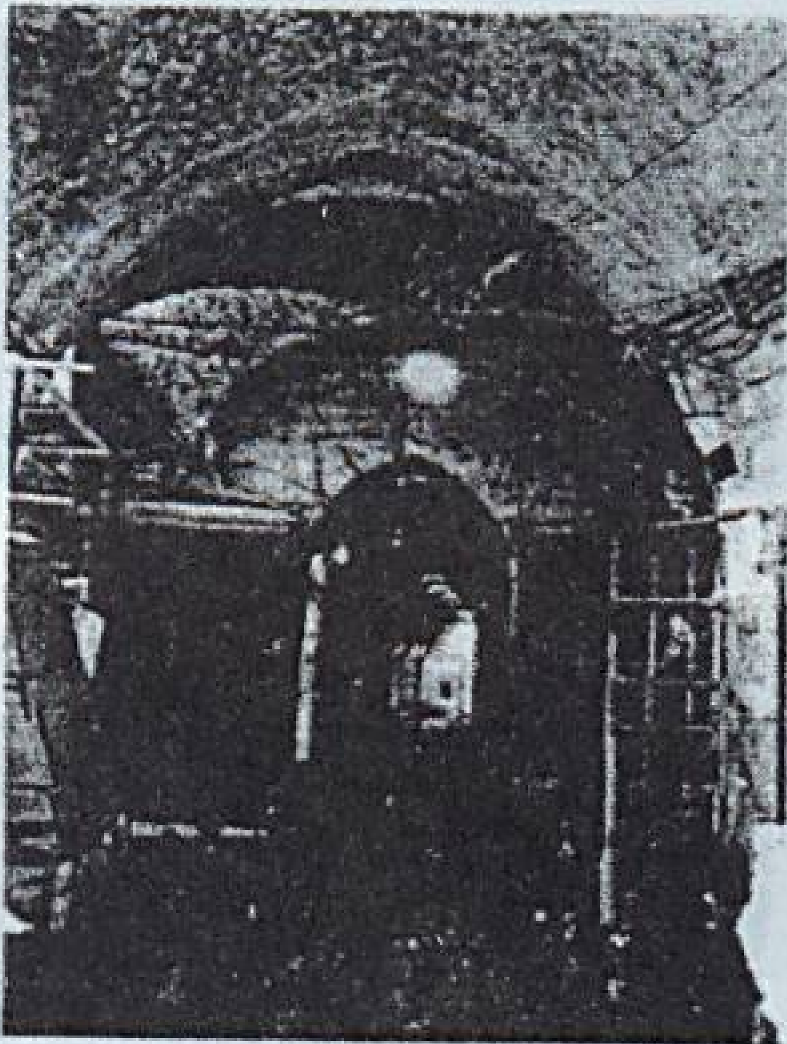
٧. زقاق سوق الحمام



٨. زقاق سوق الحبال



٩. زقاق سوق خان النحاسين
من العصر العثماني المبكر



١٠. تقاطع أزقة سوق القرايين والعطارين والصابون والعبي

المصدر نفسه

المصادر

حياة ناصر الحجي، أسواق القاهرة في القرنين الثامن عشر والتاسع للهجرة الرابع عشر والخامس عشر الميلادي، بحوث ودراسات في التاريخ العربي تحرير ناظم كلاس، دمشق، ١٩٩٢، ص١٠٢.

خارطة سوريا الطبيعية.

خارطة مدينة حلب الأثرية.

درافيو، تاريخ مدينة حلب، ١٧٥٦، ج٦، ص٣٥٤-٤٠٣.

عالم غربي عني بالآثار والتاريخ والعمارة والفنون الإسلامية، وكانت رسالته للدكتوراه عن عمران وتاريخ مدينة حلب، ومن بحوثه الآثار الإسلامية في مدينة حب.

علاء الدين لولح، النمو العمراني السريع لمدينة حلب- الأسباب- النتائج- الحلول) المعهد العربي لإنماء المدن، النمو العمراني الحضري في المدينة العربية، المشاكل والحلول، ١٩٨٦، ص٦٦٥.

علي تويني، معجم عمارة الشعوب الإسلامية، بيت الحكمة، العراق، ٢٠٠٥، ص٢٩٠.

عمر وصفي مرتيني، النمو العمراني غير المتوازن في المدينة العربية الكبيرة، حالة خاصة بمدينة حلب، المعهد العربي لإنماء المدن، النمو العمراني الحضري في المدينة العربية، المشاكل والحلول ١٩٨٩ ص٦٤٨.

غاويه، H.Gaube، ص١٨٧.

الغزي كامل، نهر الذهب في تاريخ حلب، ١٩٢٧، ج٢ ص٥١٥.

محمد سعد طلس، الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، مطبوعات مديريات الآثار العامة في سوريا، ١٩٥٧، ص ١٤١-١٤٢.

المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية) ج٢، القاهرة، ١٨٥٣، ص٩١.

منتديات ستار تايمز، التوسع العمراني لأسواق المدينة في العصر العثماني بمدينة حلب.

موقع مدينة حلب ٢٠١٣ أسواق حلب القديمة.

موقع مدينة حلب ٢٠١٣ الخانات والقيساريات المناطق الأثرية والمتاحف.

نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الطبعة الأولى، القاهرة، ص٢٨٦.

هاينتز غاوبة واويغن، حلب دراسة تاريخية وجغرافية حول البنية العمرانية والتركيبة الاجتماعية والحركة الاقتصادية كأحد مراكز التجارة الدولية في الشرق الأدنى، ترجمة وتدقيق وتحديث صخر علبي، الجزء الأول، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٧، ص٢٨٤.

وللمزيد من المعلومات مراجعة محمود حريتاني، حلب والسلطة العثمانية، الوقف والعمران ١٥١٦-١٩١٦م دار شعاع حلب ٢٠٠٦.

السرايا العثمانية في بلاد الشام

سهيلا سليمان الشلبي(*)

مقدمة

تتناول هذه الدراسة السرايا العثمانية في بلاد الشام، وتهدف إلى تسليط الضوء على مثل هذه المباني والتعريف بها، وذلك لدورها السياسي من جهة باعتبارها كانت مسرحاً لكثير من الأحداث السياسية، ولأنها شاهد معماري على فترة تاريخية مرت بها الأمة العربية من جهة أخرى، فهي تعكس النمط المعماري السائد، وتؤرخ لمرحلة عاشتها المنطقة.

ويلاحظ أن هناك نمطين أو نوعين من دور السرايا، فهناك ما تم إنشاؤه ليكون مقراً لحاكم المنطقة، ومركزاً ليمارس سلطته، فجاء من حيث الشكل والحجم والفخامة متناسباً مع هذا الحاكم، وبأن من أنشأه أراد أن يمرر من خلاله رسالة معينة، تعكس قوته وسلطته السياسية، ومثال ذلك سرايا الأمير فخر الدين المعني الثاني، والأمير بشير الشهابي، وسرايا يوسف كنج الوالي العثماني في دمشق. وهناك نوع آخر يتمثل بالسرايا التي أنشأتها الدولة العثمانية أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لتكون مركزاً للحكم والإدارة، ومنها السرايا الجديدة في دمشق، وسرايا بعبدا في بيروت وكذلك السرايات في يافا والسلط والكرك وغيرها من مدن بلاد الشام. وهي وإن كانت شكلت نمطاً معمارياً جديداً، إلا أنها اختلفت عن سابقتها بأنها كانت أقل حجماً وزخرفة وفخامة واعتناءً بالتفاصيل الجمالية.

(*) الدكتورة

وكانت النية في كتابة هذه الدراسة تتجه نحو الحديث عن دور السرايا في بلاد الشام عامة، ولكن صعوبة الإحاطة بجميعها، وندرة المعلومات المتوفرة حولها حالت دون إتمام هذا التوجه، واقتصر البحث على بعضها، إذ أن المعلومات المتعلقة ببقية المدن لم تتجاوز في عدد كبير من المصادر والمراجع السطر أو بضعة كلمات. ولعل هذا النقص بالمعلومات عن دور السرايا يعكس ضعفاً بالاهتمام بمثل هذه البنايات والوعي بأهمية دورها في التأريخ للمرحلة التي شهدتها، ويتجلى هذا الضعف في أوضح صوره من خلال هدم العديد منها في مدن بلاد الشام عموماً، وفي فترة زمنية يمكن أن يقال عنها إنها تمثل فترة ازدهار فكري ووعي ثقافي، وهي فترة خمسينيات وستينيات وسبعينيات القرن العشرين، فنجد أن قراراً إدارياً أو سياسياً اتخذ ونفذ، دون أن يوجد من يمنع ذلك أو يقف في وجه تنفيذه، وإن كان هذا لا يمنع من وجود نماذج مشرفة تسعى للحفاظ على مثل هذه الشواهد التاريخية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر الحملة التي قادها الأهالي والجمعيات والفعاليات الثقافية في بعبدا من أجل الحفاظ على سراياها وترميمها، وكذلك المحاولات التي تجري في سوريا وفي الأردن للحفاظ على المباني التراثية فيها.

معنى كلمة سرايا

السرايا كلمة تركية تعني القصر أو دار الولاية أو الديوان، وهي المقر الذي كان والي أو حاكم المدينة ومساعدوه وموظفوه يمارسون فيه مهامهم ووظائفهم [1].

---

(١) الشيخ طه الولي، بيروت في التاريخ والحضارة والعمران، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٣م، ص ٦٤؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: بيروت في التاريخ؛ علي البواب، موسوعة

ويرى البعض أن أصل كلمة السرايا فارسي، وتعني الدار الكبيرة العالية، فاستعارها العثمانيون لتسمية المباني الحكومية الكبيرة[٢].

السرايا في دمشق

كان الولاة العثمانيون الأوائل يستخدمون مصطلح "دار السعادة" للدلالة على مبنى السرايا القديم، وأقدم نص استخدم تعبير السرايا يرجع إلى عام ١٠٨٤هـ/١٦٧٣م، وهو خبر رواه المحاسني في مذكراته[٣]. حيث يضعف بعد ذلك التاريخ استخدام هذه التسمية التي كانت تطلق على مقر الحكومة[٤]، ودرج استخدام تعبير السرايا بدلاً عنه، وذلك لشيوع اللغة التركية من ناحية، ولإطلاق عبارة "دار السعادة" على مقر السلطنة العثمانية في العاصمة إسطنبول من ناحية أخرى[٥].

ومن الإشارات المبكرة إلى دار السعادة، ما ذكره أبن طولون بأن دار السعادة عام ٩٢٤ه/١٥١٧م كانت بحاجة إلى الترميم، وبأن نائب دمشق نزل عند الشامية البرانية وأمر بعمارة دار السعادة وإسطبلها، فشرعوا في ذلك

يافا الجميلة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣، ص ٨٧؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: البواب، يافا.

(٢) محمد علي الصوريركي الكردي، تاريخ السلط والبلقاء ودورهما في بناء الأردن الحديث، عمان، دار عمار، ١٩٩٨م، ص ٣٢٦؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: الكردي، تاريخ السلط والبلقاء.

(٣) عبد القادر الريحاوي، روائع التراث في دمشق، دمشق، التكوين للطباعة والنشر، ٢٠٠٥م، ص ١٢٩؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الريحاوي، روائع التراث.

(٤) استخدم محمد كرد علي عبارة "دار السعادة"، عند وصفه لدار عظيمة لابن الفريخ بناها خارج دمشق قبلي دار السعادة، في حين استخدم المصدر الذي اعتمد عليه، وهو المحبي عبارة السرايا؛ لمزيد من التفاصيل أنظر: محمد كرد علي، خطط الشام، ٥أجزاء، دمشق، المكتبة النورية، ١٩٨٣م، ج ٥، ص ٢٨٤؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: كرد علي، خطط الشام.

(٥) عبد الرحمن سامي، القول الحق في بيروت ودمشق، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨١م، ص ٢٧؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: سامي، القول الحق؛ الريحاوي، روائع التراث في دمشق، ص ١٢٩.

عاجلاً. ثم اختفى ذكرها بعد ذلك لفترة، ليعود إلى الظهور مرة أخرى عام ٩٢٧هـ/١٥١٩م، في إشارة إلى الاحتفال بإنتصار جرى فيها بمناسبة إنتصار نائب دمشق على خصومه [٦].

واستخدم البديري مصطلح "سراية الحكم"، وذلك عند حديثه عن مقتل متسلم دمشق عام ١١٥٥هـ/١٧٤٢م،وتغسيله في سراية الحكم [٧]. وكذلك عند حديثه عن الزلزلة الخفيفة التي حدثت في دمشق في ليلة التاسع من صفر عام ١١٦٧هـ/١٧٥٣م، ووقع بسببها بعض أماكن من سرايا الحكم [٨]. كما استخدم البديري في الوقت ذاته لفظة السرايا، ويبدو أنه كان يعني بها سرايا أسعد باشا العظم، فأشار إلى "انشغال أسعد باشا وزير الشام بعمارة داره السرايا المشهورة، التي هي قبلي الجامع الأموي، ولم يلتفت إلى رعاياه، "وأخذ قدراً وافياً من ماء القنوات، فما وصل إلى السرايا حتى تقطعت السبل ومياه غالب الجوامع والحمامات [٩].

وفي عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠م انتقلت دار السعادة إلى مبنى جديد، وذلك في عهد محمد باشا العظم [١٠]، وهذه الدار شيدت خارج السور في محلة الدرويشية، عند باب المدينة الغربي (باب النصر)، وحلت محل دار السعادة

(٦) لطفي فؤاد لطفي، التاريخ العمراني لدمشق بين ٩٢٣-١٣٧٣هـ/١٥١٦-١٩١٨م، بحث في التاريخ العمراني لمدينة دمشق، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠١١م، ص ٢٣٧؛ وسيشار إليه لاحقا: لطفي، التاريخ العمراني لدمشق.

(٧) أحمد البديري الحلاق، حوادث دمشق اليومية ١١٥٤-١١٧٥هـ/١٧٤١-١٧٦٢م، نقحها محمد سعيد القاسمي، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٥٩م، ص ٣٣؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الحلاق، حوادث دمشق.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٨٠.

(٩) كان ذلك في عام ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩م؛ لمزيد من التفاصيل أنظر البديري، حوادث دمشق، ص ١٤١، ص ١٤٤.

(١٠) عبد القادر الريحاوي، دمشق تراثها ومعالمها التاريخية، دمشق، دار البشائر، ١٩٩٦م، ص ٨٦؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: الريحاوي، دمشق.

القديمة، وأطلق عليها في البدء اسم دار السعادة [11]، وفي أواخر العهد العثماني أصبحت تعرف بدار المشيرية[12]، ثم في عهد الانتداب أصبحت تعرف بدار الانتداب [13]. وفي عام ١٩٤٥م هدمت وأزيلت، وشيد مكانها القصر العدلي الحالي [14].

ومن الإضافات التي ألحقت بالسرايا عام ١٠٧١هـ/١٦٦٠م عمارة الوزير أحمد باشا الكوبرلي قاعة عظيمة داخل دار الإمارة بدمشق، "فبنيت على أسلوب عجيب ووضع غريب"[15].

وكذلك بناء دار الخزنة من قبل الوالي محمد باشا العظم في عام ١١٩٦هـ/١٧٨١م، وإتمامه الجهة الجنوبية للسرايا كاملة، وكان قد بدأ هذا البناء عام١١٩٠هـ /١٧٧٤م أمين الجاوشية جعفر آغا [16].

وفي عام١٢٢٢هـ /١٨٠٧م انتقل مركز الحكم إلى سرايا كنج يوسف باشا الذي تولى دمشق في العام ذاته [17]. وفي هذا يقول الحصني: "إن ليوسف كنج باشا داراً كبيرة تضاهي داراً لأسعد باشا العظم في ذلك العصر، ثم تحولت إلى دار للحكومة ومسكن لولاتهم"[18].

وكان المبنى الرئيس للسرايا مؤلفاً من طابقين، بدليل وجود قاعة فوقانية وقاعة تحتانية، ذكرت المصادر التاريخية أنها احترقت عام١٢٤٧هـ/١٨٣١م في

---

(١١) لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، ص ٢٣٨.

(١٢) أصبح يطلق عليها اسم السرايا القديمة، بعد أن بنيت السرايا الجديدة.

(١٣) كرد علي، خطط الشام، ج ٥، ص ٢٩٠.

(١٤) لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، ص ٢٣٨.

(١٥) محمد المحبي بن فضل الله، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، أربعة أجزاء، بيروت، دار صادر، ١٩٠٠م، ج ١، ص ٣١؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: المحبي، خلاصة الأثر.

(١٦) الريحاوي، روائع التراث في دمشق، ص ١٣١.

(١٧) محمد أديب الحصني، منتخبات التواريخ لدمشق، ثلاثة أجزاء، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩م، ج ٢، ص ٦١٨؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: الحصني، منتخبات التواريخ.

(١٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٤٩، ص ٢٥٠؛ لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، ص ٢٣٩.

تمرد أهالي دمشق ضد واليها سليم باشا، ومنها ما أورده ميخائيل الدمشقي: " بأن الباشا عندما شعر بحصار الثوار له، صار هو ذاته يحرق السرايا لكي يشغل الناس ويفوز بنفسه، فصار حريق مهول، احترقت القاعة الفوقانية والتحتانية وباقي المحلات عدا محلات الخزنة داخلاً الذي كان بها ما دخلتها النار، وحينما فهموا أهل البلد ذلك كفوا عن الحريق ولكن الخراب الذي صار واهياً جداً" [١٩].

وكانت هناك قاعة خارجية يجلس فيها الباشا. وكان الديوان يعقد في دار تدعى دار الخزنة القديمة، وتقع داخل المبنى، لذا لم يصل إليها الحريق، فيذكر مؤلف المذكرات التاريخية "أنه جرى ديوان في ٢٥ صفر ١٢٥٧هـ في دار الخزنة بالسرايا في وسط الخزنة القديمة، والوزير والدفتردار أحضروا قرآناً وإنجيلاً وتوراة، وحلّف الحضور كل حسب ديانته على أن لا يرتشي أحد أو يراغب عن الحق" [٢٠]. كما كان فيها كشك يجلس فيه شريف باشا[٢١].

ومن الأجنحة التي كانت موجودة في السرايا قبل الثورة جناح مخصص لسكن الباشا ويدعى الحرملك، والذي تحول بعد ترميمه-جراء الحريق-إلى مقر للباشا ودار للحكومة[٢٢]. ومما يؤكد استخدام الحرملك كدار للحكومة أن شريف باشا الذي ولي بعد الثورة وبعد دخول الجيش المصري، اتخذ له

(١٩) ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث جرت في الشام وسواحل بر الشام والجبل ١٧٨٢-١٨٤١م، تحقيق محمد محافظة، عمان، ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ص ١٧٤؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: الدمشقي، تاريخ حوادث جرت بالشام.

(٢٠) مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا، تحقيق أحمد غسان سبانو، دمشق، دار قتيبة، د. ت، ص ١٤٢؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: مذكرات تاريخية.

(٢١) الريحاوي، روائع التراث في دمشق، ص ١٣٥.

(٢٢) المرجع نفسه، ص ١٣٥.

داراً خاصة في محلة القنوات سكنها أيضاً الوالي العثماني الذي أتى بعد انسحاب الجيش المصري[٢٣].

كما كان للسرايا ساحة واسعة(ميدان) فيها بحرة ماء وأشجار، وكانت من الاتساع بحيث آوت عدداً كبيراً من جيش إبراهيم باشا عند دخوله دمشق[٢٤].

ومن المنشآت الملحقة أيضاً بالسرايا دار المتسلم وغرفة الصيارفة والقهوة وغرف الحرس (الدفكجية)، كما كان هناك المطابخ (الكلار) والإصطبلات (الدوالك)[٢٥].

وهناك السجن، حيث يوضع الموقوفون فيه، فيورد صاحب المذكرات التاريخية: "أنه في غرة ربيع الأول ١٢٥٧هـ اشتكى النصارى من تطاول الدمشقيين إلى قنصل دولة الإنكليز، فعرض ذلك على الوزير، فمسك الذين تطاولوا، فواحد منهم ادعى أنه مسودن فأرسله إلى المرستان، وخلافه حبسهم في السرايا"[٢٦].

أما أبواب السرايا فكان هناك واحد في جهتها الشرقية يعرف بباب الهوا، ويرجح أن يكون هو الباب الرئيسي، لأن بعضهم أطلق عليه اسم باب السرايا، وكان يقابل باب النصر الذي أطلق عليه في ذلك القرن اسم جديد هو باب الحديد[٢٧].

---

(٢٣) أبي الفضل محمد خليل المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ثلاثة أجزاء، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ١٩٨٨م، ج ٣، ص ٢٨٧؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: المرادي، سلك الدرر.
(٢٤) مذكرات تاريخية، ص ٤٩.
(٢٥) الريحاوي، روائع التراث في دمشق، ص ١٣٥.
(٢٦) مذكرات تاريخية، ص ٤٩.
(٢٧) الريحاوي، روائع التراث في دمشق، ص ١٣٥.

وقد اشترى عزت باشا العابد هذه السرايا من والي دمشق ناظم باشا،وقام بهدمها من أساسها، وبنى بناءً حديثاً يضاهي أبنية بلاد الغرب في أكبر عواصمها، وصرف عليها نحو نصف مليون قرش[٢٨].

السرايا الجديدة

في أواخر القرن التاسع عشر أخذت أساليب العمارة الأوروبية تغزو المدينة وتقام المباني وفق هذه الأساليب الحديثة، فتغير طابع المدينة ومعالمها، ومن أهم المباني التي تعود إلى تلك الفترة، ولا تزال قائمة إلى أيامنا السرايا الجديدة (مقر دار الحكومة) على ضفة بردى اليمنى، والتي شيدت في عهد الوالي ناظم باشا عام ١٩٠١م [٢٩].

بنيت السرايا بالحجر وفق هندسة مقتبسة عن المباني والقصور الأوروبية التي أخذت تظهر في أوروبا منذ عصر النهضة، وتنتسب إلى الكلاسيكية الحديثة في فنها المعماري والمدارس الفنية التي ظهرت فيما بعد كفن الباروك والروكوكو[٣٠]. وكان مبنى السرايا على شكل مستطيل يمتد من الشرق إلى

(٢٨) يقع مبنى العابد في الزاوية الجنوبية الشرقية من ساحة المرجة، حيث تطل واجهته الرئيسة على ساحة المرجة، وواجهته الغربية على زقاق رامي المؤدي إلى شارع النصر؛ لمزيد من التفاصيل أنظر: لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، ص ٢٤٧.

(٢٩) الريحاوي، دمشق، ص ٩٠.

(٣٠) الباروك: (Baroque) مصطلح مشتق من كلمة برتغالية يعبر عن شكل منتظم أو لؤلؤة مستديرة الشكل، استخدم هذا المصطلح في القرن الثامن عشر للتعبير عن عصر بدأ في القرن السابع عشر في أوروبا أسرف فيه الفنانون في استعمال الزخارف والحليات وبكثرة المنحنيات في الخطوط، واستعمال مكونات للتزيين على شكل باقات زهور وأكاليل وأشكال آدمية. أما الروكوكو(Rococo ، فهو مصطلح بمعنى شكل صدفي، استخدم للدلالة على عهد من الزخارف والتزينات في أواخر عهد الباروك في مباني القرن الثامن عشر، حيث زادت العناية بالزخارف وكثرة الإنحناءات والتشابك ووفرة العناصر الزخرفية؛ لمزيد من التفاصيل أنظر: محمود الرفاعي، حلب بين التاريخ والهندسة، حلب، جامعة حلب، ١٩٩٦م، ص ٢٤٤؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: الرفاعي، حلب.

الغرب، على ضفة بردى اليمنى قريباً من ساحة المرجة، وإلى الغرب منها، ويتألف من ثلاث طبقات، يتخللها ثلاثة بروزات كالأبراج أحدها في الوسط والآخران في طرف البناء، ويتقدم المبنى درج مؤلف من سبع درجات(٣١).

باب السرايا الرئيس مفتوح في منتصف الواجهة الشمالية الرئيسة، ويتقدمه رواق مسقوف محمول على سبعة أعمدة من الحجر الكلسي، ذات تيجان من الطراز الأيوبي، حجرها سماقي. وللطابق الثاني شرفة يماوية بمثابة سطح للرواق المذكور، زودت الواجهات في الطوابق الثلاثة بنوافذ مستقلة، ولكنها تختلف بشكلها من طابق لآخر، فلها في الطابق الأرضي جبهة مثلثة، يعلوها في الطابق الأوسط ساكف(٣٢) بارز على اثنين من المساند الجدارية، وفي الطابق العلوي نوافذ عادية ذات قنطرة نصف دائرية(٣٣).

ويتألف المخطط العام للطوابق الثلاثة في الداخل من ممر عريض يمتد على طول المبنى، توزعت على جانبيه الغرف، وهي تتسع في كل جانب، ويصعد إلى الطوابق العليا بواسطة درج عريض داخلي يتوسط البناء، درجاته من الرخام الأبيض، وله درابزين من الخشب المزين بزخارف مخرّقة(٣٤).

---

(٣١) لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، ص ٢٤٠.

(٣٢) الساكف: ويعرف أيضاً بـ(الأسكفة أو العتبة العليا) وهو لوح حجري أفقي، أو عارضة من الحجر تمتد كالجسر في أعلى الباب أو النافذة أو الفتحة؛ لمزيد من التفاصيل؛ أنظر: قتيبة الشهابي، زخارف العمارة الإسلامية في دمشق، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٦، ص ١٧١؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الشهابي، زخارف العمارة الإسلامية.

(٣٣) الريحاوي، روائع التراث الدمشقي، ص ١٤٦؛ لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، ص ٢٤١.

(٣٤) لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، ص ٢٤١.



(مبنى السرايا العثماني الجديد في دمشق عام ١٩٠١م)



(السبيل المكون من أربع فسقيات والعمود التذكاري الرخامي)



(السرايا الجديد / مبنى وزارة الداخلية السورية حتى عام ٢٠١٠م)

أقيم أمام باحة السرايا سبيل مؤلف من أربع فسقيات، وعمود تذكاري من الرخام، أحضر من إيطاليا لهذا المبنى، وهو مزين بلوحتين نحاسيتين: إحداهما من الجهة الشمالية باتجاه نهر بردى وشارع الحكومة، والأخرى من الجهة الجنوبية باتجاه المدخل الرئيس للمبنى، وكلتاهما تحملان الطغرة العثمانية التي تحوي توقيع السلطان عبد الحميد الثاني، وتؤرخ لذكرى مرور ربع قرن على توليه العرش، وكتابة منقوشة تحمل تاريخ عام ١٣١٨هـ/١٩٠١م. ويقوم

العمود على قاعدة مربعة الشكل وتاج مقرنص[٣٥]، وأسفل القاعدة ثلاث درجات صنعت بشكل مربع ليتناسب مع شكلها[٣٦].

يلاحظ أن القسم العلوي للنصب مسطح كما لو كان مهيئاً لاستقبال نموذج أو تمثال، ولكن لسبب أو لآخر تعذر إتمامه كما كان مخطط له[٣٧].

قدم الأمير محمد علي باشا وصفاً لدار السرايا في دمشق عام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م، وذلك أثناء زيارته لها قال فيه: "وقد وصلنا إلى السرايا حيث تقيم الحكومة، وقد رأينا السرايا جميلة المنظر جداً، وربما كانت أحسن مباني المدينة عمارة وأنظرها بقعة لأنها واقعة بجوار نهر بردى"[٣٨].

بقيت السرايا مقراً للولاة العثمانيين، واستعملت الحكومة التركية في آخر عهدها زمن الحرب العالمية الأولى منزلاً لإدارتها العسكرية، ثم بعد ذهابهم اتخذ مقراً للمؤتمر السوري ومحل اجتماعه في عهد ملكية الملك فيصل[٣٩].

كما كانت مقراً لحكومة الانتداب الفرنسي، وكانت تجري فيه جميع مراسم الاستقبال والاحتفالات الرسمية لحكومة الانتداب، من الجدير بالذكر أن مبنى السرايا الحكومي شغل مقر وزارة الداخلية في الجمهورية العربية السورية حتى عام٢٠١٠م[٤٠].

---

(٣٥) المقرنص: حلية معمارية تتألف من مجموعة من المحاريب والحنايا الصغيرة المتراكبة والمترابطة بصفوف وأنساق مدروسة التوزيع والتجميع والتراص، بحيث تشبه أقراص أو خلايا النحل، وتسمى وحداتها خلية المقرنص أو حلية المقرنص، أو حنية المقرنص؛ لمزيد من التفاصيل؛ أنظر: الشهابي، زخارف العمارة الإسلامية.

(٣٦) لطفي، التاريخ العمراني لدمشق، ص ٢٤١.

(٣٧) ماري دكران سكرو، دمشق فترة السلطان عبد الحميد الثاني، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠١٠، ص ٩٠؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: سركو، دمشق.

(٣٨) محمد علي باشا، الرحلة الشامية، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨١م، ص ٧٣؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: علي، الرحلة الشامية.

(٣٩) الحصني، منتخبات التواريخ، ج ٢، ص ٢٤٩، ص ٢٥٠.

(٤٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٤٩، ص ٢٥٠؛ سركو، دمشق، ص ٩١.

السرايا في لبنان: سرايا الأمير فخر الدين المعني الثاني

اتخذ الأمير فخر الدين في البداية صيدا عاصمة له، فجملها وبنى فيها قصراً ليكون داراً للحكومة، وكان يرتفع بناؤه أكثر من سائر أبنية المدينة، فكان يطل على البحر ويشرف على أكثر أرجاء البلدة، ولقد بُني على أحسن طراز وأمتنه، وزينه بالصور العربية، وأحاطه بحديقة أزهار جميلة، وعلى أبواب حجراته وأعلاها نقش كتابات من الآيات القرآنية بحروف مذهبة قام بنقشها أحد الرسامين الفرنسيين، ولقد تهدم هذا القصر نتيجة لإهمال الباشاوات العثمانيين له بعدئذ[٤١].

وبعد أن استقرت الأمور للأمير فخر الدين المعني الثاني في الثلث الأول من القرن السابع عشر الميلادي، وبعد أن أصبح سيد المنطقة، شرع في تحقيق أحلامه في جعل لبنان يلتحق بركب الحضارة، وتحصين بيروت وتجميلها - بعد أن قرر أن يتخذها مقراً شتوياً له عوضاً عن صيدا- وإنشاء قصر له في منطقة دير القمر يتناسب ومكانته التي وصل إليها[٤٢].

وكان قد أحضر معه عند عودته من توسكانا (إيطاليا) عام ١٦١٧م بنائين ومهندسين لإشادة قصره في دير القمر [٤٣]، ومن أشهر هؤلاء المهندسين الذين استقدمهم كيولي و فايني، والرسام سيليني[٤٤].

---

(٤١) منير الخوري، صيدا عبر حقب التاريخ من ٢٨٠٠ق. م -١٩٦٦م، بيروت، المكتب التجاري للطباعة، ١٩٦٦م، ص ٢٣٥؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: الخوري، صيدا.

(٤٢) فيليب حتي، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة أنيس فريحة، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٢، ص ٤٦٤؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: حتي، تاريخ لبنان.

(٤٣) فؤاد الخوري، من مشارف المئة، لبنان وجوه حضارية، بيروت، الجامعة اللبنانية، ١٩٨٧م، ص ١٢١؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: الخوري، من مشارف المئة.

(٤٤) الخوري، صيدا، ص ٢٣٤.

تقع السرايا في الجهة الشمالية الشرقية من بيروت [٤٥]، في الأرض التي شغلها سوق سرسق فيما بعد[٤٦]. وينسب البعض هذه السرايا للأمير منصور عساف الذي بنى جامع السرايا[٤٧].

وقد زار عدد من الرحالة هذه السرايا وتحدثوا عنها في كتاباتهم، فالرحالة ماجري Magri) يشير إلى أن الإيطاليين هم الذين شيدوا قصر الأمير الفخم في بيروت على الطراز الإيطالي، مع الجنائن والإسطبلات وأقفاص الوحوش اللاحقة به"[٤٨].

وفي الساحة الواقعة إلى يمين باب السرايا كان بستان فخر الدين، وكانت كل منتجات أوروبا وآسيا تتجمع في هذا المكان، وقد اقتضى انحدار الأرض وميلها، أن تكون جنائن الأمير متعددة الأشكال[٤٩].

وكان في السرايا حديقة تضم غرائب الحيوان، واستخدمت الأقبية المعقودة الموازية للسرايا لإيوائها[٥٠].

وضم السرايا أيضاً عدداً كبيراً من التماثيل النصفية، وذلك لتحريم الإسلام للتماثيل المكتملة الشكل، ويعلق القنصل الفرنسي في لبنان هنري غيز على هذه التماثيل بقوله: " إن فخر الدين الدرزي المتظاهر بالإسلام، قد استطاع أن يوفق بين

(٤٥) حتي، تاريخ لبنان، ص ٤٦٤.
(٤٦) حسان حلاق، بيروت المحروسة في العهد العثماني، بيروت، الدار الجامعية، ١٩٨٧م، ص ٥٢؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: حلاق، بيروت المحروسة؛ سامي، القول الحق، ص ٢٤.
(٤٧) الشيخ طه الولي، بيروت في التاريخ والحضارة والعمران، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٣م، ص ٦٣، ص ٦٤؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: الولي، بيروت في التاريخ.
(٤٨) بولس قرألي، لبنان والدولة العثمانية في عهد فخر الدين المعني الثاني، ١٥٩٠-١٦٣٥م، القاهرة، مطبعة مصر الجديدة، ١٩٥٢م، ص ٥٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: قرألي، لبنان.
(٤٩) هنري غيز، بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن، ج ١، ترجمة مارون عبود، بيروت، دار الكشافة، ١٩٤٩م، ص ٤٣؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: غيز، بيروت ولبنان.
(٥٠) المصدر نفسه، ٤٤.

ميوله وأوهام بلاده التي لم يشأ أن يصطدم بها، فهذا الأمير كان درزياً أو مسلماً، فكلتا الديانتين تقضي تعاليمهما الدينية بالابتعاد عن هذا الجمال المثالي"(٥١).

وأقام الأمير فخر الدين عام١٠٤٠هـ/ ١٦٣٢م على زاوية السرايا برجاً جعل ارتفاعه ستين قدماً، وسمك جدرانه اثني عشر قدماً، ليكشف منه الجوار والبحر، أطلق عليه اسم برج الكشاف، وبه تسمت ساحة البرج(٥٢).

ومما اشتملت عليه السرايا أيضاً سجنين كان يطلق على أحدهما اسم "الزندان" (٥٣).

وقد أُطلق اسم السرايا على أحد أبواب بيروت الثمانية(٥٤)، الواقع في الجهة الغربية من السرايا، ويعرف أيضاً باسم باب المصلى(٥٥)، وكانت الأبواب تقفل جميعها عند المغرب باستثناء باب السرايا الذي كان يقفل عند العشاء، باعتباره الباب الرسمي للمدينة(٥٦).

---

(٥١) المصدر نفسه، ٤٤.

(٥٢) قرألي، لبنان والدولة العثمانية، ص ٦٠.

(٥٣) غيز، بيروت ولبنان، ص ٣٥.

(٥٤) اندثرت أبواب سور بيروت ولم يبق منها سوى اسمها، وهذه الأبواب هي: بوابة يعقوب والدركاه(الدركه) وأبو النصر وباب السرايا وباب الدباغة وباب السلسلة والسمطية وأدريس؛ أنظر: حلاق، بيروت المحروسة، ص ١٣، ص ١٤. وذكر القاياتي عدد من هذه الأبواب أبواب بيروت باب السور ولها باب آخر من الجانب الغربي يسمى (باب إدريس)ولها باب آخر من الغرب يقال له (باب البزركان)، ومن الشرق باب السرايا القديمة؛ أنظر: محمد عبدالجواد القاياتي، نفحة البشام في رحلة الشام، بيروت، دار الرائد، ١٩٨١م، ص ١٥٧؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: القاياتي، نفحة البشام.

(٥٥) حلاق، بيروت المحروسة، ص ١٣، ص ١٤.

(٥٦) عرف هذا الباب في بداية القرن العشرين باسم " باب المصلى"، وذلك لوقوعه بالقرب من ساحة المصلى، إحدى ثلاث ساحات في بيروت القديمة، هما ساحة الدركة ومحلة الثكنات ويقع هذا الباب عند رأس شارع فوش الحالي، في مكان بناية دعبول حيث كانت وزارة الاقتصاد تجاه جامع الأمير منصور عساف الذي اشتهر هو الآخر سابقاً باسم" جامع السرايا" أو "جامع دار الولاية"؛ لمزيد من التفاصيل أنظر: الولي، بيروت، ص ٦٤.

ويوجد من ضمن الحجارة المستخدمة في بناء القصر حجارة صفراء لها قصة تاريخية، إذ تشير المصادر إلى أنه عندما حدث خلاف بين الأمير فخر الدين وبين بني سيفا، وأتى بنو سيفا أصحاب طرابلس فأحرقوا ونهبوا الشوف قيل أنه أقسم: "وحق زمزم والنبي المختار لأعمرك يا دير بحجر عكار"، وهكذا لما انتصر على بني سيفا، وحاصر قلعة الحصن وأخذها وهدمها، جعل الجمال بالألوف تحمل الحجارة من قلعة عكار إلى دير القمر، وبنى جميع الدور القديمة في دير القمر[٥٧].

وكان هنري غنز قد تحدث في مذكراته –والتي يعود تاريخها إلى العام ١٨٤٦م– عن الوضع المتردي الذي آلت إليه سرايا فخر الدين، فقال: "أما السرايا أو مركز الحاكم، فليست سوى خربة مقوضة، ومع ذلك فمن يتأملها يمكنه أن يحكم على ما كان عليه سابقاً قصر فخر الدين، لقد اقتبس هذا الأمير الكثير من الأوروبيين في بناء قصر مدسيس، فأضفى على قصره تجميلات كثيرة دلت بحق على أنه أحسن الاقتباس"[٥٨].

بقيت إسطبلات السرايا وقسم من الدار المشيدة فوقها قائمة إلى أن أزيلت عام ١٩٣٢م[٥٩].

وفي عام ١٩٣٢م كتب بولس قرألي مدير المجلة البطريركية في مجلته مطالباً بالحفاظ على بعض الأجزاء المتبقية من السرايا، فقال: "كلما مررنا بهذا الأثر الجميل لا نتمالك من التأثر لرؤية العقود البديعة، التي شاهدت أعظم أمير لبناني تهدمها يد الجهل لتقيم مكانها الأعمدة المسلحة، فنشعر أن مجد

---

(٥٧) كرد علي، خطط الشام، ج ٥، ص ٢٨٦.
(٥٨) غيز، بيروت ولبنان، ص ٣٥.
(٥٩) قرألي، لبنان والدولة العثمانية، ص ٥٩.

لبنان وجماله وجلاله يسقط أمام المدنية الحاضرة النفعية التي لا مجد لها ولا جمال ولا جلال"[٦٠].

سرايا الأمير بشير الشهابي "بيت الدين"

تبعد قرية بيت الدين ٤٥ كم عن بيروت و٥كم عن دير القمر، وترتفع ٨٥٠ م عن سطح البحر. كانت قرية خاملة الذكر قبل أن يحل فيها الأمير بشير عمر الكبير، بعد أن أسكنه فيها الأمير يوسف الشهابي في أيام ولايته على الجبل، فأحبها الأمير لحسن موقعها وطيب هواها، ولما صارت إليه ولاية الجبل أراد أن يجعل من بيت الدين مقاماً أهلاً له، فباشر في إحياء مواتها، فغرس في أراضيها شجر التوت والفاكهة [٦١].

ثم فكر في بناء قصر يجاري قصور الملوك، فاستقدم من الآستانة ودمشق وحلب عملة بارعين في فن البناء ومهندسين من إيطاليا[٦٢]، كما استخدم من منطقة الذوق من لبنان مهندساً ومتعهداً يدعى انطوان خضرا، إضافة إلى استخدامه لأشهر معلمي البناء في تلك الفترة من قرى الشوير والخنشارة وبرج البراجنة والمريحة والليلكي والحدث وسبينة[٦٣]، وكلفهم بإشادة بناء على الطراز الشرقي [٦٤]، فجاء هذا السرايا مزيجاً رائعاً ومتناسقاً من بناء الحجر

---

(٦٠) المرجع نفسه، ص ٥٩.

(٦١) لبنان مباحث علمية واجتماعية، الكتاب الذي نشرته لجنة من الأدباء بهمة إسماعيل حقي بك متصرف جبل لبنان سنة ١٣٣٤/١٩١٨م، نظر فيه ووضع مقدمته وفهارسه فؤاد افرام البستاني، جزءان، بيروت، الجامعة اللبنانية، ١٩٧٠م، ج ٢، ص ٦١٧؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: البستاني، لبنان.

(٦٢) البستاني لبنان، ص ٦١٧؛ كرد علي، خطط الشام، ج ٥، ٢٨٥.

(٦٣) الخوري، من مشارف المئة، ص ١٢١.

(٦٤) البستاني لبنان، ص ٦١٧؛ كرد علي، خطط الشام، ج ٥، ص ٢٨٥.

اللبناني من الخارج والفن الزخرفي الدمشقي من الداخل[٦٥]. وتولى المهندس خليل عطية من دير القمر مد المياه من نهر الصفا إلى السرايا[٦٦].

اختار المهندسون هضبتين واسعتين مرتفعتين تطلان على الوادي الفاصل بين دير القمر وبيت الدين، فساووا أرضهما على شكل مربع تبلغ جوانبه من ٢٠٠ إلى ٣٠٠متر وشرعوا ببناء قصر الأمير عام ١٨١٠م[٦٧]، كما روى الرحالة بيركهارت الذي زار الأمير عام ١٨١٢م [٦٨]. وقد انتهى العمل به بعد خمس سنوات أي عام ١٨١٤م[٦٩]، وذلك وفقاً لما أفاد به السائحان الانكليزيان لايت (Light) ورختر(Richter) اللذان زارا المنطقة عند قرب إنجازه[٧٠].

وقد صُمم السرايا على الطراز التركي الممتزج بالطراز الإيطالي، على جوانبه أربعة جواسق، يتألف السرايا من مئة واثنتين وستين غرفة، وتبلغ مساحته

---

(٦٥) صحيفة الشرق الأوسط، بيروت، العدد: ١١٨٨٧، ١٩١١/٧/٢٥م.

(٦٦) ميخائيل مشاقة، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، بيروت، مديرية الآثار، ص ١٩؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: مشاقة، منتخبات من الجواب.

(٦٧) اختلفت المصادر التي تحدثت عن تاريخ بناء السرايا والانتهاء منه، فهناك من ذكر أنه بدأ البناء عام ١٨١٠م، وانتهى عام ١٨١٤م، في حين يشير البعض إلى أن تاريخ انتهاؤه كان عام ١٨٢٨م، ليشرع بعدها بسنتين في بناء قصور أولاده الثلاثة؛ لمزيد من التفاصيل أنظر: البستاني لبنان، ص ٦١٧؛ جوزيف نعمة، صفحات من لبنان، بيروت، د. ن، د. ت، ص ٦٤؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: نعمة، صفحات من لبنان.

(٦٨) رحلات جون لويس بيركهارت ١٧٨٤-١٨١٧م، ترجمة أنور عرفات، جزءان، عمان، دار الثقافة والفنون، ١٩٦٩م، ج ١، ص ٥٦؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: بيركهارت، رحلات.

(٦٩) هناك من ذكر أن بناء القصر كان عام ١٧٨٩م، وانتهى العمل به عام ١٨٢٢م؛ لمزيد من التفاصيل أنظر: عفيف بطرس مرهج، أعرف لبنان، موسوعة المدن والقرى اللبنانية، بيروت، المطبعة الأهلية اللبنانية، ١٩٧٢م، ج ٣، ص ١٦٦؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: مرهج، أعرف لبنان.

(٧٠) البستاني، لبنان، ص ٦١٧؛ كرد علي، خطط الشام، ج ٥، ص ٢٨٥.

ثلاثين ألف متر مربع، ويحتوي على ثلاثة أقسام: الحرملك[٧١] والدار الخارجية والوسطى[٧٢].



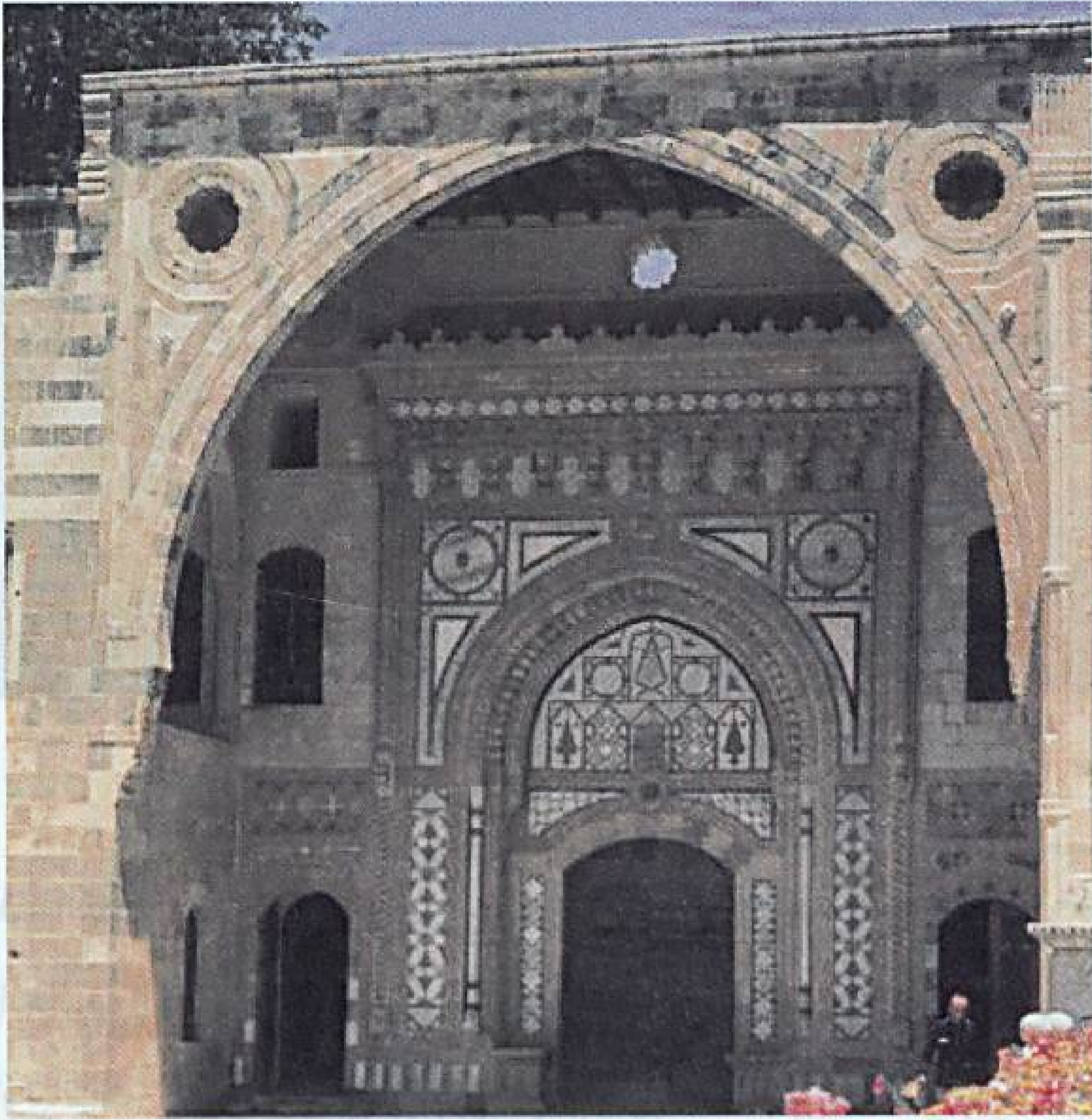
(سرايا بيت الدين /الساحة الأمامية)

ولهذا القصر مدخل ضخم يبلغ علّوه نحو ١٥متراً، مبني من الرخام الوطني الغالي الثمن والأجنبي الفاخر، مزين بنقوش ملونة تمثل أشكالاً هندسية ونباتات وصور شتى، تعلوها الطغراء السلطانية المحلاة بالذهب،

(٧١) الحرملك: الجناح المخصص لمعيشة الأسرة، ويوصل إليه بمسار متعرج من جناح الإستقبال لتأمين الخصوصية والسترة؛ لمزيد من التفاصيل، أنظر: زكريا محمد كبريت، البيت الدمشقي خلال العهد العثماني، جزءان، دمشق، د. ن، ٢٠٠٣م، ص ٥٤؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: كبريت، البيت الدمشقي. والحرملك في سرايا بيت الدين هو المكان الذي يسكن فيه رؤساء الجمهورية اللبنانية عند إقامتهم بالقصر.

(٧٢) مهرج، اعرف لبنان، ج ٣، ص ١٦٦.

ولهذا المدخل أفاريز[٧٣] جميلة الصنع تطيف به على شكل الأقواس، وفوقه شُرف بتقاطيع جميلة، وللمدخل رتاج عظيم ذو مصرعين يوافق البناء في حسنه، وفي داخل القصر ديوان كبير واسع يعرف بقاعة العمود، وذلك لوجود عمود من الرخام المجزع في وسطه،كان مفروشاً بالفسيفساء والرخام[٧٤].



(بوابة سرايا بيت الدين)

(٧٣) الأفريز: هو الإطار الخارجي المطوق والبارز في أعلى الجدار، ويعرف أيضاً بالكورنيش أو الطنف، ويوظف لأمرين: أولهما التخفيف من تسرب ماء المطر عبر الجدار، وثانيهم لإضفاء لمسة جمالية تشكيلية عليه؛ لمزيد من التفاصيل؛ أنظر: الشهابي، زخارف العمارة الإسلامية في دمشق، ص ٣١.

(٧٤) كرد علي، خطط الشام، ج ٥، ص ٢٨٥.



(مدخل الحرملك في سرايا بيت الدين)

ويقع الحرملك إلى جوار السرايا، ويتألف من عشرين غرفة، ويعتبر أحد أكثر غرف القصر زخرفة، وقد زينت بوابته الرئيسة وجدرانه بالنقوش والفسيفساء المرمرية المتعددة الألوان(٧٥). وقد جعل لها باباً يُرقى إليه بدرجات من الرخام مع درابزين من النحاس المموه بالذهب المشبك، والباب ذو نقوش عجيبة مطعم بضروب الألوان المحلاة بالمينا،تطيف به حنية(٧٦) من الرخام فوقها كتابات عربية، وزينت تلك الدار بالسواري والأعمدة الدقيقة، فسندوا إليها سقوفها على شبه مظلة ظريفة، وفي الدار المقاصير والحجر لسائر حاجات الحرم(٧٧).

---

(٧٥) الشرق الأوسط، العدد: ١١٨٨٧، ١٩١١/٧/٢٥م.

(٧٦) الحنية: هي القوس أو العقد، ومعمارياً هي عنصر مقعر يعادل ربع دائرة أو أقل، وتعرف إذا كانت بالجدار بالحنية الجدارية، وإذا كانت في الركن باسم الحنية الركنية، وإذا كانت بالمقرنص باسم: حلية أو خلية المقرنص. لمزيد من التفاصيل أنظر: الشهابي، زخارف العمارة الإسلامية، ص ١٠٩.

(٧٧) البستاني، لبنان، ص ٦١٧.





(الحرملك من الداخل)



(صور تظهر بعض الأبنية المرفقة بالسرايا)

كما أضيفت لهذه الأبنية مبانٍ أخرى على جانبي الساحة المربعة لسكن عماله وخدمه، وترك الجهة الرابعة خالية ليتمكن من رؤية دير القمر وجهات البحر(٧٨).

ومن المرافق الملحقة بالسرايا أيضاً السجن أو المحبس والذي قدم له ميخائيل مشاقة وصفاً تفصيلياً، فقال:"المحبس كلي الحصانة، فهو حجرة حصينة البناء بابها ضمن قبو فيه باب السرايا الخارج، وباب مقابله للدخول إليها، وعلى داير القبو مصاطب(٧٩) للمحافظين يجلسون وينامون عليها نهاراً وليلاً عندما يقفلون عليهم الأبواب، ثم المحبس يضعون فيه ذوي الجنايات الخفيفة وله طاقة مطلة على الميدان متسع حوله الأسواق(٨٠)، وهذه الطاقة

---

(٧٨) المرجع نفسه، ص ٦١٧.
(٧٩) مصطبة: تكون عادة على ارتفاع متر أو أكثر، وتخصص للنوم أو الأكل.
(٨٠) هكذا وردت في النص، وقد يكون الأصح الأسوار.

محصنة بتشبيك حديد متين، ويعلوها نافذة للضوء تعلو عن الأرض نحو خمسة أذرع وعرضها وارتفاعها كل منهما نحو ثلثي الذراع، لا يمكن الوصول إليها بدون سلم، وعلى فوهتها مثبت بلاطة متينة محزمة ينفذ الضوء منها، وفي أحد زوايا هذا السجن مبني حجرة صغيرة مسقوفة على ارتفاع أربع أذرع وليس لها منفذ غير بابها الذي ينفتح لداخل السجن، فأصحاب الجنايات الثقيلة يحبسونهم في هذه الحجرة، والقيد الثقيل في أعناقهم وطرفه مخرج من ثقب في حايط الحجرة موثوق في خارجها، ثم يقفلون عليهم الباب ولا يفتح عليهم إلا في وقت إدخال الطعام"[٨١].

كما ضمت السرايا أيضاً قبر الست شمس زوجة الأمير بشير، والذي ضُم إليه رفات الأمير عام ١٩٤٧، بعد أن تم نقله من الآستانة باحتفال مهيب[٨٢].

كان لموقع سرايا بيت الدين أهمية خاصة، حيث رأى البعض إن ما يزيد جمالها هو موقعها الطبيعي القائم على هيئة امفتياتر (نصف دائرة تتدرج ارتفاعاً)[٨٣].

وقد لفت موقع سرايا بيت الدين نظر الشاعر الفرنسي لامارتين وأثار إعجابه فوثّقه في مذكراته، وذلك عند زيارته للسرايا عام١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م، فقال: "وعند الظهيرة وصلنا إلى الجبال العالية، بدأنا بالنزول فوق الدروب الأشد انحداراً، حيث كانت أقدام خيولنا ترتجف فوق الحجر المتدحرج الذي يفصلنا وحده عن الهاوية, وبعد ساعة من الانحدار لمحنا بعد المنعطف الذي يلي الصخرة قصر بيت الدين القريب من دير القمر، شهقنا شهقة المفاجأة والإعجاب، وبحركة لاإرادية أوقفنا جيادنا لنتأمل المشهد الجديد والرائع الذي

(٨١) مشاقة، منتخبات من الجواب، ص ٥٠.
(٨٢) مهرج، اعرف لبنان، ج ٣، ص ١٦٥.
(٨٣) سليم هشي، يوميات لبناني في أيام المتصرفية، بيروت، ١٩٧٣، ص ٤٢؛ وسيشار إليه لاحقاً: هشي، يوميات لبناني.

ينفتح أمام أعيننا. وعلى بعد خطوات منّا كان حوض ضخم من المياه المزبدة يخرج من سد الطاحون، ويسقط من ارتفاع خمسين أو ستين قدماً، فوق الصخور التي كان يسحقها لقطع صغيرة طافية، وفوق هذا الشلال ينفتح وادي عميق وواسع على شكل قمع،وهو مزروع من أسفله إلى قمته بأشجار التوت والكرمة والتين، وانفتح الأفق من جهة واحدة مما سمح برؤية بحر "سوريا" من فوق قمم جبال لبنان الأقل ارتفاعاً، هذا هو البحر الكبير الأزرق بأمواجه وهديره وزواحفه الضخمة، في الحقيقة كنا نرى بحر "مصر" الملون بزرقة أغمق من زرقة السماء، والذي يمتزج مع الأفق البعيد بضبابه البخاري والبنفسجي الذي يغطي كل سواحل هذه المنطقة من" آسيا". ومن قلب هذا الوادي العميق تبدأ رابية" بيت الدين" التي تحمل قصر الأمير، ثم ترتفع مثل برج هائل، تحيط به صخور مغطاة باللبلاب، ويسمح بظهور باقات خضراء عائمة من شقوقه وفتحاته، وكانت هذه الرابية ترتفع إلى مستوى الطريق المطلّ على الهوة، والذي كنّا معلقين فوقه؛ ويفصلنا عنها هور ضيق وهادر، وفوق قمته على بعد عدة خطوات منّا كان قصر الأمير ذو الطابع العربي يمتد بعظمة فوق هضبة بيت الدين بأكملها، بأبراجه المربعة المسننة الرؤوس والتي تتخللها الأقواس القوطية، وكانت الأروقة الطويلة ترتفع الواحدة فوق الأخرى، وتظهر على شكل خيوط طويلة من القناطر الباسقة والخفيفة مثل أغصان النخيل التي كانت تتوجها بزينتها الهوائية؛ وكانت الباحات الكبيرة تهبط بدرجة كبيرة بدءاً من قمة الجبل حتى السور المحيط بالحصن، وفي نهاية أكبر تلك الباحات التي غاصت فيها أبصارنا من فوق المرتفع الذي كنّا فوقه، بدت لنا واجهة الحرملك المتباينة الأبعاد، والمزخرفة بأعمدة صغيرة وخفيفة ورشيقة، وكانت جذوعها الرقيقة والمستدقة، ذات الأشكال المختلفة وغير المتساوية، ترتفع حتى مستوى السقف، وتحمل على شكل مظلة سدائل الخشب الملّون الذي

يشكّل رواق هذا القصر، وهناك درج من الرخام المزين بدرابزين منحوت بالرقوش، يؤدي من هذا الرواق إلى باب الحرملك، وكان هذا الباب منحوتاً من الخشب الكثير الألوان، ومؤطراً بالرخام وتعلوه كتابات عربية.

أما الباحات الواسعة المواجهة للقصر فقد كانت ممتلئة بجمع من الخدم، ورجال البلاط والكهنة والعساكر، بكل الثياب المتنوعة والجميلة، وكان هناك خمسمائة أو ستمائة حصان مربوطة من قوائمها ورؤوسها بواسطة حبال ممدودة تجتاز الباحات.

وبعد أن تأملنا المشهد الشرقي الجديد بالنسبة لنا،اقتربنا من الباب الواسع الضخم لأول باحة في القصر، وكان حراسه من العرب المسلحين ببنادق وحراب طويلة خفيفة، وهنا أرسلنا إلى الأمير الرسائل التي كنا نحملها له. ثم قاد العبيد حاشيتنا إلى قسم آخر من القصر، كان جناحنا عبارة عن باحة جميلة ومزينة بأعمدة مزخرفة بالرفوش، مع نافورة ماء تتدفق في الوسط وتجري في بحرة رخامية واسعة، ويحيط بالباحة ثلاث غرف وإيوان[٨٤]، أي أنه جناح أكبر من الأجنحة الباقية، مؤلف من قوس يطل على باحة داخلية، وليست له أبواب ولا ستائر لإغلاقه، إنه مرحلة انتقالية بين المنزل والشارع.

ولم نكد ننهي طعامنا حتى أرسل الأمير بطلبنا وقال إنه بانتظارنا، فاجتزنا باحة واسعة مزينة بالفسقيات ورواقاً من أعمدة طويلة أتلفها البرد، وتنطلق قاعدتها من الأرض وهي تحمل سقف القصر، وأدخلونا بعد ذلك إلى قاعة جميلة جداً، أرضيتها من الرخام، وقد طُلي سقفها وجدرانها فنانون من أنطاكية بألوان صارخة وبنقوش أنيقة، وكانت نوافير من الماء تهمس في زوايا الغرفة، وفي القاع وخلف مجموعة من الأعمدة كانت المسافة بين كل عمودين منها مشبّكة ومزودة بالألواح الزجاجية، رأينا نمراً ضخماً ينام وقد أسند فوق قائمتيه

(٨٤) إيوان: مكان مرتفع من الدار، تحيط به الجدران من ثلاث جهات.

المعقودتين. ويرتفع الجزء الآخر من القاعة نحو قدم، وتحيط به من جميع الجوانب أريكة من المخمل الأحمر، وكان الأمير متربعاً في زاوية هذه الأريكة"(٨٥).

ثم يتحول لإمارتين لوصف حمّامات السرايا، والتي اصطحبه الأمير ليريه إياها فقال: " كانت هذه الحمامات مؤلفة من خمس أو ست صالات، أرضيتها من الرخام المقسّم إلى مربعات، وقد طليت قبابها وجدرانها بالكلس، ورسم فوقها بالألوان المائية فنانون من دمشق، بكثير من الذوق ومن الأناقة، وكانت نوافير من الماء البارد والساخن أو الفاتر، تخرج من الأرض المبلطة وتنشر حرارتها في الصالات، وآخر تلك الصالات كانت قاعة البخار، واستطعنا أن نبقى فيها لمدة دقيقة "(٨٦).

بقيت هذه السرايا كآية في البناء حتى نفي الأمير عام١٨٤٠م إلى مالطة، فاتخذتها العساكر العثمانية منزلاً، وما لبث أن لحق بها الخراب، وكان السياح إذا زاروها أخذوا شيئاً من الرخام الذي كانت مزينة في قاعة العمود، فلما صار حكم الجبل إلى المتصرفين بعد عام ١٨٦٠م قام داود باشا، وبعد تعيينه بشهر واحد، باتخاذ دار الحكومة في دير القمر مقراً للمتصرفية، ثم لم يلبث أن اشترى قصر بيت الدين، ونقل مقر الحكومة إليه، وقام بترميم ما خرب منه(٨٧)، ثم اشتراه من "أرملة الأمير التي باعتها للدولة بثمن بخس"(٨٨)، وجعلها ملكاً للدولة (٨٩).

---

(٨٥) ألفونس دي لامارتين، مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق، ترجمة جمال شحيد، ماري طوق، باريس: دار نشر هاشيت وشركائها، ٢٠٠٦م، ص ١٨٢، ص ١٨٣؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: لامارتين، رحلة إلى الشرق.

(٨٦) المصدر نفسه، ص ١٨٥

(٨٧) مفرج، الموسوعة اللبنانية المصورة، ج ٢، ص ٧٧.

(٨٨) مشاقة، منتخبات من الجواب، ١٥٣.

(٨٩) البستاني، لبنان، ج ٢ص ٦٢١.

وأجرى واصا باشا الذي تعين متصرفاً للبنان في ٣٠ أيار ١٨٨٣م، إصلاحات وتحسينات في سرايا بيت الدين، وأنشئ القسم الخارجي من الأبنية المعدة لإقامة مجلس الإدارة ودوائر العدلية[٩٠].

وفي عهد نعوم باشا رممت قاعة العمود والحمام القديم إلى أن عادا إلى رونقهما السابق، إلا أن الحريق الذي حدث هناك في تموز عام١٩١٢م، وانتقال متصرفية لبنان إلى بعبدا أضرا بتلك السرايا، والتي تعتبر مثالاً هندسياً من الطرز الشرقي، وتذكاراً من الدولة الشهابية التي يعدها اللبنانيون من مفاخر تاريخهم[٩١].

كانت الاحتفالات في عهد السلطان عبد الحميد الثاني تجري في سرايا بيت الدين، أما في عهد السلطان محمد رشاد فكانت تجري في سرايا بعبدا غالباً[٩٢].

وتكشف لنا مراسم الاحتفالات هذه -خصوصاً الاحتفال بذكرى تولي السلطان عبد الحميد الثاني العرش- جوانب مما كانت عليه السرايا، ففي الباحة الداخلية كان يتم تسليم بورلديات (مراسيم تعيين وترقية الضباط)، وفي ميدان السرايا يصطف العسكر، ويتوافد على قاعة الاستقبال القناصل والأعيان وجماهير اللبنانيين للتهنئة، ثم يخرج المتصرف إلى الشرفة المطلة على الميدان لاستعراض العسكر[٩٣].

(٩٠) المرجع نفسه، ص ٦٢١؛ خوري، من مشارف المئة، لبنان، ص ١٤٦.
(٩١) البستاني، لبنان، ص ٦٢١.
(٩٢) نعمة، صفحات من لبنان، ص ٧٩.
(٩٣) المرجع نفسه، ص ٧٩؛ هشي، يوميات لبناني، ص ص ٤١-٤٤.

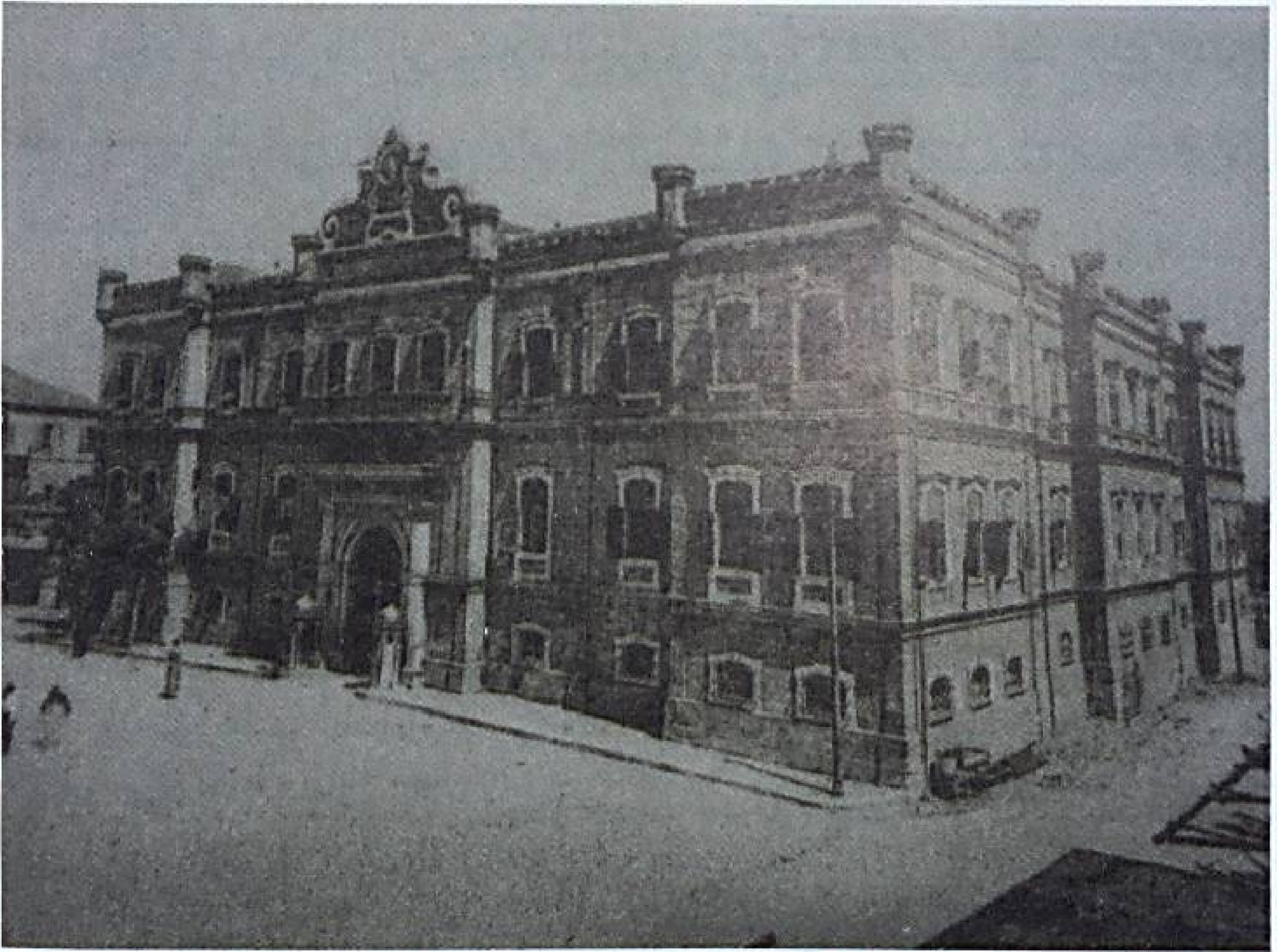
اتخذ الرئيس اللبناني بشارة الخوري عام ١٩٤٦م من قصر بيت الدين مقراً صيفياً للرئاسة الأولى. وفي عام ١٩٥١م جدد الجناح الذي يقوم فيه المتحف[٩٤].

ويقام في بيت الدين مهرجان يحمل اسمه، في قسمين منه: الميدان والسلاملك[٩٥]، وجاء هذا المهرجان باقتراح من الوزير اللبناني وليد جنبلاط[٩٦].

السرايا الصغرى

ويطلق عليها أيضاً اسم سرايا البرج، نسبة إلى أحد أبراج بيروت، وتقع في الساحة التي كانت تحمل اسمه- حيث ساحة الشهداء في الوقت الحاضر- ، وكان هذا البرج قريباً من سرايا الأمير فخر الدين المعني، وقد عرف هذا البرج باسم البرج الكبير، وفي عهد إبراهيم باشا تآكل البرج ودب به الخراب، فهدم وأقيم مكانه السرايا الصغرى عام١٨٨٢م، وذلك بعد هدم سرايا الأمير فخر الدين المعني[٩٧].

(٩٤) مهرج، اعرف لبنان، ج ٣، ص ١٦٦.
(٩٥) السلاملك: هو الجناح المخصص لاستقبال الضيوف؛ لمزيد من التفاصيل أنظر: كبريت البيت الشامي، ص ٥٤.
(٩٦) صحيفة الشرق الأوسط، العدد: ١١٨٨٧، ٢٥/٧/١٩١١.
(٩٧) حلاق، بيروت المحروسة، ص ٢٢.



(السرايا الصغرى بيروت / هدمت عام ١٩٥٠م)

شيدت هذه السرايا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني[٩٨]، وبوشر بالبناء فيها في عهد رستم باشا ما بين عامي ١٨٨٣-١٨٨٤م، وأشرف على هندستها بشارة الدب أحد كبار مهندسي الدولة في إسطنبول، يعاونه مهندس ولاية بيروت يوسف الخياط، وذلك على أرض مساحتها ٣٥٠٠ ذراع، دشنت باحتفال كبير عام ١٨٨٨م في عهد واصا باشا، وبحضور حمدي باشا ممثل السلطان وكبار العسكريين ومفتي بيروت الشيخ عبد الباسط فاخوري، ونقيب الأشراف عبد الرحمن النحاس ورئيس بلدية بيروت محي الدين حمادة[٩٩].

(٩٨) المرجع نفسه، ص ٢٢.
(٩٩) هشي، يوميات لبناني، ص ٣٩.

وكانت السرايا مركزاً للولاية التي تضم جميع المؤسسات الحكومية المحلية ابتداءً من رئيس البلدية حتى آخر شرطي، ومن هذه السرايا كانت تدار الأعمال الرسمية في ولاية بيروت الممتدة من اللاذقية حتى بئر السبع[(١٠٠)]. وكان للسر ياور[(١٠١)] مكتب في السرايا يستقبل أصحاب الحاجات وكل شخص يود مقابلة الباشا[(١٠٢)].

ووصف القاياتي السرايا بقوله: "وقد أحدثوا الآن سرايا جديدة غاية في المتانة والظرف، وصارت الآن مشتملة على دوائر الحكومة كلها من ضابطة ومجلس بلدية ومجلس إدارة ومجلس تجارة ومجلس قضاء ومحل ولاية، ولها ثلاث طبقات عليا ووسطى وسفلى، وجعلوا أمامها بخشة (جنينة) ظريفة منتظمة لها سور من حديد، وفي طرفيها (بركتان) للماء فيهما نافورتان، وفي وسطها قبة ظريفة مرخمة للجلوس، وفي جميع نواحيها الكراسي لاستراحة المتنزهين فيها مجاناً بدون مقابل، وشرع في كل هذه الدوائر بعد قدومنا إلى بيروت وتمت على أحسن نظام"[(١٠٣)].

وفي عام ١٩٠٣م "رأت لجنة النافعة في الولاية أن الساحة الكائنة أمام دار الحكومة وساحة البرج والطريقين الواقعين على جانبي حديقة البلدية إذا فرشت بالبلاط قلت النفقات التي صرفت على تعمير طرق البلدة، فبادرت لتشويق الملتزمين وترغيبهم حتى تقدم إليها من تعهد البناء كل متر مربع بريال

---

(١٠٠) الولي، بيروت، ص ١٠١.

(١٠١) السر ياور: الياور كلمة تركية ومعناها المرافق الشخصي. وهي أيضا رتبة عسكرية عثمانية والسر ياور هو رئيس حرس الأمير وله مهمة محددة ألا وهي من يحمل السيف أمام ضيوف الدولة ويسير أمامهم مستعرضا حرس الشرف.

(١٠٢) نعمة، صفحات من لبنان، ص ١١٨.

(١٠٣) القاياتي، رحلة البشام، ص ٥٥.

ونصف مجيدي، فأصدر ملاذ الولاية العالي أمره بتبليط الأماكن المذكورة وقد شرع بذلك"(١٠٤).

وزارها الأمير محمد علي باشا عام ١٩١٠م- وذلك أثناء زيارته لبيروت-، وكتب في وصفها: "وصلنا إلى سرايا الولاية التي كانت واقعة في وسط المدينة، وقد ألفيناها من الخارج كبيرة الحجم ضخمة البناء، إلا أنها كانت بسيطة لا يرى عليها من الوشي والزخرفة لا من جمال الزينة ما تتحلى به عادة قصور الحكام وبيوت الأمراء"(١٠٥).

أما باب السرايا فقد بقي قائماً إلى أن تم هدمه عام ١٩٢٧م عندما بوشر بتخطيط الشوارع القديمة في المدينة القديمة، وقد قدم دومنيل دو بويسون وصفاً لباب السرايا عند زيارته لها عام ١٩٢٢م فقال: "إنه قد بلغ إلى عهدنا على تمامه تقريباً مع ما كان يستند إليه من الأبنية الجنوبية الشرقية، فنرى هناك أولاً بناية الباب المربعة، ثم مقدمة السور القديم، ثم برجاً مربعاً مستطيلاً يدعمه السور،فواجهة الباب من خارجه تتألف من حائط بسيط تعلوه شرفات صغيرة وتحميه كوى(١٠٦) للقذائف غير منتظمة، وفوقه كما فوق باب الدباغة بناية مع دعائمها الثلاث لحماية الباب، وقد فتح في هذه البناية القديمة شباك يشوه منظرها ويعرضها للخراب، والباب يسنده قوس محدب ينزل إلى عتبته بأربع درجات منعطفة عند أطرافها، والعتبة أسطوانة لعمود قديم، وعلى يمينه منشأ سور المدينة الذي يؤلف بالنسبة إلى باب السرايا زاوية مستقيمة، فيفده متانة من تلك الجهة، وكان توجيه الباب نحو الزاوية الشمالية الشرقية، وكذلك الكوى لرمي القذائف ليست على خط مستو لكنها مائلة إلى الزاوية عينها التي

---

(١٠٤) هشي، يوميات لبناني، ص ١١٣.

(١٠٥) علي، الرحلة الشامية، ص ٢١.

(١٠٦) الكوى: ومفردها كوة، ومرادفاتها طاقة، وهي الفتحة الصغيرة أو الخرق في الجدار أو في جذع المئذنة، تسمح بمرور الضوء والهواء بمقدار يقل عن مرورهما عبر النافذة الاعتيادية. لمزيد من التفاصيل؛ أنظر: الشهابي، زخارف العمارة الإسلامية، ص ٢٨٧.

تتألف في قسمها الأعلى من بسطة سوية تعضدها قنطرة صغيرة. وكان السائر ينفذ إلى داخل السور ماراً تحت قبة مقرّنة، وللباب من هذه الجهة منظر بديع، فإن قوسه الكبير يشبه حنية في تقويسها شيء من العوج، فوقها سطح صغير على علو طابقها الأول الذي يرقى إليه بدرج باطني بني فوق قوس صغير يستند إلى القوس الكبير، وكان الراقي إلى السطح المذكور يمكنه أن يبلغ إلى أعلى الأسوار ويصعد إلى السطح الأعلى الذي فوق الباب"(١٠٧).

وقد شهدت هذه السرايا نهاية الانتداب الفرنسي وولادة الاستقلال عام ١٩٤٣م، حيث وقف رجال البلاد السياسيون بعد الإفراج عنهم من قلعة راشيا، معلنين من على شرفاتها المطلة على الساحة زوال الانتداب وقيام الاستقلال(١٠٨).

هدمت السرايا عام ١٩٥٠ بأمر من الرئيس رياض الصلح، وذلك لتوسيع ساحة الشهداء والمناطق المجاورة لها تجارياً، وأقيم مكانها بناية الريفولي(١٠٩).

سرايا بعبدا

تبعد بعبدا تسعة كيلومترات عن بيروت، تعتبر سرايا بعبدا من أقدم المباني العامة في لبنان، واستعملتها أجهزة الدولة اللبنانية كلها. فهي عبارة عن سبعة آلاف و٨٥٢ متراً مربعاً من البناء، موزعة على طابقين تحيطهما حديقة داخلية، وهي من أهم المعالم التاريخية في لبنان، والتي تمتاز بواجهاتها ذات الهندسة العثمانية وبعض لمسات التراث اللبناني المعماري، والأبراج في جهاتها الأربع لإعطائها طابع القلاع، وقد بنيت بالحجر الرملي الذي ميز مباني بيروت القديمة. ويعود تاريخ بناء السرايا إلى مطلع القرن الثامن عشر، وذلك عندما

---

(١٠٧) الولي، بيروت، ص ٦٤.
(١٠٨) المرجع نفسه، ص ١٠١.
(١٠٩) الولي، بيروت، ص ١٠١.

اتخذ الأمير حيدر الشهابي من بعبدا مركزاً لإمارته، وبدأ ببناء سرايا له على تلة تشرف على بيروت وساحلها الجنوبي، ولكن وفاته حالت دون إتمامها، فتولى ابنه الأمير ملحم إنجاز ما بدأه والده، وأنهى بعض أجزائها[١١٠] ثم جاءت الأحداث التي تعرض لها لبنان عام ١٨٦٠م بين الدروز والمسيحيين فأوقفت العمل بالسرايا.

وعندما خضع لبنان لحكم المتصرفية، اتخذ المتصرفون من سرايا بعبدا مقراً لهم، وعلى إثر الخلاف الذي جرى بين أهالي بعبدا وبين المتصرف واصا باشا، فقام الأخير بنقل مقره إلى غزير في كسروان، فقام الأهالي عام ١٨٨٧م بشراء قصر الأمير حيدر الشهابي من الورثة بمبلغ كبير (ألف ليرة ذهب في حينها)، وقدموه هبة لحكومة المتصرفية، فعمد واصا باشا إلى تحويله إلى سرايا للحكومة.وفي عام١٨٨٧م قام واصا باشا بهدم البناء القديم بتمامه، وبناء جناحين من سرايا بعبدا، كما اتم الدائرتين الشرقية والغربية[١١١]، وذلك بعد أن اتخذ من بعبدا مقراً شتوياً للحكومة، فكانت سراياها تستوعب مكاتب الدوائر، وتعج بالموظفين وبرجال الطابور الأول لسلك الضابطية وبحراس السجن[١١٢].

وفي عهد نعوم باشا بتاريخ ١٣١٥هـ-١٨٩٧م انتهى العمل بالدائرة الشمالية من السرايا[١١٣]. وفي زمن مظفر باشا بتاريخ١٣٢١هـ/١٩٠٣م تم إصلاح بوابة دار الحكومة، ونقش عليها الطغرة السلطانية[١١٤].

---

(١١٠) لوني بشارة مفرّج، الموسوعة اللبنانية المصورة، ج ٢، قرى ومدن قضاء بعبدا، بيروت مكتبة البستان، ١٩٧٠، ص ٧٢.

(١١١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٧.

(١١٢) نعمة، صفحات من لبنان، ص ١٢٣؛ سامي، القول الحق، ص ١٨.

(١١٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٧.

(١١٤) البستاني، لبنان، ص ٦٢٢.

شهدت سرايا بعبدا ما يمكن أن يطلق عليه رحلة الشتاء والصيف، فقد كان الباشا يقطن غالباً في بيروت ليكون على مقربة من أرباب السلطة وقناصل الدول تسهيلاً لأعماله، فتكون إقامته خلال الشتاء في سرايا بعبدا، وفي بداية الصيف كان المتصرف يعلن عزم الحكومة على الانتقال من بعبدا إلى بيت الدين، وذلك قبل الموعد المحدد له بخمسة عشر يوماً، فيستعد الموظفون المعنيون للقيام بهذه الرحلة، وبعد منتصف اليوم المعين لذلك، كان يصوت البورجي فيستيقظ أهالي البلدة ويضيئون مصابيحهم،بينما تبدأ إدارة السجن بهيبتها المدنية بتسليم السجناء للجنود، (موكب نقل السجناء). وتنتعش السرايا بسكانها الجدد بينما تقفر سرايا بعبدا من رجال الحكومة وأصحاب الأشغال ولا يبقى فيها صيفاً سوى المأمور الحارس[١١٥].

ومن الأحداث الهامة التي شهدتها السرايا استقبال الإمبراطور الألماني غليوم الثاني، الذي زار لبنان عام ١٨٩٨م، وذلك في عهد المتصرف نعوم باشا في السادس من تشرين الثاني، حيث شاهد فيها عرضاً عسكرياً على أنغام موسيقى الضابطية[١١٦].

وفي عام ١٩١٨م رفع عليها العلم العربي الموالي لحكومة الأمير فيصل في دمشق، ولينتهي الدور السياسي والإداري لهذا المكان مع إعلان دولة لبنان الكبير، والانتقال إلى العاصمة بيروت[١١٧]. وبعد إنهاء الانتداب وإعلان الاستقلال في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣ أصبحت بعبدا المركز الإداري لمحافظة جبل لبنان.

---

(١١٥) نعمة، صفحات من لبنان، ص ١٢٣.

(١١٦) خليل سركيس، الشام قبل مئة عام، رحلة الإمبراطور غليوم الثاني إمبراطور ألمانية، وقرينته إلى فلسطين وسورية عام ١٣١٦هـ/١٨٩٨م، دمشق، دار القادري، ١٩٩٧م، ص ١٨٥؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: سركيس، الشام قبل مئة عام.

(١١٧) مفرّج، الموسوعة اللبنانية المصورة، ج ٢، ص ٧٧.

وخلال الحرب الأهلية اللبنانية أصيبت السرايا بأضرار وتشوهات جراء تعرضها للقصف بالقذائف، مما أحدث ثقوباً وتصدعات في جدرانها، هذا إضافة إلى الأضرار الناجمة عن العوامل الطبيعية، وعمليات الترميم غير العلمية، كسد الفجوات بالإسمنت، واستبدال النوافذ والأبواب المصنوعة من الخشب الصلب بنوافذ وقواطع من الألمنيوم، وكذلك إضافة أقسام عشوائية عليها في بداية التسعينات من القرن الماضي، مما أفقد المكان شيئاً من أصالته[١١٨].

وتستخدم سرايا بعبدا في الوقت الحاضر كمركز لمحافظة جبل لبنان، ويتجمع فيها عدد من إدارات الدولة الموزعة في أرجائها، ففي الطابق الأرضي منها هناك مخفر للدرك مع زنزانة ومكتب للشرطة القضائية ومكتب لمأمور النفوس، وفي الطبقة الأولى تتوزع مكاتب محافظة جبل لبنان، ومكتب قائد منطقة جبل لبنان ومصلحة الصحة والأمن العام ومكتب للوكالة الوطنية للإعلام.

وقد قاد أهالي بعبدا حملة من أجل ترميم سرايا بلدتهم وإعادة تأهيلها، ويساهم في هذه الحملة البلدية وبعض الجمعيات التي أنشئت من أجل هذه الغاية، منها (الجمعية اللبنانية للتنمية المحلية)، و(جمعية تشجيع حماية المواقع الطبيعية والأبنية القديمة في لبنان)، كما تم استقطاب بعض رجال الأعمال المغتربين منهم رجل الأعمال المكسيكي الفردو حرب حلو المتحدر من بعبدا،حيث أن جده لوالده كان من أبرز المساهمين في بناء السرايا، إضافة إلى تنظيم حملات لجمع التبرعات[١١٩].

---

(١١٨) صحيفة الأنوار، ٢٠٠٧/١١/١١م.

(١١٩) مجلة الصياد، بيروت، العدد: ٣٦٠٠، ٢٠٠١٣/١١/١م.



(الواجهة الأمامية لسرايا بعبدا/ صورة حديثة)



(الواجهة الخلفية لسرايا بعبدا)



(سرايا بعبدا من الداخل)

السرايا الكبير

شكلت القشلة العسكرية العثمانية-السرايا الكبير فيما بعد-أهم ملامح بيروت المحروسة (العثمانية)، ففي أعقاب إنتصارها على إبراهيم باشا، واستعادة سلطتها على بلاد الشام، قامت الحكومة العثمانية عام ١٨٥٣م بإنشاء ثكنة للجند في بيروت في مكان كان يدعى برج القشلة وأطلق عليها اسم القشلة العسكرية، كما عرفت أيضاً باسم الثكنات والتكنات، وقد بنيت غربي مدينة بيروت القديمة على ربوة فوق سوق المنجدين (فوق شارع المصارف حالياً)، وكانت الثكنة تضم القائمين على حماية المدينة، وفي عام١٨٦٥م تحولت إلى مستشفى عرف باسم "العيادة العسكرية"، واتخذها المفوض السامي الفرنسي مركزاً له في عهد الانتداب الفرنسي.وبعد استقلال لبنان عام ١٩٤٣م حولها الرئيس بشارة الخوري- أول رئيس للبنان- إلى مركز رئاسة الجمهورية لفترة

قصيرة، ثم اتخذها الرئيس رياض الصلح مركزاً لرئاسة الوزراء ليعيد تسميتها "بالسرايا الكبير". ويعرف كذلك باسم "القصر الحكومي" (١٢٠).

ومن الناحية المعمارية، يتألف السرايا الكبير من ثلاث طبقات من الجهة الشرقية وهي الجهة الرئيسة المواجهة لباطن بيروت، في حين تتألف الجهة الشمالية والجنوبية من طبقتين، واستخدم في بناء السرايا الحجر الرملي البيروتي المشهور. وقد مرّ البناء بمراحل عبر سنوات عدة ففي عام١٨٥٣م كان البناء مؤلف من طابق أرضي واحد، وفي عام ١٨٥٦م استكمل بناؤه مع طابق سفلي جزئي لإيواء الخيول. وتم توسيعه وإعطاؤه شكله النهائي بين عامي١٨٧٧و١٨٩٤م.

وتتميز طوابق السرايا الثلاثة بشبابيك مستطيلة ومسننة تفصل فيما بينها قمريات مميزة(١٢١)، بالإضافة لانتشار الزخارف والشرفات والأعمدة والقناطر، خصوصاً في الجهة الشرقية من السرايا، كما يحتوي المبنى على رواق عثماني كبير مع قناطره البالغ عددها ١٢٠ قنطرة. ومن ملامحه المميزة أيضا القرميد الأحمر. وأبرز ما يظهر في أعلى المبنى الطغرة العثمانية، وقد أضيف إليها فيما بعد الأرزة اللبنانية.

وبعد انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٩٠م شرعت مؤسسة إعمار وسط بيروت بإعادة إحياء مبنى السرايا، وانتهى العمل فيه عام ١٩٩٨م، فقد أضيفت له لمسات معاصرة وتقنيات متقدمة مع المحافظة في الوقت ذاته على طابعه التراثي العثماني.

---

(١٢٠) حلاق، بيروت المحروسة، ص ٧٨.

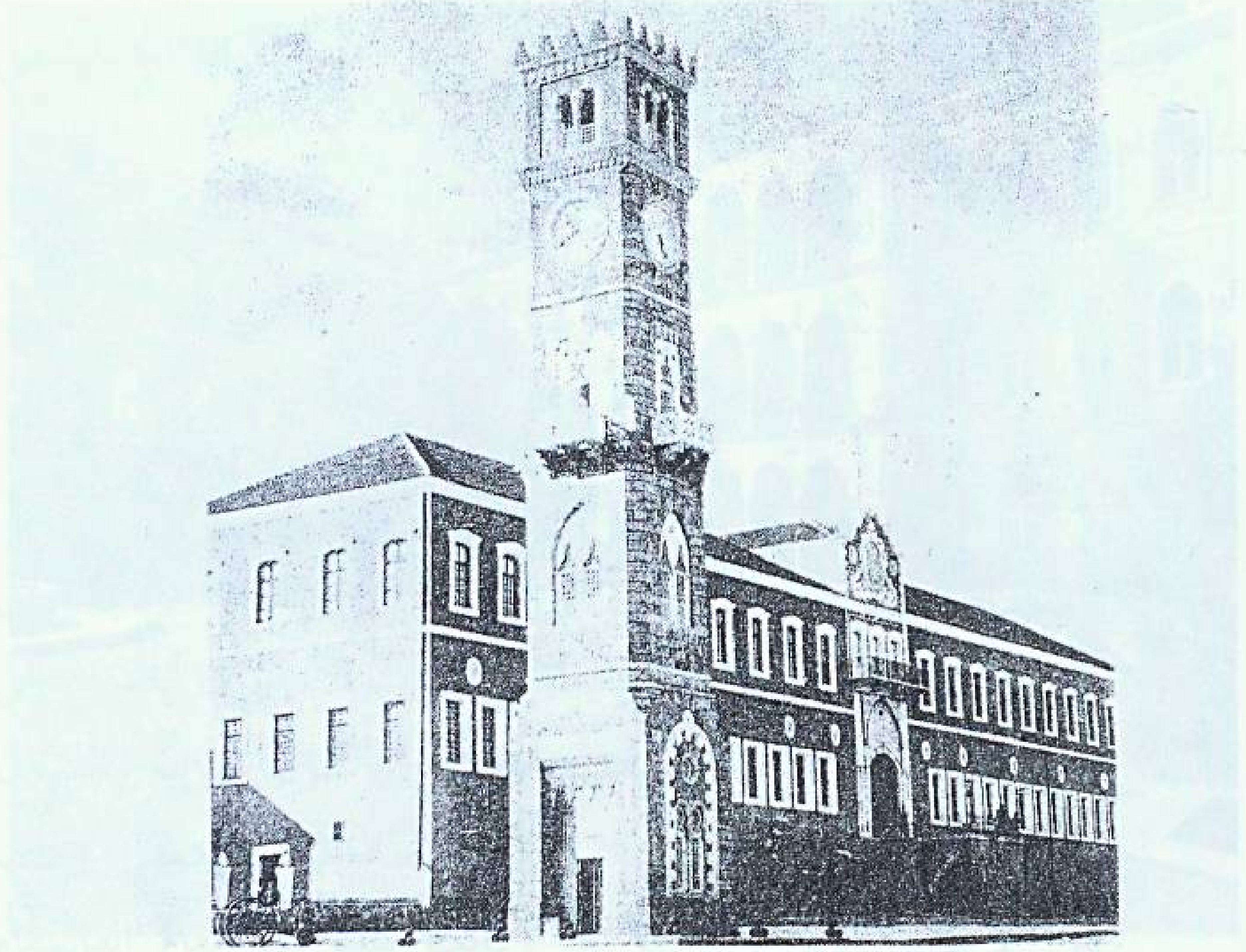
(١٢١) القمرية: فتحة صغيرة في الجدار أعلى الباب أو النافذة أو الحائط، تشبه القمر التام أو البدر في استدارتها، وتسمح بمرور الضوء والهواء أو كليهما بأقل مما تسمح به النافذة الاعتيادية، ويختلف شكلها بين الدائرة الكاملة أو نصف قمرية أو الهلالية أو الإهليجية، وهذه الأخيرة كانت شائعة في أوروبا وطبقت بشكل محدود في العهدين العثماني والحديث؛ لمزيد من التفاصيل أنظر: الشهابي، زخارف العمارة الإسلامية، ص ٢٨١.



(حفل في الساحة نهاية العهد العثماني)



(السرايا في خمسينيات القرن العشرين)



(السراي الكبير وبرج الساعة في بيروت)



(صورة تظهر أكثر من جانب للسرايا الكبير إضافة إلى برج الساعة)



(السرايا الكبير من الداخل)



(صورة حديثة للسرايا الكبير)

وبالإضافة إلى ما ذكر أعلاه، فقد كانت هناك عدد من السرايا العثمانية في لبنان منها:

- -سرايا بكفيا التي شيّدها المير حيدر إسماعيل أبي اللمع، الذي تولى القائمقامية الشمالية في بكفيا، وذلك أثناء فترة ولايته التي استمرت من ١٨٤٢م-١٨٥٤م [١٢٢].
- سرايا زحلة التي أقامها واصا باشا عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م [١٢٣].
- السرايات التي أنشأها المتصرف نعوم باشا الحلبي -الذي تولى متصرفية لبنان عام ١٨٩٢م إثر وفاة واصا باشا الألباني، وأنصرف إلى أعمال الإعمار- فأنشأ عام ١٣١٥هـ/١٨٩٧م سرايا جونية والبترون وجزين[١٢٤]. وكذلك سرايا بجنس مركز قضاء المتن الصيفي، وذلك بين الأعوام ١٨٩٢م و١٩٠٢م، وكانت تستوعب مقام القائمقام ودائرته ومحكمة البداية وتوابعها طوال السنة ماعدا فصل الصيف [١٢٥].كما أنشأ في العام ١٣١٦هـ/١٨٩٧م سرايا في أميون[١٢٦].
- السرايات التي أقامها مظفر باشا عام ١٣٢٢ه/١٩٠٤م في الشويفات، وفي العام التالي أقام سرايا في كل من غزير والجديدة [١٢٧].

السرايا العثمانية في الأردن

أقامت الحكومة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عدداً من دور الحكومة في مناطق مختلفة من الأردن، كسرايا اربد

(١٢٢) هشي، يوميات لبناني، ص ٩٣.
(١٢٣) البستاني، لبنان، ص ٦٢٢.
(١٢٤) المرجع نفسه، ص ٦٢٢؛ هشي، يوميات لبناني، ص ١٤٣.
(١٢٥) الخوري، من مشارف المئة، ص ٢١٥.
(١٢٦) هشي، يوميات لبناني، ص ١٤٣.
(١٢٧) البستاني، لبنان، ص ٦٢٢.

وعجلون ومادبا ومعان والطفيلة(١٩٠٢م) ووادي موسى(١٩١١م) والشوبك(١٩١١م) والعراق(١٩١١م)، وقد أزيلت جميعها ولم يبق سوى سرايا مادبا واربد، وفيما يلي عرضاً لبعضها:

سرايا السلط

بدأ العمل ببنائها عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٩م بقصبة السلط قرب ساحة العين[١٢٨], وفي عام ١٨٨٩م تبرع أهالي السلط والموظفون بمبلغ خمسمائة ليرة عثماني لإتمام بنائها، ولبناء مخفر لقوات الجندرمة[١٢٩].

وكانت السرايا أشبه بدار غير منتظمة، مكونة من طابقين: يتكون الأول من ساحة سماوية بها أربعة مساكن وإيوان، وسلم حجر يصعد إلى مسكنيين علويين [١٣٠]، ويتم الدخول إلى الساحة من بوابة حديدية كبيرة، وفي صدر الساحة بوابات السجن الثلاث الذي كان يشغل الطابق الأول من البناء. أما الطابق الثاني فكان يشغل الغرف الجانبية فيها رئيس الدرك وجنوده، وكان الصعود إلى الطابق الثاني يتم بوساطة درجين خارجيين، وعلى يمين الطابق الثاني كانت مكاتب قائمقام السلط ومعاونوه، وعلى اليسار المحكمة وأعضاؤها، وفي الوسط الدوائر الحكومية الأخرى كمدير الصحة [١٣١]. ويقع خلف المكاتب الخانات التي خصصت كزرائب للخيول وحفظ أعلافها[١٣٢].

---

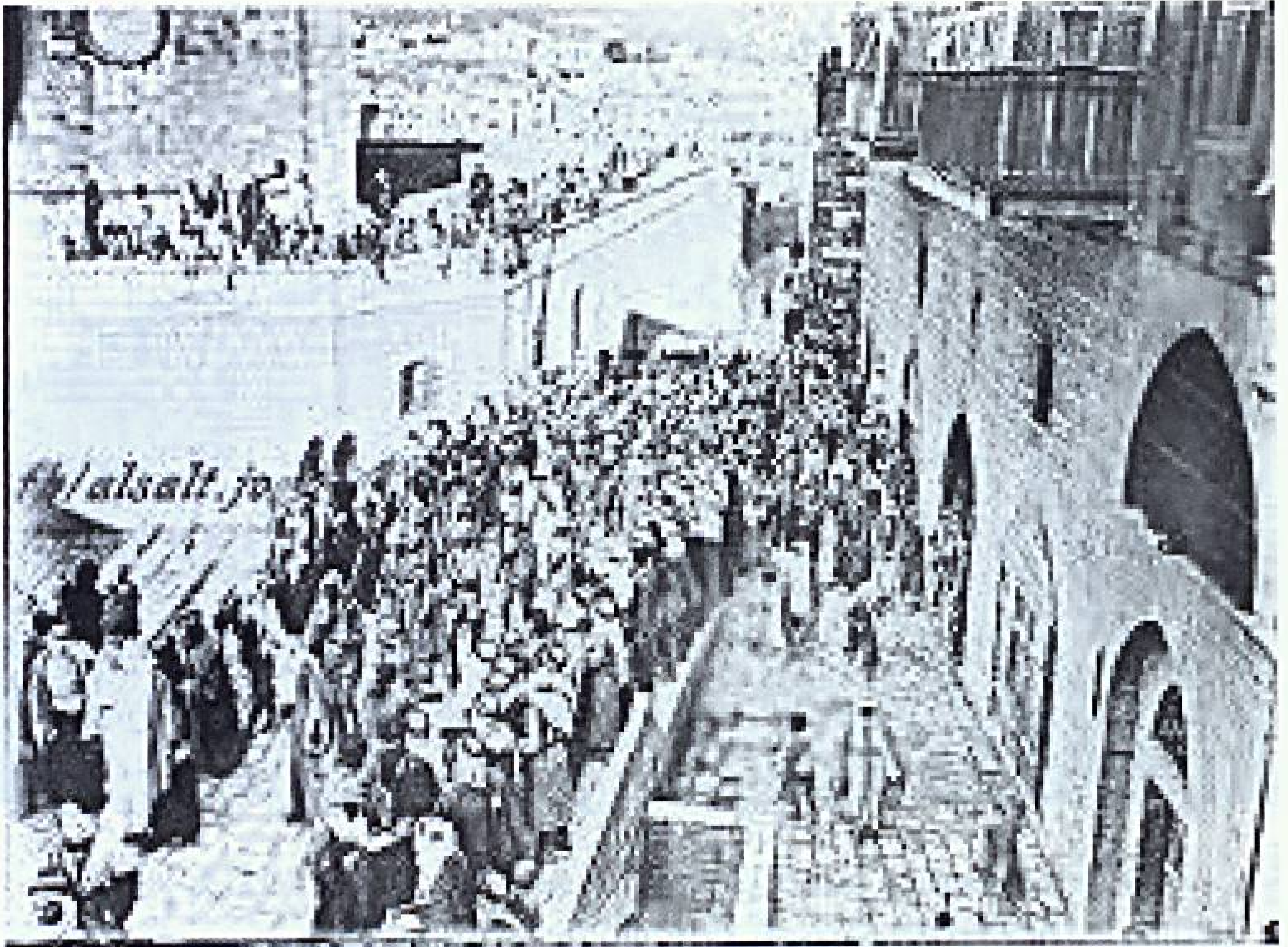
(١٢٨) محمد الطراونة، تاريخ منطقة البلقاء ومعان والكرك ١٢٨١-١٣٣٧هـ/ ١٨٦٤-١٩١٨م، عمان، وزارة الثقافة، ١٩٩٣م، ص ٣٥٩؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: الطراونة، تاريخ منطقة البلقاء.

(١٢٩) الطراونة، تاريخ منطقة البلقاء، ص ٣٦٠؛ الكردي، تاريخ السلط والبلقاء، ص ٣٢٦

(١٣٠) محمد عبد القادر خريسات، "السلط، دراسة عمرانية بشرية من خلال سجلات المحاكم الشرعية في السلط"، مجلة دراسات، مجلد١٣، عدد٤، نيسان١٩٨٦م، عمان، الجامعة الأردنية، ص ٨٠؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: خريسات، السلط، دراسة عمرانية

(١٣١) جورج فريد داود، السلط وجوارها خلال الفترة (١٨٦٤-١٩٢١م)، عمان، بنك الأعمال، ١٩٩٤م، ص ٣٢١؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: داود، السلط وجوارها.

(١٣٢) خريسات، السلط دراسة عمرانية، ص ٨٠



(السرايا العثماني في السلط)

بنيت السرايا من الحجر الأصفر المحلي والشيد[١٣٣]. أما سقف السرايا فكان مغطى بالقرميد الرمادي، إلا أن هذا القرميد تلاشى، وبقي القصدير مكشوفاً مما أدى إلى تشويه جمال السقف [١٣٤].وقد هدم البناء عام ١٩٦٥م[١٣٥].

سرايا الكرك

خضعت الكرك للحكم العثماني المباشر عام ١٨٩٤م، وذلك عندما دخلت حملة عسكرية برئاسة اللواء رؤوف باشا، وقيادة محمد لطفي باشا،

(١٣٣) الكردي، تاريخ السلط والبلقاء، ص ٣٢٨.
(١٣٤) خريسات، السلط دراسة عمرانية، ص ٨٠
(١٣٥) داود، السلط وجوارها، ص ٣٢١.

والمتصرف حسين حلمي باشا، وبعد أن استقر الأخير في الكرك، أقام لمدة عام في الطابق الأعلى من دير الروم،واستعمل الطابق الأسفل لمكاتب الحكومة جميعها، واستمرت الحكومة على استعمال هذا المكان مدة تزيد على العام، إلى أن بُنيت دار للحكومة أمام القلعة القديمة، وجعلت القسم الغربي من هذه الدار مسكناً لعائلات المتصرفين، في حين أقام الجنود في القلعة[١٣٦].

تقع السرايا في حارة الحميدية بقصبة الكرك، إلى الغرب من الجامع الحميدي، وهي مكونة من طابقين، يصعد للثاني بدرج من الحجر، ويحتوي كل طابق على أربع عشرة غرفة، وتحيط بها ساحة سماوية وبئر لتزويد الموظفين بما يحتاجون إليه من الماء [١٣٧]. وفي عام ١٩١٠م، وأثناء التمرد الذي قام به أهالي الكرك ضد الحكومة العثمانية، تمت مهاجمة السرايا من قبل الثوار وأحرقت[١٣٨]، وجرى ترميمها في العام التالي. وفي أواخر الستينيات من القرن الماضي هدمت السرايا، وأقيم مكانها مجمّع للدوائر الحكومية[١٣٩].

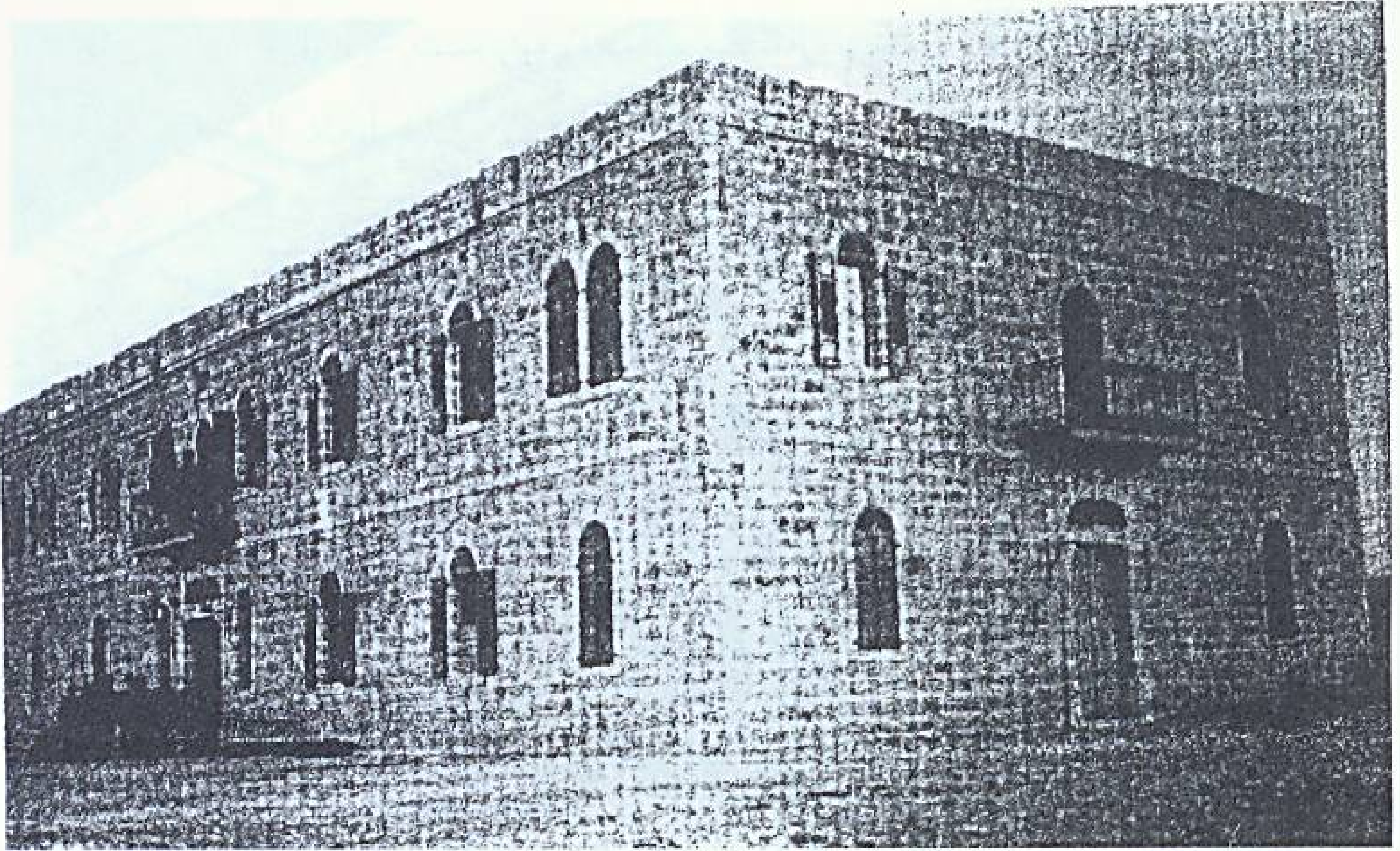
---

(١٣٦) عودة سلمان القسوس الهلسا، مذكرات عودة القسوس الهلسا(١٨٧٧-١٩٤٣م)، تحقيق وشرح نايف القسوس وغسان الهلسا، عمان، ص ٣١؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: القسوس، مذكرات.

(١٣٧) الطراونة، تاريخ منطقة البلقاء، ص ٣٦١.

(١٣٨) صحيفة المقتبس، العدد: ٥٥٣، ١٩١٠/١٢/٣١م، ص ٢.

(١٣٩) القسوس، مذكرات، ص ٣٢؛ الطراونة، تاريخ منطقة البلقاء، ص ٣٦١.



(السرايا العثمانية في الكرك)

سرايا مادبا

تقع على أعلى تلة في مدينة مادبا، إلى جوار دير اللاتين، ووفقاً للنقش الموجود على اللوحة الرخامية الموجودة فوق المدخل الرئيس، فيعود تاريخ البناء إلى عام ١٣١٦هـ/١٨٩٨م، واحتوت اللوحة كذلك على الطغرة العثمانية، إضافة إلى ثلاثة من أبيات الشعر تمجد السلطان عبد الحميد[١٤٠].

(١٤٠) صحيفة المقتبس، العدد: ٥٥٣، ٣٠/١٢/١٩١٠م، ص ٢.



(سرايا مادبا)



(سرايا مادبا من الداخل بعد ترميمها)

بنيت السرايا من الحجر والشيد، وتتكون من ست غرف، ثلاث منها في الجهة الغربية، والثلاث الأخر في الجهة الشرقية، وتبلغ أبعاد الغرفة الواحدة أربعة أمتار وستين سنتمتراً طولاً، وأربعة أمتار وخمسين سنتمتراً عرضاً، ويفصل بينها صالة تبلغ أبعادها ثلاثة أمتار وخمسة عشر سنتمتراً،والسقف على شكل جملون[١٤١].

سرايا فلسطين

كغيرها من بلاد الشام، وجد في فلسطين عدد من دور السرايا، أندثر بعضها وأزيل، وبقي البعض الآخر، وتم إعادة توظيفه واستغلاله،فهناك تسعة مباني للسرايا في فلسطين، كسرايا القدس وبئر السبع التي أقيمت عام ١٩٠١م، وعكا التي نقش عليها تاريخ إنشائها من قبل ظاهر العمر عام ١٨٥٠م. وكذلك سرايا صفد وأقامها أيضاً ظاهر العمر، وجعلتها الحكومة العثمانية مقراً لإدارة المدينة والقضاء. وسرايا بيسان التي أقيمت حوالي عام ١٨٩٠م، هذا إضافة إلى سرايا شفا عمرو وطبرية والناصرة وطولكرم ويافا، وفيما يلي عرضاً تفصيلياً لبعضها:

سرايا يافا

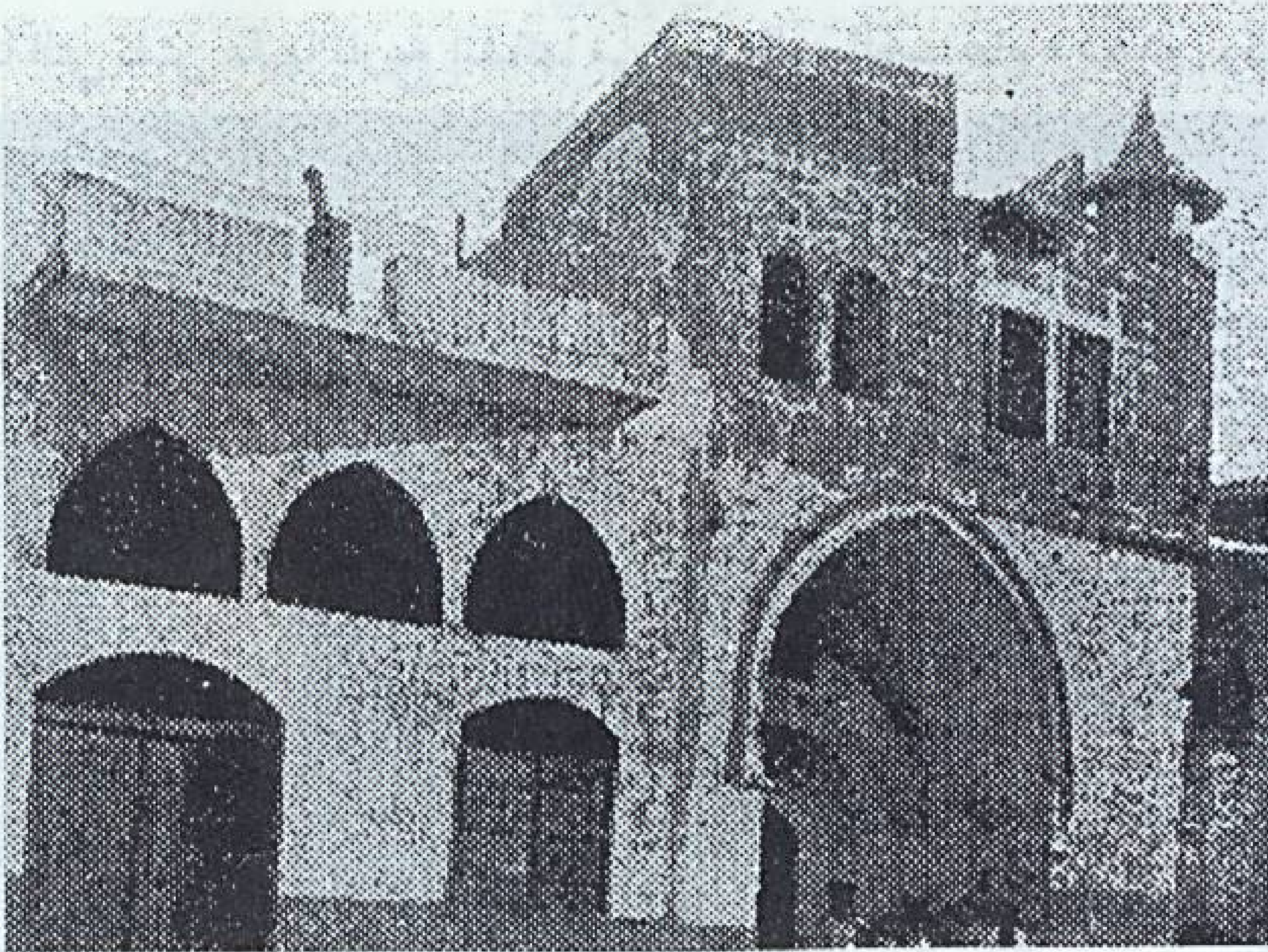
بعد انسحاب جنود نابليون في مطلع القرن التاسع عشر كان أول موقع لسرايا يافا أو (ديوان الحكم) في البلدة القديمة يقع على الدرج المجاور للقلعة من الجهة الجنوبية الغربية، والذي كان يسمى نسبة إلى هذا الديوان "بدرج الديوان "، ولم يكن مقر هذه السرايا مملوكاً للإدارة الحكومية، وإنما كان مستأجراً من أوقاف دير الأرمن، ثم انتقل الديوان إلى دار أبو عزة في حارة النقيب، وأصبح يطلق على القديم اسم الديوان القديم، وقد آلت ملكية هذه

---

(١٤١) الطراونة، تاريخ منطقة البلقاء، ص ٣٦١.

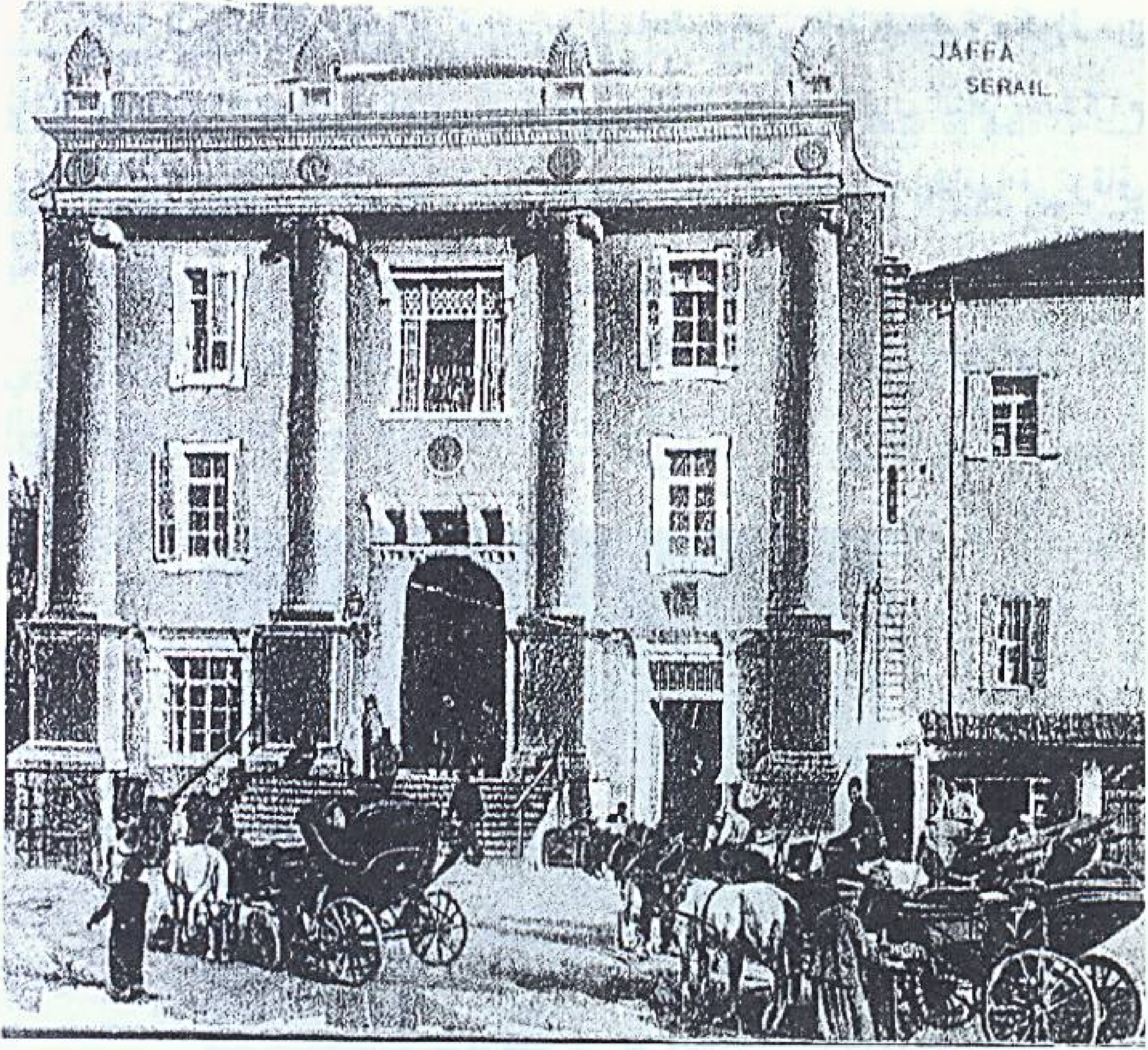
الدار للحكومة. ثم تم تخصيص دار أخرى كمقر للحكومة هي دار عز الدين[١٤٢].

انتقل بعد ذلك مقر الحكومة إلى حارة الشيخ إبراهيم، وهي دار آل السعيد الواقعة شمالي الحمام الكبير، ويبدو أن هذه الدار لم تكن مستأجرة، وإنما تم شراؤها لتكون مقراً دائماً للحكومة، وقد استعملت داراً للضيافة إضافة إلى كونها مقراً للحكومة، وكانت من أكبر وأفخم الدور في البلدة القديمة، ولا تزال قائمة حتى الآن، فقد تحولت إلى مصبنة آل دمياني، ثم حولها الاحتلال إلى متحف للتاريخ اليهودي[١٤٣].



(مصبنة دمياني/سراي الحكومة ثم مكتب بريد حتى عام ١٨٦٨م)

(١٤٢) البواب، موسوعة يافا، ص ٨٨ص ٨٩.
(١٤٣) المرجع نفسه، ص ٨٩.



(مبنى سرايا الحكومة في يافا عام ١٨٩٦م)

وفي نهاية العهد العثماني شهدت يافا نمواً وتطوراً ملحوظاً في عدة مجالات، حيث اتسعت في المساحة وكثر العمران،خصوصاً بعد إزالة أسوار المدينة القديمة اعتباراً من عام ١٨٧٩م(١٤٤).

وفي عام ١٨٩٥م تم بناء السرايا الكبير الواقعة خارج البلدة القديمة، وانتقلت الحكومة إلى أخر موقع لها بجوار مبنى البلدية(١٤٥).

(١٤٤) عز الدين غربية، قصة مدينة يافا، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دارة الإعلام منظمة التحرير، د. ت، ص ٦٨؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: غربية، قصة مدينة يافا.
(١٤٥) البواب، موسوعة يافا، ص ٩٠.

وتقع السرايا إلى الشرق من برج الساعة، وهي بناية ضخمة مكونة من ثلاثة طوابق، ذات طابع كلاسيكي، تم تدميرها في ٤ كانون الثاني ١٩٤٨م بواسطة سيارة ملغومة أتى بها اليهود، وسهل لهم البريطانيون إيقافها في زقاق يحيط بعمارة السرايا فدمروها(١٤٦).

وكانت السرايا بالإضافة إلى الدوائر الحكومية ومقر الحاكم، مقراً لإدارة الشرطة التي كانت تسمى الضابطة أو الضبطية(١٤٧).



(برج الساعة في يافا)

(١٤٦) طاهر قليوبي، رسالة عشق إلى يافا، عمان، د. ن، ٢٠٠٢م، ص ٥٤؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: قليوبي، رسالة عشق إلى يافا؛ موسوعة المدن الفلسطينية، دمشق، دائرة الثقافة منظمة التحرير، ١٩٩٠م، ص ٤٢٨؛ وسيشار ُليه عند وروده لاحقاً: موسوعة المدن الفلسطينية.

(١٤٧) البواب، موسوعة يافا، ٩١.

أما الساحة التي تقع فيها السرايا فقد أطلق عليها عدة تسميات، فدعيت بساحة السرايا نسبة إليها، أو ساحة الشهداء -وهو تسمية حديثة- وذلك نسبة إلى ما شهدته هذه الساحة من مظاهرات وطنية وتجمعات شعبية ضد الاستعمار والصهيونية، حيث سقط العديد من الشهداء على أرضها[١٤٨].

كما أطلق عليها اسم ساحة الساعة، وذلك نسبة إلى الساعة الكبيرة التي وضعها الوالي حسن بك الجابي عام١٣١٨هـ/١٩٠٠م في منتصف الساحة، على برج بإرتفاع سبعة عشر متراً، وذلك بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاماً على ارتقاء السلطان الحكم، ويدعوها العدو الآن بساحة الهاجانة[١٤٩].

سرايا طبريا

كانت طبرية في عهد العثمانيين مركزاً لمديرية طبرية التي أنشئت عام ١٩١١م، وأقيمت فيها دار للحكومة[١٥٠]. وكان ظاهر العمر في عام ١٧٣٠م قد استخدم قلعة طبرية- بعد أن رممها- مكاتب للدوائر الحكومية فعرفت باسم السرايا القديمة[١٥١].

تقع سرايا طبريا في القسم الأوسط من المدينة والذي يحاذي الشريط الساحلي، وكانت موجودة قبل عام ١٩٤٨م[١٥٢].

وأشار إليها بيركهارت فيما دونه عن زيارته لطبرية عام ١٨١٢م بقوله: "ولما تقدمنا نحو طبريا في طريقنا إليها من الناصرة، كانت السرايا بقبابها العديدة على يسارنا، وبالقرب منها الجامع بمئذنته العالية، وتحت السرايا في التي

(١٤٨) غربية، قصة مدينة يافا، ص ٦٨.
(١٤٩) قليوبي، رسالة عشق إلى يافا، ص ٣٢
(١٥٠) موسوعة المدن الفلسطينية، ص ٤٢٨.
(١٥١) المصدر نفسه، ص ٤٢٨.
(١٥٢) المصدر نفسه، ص ٤٣٠.

باب المدينة الشمالي يوجد المستشفى الكبير الذي بنته إرسالية الكنيسة الاسكتلندية"(١٥٣).

سرايا عكا

بنيت في العهد العثماني في القرن التاسع عشر، وتقع بين جامع الجزار وحمام الباشا، وكانت مقراً للمتصرف ودوائره وموظفيه، وفي عهد الانتداب البريطاني استعملت كمدرسة للبنات، وهي الآن مصح للمدمنين على المخدرات(١٥٤).

وأشار ميخائيل مشاقة إلى أن ظاهر العمر عمّر في السرايا برج الخزينة(١٥٥).

سرايا الناصرة

مبنى السرايا في الناصرة عبارة عن بناية ضخمة فيها مكاتب بيت المال والإدارة والقضاء، وهي مؤلفة من طابقين: الأول يحتوي على سجن مكون من غرفتين أو زنزانتين كبيرتين.وتحوي الطبقة العليا على مكاتب المسئولين الحكوميين المختلفة(١٥٦).

---

(١٥٣) المصدر نفسه، ص ٤٢٨.

(١٥٤) متي سمعان بوري، يوسف أحمد الشبل، عكا تراث وذكريات، بيروت، دار الحمراء، ١٩٩٤م، ص ٥١؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: بوري والشبل، عكا؛ موسوعة المدن الفلسطينية، ص ٥١٤.

(١٥٥) مشاقة، منتخبات من الجواب، ص ٧.

(١٥٦) الناصرة العثمانية في عيون غربية، ترجمة هزاع أبو ربيع، الناصرة، الحكيم للطباعة والنشر، ٢٠١١م، ص ١٣٥؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: الناصرة العثمانية.

سرايا طولكرم

بقيت طولكرم تتبع في إدارتها مدينة نابلس حتى نهاية القرن التاسع عشر، حيث أحدث العثمانيون قضاءً جديداً في شمال فلسطين عرف باسم قضاء بني صعب، وجعلوا طولكرم عاصمة له. وخلال الحرب العالمية الأولى أصبحت مقراً للجيش العثماني الثامن، حيث عظم شأن المدينة، واتخذت المدينة كعاصمة للقضاء والقرى المحيطة، ولا زالت المدينة تحتفظ بالكثير من البنايات الأثرية التي تعود لهذه الفترة، منها مبنى السرايا (دار الحكومة).

وقد وصفها التميمي عند زيارته لطولكرم بقوله: "ومن المناظر المستحسنة دار الحكومة القائمة في منتهى الطريق الوحيد من الشمال الشرقي من القصبة"[(١٥٧)].

يقع مبنى دار الحكومة العثمانية (السرايا) شمال وسط المدينة، وهو نهاية الشارع العثماني من جهة الشمال، ويتكون من طابقين يتميز بعدد كبير من الغرف، وسقف هذا المبنى يتشكل من مجموعة من القباب، وكان جزءاً من البناء سجناً، وبقي مبنىً حكومياً تابعاً لحكومة الانتداب البريطاني، ثم أصبح مقراً لبلدية طولكرم، وخلال فترة الاحتلال الصهيوني تحول المبنى إلى مدرستين إحداهما في الطابق العلوي باسم "مدرسة طه حسين"، والأخرى في الطابق الأرضي ودعيت "مدرسة نور الدين الزنكي". وبعد إعلان السلطة الفلسطينية، أصبح الطابق الأرضي مقراً لشرطة طولكرم الشمالية، والطابق العلوي ذو الساحة السماوية أصبح داراً للتراث والفنون[(١٥٨)].

---

(١٥٧) محمد رفيق التميمي، محمد بهجت الكاتب، ولاية بيروت، جزءان، دراسة وتحقيق زهير غنايم ومحمد محافظة، ج ١، ص ٩١؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: التميمي والكاتب، ولاية بيروت.

(١٥٨) الموقع الإلكتروني لوكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية (وفا نيوز) www. wafainfo.ps.

وكانت بلدية طولكرم قد تبنت في أيار ٢٠١١م مشروعاً لتأهيل مبنى دار الحكومة (السرايا) العثمانية، وذلك بالتعاون مع مؤسسة ميد كوبرا الإيطالية الممولة لهذا المشروع، والذي بموجبه سيتم تحويل دار الحكومة- بعد عملية الترميم والتأهيل - إلى معرض تراثي ومنامة للضيوف، وكذلك موقع لبيع وتشجيع الصناعات الوطنية والتقليدية لمحافظة طولكرم، إضافة إلى غايات واستعمالات أخرى[١٥٩].



(١٥٩) المصدر نفسه.

خاتمة

مما سبق نجد أن هناك مجموعة من السمات المشتركة التي صبغت دور السرايا العثمانية في بلاد الشام-إذا ما استثنينا تلك التي أقامها الأمراء المحليين- منها:

- التقارب الزمني لفترة بناء معظمها -فيما يتعلق بالسرايات التي أنشأتها الحكومة لغاية محددة وهي أن تكون مقراً للإدارة الحكومية- وهي فترة أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

-التشابه في الغرض الوظيفي لكل منها، وشمولية الغاية، فهي بالإضافة إلى أنها مركز للحكم وإدارة شؤون البلاد، فهي أيضاً مكان سكن الوالي أو المتصرف، ويوجد لهذه الغاية جناح خاص (الحرملك)، وتشترك في هذه الصفة حتى مع القصور التي كان يقيمها السلاطين في إسطنبول، فإن ثلاثة بلاطات تفصل المصالح الخارجية والقصر الرسمي والأجنحة الخاصة بالسلطان بما في ذلك الحريم، وتحيط بهذه المجموعة أسوار عالية بها أبراج مسلحة تسليحاً شديداً. وهي مبان ذات خطوط بسيطة معدة للمكاتب، ولعدد من مصالح القصر وللسلطان نفسه، وهي صالحة للاجتماعات ولسكن الموظفين. وتوجد أيضاً مواضع الدارات (كشك) التي يفرضها جمال المنظر أو الحرص على طلب الراحة، فقاعة الديوان مثلاً وضعت قرب أجنحة السلطان-وكذلك الوالي أو المتصرف- ليتمكن من الالتحاق بها بسهولة[(١٦٠)].

لذا نجد إن فكرة الانتقالية هي التي كانت الموحية لكل فن العمارة المدني العثماني إلى القرن التاسع عشر[(١٦١)].

---

(١٦٠) أندري كلو، سليمان القانوني مثل من التمازج بين الهوية والحداثة، ترجمة البشير بن سلامة، بيروت، دار الجيل، ١٩٩١م، ص ٣٠٥؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقاً: كلو، سليمان القانوني.

(١٦١) المرجع نفسه، ص ٣٨٨.

-التشابه في النسق المعماري فهي وإن كانت تمثل نمطاً معمارياً جديداً متأثراً بالفن الأوروبي، ولكنها جاءت في مجملها خصوصاً تلك التي أقيمت في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، جاءت من حيث الشكل المعماري الهندسي متشابهة إلى حد بعيد، فالناظر إلى دور السرايا في سوريا ولبنان وفلسطين والأردن يستطيع أن يحكم أنها بناية من العهد العثماني.

-البناء المستطيل: وهي صفة اشتركت بها غالبية مباني السرايا.

-إن هذه السرايا كانت منطلقاً ورمزاً لمقاومة الاحتلال، وشكلت ساحاتها ميداناً لخوض معارك من أجل الحرية. لذا أصبح يطلق على أغلبها اسم ساحة الحرية أو الشهداء.

- وجود برج الساعة في أغلبها: وقد أنشئت احتفالاً بالذكرى الخامسة والعشرين لتولي السلطان عبد الحميد الثاني العرش. إذ حذت طرابلس وحلب ويافا حذو بيروت في الساعة التي أنشأها رئيس بلدية بيروت آنذاك عبد القادر القباني [١٦٢].

-التشابه في المرافق التي اشتملت عليها السرايا، فهناك الحرملك كما ذكر أعلاه، وهناك الديوان أو قاعة الاجتماعات، وهناك السجن وأجنحة الضيافة والخزنة، إضافة إلى الساحة أو الميدان.

(١٦٢) قدمت مجلة المشرق في عددها السابع عشر تقريراً شاملاً عن هذا البرج؛ لمزيد من التفاصيل أنظر: المشرق، السنة الثانية، العدد ١٧، ١/٩/١٨٩٩م، ص ص ٧٦٩-٧٧٤.

العمارة العثمانية في بلاد الشام بين التاريخ والهندسة والفن

"سرايا اربد أنموذجاً"

زياد عبد الله طلافحة*

يعتبر بناء دار الحكومة العثمانية "سرايا اربد"(١)، من أهم الأبنية التراثية العثمانية التي مازالت باقية في مدينة اربد، مركز قضاء عجلون العثماني، بل أن هذا البناء من أكبر الشواهد التاريخية والحضارية العثمانية في هذه المدينة وترك العثمانيون على بوابة السرايا الجنوبية نقشاً حجرياً، يتكون من ثلاثة أجزاء مكتوب باللغة العربية وبتأثيرات عثمانية، ويؤرخ لإتمام المرحلة الأولى والرئيسة للبناء في عام ١٣٠٤هـ= ١٨٨٦م.

---

* الدكتور.

(١) السرايا أو سرايا اربد: حسب الوثائق العثمانية فأنها تشير إلى هذه باسم دار الحكومة في القصبة، ويبدو أن كلمة سرايا أو سرايا الحكومة أو سرايا اربد، جاءت كتسمية شعبية لهذا البناء، حيث يطلق في كافة بلاد الشام ومصر كلمة سرايا على المباني والقصور الحكومية، وكلمة(سرايا-Saraya) كلمة تركية من أصل فارسي ومفردها (ساري)، وتعني: دار الحكام، دار الحكومة دائرة الحكم، مقر الحكومة، القصر الكبير، الدار الكبيرة، مجموعة القصور ضمن إطار معماري واحد، القصور السلطانية، وكانت هذه الكلمة أو هذا المصطلح قد استخدم لدى العثمانيين، بمعنى المقر السلطاني، مجموعة القصور السلطانية، وفي الفارسية تطلق اصطلاحا على بلاط الملك، مثل طوب قوبي سرايا، يلدز سرايا، أنظر قاموس تركي، ص ٧١٤، الدراري ص ٢٩٢، تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام، ج ٢ : ٣٠٨، الألفاظ الفارسية المعربة، ص ٩١.

الخلفية التاريخية لبناء السرايا

لا يعرف التاريخ الدقيق الذي تم فيه اختيار مدينة اربد مركزاً للواء عجلون العثماني ولكننا نستطيع القول من خلال بعض المعطيات والشواهد التاريخية بأن ذلك تم في عهد "أحمد باشا الجزار". والي الشام وصيدا"(٢)، خلال الفترة(١١٨٤- ١١٨٩هـ=١٧٧٠- ١٧٧٥م(٣)، وعلى اثر سقوط الإمارة الزيدانية التي كانت تسيطر على لواء عجلون حيث كان الشيخ احمد بن الظاهر العمر الزيداني والذي تولى لواء عجلون خلال الفترة(١١٨٤- ١١٨٩هـ=١٧٧٠-١٧٧٥م)، قد أتخذ من قرية "تبنه" مركزاً للواء، وأقام فيها مجموعة من الأبنية العسكرية والإدارية للممارسة الإدارة والحكم وضبط الأمن(٤)، وبعد اتخاذ

---

(٢) أحمد باشا الجزار(١١٤٨-١٢١٩هـ= ١٧٣٥-١٨٠٤م)، وهو أحد رجالات الدولة العثمانية في بلاد الشام الذين اشتهروا بالكفاءة والمقدرة أصله بشناقي(من بلاد البشناق=البوسنة)، عين والياً على صيدا في عام ١١٨٩هـ=١٧٥٥م، وشارك في القضاء على الإمارة الزيدانية في جنوب بلاد الشام، تولى ولاية الشام لأربع مرات خلال الفترة(١١٩٣-١٢١٩هـ= ١٧٨٣- ١٨٠٤م)، كما تولى إمارة الحج الشامي عدة مرات، وتمكن بمساعدة الأسطول الإنجليزي من إيقاف الزحف الفرنسي بقيادة نابليون على بلاد الشام عام(١٢١٤هـ= ١٨٩٩م)، توفي عام(١٢١٩هـ= ١٨٠٤م)، بعد حياة عاصفة وعمر يناهز التسعون عاماً، وله العديد من الآثار العديدة في مدينة عكا، أنظر: تاريخ الإدارة العثمانية، ص ٢٣٥، تاريخ احمد باشا الجزار، ص ٣٧-٤٢، الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ج ١، ص ٩٣-٩٤، بلاد الشام ومصر، ص ٣٨٧- ٣٩٥.

(٣) أنظر: تاريخ احمد باشا الجزار، ص ٦٣، ١٩١، تاريخ الإدارة العثمانية، ص ٢٣٥.

(٤) أحمد بن ظاهر العمر الزيداني توفي بعد(١١٨٩هـ= ١٧٧٥ م)، وهو أمير لواء عجلون العثماني خلال الفترة (١١٨٤-١١٨٩هـ= ١٧٧٠- ١٧٧٥م)، وعين في عام (١١٧٥ هـ=١٧٦١ م)، حاكماً لقلعة دير حنا في (شمال فلسطين)، وقام بالعديد من الحملات العسكرية على بلاد عجلون، وبعد تعيينيه أميراً على عجلون اتخذ من قرية(تبنه)مركزاً للواء عجلون، وأقام فيها مجموعة من الأبنية للممارسة الإدارة والحكم وضبط الأمن في اللواء وما زالت أثارها باقية حتى اليوم، واستمر لغاية عام(١١٨٩هـ= ١٧٧٥م)، حين انهارت الإمارة الزيدانية في عكا، وسقطت تبنه في السنة نفسها، وغادر المذكور القرية، وتقول بعض المصادر أنه غادر إلى استانبول وعاش بقية حياته فيها، أنظر: المسجد الزيداني في تبنه، ص ٤٩ -٥٣، غرائب البدائع، ص ٣٢، دراسة غير منشورة عن ناحية الكورة، ص ١٤، The Century, pp 46- 47 Palestine in the(18).

اربد مركزاً للواء عجلون العثماني بعد بلدة "تبنه"، حيث قامت الإدارة العثمانية بإنشاء أول الأبنية العثمانية فيها، وعلى السفح الجنوبي من تل اربد، والتي أصبحت أنقاضها لاحقاً تحت مبنى بلدية اربد الحالية(٥)، وكانت تعرف بقلعة اربد أو الشونة، والتي تحدث عنها الرحالة "بيركهارت" عندما زار المدينة في عام(١٢٢٧ هـ= ١٨١٢م)(٦)، ووصف بيوتها وذكر بأن هناك قلعة تقع على التل في حين أن البلدة تقع عند السفح، وهي القلعة التي استخدمتها القوات المصرية أثناء تواجدها في بلاد الشام خلال الفترة(١٢٤٨ هـ - ١٢٥٦= ١٨٣٢ -١٨٤١م)(٧)، كما تشير الوثائق المصرية بأن تم تدمير أجزاء هامة من هذه القلعة ولم تعد صالحة للاستخدام الرسمي، أثناء ثورة الفلاحين الثانية في حوران وعجلون عام ١٢٥٥هـ=١٨٣٩م(٨)، بحيث لم تستطيع الإدارة العثمانية من استخدامها بعد عودتها إلى لواء عجلون بشكل فعلي، وفي ١٢٦٤هـ= ١٨٤٨م، وعلى اثر وقوع معركة وادي العرب أو واقعة السعدي(٩)، أيقنت الدولة العثمانية خلال الفترة(١٢٦٧-١٢٧٢هـ=١٨٥١- ١٨٥٥م)بأنه لابد من إقامة قلعة جديدة في مدينة اربد، مخصصه للاستخدام العسكري بحيث يتم مرابطة حامية عسكرية عثمانية فيها لحفظ واستتباب الأمن في لواء عجلون، وقد جاء هذا الأجراء بعد مجموعة من الأعمال العسكرية التأديبية ضد القبائل

---

(٥) أنظر: مدينة أربد (دراسة في جغرافية العمران)، رسالة ماجستير، ص ٥٢.

(٦) أنظر: رحلات بيركهارت في سوريا الجنوبية، ص ٢٢، اربد وجورها، ص ٤٧٣.

(٧) أنظر: تاريخ الإدارية العثمانية، ص ٣٢-٣٨.

(٨) أنظر: المحفوظات الملكية المصرية(عابدين)محفظة ٢٥٨، رقم١٤٨-١٥٧، تاريخ الإدارة العثمانية، ص ٣٥.

(٩) أنظر: تاريخ الأردن في القرن العشرين، ص ٤، تاريخ شرق الأردن وقبائلها ص ٢٥١، نقلاً عن شوماخر في كتابه عجلون الشمالية.

البدوية في اللواء[١٠]، وشرعت الإدارة العثمانية في إقامة البناء الجديد" ربما يكون بعيد عن القلعة القديمة"، والذي تم إنجازه في حوالي (١٢٧٢هـ=١٨٥٥م)وقام بالأشراف على البناء "سنان باشا"[١١]، وهو أحد قادة الجيش الخامس العثماني المرابط في ولاية الشام وبمساعدة فرقة من الجنود العثمانية، وعرف هذا البناء الجديد باسم قلعة اربد أيضا، أو قلعة اربد الثانية تفريقاً لها عن قلعة اربد القديمة[١٢]، وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن القلعة لم تكن جيدة والعناية بها لم تكن كافية[١٣]، مما أدى بالتالي لإقامة مبنى "سرايا اربد" كدار للحكومة العثمانية في أواخر عهدها.

إقامة السرايا الحكومية في اربد

جاء إقامة بناء سرايا اربد نتيجة للتوسع الإداري العثماني في قضاء عجلون، بعد تطبيق التنظيمات العثمانية وتأسيس قضاء عجلون الجديد في (١محرم ١٢٨٣هـ=١٦أيار ١٨٦٦ م)[١٤]، ضمن لواء حوران في ولاية سوريا، وبدأت الدولة العثمانية في عهدها الجديد تتوسع في الاستخدامات الإدارية

(١٠) أنظر: بعض الوثائق العثمانية في سوريا (ضمن كتاب سوريا ولبنان وفلسطين) ص ٤١٠-٤١٤، وهناك مجموعة من الوثائق العثمانية حول هذا الموضوع في الأرشيف العثماني(إستانبول).

(١١) سنان باشا: ولا بد هنا من الإشارة إلى سنان باشا المقصود هنا يختلف تماماً عن المهندس المعماري العثماني المعروف "معمار سنان" صاحب المدرسة العثمانية العريقة، وكان رئيس المعماريين في عهد السلطان سليمان القانوني وقام ببناء العديد من الجوامع السلطانية والأبنية الرسمية الأخرى في إستنبول وغيرها وقد عاش خلال الفترة(٨٩٤ -٥٨٦ هـ= ١٤٨٩-١٥٧٨م)، أما سنان باشا المعنى هنا(في هذه الدراسة)، فكان أحد قادة الجيش العثماني الخامس المرابط في الشام، وكان احد رجالات الدولة العثمانية في زمن السلطان عبد العزيز وقد توفى في حوالي(١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨م) أنظر: قاموس الأعلام، ج ٤، ص ٢٦٣٤، المنجد في الأعلام، ص ٣٠٩، تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام، ج ١، ص ٤١٨، ٤٠٨، ٥٣٠ *Osmanli Tarih Lügati*, p. 317.

(١٢) أنظر: تاريخ الإدارية العثمانية، ص ١٠٥.

(١٣) أنظر: اربد وجوارها، ص ٤٧٦.

(١٤) انظر: جريدة سوريه العدد رقم ٩١٥ في تاريخ٢٤ مايس عام١٨٨٤م.

وإيجاد عدد من المؤسسات والهيئات الرسمية في قصبة اربد "مركز القضاء"، ولم تعد تلك القلعة أو "السرايا القديمة" قادرة على تلبية متطلبات الإدارة الجديدة، فكان لا بد من بناء جديد لدار الحكومة في قصبة اربد، ولكن قبل الحديث عن تاريخ بناء السرايا والمراحل المتعددة التي مرت بها، لابد من التعرض للموقع الذي أقيمت عليه هذه السرايا.

موقع السرايا

توجد عدة أراء حول الأساس الذي أقيمت فوقه دار الحكومة العثمانية في اربد، ويرى امجد البطانية أن بناء السرايا أقيم على أنقاض برج أو قلعة رومانية، كانت فوق التل ودليل ذلك سماكة الجدران التحتية لأساس الجدران[١٥]، ويؤيد ذلك مقالته عن دار سرايا اربد حيث يقول "بأن ليس للمبنى طراز معماري محدد من حيث استخدام تقنيات وعناصر معمارية ومواد البناء، ووجود سماكات مختلفة للجدران على أن نجد الرأي نفسه موجود في مقالة أخرى عن دار السرايا[١٦]، على أن صالح التل يذكر لنا في مذكراته بعض الإشارات حول القلعة الرومانية حين يقول في اربد تل مرتفع تحاط به بنيان معمرة وهي قلعة رومانية[١٧]، ولكنه لم يتحدث عن مصير تلك القلعة ومدى علاقتها بموقع السرايا الحكومية، وبذلك لا نستطيع تأكيد إلى ما ذهب إليه البعض في كتابتهم حول موقع تلك القلعة، حيث لم تجري حفريات أثرية واسعة حول دار السرايا لتحقق من صحة تلك الافتراضات، كما إنه لا توجد

---

(١٥) أنظر: دار سرايا اربد، حولية دائرة الآثار العامة، العدد (٤٥)، ص (٦٧-٧٩).

(١٦) أنظر: في الهامش السابق، ومقالة (دار سرايا اربد)، مجلة مهندس اربد، العدد (٢) السنة الثالثة، ص ٨-١٤، وكذلك حولية دائر الآثار

(١٧) أنظر: مذكرات صالح التل في الجزء الذي نشره أحمد عويدي العبادي في كتابة العشائر الأردنية (الأرض والإنسان، والتاريخ) ص ١٣١.

أي دراسة توثقيه حول هذا الموضوع، وفي الإطار نفسه يمكن القول أن "سرايا اربد" قد تم بنائها على أنقاض القلعة القديمة "الشونة" أو بالقرب منها، للاستفادة من الأنقاض في البناء الجديد من حيث الأساسات والحجارة وغيرها[18].

تاريخ بناء الطابق الثاني من السرايا:

لم تعد السرايا القديمة صالحة للاستخدام الرسمي في إطارها الجديد، ومع التوسع في الاستخدامات الإدارية وإيجاد عدد كبير من المؤسسات والهيئات الرسمية في قصبة اربد، باشرت الإدارة العثمانية، وبأمر من والي سوريا "أحمد حمدي باشا "، بتاريخ (٢٩ رجب ١٣٠٠هـ = ٢٤ مايس ١٢٩٩ مالية = ٥حزيران ١٨٨٣م)[19]، في إنشاء بناء جديد لدار الحكومة في محل مرتفع، حيث جعلت الطبقة السفلي إصطبلاً يتسع لمائة حصان[20]، على أن تباع الدار القديمة، وتعمر الجديدة بأثمانها، وتم إعداد المخططات الهندسية للبناء الجديد وسلمت للقائمقام لإجراء اللازم[21]، وهناك إشارات واضحة إلى إهمال وتعطيل أعمال البناء في دار السرايا خلال الفترة(١٣٠١- ١٣٠٣هـ = ١٨٨٤-١٨٨٥م)، حيث توقفت أعمال ترميم البركة أيضاً[22]، إلا أنه أعيد العمل في البناء مع تعين قائمقام جديد لقضاء عجلون وهو حسين عوني بك

---

(١٨) أنظر: المراجع السابقة في الهوامش (١٥، ١٦، ١٧)

(١٩) بالنسبة لوالي سوريه هو (أحمد حمدي باشا) والذي تولى ولاية سوريه مرتين الأولى (١٢٩٢ هـ =١٨٧٥-١٨٧٦م)، والثانية (١٢٩٦- ١٣٠١هـ) =١٨٨٠-١٨٨٥م) وفي هذه الفترة من عهده تمت المباشرة في بناء المرحلة الأولى من سرايا اربد، أنظر جريدة سوريه العدد (٩١٥) ب تاريخ ٢٤ مايس١٢٩٩ مالية=٢٩ رجب ١٣٠٠هـ=٥حزيران ١٨٨٣م، ولاة دمشق في العهد العثماني، ص ٩٣، وكذلك اربد وجورها، ص ٤٧٥ - ٤٧٦.

(٢٠) تاريخ الإدارة العثمانية، ص ٢٣٩-٢٤٠, 7 Devleter.٢/114 .

(٢١) أنظر: اربد وجورها، ص ٤٧٦.

(٢٢) أنظر: اربد وجوارها، ص ١٨١.

شركس، واستمرت عملية البناء حتى الانتهاء من المرحلة الأولى في شهر صفر١٣٠٤ هـ=تشرين الثاني ١٨٨٦م، حيث قدم أهالي قصبة اربد إعانة مالية مقدارها أربعماية ليرة من تكاليف البناء، ثم بدأت الأجهزة الرسمية العثمانية في استخدامه[٢٣].

أما المرحلة الثانية فقد جاءت تلبية لحاجة التوسع الإداري العثماني في القضاء، حيث شرعت الإدارة في العثمانية بناء المرحلة الثانية من دار السرايا في عام (١٣١٠مالية=١٨٩٥م)، ويبدوا أن هذه المرحلة شملت الجزء العلوي من السرايا، وتم تكليف محمد أفندي الحمود للإشراف على أعمال البناء في هذه المرحلة[٢٤]، وقد شكلت لجنة لتعمير سرايا اربد وبنا السجن في القصبة، وذلك بقرار من متصرف لواء حوران بدري باشا[٢٥]، واعتمده قائمقام قضاء عجلون موسى كاظم بك[٢٦]، وفي(١١كانون الثاني١٣١٠مالية= ٢٣ كانون

(٢٣) قائمقام قضاء عجلون حسين عوني بك تمت ترجمته في الأعلام الواردة في الجزء الثاني من النقش والذي يحدد تاريخ الانتهاء من البناء، أنظر: البشير عدد (٨٤٣)،١٨/١١/١٨٨٦م، قضاء عجلون، ص ٤٠٧.

(٢٤) محمد أفندي الحمود الخصاونة(١٢٦٧- ١٣٤٧هـ)=١٨٥٠ - ١٩٢٩م)كان أحد مشايخ الزعامات المحلية في ناحية بني عبد وفي قضاء عجلون العثماني، وكان يقيم في بلدة أيدون، وكان أول رئيس لبلدية اربد خلال الفترة(١٣٠٠- ١٣٠٥هـ =١٨٨٣- ١٨٨٧م)، وقد تولى العديد من المناصب الرسمية العثمانية، وشارك في عديد كبير من اللجان والهيئات العثمانية، بما ذلك لجنة الأشراف على أعمال بناء المرحلة الثانية من السرايا، أنظر مقالة(أول رئيس بلدية اربد. الشيخ محمد الحمود الخصاونة)في مجلة أقلام جديدة، العدد١٠، ص ٨- ١٠، رواد من الأردن، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢٥) بدري باشا: وهو متصرف لواء حوران لفترتين، الأولى خلال السنوات(١٣٠٣-١٣٠٥ مالية=١٨٨٧ -١٨٨٩م)، والثانية :خلال السنوات(١٣١١ مالية =١٨٩٤- ١٨٩٦م)، أنظر :تاريخ الإدارة العثمانية، ص ٩١.

(٢٦) موسى كاظم بك الحسيني (١٢٧٠-١٣٥٣هـ= ١٨٥٣- ١٩٣٤):ولد في القدس وتعلم بها، والتحق في معهد الحقوق في استانبول وتخرج منه، وكان يتقن اللغتين التركية والفرنسية بالإضافة للعربية، وقد عين قائمقام لقضاء يافا، صفد، عكار، عجلون، ثم متصرفاً للواء عسير، تبليس، وتولى لواء حوران مرتين، وغيرها وقد أحيل على المعاش في عام ١٣٣٤ هـ=١٩١٤، وبعدها ترأس بلدية القدس في عام ١٣٣٦ هـ=١٩١٧م، وبعد انتهاء العهد العثماني، ترأس

الثاني١٨٩٥م)، حيث عين محمد أفندي الحمود للإشراف على أعمال هذه المرحلة، ويبدو أن هذه المرحلة شملت الجزء العلوي "الطابق الثاني" من الجزء الشمالي الغربي من السرايا، وبهذا الصدد يذكر "ضيف الله الحمود "أن محمد الحمود وفي أثناء بناء "دار الحكومة" في اربد وسجنها، كان يجري حسابات دقيقة على رؤساء الورش وفرق العمل وعمالها ويقف على الصغيرة والكبيرة من مواد البناء التي تصرف، وقد شكلت لهذه الغاية أكثر من لجنة فرعية، وكان يقوم بالتدقيق اليومي على المقاولات والحجارة، والحصى، والكلس وغيره، وكان رئيس اللجنة لا يوقع على أي مستند أو كشف لمطالبات دون القناعة بصحة القيود والصرفيات[٢٧]، ومن الواضح أن "ضيف الله الحمود" يتحفظ بوثائق وسجلات ودفاتر تلك اللجنة وأعمال البناء والإنشاءات، حيث يقول: "وهناك العدد من صور الإجراءات اليومية التي كانت تجري في هذا الصدد"[٢٨].

النقش العثماني

يعلو المدخل الجنوبي لدار السرايا نقشاً حجرياً، يتكون من ثلاثة أجزاء، ومكتوب باللغة العربية، ولكنه تأثر باللغة العثمانية، علماً بأن هذا النقش لا يمثل أقدم فترة بناء للسرايا، ولكنه يؤرخ بإتمام المرحلة الأولى من البناء حيث يرجع تاريخها إلى عام (١٣٠٤هـ =١٨٨٦-١٨٨٧م)، ويمكن أن يأخذ من هذا النقش التفاصيل التاريخية المهمة لتلك المرحلة وتفاصيله هي:

الحركة الوطنية الفلسطينية ضد القوات الإنجليزية واليهودية منذ عام ١٣٣٩ هـ=١٩٢٠م، وحتى وفاته، أنظر :تاريخ الإدارة العثمانية، ص ١٣٤، ج ٧، ص ٣٢٦-٣٢٧.

(٢٧) انظر: رواد من الأردن، ص ٢٠٤.

(٢٨) المصدر السابق نفسه.

الأول ـ نقش الطغراء

وهي الطغراء العثمانية الخاصة بالسلطان عبد الحميد الثاني، وتعني الطغراء بشكل عام التوقيع أو الشعار الرسمي العثماني[٢٩]، وقد أخذ العثمانيين التوقيع عن العباسيين وربما عن المماليك، بينما ورثوا الطغراء عن السلاجقة، وأصبحت الطغراء بمرور الزمن لدى الدولة العثمانية شعاراً تحمل اسمها، وكانت الطغراء عند العثمانيين تعني التوقيع السلطاني، بشكل متداخل ومنمق بطراز فني جيد[٣٠]، وقد بدأ استعمالها في الدولة العثمانية من عهد السلطان أورخان في القرن(٨هـ=١٤م)، ومنذ ذلك الحين أصبحت الطغراء علامة من علامات السلطنة العثمانية، وقد تم إنشأ دائرة خاصة لها في الديوان السلطاني بهذا العمل الدقيق، وكان الموظف الذي يرأس هذه الدائرة يعرف "بالنشانجي"[٣١]، والذي كان يناط به في البداية واجبات تشريعيه مهمة بالإضافة إلى وظيفته الخاصة بكتابة الطغراء، حيث كان يقوم بختم كافة الوثائق الرسمية على اختلاف أنواعها بالطغراء السلطانية، وبعد ذلك تم تغير مسمى "النشانجي إلى الطغراء كش"[٣٢]، والتي تعني الماهر بكتابة الطغراء من الناحية اللغوية وجمال خطها فيها، وأصبحت الطغراء توضع على كافة الأوامر العالية والفرمانات السلطانية والوثائق الرسمية والطوابع وصحف الأوراق المدفوع، وشعارات الجيش والأسطول العثماني وعلى المسكوكات الذهبية والفضية العثمانية وغيرها، بإضافة لاستخدام الطغراء الكتابية، فأنها كانت تنقش على كل بناء شيده السلطان أو شيد في عهده[٣٣]، ومن الناحية الفنية فأن نقش

---

(٢٩) أنظر: تاريخ مؤسسة تاريخ شيوخ الإسلام، ج ١، ص ١٤٢.
(٣٠) أنظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٥، ص ٢٠٤، ٢٠٣.
(٣١) أنظر: المصدرين السابقين.
(٣٢) أنظر: تاريخ مؤسسة تاريخ شيوخ الإسلام، ج ١، ص ١٤٢.
(٣٣) أنظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٥، ص ٢٠٣.

الطغراء الموجود على بوابة سرايا اربد لا يختلف في إطاره الفني العام عن طغراء السلطان عبد الحميد الثاني الكتابية الموجودة على الوثائق والمستندات، وعلى مداخل المباني العثمانية الأخرى في استانبول والولايات الأخرى، وهي بدورها لا تختلف أيضا عن الطغراء العثمانية العامة، واعتبرها بعض الباحثين أنها جاءت نوعاً من أنواع الفن الزخرفي العثماني التركي(٣٤)، ولكن بعض الباحثين العرب في مجال الخط العربي أعتبر أن الطغراء وتصميمها نوعاً من أنواع الخط العربي(٣٥).

الميزات الفنية للطغراء العثمانية وتشمل

- من ناحية الشكل: فأن الطغراء العثمانية مشتقة من النموذج السلجوقي ولكنها تختلف اختلافاً واضحاً عن الطغراء المملوكية المصرية في المظهر، فقد ذهب بعض الباحثين لقولهم عن الطغراء العثمانية بأنها ليست مجرد أسلوب للكتابة متعارف عليه فقط، بل أنها جاءت على شكل طائر، أو فارس ينهم الأرض نهماً(٣٦)، أو على شكل دلة قهوة(٣٧)، أو على شكل راحة اليد(٣٨).
- أن الحروف الرأسية وعددها ثلاثة قد أخذت من اسم والألقاب السلطان وأبيه، ويرى الباحثين بأن تلك الحروف الرأسية تمثل

---

(٣٤) حول فن الطغراء أنظر: تاريخ مؤسسة تاريخ شيوخ الإسلام، ج ١، ص ١٤٢، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٥، ص ٢٠٣ -٢٢٣، معجم مصطلحات الخط العربي، ص(ق)، ٧٣، بدائع الخط العربي، ص ٤٧٧، الخط العربي، ص ١٦٠، روح الخط العربي، ص ١٤٦-١٤٧، Osmanli Padişah Tuğralari,S,3-30. Vesikalarrini.S,213-225.

(٣٥) أنظر: الخط العربي، ص ١٦٠-١٦١.

(٣٦) أنظر: بدائع الخط العربي، ص ٤٧٧.

(٣٧) أنظر: الخط العربي، ص ٦٠.

(٣٨) أنظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٥، ص ٢٠٨.

"التوغ العثماني"[٣٩]، أي إشارة إلى الأعلام العامة التي تمثل السلطان وهي شارة السلطنة العثمانية المائية والتي تعرف أيضا بالعلم والراية، وكانت هذه الإشارة عبارة عن ضُمه من شعر الخيل أو ذيل الحصان المركب على مقدمة الرمح، وتصبغ باللون الأحمر[٤٠].

- أن الأقواس البيضاوية أو الإهليجية غير المغلقة وعددها اثنان يتلاقيان في الجزء السفلي من اسم السلطان وأبيه، وأن هذه الأقواس كانت أصلاً امتدادات لحروف النون، التي ترد في لفظ "بن" أو خان[٤١].

وصف نقش الطغراء

نفذ نقش الطغراء السلطانية في أعلى البوابة الجنوبية للسرايا، وبالقرب من القوس العلوي للبوابة، بطريقة الحفر البارز المفرغ وعلى شكل دائري وعلى حجر جيري منتخب مستطيل الشكل طوله:٥, ٦٣سم، وعرضه:٥, ٢١سم، وعلى دائرة بارزة بلغ قطرها:٥, ١٨ سم، ومساحتها:٠٩, ٥٨ سم٢، وبلغ سماكة الحفر الدائرة:٢سم، ونجد أن الدائرة غير منتظمة من الناحية

---

(٣٩) توغ أو التوغ العثماني: هو مصطلح عثماني من أصل فارسي، وتعني الطرة أو الضمة من شعر الخيل أو ذيل الحصان، أو الإشارة الخاصة، وقد استخدم هذا المصطلح بمعنى الشارة الخاصة للسلطنة العثمانية ومكانتها تقارب مكانة العلم أو الراية، وكانت هذه الشارة عبارة عن ضم عدد من شعرات الخيل أو ذيل الحصان المركب على الرمح ويصبغ باللون الأحمر، حيث يمثل السلطان تسعة أتواغ ولكن في الطغراء ثلاثة حروف على شكل توغ، وقد استخدم هذا المصطلح وهذه الشارة على نطاق واسع لدلالة على أصحاب الرتب والمسولين ي الدولة العثمانية، أنظر :تاريخ مؤسسة تاريخ شيوخ الإسلام، ج ١، ص ١٤١، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٥، ص ٢١٠، ٢١٩، قاموس تركي، ص ٤٥٢.

(٤٠) أنظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٥، ص ١٤١.

(٤١) أنظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٥، ص ٢٠٧ -٢١٠.

الهندسية تماماً، بل فيها بعض الإزاحات، ولم نتمكن من معرفة اسم الخطاط الذي قام بكتابة هذه الطغراء، ولكنها تشبه طغراء السلطان عبد الحميد الثاني، والذي كان يقوم بكتابتها الخطاط العثماني الشهير محمد سامي[٤٢]، كذلك لم نعرف اسم النقاش أو الحجار الذي قام بنقش الطغراء على الحجر، ولكننا نرى أن هذا النقش تم عمله في دمشق الشام "مركز الولاية"، لوجود الخطاطين والحرفيين الذين يجيدوا هذه الصنعة هناك، بينما كانت "اربد" لا تعرف هذا الفن، وجاءت طريقة نقش الطغراء معقدة، وفيها الكثير من عدم وضوح الحروف المكونة للكلمات، بحيث يصعب على غير المختص من قراءة نصوص الطغراء بسهولة[٤٣].

نص النقش

تكونت كلمات نقش الطغراء الموجودة فوق بوابة سرايا اربد من العبارة التالية:

"عبد الحميد خان بن عبد المجيد المظفر دائماً"

ويتألف هذا النص من سبع كلمات وسبعة وثلاثون حرفاً وحركة خطية واحدة جاءت لتكملة الشكل العام للطغراء[٤٤].

---

(٤٢) الخطاط محمد سامي أفندي (١٢٥٤- ١٣٣٠ هـ =١٨٣٨-١٩١٢م): وهو ابن الحاج محمود أفندي ومن أشهر الخطاطين الأتراك خلال القرن (١٣هـ= ١٩م)، ب عد راقم وهو من أشهر خطاطي الطغراء في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وهو تلميذ الخطاط مصطفى راقم وقد أخذ الخط الديواني وجلى الديواني والطغراء عن ناصح أفندي، وأخذ التعليق عن إسماعيل حقي القبرصلي، وله آثار كثيرة، واشتهر ببراعته بالخطوط المذهبة، وقد تخرج عن يده كثير من الخطاطين المشهورين، أنظر معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ص ٧٣، نماذج فن الخط العربي، ص ١٦٠.

(٤٣) الدراسة الميدانية للنقش.

(٤٤) أنظر: Osmanli Vesikalarini.S,215-225 .

القراءات السابقة للنقش

بالرغم من الدراسات السابقة التي تناولت دار السرايا في اربد، إلا أنه لم يتم قراءة هذا النقش، وحتى لم يشار إلى وجودة في أعلى نقش تأسيس السرايا، ونجد امجد البطانية في مقالته عن دار السرايا لم يشر لهذا النقش وذكر "بأن هناك نقش في المدخل الرئيسي الجنوبي للمبنى يحتوي على كتابة عربية[٤٥]"، والحذو نفسه في مجلة "مهندس اربد" حيث لا تتضمن أية إشارة لوجود لمثل هذا النقش[٤٦]، وعليه يمكن القول بأنه لم نجد أية قراءات سابقة تناولت نقش الطغراء السلطانية الموجودة على بوابة سرايا اربد العثمانية.

الملاحظات حول النقش

ويمكن القول أن نقش الطغراء نسخة شبه غامضة من طغراء السلطان عبد الحميد الثاني، وهناك تشابه من الناحية الشكل العام مع نقش الطغراء الموجودة على المباني العثمانية الأخرى مثل "نقش الطغراء الموجود في مدرسة اربد الرشدية "ويتضح أكثر لتلك الطغراء فوق بوابة المدرسة الرشدية العسكرية في إستنبول في حي" السيركجي "حيث توجد كافة التفاصيل الفنية ويمكن قراءته بسهولة تامة[٤٧].

الأعلام الواردة في النقش

أ) السلطان عبد الحميد الثاني(١٢٥٨- ١٣٣٨هـ=١٨٤٢-١٩١٨م)وهو السلطان العثماني الرابع وثلاثون، وقد تولى عرش الدولة العثمانية خلال الفترة(١٢٩٣_ ١٣٢٧هـ= ١٨٧٦-١٩٠٩م)ودام حكمه للدولة العثمانية "ثلاث

---

(٤٥) أنظر: مقالة أمجد بطانية (دار سرايا اربد) حولية الآثار العامة، العدد (٤٥)، ص ٦٧.
(٤٦) أنظر: مقالة أمجد البطانية (دار سرايا اربد) في مجلة المهندس، السنة الثانية، ص ٨- ١٤.
(٤٧) زيارة الباحثين لتلك المدرسة بتاريخ ٢٠٠٧/٨/٢١.

وثلاثون عاماً، وسبع شهور وثلاثة أيام ميلادية" هو ابن السلطان عبد المجيد الأول ووالدته "ثيري موزكان ثادف أفندي" وقد استطاعت الدولة في عهده أن تفرض سيطرتها على كافة الأنحاء، وهيمن السلطان عبد الحميد الثاني على مقاليد الحكم والإدارة في العاصمة والولايات، وكانت الدولة في عهده قوية الهيبة والشوكة والنفوذ، في وقت بدأت الدولة في عهده تتعرض لحملات ومؤامرات دولية من الدول الاستعمارية الأوروبية، مما أدى بالتالي إلى خلعة من قبل جمعية الاتحاد والترقي في(٧ربيع الأخر١٣٢٧هـ=٢٧نيسان ١٩٠٩م)وأرسل إلى سالونيك "في اليونان" وعذب، وبقي سجيناً بقصر" الآلايتني " حتى تم سقوط المدنية عام ١٣٢٩هـ=١٩١١م، فأعيد إلى سرايا "بكربكي "في إستانبول، وبقي معزولاً فيها حتى وفاته، ودفن في ضريح السلطان محمود في محلة "جنبرالي طاش" في إستانبول، وبكى عليه ألد أعدائه[٤٨].

ب) السلطان عبد المجيد الأول (١٢٢٨-١٢٧٧هـ=١٨٢٣-١٨٦١م) وهو السلطان العثماني الحادي والثلاثون، والد السلطان عبد الحميد الثاني، وقد تولى حكم الدولة العثمانية خلال الفترة (١٢٥٥-١٢٧٧هـ= ١٨٣٩-١٨٦١م) حدث في عهده تطورات كثيرة في مجال الإصلاح في الجيش والإدارة والمعارف وفتحت المدارس المهنية، وأسست خطوط البرق والسكك

---

(٤٨) حول المعلومات عن السلطان عبد الحميد الثاني، انظر: السلاطين العثمانيون، ص ٨٣، معجم الأنساب، ص ٢٤٠، تاريخ الدولة العثمانية، ج ٢، ص ١٨٤، تاريخ مؤسسة تاريخ شيوخ الإسلام، ج ٢، ص، ٢٦٠- ٣٢٩، وهناك مصادر ومراجع كثيرة بالغة التركية منها: . Devleter.٢/372 Basabakanlik, S,317,2 ,

الحديدية وغيرها، توفي بداء السل مثل والده السلطان محمود الثاني، ودفن في حظيرة جامع السليمية بمنطقة الفاتح في استانبول[٤٩].

الألقاب الواردة في النقش:

أ)خان: وهو أحد الألقاب الرسمية للسلطان العثماني، وأساس هذا اللقب جاء من أصله الفارسي، ويعني: الأمير، الحاكم، الحاكمدار "حاكم دار" وقد اتخذه الملوك التيموريون في ألقابهم الرسمية، كما اتخذ السلاطين العثمانيين هذا اللقب، والحق مع صفتهم الرسمية حيث نجد أن السلطان عثمان الأول اتخذ لقب "سلطان عثمان خان غازي" وبقي مستخدماً لدى السلاطين العثمانيين حتى نهاية الدولة العثمانية خاصة في الطغراء السلطانية[٥٠].

ب)المظفر: وهو أيضا من ألقاب السلطان العثماني، وقد جاء هذا اللقب من اللغة العربية من جذر الفعل "ظفر" ويعني: الغالبة والنائل، النصر، ولكن المظفر جاءت على صيغة التفضيل لتعني: الفاتح، المنصور، المنتصر وقد اتخذ السلاطين العمانيين هذا اللقب ملحقاً لألقابهم الأخرى حيث نجدهم يستخدمون مصطلح "المظفر دائماً" أي المنصور دائماً، خاصاً في الطغراء السلطانية[٥١].

خصائص الخط الفنية للنقش

خط الطغراء هو تزاوج بين خطي الديواني والإجازة، ويتميز بقوة التناسب والمشاكلة وبزيادة عرض سن القلم عن خط الديواني العادي[٥٢]، وهذا

(٤٩) حول السلطان عبد المجيد أنظر: تاريخ الدولة العثمانية، ج ٢، ص ٢٤-٥٣، السلاطين العثمانيون، ص ٧٨ الدولة العثمانية، ص ٨٣، (دحلان)، ص ٢٨٤معجم الأنساب، ص ٢٤٠، تاريخ مؤسسة تاريخ شيوخ الإسلام، ج ٢، ص ٨٠، Basabakanlik s. 368, Devleter.2/303.

(٥٠) أنظر: قاموس تركي، ص ٥٧٠-٥٧١.

(٥١) أنظر: قاموس تركي، ص ١٣٦٥.

(٥٢) أنظر معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ص ٥٣.

الحديث ينطبق على خط الطغراء الورقية، أما في حالة نقش الطغراء على الحجارة، فقد يختلف الوضع قليلاً أو كثيراً حسب مهارة ودقة النقاش الذي يقوم بنقل الطغراء على الحجارة، وفي كثير من الأحيان لا نجد اختلافاً بين الطغراء الورقية والحجرية في العاصمة إستانبول نتيجة لوجود عدد كبير من النقاشين المهرة في تلك الأعمال، بينما نجد ذلك الاختلاف واضحاً في الولايات العثمانية البعيدة عن إستانبول، وبالنسبة للطغراء العثمانية الموجودة بباب سرايا اربد، فإنها كتلة خطية منقولة على حجر، وقد كتبت بخط الطغراء الديواني، ولكن هناك بعض الاختلاف في التفاصيل الورقية والحجرية عن غيرها[٥٣].

الجزء الثاني ـ نقش تأسيس دار السرايا

وهو نقش حجري يتألف من أربعة أبيات شعرية عمودية عربية مع استخدام بعض المصطلحات العثمانية، وناظم هذه الأبيات الشعرية كان مراعياً لقواعد النحو والصرف والعروض العربية عارفاً، وجاءت سليمة لغوية وخالية من اللحن وهي على بحر الوافر، وقد تم انتقاء الكلمات الشعرية بعناية، وتألف كل بيت شعري من شطرين "صدر وعجز" مع مراعاة للقافية الشعرية، وهي الألف الممدودة، علماً بأن هذا النقش هو الرئيس والأساسي، وهو الأكبر من حيث عدد الكلمات والمحتويات والذي يتحدث عن تأسيس دار السرايا ويتضمن مدحاً واضحاً لشخص رئيس الدولة العثمانية: "السلطان" ثم والي الولاية، ومتصرف اللواء وقائمقام القضاء[٥٤].

---

(٥٣) أنظر معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ص(ق)٥٣.
(٥٤) الدراسة الميدانية للنقش.

وصف النقش الكتابي

شكل النقش: نفذ نقش الأبيات الشعرية الأربع تحت الطغراء السلطانية، وفوق البوابة الجنوبية للسرايا، وكتب بالخط الثلث بطريقة الحفر البارز المفرغ أو النفر، وعلى حجر جيري منتخب، وهو حجر مربع الشكل تقريباً طوله:٥، ٥١ سم، وعرضه:٣، ٤٣ سم، ومساحته:٩٢، ٢٢٢ سم٢، كتبت أسطر النقش متتالية، وطول السطر الكتابي:٥، ٤٦ سم، وعرضه٧سم، ومتوسط عمق الحفر:٢- ٣مم، وطول الخط الفاصل:٥، ٤٦ سم، وطول الخط العرضي الفاصل:٥، ٤١ سم، وقد توزعت تلك الأبيات الشعرية على القاعدة الحجرية بطريقة هندسية، أفقيا وعمودياً، بحيث تم توزيعها أفقيا على أربعة خطوط أو سطور هندسية متساوية، وجاءت قاعدة السطور في الجهة العلوية للأبيات وليس العكس، ويشمل كل سطر بيت شعري كامل "الصدر والعجز"، بينما توزعت تلك الأبيات عمودياً على قسمين حيث تم فصلها بخط واضح في وسط القاعدة الحجرية، وشمل القسم الأول على سطور تمثل صدور الأبيات أما القسم الثاني فقد شمل على أعجاز الأبيات الشعرية، وجاءت الكلمات مضغوطة خاصة في الشطر الأول من البيت الأول، ثم في البيتين الأخرين، ونجد تداخل في حروف الكلمات، بحيث يصعب قراءتها أحيانا بسهولة، علماً بأنه تم فقدان ثلاث كلمات من عجز البيت الشعري الثاني، نتيجة لبعض الأعمال البشرية التي تمت على الحجر، وتم كسر جزءاً منه كان يحمل بعض الكلمات(٥٥).

وبالنسبة للأشخاص الذين قاموا بأعداد وصناعة هذا النقش، فأنهم ما زالوا مجهولين، فلم نتمكن من معرفة اسم الشاعر أو ناظم الأبيات الشعرية ولم نعرف اسم الخطاط الذي خط تلك الأبيات، ومن نقشها على القاعدة

---

(٥٥) الدراسة الميدانية للنقش.

الحجرية ونعود لنؤكد على رأينا السابق" كما في الطغراء"، بأن هذا النقش تم إعداده في دمشق الشام "مركز الولاية" وللأسباب التي وردت سابقاً.

نص النقش:

يتألف نقش تأسيس السرايا الحكومية في اربد من أربعة أبيات شعرية وهذه الأبيات:

خليفتنا عبد الحميد الذي غزاء دعا راشدا والي الولاية رمزا

فكلف بهراماً بصـــام فكره ليبنى للعيش الرغيد مركزا

فقام حسين فى رصانة وضعه فأتقنه صـنعاً قمراً مطرزا

وأرض الطيبى يشـــير بحـده انـه حـال سـكـان البلاد تميزا

الدراسة اللغوية للنقش

البيت الأول: خليفتنا عبد الحميد الذي غزاء دعا راشد والي الولاية رمزا

خليفتنا: السلطان العثماني خليفة المسلمين، وهو الذي يستخلف ممن قبله، والنون ضمير متصل في رفع خبر، والجمع خلفاء[٥٦].

عبد الحميد: تم شرحه في الأعلام الواردة في النقش.

الذي: اسم موصول.

غزاء: تم شرحها في الألقاب والصفات الواردة في النقش.

دعا: الدعاء الطلب والرغبة[٥٧].

راشد: تم شرحه في الأعلام الواردة في النقش.

والي الولاية: تم شرحه في الأعلام الواردة في النقش.

رمزا: الإشارة الخاصة التي تؤدي إلى معنى واضح[٥٨].

معنى الكامل للبيت

(٥٦) أنظر لسان العرب ١٩٥٥، ج ٩: ٨٢.
(٥٧) أنظر: لسان العرب، ج ١٤: ٢٥٧.
(٥٨) أنظر: أنظر: سامي، ص ٦٧٠.

كانت استجابة السلطان لإقامة البناء سريعة وفورية وبمجرد الإشارة للوالي كانت المباشرة بالعمل، وكان الوالي شديد الحرص أن يكون مميزاً في بنائه ومرتباً ومنظماً.

البيت الثاني: فكلف بهراماً بصام فكره ليبني للعيش الرغيد مركزا

فكلف: أوكل إليه القيام بالمهمة البناء، والكلفة ما تكلفت من أمر في نائبة أو حق[٥٩].

بهراماً: تم شرحه في الأعلام الواردة في النقش.

بصام: المسافة ما بين طرفي الخنصر والبنصر[٦٠]، البصم الرجل الثقيل الجسم[٦١].

فكره: الفكر أعمال الخاطر في الشيء، أعمال فكره ما أفتكر به[٦٢].

ليبني: يقيم البناء.

للعيش: للحياة.

الرغيد: عيش رغْد: كثير، وأرغد فلان أصاب عيشاً، والرغد الواسع الطيب[٦٣].

مركزا: موضع الجند الذي أمروا أن يلزموه وأمروا أن لا يبرحوه[٦٤].

معنى الكامل للبيت:

(٥٩) أنظر: لسان العرب، ج ٩: ٣٠٦.
(٦٠) أنظر: لسان العرب، ج ١٢: ٥٠.
(٦١) أنظر: متن اللغة ١٩٨٢، ج ١: ٣٠٢.
(٦٢) أنظر: متن اللغة، ج ٤: ٣٤٩.
(٦٣) أنظر: لسان العرب، ج ٣: ١٨٠.
(٦٤) أنظر: لسان العرب، ج ٥: ٣٥٥.

أجتهد متصرف لواء حوران بخلاصة أفكاره في تصميم هذا البناء، أن يكون هذا البناء للحياة والعيش رغداً، وليكون اختيار هذا المكان مركزاً إدارة وامنياً قوياً.

البيت الثالث: فقام حسين في رصانة وضعه فأتقنه صنعاً قمراً مطرزا

فقام: القيام يفيد معني: العزم، ويأتي بمعنى المحافظة والإصلاح[٦٥].

رصانة: الرصين الشديد الثابت، الرصين الثابت، والرصين المحكم[٦٦].

وضعه: يدل على الخفض للشيء وحطه، ووضعته بالأرض وضعاً[٦٧].

فأتقنه: صار تاماً أي اجتمعت إليه أجزاؤه كلها فأصبح تاماً[٦٨].

صنعاً: عمل الشيء بحذق وإتقان[٦٩]، الصنع: العمل، وفي التنزيل قول الله تعالى{ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ }، أي عمل الله سبحانه وتعالى[٧٠].

قمرا :القمر الذي في السماء،، ويشبه المكان بالقمر لبهائه وعلوه ودقة صنعة[٧١].

مطرزا: تم شرحها في الألقاب والصفات الواردة في النقش.

معنى الكامل للبيت:

بدأ قائمقام قضاء عجلون "حسين عوني بك جركس" في تنفيذ هذا البناء بعزم وثبات وإحكام وإتقان، فاجتمعت إليه أجزاؤه كاملة، فأكمله بحذاقة فكان هذا البناء قمراً عالياً منيراً مزيناً.

البيت الرابع: وأرض الطيبى يشير بحده أنه حال سكان البلاد تميزا

(٦٥) أنظر: لسان العرب، ج ١٢: ٤٩٧.
(٦٦) أنظر: مقاييس اللغة ١٩٩٠، ج ٢ :٣٩٩.
(٦٧) أنظر: مقاييس اللغة، ج ٥: ١١٧.
(٦٨) أنظر: متن اللغة، ج ١: ٤٠٨.
(٦٩) أنظر: مقاييس اللغة: ج ٣ :٣١٣.
(٧٠) أنظر: القرآن الكريم {النمل آية ٨٨}.
(٧١) أنظر: لسان العرب، ج ٥: ١١٤.

وأرض: الأرض التي عليها الناس(٧٢)، قال الله تعالى{وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ}(٧٣).

الطيبى: الطيبى اسم شجر في الجنة، والطوبى الحسنى، والطوبى من الطيب(٧٤).

يشير: الشير الجميل، وحسن الشارة هي حسن الهيئة والمنظر(٧٥).

بحده: حده: حد السيف، والحدة المضاة(٧٦)، الحد الفصل بين الشيئين(٧٧).

حال: هو تغير السكان من حال إلى حال(٧٨)، وفي التنزيل{وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ}(٧٩).

سكان: السكن أقام فيه وتوطن، والسكان هم أهل الدار(٨٠).

البلاد: البلد، كل موضع أو قطعة مستحيزة، والجمع بلاد وبلدان(٨١).

تميزا: امتاز القوم إذا تميز بعضهم من بعض(٨٢).

معنى الكامل للبيت:

أن هذا البناء الجميل جاء في هذه الأرض الطيبة ليزيد جمالها وخيراتها وأمنها، وأصبحت حياة السكان متميزة بالأمن والرفاه العيش.

(٧٢) أنظر: لسان العرب، ج ١٤: ٣٢٣.
(٧٣) أنظر: القرآن الكريم، { الرحمن آية ١٠}.
(٧٤) أنظر: لسان العرب، ج ١٥: ٣.
(٧٥) أنظر: متن اللغة، ج ١: ٤٥٧.
(٧٦) أنظر: لسان العرب، ج ٣: ١٤١.
(٧٧) أنظر: متن اللغة، ج ٢: ٤١.
(٧٨) أنظر: لسان العرب، ج ١١: ١٨٨
(٧٩) أنظر: القرآن الكريم {هود آية ٤٣}.
(٨٠) أنظر: متن اللغة، ج ٣: ١٨٢.
(٨١) أنظر: لسان العرب، ج ٣: ٩٤.
(٨٢) أنظر: متن اللغة، ج ٥: ٣٦٧.

الدراسات السابقة للنقش

لم يتناول أحد نشر هذا النقش، ولا توجد أية دراسات سابقة وكل ما هو متوفر عنه هو إشارات إليه فقط، دون التعرض للتفاصيل الكتابية والنصوص، علماً بأن هذا النقش لا يمثل أقدم أو آخر فترة لبناء لدار السرايا.

الأعلام الواردة في النقش

ورد في النقش أربع شخصيات، ذات صفة رسمية إدارية وظيفية وهم.

أ) الخليفة (السلطان)عبد الحميد الثاني:

(البيت الأول الشطر الأول) ذكر بصفته رئيس للدولة وكتب عنه في نقش الطغراء[٨٣].

ب) والي الولاية راشد باشا:

(البيت الأول الشطر الثاني) وذكر باسمه "راشد" وبصفته الرسمية أو الوظيفية "راشد ناشد باشا" وتولى ولاية سوريا لفترتين الأولى (١٢٩٣هـ=١٧٨٦-١٨٧٧م)، والثانية (١٣٠١- ١٣٠٤مالية=١٨٨٥-١٨٨٨م) وتم بناء دار السرايا في هذه الفترة[٨٤].

ج) متصرف اللواء بهرام باشا:

(البيت الثاني ـ الشطر الأول) هو متصرف لواء حوران والمعروف "بهرام باشا" وقد تولى إدارة لواء حوران خلال المدة"١تشرين ١٣٠٠-٢٩ كانون أول

---

(٨٣) أنظر: الهامش رقم ٤٨.

(٨٤) راشد ناشد باشا: تولى ولاية سورية للمرة الثانية بعد وفاة الوالي السابق أحمد حمدي باشا في ٢٨ أغسطس ١٣٠١مالية =٩ أيلول ١٨٨٥م، واستمر في هذه الولاية حتى تم عزله في ٢٧ مارت ١٣٠٤ مالية =٨ نيسان ١٨٨٨م، وفي هذه الفترة تم الانتهاء من بناء المرحلة الأولى من دار السرايا في اربد، وتم وضع النقش التأسيس موضوع الدراسة، أنظر: تاريخ الإدارية العثمانية، ص ٢٣٩ . ٢٤٠، ولاية دمشق في العهد العثماني، ص ٩٣، سالنامة ولاية سورية دفعه (٣٢)ص ٢٨٨، Devleter., 2/1141

١٣٠٣ مالية=١٣تشرين الثاني ١١٨٤-٢٩ كانون أول ١٨٨٨م، وكان يحمل رتبة مير ميران =أمير لواء، وفي زمنه تم ألانتها من بناء السرايا[٨٥].

د) قائمقام القضاء حسين بك:

(البيت الثالث الشطر الأول)، وهو قائمقام قضاء عجلون "حسين عوني بك جركس "وقد تولى القضاء(١٣٠٢-١٣١١هـ)=(١٨٨٥-١٨٩٣م)، وتم البناء في زمنه[٨٦].

صفات الأعلام والبناء الواردة في النقش:

وردت في النقش بعض والصفات الرسمية للشخصيات والبناء.

أ) غزا:

هو طلب الشيء وتعني: الغَزْو، والغازي هو الطَّالِبُ[٨٧] غزا الرجل غَزْواً أَرادَه وطَلَبَه، والغِزْوَة: ما غُزِي وطُلِبَ[٨٨]، وجاءت هذه الكلمة من صفات السلطان عبد الحميد الثاني، وهي من الجذر "غزا" وتعني اصطلاحا في اللغة العثمانية الجهاد والحرب[٨٩]، وجاءت هنا إشارة لكلمة "الغازي" وهي أحد ألقاب السلطان عبد الحميد الثاني الذي أتخذه بعد عام ١٣٠٠هـ-١٨٨٢م، وكان يكتب مع الطغراء الخاصة به ويعني هذا اللقب: الفاتح أو المجاهد[٩٠]، وكان هناك قرأه سابقة لكلمة "خزا "[٩١].

---

(٨٥) أنظر: تاريخ الإدارية العثمانية، ص ٩١.
(٨٦) أنظر: تاريخ الإدارية العثمانية، ص ١٣٣.
(٨٧) أنظر: مقاييس اللغة، ج ٤ :٤٢٣.
(٨٨) أنظر: لسان العرب ١٩٥٥، ج ١٥: ١٢٣.
(٨٩) أنظر: سامي، ص ٦٠.
(٩٠) أنظر. سامي ص ٩٦٦، اوزتونا ج ٢ ص ١٨٥- ١٨٦، ٢٧٨.
(٩١) أنظر: مجلة النقوش والرسوم الصخرية ٢٠٠٧، العدد ٢، ص ٧.

ولكن أجرى لها تصحيح فأصبحت "غزا"(٩٢)، ويعود السبب في ذلك أن فتحة الغين كانت ضيقة وظهرت كأنها خاء، وبعد التدقيق ظهر حرف الغين واضحا ومتمشياً مع السياق(٩٣).

ب) والي الولاية:

وهو أحدى المصطلحات الإدارية العثمانية، وتعنى أعلى منصب إداري في الولاية، أو رئيس الجهاز الإداري الرسمي في الولاية أو حاكم الولاية، أو حاكمدار الولاية، أو رئيس الحكومة المحلية في الولاية وكان بالعادة برتبة وزير، ونجد في الأدبيات العثمانية، وزير الشام أو وزير سوريا وتعني الوالي، والمقصود هنا والي الولاية، ولاية سوريا(٩٤).

ج) مطرزا:

الطرز البز والهيئة، والطرز بيت إلى الطول، وقيل هو البيت الصيفي، قال الأزهري أراه معرباً وأصله تِرز، والطراز: ما ينسج من ثياب السلطان، والطرز والطراز: الجيد من كل شيء(٩٥)، الطرز الهيئة فارسية، طرز، وترز، ومنه الكردي: تُرز(٩٦)، وقد جاءت هذه الكلمة من صفات البناء أيضاً لتعني الترتيب أو المرتب أو المزين، وفي السياق تعني أن البناء كان مزيناً ومرتبا(٩٧).

الجزء الثالث ـ تاريخ النقش:

تاريخ النقش (تاريخ تأسيس بناء السرايا): وقد جاء هذا النقش ملحقاً بالنقش الثاني " الأبيات الشعرية"، وفي نهايتها، وضمن الإطار الذي يلف

(٩٢) أنظر: مجلة النقوش والرسوم الصخرية٢٠٠٩، العدد ٣، ص ٦٠.
(٩٣) أنظر: شقيرات، تعديلات وإضافات جديدة على النصوص الشعرية في النقوش العثمانية من دار سرايا - اربد مجلة النقوش والرسوم الصخرية٢٠٠٩، العدد ٣، ص ٦٠.
(٩٤) أنظر: أنظر: قاموس تركي، ص ١٤٨٥.
(٩٥) أنظر: لسان العرب، ج ٥: ٣٦٨.
(٩٦) أنظر: الألفاظ الفارسية المعربة ١٩٨٨: ١٢٥.
(٩٧) أنظر: قاموس تركي، ص ١٣٦٣.

القاعدة الحجرية، وتضمن إتمام بناء المرحلة الأولى(الرئيسة)للسرايا، ضمن مقطعين.

الأول: كلمة "سنة" حيث كان العثمانيون يستخدمون هذه الكلمة قبل كتابة التاريخ رقماً، وكثير ما نجد ذلك في معظم الوثائق العثمانية" في سنة أو سنة"[(٩٨)].

الثاني:(١٣٠٤): وقد جاءت رقماً وتعني السنة التي تم فيها البناء، ووضعه على النقش، وهي ألف وثلاثماية وأربع هجرية، حيث كانت الدولة العثمانية تعتمد التقويم الهجري، ولكن في أحياناً أخرى كانت تستخدم التاريخ المالي، وتوافق ١٣٠٤هـ بالتقويم الميلادي ١٨٨٦م حيث تم الانتهاء من بناء المرحلة الأولى من دار السرايا في شهر صفر ١٣٠٤ هـ=تشرين الثاني ١٨٨٦م[(٩٩)].

خصائص خط النقش الفنية:

على خلاف المعتاد في النقوش العثمانية والتي كانت تستخدم الخط الديواني في الكتابة والنقش تحت الطغراء، فأن هذا النقش كتب بخط الثلث، وعند المقارنة بين حروف هذا النقش القائمة، وبين حروف التي أوردها أحمد أمين أغلو لحرف خط الثلث بالطريقة الكتابة العثمانية لهذا الخط، فأن هناك تقارب كبير بين الخطين[(١٠٠)].

ويعتبر خط الثلث أصل الخطوط العربية وأجملها، ويستعمل غالباً في خطوط المساجد والمحاريب والقباب وعناوين الكتب والصحف، وهو خط

---

(٩٨) أنظر: مجموعة الوثائق العثمانية في تاريخ الإدارة العثمانية، ص ٢٨٦- ٣١٤.

(٩٩) أنظر: البشير عدد (٨٤٣)، ١٨٨٦/١١/١٨م، قضاء عجلون، ص ٤٠٧ Hicri Tarerileri S 88.

(١٠٠) أنظر: Osmanli Vesikalari, pp. 105-106.

متطور عن خط النسخ، وسمى بذلك لأنه في حجم خط النسخ الكبير الذي كان يكتب به على الطومار[١٠١].

وسمي بذلك بالجلي[١٠٢]، ليدل على صوره وسمات محدودة للحرف العربي، وهو أصغر في حجم حروفه من الطومار، وسمى الثلث لاشتقاقه من قلم الطومار بواقع الثلث عن قطعته "رأس قلم الخط" البالغة أربعاً وعشرون شعرة، ولكن البهنسي يرى أن بأن الثلث جاء مقارنة بخط النسخ، ويقول: بمقارنة خط النسخ بالثلث، يبدو لنا أن مساحة حروفه تساوي ثلث مساحة الثلث، وقد مر خط الثلث بعدة مراحل فنية، حتى وصل إلى صورته المتطورة، وأصبح اليوم من أصعب أنواع الخط العربي المعروفة وأجملها على الإطلاق في الشكل الخاص لصور الحروف وتركيبها الفني في بناء نص اللوحة الخطية، وكتابته تحتاج إلى إجادة تامة، إذ أن أقل القليل في الليونة أو الخشونة، تعد خطأً فادحاً في كتابته لكبر حجمه[١٠٣]، ويرجع ابتكار الثلث إلى رجلين في زمن الخلافة الأموية بالشام هما الضحاك بن عجلان[١٠٤]، وإسحاق ببن

---

(١٠١) جاءت كلمة طومار لغوياً من(طمره)وجمعها طوامير، وتعنى: الصحفية، ويقال كتب في الطومار أو الطوامير، والطومار: الملف المتخذ من البردي أو الورق، وقد يتكون من (٢٠) جزءاً يلصق بعضها ببعض في وضع أفقي ثم يلف على هيئة أسطوانة وكان الملف يسمى بالطومار، وكان يكتب عليه

(١٠٢) الجلي يعتبر من الخطوط القريبة من خط الطومار ولكنه أكبر من حجم حروفه، وسمي كذلك ليعني الكبير الجلي الواضح، وله سمات محددة للحروف العربي، وعنه تطور خط الثلث، أنظر: جماليات الخط العربي، ص ٩١، أنظر: المنجد في الخط العرب ي٤٧١.

(١٠٣) أنظر: الخط العربي، ص ٤٣، طبقات الخطاطين، ص ٦٤، معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ص(ق).

(١٠٤) الضحاك بن عجلان (توفي ١٥٤ هـ = ٧٧٠ م): من الخطاطين الأوائل، عرف بالكاتب، عاش في عهد الخليفة العباسي السفاح (١٣٢هـ ١٣٦هـ) =٧٤٩. ٧٥٤م)، أنظر: طبقات الخطاطين، ص ١١، ٥٩.

حماد(١٠٥). ثم اخذ عنهما إبراهيم الشجري(١٠٦)، والذي طوره إلى خط اسماه الثلثين أو الثلث، وتحسن هذا الخط أبان العهد العباسي، وقد نسب إلى الوزير ابن مقلة(١٠٧)، في ضع قواعده في سنة ٣٠٠ هـ=٩١٢م، ومن الذين لهم اليد الطولي في ارتقاء هذا الخط في العهد العثماني الشيخ حمد الله الأماسي(١٠٨)، ومصطفى راقم(١٠٩).

دراسة الخط الفنية:

هناك بعض العيوب نجدها في حروف خط الثلث المستخدمة في هذا النقش وأنها غير

---

(١٠٥) إسحاق بن حماد (توفي ١٦٩ هـ = ٧٨٥م): من الخطاطين الأوائل والذي عاش في العهد العباسي، وقد ذاع صيته في أيام الخليفة العباسي المنصور (١٣٦هـ. ١٥٨هـ) =٧٥٤. ٧٧٥م)، وكذلك في أيام الخليفة المهدي، (١٥٨هـ . ١٦٩هـ) =٧٥٥ . ٧٨٥م) وقد عرف بالكاتب، انظر: طبقات الخطاطين، ص ١١، ٥٩.

(١٠٦) إبراهيم الشجري (ظهر حوالي٢٠٠ هـ = ٨١٥م)، وهو من الخطاطين العهد العباسي، وقد ظهر في بغداد وابتكر قلماً من ضرب الجليل بل هو أخف منه حركة وأحسن مزاوجة أطلق علية قلم الثلثين، ثم فرع عنه قلماً سماه خط الثلث، والذي عرف بخط الثلث، وكان إبراهيم الشجري تلامذة الأحول المحرر، وهو أستاذ أبي على بن مقلة، وأخوه يوسف الشجري الذي أبتكر قلم النصف، أنظر: معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ص(ق)، ٧٩

(١٠٧) ابن مقلة: وهو محمد ابن مقلة، وزير عباسي من الشعراء والأدباء استوزره المقتدر والقاهر والراضي، ومات سجيناً في عام ٣٢٨ هـ=٩٤٠ م أنظر: النجد في الأعلام، ص ١٤.

(١٠٨) حمد الله الأماسي(٨٣٣هـ. ٩٢٧هـ)=١٤٢٩. ١٥٢٠م):وعرف بالشيخ الخطاط وهو من أشهر خطاطي العهد العثماني بعد فتح إستنبول وقد نسب إلى بلده أماسه (مدينة تركية)، وكان يقيم في اسكدار(في الجانب الأسيوي من مدينة إستنبول)، وقد اشتغل بالخط واخذ عن الشيخ خير الدين المرعشي، وقد اشتغل في عهد السلطان بايزيد الثاني واستمر حتى عهد السلطان سليمان القانوني، وقد كتب بخط الثلث عدة لوحات في جامع السلطان بايزيد(إستانبول)، ويوجد له العديد من المخطوطات بقلمه، أنظر: طبقات الخطاطين، ص ١١، ٧٢، معجم مصطلحات الخط العربي، ص(ق).

(١٠٩) الخطاط مصطفى راقم (توفي ١٢٤٢ هـ =١٨٢٥م): من أهم خطاطي الخد الديواني والثلث في العهد العثماني، حيث قام بتطوير هذه الخطوط وجملها وحسنها أنظر: جماليات الخط العربي ص ٩١، نماذج من الخط العربي، ص ١٦٠، معجم مصطلحات الخط العربي، ص(ق).

صحيحة تماماً، وربما يعود السبب بذلك لعدم الإتقان لدي النقاش الذي قام بعمل هذا النقش، باعتبار ذلك "عمل إنساني" لا بد أن تظهر فيه بعض العيوب الفنية، وعليه اختلفت فنية كتابة حروف النقش على القاعدة الحجرية، عن الكتابة الورقية وظهرت بعض الحروف غير واضحة أحياناً، ويوجد فيها بعض الإزاحات والميلان، وفي بعض الأحيان يصعب يرد الحروف إلى خط الثلث(١١٠).

الهندسة والفن لدار سرايا اربد:

الوصف الهندسي لدار سرايا اربد:

ليس لمبنى دار سرايا اربد طراز معماري محدد ولا يرجع إلى فترة بناء واحدة ويتضح هذا من خلال الاختلافات المعمارية للواجهات وللتكوين الداخلي للفضاءات من حيث استخدام تقنيات وعناصر معمارية ومواد بناء وسمكات جدران مختلفة.

اعتمد البناء الهندسي لدار السرايا على النمط الهندسي الذي كان سائدا في بلاد الشام عموما حيث أصبحت مدينة اربد مقراً لمتصرفية لواء عجلون، ومن الممكن أن السرايا أصبحت دار الحاكم العثماني في المدينة والتي كانت تشكل في حينها نقطة وصل إداري بين إسطنبول ومتصرفية اللواء.

امتازت عقود وغرف دار السرايا العثمانية باستقلالية هندسة البناء الذي كان سائدا في العهد العثماني آنذاك إذ تتمتع واجهة الدار وشبابيكها وأبوابها باستدارات نصف قوسيه هندسية تفصل بينهما أعمدة حجرية ثم تميل باتجاه تلتقي فيه مع قوس أخر، ليشكلان معا انحناءات متساوية بدرجة الميلان والأبعاد فيما يتسم المدخل ببوابة قوسيه كبيرة منها ينفذ المرء إلى الساحة الرئيسية ثم إلى عقود الدار وغرفها، تعتليها نوافذ متوسطة المساحة، وللصعود

---

(١١٠) أنظر: الخط العربي، ص ٤٣، ص ١٦٠، أنظر الخط العربي، ص ٤٣، الخط العربي (الخط العربي ونشأته، ومشكلاته) ص ٤١، جماليات الخط العربي، ص ٩١

إلى الطابق العلوي لا بد من المرور عبر درج مستقيم وضيق يمر من خلاله المرء إلى الطابق العلوي الذي يمتاز بفوارق في النمط البنائي(١١١).

البناء بشكله الهندسي مبني على نظام القناطر والأقبية وهو مؤلف من طابقين وهذا يعطي دلالة على أن المبنى شيد لأغراض محددة بما يخدم المصالح الإدارية للحكم العثماني حيث يتألف الطابق الأرضي من ستة عقود وصالة وعشر غرف ومستودع ضخم ومدخلين بمساحة ١٤٠٠م٢ ويشتمل أيضاً على ساحة داخلية بمساحة ٦٠٠م٢، أما الطابق العلوي فيحتوي ١٦ غرفة بمساحة ١٢٥٠م٢ وساحة خارجية مساحتها ٦٠٠م٢، حيث تم توزيع الغرف على طريقة الاصطفاف الطولي وكأنها غرف صفية مدرسية يحاذيها ممر(كوردور) طويل يؤدي إلى بوابات الغرف على محيط البناء العلوي الذي يطل على الساحة السماوية.

وتتقدم المبنى حديقة بها مجموعة من الأشجار المختلفة بمساحة ٢٥٠م٢، حيث يوجد تحتها قبو بمساحة ٤٥ م٢ وارتفاع ٧م كما يوجد خزان ماء سعته ٢٥م٣.

والمبنى ذو شكل مربع يشرف على فناء داخلي كبير وله مدخلان من الجهة الجنوبية والشمالية ويعتبر المدخل الجنوبي هو المدخل الرئيسي وهو مدخل واسع، وتفضي هذه البوابة إلى ردهة ثم إلى ساحة داخلية حيث عمل بها لاحقاً بعض المجسات وكشفت عن جدران ضخمة تشكل بقايا مبنى من العصر الحديدي بالإضافة لبقايا عظمية وفخاريات، ومقابلها بوابة شمالية مبنية على شكل عقد نصف دائري(١١٢).

استخدم في بناء دار سرايا اربد أنواع مختلفة من الحجارة والموجودة أصلاً حول المكان، ويشكل الحجر البازلتي ما نسبة حوالي ٨٠% تقريباً من

---

(١١١) أنظر مقالة تغريد الرشق، جريدة الغد العدد الصادر بتاريخ ٠١/١٥/ ٢٠٠٦م.
(١١٢) أنظر: التقرير الأثري الأولي للمهندس محمد الخطيب، دائرة الآثار العامة أرشيف در السرايا

حجارة البناء وإلى جانبه الحجر الأبيض القاسي والبازلتي المتناوب مع الحجر الجيري الأبيض، والتي كانت تخلو من المادة الرابطة "المونة" بينها سوى طبقة ترابية بين فواصل مداميك الحجارة، أن اختلاف فترات البناء نتج عنه أيضا اختلف في سماكة الجدران من طابق لطابق فبعض الجدران ذات سماكة قليلة نسبياً تصل إلى ٣٠سم كما هو الحال في الطابق العلوي إلا أنها تصل إلى ٢٠٠سم كما هو الحال في العقود الغربية في الطابق السفلي.

أما حجارة الطابق الأول فقد كانت ما بين المشذبة وغير المشذبة، فالأجزاء الحديثة نسبيا تكونت من الحجر البازلتي المشذب والمتوسط الحجم باستثناء الحجارة التي من الحجر الرملي المشذب الأكثر حداثة من الطابق الأرضي، أما الجزء الغربي من الطابق العلوي فبني من خليط من الحجارة الكلسية والبازلتية، أن اختلاف الحجر ونوع الدقاقة وحجم الكتل الحجرية وأسلوب البناء كل هذه العوامل مجتمعة تأكد عن اختلاف فترات البناء للمبنى دار السرايا.

وثبت ذلك من خلال التشخيص الميداني وتحليل المبنى من الناحيتين الإنشائية والمعمارية من حيث تقنية البناء والطراز المعماري والمواد المستخدمة في البناء ونظام الفتحات والشبابيك أن المبنى كان مهدماً وأعيد سقف الأجزاء المهدمة منه وعلى فترات لاحقة حتى عاد إلى شكله الكامل وعلى وضعه الحالي وتبين بعد إزالة القصارة عن كامل الواجهات المبنى أثناء عملية الترميم أنه لم تخلو أية واجهة من الإضافة أو الهدم.

امتازت السقوف بالاستواء التي دعّمت بشكل أفقي بجسور حديدية كالتي كانت سائدة في بيوت محافظة اربد آنذاك[١١٣]، وتنوعت طرق تسقيف المبنى فنرى أن العقود البرميلية كما في الصالة رقم(١، ٤، ٥، ٦)، والعقود المتقاطعة

(١١٣) أنظر: مقالة سلافه حسن التل، جريدة الدستور العدد الصادر بتاريخ ٢٠٠٧/٧/٧م

مثل الصالة ٢، وكذلك الأسقف الخشبية غرف(١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢)، وأسقف القرميد الفرنسي غرف رقم (٢٠٦، ٢٠٨)[١١٤].

وإذا ما قورنت دار سرايا اربد بالفن المعماري لدور سرايا أخرى فنجد أنها ينقصها الشيء الكثير حتى ترقى إلى المستوى الفني والمعماري التي وصلت إليه تلك الدور فعلى على صعيد دور السرايا التي كانت مبنية في دمشق وإسطنبول فقد كانت مبنية وفق التقسيم الثلاثي أو ثلاثية الأجنحة وتتميز بروعة زخارفها.

ففي بلاد الشام اتّخذ القصر أو السرايا التقسيم الثلاثي نفسه، فهنالك جناح الأسرة وجناح الضيوف وجناح الخدم، وكل جناح له إيوان يطل على فناء مكشوف يتوسطه عنصر مائي وأحواض النباتات إضافة إلى حمام صغير مقسم إلى جواني وبراني ووسطاني. وللدار أقبية تحت الأرض لحفظ المؤونة وطابقان، سفلي لفصل الصيف وعلوي لفصل الشتاء إذ يكون أكثر تعرضا لأشعة الشمس وبعيداً عن الرطوبة، أما القاعات الكبيرة فكانت ذات أسقف مرتفعة يعادل ارتفاعها الطابقين[١١٥].

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الدراسة الميدانية للنقش، وقد تمت خلال المدة (٤/٨-٣٠ /١١-٢٠٠٧م).

ثالثاً: المصادر والمراجع العثمانية والعربية والمعربة:

اوزتونا، يلماز، ١٩٨٨، ١٩٩٠، تاريخ الدولة العثمانية (١-٢)، إسطنبول: منشورات فيصل للتمويل.

(١١٤) أنظر: مقالة أمجد بطانية (دار سرايا اربد) حولية الآثار العامة، العدد (٤٥)، ص ٦٧.

(١١٥) أنظر مقالة إيناس حسني، (مجلة الرافد)، دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة، شباط ٢٠١٣.

الإنسي باشكاتب، محمد على: الدراري اللامعات في منتخبات اللغات (قاموس اللغة الثمانية)، ط(بدون)١٣١٨هـ= ١٩٠٠م، مطبعة جريدة بيروت، بيروت، لبنان.

البابا، كامل، روح الخط العربي، ط١، ١٩٨٣، دار لبنان للطباعة والنشر، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

بدون مؤلف، البشير، جريدة أسبوعية، كاثوليكية، دينية واجتماعية، كانت تصدرها الكنسية الكاثوليكية في لبنان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان.

________: دار السرايا اربد(مقالة)، مهندس اربد، العدد ٢، السنة الثالثة، حزيران ٢٠٠٧م، تصدر عن نقابة المهندسين الأردنيين، اربد، الأردن.

________: دائرة العارف الإسلامية، المجلد١٥، الطبعة(بدون)، السنة(بدون)، انتشارات جهان، طهران، إيران

________: سالنامة ولاية سورية، دفعه (٣٢)، ١٣١٨هـ=١٩٠٠م، مطبعة ولاية سوريه، دمشق(الشام)، سورية.

________: سوريا (الجريدة الرسمية لولاية سورية العثمانية)، مجموعة أعداد

________: المنجد في اللغة والأعلام، ط (٣٣)، ١٩٩٢، المطبعة الكاثوليكية، منشورات دار الشرق، بيروت، لبنان.

البغدادي: هاشم محمد الخطاط، طبقات الخطاطين، حرره وحققه، أدهام محمد حنش، ط١، ٢٠٠٨م، دار الكتاب الثقافي، أربد، الأردن.

بطاينة، أمجد محمد: دار السرايا اربد(مقالة)منشورة في حولية دائرة الآثار العامة، المجلد (٤٥)، ٢٠٠١، عمان، الأردن.

بهنسي، عفيف: فن الخط العربي، ط١، ١٩٩٩، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان.

________: معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ط ١، ١٩٩٥، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان.

بيركهارت، ج. ل: رحلات بيركهارت(ج٢) في سوريا الجنوبية، ترجمة أنور عرفات، الطبعة(بدون)، ١٩٦٩، المطبعة الأردنية، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمان، الأردن.

بيك، ج، فرديرك: تاريخ شرق الأردن وقبائلها، ترجمة بها الدين طوقان، ط (١)١٩٣٤م، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، القدس، فلسطين.

الجالودي، عليان عبد الفتاح: قضاء عجلون في عهد التنظيمات العثمانية (١٨٦٤ـ ١٩١٨م)، ط (بدون)، ١٩٩٦م، منشورات لجنت كتاب الأردن، عمان، الأردن.

حسني، إيناس، العمارة الإسلامية اختزال ثري للزخرفة والنمنمة والرقش، مجلة الرافد، دائرة الثقافة والإعلام الشارقة.

رافق، عبد الكريم: بلاد الشام ومصر من الفتح إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ـ١٧٩٨)، ط (٢)، ١٩٦٨، دمشق، سوريا.

الراوي، عبد الباسط: الخط العربي نشأته وتطوره وقواعده، ط(بدون)١٩٩٢م، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر.

رضا أحمد: متن اللغة (معجم لغوي)، الطبعة(بدون)، ١٩٥٨، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

رستم، أسد (جمع وتحقيق): الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، وقد نشر تحت عنوان (المحفوظات الملكية المصرية)، بيان بوثائق الشام وما يساعد فهمها ويوضح مقاصدها، (٤أجزاء)، ط (١)، ١٩٣٤، المطبعة الأمريكية، بيروت، لبنان.

ريجنكوف، م(وآخرون): سوريا ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ترجمة يوسف عطا الله، ط(بدون)، ١٩٩٣م، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان.

زايد، أحمد صبري: نماذج من الخطوط العربية، الطبعة(بدون)، ١٩٩٦، دار الطلائع، القاهرة، مصر.

زكريا، أحمد بن فارس: مقاييس اللغة (معجم لغوي)، تحقيق عبد السلام هارون، ط(بدون)، ١٣٦٦هـ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.

سامي، شمس الدين: قاموس الإعلام (تاريخ وجغرافيا لغاتي)، باللغة العثمانية، ٦أجزاء، ١٣٠٦ـ ١٣١٦هـ =١٨٨٩ـ١٨٩٨م، مهران مطبعة، إستانبول، تركيا.

______: قاموس تركي (عثماني)، ط(بدون)، ١٣١٧هـ=١٨٩٩م، مطبعة جريدة أقدام، إستانبول، تركيا.

أبو الشعر، هند غسان: أربد وجوارها (ناحية أبو عبيد)، ١٨٥٠هـ ١٩٢٨م، ط(بدون)، ١٩٩٥، منشورات بنك الأعلام، عمان، الأردن.

شقيرات، احمد صدقي: تاريخ مؤسسة الإسلام في العهد العثماني، (١ـ٢)، ط (١)، ٢٠٠٣م، اربد، الأردن.

______: تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن، (١٨٦٤ ـ ١٩١٨م)، ط (١)، ١٩٩٢م، مطابع الإيمان عمان، الأردن.

______، المسجد الزيداني في تبنه، ط (١)، ١٩٨٢، عمان، الأردن.

______، دراسة غير منشورة عن ناحية الكورة، في القرن (١٢هـ ـ١٨م).

______، أول رئيس لبلدية اربد، الشيخ محمد الحمود الخصاونة، مقالة منشورة في مجلة أقلام جديدة، العدد (١٠)، تشرين الأول، ٢٠٠٧، عمان، الأردن.

______، شقيرات، تعديلات وإضافات جديدة على النصوص الشعرية في النقوش العثمانية من دار سرايا – اربد مجلة النقوش والرسوم الصخرية ٢٠٠٩، العدد ٣، دائرة الآثار العامة عمان.

شهاب الدين، الأمير حيدر أحمد: تاريخ احمد باشا الجزار، نشرة أنطونيوس شبلي، أغناطيوس عبده خليفة، ط(بدون)، ١٩٥٥، مكتبة أنطون، بيروت، لبنان.

شير، أدي: الألفاظ الفارسية المعربة، طبعة بدون، ١٩٨٠، (صورة عن طبعة ١٩٠٨) (في مطبعة المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين)، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان.

ابن الصديق، حسن: غرائب البدائع عجائب الواقع، (الحياة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي)، تحقيق يوسف تعيسة، طبعة (١)، ١٩٨٨م، دار المعرفة، دمشق، سورية.

الطوالبة، محمد المصطفى: مدينة اربد (دراسة في جغرافية العمران)، رسالة ماجستير في الآداب، قسم الجغرافيا، جامعة الإسكندرية، (السنة بدون)، نسخة محفوظة في مكتبة بلدية اربد العامة، اربد، الأردن.

العبادي، احمد عويدي: العشائر الأردنية (الأرض والإنسان والتاريخ)، مذكرات وثائق ومراسلات (١٨٥٠ ـ٢٠٠٤م)، الطبعة(بدون)، ٢٠٠٤م، مكتبة المحتسب للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

العواجي، منصور بن ناصر: جماليات الخط العربي، ط١، ٢٠٠٠م، ارطويق للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية.

غوانمة، يوسف (محرر مع آخرون): رواد من الأردن (مجموعة أعمال الندوة التي عقدها المنتدى الثقافي في اربد عام ١٩٩٨)، ط (بدون)، ١٩٩٩م، منشورات المنتدى الثقافي، اربد، الأردن.

الكردي، محمد ماهر: تاريخ الخط العربي وآدابه، ط٢، ١٩٨٣م، الجمعية للثقافة والفنون، الرياض، السعودية.

كركوكي، محمد عزت: نماذج من بدائع الخط العربي، الطبعة(بدون)، ١٩٨٠م، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان.

ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، الطبعة(بدون)، ١٩٥٥م، دار صادر، بيروت، لبنان.

موسى، سليمان مع منيب الماضي: تاريخ الأردن في القرن العشرين، ط (١)، ١٩٥٩م، عمان، الأردن.

هاشم، عبد الهادي:(رئيس التحرير مع آخرون): الموسوعة الفلسطينية (القسم العام) في (٤) مجلدات، ط (١)، ١٩٨٤م، مطابع ميلانو ستامبا، الايطالية، هيئة المؤسسة الفلسطينية، دمشق، سوريه.

يعقوب، أميل: الخط العربي (نشأته، تطوره، مشكلاته، دعوات إصلاحه)، ط١، ١٩٨٦م، جروس برس، طرابلس، لبنان.

المصادر والمرجع الأجنبية

Başbakanlık Osmanlı Arşivi Kataloğu, 1995, Ankara, Turkey.

Coheb, Amnon, *Palestine in the 18th Century*,the Hebrew University, 1973, Jerusalem.

Costaz, L., 1963 *Dictionaire Syrique-Francais*, Syriac- English *Dictionary*, Beirut: Imprimerie Catholique. قاموس - سرياني- عربي.

Eminoglu, Mehmet, *Osmanlı Vesikalarını Okumaya Giriş*, Türkiye Diyanet Vakfı, 2003, Ankara.

Gesenius Hebrew and English Lexice, 1978 ,Oxford, at the Clarendon Press.

Öztuna, Yılmaz, *Devletler ve Hanedanlar*: Türkiye (1074-1990) vol. 2, Kültür Bakanlığı Yayınları, 1990, Ankara.

Sertoğlu Midhat, *Osmanlı Tarihi*, Enderun Kitabevi, Istanbul. , Turkiye.

Unat, Faik Reşit, *Hicri Tarihleri Miladi Tarihe Çevirme Kılavuzu*, 5. baskı, 1984,Türk Tarih Kurumu Basımvei, Ankara, Turkey.

Umar, Süha, *Osmanlı Padişah Tuğraları*, Cem Yayınevi 2001, Istanbul.

Ünat, Faik Reşit, Hicri Tarihleri Miladi Tarihe Çevirme Kılavuzu, 5. baskı, 1984, Türk Tarih Kurumu Basımevi, Ankara, Turkey.

Umar, Suhay, Osmanlı Padişah Tuğraları, Cem Yayınevi 2001, Istanbul.

كركوكي، محمد عزت: نماذج من بدائع الخط العربي، الطبعة(بدون)، ١٩٨٠م، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان.

ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، الطبعة(بدون)، ١٩٥٥م، دار صادر، بيروت، لبنان.

موسى، سليمان مع منيب الماضي: تاريخ الأردن في القرن العشرين، ط (١)، ١٩٥٩م، عمان، الأردن.

هاشم، عبد الهادي: (رئيس التحرير مع آخرون): الموسوعة الفلسطينية (القسم العام) في (٤) مجلدات، ط (١)، ١٩٨٤م، مطابع ميلانو ستامبا الايطالية، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، سوريه.

يعقوب، أميل: الخط العربي (نشأته، تطوره، مشكلاته، دعوات إصلاحه)، ط١، ١٩٨٦م، جروس برس، طرابلس، لبنان.

المصادر والمراجع الأجنبية

Başbakanlık Osmanlı Arşivi Kataloğu, 1995, Ankara, Turkey.

Coheb, Amnon, *Palestine in the 18th Century*, the Hebrew University, 1973, Jerusalem.

Costaz, L., 1963 Dictionaire Syriaque-Français, Syriac- English Dictionary, Beirut: Imprimerie Catholique. قاموس – سرياني – عربي

Eminoglu, Mehmet, *Osmanlı Vesikalarını Okumaya Giriş*, Türkiye Diyanet Vakfı, 2003, Ankara.

Gesenius Hebrew and English Lexice, 1976 ,Oxford, at the Clarendon Press.

Öztuna, Yılmaz, *Devletler ve Hanedanlar: Türkiye (1074-1990)* vol. 2, Kültür Bakanlığı Yayınları, 1990, Ankara.

Sertoğlu Midhat, *Osmanlı Tarihi*, Enderun Kitabevi, Istanbul. , Turkiye.

العمارة العثمانية في مدن شرق الأردن "السلط أنموذجاً"

عمر عدنان علي الشخيبي *

مقدمة

دخلت بلاد الشام في الحكم العثماني بعد إنتصارهم على المماليك في معركة "مرج دابق" عام "٩٢٢هـ - ١٥١٦م" وأستمرت هذه السيطرة قرابة ٤٠٠ عام، شهدت المنطقة فيها حالة من التقدم في الجانب العمراني أدى إلى ظهور تطور في العديد من المدن. غير أنه من السهولة بمكان ان نلاحظ إنحسار الدراسات العلمية لهذه الحقبة الهامة من تاريخ المنطقة في بعض العواصم والمدن الكبرى.

وبإعتبار مدينة السلط من المدن التي شهدت تطوراً حضارياً و عمرانياً كبيراً في الحقبة المتأخرة للدولة العثمانية، و تحديداً في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، اشتملت على نمو تجاري و اجتماعي وعمراني جعلتها من المدن العظام و المدينة الأولى في شرقي الأردن[١] في هذه الفترة ومجالاً خصباً لدراسة التراث العثماني في منطقة جنوب بلاد الشام، وليس ادل على ذلك من تبني المؤتمر التاسع للآثار في البلاد العربية الذي عقد في صنعاء في أيلول

* جامعة البلقاء التطبيقية، كلية السلط للعلوم الإنسانية

(١) المقتبس، العدد ٩٥٦، (١٣٣٠هـ - ١٩١٢م)، ص ١

عام ١٩٨٠ م الحملة التي ساهمت فيها منظمة اليونسكو توصيه لصيانة المباني التراثية في مدينة السلط

وبيوتها المميزة نظراً لقيمتها الأثرية الهامة. ولما كانت هذه المدينة تحمل كل هذا الزخم العمراني جعلت مشاهدات المهتمين محفزاً حقيقياً لدراسة هذه البيوت والمباني عموماً.

وفي هذه الدراسة البسيطة نسلط الضوء على عمارة البيوت من حيث: عناصرها المعمارية وتصميمها للفضاء الداخلي وتخطيطها ونتلمس طرازها المعماري بعد تتبع السياق العام لتخطيط المدينة وعمارتها الذي تولد ضمنه الطراز المعماري لهذه البيوت.

مدينة السلط، لمحة تاريخية

١ - تسمية المدينة

تناول الباحثون تسميه مدينة السلط من جوانب عدة، وكانت هذه الدراسات في موقع خلاف دائم للعودة إلى أصل الكلمة ومنشأها، لذا يمكن أن نتعرض بشكل مختزل لهذه التسمية وتحولاتها.

فمن الراجح أن أصل تسمية مدينة السلط يعود إلى كلمة سالتوس "Saltus" والتي تعود إلى العهد الروماني والبيزنطي، حيث كانت تسمى سالتوس هيراتكوس "Saltus Hieratcus" وتعني سالتوس المقدسة(٢)، أما كلمة سالتوس "Saltus" فتعني "الأرض الحرجية" أو "الواد الضيق الشديد

---

(2) Conder, Claude, Hath and Moab: Exploration in Syria in 1881 and 1882, published for the committee of the Palestine Exploration Fund by A. P watt London, (1882) p. 185.

الانحدار"(٣)، بينما يرى الدباغ أن أصل الكلمة هو "سلطا" السريانية بمعنى "الصخور والحجر القاسي"(٤)، وعلى الرغم من استخدام المصادر العربية لكلمة "الصلت" بشكل كبير وخصوصاً في العصور المملوكية والأيوبية (٥) إلا أن تسميه السلط كانت سارية هي أيضاً وهي الأصل لأن هذه التسمية أقدم من الفتح الإسلامي(٦)، ويدل على ذلك أقدم المراجع التاريخية التي أوردت اسم (السلط) بهذه الصياغة وهي كتاب الجغرافيا لأبن سعيد(٧) وكتاب شيخ الربوة المسمى "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر(٨) وذلك بوصفها حصناً عظيماً في الشام بناه الملك المعظم عيسى. لذلك من الأرجح أن تحول الاسم من السلط إلى الصلت جاء من تعرضها لإقلاب في الحروف وهو الأمر المعروف في اللغات السامية لتقارب مخارج السين والصاد والتاء والطاء، إذ إن الإقلاب بين حروف الصغير ز - س - ص يكون سهلاً وجائزاً كذلك في الحروف النطعية د- ت - ط (٩) ومما يؤكد ذلك قول الزبيدي "وأهم من كتبه بالصاد والتاء"(١٠) وعليه يمكننا القول "أن أسم السلط مأخوذ من الكلمة اللاتينية

(٣) أبو طالب، محمود، (٢٠٠٦)، من السلط إلى القدس (أبحاث في تاريخ الأردن وفلسطين القديم) ترجم الأصول الانجليزية: عمر الغول/ عمان/ الأردن/ المقتبس،، ص ٧٥.

(٤) الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، (١٩٧٠م) -الجزء الثاني- ط ١ - حيفا - فلسطين - دار الهدى -ص ٥٩٩.

(٥) مؤسسة اعمار السلط، (١٩٨٩م)، السلط تاريخ وصوره، عمان، الأردن، بالتعاون مع متحف الآثار السياحية (جامعة هارفاد) - ص، ١٣.

(٦) الدباغ - بلادنا فلسطين / مرجع سابق / ص ٥٩٩.

(٧) المغربي، ابن سعيد نور الدين أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥ هـ) - (١٩٧٠م)- كتاب الجغرافيا - تحقيق اسماعيل العربي - لبنان - بيروت - المكتبة التجارية، ص ١٥٢.

(٨) شيخ الربوة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الانصاري (ت ٧٢٧ هـ) - (١٩٦٣م) - نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، العراق، بغداد - مكتبة المثنى، ص ٢٠١.

(٩) سعيسعه، - الحفاظ على البيوت التراثية في وسط مدينة السلط - مرجع سابق - ص ١١.

(١٠) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥ هـ)، (١٩٨٠)- تاج العروس من جواهر القاموس جزء ١٩ - تحقيق، عبد الحليم الطحاوي، الكويت - الكويت، وزارة الآثار والأنباء،ص. ٣٧٦.

"Saltus"، وطبوغرافية السلط هي سالتوس بالمعنى الحرفي"(١١) أي أنها وادي شديد الانحدار.

٢- المدينة في العهد العثماني

جاءت النهضة الحقيقية لمدينة السلط على اثر خروج إبراهيم باشا من بلاد الشام في عهد محمد علي باشا، حيث شكلت هذه الفترة مفصلاً مهماً في الحياة الإدارية أستفادت منها الدولة العثمانية، بعد أن "أنهت إدارة محمد علي باشا عهد الحكم السطحي وفتحت صفحة جديدة في إدارة إيالة الشام (ولاية الشام) بأجمعها"(١٢).

تمثلت هذه النهضة في عدة مجالات نذكر منها -على سبيل المثال لا الحصر- المجال الإداري الذي بدأ فيه تطبيق التنظيمات العثمانية (١٣)، حيث استقرت التبعية الإدارية للمدينة في عام ١٨٩٢م بوصفها قضاء تابع للواء الكرك الذي يتبع بدوره إلى ولاية سوريا (١٤).

وكان التنظيم العثماني في هذه الفترة يُقسم الدولة إلى ولايات، والولاية تنقسم بدورها إلى ألوية، وتنقسم الألوية إلى الأقضية، وتنقسم الأقضية إلى

---

(١١) أبو طالب - محمود، من السلط إلى القدس (أبحاث في تاريخ الأردن وفلسطين القديم) - مرجع سابق - ص ٧٦.

(١٢) أبو الشعر - هند - (٢٠٠٠م) - تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني - الأردن - عمان - اللجنة العليا لكتابة تاريخ الأردن - ص ١٥٣.

(٦) التنظيمات "الخيرية" أسم أطق أساساً على مرسومين إصلاحيين صدرا في عهد السلطان عبد المجيد الاعلان الأول في (١٨٣٩م) ويدعى "خط كلخانه" والثاني في عام (١٨٥٦م) ويدعى "خط التنظيمات الخيرية" وشكلت هذه الحركة اصلاحات هامة في الجيش والمالية ومختلف قطاعاتالدولة العثمانية/ انظر - عوض - عبد العزيز محمد - الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ - ١٩١٤م - (١٩٦٩م) - مصر - القاهرة - دار المعارف بمصر - ص.ص ١١ - ١٢.

(١٤) داود، جورج (١٩٩٤): مدينة السلط وجوارها الفترة ١٨٦٤-١٩٢١-الأردن- عمان- بنك الأعمال - ص ٩٥.

نواحي وقرى [15]. وعليه أشرف على إدارة مدينة السلط قائمقام يعتبر رأس إدارة قضاء السلط يختص بالأمور المالية، ومسؤول عن تنفيذ جميع أوامر الدولة وتعليماتها التي تأتيه عن طريق المتصرف[16]، كما يتم إدارة القضاء من خلال مجموعة من الدوائر الحكومية كدائرة تحصيل قومسيون ودائرة البريد (تلغراف بوسته) ودائرة الحراج (الأورمان) [17]، بالإضافة إلى غرفة التجارة (إدارة التجارة) وغرفة زراعة (إدارة الزراعة) ومجلس إدارة القضاء [18] وبلدية السلط و يدير أعمالها المجلس البلدي.

كما شهدت المدينة تطوراً تجارياً ملموساً، ففي بداية القرن التاسع عشر كانت المدينة تحتوي على "عشرون حانوتاً تبيع بالجملة بضائع لتجار الناصرة ودمشق ونابلس والقدس وتزود البدو بأصناف اللباس والأثاث [19]. وفي منتصف القرن التاسع عشر إزدهرت الحركة التجارية في المدينة، وأصبحت مركزاً تجارياً هاماً في بلاد الشام تحتوي على البضائع المحلية والمستوردة مثل: الأقمشة المصنعة في مانشستر [20]، حتى اصبح بالإمكان إحصاء (١٤٨) حانوتاً مع مطلع القرن العشرين [21].

---

(٢) الدستور العثماني - (١٣٠٣ ﻫ)، ترجمة نوفل نعمة الله، لبنان، بيروت، المطبعة الأدبية، ج ١، ٣٩٩ - ٤١٥.

(١٦) المرجع نفسة - ج ١ - ص.ص ٤٠٦ - ٤٠٧.

(١٧) حول وظائف كل دائرة وآليات عملها ونظامها الاداري - انظر أبو الشعر/ تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني - مرجع سابق - ص.ص ٢١٢ - ٢٢٨.

(١٨) الداوود - جورج/ السلط وجوارها - مرجع سابق - ص.ص ٤٧ - ٤٨.

(١٩) بيركهارت/ يوهان - (١٩٦٩م) - رحلات بيركهارت (سوريا الجنوبية) - ترجمة: أنور عرفات - الأردن - عمان - وزارة الثقافة والإعلام - ج ٢ - ص ٧٩.

(٢٠) كوندر - كلود/ برناد الحكيم/ هنري ردجواي/ (١٩٨٤م) - رحلات في الأردن وفلسطين - ترجمة: سليمان موسى - الأردن/ عمان/ دار ابن رشد للنشر والتوزيع - ص ٦١.

(٢١) الداوود، جورج - السلط وجوارها - مرجع سابق - ص.ص ٦٧٨ - ٦٧٩ - و انظر تفصيلات جدول دكاكين السلط حسبما ورد في سجلات الأراضي.

اما من الناحية التعليمية فتشير سالنامة [٢٢] ولاية سورية سنة (١٣٠٣ هـ) إلى إنشاء مدراس جديدة في مدينة السلط، واحدة منها إسلامية ابتدائية وعدد طلابها ١٠٠ طالب [٢٣]، واثنتان غير إسلامية (طوائف مسيحية) وعدد طلابها ٨٠ طالباً [٢٤]. وبطبيعة الحال رافق هذا النمو الحضاري نمو سكاني حيث ضمت مدينة السلط ونواحيها في منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي (٨٧١) خانة [٢٥] و(٢٨) مجرداً [٢٦] و(١٠) خانات من النصارى توزعت على ثلاث محلات هي: محلة [٢٧] العوامله ومحلة الأكراد ومحلة القلعة [٢٨]. ومع حلول القرن العشرين ومع نهاية العهد العثماني للمدينة

---

(٢٢) السالنامه: كلمة فارسية الأصل مؤلفة من مقطعين الأول سال: ويعني سنة والثاني نامه: ويعني أوراق فهي بذلك تعني الأوراق السنوية أو الحولية - وهي أوراق رسمية للدولة وتشتمل على الأنواع التالية: ١- سالنامات الدولة العثمانية ٢- سالنامات العسكرية ٣- سالنامات البحرية ٤- سالنامات وزارة الخارجية ٥- سالنامات علمية ٦- سالنامات الإرصاد ٧- سالنامات الجمارك ٨- سالنامات الولايات وتعتبر هذه السالنامات من المصادر الغنية للدراسات البحثية للعهد العثماني - انظر جورج الداوود - جوانب من تاريخ الأردن وفلسطين - مرجع سابق - ص ٢٦٣ -٢٦٨.

(٢٣) عوض - عبد العزيز محمد - (١٩٦٩م) - الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ - ١٩١٤م- مصر - القاهرة - دار المعارف بمصر - ص.ص ٣٦٣ - ٣٦٦.

(٢٤) المرجع نفسه - ص.ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٢٥) الخانة: هي الأسرة وهي وحده تعداد السكان في الدولة العثمانية ويقدر الدارسون عددها بخمسة أو ستة أفراد.

(٢٦) المجرد: هو مصطلح يستخدم في تعداد السكان في الدولة العثمانية للإشارة إلى الأعزب الذي يعيش مستقلاً.

(٢٧) المحله: هي أشبه بحي سكني يضم العديد من المساكن التي ينتمي سكانها إلى قبيلة واحدة وقد حدد الدستور العثماني في تقسيمه السكاني الاحصائي أن كل خمسين بيت محله واحدة كحد أدنى وهي تساوي القرية/ انظر الدستور العثماني - مرجع سابق - ص ٤٨٠.

(٢٨) البخيت - محمد عدنان/ نوفان رجا الحمود - (١٩٩٠م) - دفتر مفصل لواء عجلون (٩٧٠) - عمان - الأردن - منشورات الجامعة الأردنية.

قسمت السجلات الفيصليه[٢٩]مدينة السلط إلى ست محلات مجموعها ٢٢٥٩ خانة (أسره) أي حوالي ١٥ ألف نسمة[٣٠]بمعدل ٧ أفراد للأسرة الواحدة تقريباً.

العمارة العثمانية في مدينة السلط، تخطيط المدينة في العهد العثماني

خضع تخطيط مدينة السلط في العهد العثماني بوصفها مدينة إسلامية إلى جملة من الأنظمة والقوانين تمركزت حول مبادئ الشريعة الإسلامية في تنظيم العلاقات الإنسانية والحضارية في المدينة[٣١] كالخصوصية[٣٢] وإزالة الضرر[٣٣] والتكافل[٣٤] وحق المستخدم الأول (أسبقية الاستعمال)[٣٥] وتنظيم استخدام الطرق[٣٦] ومصادر الماء[٣٧]، مما جعل مدينة السلط تخرج بتشكيلها الحضري التقليدي الذي يعتمد بالاساس على تخطيط المدينة من ناحية، وعلى عملية التطور التدريجية والمستمرة التي لا يمكن التنبؤ بها[٣٨].

(٢٩) السجلات الفيصليه: هي الأوراق الرسمية للسجلات المدنية في عهد تأسيس إمارة شرقي الأردن في عهد الأمير فيصل ابن الحسين بن علي (الحكومة الفيصليه) وتعتبر أول إحصاء رسمي لمدينة السلط.

(٣٠) مؤسسة اعمار السلط، (١٩٨٩م)، السلط تاريخ وصوره، عمان، الأردن، بالتعاون مع متحف الآثار السياحية (جامعة هارفارد) - ص ٣٥ - ٣٦/ وانظر سحبان خليفان/ السلط في التاريخ المكان والإنسان/ (١٩٨٤م) مجلة الثقافة - العدد ٤ + ٥/ عمان - الأردن - الجامعة الأردنية.

(٣١) القاضي، حسن عادل حسن، (١٩٩٥م) انماط الفراغات الحضرية في مدينة السلط، غير منشورة، الأردن، عمان، الجامعة الاردنية، كلية الهندسة المعمارية، ص.ص ٤٩-٥٠.

(٣٢) حول الأحكام الشرعية للعمران انظر: ابن الرامي، ابي عبد الله محمد بن ابراهيم اللخمي (ت ٧٣٤هـ - ١٣٣٤م) - (١٩٩٩م)، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق: فريد بن سليمان، تونس، تونس، مركز النشر الجامعي، ص.ص ٦٦-٦٨.

(٣٣) انظر حول أحكام ازالة الضرر، انظر: ابن الرامي، الإعلان بأحكام البنيان، المرجع نفسه، ص. ص ٥٧-٦٣.

(٣٤) انظر حول أحكام التكافل، المرجع نفسه، ص ٤٩.

(٣٥) انظر حول أحكام اسبقية الاستعمال، المرجع نفسة، ص.ص ٤٠-٤١.

(٣٦) انظر حول أحكام استخدام الطرق، المرجع نفسة، ص ١٥١.

(٣٧) انظر حول أحكام استخدام الماء ومصادرها، المرجع نفسه، ص. ص ١٧٢-١٧٣.

(٣٨) القاضي، انماط الفراغات الحضرية في مدينة السلط، المرجع السابق، ص ٦٤.

وتشير الدراسة التاريخية أن السلط مدينة ذاتية بأمتياز(٣٩)، تتوفر فيها الشروط الإسلامية للمدينة الحسنة والتي تذكرها المصادر التاريخية من حيث سعة المياه المستعذبة وامكانية الميرة المستمدة واعتدال المكان وجودة الهواء والقرب من المراعي والاحتطاب وتحصين منازلهم من الأعداء وأن يحيط بها سور يعين أهلها(٤٠).

ومما يؤكد أن تخطيط المدينة يحمل الطابع الإسلامي موقع المسجد الجامع الذي يتوسط المدينة، وكذلك السرايا أو دار الحكومة والمرافق الملحقة بها، ويرتبط وسط المدينة كذلك بالطريق السلطاني وطريق الحج(٤١)، وهذا لا يخرج عن نطاق مركزية المدينة الإسلامية والمتمثل بالأسواق المطلة على فضاء واسع في مركز المدينة يقوم بالفصل بين خطوطها(٤٢).

إن "المسجد الجامع من التكوينات المعمارية الأساسية بالمدينة الإسلامية ويمثل محوراً رئيسياً من محاور تخطيطها"(٤٣) وبالتالي كان عاملاً مهماً في توجيه مدينة السلط وشوارعها وطرقها وأزقتها، ثم نشوء المحلات بناءً على العلاقات الاجتماعية القائمة على القبلية إلى حد ما. ومن تقاليد المدينة الإسلامية كذلك جعل دار الحكم في وسط المدينة بعد اختيار الجامع، وذلك من أجل سهولة الوصول إلى مختلف النشاطات السياسية والتجارية

---

(٣٩) يقسم بعض الباحثين المدن الإسلامية إلى نوعين رئيسيين من المدن وهي: ١- مدن ذاتية تمت وتطورت عبر فترات تاريخية طويلة لعدة ظروف تتعلق بموقعها الجغرافي ومكانتها التجارية. ٢- مدن مخلوقة كان انتشاؤها مرتبط باحد من الدول أو الأمير لكي تكون عاصمة للدولة لاحقاً وقد يرتبط وجود هذه المدينة بالدولة والامير وقد تزول بزوال الدولة اوالأمير.

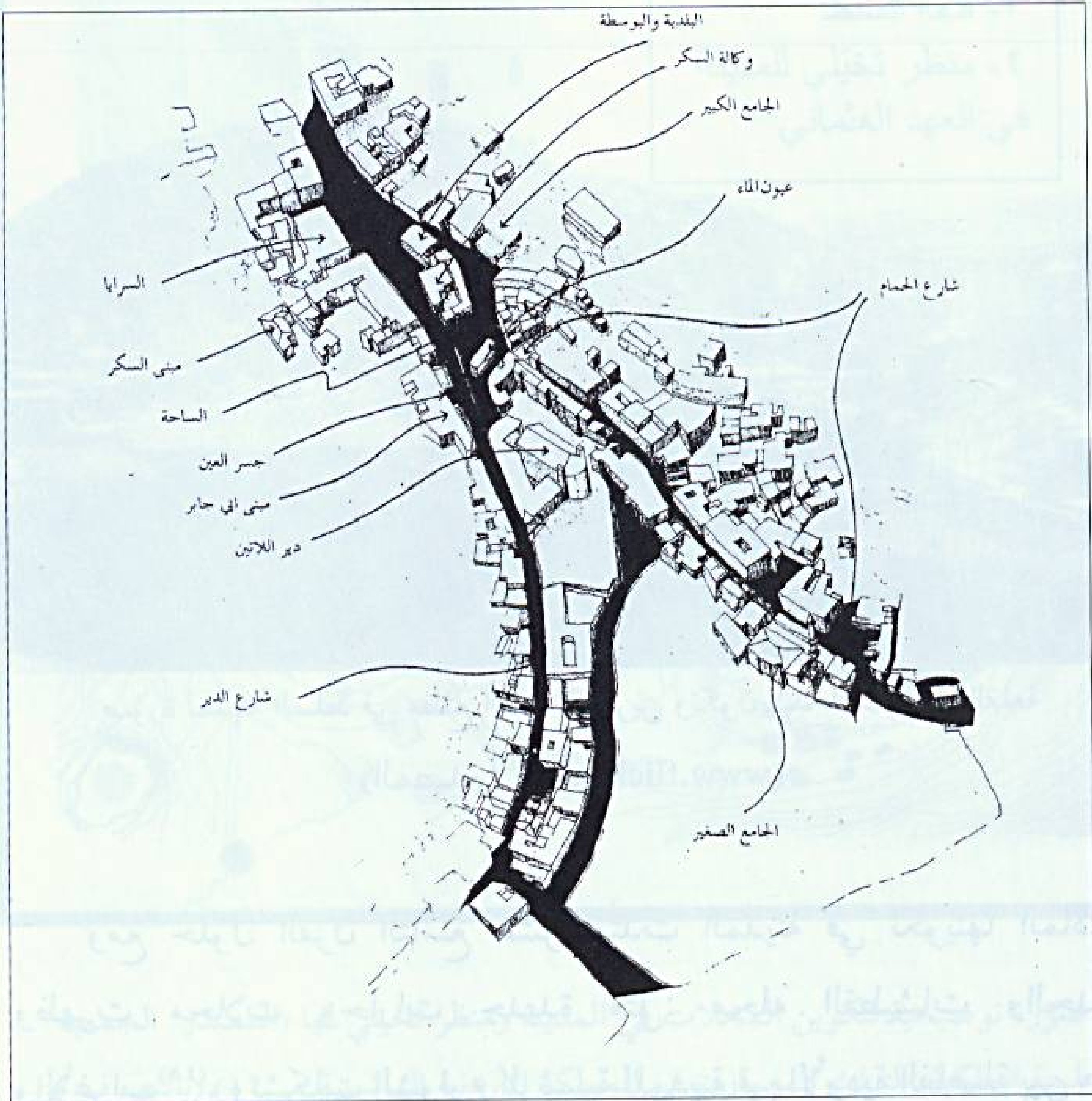
(٤٠) عثمان محمد عبد الستار، (١٩٨٨)، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، ١٢٨، الكويت، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، ص ٨٦.

(٤١) أبو الشعر، هند، تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني، مرجع سابق، ص ٥١٨

(٤٢) جودي، محمد، ١٩٩٨م، الفن العربي الإسلامي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان - الأردن، ص ٣٨.

(٤٣) عثمان، محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٥٩.

والاجتماعية(٤٤)، وهذا بعين ذاته ما كان في مدينة السلط التي قامت فيها دار الحكومة (السرايا) في الجهة المقابلة للمسجد في ساحة العين وسط المدينة(٤٥). لاحظ الشكل التالي:

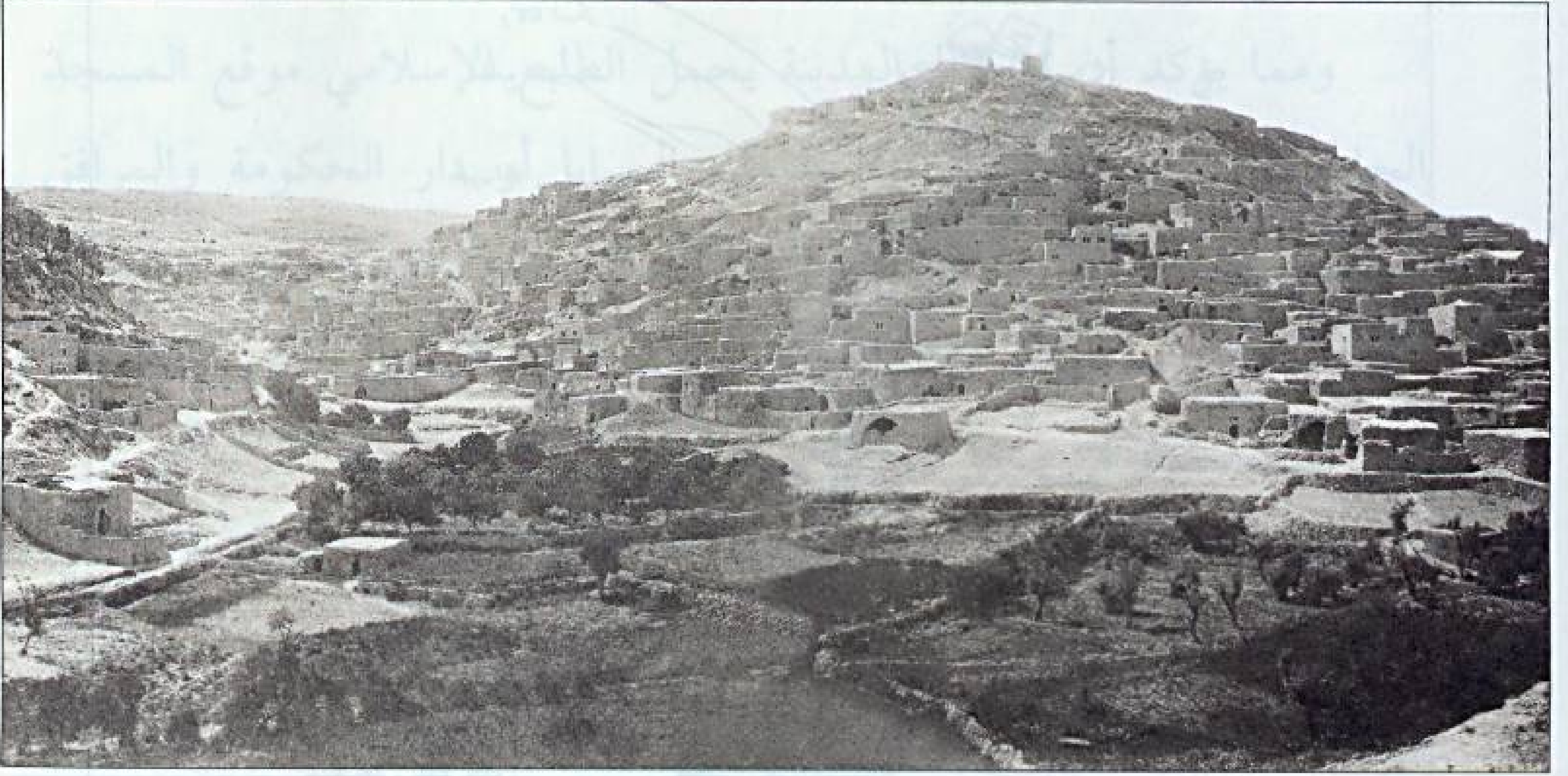


مجسم توضيحي لوسط المدينة والمباني الواقعة فيه
(المصدر: الجمعية العلمية الملكية، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية ص١١)

---

(٤٤) عثمان، محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٦٠.
(٤٥) سجل شرعي محكمة السلط رقم٣، حجة ٩٥-١٨٨٩م، ١٣٠٧هـ

وبما أن اختيار موقع المدينة ارتبط بالظروف السياسية والعمرانية والاجتماعية(٤٦)، فأننا نجد مدينة السلط تتركز في تكوينها المادي حول القلعة التي أنشئت على أطراف المدينة-عند إنشاءها- لتحقيق دفاعات إيجابية تتمثل في اتخاذ هذه القلعة حصناً للدفاع عند الهجمات التي تتعرض لها المدينة(٤٧).



صورة لمدينة السلط في مطلع القرن العشرين وتكون المحلات حول القلعة

(المصدر: www.flickr.com)

ومع حلول القرن التاسع عشر امتدت المدينة في تكوينها المادي، وظهرت محلات وحارات جديدة مثل: محله القطيشات والجدعة والأغراب(٤٨)، وتشكلت الشوارع الرئيسية للمدينة في الأودية الفاصلة بين هذه المحلات، وظهر في هذه الشوارع الرئيسية المباني الخدمية مثل: الخانات (الإسطبلات) لخدمة الخيول(٤٩).(لاحظ الشكل)

(٤٦) عثمان، محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٧٨
(٤٧) المرجع نفسه، ص ٤٥.
(٤٨) الداود، جورج، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٢٣٨-٢٣٩.
(٤٩) مؤسسة إعمار السلط، السلط تاريخ وصورة، مرجع سابق، ص ٢٢.



صورة توضيحية لتكوين المحلات في المدينة ومنظر تخيلي لها (المصدر: الجمعية العلمية الملكية، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية ص١٤) (بالتصرف من قبل الباحث)

أما الطرق الفرعية فكانت تتماشى مع الطرق الرئيسة بشكل أفقي (مع خطوط الكنتور)، ويصل بين الشوارع الرئيسة والفرعية مجموعة من الأدراج

العامة التي تسمى العقبات (جمع عقبة)(٥٠)، وذلك بسبب صعوبة صعودها إلى حيث أنها تنتقل من منسوب الشارع الرئيسي في الواد إلى الشوارع الفرعية في السفوح ضمن ارتفاعات عالية نسبياً.

وفي خضم هذا التسارع في التطور العمراني للمدينة تأسست في عام ١٨٩٢م بلدية السلط(٥١) وتشكل أول مجلس بلدي للمدينة واشتمل عمله على أداء المهام المتعلقة بمراقبة الأبنية والإشراف على المواقع العامة وفتح وتسهيل الشوارع وتسهيل وسائل النقل ومراقبة الأوزان والمقاييس ومراقبة تنظيم الطرق داخل المدينة والإشراف على النظافة العامة للمدينة(٥٢)، وانعكس عمل هذا المجلس بطبيعة الحال على الحياه العمرانية للمدينة بشكل واضح، حيث أصدرت تراخيص البناء بناءً على الشروط العامة لتنظيم المدينة(٥٣)، وفي فترة لاحقة تم إنارة الشوارع من قبل البلدية بواسطة مصابيح تعمل بالنفط يتم تزويدها وصيانتها بواسطة متعهد سنوي مأجور لهذه المهمة(٥٤).

الأبنية العامة

١ - مبنى السرايا (دار الحكومة)

ويعتبر أقدم المباني الإدارية للدولة العثمانية في المدينة(٥٥)، بني عام (١٨٦٩م)، وهو بناء من الحجر الأصفر المجلوب من مقالع السلط(٥٦)، و

(٥٠) الجمعية العلمية الملكية، (١٩٩٠م)، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية، مجلد ١، عمان- الأردن، الجمعية العلمية الملكية، ص ٩.

(٥١) الخريسات، محمد عبد القادر، (١٩٩٧م) دراسات في تاريخ مدينة السلط (الصلت)، الاردن، عمان، وزارة الثقافة الاردنية ص ٥٠.

(٥٢) الدستور العثماني، ترجمة: نوفل نعمة الله، ج ١، مرجع سابق، ص ٤٢٠.

(٥٣) الخريسات، محمد عبد القادر، دراسات في تاريخ مدينة السلط، مرجع سابق، ص ٥٢.

(٥٤) سجل بلدية السلط، رقم ٣، (١٩٢٣م)، ص ٢٨٨.

(٥٥) أبو الشعر، تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني، مرجع سابق، ص ٥١٩.

(٥٦) مؤسسة إعمار السلط، السلط تاريخ وصورة، مرجع سابق، ص ٢١.

يتكون من طابقين خصص الأول منها سجناً للموقوفين(٥٧)، وبقي الأمر على هذه الصورة إلى أن أزيل البناء(٥٨) في عام(١٩٦٥م)(٥٩)، ولا تسعفنا المراجع والدراسات في تكوين صورة معمارية وافية عن المبنى إلا على سبيل الاختصار حيث كان يتم الدخول إلى هذا الطابق" السجن"عن طريق بوابة حديدية كبيرة تفضي إلى ساحة واسعة، ويوجد بها أيضاً بوابات السجن الثلاثة(٦٠).

أما الطابق الثاني فكان يتم الوصول إليه عن طريق شاحطين من الدرج الخارجي يلتقيان على بوابة الطابق الثاني الذي خصص الجزء الأيمن منه لمكتب قائمقام السلط ومعاونوه أما الجزء الأيسر فكان يشغله أعضاء الحكومة وجنود الدرك(٦١) وفي الوسط كانت الدوائر الحكومية الأخرى مثل مدير الصحة(٦٢)، وتم استئجار المبنى المجاور للسرايا كإسطبل لخيول الدرك(٦٣)، أما سقف السرايا فقد كان مغطى بالقرميد الرمادي(٦٤).

٢-جامع السلط الصغير

يقع جامع السلط الصغير في نهاية شارع الحمام(٦٥) على قطعة أرض تم إيقافها لغاية بناء الجامع(٦٦) وقد بدء بناء الجامع في ربيع الأول (١٣٢٤هـ) ٧

(٥٧) أبو الشعر، تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني، مرجع سابق، ص ٥١٩.
(٥٨) مؤسسة إعمار السلط- السلط تاريخ وصورة، مرجع سابق، ص ٢١.
(٥٩) الداوود، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٣٢١.
(٦٠) المرجع نفسه، ص ٣٢١.
(٦١) صحيفة البشير، عدد ٩٨١، أيلول (١٨٨٩م-١٣٠٦هـ)، ص ٢.
(٦٢) أبو الشعر، تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني، مرجع سابق، ص ٥١٩.
(٦٣) مؤسسة إعمار السلط، السلط تاريخ وصورة، مرجع سابق، ص ٢١.
(٦٤) الداوود، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٣٢١.
(٦٥) الجمعية العلمية الملكية، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية، مرجع سابق، ص ١٥٠.
(٦٦) الخريسات، محمد عبد القادر، دراسات في تاريخ مدينة السلط، مرجع سابق، ص ١٨٢-١٨٣.

نيسان ١٩٠٦م، وتمت عمارته في ربيع الأول (١٣٢٥هـ) ٣١ آذار ١٩٠٧م[٦٧]، لذلك يعتبر هذا الجامع أقدم الجوامع العثمانية في المدينة الأكثر تعبيراً عن وتاريخ العمارة العثمانية في وشرقي الأردن.

وقد أشرف على بناء الجامع المعماريان سليمان أو الخصة وأحمد الغنمة، وهما من أهل مدينة نابلس[٦٨] وتم التعاقد كذلك مع نقاشي الحجارة[٦٩] والحجارين[٧٠] والشيادين[٧١] والعمال "الفعالة"[٧٢] لإنجاز البناء، وبلغت تكاليف إنشائه آنذاك حوالي (٣٤٣٢١,٥) قرشاً عثمانياً تشمل أجرة العاملين وكلفة البناء والمواد المستعملة من حجارة وبلاط وطراشة[٧٣]، وقد ساهم سكان المدينة في بناء هذا الجامع بشكل فعال من الناحية المادية من خلال جمع التبرعات[٧٤]، و من ناحية المساهمة المباشرة في أعمال البناء، حيث تشير السجلات العثمانية إلى مساهمة الأهالي في جمع الحطب المستخدم في عملية البناء للجامع[٧٥].

---

(٦٧) أبو الشعر، هند، تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني، مرجع سابق، ص ٥١٩.

(٦٨) سجل شرعي محكمة السلط، رقم ١٢، الحجة رقم ٦، ١٢ ربيع الأول، ١٣٢٤هـ/١ نيسان ١٩٠٦م، ص ٣.

(٦٩) المرجع نفسه، حجة رقم ٥، ص ٢-٣.

(٧٠) المرجع نفسه، حجة رقم ٦، ص ٣.

(٧١) المرجع نفسه، حجة رقم ١+٢، ص ١.

(٧٢) المرجع نفسه، حجة رقم ٧، ص ٤.

(٧٣) سعيسه، ربا، الحفاظ على البيوت التراثية في وسط مدينة السلط، مرجع سابق، ص ٣٨.

(٧٤) الجمعية العلمية الملكية، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٧٥) سجل شرعي محكمة السلط، رقم ١٢، حجة رقم١٢، ١٢ ربيع الأول ٣١٢٤هـ/٧ نيسان، ١٩٠٦م، ص ٦.

الوصف المعماري للجامع

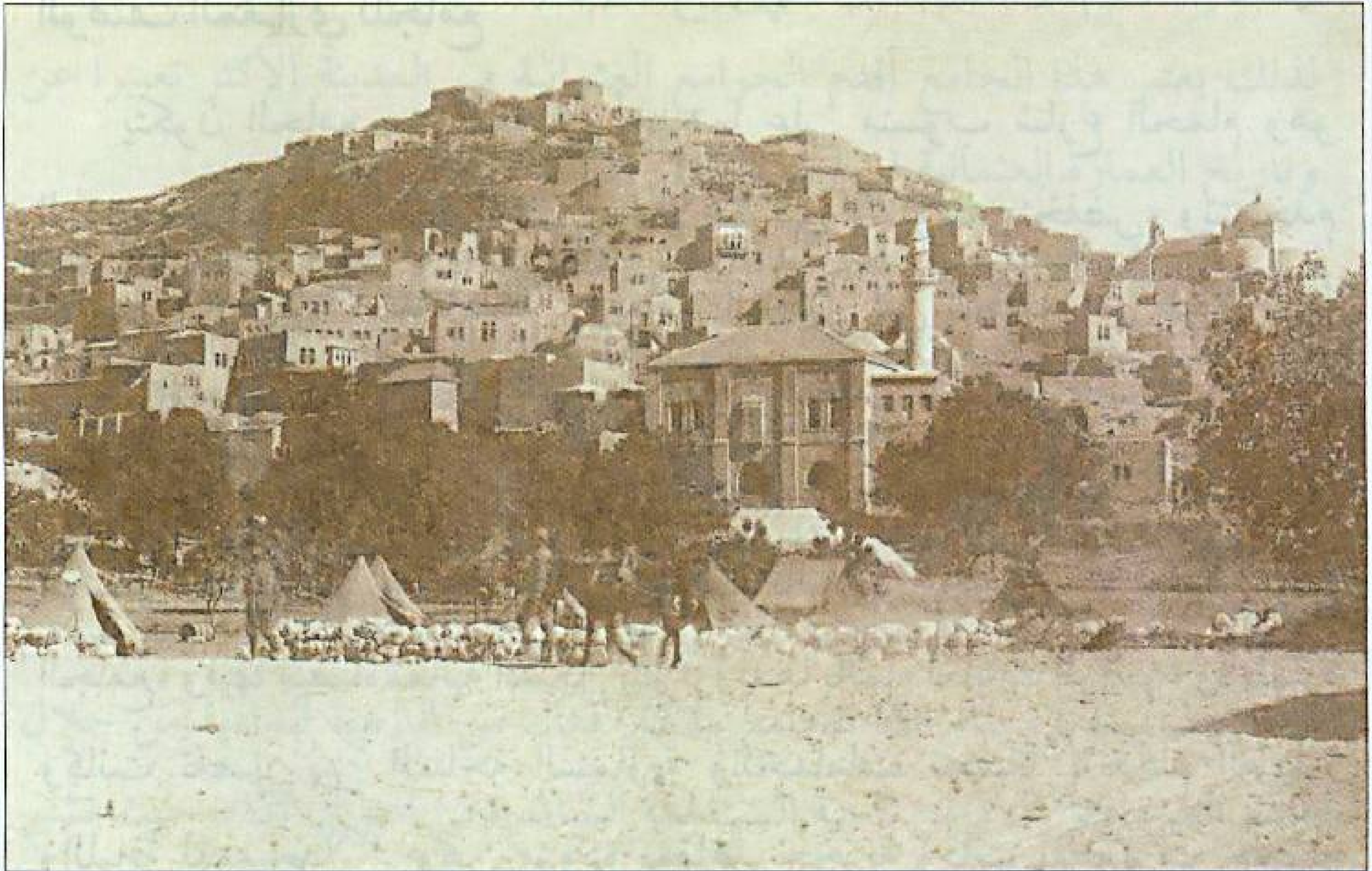
يتكون الجامع من طابقين: أحدهما على منسوب شارع الحمام وهو المستخدم للصلاة(الطابق الثاني)، والآخر ذي منسوب منخفض، ويستخدم كمستودع وطابق للخدمات(٧٦). ويمكن الدخول إلى الجامع عن طريق بوابة بسيطة تقع في الطابق الثاني من خلال شارع الحمام، وعلى الجانب الغربي للمبنى يقع درج يوصل إلى الطابق الأول المستخدم للخدمات(٧٧) والمدخل الرئيسي يفضي إلى ساحة مكشوفة مبلطة بالبلاط الحجري(٧٨) تعتبر صحن الجامع، وفيها ميضأة ثمانية الشكل يتم تزويدها بالماء لغايات الوضوء والطهارة وكانت تفصل بين الساحة السماوية والحمامات تحقيقاً لأحكام الطهارة واللياقة للمسجد(٧٩). وهي مزودة بمقاعد حجرية وذات تفصيلات حجرية بسيطة.

(٧٦) الجمعية العلمية الملكية، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية، مرجع سابق، ص ١٥١.

(٧٧) المرجع نفسه، ص ١٥١.

(٧٨) الداوود، جورج، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٣٢٤.

(٧٩) الزركشي، محمد عبدالله،(ت ٧٩٤هـ)-(١٩٩٩م)، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق: أبو الوفاء مصطفى المراغي، الطبعة ٥، مصر، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، ص ٣٨٣.



صورة لمدينة السلط يظهر فيها الجامع الصغير عام ١٩١٨م

(المصدر: www.aaustralian war memorial. com)

أما المئذنة فتقع على الزاوية الشمالية الشرقية لصحن الجامع وهي مبنية من الحجر الأصفر الكلسي ومفصولة عن بناء الجامع نفسه[٨٠]. تعتبر غاية في البساطة والجمال وتتكون من العناصر التالية:

١. البدن: وهو أسطواني الشكل تتخلله بعض الكور لإدخال الإنارة إلى داخل المئذنة، ويتركز البدن على قاعدة مستطيلة الشكل تشكل جزءاً من الواجهة الرئيسة للطابق الثاني في الجامع.

٢. الشريط الزخرفي: وهو ثلاثة أشرطة تلتف في نهاية أعلى البدن، واحدة تحت المقرنص والثانية أعلى المقرنص والثالثة أعلى

(٨٠) الجمعية العلمية الملكية، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية، مرجع سابق، ص ١٥٢.

الدربزين، ويتكون من نقش حجري دقيق أشبه بالكرنيش السائد في عمارة المدينة.

٣. المقرنص"الدلايات": وهي من المقرنص البسيط[٨١]، عبارة عن تفصيل حجري غاية في الجمال والدقة يستخدم في الانتقال من مستوى معماري إلى مستوى آخر أكثر اتساعاً أو من شكل إلى آخر كالانتقال من المربع الثماني مثلاً.

٤. الدربزين: ويتألف من سياج حجري يتخلله ثمان فتحات عريضة يتوسط كل فتحة منها ثلاث قطع حجرية مشكلة بطرية الخرط المحوري.

٥. الشرفة: وهي ما ينتج عن التوسعة في المساحة التي تأتي من المقرنص مما يشكل مساحة للمؤذن للوقوف فيها[٨٢]، وتتخذ شكل دائري يلتف حول المئذنة.

٦. المضلة: وتتخذ الشكل المضلع، الذي يعلو الشرفة بغرض حماية المؤذن من حر الصيف وبرد الشتاء، وهي مصنوعة من الواح حديدية رقيقه وترتكز على أعمدة بسيطة قاعدتها الجزء العلوي من الدرابزين.

٧. الجوسق: وهو أسطواني الشكل يعتبر امتداد للبدن وبسيط التكوين يحتوي على باب المؤذن الذي يوصل إلى الشرفة وقطره أقل من قطر البدن.

---

(٨١) الخصاونة، ثابت محمد علي، (٢٠٠١م)، المئذنة في العمارة الإسلامية المبكرة، (غير منشورة)، الأردن، اربد، جامعة اليرموك، معهد الآثار الأنثروبولوجيا، ص ١٠٠.

(٨٢) الخصاونة، المأذنة في العمارة الإسلامية المبكرة، مرجع سابق، ص ١٠١.

٨. القبيبة" القلنسوة"(٨٣): وتتخذ الشكل المخروطي ترتفع فوق الجوسق وتعتبر نهاية البناء الحجري للمأذنة.

٩. الهلال(٨٤): وهو ذو تركيب بسيط يتكون من تفاحة وهلال يتجه للأعلى ينسجم مع بساطة البناء وتناسقه(٨٥). والشكل التالي يبين هذه العناصر على المئذنة.



صورة تفصيلية للمأذنة (المصدر: الباحث)

أما بيت الصلاة فيمتاز بارتفاع سقفه المغطى بالقرميد الأحمر، وتحتوي واجهة القبلة فيه على المحراب الذي يشكل تجويفاً نصف دائري في منتصف الجدار وعلى جانبيه أعمدة حجرية تم زخرفة تيجانها بزخرفة بسيطة تشبه أوراق الشجر، وقاعدة العامود أسطوانية ترتكز على مكسلة مربعة الشكل.

وعلى يمين المصلى أو يسار المحراب يقع المنبر، وهو مصنوع من الحجارة ويمتاز ببساطة التركيب والارتفاع، ويتم الصعود عليه بوساطة درجات

---

(٨٣) المرجع نفسه، ص ١٠٤.

(٨٤) وزيري، يحيى(١٩٩٩م)، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، ج ٢، مصر- القاهرة، مكتبة مدبولي، ص ١٢١.

(٨٥) حول عناصر المأذنة ووظائفها وأشكالها انظر الخصاونة، المئذنة في العمارة الإسلامية المبكرة، مرجع سابق، ص ٩٧-١٠٤.

حجرية تنتهي بمنصة الخطابة التي تعلوها قبة مخروطية الشكل أشبه ما تكون بالقلنسوة التي تعلو المئذنة.

ويتم تأمين الإنارة لبيت الصلاة عن طريق أربع نوافذ في الواجهة الأمامية نفسها، اثنتين على يمين المحراب واثنتين على يسار المحراب تنتهي بعقد موتور، بالإضافة إلى نوافذ أخرى في الواجهة الرئيسية التي تؤمن الإنارة عن طريق الساحة المكشوفة (صحن الجامع)، وفي أعلى واجهة القبلة يوجد أيضاً ثلاث قمريات دائرية الشكل موزعة على الواجهة وذات حشوات زجاجية ملونة لاحظ الصورة.



قمريات المسجد (المصدر الباحث)

ويلحق الجامع مجموعة من الدكاكين الصغيرة والتي ما زالت تعمل حتى اليوم وتعتبر وقفاً للجامع منذ بنائه.

وعلى الرغم من دخول بعض العناصر الهجينة على عمارة الجامع مثل: القرميد المستورد، إلا أنه تمسك بالطابع العام لتخطيط المسجد وعناصره[٨٦] التي تعبر عن متطلبات الدين الإسلامي وحاجاته الوظيفية وعناصره الجمالية المميزة للطراز الإسلامي في العهد العثماني.(لاحظ ملحق المسجد الصغير).

البيوت العثمانية في مدينة السلط

تأتي عمارة البيوت استجابة للشروط المناخية والبيئية وتلبية للحاجة الاجتماعية بكل أشكالها وأبعادها[٨٧]. ومن هنا فإن الإطار العام للبيوت التراثية في مدينة السلط لا تخرج عن كونها بيوتاً إسلامية ساد فيها النظام العثماني عدة قرون، فبالرغم من الاختلاف الذي تعكسه الظروف المناخية والطبيعية من وفرة مواد البناء ونوعية تلك المواد إلا أن الإطار العام لهذه البيوت يأتي متفقاً مع البيت الإسلامي من حيث توافق الرؤية الاجتماعية والدينية لوظيفة البيت[٨٨]، وبعبارة أخرى نقول أن الفهم المشترك لوظيفة البيت يكون الأساس الفلسفي الذي ينطلق منه تصميم البيت بالمنظور الإسلامي (ما هي وظيفة البيت وكيف تحققها بالرؤية الإسلامية)، بينما تكون الظروف البيئة سبباً في اختلاف شكل البيت وطريقة تنفيذه.

---

(٨٦) حول عناصر المساجد وتأصيلها انظر، حسين مؤنس (١٩٨١م) المساجد، سلسلة عالم المعرفة،٣٧ الكويت، الكويت المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب.

(٨٧) زين العابدين، محمود، (١٩٩٨م)، جولة تاريخية في عمارة البيت العربي والبيت التركي، لبنان، بيروت، دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع، ص ١٨.

(٨٨) المرجع نفسه، ص ١٨.

ومن خلال الدراسة لاصناف البيوت في مدينة السلط يمكننا تقسيم هذه البيوت إلى: البيت التقليدي البسيط[٨٩] والبيوت ذات الطراز المعماري الإقليمي (بيوت الأغنياء)[٩٠].

١- البيت التقليدي (البيت الفلاحي):

تبنى هذه البيوت من الحجارة الغير منتظمة ويستخدم الطين والتبن (القش) كمادة للتثبيت[٩١]، ويتكون في أغالب الأحيان من غرفة واحدة صغيرة أو غرفتين، وقد يزداد عدد هذه الغرف بحسب أفراد الأسرة[٩٢]. ويمتاز البيت الفلاحي بأنه بسيط، وجد كل عنصر فيه من أجل تحقيق الوظائف اليومية بامتياز، حيث نجد أمام البيت ساحة سماوية في أغلب الأحيان تشكل مجال العمل اليومي، وتحتوى على بركة ماء[٩٣] وطابون[٩٤] (فرن)، وقد تمتد هذه الساحة وتتسع حتى تحتوي أكثر من بيت لعائلات يجمعها النسب والقرابة [٩٥]وتعرف حين إذن بالحوش [٩٦] الذي يحوي بدوره أماكن لإيواء الحيوانات قد يكون في الأصل مغارة طبيعية في الصخر[٩٧]، كما يحوي مكان خاص

---

(٨٩) سعيسعة، ربا، الحفاظ على البيوت التراثية في وسط مدينة السلط، مرجع سابق، ص ٤٣.
(٩٠) الداوود، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٣٥٣.
(٩١) مؤسسة إعمار السلط، السلط، تاريخ وصورة، مرجع سابق، ص ٣٩.
(٩٢) الداوود، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٣٤٩.
(٩٣) سجل شرعي محكمة السلط، رقم٢، حجة ١٢، (١٣٠٢هـ/١٨٨٤م)، ص ١٢.
(٩٤) المرجع نفسه، حجة ٢٧، ص ٣٢.
(٩٥) ، من الأمثلة عليها حوش العربيات وحوش الرشدان، انظر \ الخريسات، دراسات في تاريخ مدينة السلط، مرجع سابق ص ٤٢.
(٩٦) يجب التفريق بين الحوش العام هذا وبين الحوش الخاص لكل بيت والذي يرتفع عن الحوش العام ويقع في مدخل البيت الفلاحي ويستخدم في بعض الأعمال اليومية واستقبال الضيوف صيفاً، انظر سجل شرعي محكمة السلط، رقم ٢، حجة ٣٨، ص ٤٦، وانظر أحمد طارق، تحليل الطرز المعمارية للمباني السكنية في فلسطين في الفترة العثمانية.
(٩٧) سجل شرعي محكمة السلط، رقم ٢، حجة ٣٤، ص ٤١.

لحفظ أداوت العمل اليومي للفلاح وهي ما يعرف بالخشة[٩٨]، وتعتبر هذه الساحة السماوية جزءاً مهماً من البيت وتابعة له عرفاً و ملكاً، حيث تورد السجلات الشرعية لمحكمة السلط هذه الساحة كعنصر أساسي من عناصر البيت عند المبايعة كما يلي" المشتملة على ساحة سماوية وبيت واحد"[٩٩]، وذلك جميع البيوت والساحة السماوية التابعة للبيت المذكور[١٠٠]، وهذا يؤكد بطبيعة الحال على ثبات فكرة الفناء في بيوت مدينة السلط العثمانية بوصفه حلاً مثالياً أيقوني للرؤية الإسلامية للبيت ووظائفه بغض النظر عن حجم أو شكل أو مستوى البيت ومن الأمثلة على هذه البيوت.

بيت الخطيب

ويقع البيت في الطابق الأرضي من تجمع مباني الخطيب في منطقة الساحة، ويعتبر من أقدم بيوت المنطقة، إذ يقدر تاريخ بنائه في عام(١٨٦٠)م[١٠١]، وما زال البيت محافظاً على الطابع التقليدي الأصيل[١٠٢]، ويتم الوصول إليه عن طريق درج عام من ساحة العين وسط المدينة يعرف باسم (عقبة الخطيب)[١٠٣]، ويتكون البيت من طابق واحد مبني بالحجر والطين ويقسم إلى قسمين: أحداهما استخدم ديواناً للضيوف[١٠٤]، والآخر استخدم

---

(٩٨) الخشة: في فترة الدراسة تعني بناء له جدر وسقف كله أو نصفه خشب وغالباً ما يكون بجوار البيت، انظر الداوود جورج، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٣٤٩، وانظر سجل شرعي محكمة السلط، رقم ٢، حجة ٣٤، ١٣٠٣هـ.

(٩٩) سجل شرعي محكمة السلط، رقم ٢، حجة ٥٥، ص ٧٠.

(١٠٠) المرجع نفسه، حجة ٧، ص ٤.

(١٠١) سعيسعة، الحفاظ على البيوت التراثية في وسط مدينة السلط، مرجع سابق ص ١٢٢.

(102) Creater Salt Manicipality K (2003), As-Salt the Most Important Buildings In salt- Amman, Jordan. p. 23.

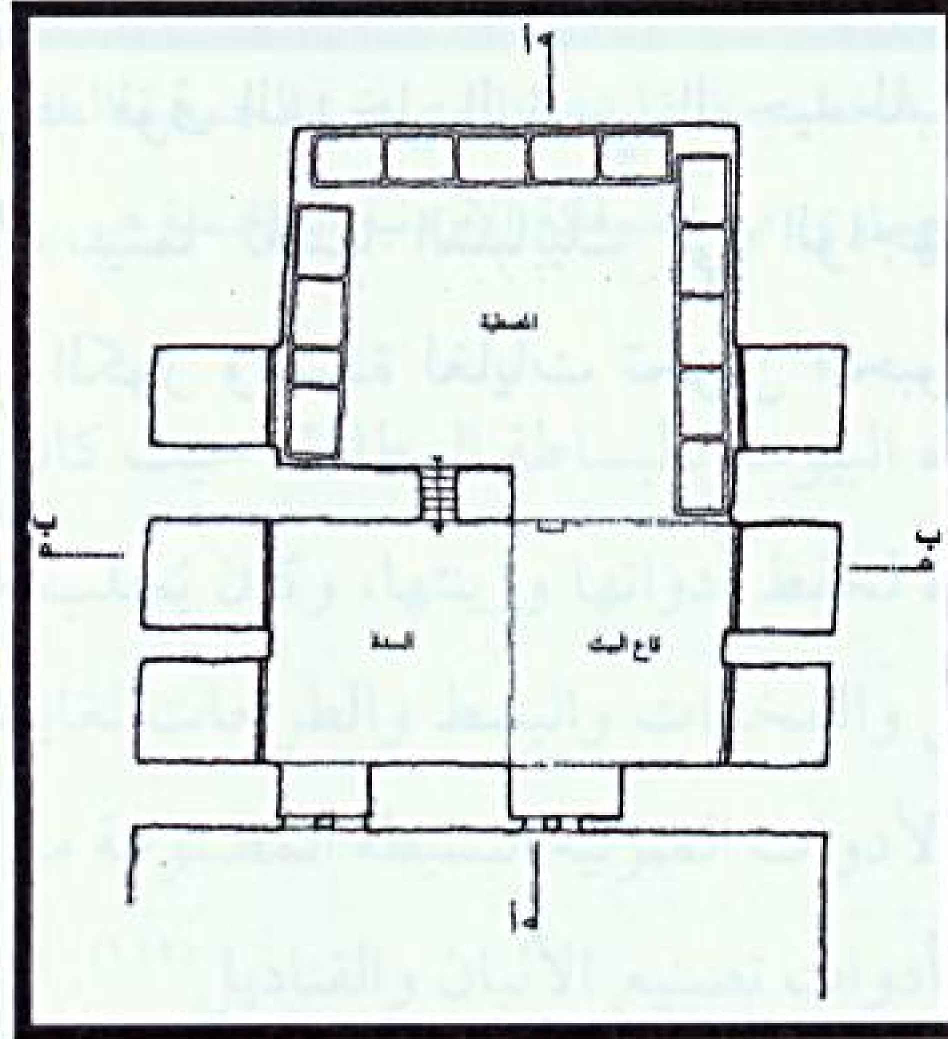
(١٠٣) الجمعية العملية الملكية، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية، مرجع سابق، ص ٩١.

(١٠٤) سعيسعة، الحفاظ على البيوت التراثية في وسط مدينة السلط، مرجع سابق، ص ١٢٣.

كبيت لسكن العائلة، وهو عبارة عن قنطرة عرضها (٨٠)سم، وثلثيه عرضها ثلاثة أمتار ونصف، وبينها كور يفصل بين القنطرة والثلثية[١٠٥]. وهذا النظام يعتبر نظام عاماً للبيت التقليدي في المدينة من حيث العناصر مع اختلاف في الحجم من بيت لآخر، فقد يشتمل البيت على قنطرتين وثلثيتين[١٠٦] مثلاً، أما التصميم الداخلي للبيت فهو عبارة عن قسمين أساسين هما:

١- قاع البيت: وهو الجزء المنخفض من البيت والأقرب للمدخل الرئيسي، ويستخدم لنشاطات الحياة اليومية أو إيواء الحيوانات في بعض الأحيان.

٢- المصطبة: وترتفع عن القاع حوالي(٩٠)سم[١٠٧]، ويستخدم هذا الجزء للنوم والجلوس وتناول الطعام (لاحظ الشكل).



مسقط أفقي لبيت الخطيب (المصدر: الباحث)

---

(١٠٥) الجمعية العملية الملكية، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية، مرجع سابق، ص ٩١.

(١٠٦) سجل شرعي محكمة السلط، رقم٢، حجة رقم ١١٨، (١٣٠٣هـ، ١٨٨٥م)، ص ١٣٧.

(١٠٧) الجمعية العملية الملكية، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية، مرجع سابق، ص ٩١-٩٢.

كما أن هناك أجزاء ملحقة بالبيت مثل السدة وهي ترتفع حوالي (١,٥)متر عن المصطبة وقد خصصت لحفظ المؤونة واستخدمت للنوم في بعض الأحيان أما أسفل السدة فيستغل للمنافع العامة مثل المطبخ وبيت الماء، وفي بعض الأحيان قد نجد ما يعرف بالمطوى (الوهد) وهو تجويف بالجدار يخصص لوضع المفارش والأغطية (اللحف) التي تفرش عندما يحل الليل للجلوس والنوم[١٠٨]، كما يتم استغلال سماكة الجدار لعمل خزائن خاصة بحفظ الحبوب وتسمى(الراوية) وهي الأكبر وأخرى أصغر حجماً وتسمى (الكواره)[١٠٩].

أما الفتحات المعمارية فيلاحظ أن البيت التقليدي عموماً لا يحتوي على فتحات كبيرة، ففي أغلب الأحيان نجد كما في بيت الخطيب أن الشبابيك تكون في الواجهة الأمامية للبيت وهي صغيرة الحجم ولا تؤمن إنارة كافية للبيت[١١٠]، كما يوجد فوق المدخل الرئيسي الوحيد للبيت فتحتان صغيرتان تسمى (طاقة) [١١١]، بينما تغيب الشبابيك في الواجهات الأخرى بسبب استغلالها في عمل الكور والسدة لغايات تخزين الحبوب والمؤونة[١١٢] أو

---

(١٠٨) الداوود، جورج، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٣٥١.

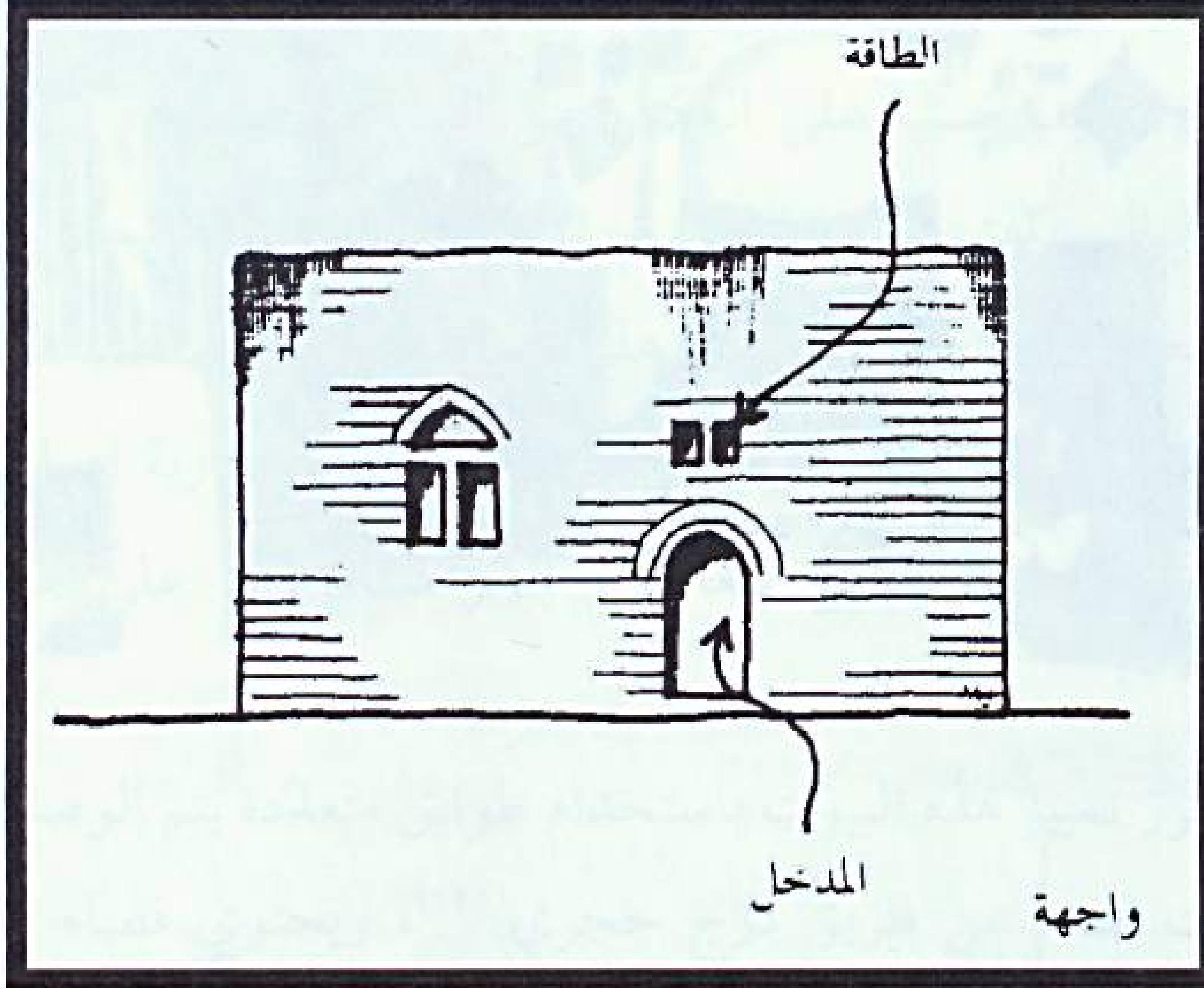
(١٠٩) المرجع نفسه، ص ٣٥١.

(١١٠) الخريسات، دراسات في تاريخ مدينة السلط، مرجع سابق، ص ٤٢.

(١١١) أحمد، طارق، (٢٠٠٨م) تحليل الطرز المعمارية للمباني السكنية في فلسطين في الفترة العثمانية، (غير منشور) جامعة النجاح، كلية الهندسة المعمارية فلسطين، نابلس ص ٦٥

(١١٢) الخريسات، دراسات في تاريخ مدينة السلط، مرجع سابق، ص ٤٣.

التخفيف من التبادل الحراري والمحافظة على درجة حرارة معتدلة صيفاً وشتاءً[١١٣].

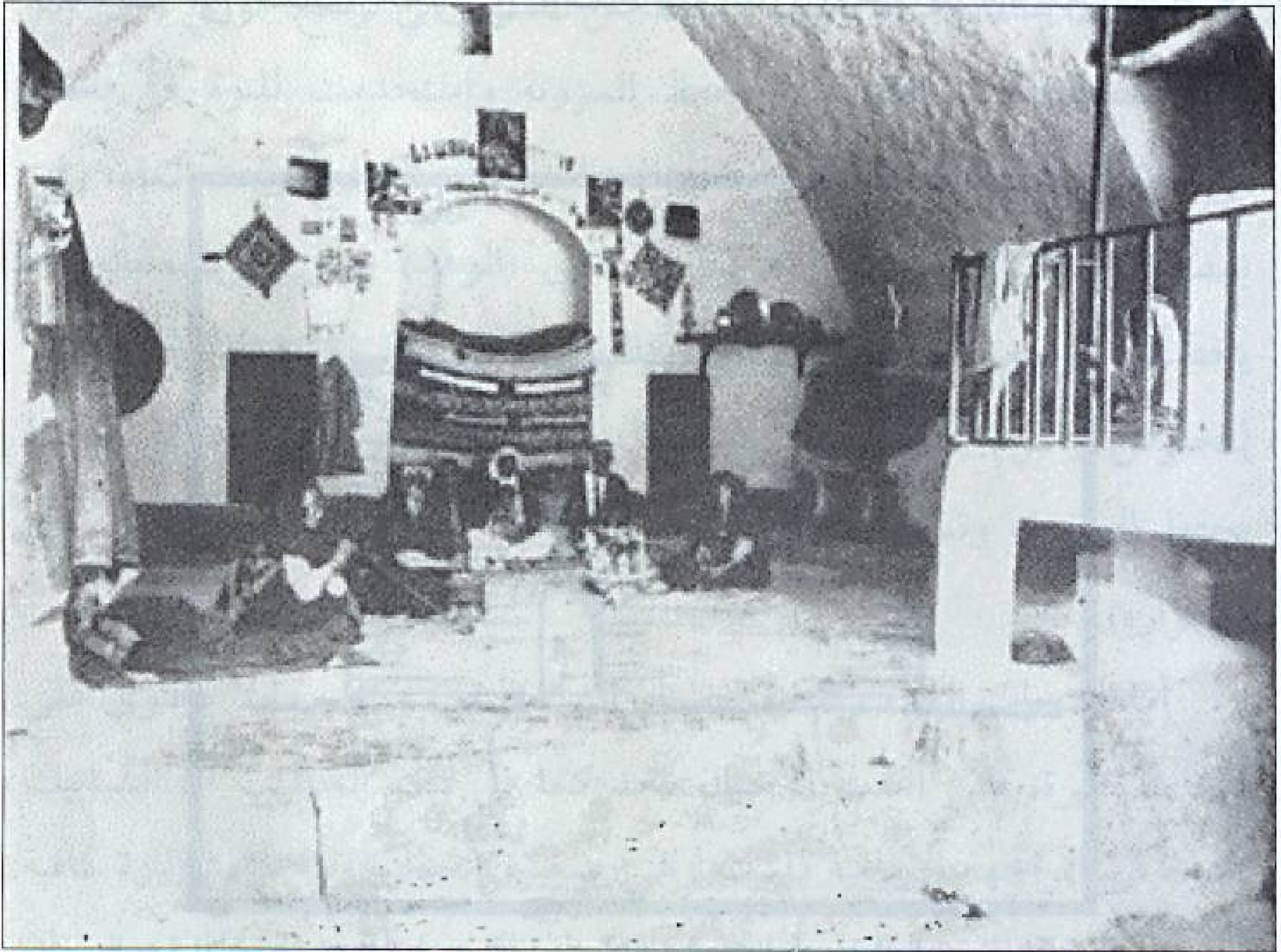


واجهة امامية لبيت الخطيب التقليدي (المصدر: الجمعية العلمية الملكية التراث المعماري في المملكة الاردنية الهاشمية ص ٩١)

وتميز أثاث هذه البيوت بالبساطة المطلقة، حيث كان يتكون من صندوق خشبي خاص بالمرأة لحفظ أدواتها وزينتها، وكان يُجلب من الشام، كما يضم أثاث البيت المفارش والمخدات والبسط والطرحات لغايات الجلوس والنوم، بالإضافة إلى بعض الأدوات المنزلية البسيطة المصنوعة من النحاس أو الزجاج كالأطباق والقدور وأدوات تصنيع الألبان والقناديل[١١٤]. لاحظ الصورة التالية:

(١١٣) كبريت، زكريا محمد، (٢٠٠٠م)، البيت الدمشقي خلال العهد العثماني، سوريا، دمشق، ج ١، وزارة الإعلام، ص ١٦.

(١١٤) الداوود، جورج، السلط وجوارها، ص ٣٥٢-٣٥٣.



صورة داخلية للبيت التقليدي في المدينة ويظهر فيها بساطة الأثاث والتصميم (المصدر: مجموعة مانسون مكتبة الكونجرس)

٢- البيوت ذات الطراز المعماري الإقليمي (بيوت الأغنياء)

تركزت هذه البيوت في وسط المدينة بالقرب من السوق التجاري في ساحة العين[١١٥]، وتشتمل هذه البيوت على الساحات السماوية والأواوين[١١٦]، وتتكون بشكل عام من عدة غرف كانت تسمى (أوضة أو أودة) يصل عددها في بعض البيوت الكبيرة إلى ثلاثين غرفة[١١٧]، وتتميز هذه البيوت بغناها بالزخارف والتفاصيل المعمارية وخصوصاً في المداخل تأكيداً على

(١١٥) الداوود، جورج، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٥٤١.

(١١٦) سجل شرعي محكمة السلط، رقم٢، حجة ٦٦، (١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م)، ص ٨٢.

(١١٧) الخريسات، دراسات في تاريخ مدينة السلط، مرجع سابق، ص ٤٢.

المكانة الاجتماعية لأصحابها(١١٨).

أما من حيث الفتحات المعمارية فإن هذه البيوت تميزت بوجود نوافذ واسعة وكبيرة مطلة على الطريق العام في بعض الأحيان(١١٩)، مما جعل الإضاءة فيها جيدة نسبياً على العكس من البيوت التقليدية. ولتفادي غياب الخصوصية التي تعتبر روح التصميم الإسلامي للبيت العثماني تم معالجة التخطيط العام للبيت بحيث تكون هذه النوافذ مخصصة للفضاءات الخاصة بالاستقبال والضيوف وإنجاز الأعمال الاجتماعية والتجارية لصاحب البيت، بينما بقي الجزء المخصص للعائلة (الحرملك) يطل على صحن البيت والأواوين(١٢٠).

كما يبرز تمييز هذه البيوت باستخدام طوابق متعددة يتم الوصول إليها من داخل البيت نفسه عن طريق درج حجري(١٢١)، ويحتوي فضاء هذه البيوت المرافق العامة كالمطبخ والمنافع الشرعية(١٢٢)، ويتم توزيع فضاءات البيت بحيث يستخدم الطابق الأول في تخزين الغلال ومستودعاً للحطب وأماكن لإيواء الحيوانات، أما الطابق الثاني فقد خصص لاستقبال الضيوف، وهو ذو صالات واسعة ونوافذ واسعة مطلة على الطريق(١٢٣)، والطابق الثالث خصص للنوم والمعيشة واستعمال أهل البيت(١٢٤).

---

(١١٨) المرجع نفسه، ص ٤٥.

(١١٩) الداوود، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ١٥٤.

(١٢٠) كبريت، البيت الدمشقي خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص ٥٣-٥٥.

(١٢١) سجل شرعي محكمة السلط، رقم ٢، حجة ٩٥، (١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م)، ص ١٠٥.

(١٢٢) المرجع نفسه، حجة رقم ١١، ص ١٣-١٤.

(١٢٣) الداوود، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٣٥٦.

(١٢٤) الخريسات، دراسات في تاريخ مدينة السلط، مرجع سابق، ص ٤٤.

ومن حيث مواد البناء وطرق الإنشاء، نجد أن هذه البيوت بُنيت من الحجر الكلسي الأصفر[١٢٥] المميز للمدينة، ويغلب عليها استخدام نظام القبو في الأسقف بدلاً من القناطر والخشب والطين وكانت الجدران من الحجر المحكم(المهذب) [١٢٦] من الداخل والخارج، أما الأرضيات فقد استخدم فيها الأرضيات الحجرية البيضاء والبلاط الملون المستورد وهو مرتفع الثمن، فقد أشارت سجلات البلدية إلى تكاليف الغرفة الواحدة بحوالي(٢٤٧٥) قرشاً وهو مبلغ كبير إذا ما قورن بتكاليف قصارة غرفة الذي يبلغ (٢٠٠) قرشاً تقريباً[١٢٧].

وكان أثاث هذه البيوت يتميز بالفخامة والتنوع ويبرز ذلك من خلال دراسة سجلات حصر الإرث حيث يلاحظ اختلاف واضح عن الأثاث في البيوت التقليدية[١٢٨] وتحتوي هذه البيوت على السرير(تخت) من الحديد وكنبات وكراسي منجدة وطاولة السفرة وطاولات خشبية وطاولات سجائر ذات سطوح زجاجية وساعات حائط و الفرش والطرحات المستوردة أحياناً[١٢٩] وفي بعض البيوت نجد استخدام المكاتب والستائر لتغطية النوافذ[١٣٠].

ولعلّ أهم ما يلاحظ على هذه البيوت انفتاحها على تيارات العمارة الغربية حيث وجدت هذه التيارات سبيلها إلى بيوت المدينة في الربع الأخير من القرن

---

(١٢٥) أبو الشعر، تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني، مرجع سابق، ص ٥٣٧.
(١٢٦) سجل شرعي محكمة السلط، رقم ١٢، الحجج ٢+٣+٤، (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م)، ص ٢-٣.
(١٢٧) سجل بلدية السلط، رقم ٢، ص ٥٨.
(١٢٨) أبو الشعر، تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني، مرجع سابق، ص ٥٤٣.
(١٢٩) سجل شرعي محكمة السلط، (بدون رقم)، حجة ١٧٦، (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م)، ص ١٤٨-١٤٩.
(١٣٠) الداوود، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٣٦٠.

التاسع عشر ليدخل على العمارة الأسلوب الفرنسي الذي عرف(بالركوكو) والأسلوب الإيطالي الذي عرف (بالباروك)[١٣١]. ومن الأمثلة على هذه البيوت.

بيت أبو جابر

يعتبر هذا البيت أكبر بيوت السلط العثمانية[١٣٢] ويطل على الساحة الرئيسية لمدينة السلط وهو يتكون من ثلاثة طوابق تم بناءها على مراحل مختلفة كما يلي:

١- الطابق الأرضي عام(١٨٧٨م).
٢- الطابق الأول عام (١٨٩٦م).
٣- الطابق الثاني عام (١٩٠٥م) [١٣٣].

حيث استخدم الطابق السفلي كمستودع للمؤن والغلال وإسطبل للخيل وخصص الطابق الأول للضيوف وإعداد الولائم وقضاء الأعمال الاجتماعية والتجارية واليومية بينما كان الطابق الأخير مخصصاً لسكن العائلة[١٣٤] وقد أشرف على بناء هذا البيت المعماري المعروف عبد الرحمن العقروق[١٣٥].

الوصف المعماري

نتيجة لتعدد مراحل بناء البيت نجد أن هناك اختلافاً لون ونوعية الحجر المستخدم من طابق لآخر، حيث بني الطابق الأرضي من الحجر الصلب(المزي)، بينما نرى أن باقي أجزاء المبنى من الحجر الكلسي

---

(١٣١) كبريت، البيت الدمشقي خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص ٩.
(١٣٢) الداوود، جوانب من تاريخ الأردن وفلسطين، مرجع سابق، ص ٤١.
(133) Greater salt Municipality, As- salt the most Important Buildings In salt, Opcit, p. 12.
(١٣٤) الداوود، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٣٥٦.
(١٣٥) الداوود، جوانب من تاريخ الأردن وفلسطين، مرجع سابق، ص ٤٢.

الأصفر[١٣٦]، ويتكون الفضاء الداخلي للطابق الأرضي من عدة غرف ذات مساحات متنوعة بحكم استخدامها سابقاً لأغراض التخزين وإيواء الحيوانات[١٣٧]، ويلاحظ التأثير الواضح للطبيعة الطبوغرافية على انتظام أشكال الفضاءات في الغرف الخلفية تحديداً، وقد تم تسقيف هذا الطابق على نظام العقود المتقاطعة (القبو)، وتميزت جدرانه بالسماكة التي تتراوح بين (٦٠ -١٠٠)سم، أما من حيث التفاصيل المعمارية والزخرفية فهي قليلة بالمقارنة مع الطوابق العلوية[١٣٨].

وتميز الطابق الأول بوجود صالة كبيرة مسقوفة بطريقة القبو تعمل كموزع إلى باقي الغرف في الطابق[١٣٩]، كما يضم هذا الطابق صالات جلوس أخرى إحداها الغربية والتي تؤدي إلى شرفة خارجية ذات جدران عالية تطل على ساحة العين (الساحة الرئيسية للمدينة) وكانت نوافذها على نمط المشربية[١٤٠] زيادة في خصوصية الجالس فيها.

أما جدران هذا الطابق فتتراوح سماكتها أيضاً من (٦٠-١٠٠)سم، والسقف على نظام القبو، وتتميز أيضاً بمجموعة من التفاصيل المعمارية والزخرفية فيظهر في الواجهة الأمامية للطابق بعض التفاصيل الحجرية والكرانيش والأعمدة النصفية الملتصقة بالواجهة[١٤١].

---

(136) Greater salt Municipality, As- salt the most Important Buildings In salt, Opcit, p. 12

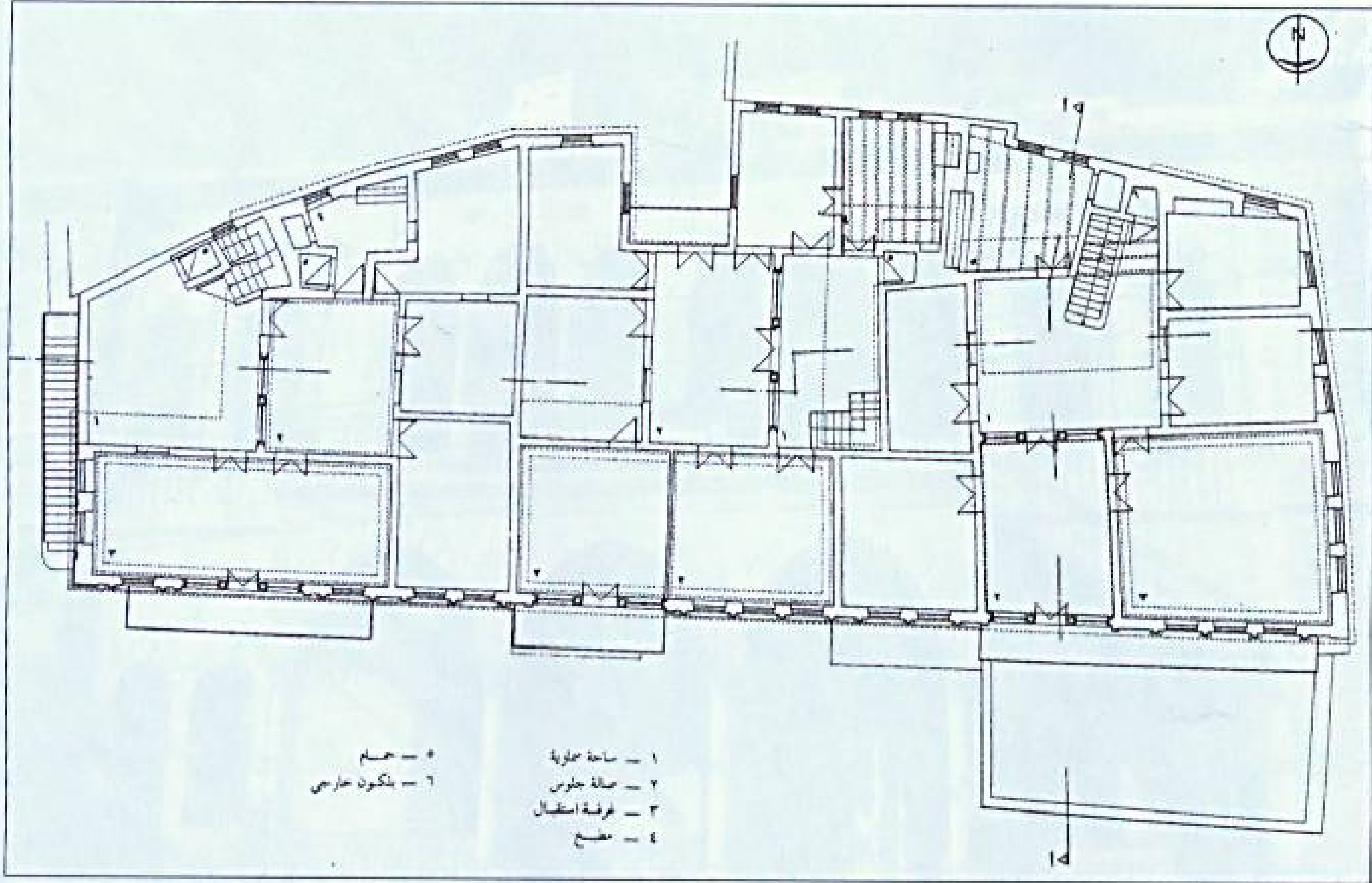
(١٣٧) الداوود، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٣٥٦.

(138) Greater salt Municipality, As- salt the most Important Buildings In salt, Opcit, p. 12

(١٣٩) الداوود، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٣٥٦.

(١٤٠) الجمعية العلمية الملكية، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية، مرجع سابق، ص ١١٦.

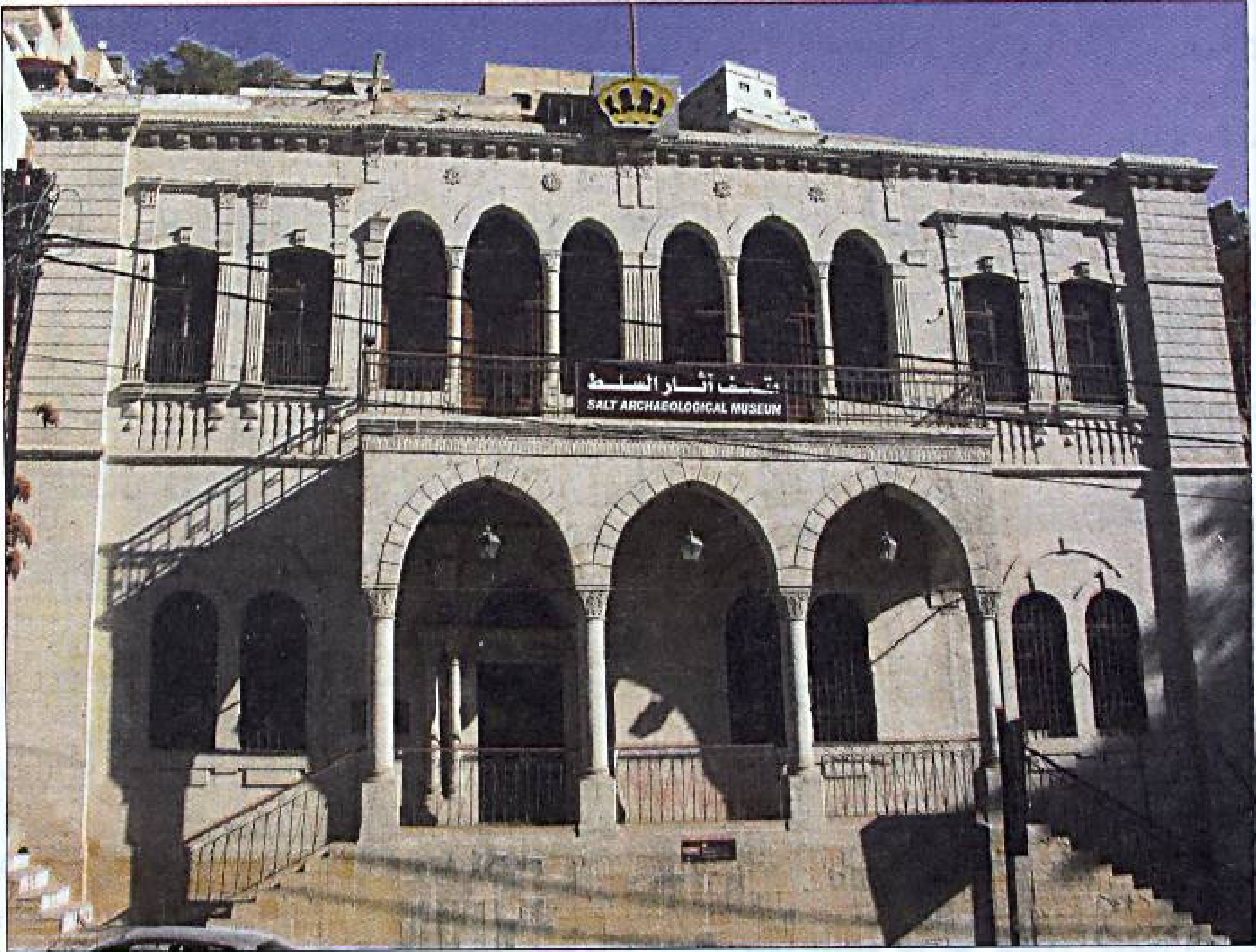
(141) Greater salt Municipality, As- salt the most Important Buildings In salt, Opcit, p. 12



(مسقط الطابق الثاني بيت أبوجابر) (المصدر: الجمعية العلمية الملكية)



(الواجهة الرئيسية لبيت أبو جابر) (المصدر: الباحث)



(الواجهة الرئيسية لبيت طوقان) (المصدر: الباحث)

أما الطابق الثاني(الأخير) فيتكون من ثلاثة أفنية (ساحات سماوية) تؤدي إلى باقي الغرف، واحدى هذه الغرف كبيرة وذات سقوف تزينها زخارف خشبية جميلة ودقيقة(١٤٢)، وقد استخدم في هذا الطابق نظام الفناء الداخلي أكثر من الطابق الأول بحكم استخدامه للعائلة، مما يتطلب قدراً أكبر من الخصوصية والانفتاح على الساحات الداخلية بدلاً من الخارج، لذلك خصصت الصالات المواجهة للطريق العام للاستقبال وهي مشابهة إلى نظام(السلاملك)، أما الغرف الخلفية فكانت خاصة بالعائلة وهي ما يعرف (بالحرملك) (١٤٣). وهو بذلك يجسد المسكن ذا الفناء الذي يصمم حسب الحاجات والقواعد

(١٤٢) الجمعية العلمية الملكية، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية، مرجع سابق، ص ١١٧.

(١٤٣) كبريت، البيت الدمشقي خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٤.

الاجتماعية ليتمتع المالك بكامل الحرية في البيئة المنزلية ضمن سياق عمراني يتسم بصفات المدنية الإسلامية[١٤٤] رغم التأثير الشكلي بالعمارة الغربية.

أما الجدران ومواد البناء فكانت الجدران أقل سماكة من الطابقين الأرضي والأول، حيث تصل سماكتها إلى (٣٠)سم فقط[١٤٥]، وذلك بسبب استخدام سقف القرميد والخشب الذي أدى إلى تقليل الحمل على الجدران في هذا الطابق.

كما تميز هذا الطابق باللمحة الأوروبية، فقد استخدم القرميد الألماني والبلاط والرخام الإيطالي والزجاج العادي و الملون من بلجيكا[١٤٦]، والواجهة الرئيسية لهذا الطابق تميزت بالزخارف والأعمدة المشابهة للعمود الأيوني وتفاصيل حجرية مميزة[١٤٧]، كما يلاحظ من خلال الدراسة الميدانية وجود العديد من البيوت العثمانية المميزة نذكر من منها على سبيل المثال.

مبنى فلاح الحمد الذي تميز بالمدخل ذي التفاصيل الحجرية والأعمدة المجدولة الثلاثية الفريدة[١٤٨]، ومبنى السكر الذي يتألف من أربعة طوابق تنتهي بسقف جملوني مطل على الساحة الرئيسية للمدينة[١٤٩]، ومبنى طوقان(شارع الميدان) والذي تعتبر واجهته الرئيسية أيضاً غنية بالزخارف والتفاصيل الحجرية يتقدمها إيوان خارجي مطل على الطريق العام[١٥٠].

---

(١٤٤) سلوى، مخائيل، (٢٠٠٤م)، الخصوصية ودور المعماري العربي في حل إشكالية عمارة المساكن، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، جامعة دمشق، مجلد٢٠، عدد (٢)، ص ٢٣٩ -٢٦٦.

(١٤٥) الجمعية العملية الملكية، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية، مرجع سابق، ص ١١٧.

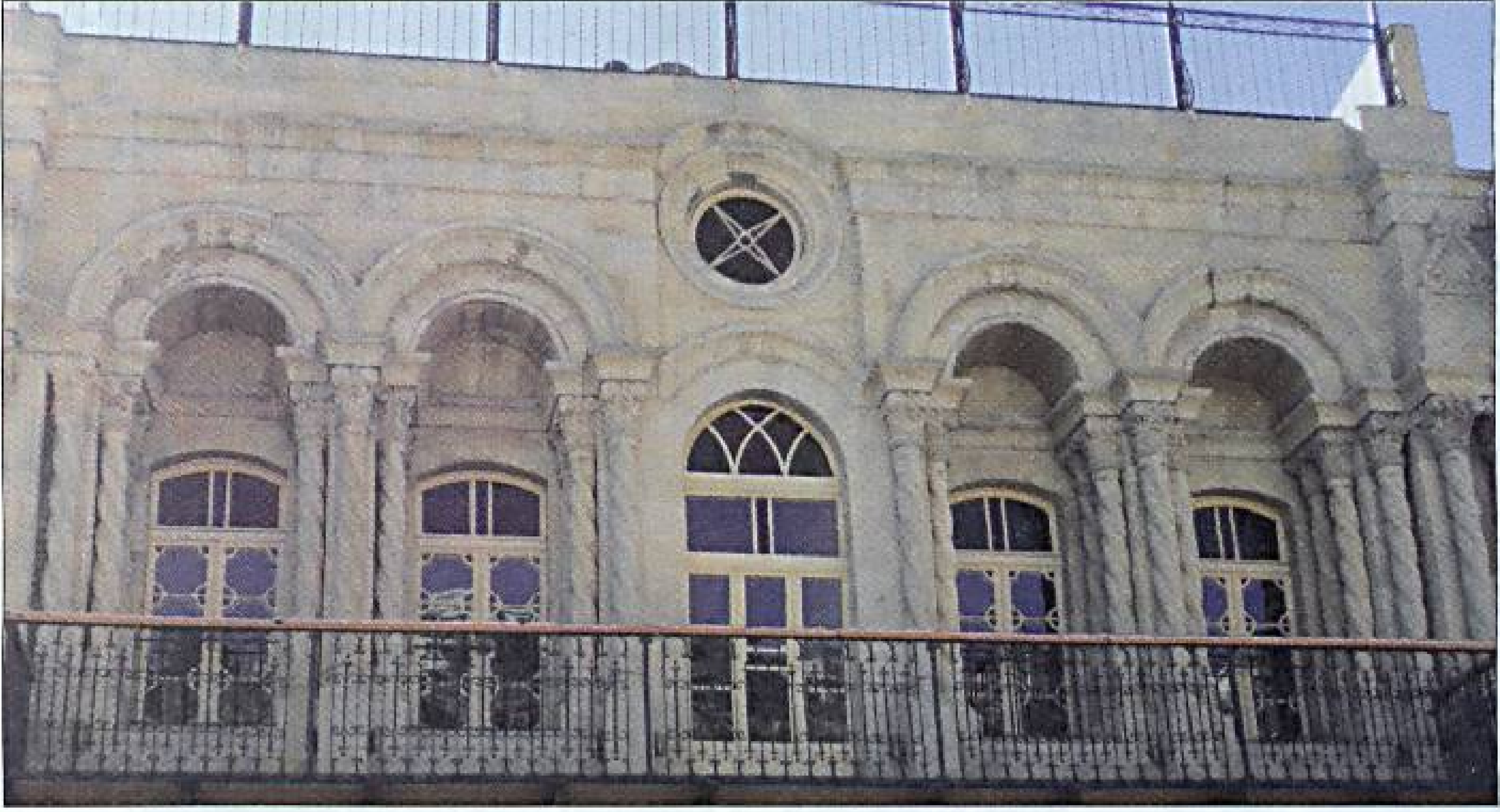
(١٤٦) الداوود، السلط وجوارها، مرجع سابق، ص ٣٥٦.

(147) Greater salt Municipality, As- salt the most Important Buildings In salt, Opcit, p. 12

(148) Ibid, p. 11.

(149) Ibid, p. 17.

(١٥٠) سعيسه، الحفاظ على البيوت التراثية في وسط مدينة السلط، مرجع سابق، ص ٤٧



(الواجهة الرئيسية لبيت المعشر) (المصدر: الباحث)

أما مبنى المعشر فيعتبر مثلاً على البيوت الصغيرة والمميزة جداً في واجهتها الأمامية، حيث يقوم المبنى على طابقين، الأرضي يتكون من ثلاث غرف لها استخدام تجاري ومطلة على الطريق العام (شارع الدير سابقاً) و الطابق الثاني يستخدم كشقة سكنية تتميز واجهتها بالتماثل النصفي، وتتألف من أربعة شبابيك يفصل بينها أقواس مصحوبة بالأعمدة المجدولة يعلوها تاج مزخرف بوحدات زخرفية ذات تأثير باروكي [١٥١]. (لاحظ الصورة)

العناصر المعمارية في بيوت السلط العثمانية

عند ملاحظة البيوت العثمانية في فترة الدراسة نجد أنها تتشابه في مجموعة من العناصر والتفاصيل المعمارية كالمداخل والعقود والأقواس والأعمدة والأرضيات، هذه العناصر وطرق تجميعها هي التي تعطي الهوية المميزة لطراز البيوت في المدينة والتي يمكن أن نجمل عناصرها على النحو التالي:

(151) Greater salt Municipality, As- salt the most Important Buildings In salt, Opcit, p. 12

١- المداخل والأبواب

يعتبر المدخل من العناصر المعمارية الرئيسية المكونة للبيت، فهو يمثل عملية الربط بين الخارج والداخل، وهو عبارة عن همزة الوصل الوحيدة مع فعاليات الحياة الاجتماعية[١٥٢]، لذلك فإن المدخل يشكل كتلة هامة وبارزة في الواجهة المعمارية للبيوت[١٥٣] يتسم بالفخامة والعناية بالزخارف والتفاصيل الحجرية، ويحف أبوابها عمودان تحملهما مكسلتان[١٥٤] ترتفعان عن الأرض كما يعلو البوابة في أغلب الأحيان قوس نصف دائري أو مدبب يقع ضمن إطار حجري ذي حنيات تعبر عن فخامة المدخل وأهميته، بينما يكون الباب متراجعاً عن الواجهة إلى الداخل[١٥٥]، وقد يعزى هذا الاهتمام في المداخل إلى تأكيد أهمية المكان والمكانة الاجتماعية لصاحب البيت.(لاحظ الصورة)

---

(١٥٢) كبريت، البيت الدمشقي خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٦.

(١٥٣) الوزيري، يحيى، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، (٢٠٠٠م)، مصر- القاهرة، ج ١، مكتبة المدبولي، ص ١١.

(١٥٤) الألفي، أبو صالح، (بدون تاريخ) الفن الإسلامي، بيروت، لبنان، دار المعارف، ص ١٣٩.

(١٥٥) أحمد، تحليل الطرز المعمارية للمباني السكنية في فلسطين في الفترة العثمانية، مرجع سابق، ص (٩٤-٩٥).



(البوابة الرئيسية لبيت أبو جابر) (المصدر: الباحث)

٢- النوافذ والقمريات

ظهرت النوافذ في البيوت التقليدية بشكل بسيط نسبياً، حيث كان البيت يحتوي على نافذة واحدة أو اثنتين بالإضافة إلى طاقة صغيرة تعلو الباب الرئيسي للبيت[١٥٦]، أما في البيوت ذات الطراز الإقليمي "ذو الفناء" فكانت

(١٥٦) الخريسات، دراسات في تاريخ مدينة السلط، مرجع سابق، ص ٤٣.

النوافذ الواسعة تطل على الصحن الداخلي والنوافذ الضيقة تطل على المنظر الخارجي وذلك لأغراض مناخية ودينية واجتماعية[١٥٧] تتعلق بالخصوصي وقد ظهرت هذه النوافذ ضمن تكرار معين حسب تصميم الواجهة والتأثير المطلوب منها فأحياناً تظهر مفردة أو مزدوجة أو ثلاثية[١٥٨].

أما القمريات فهي "عبارة عن مناور ضيقة تفتح فوق الأبواب والنوافذ أو أعلى الجدران"[١٥٩] وتظهر بكثرة في البيوت الكبيرة في المدينة وتشكل عنصراً جمالياً في الواجهات ووظيفي يرتبط بإدخال الإنارة للفضاء الداخلي.



(تأثير القمريات في واجهات البيوت) (المصدر: الباحث)

(١٥٧) الوزيري، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٥.

(١٥٨) الجمعية العملية الملكية، التراث المعماري، المملكة الأردنية الهاشمية، مرجع سابق، ص ٢١٨.

(١٥٩) الوزيري، يحيى، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٥.

٣- العقود والأقواس

العقد عنصر معماري مقوس يعتمد على نقطة ارتكاز واحدة أو أكثر، ويشكل عادة فتحات البناء أو يحيط بها[١٦٠]، و يتألف من عدة حجارة يسمى كل واحد منها فقرة[١٦١]، بإستثناء الحجر الذي يتوسط العقد في الأعلى ويثبت الفقرات فيسمى الغلق[١٦٢]، والفقرة السفلى تسمى الوسادة[١٦٣]

وقد عرفت العمارة الإسلامية أنواعاً مختلفة من العقود، وكان كل إقليم يفضل نوعاً عن الأخر[١٦٤]، لذلك يعتبر العقد من العناصر المعمارية التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ العمارة العربية الإسلامية، وهي أيضاً تعتبر عنصراً جوهرياً وإنشائياً، وليس كالعناصر التي تطورت من أعضاء إنشائية إلى مجرد زخارف مثل المقرنص والكوابيل[١٦٥]. ومن خلال الدراسة الميدانية للمدينة نجد أن عمارة البيوت في مدينة السلط استخدمت عدة أنواع من العقود وهي:

١- عقد نصف دائري.

٢- عقد موتور.

٣- عقد حدوة الفرس.

٤- العقد المدبب[١٦٦].

---

(١٦٠) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٦١.

(١٦١) تستخدم عدة أسماء لهذا الجزء من العقد وهي صنجة ولبنة ومدماك وفقرة هو المستخدم في المدينة.

(١٦٢) تستخدم عدة أسماء لهذا الجزء من العقد وهي المفتاح والقفل والعقد والخصومة وغلق هي المستخدمة في المدينة فترة الدراسة.

(١٦٣) قاجة،جمعة أحمد. (٢٠٠٠م): موسوعة فن العمارة الإسلامية - سوريا-دمشق-دار الحصاد للطباعة والنشر ص ٣٣٢.

(١٦٤) المرجع نفسة، ص ٣٣٢.

(١٦٥) الشافعي، فريد، (١٩٨٢م)، العمارة العربية الإسلامية، السعودية- الرياض، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ص ١٩٩.

(١٦٦) الجمعية العلمية الملكية، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية، مرجع سابق، ص ٢١٨.

صورة القوس	تكرار الأقواس في الفتحات المعمارية	النسب المختلفة للأقواس	نوع العقد (القوس)
			قوس نصف دائري
			قوس وتري
			قوس مدبب
			قوس حذوة الفرس

جدول اشكال الاقواس و تكرارها في النوافذ و الواجهات

ويعتبر الأخير هو الأكثر انتشاراً والمفضل في عمارة المدنية، و يتكون من قوسين مرسومين من مركزين على جانب المحور العمودي للقوس(١٦٧)، وهو أكثر العقود انتشاراً في الشرق، أما عقد حذوة الفرس فهو يتكون من مركز واحد ويشكل القوس فيه أكثر من نصف الدائرة(١٦٨)، وقد ساد هذا النوع في العمارة المغربية(١٦٩).

ويلاحظ أيضاً أن هذه العقود كانت تتوزع على الواجهات بشكل مجموعات ويحيط بها إطارات حجرية جميلة وبنسب متعددة للنوع الواحد بحسب الجدول التالي (ولاحظ ملحق العناصر):

(167) K. Azzam (1997)," The Arch in Islamic Architecture", *Prince of wales 's institute of architecture*, London, pp. 9-10.

(168) Ibid, p. 63.64.

(١٦٩) قاجة، موسوعة فن العمارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

٤- الأعمدة

العمود هو ما يدعم البناء أو الجدران، وقد اتخذ العمود تسميات عدة فهو عمود في الشرق، وسارية في الغرب، وشمعة في لبنان[١٧٠]، ولم تستخدم الأعمدة إلا في الفترة المتأخرة من العصر العثماني وخاصة في مباني القصور والبيوت الكبيرة كعناصر جمالية لتزين الفتحات[١٧١]، ويلاحظ أن استخدام هذا العنصر لا يكاد يفارق الواجهات الرئيسية للبيوت العثمانية في المدينة، لذلك يعتبر من أهم العناصر المعمارية فيها حيث تم استخدامه بأشكال متنوعة فمنه الأسطواني ومنه المجدول ومنه المضلع "الثماني"، و تعددت أشكال التيجان وزخرفاتها والتي اعتمدت على زخارف نباتية متنوعة وأشكال حلزونية وهندسية بسيطة " لاحظ الشكل":



(بعض أشكال الأعمدة في بيوت السلط) (المصدر: الباحث)

(١٧٠) الوزيري، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٩.
(١٧١) أحمد، تحليل الطرز المعمارية للمباني السكنية في فلسطين في الفترة العثمانية، مرجع سابق، ص ٩٢.

٥- الكرانيش والتصوينات

ظهرت في بيوت السلط الكبيرة على عدة أشكال، فمنها الكورنيش السادة الخالي من الزخارف والتي تعتمد على مقطع منحني(١٧٢)، ومنها كورنيش مزخرف وهو مشابه إلى النوع السابق ولكن يحمل وحدات زخرفية حجرية، أما النوع الثالث فهو العرائس وهي عنصر إسلامي أكثر أصالة من العنصرين السابقين والذي يظهر فيها التأثير الغربي، وهي تشبه عناصر العمارة الدفاعية في الأسوار والقلاع والأبراج(١٧٣). لاحظ الشكل التالي:



(بعض أشكال الكرانيش) (المصدر: الباحث)

٦- الأقبية والقناطر

استعملت الأقبية لغرض إنشائي وهو دعم الحائط المرتفع للبناية ودعم أحمال السقف لكل غرفة أو حيز معماري بشكل مستقل ونقلها إلى الجدران التي تعتبر الدعائم الرئيسية للبناء(١٧٤)، وتعتبر العنصر الأكثر انتشاراً في بيوت المدينة ذات الطراز الإقليمي، أما البيوت التقليدية فقد انتشر فيها نظام

(١٧٢) من الأمثلة عليها كورنيش بيت المعشر الذي يعتمد على منحنيات تمتد على طول الواجهة تقريباً.

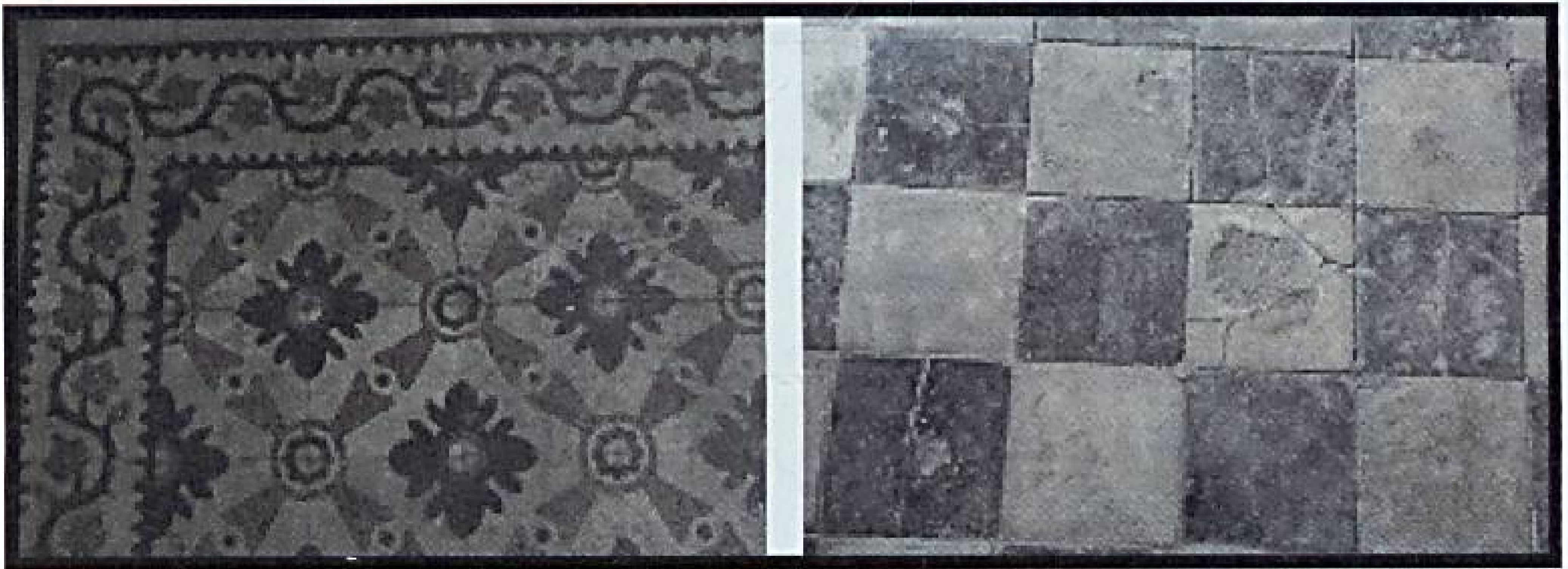
(١٧٣) الوزيري، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٢٧.

(١٧٤) أحمد، تحليل الطرز المعمارية للمباني السكنية في فلسطين في الفترة العثمانية، مرجع سابق، ص ١٠٢.

القنطرة[١٧٥] التي تلعب نفس الدور الإنشائي السابق مع الاختلاف في طريقة البناء والمواد المستخدمة كما سبق ذكره. "لاحظ الشكل"

٧- البلاط

ظهر في بيوت المدينة أنواع مختلفة من البلاط، ففي المرحلة الأولى في العمارة العثمانية ظهر البلاط الحجري الكلسي بتشكيلات بسيطة عرضية وعامودية، أما المرحلة المتأخرة فقد ظهر البلاط الجيري الملون[١٧٦] وهو بزخارف نباتية وهندسية، يتكون من وحدات مربعة متكررة تشكل فيها كل بلاطة ربع الوحدة الزخرفية المطلوبة، وتحاط الأرضية بإطار من الزخارف النباتية تبعد عن جدار الغرفة الداخلي مسافة (٥٠-٧٠)سم، ويستخدم فيها مجموعات لونية مميزة تساهم في تحقيق التوازن الحراري والزخرفي واللوني للمكان[١٧٧]. لاحظ الشكل التالي:



(الأرضيات الحجرية و الزخرفية) (المصدر: الباحث)

(١٧٥) انظر على سبيل المثال لا الحصر، سجل شرعي محكمة السلط، رقم ٢، الحجة رقم ١١٨، ص ١٣٧.

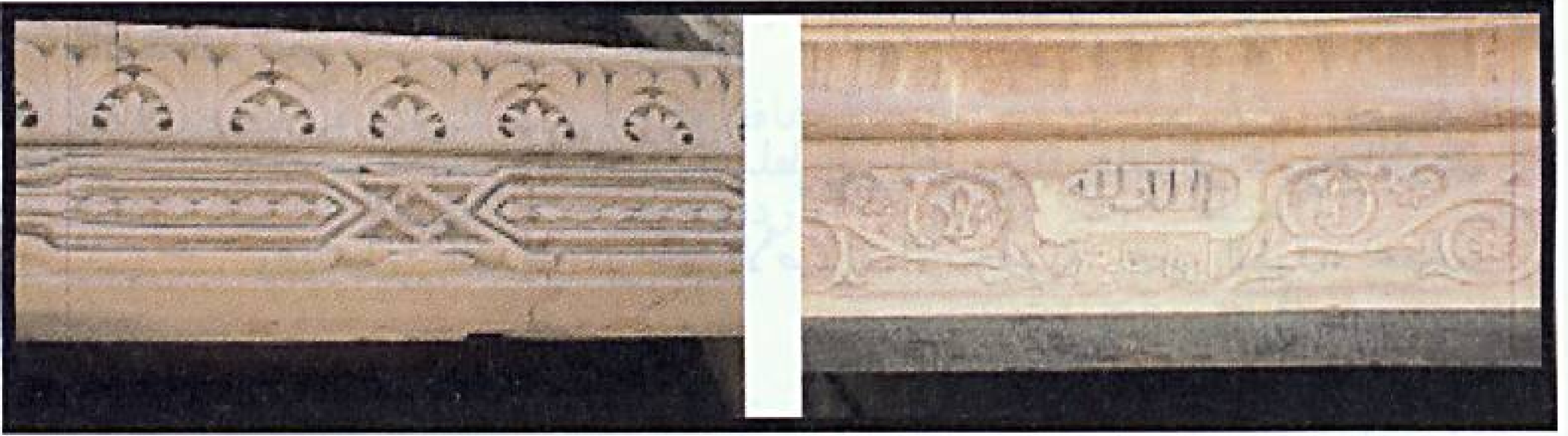
(١٧٦) أحمد، تحليل الطرز المعمارية للمباني السكنية في فلسطين في الفترة العثمانية، مرجع سابق، ص ٨٧.

(١٧٧) كبريت، البيت الدمشقي خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص ١٠٠.

٨- الزخرفة والوحدات الزخرفية

وهي احدى العناصر المكملة في العمارة، حيث تركزت الزخارف في بيوت السلط فوق النوافذ والأبواب، وقد توجد كذلك كحفر على الأخشاب أو رسم على البلاط أو تقش على الحجارة، وظهرت هذه الزخارف على عدة أشكال منها: الزخارف الهندسية والنجمية والتي استخدم فيها النجمة الثمانية العربية ومنها الزخارف النباتية التي ظهرت منقوشة على الحجارة المرتفعة في الواجهات(١٧٨).

أما عتبات الأبواب فقد استخدم فيها الزخرفة الكتابية التي توثق تاريخ المبنى ولفظ الجلالة وبعض الزخارف الهندسية والنباتية (لاحظ الشكل)



(الزخرفة الخطية والنباتية والهندسية في بيوت السلط) (المصدر: الباحث)

الخلاصة

تناولت الدراسة السابقة الحالة العمرانية في مدينة السلط وبيوتها في نهاية العهد العثماني، وتبين لنا أن مدينة السلط هي مدينة إسلامية ذاتية توفرت فيها شروط المدينة الحسنة، وجاء تخطيطها ونموها إسلامياً بأمتياز من حيث مركزية المسجد الجامع ودار الحكومة "السرايا" النمو من حولها.

---

(١٧٨) أحمد، تحليل الطرز المعمارية للمباني السكنية في فلسطين في الفترة العثمانية، مرجع سابق، ص ١٠٤-١٠٩.

كما يمكن التأكيد على فرضية إعتبار فترة الدراسة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مرحله مفصلية في تطور النسيج العمراني للمدينة حيث ظهر في هذه الفترة بيوت ذات مسحة أوروبية من حيث: العناصر المعمارية و الوحدات الزخرفية، وهي تختلف إلى حدٍ ما عن البيوت التقليدية "البيت الفلاحي" الذي كان سائداً في المدينة، على أن هذه العناصر المعمارية المتمثلة بالأعمدة و الأقواس و الأقبية و المداخل و الأرضيات و الكرانيش قد أصبغت المدينة بطراز معماري تميز بأنه إسلامي الطابع و التخطيط هجين العناصر و الشكل معبراً عن التأثير الباروكي الذي تسرب للعمارة العثمانية عموماً في هذه الفترة.

قائمة المراجع

أبو طالب، محمود، (٢٠٠٦م)، من السلط إلى القدس (أبحاث في تاريخ الأردن وفلسطين القديم) ترجم الأصول الإنجليزية: عمر الغول، عمان، الأردن، المقتبس.

ابن الرامي، أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي (ت ٧٣٤هـ -١٣٣٤م)- (١٩٩٩م)، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق: فريد بن سليمان، تونس، تونس، مركز النشر الجامعي

الألفي، أبو صالح، (بدون تاريخ) الفن الإسلامي، بيروت، لبنان، دار المعارف

أحمد، طارق، (٢٠٠٨م) تحليل الطرز المعمارية للمباني السكنية في فلسطين في الفترة العثمانية، (غير منشور) جامعة النجاح، كلية الهدسة المعمارية فلسطين، نابلس

الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، (١٩٧٠م) -الجزء الثاني- ط١ - حيفا - فلسطين - دار الهدى

مؤسسة إعمار السلط، (١٩٨٩م)، السلط تاريخ وصوره، عمان، الأردن، بالتعاون مع متحف الآثار السياحية (جامعة هارفارد)

المغربي، ابن سعيد نور الدين أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥ هـ) - (١٩٧٠م) - كتاب الجغرافيا - تحقيق إسماعيل العربي - لبنان - بيروت - المكتبة التجارية

شيخ الربوة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري (ت ٧٢٧ هـ) - (١٩٦٣م) - نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، العراق، بغداد - مكتبة المثنى

أبو الشعر - هند - (٢٠٠٠م) - تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني - الأردن - عمان - اللجنة العليا لكتابة تاريخ الأردن

سعيسعه، ربا أسامة- (٢٠١٠م) - الحفاظ على البيوت التراثية في وسط مدينة السلط - (غير منسور) - الأردن - عمان - الجامعة الأردنية - كلية الآثار

فريدريك بيك - (١٩٣٥م) - تاريخ شرق الأردن وقبائلها، ترجمة: بهاء الدين طوقان - عمان - الأردن، الدار العربية للنشر والتوزيع

الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥ هـ)، (١٩٨٠م) - تاج العروس من جواهر القاموس جزء ١٩ - تحقيق، عبد الحليم الطحاوي، الكويت - الكويت، وزارة الآثار والأنباء

الجمعية العلمية الملكية، (١٩٩٠م)، التراث المعماري في المملكة الأردنية الهاشمية، مجلد ١، عمان- الأردن، الجمعية العلمية الملكية

الشافعي، فريد، (١٩٨٢م)، العمارة العربية الإسلامية، السعودية- الرياض، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود

الخريسات، محمد عبد القادر، (١٩٩٧م) دراسات في تاريخ مدينة السلط (الصلت)، الأردن، عمان، وزارة الثقافة الأردنية

الزركشي، محمد عبد الله، (ت ٧٩٤هـ) -(١٩٩٩م)، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق: أبو الوفاء مصطفى المراغي، الطبعة ٥، مصر، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف

الخصاونة، ثابت محمد علي، (٢٠٠١م)، المئذنة في العمارة الإسلامية المبكرة، (غير منشورة)، الأردن، اربد، جامعة اليرموك، معهد الآثار الأنثروبولوجيا

داود، جورج (١٩٩٤م): مدينة السلط وجوارها الفترة ١٨٦٤-١٩٢١-الأردن- عمان- بنك الأعمال

الدستور العثماني - (١٣٠٣ ه)، ترجمة نوفل نعمة الله، لبنان، بيروت، ج ١، المطبعة الادبية

بيركهارت/ يوهان - (١٩٦٩م) - رحلات بيركهارت (سوريا الجنوبية) - ترجمة: أنور عرفات - الأردن - عمان - وزارة الثقافة والإعلام

كوندر - كلود/ برناد الحكيم/ هنري ردجواي/ (١٩٨٤م) - رحلات في الأردن وفلسطين - ترجمة: سليمان موسى - الأردن/ عمان/ دار ابن رشد للنشر والتوزيع

البخيت - محمد عدنان/ نوفان رجا الحمود - (١٩٩٠م) - دفتر مفصل لواء عجلون (٩٧٠) - عمان - الأردن - منشورات الجامعة الأردنية

سحبان خليفان/ السلط في التاريخ المكان والإنسان/ (١٩٨٤م) مجلة الثقافة - العدد ٤ + ٥/ عمان - الأردن - الجامعة الأردنية.

القاضي، حسن عادل حسن، (١٩٩٥م) أنماط الفراغات الحضرية في مدينة السلط، غير منشورة، الأردن، عمان، كلية الهندسة المعمارية،

عوض - عبد العزيز محمد - الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ - ١٩١٤م - (١٩٦٩م) - مصر - القاهرة - دار المعارف بمصر

مؤسسة اعمار السلط، (١٩٨٩م)، السلط تاريخ وصوره، عمان، الأردن، بالتعاون مع متحف الآثار السياحية (جامعة هارفارد)

عثمان محمد عبد الستار، (١٩٨٨)، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، ١٢٨، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب.

جودي، محمد، (١٩٩٨م)، الفن العربي الإسلامي، الأردن، عمان - دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة

حسين مؤنس (١٩٨١م)، المساجد، سلسلة عالم المعرفة،٣٧ الكويت، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

زين العابدين، محمود، (١٩٩٨م)، جولة تاريخية في عمارة البيت العربي والبيت التركي، لبنان، بيروت، دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع

كبريت، زكريا محمد، (٢٠٠٠م)، البيت الدمشقي خلال العهد العثماني، سوريا، دمشق، وزارة الإعلام

سجل شرعي محكمة السلط، رقم٢، حجة ١٢، (١٣٠٢هـ/١٨٨٤م)

سجل شرعي محكمة السلط رقم٣، - (١٨٨٩م)، (١٣٠٧هـ)

سجل شرعي محكمة السلط، رقم ١٢، (١٣٢٤هـ) - (١٩٠٦م)

سلوى، مخائيل، (٢٠٠٤م)، الخصوصية ودور المعماري العربي في حل إشكالية عمارة المساكن، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، جامعة دمشق، مجلد٢٠، عدد (٢)

صحيفة البشير، عدد ٩٨١، أيلول (١٨٨٩م-١٣٠٦هـ)،

سجل بلدية السلط (١٩٢٣)، رقم ٣

قاجة، جمعة أحمد. (٢٠٠٠م): موسوعة فن العمارة الإسلامية - سوريا- دمشق- دار الحصاد للطباعة والنشر

وزيري، يحيى(١٩٩٩م)، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مصر- القاهرة، مكتبة مدبولي

Conder, Claude, Hath and Moab: Exploration in Syria in 1881 and 1882, Published for the committee of the Palestine Exploration Fund by A, P watt London.

Creater Salt Manicipality (2003), As- Salt the Most Important Buildings in salt- Amman, Jordan

K. Azzam, *The Arch in Islamic Architecture*, Prince of wales's Institute of Architecture, London 1997..



Foto 45: [illegible]

صليبي، ميخائيل (٢٠٠٤م)، الخصوصية ودور المعماري العربي في حل إشكالية عمارة المساكن، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، جامعة دمشق، مجلد٢٠، عدد (٢)

صحيفة البشير، عدد ٩٨١، أيلول (١٨٨٩م-١٣٠٦هـ).

سجل بلدية السلط (١٩٢٣)، رقم ٣

قاجة، جمعة أحمد (٢٠٠٠م)، موسوعة فن العمارة الإسلامية - سوريا- دمشق- دار المصطفى للطباعة والنشر

رزيزي، يحيى(١٩٩٩م)، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مصر- القاهرة، مكتبة مدبولي

Conder, Claude, Hath and Moab: Exploration in Syria in 1881 and 1882, Published for the committee of the Palestine Exploration Fund by A, P watt London.

Creater Salt Manicipality (2003), As Salt the Most Important Buildings in salt- Amman, Jordan

K. Azzam, The Arch in Islamic Architecture, Prince of wales's Institute of Architecture, London 1997.

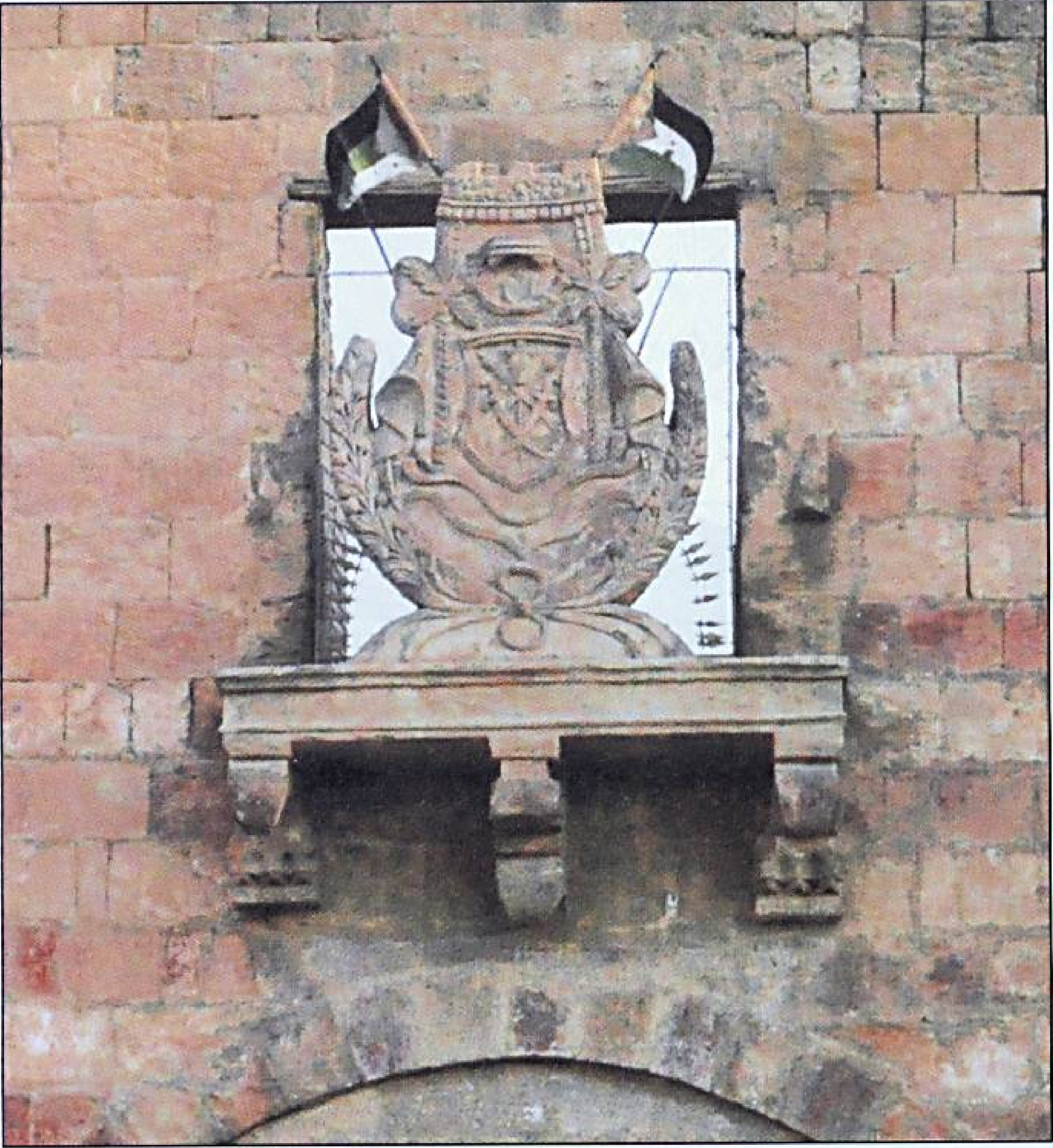


Foto.45: Akabe Kalesi girişi üzerindeki Osmanlı arması



Foto. 43: Baybars Köprüsü üzerindeki kitabe ve aslan figürleri (de.wikipedia.org/wiki/Baibars_I)

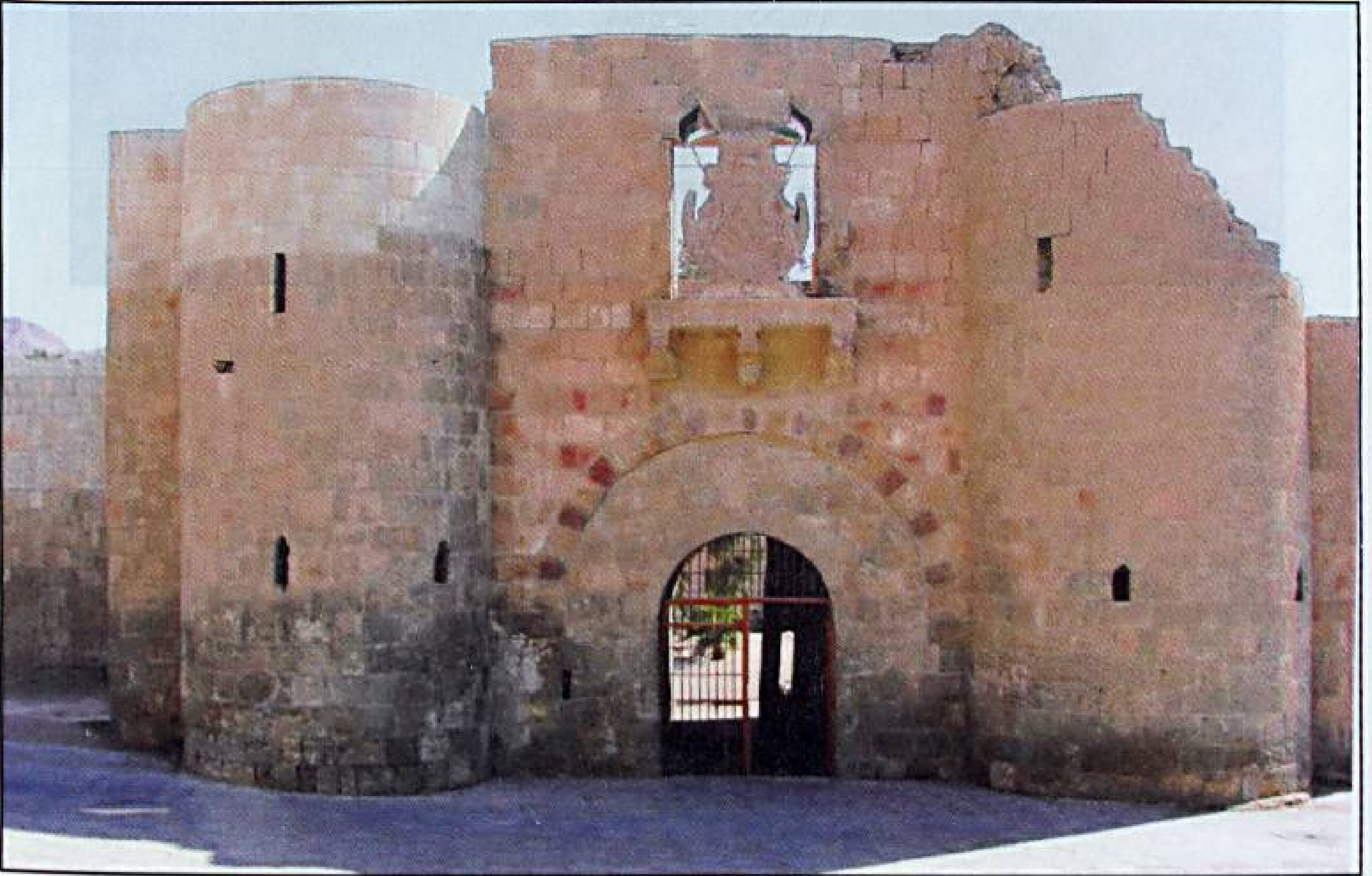
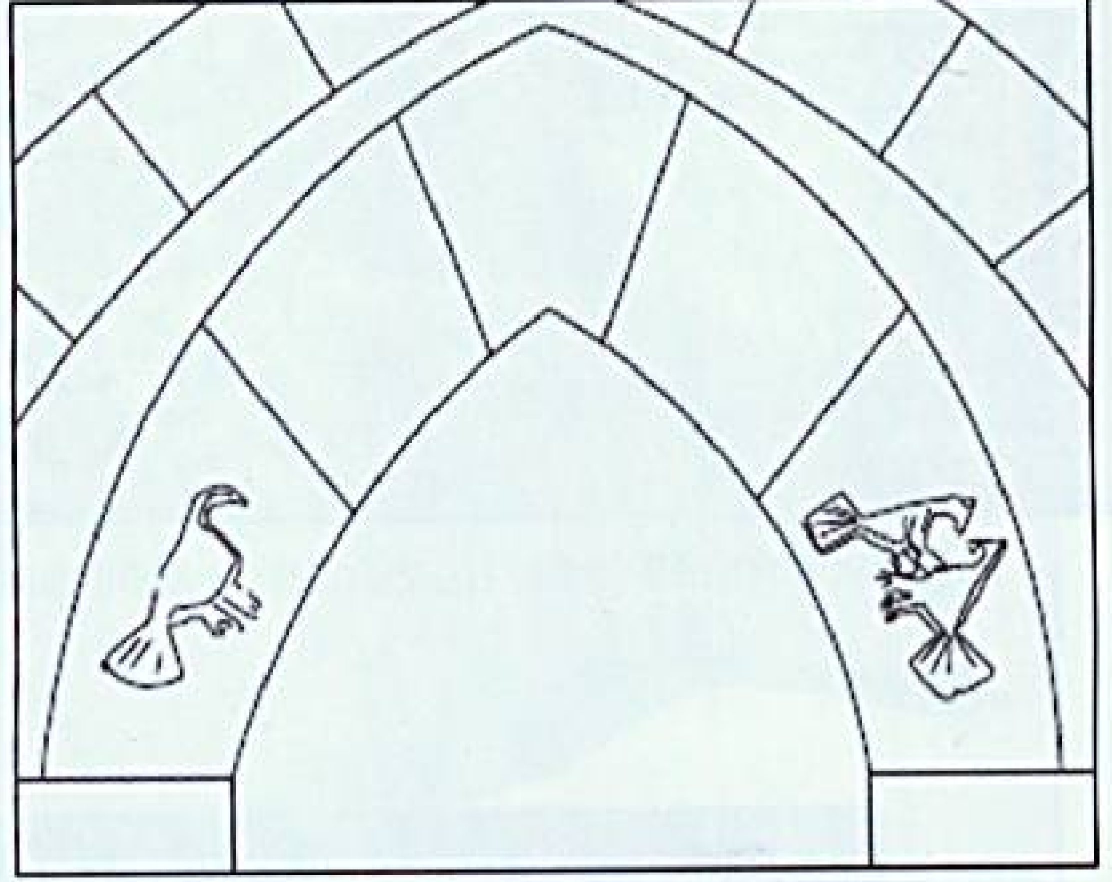


Foto. 44: Akabe Kalesi giriş cephesi



Foto.41: Aclun Kalesi giriş kemerinin solundaki kuş figürü (H.Sözlü'den)



Çiz.2: Kale girişinin kemerindeki kuş figürleri(H.Sözlü'den)



Foto.42: Kerek Kalesi burçlarından biri üzerindeki kitabe ve aslan figürleri (H.Sözlü'den)

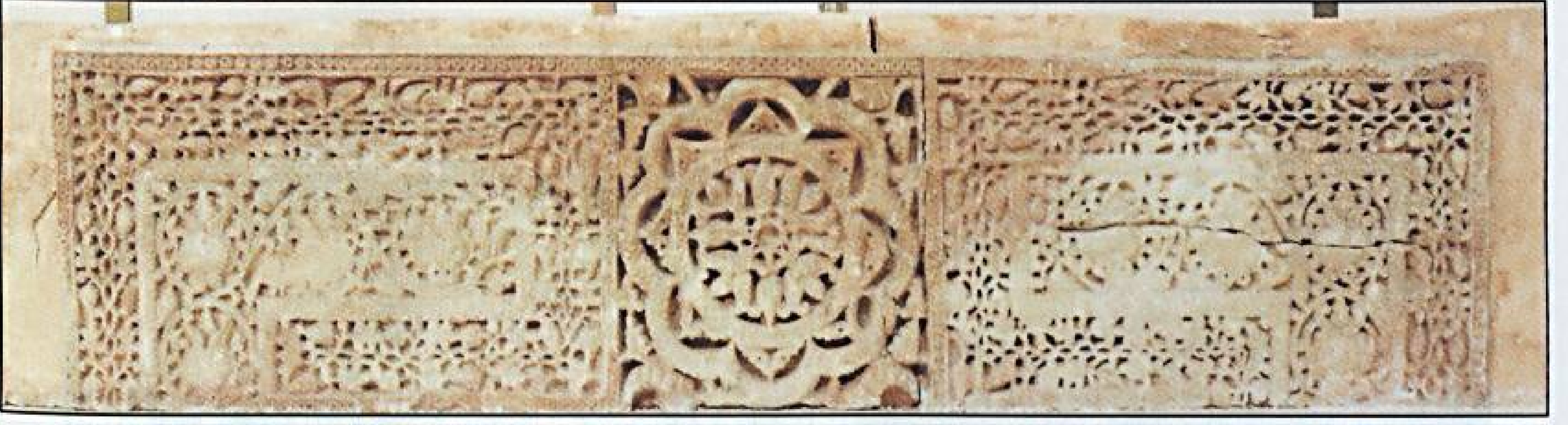


Foto.39: Amman Arkeoloji Müzesi'ndeki kapı lentosu ve üzerindeki süslemeler (discoverislamicart.org)



Foto.40: Aclûn Kalesi girişi kemerinin sağındaki mücadele eden kuşlar (H.Sözlü'den)

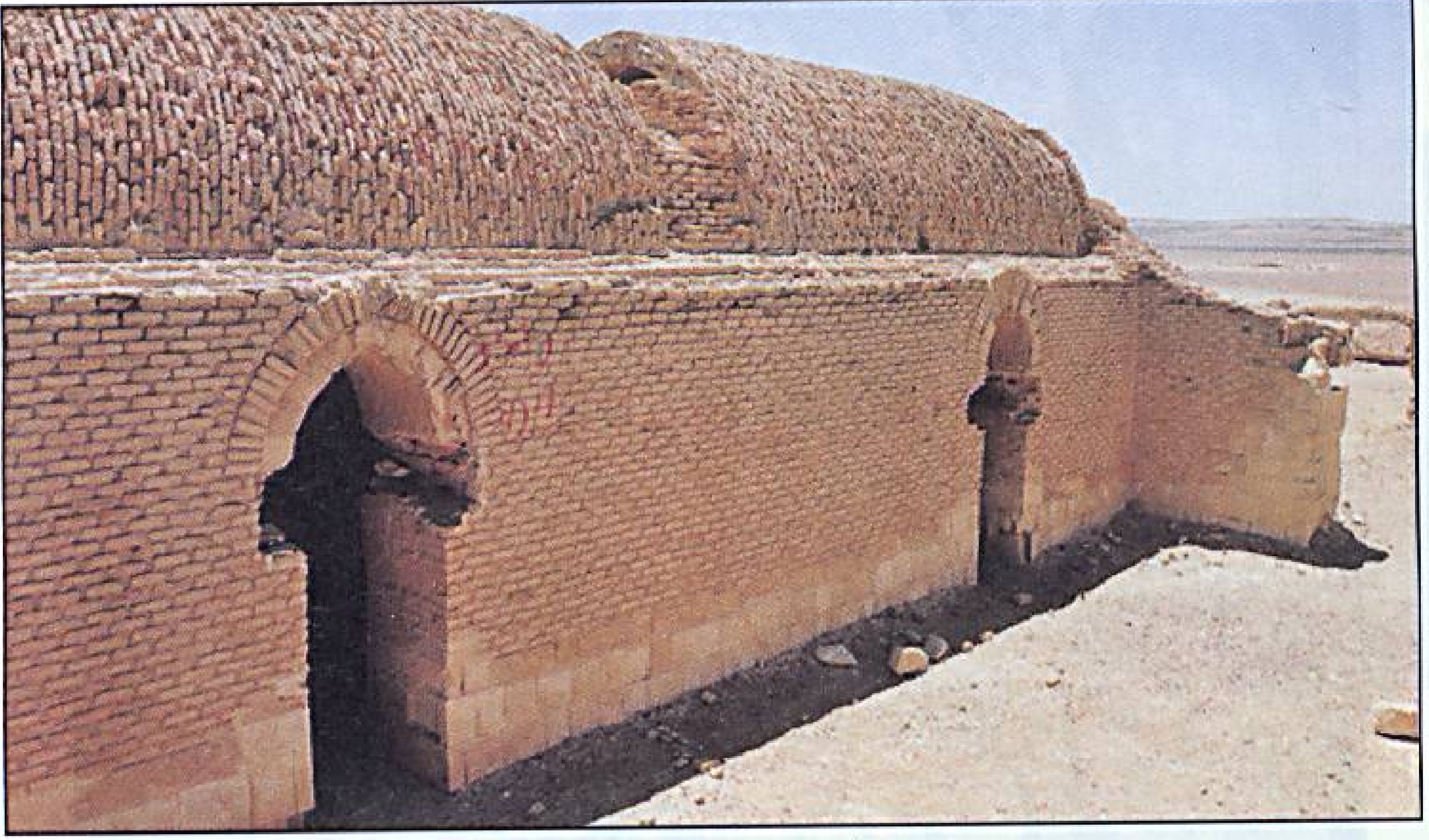


Foto.37: Kasrü'l- Tuba'nın genel görünümü

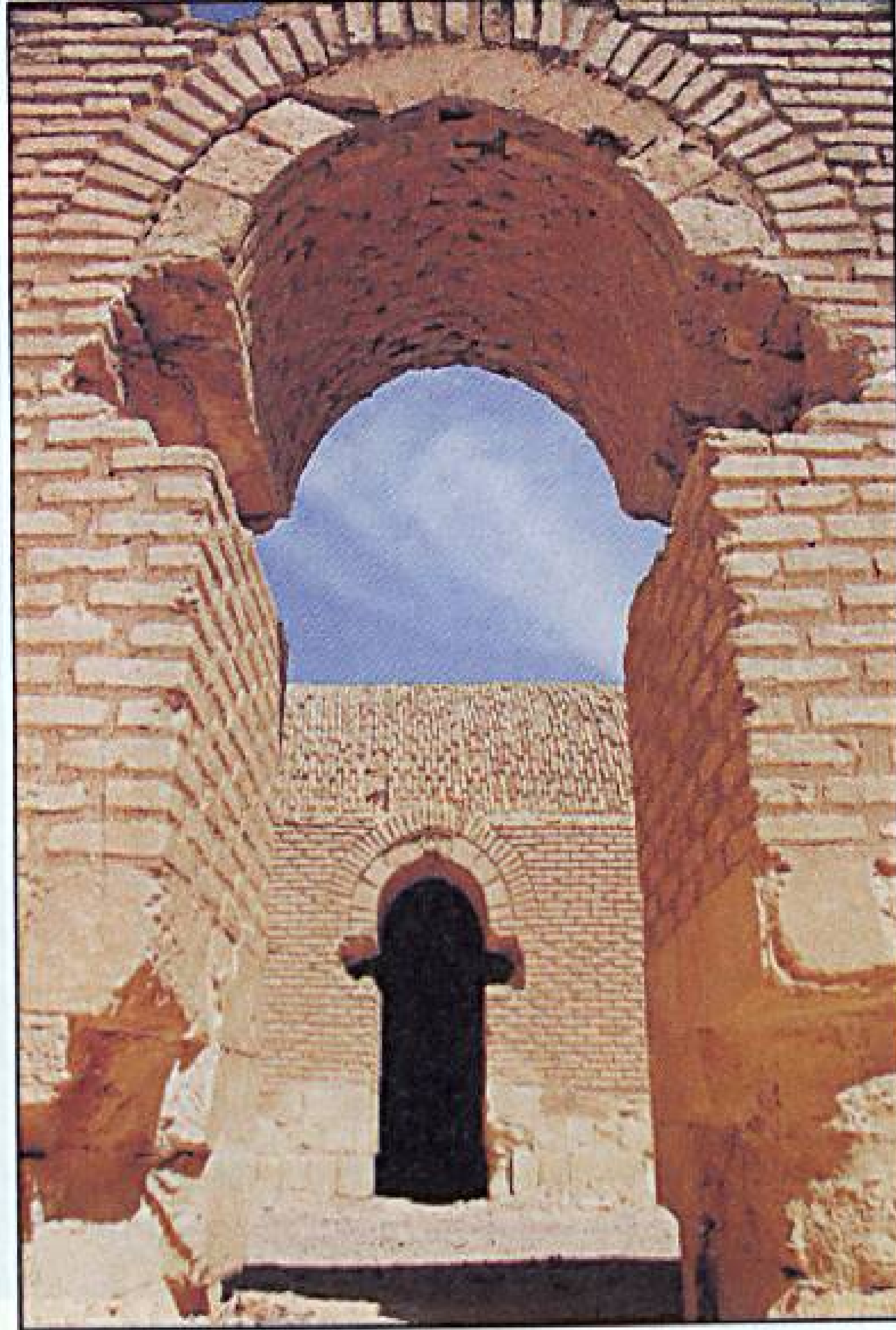


Foto.38: Kasrü'l- Tuba'daki tuğla duvar

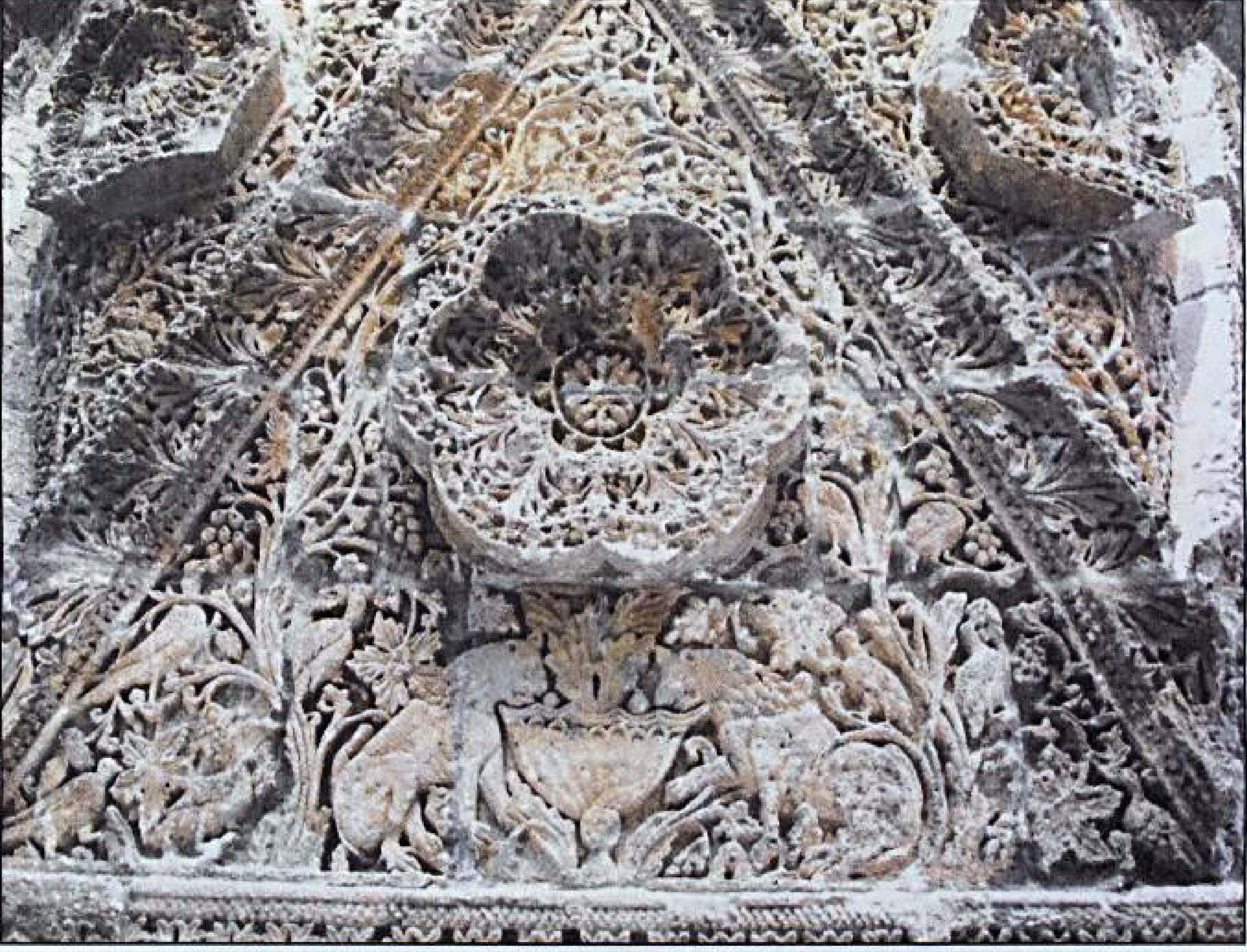


Foto.35: Mşatta Sarayı'ndaki diğer bir figürlü ve bitkisel kompozisyon

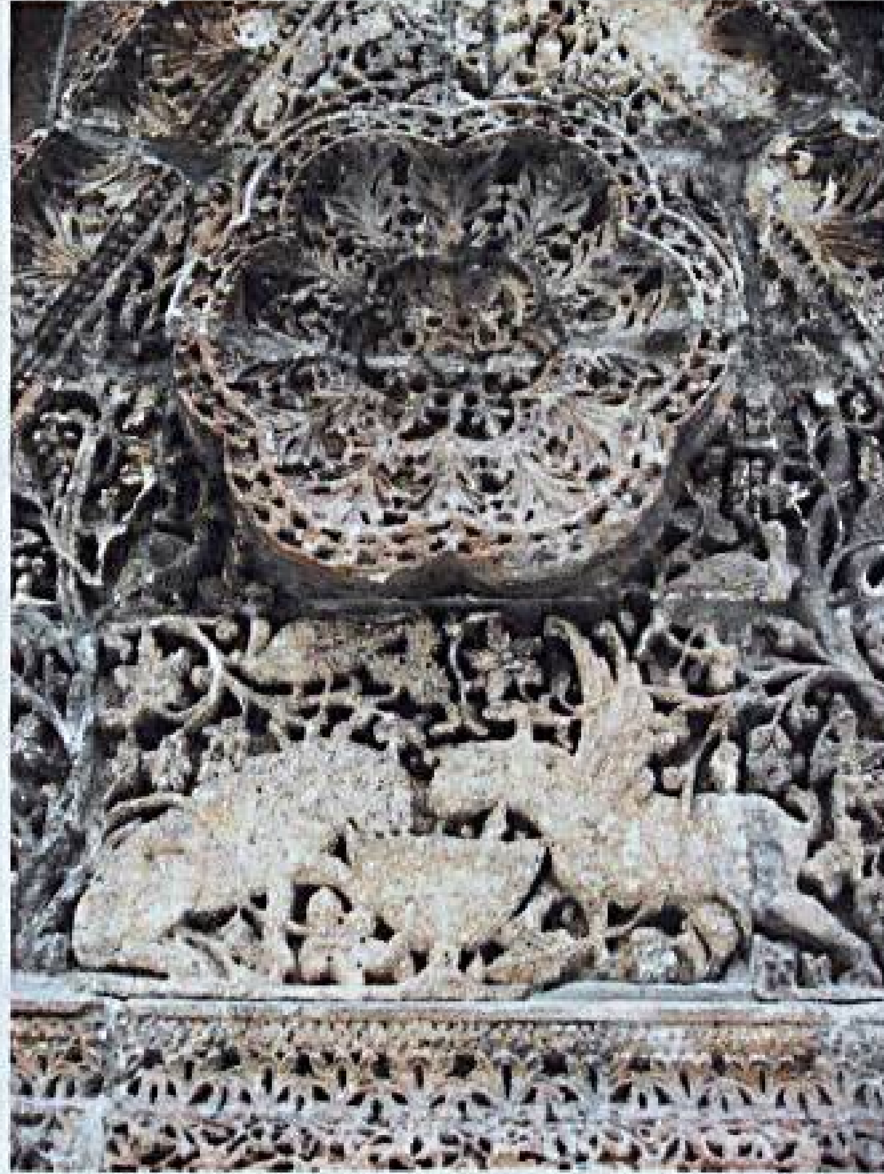


Foto.36: Mşatta Sarayı'ndaki rozetli-figürlü kabartma



Foto.33: Mşatta Sarayı'nın girişinden bir görünüm

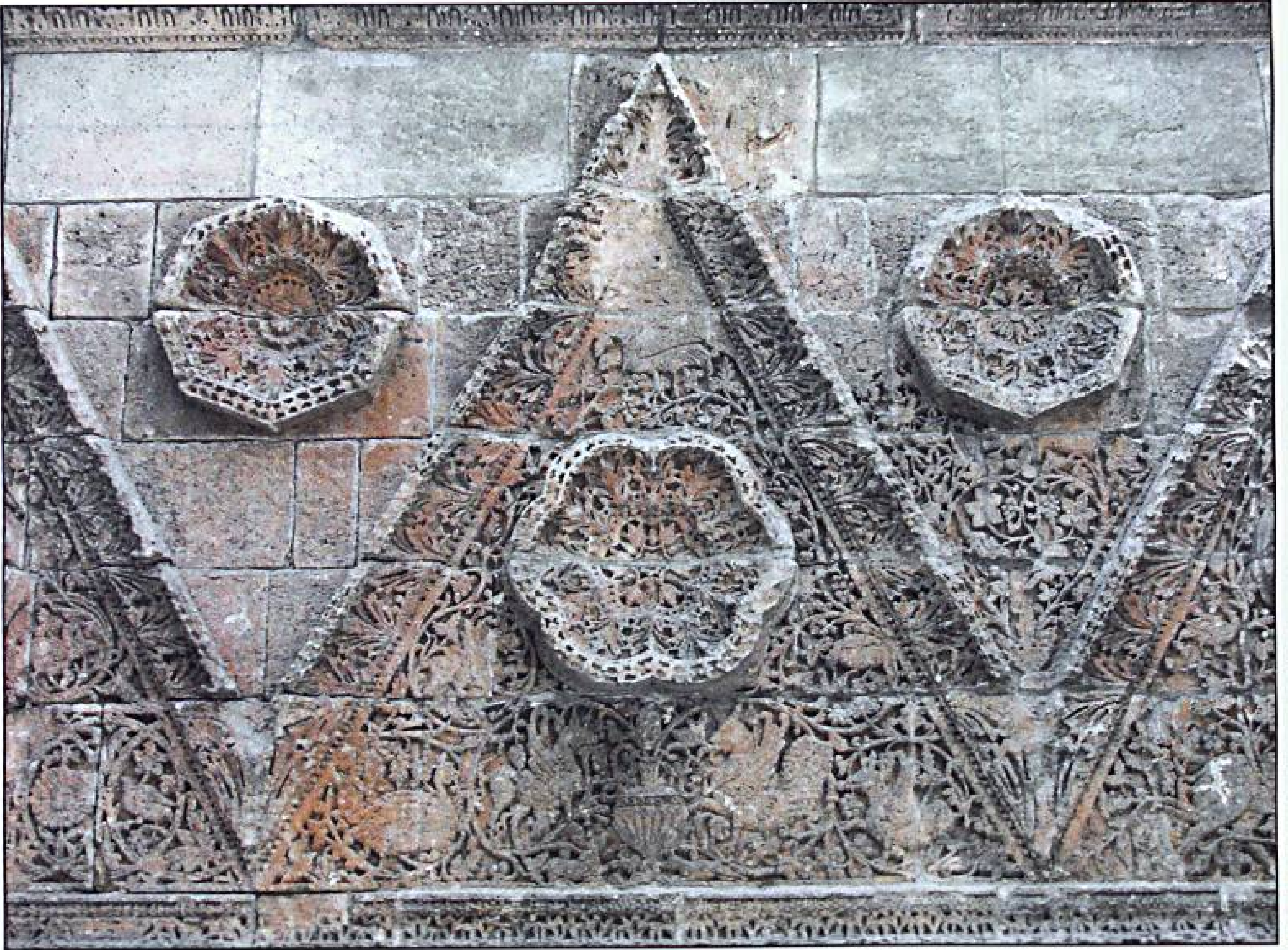


Foto.34: Mşatta Sarayı'ndaki figürlü kompozisyonlardan biri



Foto.31: Amman Kalesi'ndeki Emevî Câmii'nin giriş cephesi

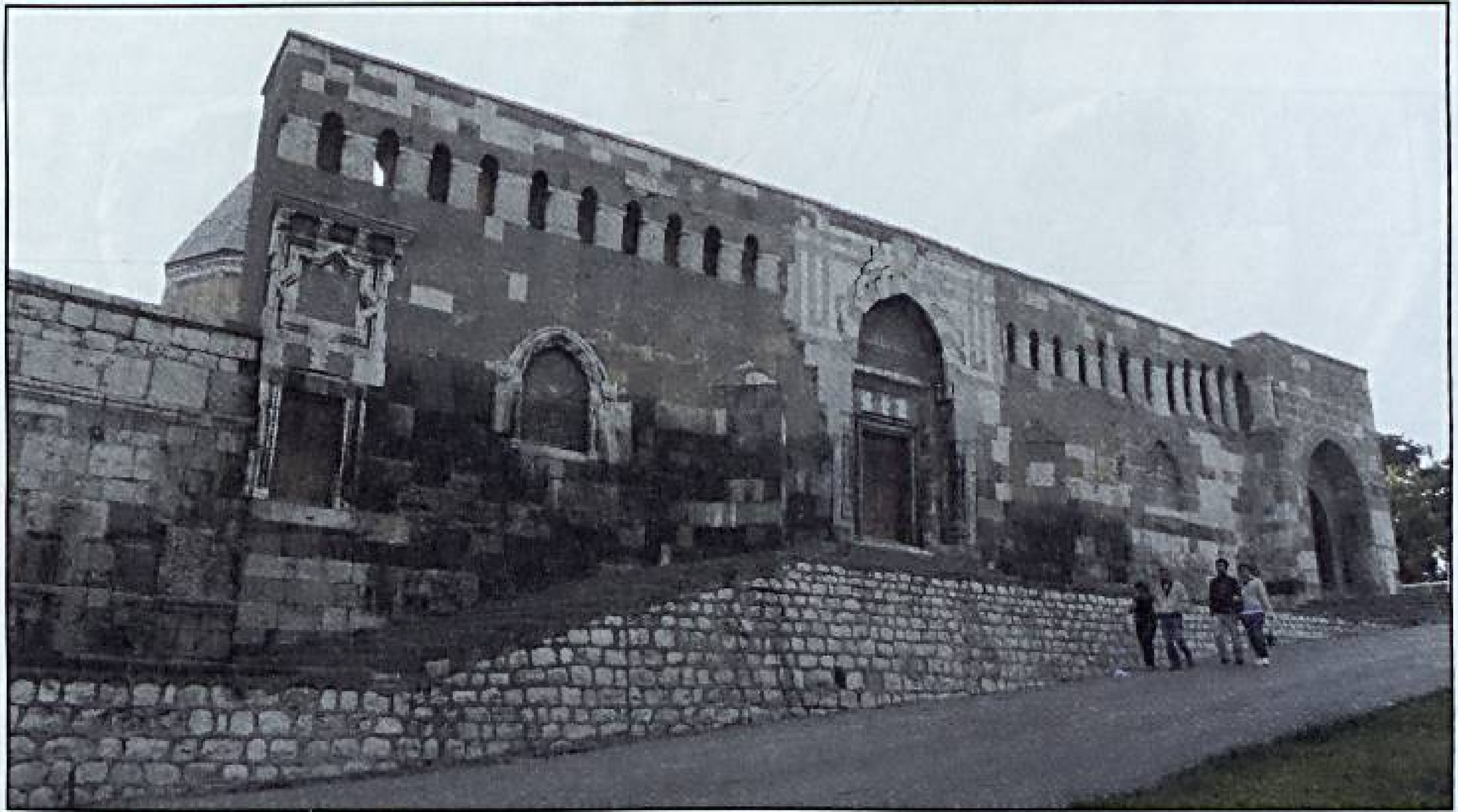


Foto.32: Konya Alâaddin Câmii'nin kuzey cephesi





Foto.24: Kasrın orijinal taş süslemelerindeki yazılar Foto.25: Kasırdaki Antik etkili kuyu bileziği



Foto.26: Kasrü'l- Hallabat'ın içindeki mozaik döşemeli salon ve eyvanlar



Foto.20: Kasrü'l- Hallabat'ın genel görünümü



Foto.21: Hallabat Câmii'nin genel görünümü



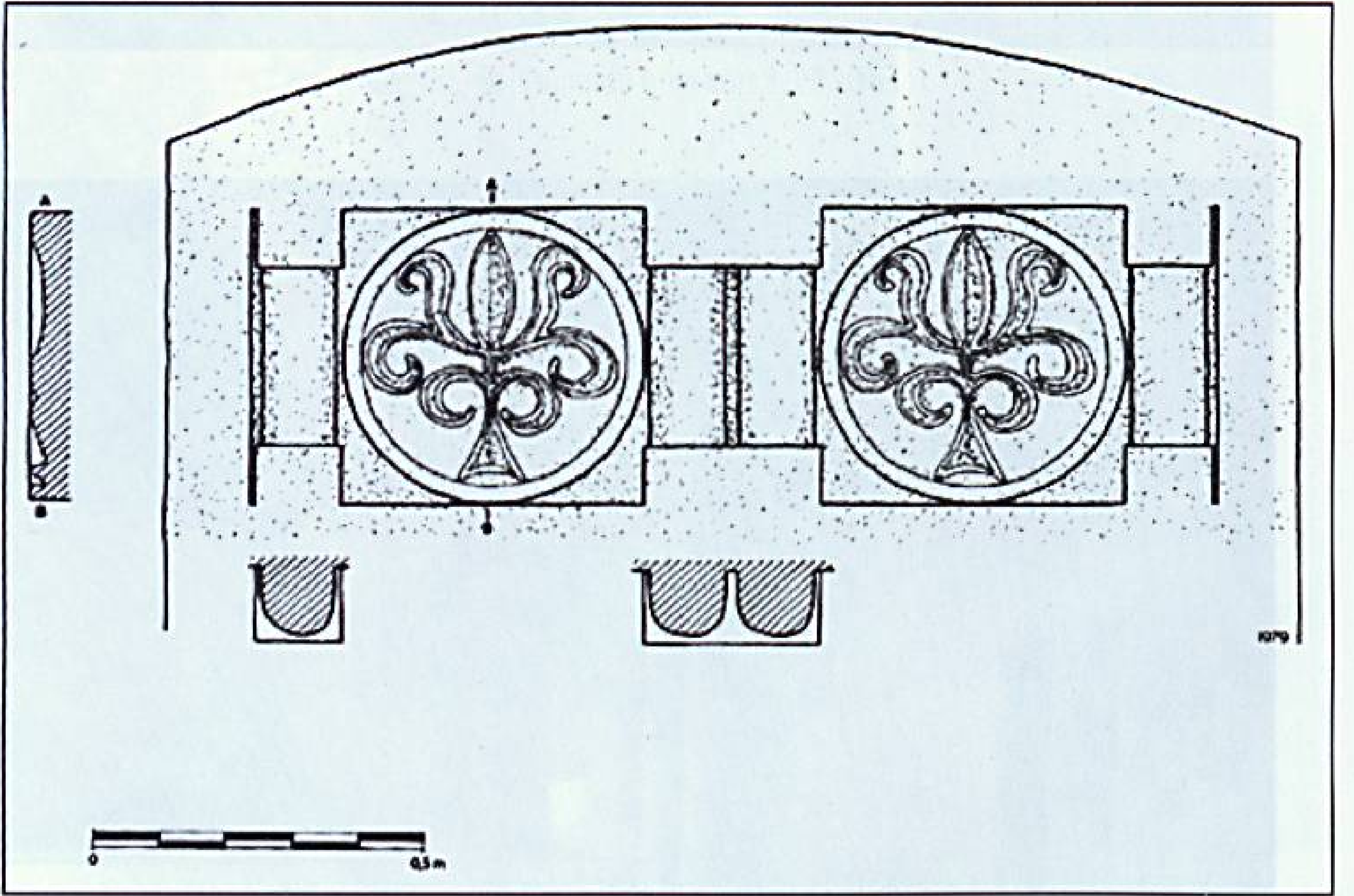
Foto.18: Amman Müzesi'ne Hırbete'l- Mefcer'den getirilmiş alçı rozet



Foto.19: Amman Müzesi avlusundaki taş rozet



Foto.17: Kasrü'l- Harane odalarındaki bitkisel alçı süslemeler



Çiz.1: Bitkisel alçı süslemelerin çizimi (www.archnet.org)



Foto.15: Kasrın girişi üzerindeki alçı panolar

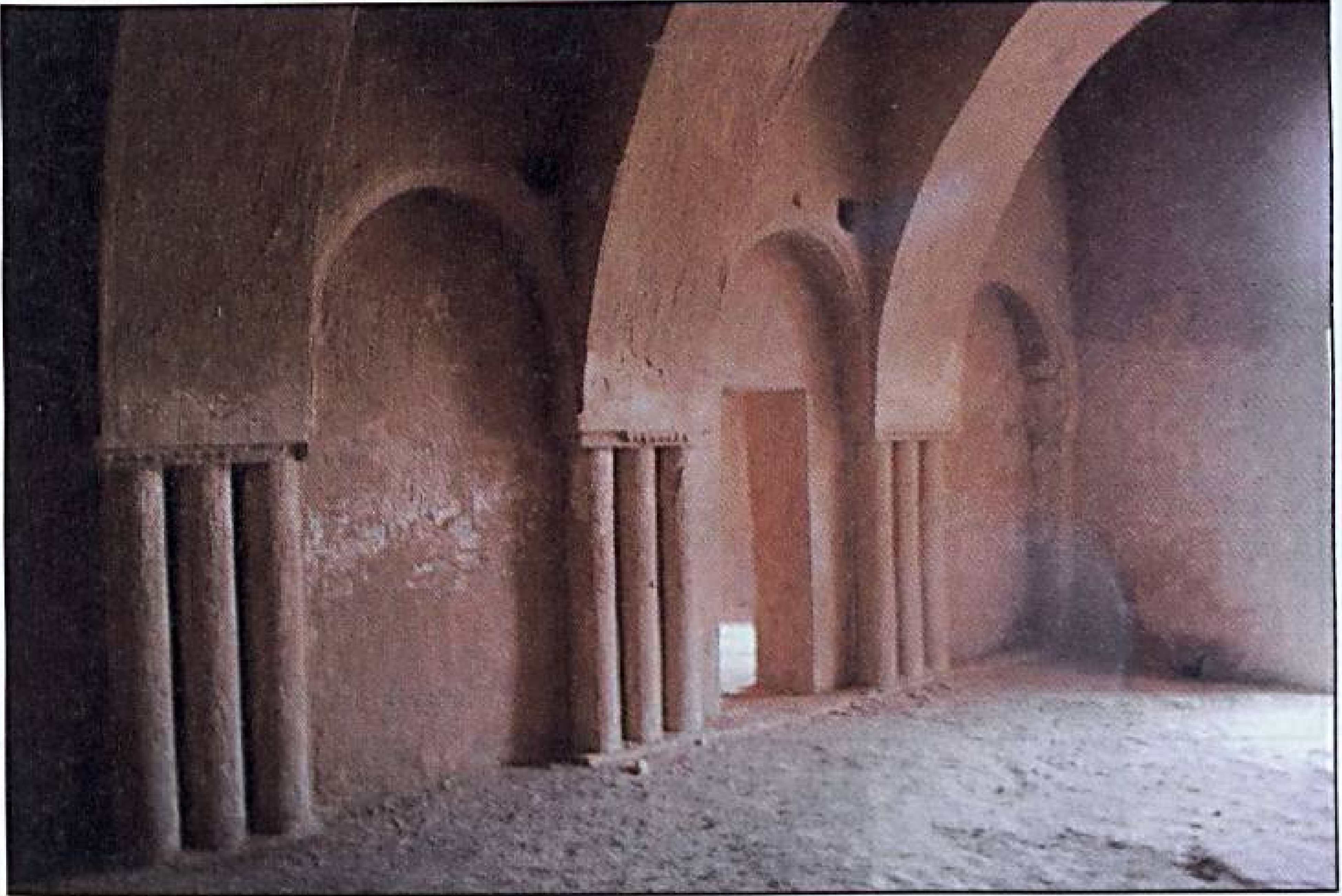


Foto.16: Kasrü'l- Harane'nin ikinci katındaki salonlardan biri (www.archnet.org)

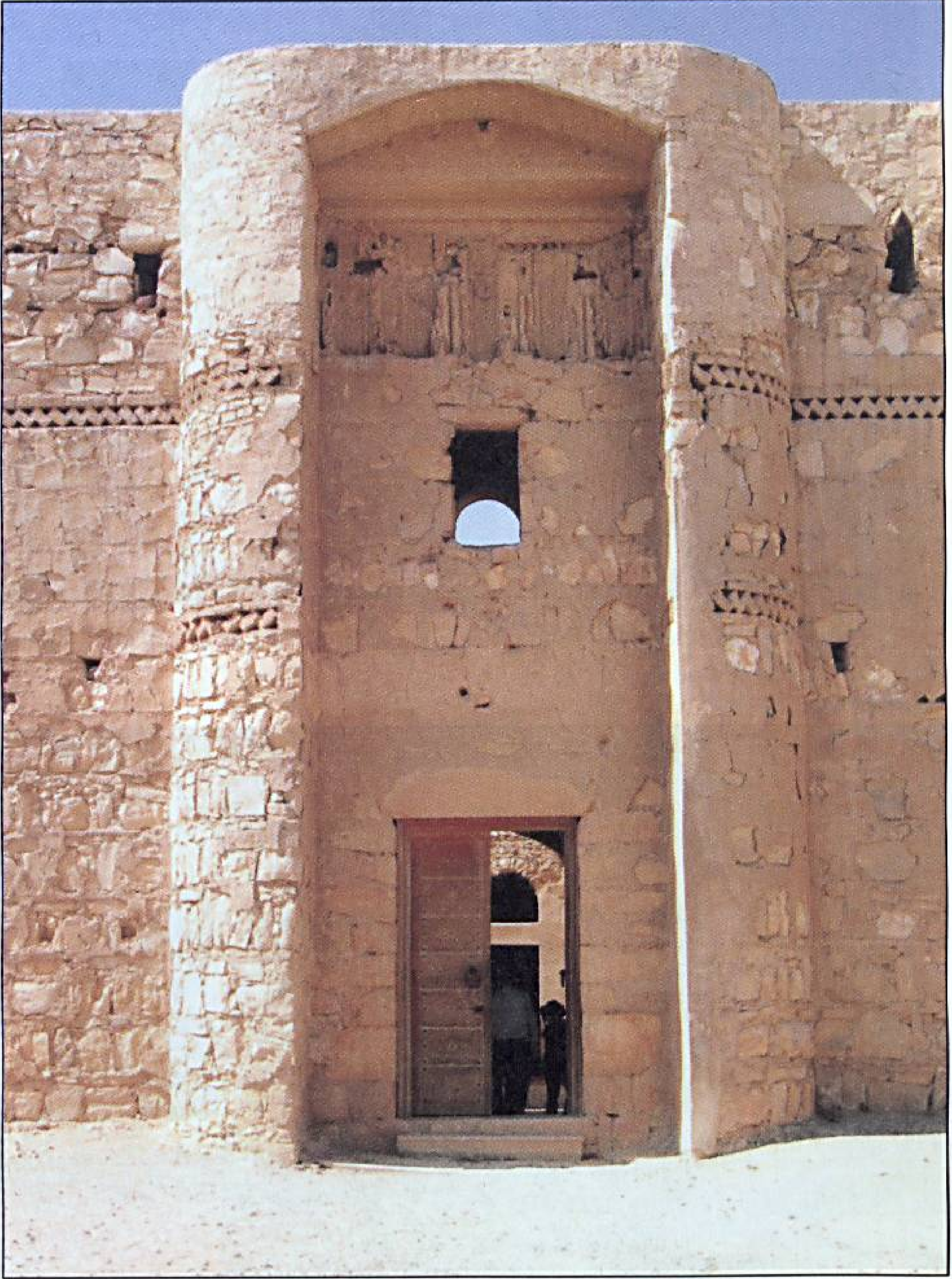


Foto.14: Kasrü'l- Harane'nin girişi ve tuğla süslemeleri



Foto.12: Antik etkili insan figürleri



Foto.13: Kasrü'l- Harane'nin genel görünümü



Foto.9: Havuz kenarındaki Hint etkili sahne



Foto.10: Müzik aleti çalan ayı figürü



Foto.11: Antik etkili dansöz figürü

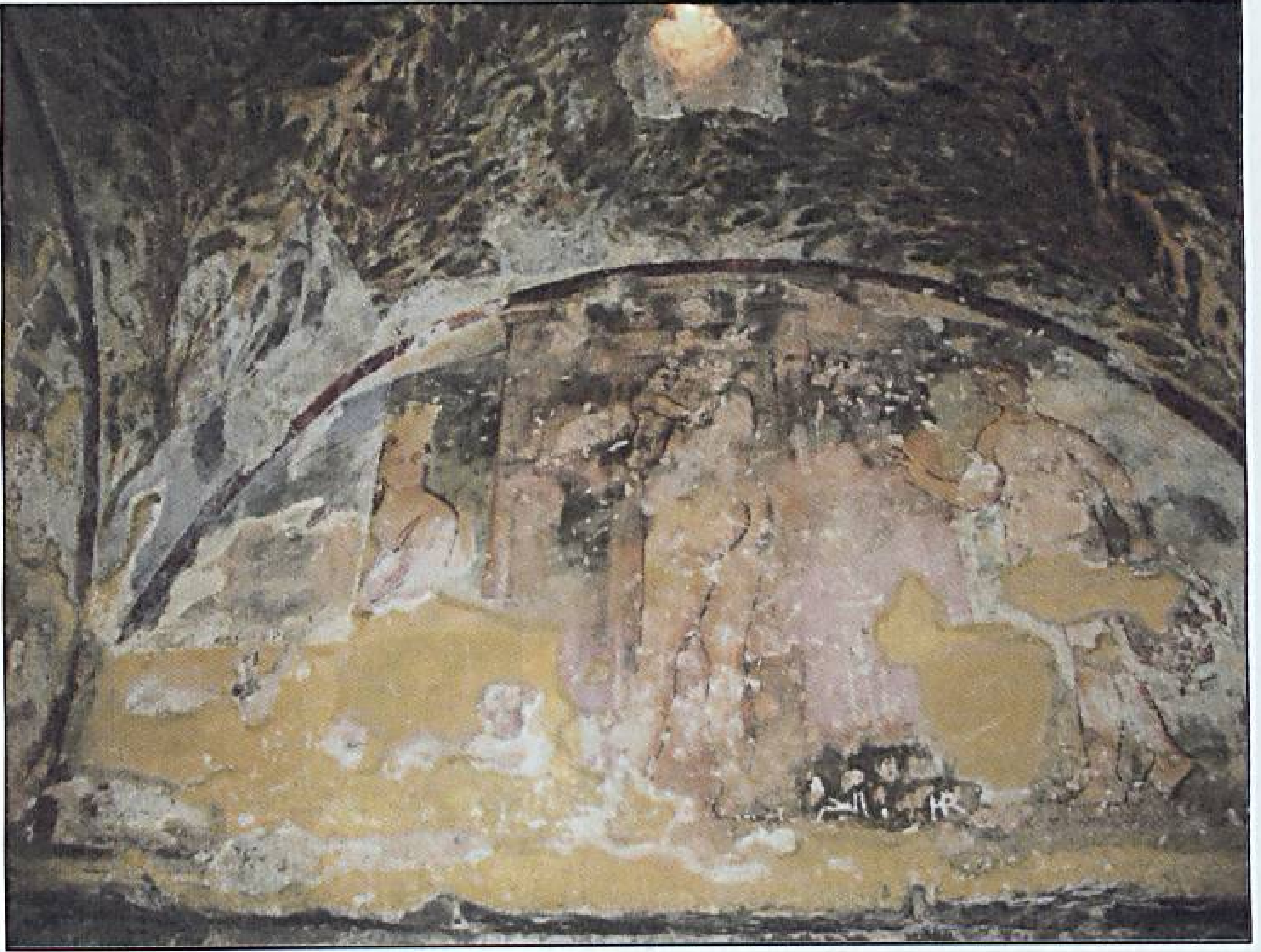


Foto.7: Hamamdaki yıkanma sahnesi



Foto.8: Kasırdaki Antik etkili freskolar



Foto.5: Kasırdaki halife ve diğer hükümdarları gösteren sahne



Foto.6: Kuseyr Amra'daki halife ve maiyetini gösteren taht sahnesi



Foto.3: Kuseyr Amra'nın içerisindeki beşik tonoz örtünün görünümü



Foto.4: Hamamın kubbesindeki kozmolojik tasvir

Fotoğraflar ve Çizimler

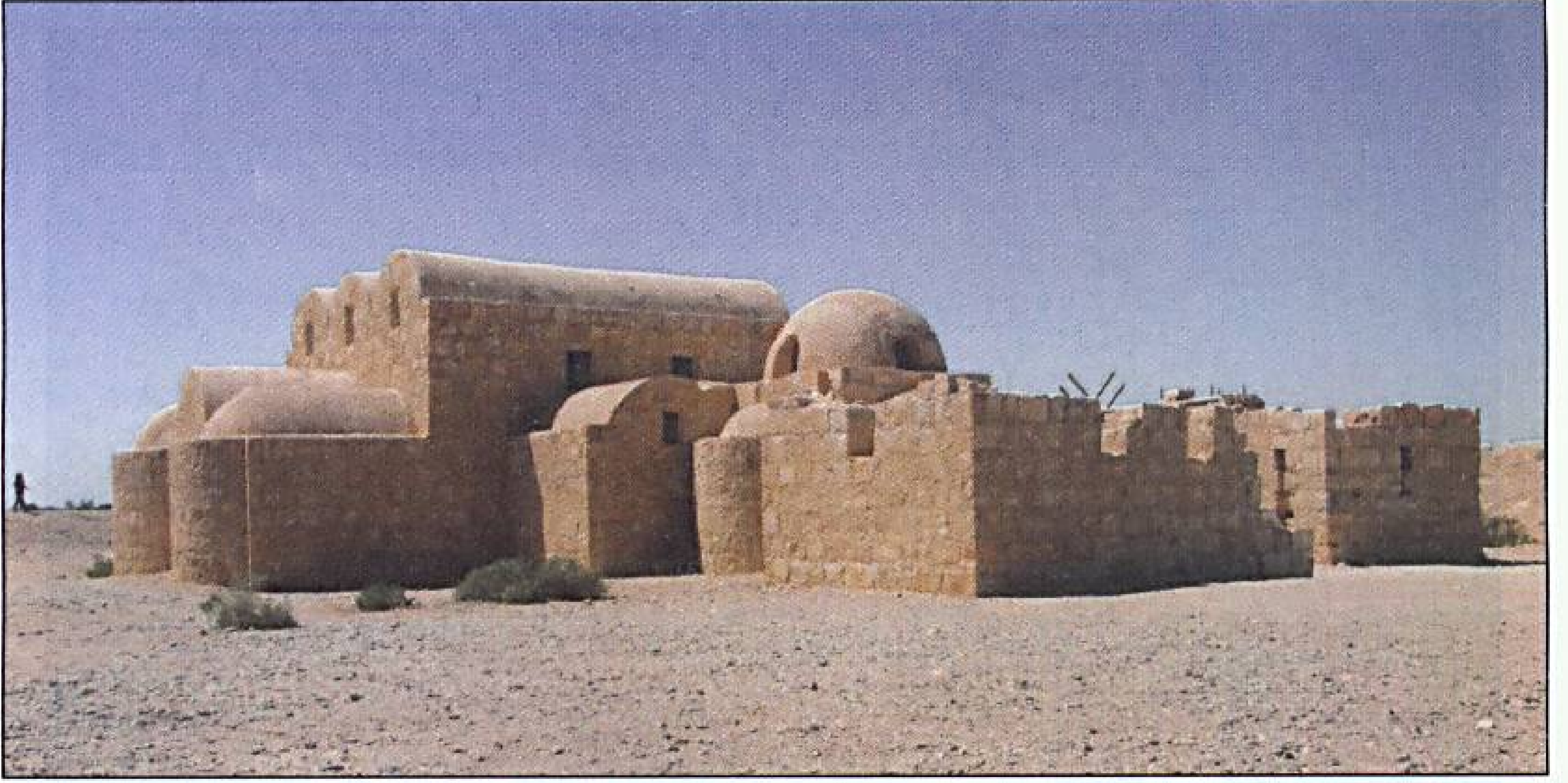


Foto.1: Kuseyr Amra'nın genel görünümü



Foto.2: Kuseyr Amra'nın içinden bir görünüm

Harita



Harita 1: Ürdün Haritası (R.G. Khouri'den)

Taşkın, Ü., "XVI. Yüzyılda Aclun Şehri ve Kasabalarının Nüfusu, (The Population of Ajlun and Ajlun's Township in the Sixteenth Centuary)", Turkish Studies, vol. 8/7, Summer 2013, s.645-654.

Tomar, C., "Ürdün", *DİA*, c..XXXII, İstanbul 2012, s.353-359.

Yetkin, S.K., *İslam Mimarisi*, Ankara 1965.

Yiğit, İ., "Emeviler", *DİA*, c.XI, İstanbul 1995, s.87-104.

www.discoverislamicart.org

www.urbanghostsmedia.com,

www.qantara-med.org

www.wikipedia.org/wiki/Ürdün

www.wikipedia.org/wiki/Akabe

Bostan, İdris "Aclun", *DİA*, c.I, İstanbul 1988, s.326-327.

Creswell, K.A.C., *A Short Account of Early Muslim Architecture*, Cairo 1989.

Çaycı, Ahmet, *Ürdün'de Osmanlı Mimarisi*, Konya 2006.

Çubuk, V., "Ürdün", *İA*, c.XIII, Eskişehir 1997, s.115-119.

Evliya Çelebi, *Seyahatname, (Anadolu, Suriye, Hicaz)*, (1671-1672), c.IX, İstanbul 1935.

Grabar, O., *İslam Sanatının Oluşumu*, İstanbul 1988.

Gündoğdu, H., *Türk Mimarisinde Figürlü Taş Plastik*, İ.Ü.E.F., (Yayınlanmamış Doktora Tezi), İstanbul 1979.

__________, "Ürdün'deki Kasrü'l- Harane'nin Plan, Mimarî ve Süslemelerinin İslam Sanatındaki Yeri", *XVII. Ortaçağ Türk Dönemi Kazıları ve Sanat Tarihi Araştırmaları Sempozyumu*, 02-05 Ekim 2013.

Khouri, R.G., *Art and History of Jordan*, Italy 2011.

Koçak, Tülin, *Ürdün'ün Turizm Coğrafyası*, Marmara Üniversitesi, Ortadoğu Araştırmaları Enstitüsü, (Yayınlanmamış Yüksek Lisans Tezi), İstanbul 2010.

Öney, Gönül, "Anadolu Selçuklu Mimarisinde Arslan Figürü, (Lion Figures in Anatolien Seljuk Architecture)", *Anadolu (Anatolia)*, sy.XIII, Ankara 1971, s.1-41.

Savignac, R., "Les Chateaux Arabes", *Mission Archaelogique en Arabie*, Paris 1922, p.533-552.

Sourdel, D., "al-Karak", *Encyclopedia of Islam*, vol. IV, Leiden 1978, p.609.

Sözlü, Halil, *Ürdün-Aclun'daki Mimarî Eserler*, Yüzüncü Yıl Üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü, (Yayınlanmamış Yüksek Lisans Tezi), Van 2009.

Stripling, G.W.F., *The Ottoman Turks and the Arabs (1511-1574)*, Philadelphia 1977.

Bizans, Sâsânî, Mezopotamya ve Hint kültürleri ile Orta Asya Türk sanatına kadar uzanan çevresel kültürlerin etkisiyle ilk oluşum safhasını geçirmiştir. Bölge eserleri, bu çevrelerin dışında diğer İslâm devletlerinden olan Emevîler, Abbâsîler, Fâtımîler, Eyyûbîler, Selçuklular, Memlukler ve Osmanlılar döneminde ortaya konan sanat üsluplarının da etkisi altında kalmıştır.

Bu çok kültürlülük çerçevesinde yukarıda kısmen değinmiş olduğumuz eserler üzerinde görülen ve öne çıkan bezeme örnekleri; yer ve duvar mozaikleri, freskolar, plastik cephe elemanları, taş, tuğla, alçı ile vücuda getirilmiş yüzey ve dekorasyon unsurları, taşlar üzerine yapılmış geometrik, bitkisel, figüratif ve plastik etkili kabartma süslemelerini bir arada görmek mümkündür. Bunların içerisinde insan, hayvan, doğa resimleri kapsamında, fresko ve mozaikler, palmet, rûmi, akantus, asma yaprakları, üzüm salkımları, rozetler, çam kozalakları, inci dizileri, ajurlu şekilde işlenmiş alçak ve yüksek kabartmalar, günlük eşyalar, kantaroslar, kâseler, kâseler içinde meyveler, hasır örgü şekilleri, ajurlu pencere çerçeveleri, çelenk kompozisyonları ilk akla gelenlerdir. Bunların yanında Kuseyr Amra'daki taht sahneleri, ayakta insan ve hayvan figürleri, kentauros gibi burç tasvirleri, çeşitli kuş türleri, aslan, kaplan, ayı, deve, at, tilki, kurttan başka grifon gibi efsanevi hayvanlar da bu tasvirlerin konusunu oluşturmuşlardır. Kuşkusuz bunların yeni bir anlayışla ortaya çıkan çöl sarayları gibi yeni yapı tiplerinde görülmeleri, yörede geçmişi bulunan üslupların fikrî bir platforma dönüşmesi biçiminde değerlendirilmelidir.

Günümüz Ürdün yönetimine düşen başlıca görev ise bölgede henüz kapağı açılmamış bu hazinelerin kazı ve araştırmalarla daha tanınır hale getirilmesidir.

Kaynakça

Almagro, A.-Jimenez, P., "The Umayyed Mosque of the Citadel of Amman", *ADAJ*, vol. XLIV, Amman 2000, p.459- 475.

Beksaç, E., "Emeviler (Sanat)", *DİA*, c.XI, İstanbul 1995, s.104-108.

Bilge, M.L., "Akabe", *DİA*, c.II, İstanbul 1989, s.209-210.

karşımıza çıkmaktadır. Hayvanlar âleminde en güçlü yırtıcılardan biri olmaları nedeniyle aslanlar, kalelerin giriş kapılarında, gücü, hâkimiyeti, koruyuculuğu, bağımsızlığı, tılsımı, cesareti sembolize eden anlamlar içerisinde tasvir edilirken, aynı kabartmaların paralellerini medrese, kervansaray, mezartaşı, köprü vb. mimarî unsurlar üzerinde de bol miktarda görmekteyiz.[30]

Ürdün'deki İslâmî dönem yapılarından üstünde durmaya değer son eser Akabe Kalesi'ndeki Osmanlı armasıdır (Foto.44).

Eski kaynaklarda daha çok Eyle (Elath) olarak anılan Akabe, Kızıldeniz'in doğu kolu üzerinde yer alan, Ürdün'ün en güneyindeki liman şehirlerinden birisidir. Helva veya es-Suvvan Kalesi olarak da adlandırılan kale, şehrin körfezden ya da değişik çevrelerden gelen ticaret erbabının güvenliği için yaptırılmış küçük ölçekli kalelerdendir.[31]

Memluk Sultanı Kansu Gavri (1309-1340) döneminde yaptırılmış olan kalenin, daha sonra Osmanlı Sultanı III. Murad tarafından 1587 ve 1628'de onarımları yaptırılmıştır.

Kalenin giriş kapısı üzerine, Sultan Abdülmecid döneminde yaygınlaşan geleneğe uygun şekilde bir Osmanlı arması yerleştirilmiştir[32] (Foto.45). Söz konusu arma, kapı kemeri üzerindeki üç adet taş konsola oturtulan yatay taş bloğa yerleştirilmiş olup yüksek plastik değerlere sahiptir.

Değerlendirme ve Sonuç

Tamamı olmasa da önemli bir kısmını gözden geçirdiğimiz, yer yer de değerlendirmesini yaptığımız İslâmî dönem Ürdün yapıları, yöredeki çok kültürlülüğe ve farklı dönem üslup özelliklerine göre vücuda getirilmiş eserlerdir. Tarihî sürecin doğal sonucu olarak Mısır'dan Helenistik sanata, Selevkoslara, Nabatlılara, Romalılara,

---

30 Öney, "Anadolu Selçuklu Mimarisinde Arslan Figürü, (Lion Figures in Anatolien Seljuk Architecture)", *Anadolu (Anatolia)*, sy.XIII, Ankara 1971, s. 1-41; Gündoğdu, *Türk Mimarisinde Figürlü....*, müteaddit sayfalar.

31 http://tr.wikipedia.org/wiki/Akabe; Evliya Çelebi, *Seyahatname*, *(Anadolu, Suriye, Hicaz)*, *(1671-1672)*, c. ix, İstanbul 1935, s. 595; Bilge, "Akabe", *DİA*, c. ii, İstanbul 1989, s. 210; Çaycı, *a.g.e.*, s. 10; Tomar, a.g.m., s. 354-355.

32 Çaycı, *a.g.e.*, s. 11, Foto.16.

tarafından 1184'te, kalenin yaptırıldığı yıllardan kalmış olduğu bilinmektedir.[25]

Ürdün'ün orta kesimlerinde Amman'ın güneyinde, Ortaçağın önemli şehirlerinden Karak ya da Kerek olarak bilinen kaledeki figürlü kabartmalar da konumuz açısından dikkat çekicidir. Söz konusu kalenin ilk yapımı, Nabatlılar zamanına kadar inmekle birlikte 1183 yılında sur ve burçları Selahaddin Eyyûbî tarafından onartılmış ve yeni eklemeler yapılmıştır[26].

1211 yılında meydana gelen depremden sonra kalenin yıkılan burç ve duvarları tekrar onarılırken, 1261 yılında Memluk Sultanı Baybars'ın hâkimiyetine giren kalede, yeniden onarımlar yapılmış ve burçlar yenilenmiştir.[27] Bu onarım sırasında eklenen bir burç üzerinde, silindirik gövdenin üst bölümünü kuşatan kırmızı taş üzerine, boydan boya kitabe yazılmış iken, aralara da karşılıklı birer aslan kabartması işlenmiştir (Foto.42). Sağa ve sola doğru ilerler tarzdaki aslanların ön ayakları ilerde, kuyrukları sırt üzerine paralel şekilde uzanmış ve boyun kısmında sonlanmıştır. Baybars'ın arması olduğuna şüphe bulunmayan aslan ya da pars figürleri, burada kaleyi koruyucu sembolik bir figür olarak bilinmektedir[28].

Kerek Kalesi'nin sivri kemerli girişi üzerinde yer alan Baybars'a ait kitabenin iki yanında, iki aslan kabartması daha bulunmaktadır.[29] Bu kabartmanın bir benzeri Kahire'de Baybars Köprüsü üzerinde, Baybars'ın arması olarak sembolize edilmiştir (Foto.43). Kale burcundaki gibi simetrik ve yönleri kitabeye bakan aslan kabartmaları yandan ve ilerler şekilde, ön ayaklarından biri arma vaziyetinde ileri atılmış olup kuyrukları, sırt üzerinde kavis yapmış ve boyun hizasında sonuçlanmaktadır.

Aslan ya da pars oldukları anlaşılan her iki kabartmanın da benzerleri, Anadolu Selçuklu yapılarında aynı tarzda bol örneklerle

---

[25] Çaycı, *a.g.e.*, s. 8; Sözlü, *a.g.t.*, s. 1; Khouri, *a.g.e.*, s. 50.

[26] Sourdel, "al-Karak", *Encyclopedia of Islam*, vol. IV, Leiden 1978, s. 609; Çaycı, *a.g.e.*, s. 12; Sözlü, a.g.t., s. 90, Foto.169; Khouri, *a.g.e.*, s. 83; Tomar, a.g.m., s. 355.

[27] Çaycı, *a.g.e.*, s. 12.

[28] Gündoğdu, *Türk Mimarisinde Figürlü.....*, , s. 450-vd.

[29] www.urbanghostsmedia.com.

andıran kabartma, girift geometrik ve bitkisel süslemeler dikkat çeker.[22] Bunlar arasında kıvrık dallar, rumîler, palmetler, üzüm salkımları, çam kozalağını hatırlatan rozet içi süslemeler teşhis edilebilmektedir. Kompozisyon, ortada kare tabana oturtulmuş sekiz parçalı rozet ile iki yanda birbirinin benzeri dikdörtgen alanlara yerleştirilmiş bitki süslemelerinden ibarettir.

Ürdün coğrafyası, eski ticarî kervan ve hac yolcularının güzergâhı olduğundan, kuzeyden güneye erken dönemlerden itibaren yol emniyeti ve hâkimiyetini sağlamak amacıyla çeşitli tarihlerde yaptırılmış, onarım görmüş veya takviye edilmiş kalelerin mevcut olduğu bir coğrafyadır. Bu kalelerde, giriş kapıları ya da burçlar üzerinde, dikkat çeken yerlerde İslâmî dönemde, sembolik mahiyette figürlü kabartmalara da rastlanmaktadır.

Bunlardan Aclun Kalesi'nin iç kale girişi üzerinde, sivri kemerin iki yanında yer alan kuş figürlü iki kabartma dikkat çekicidir[23]. Sağda olanı iki kuşun mücadelesini (Foto.40, Çiz.2), solda olanı ise tek başına bir kuşu (Foto.41) konu edinmiştir. Bunların sembolik mahiyette yüzeysel işlenmiş, Anadolu Selçuklu dönemi kervansaray (Karatay Hanı, Denizli Akhan), türbe (Tercan Mama Hatun), medrese yapılarında ve Diyarbakır surlarında[24] karşımıza çıkan kuş kabartmalarından sağdakiler karşılıklı mücadele içinde, pençeleri ve geniş yelpaze şeklindeki kuyruklarıyla dikkat çekerler. Diğeri, tek başına sivri kemere yönlendirilmiş, kaba hatlarla işlenmiş bir kabartmadır. Kuşların genellikle bekçilik anlamında çeşitli yapılar üzerinde sembolize edildikleri bilinmektedir.

İç kale girişinin iki yanında yer alan bu kabartmaların, Selahaddin Eyyûbî döneminde İzzeddin Usame adlı bir komutan

---

22 www.discoverislamicart.org.

23 İdris Bostan, "Aclun", *DİA*, c. i, İstanbul 1988, s. 327; Çaycı, *a.g.e.*, s. 8; Sözlü, *Ürdün-Aclun'daki Mimarî Eserler*, Yüzüncü Yıl Üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü, (Yayınlanmamış Yüksek Lisans Tezi), Van 2009, s. 30; Khouri, *a.g.e.*, s. 50; Tomar, a.g.m. s. 355; Taşkın, "XVI. Yüzyılda Aclun Şehri ve Kasabalarının Nüfusu, (The Population of Ajlun and Ajlun's Township in the Sixteenth Centuary)", *Turkish Studies*, vol. 8/7, Summer 2013, s. 645.

24 Gündoğdu, *Türk Mimarisinde Figürlü Taş Plastik*, İ.Ü.E.F., (Yayınlanmamış Doktora Tezi), İstanbul 1979.

serçe ve papağan türü hayvan figürleri de dikkati çeker. Bunların dışında başka av hayvanlarına da rastlanır. Bu figürlü kompozisyonların girişin sağındaki yüzeylerde görülmemesi, burasının câmi cephesine denk gelmesiyle ilişkili görülür.[20]

Bir kısmı kıvrık dal, bir kısmı asma yaprağı ya da rûmi benzeri süslemeler içerisinde üçgenleri oluşturan veya rozetleri dolduran Helenistik etkili akantus yaprakları, dallar arasında üzüm salkımları, meyve taneleri gibi benzeri süslemeler şaşırtıcı bir giriftlik içerisinde, boşluk bırakmaksızın tüm cepheyi sarmıştır. Bir kısım tabaklar içerisinde de üzüm salkımları dikkat çeker. Aslanların veya kuşların karşılıklı su içtiği yüksek kaidelere oturan geniş çanaklı kantaroslar, üzerlerinde taşıdıkları süslemelerle Antik özellikleri yansıtırlar.

Buradaki gerek bitkisel, gerekse figüratif süslemelerin Hırbete'l-Mefcer'de bazen mozaik, bazen de taş süsleme olarak karşımıza çıkması, yöre kültürlerine katkıda bulunan Nabatlılar'dan ve Selevkoslar'dan beri devam eden kültürel unsurlar olarak görülmektedir. Üzerinde çeşitli tanımlamalar ve birçok yorum bulunan Mşatta Sarayı gerek planı, gerekse süslemeleri açısından belki de üzerinde en çok durulan İslâmî dönem yapılarından biridir.

Amman'ın güneydoğusunda ve Harane'nin 90 km. kadar güneyindeki Kasrü'l- Tuba, II. Velid döneminde, 743 yılında yaptırılmış, belki de Mşatta Sarayı ile çağdaş bir yapıdır[21] (Foto.37).

70x70 m ölçülerindeki kare tabana oturan ve yan yana iki bölümden oluşan kasrın özellikle kesme taş temeller üzerinde, tuğla duvar örgüsüyle aynı boyutlardaki tuğlaların meydana getirdiği tonoz örtüler dikkat çekicidir. Duvar örgülerindeki tuğla ile aynı renkteki harç malzemenin oluşturduğu derzler ve temellerde kullanılan aynı renkteki kesme taşlar arasında ahenkli bir armoni bulunmaktadır (Foto.38).

Kasıra ait kireç taşı üzerine işlenmiş bir pano, günümüzde Amman Arkeoloji Müzesi'nde yer almaktadır (Foto.39). Bir kapı lentosuna ait olan bu taş üzerinde, Mşatta Sarayı cephe süslemelerini

20 Yetkin, *a.g.e.*, s. 27; Grabar, a.g.e., s. 145; Creswell, *a.g.e.*, s. 212.

21 www.qantara-med.org; Yetkin, *a.g.e.*, s. 29; Creswell, *a.g.e.*, s. 208; Beksaç, a.g.m., s. 106; Çaycı, *a.g.e.*, s. 7.

Bilindiği gibi, Antik geleneği devralan Roma ve Bizans sanatında böyle çelenk ve tabula ansata benzeri örnekler, sık sık karşımıza çıkan, plastik değeri yüksek süs unsurlarıdır.

Amman Kalesi'nde geniş bir tabana sahip Emevî Câmii'nden günümüze sadece giriş cephesinden bir bölüm gelebilmiştir (Foto.31). Cephede giriş üst çerçevesinin iki yanı, yan yana gömme sütunceler üzerine oturan yuvarlak kemerlerle mihrap nişi biçiminde süslemelere sahiptir. Emevî döneminde mevcut kalıntılardan inşa edilen ve aslında Cuma Câmii de denilen bu yapının cephe süslemeleri, bir bakıma Konya Alâaddin Câmii kuzey cephesini hareketlendiren süsleme unsurlarını hatırlatmaktadır[17] (Foto.32).

Ürdün'de, Amman'ın 4.5 km. kadar güneyindeki önemli kasırlardan olan Mşatta Sarayı, II. Velid'in M.743-744 yıllarında inşa ettirdiği saray olarak kabul edilir.[18] Sarayın ön cephesi I. Dünya Savaşı esnasında yerinden sökülerek, Berlin'deki Kaiser Friedrich Müzesi'ne kaldırılmıştır[19]. Planlama bakımından Bizans ve Sâsânî saraylarının merasim ve taht salonlarına benzetilen bu sarayın bizi ilgilendiren yanı, cephesinde belli bir yükseklikte yarım bırakılmış taş süslemelerdir (Foto.33).

Cephenin iki yanında, taştan elde edilen plastik süslemeler içerisinde, yüzeysel üçgen alanlarda, bitkisel ve figüratif süsleme yoğunluğu dikkat çekicidir (Foto.34). Tamamen Antik etkili olan bu süslemeler, taş üzerine zeminin oyulmasıyla elde edilmiş çeşitli sahneleri içermektedir. Üçgen alanların ortaları altı parçalı rozetlerle doldurulmuş olup üçgenlerin alt ve üst boşlukları, çok girift bitki ve hayvan figürleriyle bezenmiştir (Foto.35).

Özellikle simetrik şekilde bir eksenin iki yanındaki hayvan figürleri, bir hayat ağacı, bir kantaros olarak ele alınmışken, yandan tasvir edilmiş ikili hayvanlar ise aslan, kuş veya grifon gibi efsanevi yaratıklardır (Foto.36). Sahnenin kalan boşluklarında güvercin,

17 Creswell, *a.g.e.*, s. 217; Almagro-Jimenez, "The Umayyed Mosque of the Citadel of Amman", *ADAJ*, vol. XLIV, Amman 2000, s. 459-475; Çaycı, *a.g.e.*, s. 4; Khouri, *a.g.e.*, s. 26.

18 Yetkin, *a.g.e.*, s. 27; Grabar, *a.g.e.*, s. 122; Creswell, *a.g.e.*, s. 212; Çaycı, *a.g.e.*, s. 7.

19 Yetkin, *a.g.e.*, s. 27; Creswell, *a.g.e.*, s. 136; Khouri, *a.g.e.*, s. 64.

plastik etkileri güçlü bir objedir. Kuyu bileziğinin yüzeyini on altıya bölen kemerler üzerinde, bir kısmı istiridye biçiminde, bir kısmı da zikzak biçiminde süslemeli, mihrap kavsarasını andıran yüzeysel nişler bulunmaktadır. Basit şekildeki bu nişlerin, İslâm sanatında farklı anlamlardaki değişik versiyonlarına sıkça rastlanır. Kuyu bileziği, süs unsurları ve plastik açıdan önemlidir.

Hallabat Kasrı'nda dikkat çeken asıl süsleme, yer mozaikleridir. Girişin sağındaki iç avluda, kahverengi ve beyaz taşlardan oluşturulmuş baklava biçimli döşeme mozaikleri, tüm alana yayılmıştır (Foto.26). Baklava şekillerinin ortalarında da küçük dolgulara yer verilmiştir.

Küçük avlunun batısında, kare kesitli payeler ile taşınan kemerlerin gerisindeki revak bölümlerinin her biri, farklı şekilde süslenmiş döşeme mozaiklerine sahiptir (Foto.27). Bunların bir kısmı dörtlü yonca yaprağı biçimindeki şekillerle, bir kısmı da etrafını dört yönden şemsiye tarzında kuşatan açık-koyu kahve renkteki süslemelerden oluşmaktadır. Hemen yanındaki bölümün zemininde yuvarlak ve kare alanların etrafı antrölak geçmeli süslemelerle zenginleştirilmiştir. Antrölaklar içerisinde ördek, serçe, içi meyve dolu sepetler, açık-koyu kahve, mavi, sarı, kırmızı renklerle basit ve sade bir armoni meydana getirilmiştir. İki katlı altlığa sahip kantaros içindeki balık figürüyle bu süslemelerin geç Roma, Bizans ve Sâsânî etkilerini yansıttığı söylenebilir. Benzer süslemeler, Bizans ve Sâsânî sanatlarında, mimarî ve süsleme alanlarında karşımıza çıkmaktadır. Aslında benzer döşeme örnekleri Ürdün'ün kuzeyinde Ceraş'taki Bizans kilisesinde ve Madaba'daki yer mozaiklerinde de görülür (Foto.28). Ancak Madabada'daki Hristiyan konulu insan ve hayvan figürleri ile çok renkli şehir tasvirlerinde mozaik kalitesi ve tasvir gücü daha yüksektir.

Hallabat Kasrı'na 4-5 km. uzaklıkta, ana yolun sağında bulunan Hamame's-Sarah zamanla harap olmuşken, son zamanlarda yeniden restore edilmiştir (Foto.29). Hamamın batısında büyük bir sarnıcın yanında araziye rastgele atılmış, yaklaşık 2 m. uzunlukta, dikdörtgen prizma şeklindeki taş üzerinde, kabartma halinde iki uçta, iki çelenk ile bunların arasına tabula ansata formu yerleştirilmiştir (Foto.30).

rozet, Harane'nin süslemelerine göre çok daha muhteşem işlenmiştir (Foto.18). Ortadaki akantus yaprağı çevresinde altı insan başından oluşan rozetin giderek genişleyen kısımlarında; eğri kesim tekniğinde düzenlenmiş iki sıra asma yaprağı, inci taneleri ve kıvrık dalların oluşturduğu daireler içinde, ortası goncalı çiçek motiflerine yer verilmiştir. Rozetin etrafı, üç sıralı hasır örgüleri arasında yine asma yapraklarını hatırlatan bitki motifleriyle ajurlu olarak çerçevelenmiştir. Buradaki insan başları tip olarak siyah, kıvırcık saçlı olup geç Roma örneklerinde, inci dizileri de Sâsânî süslemelerinde karşımıza çıkar. Nereden getirildiği belli olmayan rozet benzeri bir süsleme, daha sade ve taşa işlenmiş olarak Amman Müzesi avlusunda, yerde durmaktadır (Foto.19).

Kasrü'l- Harane'de karşımıza çıkan mimarî süslemelerden tuğla, taş ve alçı üzerine işlenenler de cephede ve salonlarda rozet ve bitki motifleri olarak dikkat çeker.

Amman'ın doğusunda, Amman'dan Ezrak'a giden yolun sağında, hafif bir tepe üzerinde bulunan Kasrü'l- Hallabat; câmi, saray ve yakınındaki Hamamü's- Sarah'tan oluşmaktadır[16] (Foto.20).

Hallabat Câmii'nin düzgün, temiz kesme taş mimarisinde fazla bir süs unsuruna rastlanmaz (Foto.21). Ancak mihraba paralel nefleri oluşturan sütunlar yıkıldığı için orijinal başlıklarını tam olarak tanımak mümkün değildir. Ancak giriş kapısının iki yanında kemerleri taşıyan gömme sütunlar üzerindeki başlıklar, eski Mısır kültürüne ait unsurlardır (Foto.22).

Câminin hemen yanındaki kasır ise mimarî ve mozaik süslemeleriyle öne çıkar. Güneye bakan giriş kapısı ile ulaşılan avlunun solundaki üzerleri yıkık odaların duvarlarında bazalt kesme taşlar üzerine zikzak şeklinde, baskı tekniğinde yapılmış alçı süslemeler, son derece basit uygulamalardır (Foto.23). Ayrıca bazalt taşlar üzerine yazılmış farklı dönemlere ait (olasılıkla Roma) okunamayan, karışık yazılar bulunmaktadır (Foto.24).

Hallabat Kasrı'nda orta avludaki kuyu bileziği (Foto.25), yekpare taştan, ortası oyuk, çevresinde yüzeysel kemerlerin bulunduğu

---

16 Yetkin, *İslâm Mimarisi*, Ankara 1965, s. 30; Grabar, *a.g.e.*, s. 98; Creswell, *a.g.e.*, s. 165-167; Çaycı, *a.g.e.*, s. 6; Khouri, *a.g.e.*, s. 56.

Güney cephe ortasında uzun beşik tonozlu bir girişten sonra ulaşılan kare alana sahip avlunun iki yanındaki merdivenlerle çıkılan ikinci katın avluya bakan kısımları, sarayın en görkemli oda ve salonları olarak düzenlenmiştir. Köşelere rastlayan odalar da (beyt) birbirleriyle ve salonlarla bağlantılıdır.

Kasrü'l- Harane'de dikkat çeken süsleme unsurlarından birisi, kuşkusuz taş ve tuğla malzemeyle örülü duvar, takviye ve köşe kuleleri arasına yerleştirilmiş tuğla süslemelerdir (Foto.14). Tuğlaların hafif yatık şekilde dizilmesiyle oluşturulmuş süslemelerden en üstteki tüm yapı cephesi ile köşelerde silindirik, cephe ortalarında yarı silindirik, giriş kapısının iki yanında da çeyrek silindirik kulelerde görülmektedir. Alttaki diğer tuğla süsleme sırası sadece silindirik, yarı silindirik ve çeyrek silindirik kuleleri çevreleyen kısa bir kuşak olarak dikkat çeker. Bu etkinin, Doğu kültürlerinden özellikle Orta Asya ve Sâsânî sanatından geldiği aşikârdır.

Girişin üzerindeki kemer altında, günümüzde kısmen bozulmuş ve dikine yerleştirilmiş alçı kabartma halindeki süs panoları, bir eksen üzerinde basit bitki şekli verilmiş beş parçadan ibaret olup fazla süs değeri taşımaz (Foto.15).

Bu kasırdaki kayda değer bir süsleme de üst kattaki salonlar ve odalarda (beyt) bulunmaktadır. Bu salonların tonoz örtülerini taşıyan kemerler, üçer gömme sütunla zemine ulaşır (Foto.16). Kemer bitimiyle sütun başlangıcında da birer sıra halinde, alçıdan tuğla dişi izlenimi veren süsleme yer alır.

Öte yandan kasrın yan odalarında beşik tonoz örtülerin hemen altında, madalyon şeklinde alçı üzerine yapılmış, yazıyı andıran basit bitki şekilleri de erken devre geçişte bitkisel süsleme öğelerini hatırlatan, daha sonra rûmi ve palmete dönüşecek olan şematik uygulamalardır (Foto.17). Bunların benzerleri rozet süslemelerde de kendini belli eder (Çiz.1). Yine benzer rozet örneklerinden biri günümüzde Amman Arkeoloji Müzesi'nde bulunan alçı malzeme üzerine yapılmıştır. Hırbete'l- Mefcer'den getirildiği belirtilen bu

05 *Ekim 2013)*, s.2; Savignac, "Les Chateaux Arabes", *Mission Archaelogique en Arabie*, Paris 1922, s.1.

Ayrıca doğa resmi ile banyo havuzları görüntülerine de yer verilmiştir (Foto.9). Yer yer kanatlı melek tasvirleri, müzisyenler, içki kapları, geniş yapraklı ağaçlar, kıvrım dallar arasında üzüm salkımları da duvar süslemesine sarı, kırmızı, kahverengi, yeşil, siyah, mavi, gri renklerle katılmışlardır (Foto.10, 11). Girişin solunda beşik tonoz biçimindeki tavanın siyah konturlarla kasetlendiği alanlarda; ellerinde çeşitli eşya, sopa ve aletler bulunan, oturan, uzanan, ayakta, tek veya ikili şekilde antik giysili insanlar, çökmüş veya ayakta develer, atlar, ellerinde mızrakları ile avcılar, tavşanlar, aslanlar, çalgı aleti tutan ayılar, uzun bacaklı ve boyunlu su kuşları bulunmaktadır (Foto.3). Siyah ve kıvrım saçlı insan figürlerinin hareket tarzları, Antik etkili geç Roma, erken Bizans sanatı etkilerini yansıtmaktadır (Foto.12). En, boy, derinlik ve ışık-gölgenin hâkim olduğu bu tasvirlerle birlikte İslâm sanatının oluşumunda gayrimüslim ressamların eserleri olarak, halk nazarından uzaktaki çöl saraylarında ilginç görünümler ortaya konulmuştur.

Aynı yerde, iki yandan çifte sütunlarla sınırlanmış alanda, yuvarlak kemerli mimarî içerisinde tahtta oturan Halife ile onun sağında ve solundaki saray adamlarını betimleyen sahne, aslında Bizans mozaik ve freskolarındaki tasvirleri hatırlatır (Foto.6).

Apsis içerisindeki bir diğer sahnede, ortada ucu yukarı kıvrılmış tacı ile ayakta duran halife ile onun sağında ve solundaki altı figürden oluşan kompozisyon, bazılarına göre halifeye boyun eğen kralların, bazılarına göre ise halifenin konuklarını[14] temsil eden ve tamamıyla Bizans etkili bir tasvir olarak değerlendirilir (Foto.5).

Kuseyr Amra'nın yaptırıldığı yıllarda, tamamlandığı bilinen H.92/M.711 tarihli Kasrü'l- Harane, Amman'ın 60 km. kadar güneydoğusunda yer alan bir diğer çöl sarayıdır (Foto.13). Adını sıcaklıktan alan Kasrü'l- Harane, Kuseyr Amra'yı yaptıran I. Velid tarafından düz bir arazide iki katlı olarak düzenlenmiş bir saraydır[15].

---

[14] Grabar, *İslâm Sanatının Oluşumu*, İstanbul 1988, s. 124.

[15] Creswell, *A Short Account of Early Muslim Architecture*, Cairo 1989, s. 36; Beksaç, a.g.m., s. 107; Çaycı, *a.g.e.*, s. 1; Khouri, *a.g.e.*, s. 56; Gündoğdu, "Ürdün'deki Kasrü'l- Harane'nin Plan, Mimarî ve Süslemelerinin İslâm Sanatındaki Yeri", *XVII. Ortaçağ Türk Dönemi Kazıları ve Sanat Tarihi Araştırmaları Sempozyumu* (02-

sayıda saray ve kasır mimarisi ortaya çıkmış, bunları Abbâsî döneminde yapılanlar izlemiştir. Ancak bu yapılar, zamanla çeşitlenerek dinî ve sivil mimarinin birçok kolunda; türbelerde, köprülerde, zaviyelerde, kervansaraylarda, hankâhlarda, hamamlarda, medreselerde, askerî mimarî alanında da; kalelerde ve ribatlarda kendini göstermiştir. Yapılaşmada ve bunların kurumsallaşmasında, yöredeki geleneksel malzeme ve süsleme unsurları ile kültürel ilişkiler önemli rol oynamıştır.

Bu resmî, dinî ve sivil yapıların başında, kuşkusuz çöl sarayları gelmektedir. Ürdün'ün en kuzeyindeki antik Gadara ve Pella harabelerinin bağlı olduğu İrbid'den, en güneyde Kızıldeniz'in ucundaki Akabe'ye kadar; Ürdün Nehri, Lut Gölü, Vadi-i Araba'nın doğusunda kalan toprakları içine alan coğrafyada, aynı zamanda ilk ve önemli kültür varlıkları ortaya çıkmıştır.

İslâm'ın yayılmaya başlamasıyla Emevîler döneminde kısmen eski kalıntılar üzerine yaptırılan, kısmen de yeniden yaptırılan eserler, daha çok 90 yıllık Emevî hâkimiyetinin son 50 yıllık döneminde karşılaştığımız kültür varlıklarıdır.

Bu eserlerin çoğu, I. Velid (705-715) ve Hişam (724-743) dönemlerinde yaptırılmış olanlardır. Bir kısmı da diğer halifeler ve Abbâsîler zamanında inşa ettirilmiştir.

Çöl sarayları içinde süsleme yönünden en dikkate değer olanlardan birisi, kuşkusuz üzerinde fazlaca durulmuş olan Kuseyr Amra'dır (Foto.1). 711-15 yılları arasında I. Velid[13] tarafından yaptırıldığı kabul edilen bu sarayda, süsleme unsurları açısından en çok dikkati çeken husus freskolardır.

Sarayın paye ve kemerleri üzerinde (Foto.2), beşik tonoz ile örtülü kabul salonunun tavanlarında (Foto.3), hamam duvarlarında ve kubbede (Foto.4) bol miktarda insan ve hayvan figürleri, kentauros gibi burç tasvirleri, bitki motifleri, kozmolojik dünya haritası, halife ve hükümdar tasvirleri (Foto.5, 6) bulunmaktadır. Ayrıca dönemine göre çok cüretkâr şekilde Hint, İran ve Antik etkili çıplak kadın ve erkek figürlerine de rastlanmaktadır (Foto.7, 8).

---

[13] Khouri, *a.g.e.*, s. 60.

M.S. 1094-1096 yılları arasında ilk Haçlı seferlerinin ortaya çıkmasıyla derin bir sarsıntı geçiren İslâm dünyası ve bölge halkı, Selahaddin Eyyûbî'nin 1187 yılında Haçlılara karşı kazandığı zaferle tekrar İslâm hâkimiyeti altına girmiştir.[9] Daha sonra Eyyûbîlerin de zayıflamaları üzerine Mısır'da güç kazanan Memlûklerin hâkimiyetine geçen Ürdün'ün, 1401 yılından itibaren de Timurluların eline geçtiği bilinir.[10] Yöredeki karışıklıklar 1516'ya kadar sürer. Bu tarihte Mısır'ın Osmanlı topraklarına katılmasıyla Ürdün'de de Osmanlı hâkimiyeti başlar.[11] Osmanlılar Ürdün'de 400 yıl kadar hükümran olmuşlarsa da ara sıra ortaya çıkan isyanlara rağmen 1918 yılına kadar burada Osmanlı hâkimiyeti sürdürülmüştür.

Osmanlıların yöredeki hâkimiyetlerini kaybetmelerinden sonra bir müddet İngiliz himayesinde kalan Ürdün'de 1921 yılında, I. Abdullah tarafından başkent Amman olmak üzere Ürdün Hâşimî Krallığı kurulmuştur. Uzun süre İngiliz hegemonyasında kalan Ürdün, ancak II. Dünya Savaşı'ndan sonra bağımsız bir krallık haline gelmiş ve varlığını sürdürmüştür.[12] (Harita 1)

Tarihçesinden kısaca bahsettiğimiz Ürdün, İlkçağ'dan itibaren çevresinde kurulmuş olan büyük medeniyetlerin etkisinde kalmıştır. Bunların başında kuşkusuz Nabatlılar, Helenler, Selevkoslar, Roma, Bizans, Sâsânî, Emevî, Abbâsî, Fâtımî, Memlûk ve Osmanlı medeniyetleri gelir. Ayrıca Türklerin İslâm'a dâhil olmalarıyla birlikte Selçukluların ve Orta Asya geleneklerinin de bölge sanatının gelişimine katkıda bulunduğu bilinir.

Daha Emevî döneminin başında, İslâm'ın yayıldığı alanlarda, çeşitli müesseseler ortaya çıkarken, Ürdün'de de benzer yapılaşma hız kazanmıştır. Kuşkusuz bu kurumların başında dinî mimarî geliyordu. Kısa süre sonra da özellikle Emevîler döneminde çok

---

[9] Çubuk, a.g.m., s. 116; Çaycı, *a.g.e.*, s. 2; Khouri, *a.g.e.*, s. 8.

[10] Bkz. 9 no'lu dipnotta gösterilen yerler.

[11] http://tr.wikipedia.org/wiki/Ürdün; G.W.F. Stripling, *The Ottoman Turks and the Arabs (1511-1574)*, Philadelphia 1977, s. 66; Çubuk, a.g.m., s. 116; Çaycı, *a.g.e.*, s. 2.

[12] http://tr.wikipedia.org/wiki/Ürdün; Yiğit, a.g.m., s. 87-104; Çaycı, *a.g.e.*, s. 2; Koçak, a.g.t., s. 1; Khouri, *a.g.e.*, s.8; Tomar, a.g.m., s.356.

Yörede kurulan Enbad Krallığı yerleşim merkezi olarak, aşılması zor yüksek dağlar anlamına gelen Petra'yı seçmişlerdi. Enbadların soyunun bazı tarihçilere göre, Hz. İsmail'in oğlu Nebaioth'a indiği kabul edilir.[3] Bazı tarihçiler de M.Ö. VI. yüzyılda Irak ya da Yemen tarafından gelen göçebe Arapların, burada ilk düzenli yerleşmeyi yaptıklarını belirtirler.[4]

Ürdün, M.S. 62 yılında Trajan zamanında, Filistin ve Suriye ile birlikte Roma'nın hâkimiyetine girse de, daha önceleri M.Ö. IV.-III. yüzyıllarda Selevkoslar'ın hâkimiyeti altında kalmış olan bölgede Hellenistik etkilerin yaygın olduğu bilinmektedir. Bu yüzyıllarda yöredeki Amman, Ceraş, İrbid, Ümmü Kays ile Güney Suriye'den on kadar şehir ortak hareket ederek Decapolis (On Şehir) Birliği'ni kurmuşlardı.[5]

Roma hâkimiyeti yaklaşık 400 yıl kadar sürdükten sonra Ürdün ve çevresi, Bizans'ın Hristiyan etkisi altında kalmış ve bu dönemde de çeşitli dinî yapılarla zenginleşmişti. Bizans egemenliğindeki Ürdün halkı olan Gassânîler, M.S. I. yüzyıldan VII. yüzyıl başlarına, yani İslâm'ın bu yörelerdeki yayılışına kadar hâkimiyetlerini sürdürmüşlerse de zaman zaman Sâsânî işgali atında da kalmışlardır.[6]

İslâm ordularının 629 yılındaki ilk saldırısında Bizans imparatoru Heraklius geri çekilmiş ise de asıl zafer Hz. Muhammed'in katıldığı Tebük Gazvesi'nde gerçekleşmiştir.[7]

Dört Halife devrini takip eden Emevîler dönemi (661-750) 90 yıl kadar sürmüş, bu dönemde Ürdün'de pek çok çöl sarayı yaptırılmıştır.[8] Emevîler'den halifeliği devralan Abbâsîler 969'da, Ürdün'deki hâkimiyetlerini Fâtımîlere kaptırmışlardır.

---

3 Çaycı, *a.g.e.*, s. 2; Koçak, *a.g.t.*, s.2; Khouri, *a.g.e.*, s. 94; C. Tomar, "Ürdün" *DİA*, c. xxxii, İstanbul 2012, s. 353.

4 http://tr.wikipedia.org/wiki/Ürdün; Çaycı, *a.g.e.*, s. 2; Koçak, *a.g.t.*, sayfasız.

5 http://tr.wikipedia.org/wiki/Ürdün; Çaycı, *a.g.e.*, s. 2; Khouri, *a.g.e.*, s. 6.

6 http://tr.wikipedia.org/wiki/Ürdün; İ. Yiğit, "Emevîler", *DİA*, c. xi, İstanbul 1995, s. 87; Tomar, a.g.m., s. 354.

7 http://tr.wikipedia.org/wiki/Ürdün; Çubuk, a.g.m., s. 16; Çaycı, *a.g.e.*, s. 2.

8 E. Beksaç, "Emevîler (Sanat)", *DİA*, c. xi, İstanbul 1995, s. 104-108; Çaycı, *a.g.e.*, s. 2.

İSLÂMÎ DÖNEM ÜRDÜN YAPILARINDA SÜSLEME UNSURLARI

Hamza Gündoğdu*

İslâmiyet'in hızla yayılmaya başladığı VII. yüzyılın ikinci çeyreğine kadar geçen dönemde Arabistan yarımadası ve çevresinde sanat adına üzerinde durulacak fazla bir gelişme yoktu. Dört Halife devrini (632-661) içine alan 30 yıllık süreçte, İslâm'ın yayılması hızlı bir şekilde devam ederken sınırlar Mısır'a, Kuzey Afrika'ya, Anadolu'nun doğu ve güneydoğusundaki Bizans hâkimiyet bölgelerine, Doğu İran ve Irak'ın tamamına kadar genişlemişti. Emevîler döneminde (661-750) ise fetihler daha geniş bir coğrafyada sürdürülmüş, İslâmî öğretiler de doğudan Orta Asya ve Hindistan'a, batıdan Endülüs'e kadar yayılmıştı. Bu geniş coğrafyada İslâm inancının yerleşmesi ve kalıcılığı, ele geçen yörelerde sağlam bir örgütlenme ve İslâmî öğretilerin yanında sanatsal açıdan da kendini ifade etmesine bağlı idi.

Bildiri konusunu Ürdün'deki İslâmî dönem yapıları olarak seçmiş olmamızın nedeni, İslâm'ın ilk yayılış yıllarından itibaren Ürdün coğrafyasının kısa sürede hâkimiyet altına alınması ve yapılaşmanın bu yörede geçmiş kültür ve uygarlık örneklerinin de etkisiyle yeniden hayatiyet kazanmasıdır.[1]

Bilindiği kadarıyla Ürdün, eski çağlarda nüfus bakımından ıssız bir bölge idi. Daha sonra içinde Kenaniler'in bulunduğu göçebe Arap kabileleri bu yörelere yerleşmişlerdir. Bu yerleşimin tarihi M.Ö. 2000'lere kadar iner.[2]

---

* Prof. Dr., Sakarya Üniversitesi, Fen-Edebiyat Fakültesi Sanat Tarihi Bölümü-Sakarya. Bu çalışmanın hazırlanmasında yardımlarını gördüğüm Arş. Gör. Rumeysa Işık'a teşekkür ederim.

[1] V. Çubuk, "Ürdün", *İA*, c. xiii, 1997, s. 116; Ahmet Çaycı, *Ürdün'de Osmanlı Mimarisi*, Konya 2006, s. 2.

[2] http://tr.wikipedia.org/wiki/Ürdün; Çaycı, *a.g.e.*, s. 2; Tülin Koçak, *Ürdün'ün Turizm Coğrafyası*, MÜ Ortadoğu Araştırmaları Enstitüsü (Yayınlanmamış Yüksek Lisans Tezi), İstanbul 2010, s. 2; R.G. Khouri, *Art and History of Jordan*, Italy 2011, s. 56.

Faroqhi, Suraiya, *Hacılar ve Sultanlar*, haz. A. Anadol, İstanbul 1995.

Harttmann, R. "Şam", *İslam Ansiklopedisi*, c. XI, s. 298-299.

Haşim, Ahmet, *Üç Eser: Bize Göre, Gurabâhâne-i Laklakan, Frankfurt Seyahatnamesi*, Ankara 1989.

"Mehmed Edîb", *Türk Dili ve Edebiyatı Ansiklopedisi*, c.6, s.202-203.

Mehmed Edîb b. Muhammed Derviş, *Nehcetü'l-Menâzil*, Süleymaniye Ktp., Esad Efendi, nr.1339; Daru'l-Mesnevi, nr.134; Halet Efendi, nr.408; İstanbul Üniversitesi Merkez Ktp. Nr. 195; Konya Bölge Yazmalar Ktp. nr.7770.

Pakalın, M. Zeki, *Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü*, c. III, İstanbul 1972, s.280.

Söylemezoğlu, Süleyman Şefik, *Hicaz Seyahatnâmesi*, haz. A. Çaycı-B. Ürekli, İstanbul 2012.

-----------------, *Hicâz Seyâhatnâmesi*, İÜTY nr. 4199.

eş-Şihâbî, Kuteybe, *Müşeyyedâtü Dımaşk Zevâtü'l-Edriha ve Anâsırıha'l-Cemâliyye*, Şam 1995.

Tomar, Cengiz "Şam", *DİA*, c. 38, İstanbul 2010, s.311-315.

Uzunçarşılı, İ. Hakkı, *Mekke-i Mükerreme Emirleri*, Ankara 1972.

ve gayûr bir zâtdır. Kitâblar balıksırtı Melikü'z-Zâhir ve oğlunun mermerden sandukaları üzerlerine yapılan raflara tertîb edilmiştir. Melikü'z-Zâhir ma'ârif-perver hükümdârândan olması hasebiyle birçok 'asırlar sonra sandukası üzerinin kütüphâne ittihâz olunması garâ'ib-i tesâdüfâtdandır. Sandûkalar üzerinde kabartma değil oyma olarak (hâzâ darîhü'l-Meliki'z-Zâhir) ibârâtı ve 676 Muharrem 27 târihi ve diğerinde (hâzâ darîhü'l-Meliki's-Sa'îd) kelimâtı mahkûkdur."[27] Burada türbenin yapısından kitapların sayısına, konularının çeşitliliğinden deste halinde bulunan bir hayli evraka hatta kütüphanenin haftada altı gün açık olduğuna kadar pek çok bilgiye sahip olmaktayız.

Sonuç olarak ele alınan üç seyahatnâmeden hareketle XVIII. ve XIX. yüzyıllardaki Şam şehrinin bazı ayrıntıları belirtilmeye çalışılmıştır. İslam şehirlerinin önemli merkezlerinden olan Şam'la ilgili olarak yapılacak çalışmalar gelecekte Osmanlı döneminin Şam şehrini daha geniş bir biçimde ortaya koyacaktır.

Kaynakça

Atalar, Münir, *Osmanlı Devletinde Surre-i Hümâyûn ve Surre Alayları*, Ankara 1991.

Bosnalı Mustafa Muhlis, *Delîlü'l-Menâhil ve Mürşidü'l-Merâhil*, haz. Menderes Coşkun, Isparta 2007.

el-Bosnavî, Mustafa, *Delilü'l-Menâhil ve Mürşidü'l-Menâhil*, Süleymaniye Ktp., Bağdatlı Vehbi no.1024.

Buzpınar, Ş. Tufan "Surre", *DİA*, c. 37, İstanbul 2009, s. 567-569.

Coşkun, Menderes, *Manzum ve Mensur Osmanlı Hac Seyahatnameleri ve Nâbî'nin Tuhfetü'l-Harameyn'i*, Ankara 2002.

Elisséeff, N., "Dimashk", *EI*, c.II, s. 277-280.

Evliya Çelebi, *Seyahatnâme*, haz. Y. Dağlı-R. Dankoff-S. Ali Kahraman, İstanbul 2005.

[27] S.Süleyman Şefik, *a.g.e*, s.35-36. Bu yapı kütüphane, medrese ve türbeden oluşmaktadır. Melikü'z-Zâhir Baybars ve oğlu Melikü's-Said'in sandukaları bu türbede yer alır, bkz. Kuteybe eş-Şihâbî, *Müşeyyedâtü Dımaşk Zevâtü'l-Edriha ve Anâsırıha'l-Cemâliyye*, Şam 1995, s. 379.

görülüyor ki bu da feth-i İslâm'dan başlayıp usûl-i 'Arab olan kerpiç binâ yapılmağa başlanarak Roma usûlünün terk olunmasından neş'et etmiştir."[25] Şam çevresinde görülen Kâ'a tabir olunan sivil mimarînin zenginliğine dikkat çekerken sokakların darlığından şikâyet etmektedir. Ayrıca İslâmî dönemden itibaren kerpiç kullanımından kaynaklanan problemleri ve yapıların uzun ömürlü olmadığını ve mimarî sanat özelliği taşımadığını dile getirmektedir.

S. Şefik, Şam şehrindeki okullaşma oranını rakamlarla açık bir biçimde ortaya koymuştur: *"Sûriye Vilâyeti dâhilinde Müslim olarak "394" mekteb ve bunlar dâhilinde "14619" şâkird olup bunlardan biri 'askerî olmak üzere cem'an yüz yetmiş üç şâkir (d)li, üç i'dâdî ve 1094 şâkirdli, on sekizi Rüşdî-i 'askerî ve mülkî; ve 12726 şâkirdli, üç yüz altmış ikisi ibtidâ'i zükûr ve 626 tâlibâtlı on biri inâsa mahsûs mekâtibden 'ibâretdir.*

Hristiyan olarak yine büyük küçük 195 mekteb ve 9025 şâkird olup bunlardan otuz ikisi mekâtib-i 'âliyeden 'ibâretdir ki cem'an 2065 şâkir (d)i on üçü 1655 tâlibâtı hâvîdir. İbtidâ'i olarak zükûra mahsûs 129 mektebde 4245 zükûr ve 21 mektebde 1160 tâlibât vardır. Şuna nazaran Hristiyan olarak 6210 zükûr ve 2815 tâlibât olup şu hesâba göre, iki Hıristiyân erkeğe bir ta'lîm görmüş kız tesâdüf ettiği hâlde 23 Müslümâna bir mu'allime kız düşmektedir."[26] Burada gayrimüslimler ile Müslüman nüfusun okullaşma oranları mukayese edilerek özellikle kız ve erkeklerin oranına dikkat çekmektedir.

Şam şehrindeki kitaplar ve kütüphaneler hakkında önemli tespitlerde de bulunmuştur. *"Bu kütübhâne şehrin vasatında Melikü'z-Zâhir'in türbesi derûnundadır. Türbe som kârgîr gâyet metîn binâ edilmiş âsâr-ı 'atîkadan bir şey olup dâhilen kubbe ve duvarları 'Arab usûlüyle mozayik işlenmiştir. Dâhil-i kütüphânede 27090 aded ve ekserîsi yazma kütüb-i mütenevvi'a ve mu'tebere mevcûd oldukdan başka deste ta'bîr olunur nâkıs ve perişân evrâk üzerinde birkaç yüz de kütüb ve resâil mevcûddur. Kütüphâne Salı günlerden mâ'adâ her gün erbâb-ı mütâla'aya küşâde olup buraya ta'yîn olunan hâfiz-ı kütübde el-hak allâme-i zû-fünûn ıtlâkına şâyân ulûm-ı şarkıyye ve garbiyyeye vâkıf genç*

---

25 S.Süleyman Şefik, *a.g.e.*, s.34.

26 S.Süleyman Şefik, *a.g.e.*, s.34-35.

türlerinden bahsettikten sonra Beyrut ve çevresinin kadim tarihi hakkında bilgi vermeyi ihmal etmez. Sonra karayolu ile Şam'a intikalleri hususunda bilgi verir.

Öncelikli olarak Şam vilayetinin coğrafî konumunu ortaya koyar: " *Şâm-ı Şerîf belde-i mu'azzaması 33 derece 'arz-ı şimâlîde vâki' olup akdem-i medâyin-i âlemdendir.*"[23] Sonra Şam'ın tarihçesi hakkında bilinen bilgileri kaynaklardan tekrar etmektedir. İslâmî dönemde hicretin on dördüncü senesinde Hz. Ömer zamanında Şam'ın Hâlid İbn Velid tarafından fethi anlatılmakta, Emeviler zamanında hilafet merkezi oluşundan sonraki süreçte Abbasilerin yönetimindeki durumu ve nihayet I. Sultan Selim zamanından itibaren de Osmanlı topraklarına dâhil edilmesi hakkında bilgi verilmektedir.

S. Şefik'in Şam'ı ziyareti sırasında şehrin nüfusunun "*...nefs-i şehir on beş-yirmi bin kadar hâneyi ve doksan bine karîb nüfûsu şâmil...*"[24] olduğu ifade edilmiştir ki şehrin demografik ve sosyal yapısı hakkında önemli bir delil oluşturmaktadır. Yine aynı seyyahın verdiği talebe listesine göre Şam'daki müslim ve gayrimüslim unsur yaklaşık olarak ortaya çıkmaktadır.

S. Şefik şehir yüzeyini ve havasını " *...Mevki'i çukurca olması ve suların mebzûl bulunması hasebiyle havasında rutûbet ve nev'-i mâ sıklet his ve müşâhede olunur...*" diye tarif etmektedir. İşte bu sebepten dolayı Şam çevresinde çok sayıda nehir bulunduğunu ifade etmek mümkündür.

Şam'daki mimarî yapılara gelince S. Şefik şöyle bir genelleme ortaya koymaktadır: " *San'at-ı mi'mâriyyeye gelince hâneler kerpiçle inşâ edilmiş ve odalardan sokağa pencere açılmamış gibidir. Sokaklar dar ve dolaşık ve ikide bir kemerli ve yekdiğerine müşâbih olduğundan yolları öğrenmek çok zamâna muhtâcdır. Vâkı'â ba'zı hâneler dâhilinde Kâ'a ta'bîr olunan mustatîlü'ş-şekl ve havuzlu, duvarları mermer ve üzeri sadef ve yaldızla müzeyyen ve pencere kapakları oymalı ağaçlarla müretteb pek san'atlı bir katı pek güzel salonları var ise de şimdiki hâlde bunlardan pek az kalıp mi'mârları da gün be gün gâib ve zâyi' olmaktadır. Hulâsa eski âsâra nazaran Şâm'da san'at-ı mi'mâriyyenin tenezzül ettiği*

23 Söylemezoğlu Süleyman Şefik, *Hicâz Seyâhatnâmesi*, İÜTY nr. 4199, s.33.
24 Aynı yer.

Söylemezoğlu Süleyman Şefik

Söylemezoğlu Süleyman Şefik Bey'in *Hicâz Seyâhatnâmesi* isimli yazma eserinin Şam bölümü burada ele alınmıştır. Babası Ali Kemâlî Bey'in 1890 yılında surre[21] emini olarak görevlendirilmesi ve Süleyman Şefik Bey'in de bu seyahatte yer alması sebebiyle eser ortaya çıkmıştır. 1308/1892 tarihinde temize çekilen seyahatnâme, İstanbul Üniversitesi Kütüphanesi Türkçe Yazmalar Bölümü TY 4199 numarada kayıtlı bulunmaktadır. Eser, sayfa numarasına göre düzenlenmiş olup 385 sayfadan meydana gelmiş ve rik'a hat ile her sayfada 15 satır olarak yazılmıştır. Eserde harita, plan ve sulu boya resimlere yer verilmiştir.[22]

Seyahatnâmede verilen malûmâttan anlaşıldığı kadarıyla eserin kaleme alınış sebeplerini şöyle ifade etmek mümkündür: Birincisi, Süleyman Şefik Bey'in babasının surre emini olarak Hicaz'a gönderilmesidir. İkincisi, Süleyman Şefik'in bu bölgeyi görme merakı ve hac farizasını yerine getirme arzusudur. Üçüncüsü ise, Osmanlı idaresinde Hicaz bölgesindeki Osmanlı'nın hâkimiyet gücünü ve bu hâkimiyetin zaaflarını; bölgedeki dinî, siyasî, sosyal, ekonomik ve sağlıkla ilgili durumu bizzat gözlemleyerek ve kaynaklara da dayandırmak suretiyle fazla teferruattan kaçınarak esas noktaları ortaya koyma amacını taşır. 1306/1890 tarihinde müsveddesi hazırlanan ve 26 Eylül 1308/08 Ekim 1892 senesinde temize çekilme işlemi tamamlanan eserin iki gün sonra da Sultan II. Abdülhamid'e sunulmuş olması, yazılma gerekçesini daha iyi izah etmektedir.

İstanbul Üsküdar'dan deniz yoluyla Beyrut şehrine ulaşan Süleyman Şefik, Beyrut ile Şam arasındaki arazinin yapısından, bitki

---

21 Surre; Osmanlı padişahlarının hac mevsiminden önce, Receb ayında, İstanbul'dan Mekke ve Medine'ye (Haremeyn), o bölgenin en ileri gelenlerinden en yoksullarına varıncaya kadar dağıtılmak üzere özel bir törenle gönderdikleri para, altın ve armağanlardır. (Para dışında hil'at, halı, kadife, kürk yanında yiyecek malzemesi de gönderildiği olurdu.) Bu hususta bkz. Münir Atalar, *Osmanlı Devletinde Surre-i Hümâyûn ve Surre Alayları*, Ankara 1991, s.2; M. Zeki Pakalın, *Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü*, c. iii, İstanbul 1972, s.280; İ. Hakkı Uzunçarşılı, *Mekke-i Mükerreme Emirleri*, Ankara 1972, s. 35; Ş. Tufan Buzpınar, "Surre", *DİA*, c. xxxvii, İstanbul 2009, s. 567-569.

22 Eser yeni harflere aktarılmıştır, bkz. Süleyman Şefik Söylemezoğlu, *Hicaz Seyahatnâmesi*, haz. A. Çaycı-B. Ürekli, İstanbul 2012.

ve âl-i beyt seyyidü'l-mürselîn (s.a.v) Câmi'-i Emeviyye'nin dıvârı kurbünde medfûn oldukları mervîdir."[18]

Câmideki Hz. Osman mushafı hakkında yine geniş bilgi verilir: *"Câmi'-i mezkûr hareminde minbere karîb Hazret-i Osmân ve Hazret-i Ali radiyallâhü ânhümâ hatt-ı şerîfleriyle iki kıt'a mushaf-ı şerîf olmağla ziyâret olunur. Mushaf-ı Hazret-i Osmân 492 tarihinde Taberiye şehrinden gelmiştir. Hatta Hazret-i Osmân mushaf-ı merkûmı tilâvet buyururlar iken şehîd olub dem-i sa'âtleri isâbet eylediği mervîdir."*[19]

Şam'daki diğer yapılara gelince " *Gök Meydan kurbünde Sultan Süleyman merhûmun tarz-ı Rum'da iki minârelü Süleymaniye ta'bîr olunur bir bî-himmetâ câmi'-i ve imâret-i âmire ve medrese ve dârü'l-ziyâfesi vardır. Mesiregâh mahaldir ve Paşa Kapusu kurbünde yine tarz-ı Rum'da Dervîş Paşa'nın "Dervişiyye" ta'bîr eyledikleri bir câmi zî bânisi vardır ve yine tarz-ı Rum'da Sinan Paşa'nın "Sinâniye" denilür kâşîli bir câmi'-i ra'nası vardır. Hârici şehrde tarîk-i hüccâc üzre Kara Murad Paşa'nın bir câmi'-i şerîfi ve dâhil-i şehrde Nureddin Şehîd'in bir timarhânesi vâkı'dır ve mükellef hanlar çokdur. Hususiyle Esad Paşa'nın hanı ve kurbünde hamamı bî nazîrdir ve esvâk-ı mükellefesi kesîrdir.*

Câmi'-i Emeviyye'nin dıvârı kıblesinde sûk-ı zirâ'-ı ve dıvâr-ı garbîsinde sûk-ı Murad Paşa ve kal'a kurbünde Şemsî Ahmed Paşa binâsı sûk-ı cedîd-sipâh ve sûk-ı büzüriye (?) ve sûk-ı çakmak ve sûk-ı surûce (?) esvâkından ba'zıdır ve bezzâzistânda kuyumcular sâkin olurlar. Sûk-ı sipâhi bezzâzistâna bedel olmuşdur ve mahallâtı katî? vâfirdir ve mesiregâh tarzında kahvehâneleri ve Bâbü's-Selâm ta'bîr olunan mahalli ve Gök Meydanı ve Salihiye ile Dımaşk mabeyninde olan bağçeler ve tahte'l-kal'a ve mesîre-i sâireleri ve etrafında bağçeleri lâ yu'addir. Cevâmi' ve mesâcid ve medâris ve zevâyâ ve hânigâh ve büyût, hânât ve hamâmât (larında) mâ-i lezîzi câri ve vâfirdir."[20] Bütün bu tanımlamalar Şam şehrindeki yapılar hakkında bilgi sunmaktadır.

18 M. Edib, *a.g.e.*, s. 62.
19 M. Edib, *a.g.e.*, s. 60.
20 M. Edib, *a.g.e.*, s. 61.

Câminin kapıları hakkında da geniş malumat verilmektedir: "*Ve câmi'-i mezkûrun bâb-ı kıblesine Bâb-ı Anberân ve Bâb-ı Ziyâde ve Bâb-ı Nâtıkîn ve Bâb-ı Silsile ve bâb-ı garbîsine Bâb-ı Berîd ve bâb-ı şarkisine Cirûn tesmiye iderler. İş bu Bâb-ı Cirûn mescid-i şerîf-i Emeviyye'nin cânib-i yesârında a'zam ebvâbındandır. Karpuz kaldırana meftûhdur ve üç mukaddes bâbı dahi vardır. Bâb-ı Kilâse ki medreseye meftuhdur. Âna karîb bir bâb dahi vardır ve bir bâb-ı sagîr dahi sembesâtı kurbünde medrese-i kâmileye meftûhdur.*"[15]

Câminin şadırvanları hakkında da bilgi verilmiştir."*Gayet vas'ât üzere şâdırvân, havlısı ortasında üç şâdırvân ve etrafı mermer sütun ile muhît, kubbeler ve tahtlarında sofalar ve hâric sofalar ve hâric sofalar medârisdir (60) ve şâdırvân kapusı hâricde taraf-ı şarkda havz miyanında su menba'ından bir mızrâk boyu feverân ider. Âna karpuz kaldıran tesmiye ederler.*" Bu havuzlardan bir tanesinin Osman Paşa tarafından tamir edildiği bildirilir: " *Lakin ba'zan nehr-i merkûmun tarîki tathîre muhtâc olub hîn-i tathîrde su munkatı' olmak hasebiyle merhûm mîrü'l-hâc Osmân Paşa 1183 tarîhinde havlu ile şâdırvân miyanına zikr-i âti şâdırvânı ihdâs itdirüb dahi nehr kanavâtdan icrâ-yı mâ itdirmekle her birinin inkıtâ'ında ihrâk? mevcûd bulunması hayrına muvaffak olmuşlardır.*"[16]

Câminin içinde bulunan su kuyusundaki suyun lezzetinden kısaca bahsedilir: " *Ve harem câmi'dedir. Bi'r-i mâ vardır. Suyu gayet lezîzdir.*"[17]

Şam'da ashâb-ı kirâma ait türbelerden de bahsedilmektedir: " *Dımaşk'da medfûn olan ashâb-ı kirâmdan dâhil-i şehrde Hazret-i Muâviye ve hâric-i şehrde Hazret-i Bilâl-i Habeşî ve derûn-ı kal'ada Hazret-i Ebu'd-Derda ve yine dâhil-i şehrde Hazret-i Ca'fer-i Tayyar ve Ümmü'l-mü'minîn Ümmi Habîbe ve Hazret-i Atike ve Hazret-i Zeyneb ve Hazret-i Rukiye ve sahîb-i Rûmî ve hulefâdan dâhili şehrde Nureddin Şehîd ve Bâb-ı Sagîr kurbünde Velîd b. Abdülmelik ve Mahmud Zengi kabirleri olmağla ziyâret olunur ve dahi nice ashâb-ı kirâm (ra) ecma'în*

15 M. Edib, *a.g.e.*, s. 60.
16 M. Edib, *a.g.e.*, s. 58.
17 M. Edib, *a.g.e.*, s. 60.

M. Edib, Şam şehrindeki mimarî yapıların çokluğuna işaret ederek şunları bildirir: "*Cevâmi' ve mesâcid ve medârisi ve hângâh ve zevâya ve dâru'l-ziyâfe ve hamâmât bî-haddir. İki yüzden mütecâviz hamâmı mevcuddur. Bir mevlevihânesi vardır... Miyâne-i câmi'-i merkûmda Hazret-i Yahya-yı şehîd (as) re's-i sa'âdetleri türbe-i mu'attarası ziyâretgâh-ı hâs ve âmdır... Hazreti Hûd (as) dahi alâ kavli câmi'-i mersûm indinde medfûn olduğu mervîdir.*" Bu yapılar arasında da özellikle Emeviyye Câmii'nden[12] daha ayrıntılı olarak bahseder. Yapının daha evvel Yuhanna kilisesi olduğu ve H. 88 senesinde Halife Velid b. Abdülmelik tarafından Tuma kilisesinin Hristiyanlara bırakılması karşılığında câmiye çevrilmesine karar verildiği ifade edilmektedir. Aynı câminin H. 96 senesinde tamamen yenilenerek ibadete açıldığı aktarılmaktadır. M. Edib, câminin H. 460 tarihinde büyük bir yangına maruz kaldığını ifade etmektedir. " *Câmi'-i mezkûr ziyâde ahsen vech üzere müzeyyen tecdîd olunub lâkin 460 târîhindeki vâkı' harîkde muhterik olmağla hasenesine halel gelmişdir.*"

Daha sonra belli bir düzen dâhilinde olmasa da M. Edib, Emeviyye Câmii hakkında teferruatlı bilgi verir. " *Câmi'-i mersûmun tûli şarkdan garba beş yüz kırk sekiz kademe ve arzı ki mihrabdan kapuya değin yüz elli kademedir*" ifadeleriyle câminin ölçülerini bildirerek teknik bilgi vermektedir.

Câminin üç minaresiyle ilgili şunları bildirir: " *Câmi'-i mezkûrun üç aded minâresi vardır. Biri cânib-i garbîde minâre-i Garbiye ve biri taraf-ı şarkîde minâre-i Beyzâ kî Ak minâre ve minâre-i İsa aleyhisselâm tesmiye iderler, iş bu minâreye Hazret-i İsa aleyhisselâm nüzul buyuracağı mervîdir ve biri dıvâr-ı şimâlide Bâb-ı Silsile'ye muttasıl minâreye me'zenetü'l-Arûs tesmiye iderler.*" [13] Bu minarelerde yetmiş beş müezzinin görev aldığı "*Yetmiş beş müezzini mürettibdir. Ezân-ı şerîf iş bu minâreden okunur ve her vakite onbeş müezzin mürettebdir. Birden ezân-ı şerîf kıraat ederler ve mezâhib-i erba'anın mihrâbları ve müteayyin imamları vardır.*"[14] diye ifade edilmektedir.

---

12 Şam'daki bu câminin iki isimi mevcuttur. Bunlar Emeviyye ve Ümeyye şeklindedir. M. Edib daha çok Emeviyye tabirini tercih etmiştir.

13 M. Edib, *a.g.e.*, s. 59.

14 M. Edib, *a.g.e.*, s. 59.

b. Velîd Bilâl Habeşî, Temîm Dârî ve Ca'fer b. Ebî Tâlib..."[9] bu isimlerden sadece bazılarıdır.

M. Edib, Şam şehrinin surlarının inşasını evlâd-ı Sam dönemine kadar geriye götürerek surların yedi kapısının olduğunu ve bu kapılardan her birinin bir gezegene/kevâkibe izafeten tesmiye edildiğini bildirir. Bu kapıların her birinin üzerinde birer gezegen sureti tasvir edildiği bilgisini verir. İlk sırada "Bâb-ı Şarki" kapısının bulunduğu ve bunun üzerinde "şems" sureti yer almıştır. İkinci kapının "Bâb-ı Tumâ" olduğu ve üzerinde "zühre" gezegeni betimlenmiştir. Üçüncü kapı "Bâb-ı Cenbîk" olup suretinin "kamer" tasviridir. Dördüncü kapı "Bâb-ı Ferâdis" olup "utârid" betimlemesi mevcuttur. Beşinci kapı "Bâb-ı Cabiye"dir ki "müşteri" tasviri ile bütünleşmiştir. Altıncı kapı "Bâb-ı Sagir"dir ki "merih" suretiyle verilmiştir. Yedinci kapı "Bâb-ı Kisân" kapısıdır ki "zühal" suretiyle bütünleşmiştir.[10]

Şam'ın İslam orduları tarafından fethine hicretin on üçüncü senesinde Hz. Ebubekir zamanında, Ebû Ubeyde'nin başkomutanlığında başlandığını ve bu sırada Hz. Ebubekir'in vefatı sebebiyle yarım kaldığı bildirilmektedir. Daha sonra Hz. Ömer'in hilafeti döneminde Ebû Ubeyde Amir b. el-Cerrâh ve Hâlid b. Velîd'in gayretleriyle hicretin on dördüncü senesinin Receb ayında, yetmiş gün süren muhasara sonunda feth edildiği ifade edilir.

M. Edîb, Nureddin Zengi'nin Bâb-ı Farac'ı ilave ettiğini ve bundan sonra da surların 590 tarihinde tecdîd edildiğini ifade etmektedir. Bütün bu kapılardan başka bir kapı daha olduğu ve bunun da Bâbu'n-Nasr olarak tabir edildiği zikredilmektedir.

M. Edib, Şam şehrindeki ırmakların adedini sıralar ve balıkların bolluğuna dikkat çeker: "*Dımaşk derûnunda yedi aded ırmak ceryân eder ve uyun-u kesîresi vardır. Meşhûrları Bâbü's-Selâm kurbünde Ayn-ı Varâka (?) ve Ayn-ı Ali ve Ayn-ı Sahne ve Ayn-ı Zeheb ve Ayn-ı Lü'lü'ü ve Ayn-ı Câlûd. En mu'teberi Ayn-ı Zebiye'dir ve bir gölü vardır. Nehr-i berdâ ve gayrın fazlası munsab olur. Envâ'ı semek ve tuyûr sayd olunur. Mahsûs balık emini vardır ve esvâkında et'ime-i nefise tabh olunur.*"[11]

---

[9] M. Edib, *a.g.e.*, s. 53-54.

[10] M. Edib, *a.g.e.*, s. 55-56.

[11] M. Edib, *a.g.e.*, s. 62.

eserin baskıları da yapılmıştır. Kitabın büyük bir kısmı menzillere ve menzillerde yer alan ziyaretgahlara ayrılmış durumdadır. Kitabın son bölümünde ise hacla ilgili kurallar (menâsik-i hacc) sıralanmaktadır. Kitabın ilk baskısı 1232/1817 yılında gerçekleştirilmiştir. Daha sonra farklı matbaalar tarafından baskısı yapılmıştır. Basma nüsha 256 sayfadan oluşmaktadır.

Mehmed Edib, diğer seyyahlar gibi Şam şehrini "*cennet meşâm*" (cennet kokulu) olarak tavsif etmektedir. Üsküdar'dan başlayan yolculuk Anadolu'yu kat ederek Katîfe üzerinden Şam'a vasıl olmaktadır. Mehmed Edib öncelikle Şam şehrinin evsafından bahseder. Şam isminin menşei hususunda iki görüş bulunduğunu, bunlardan birincisinin Kenan kavminden bir kabilenin Mekke-i Mükerreme'den buraya gelerek bu mıntıkaya yerleştikleri için bu isimle anıldığı; ikincisi ise Nuh aleyhisselâmın oğlu Sâm ismiyle tesmiye olunduğu şeklindedir. Hatta M. Edib, Süryanice'de Sam isminin "Ş" harfiyle yazıldığından Şam olarak ifade edildiğini belirtir.[8]

M. Edib, Şam hakkında övgüleri "*Mahsulâtında vefret ve me'kulâtında lezzet, meskenlerinde zînet ahâlisinde hüsn-i san'at müşâhiddir. Ekser mahalli ma'mûr toprağı münbitdir. Hatta ba'zı mahalli, birine yüz virir.*" şeklinde sıralar. İklim şartlarına bağlı olarak her türlü meyve sebzenin yaz, kış demeden sürekli temin edilebileceğini aktarır.

Çok sayıda ashâb-ı kirâmın burada medfun olduğunu tek tek isimleriyle birlikte sıralamaktadır. "*Ubey b. Ka'b ve Ebû Derdâ ve Ebû İmâme, Ebû Ubeyde ve Ebû Haşim ve Evs b. Üveys ve Bilâl Habeşî ve Temîm Dârî ve Ca'fer b. Ebî Tâlib ve Cundeb b. Amr ve Cünade b. Malik ve Hâris b. Hişâm ve Cessas b. Velîd ve Harmele b. Zeyd el-Ensârî ve Halid*

Süleymaniye Ktp., Esad Efendi, nr.1339; Daru'l-Mesnevi, nr.134; Halet Efendi, nr.408; İstanbul Üniversitesi Merkez Ktp. Nr. 195; Konya Bölge Yazmalar Ktp. nr.7770.

8 M. Edib, *a.g.e.*, s. 53; Ayrıca bkz: Cengiz Tomar, "Şam", *DİA*, c. xxxviii, İstanbul 2010, s.311-315; R. Harttmann, "Şam", *İslam Ansiklopedisi*, c. xi, s. 298-299; N. Elisséeff, "Dimashk", *EI*, c. ii, s. 277-280.

Şam Kalesi'nin oldukça *"Metânet hem resânetle kal'ası/Kılâ'-ı Rûm'un olur âşinâsı"* sağlam bir yapıdan oluştuğunu vurgulamaktadır. Hatta burç ve köşklerinin musanna' olduğu genel olarak *"Musanna'dur burcûyla kusûrı ki mi'mârun binâda yok kusûrı"* diye ifade eder. Şehir ahalisinin esnaflık ederek geçindiği ve ticaret hususunda iyi durumda olduğunu belirterek buranın hediyelik eşya almak için uygun mekân olduğuna işaret eder. Ancak Şam esnafının hüccâca karşı tavrını *"Bilürler mâl-ı huccâcı ganimet/Komazlar hâcıya bir akçe kıymet"* şeklinde eleştirir. Daha önemlisi esnafın hüccâcı adam hesabına almadığından şikâyet etmektedir. Hatta Şam'da katledilen hüccâcın varlığına dikkat çekerek *"Nice huccâcı katl itdi bu küffâr/Bilürken hali bî-nâmûs-ı bî-'ar"*[5] ifadesiyle bu durumu ortaya koymaktadır. Hac emirinin aynı zamanda Şam valisi olduğunu bundan memnuniyetsizliğini *"Emîrü'l-hacc idi hem Vâli-i Şâm/Dilerün rûz-ı 'ömri tez bula sâm"* ve yine *"Emîrü'l-hacc kalursa bir iki sâl/Edâ-yı hacc itmek eşkelü'l-hâl"* diye belirtir.

Yukarıda Şam şehrine ait seçilmiş mısralardan Şam'ın doğal güzelliklerinden sosyal ve kültürel yaşam tarzına kadar bilgiler edinmek mümkün olmaktadır.

Mehmed Edîb

1193/1779 senesinde hacca giden Mehmed Edîb Efendi, eserlerinde "Edîb" ve "Derviş" mahlaslarını kullanmayı tercih etmiştir.[6] Mehmed Edîb, hac yolculuğu sırasında gördüğü ve yaşadıklarının dışında kendinden önce kaleme alınan eserlerden doğrudan alıntılar yaparak eserini zenginleştirme yoluna gitmiştir. Bu çalışmayı *'Nehcetü'l-Menâzil'*[7] adı altında yazmış ve daha sonra bu

5 Bosnalı Mustafa Muhlis, *a.g.e.*, s. 111-115.

6 Mehmed Edîb, Hacı Mehmed Hasan Efendi'nin oğludur. Müderris ve Medine kadılığı yapmış, 1824 yılında vefat etmiştir. Hac yolculuğu Üsküdar'dan 25 Receb 1193/1779 da başlayıp ertesi yılın 20 Rebiülâhir'inde İstanbul'da sona ermiştir. Hac süresi toplam 265 gün sürmüştür. Bu hususta bkz. "Mehmed Edîb", *Türk Dili ve Edebiyatı Ansiklopedisi*, c. vi, s.202-203; Menderes Coşkun, *Manzum ve Mensur Osmanlı Hac Seyahatnameleri ve Nâbî'nin Tuhfetü'l-Harameyn'i*, Ankara 2002, s. 29-31.

7 Kitabın birden fazla baskısını çeşitli kütüphanelerde bulmak mümkündür. Bu nüshalar için bkz. Mehmed Edîb b. Muhammed Derviş, *Nehcetü'l-Menâzil*,

farklı bir eğilim ortaya koyarak alışılmışın dışına çıkmıştır. Şam ile ilgili izlenimlerine *"Şam, Belde-i Bülend-Makâm"* başlığıyla giriş yapmaktadır. Güzergâhtaki diğer menzillerle ilgili böyle bir cümlenin bulunmaması Şam şehrinin ayrıcalığına ve yüksek makamları ihtiva eden belde olduğuna işaret olmalıdır. Bu büyüklüğün ifadesi olarak İstanbul şehri ile kıyaslama yaparak *"Sitanbul'dan vesî'dür cirm-i şehri/Bilâd-ı Rûm'da yok mâsı nehri"* şehrin büyüklüğünün İstanbul'dan daha vasi olduğunu ve Anadolu'da benzer nehirlerin olmadığına işaret etmekte ve anlatımda mübalağa yapmaktadır: *"Bu şehrün bir bucuk sâ'atdür 'arzı/İki sâ'at gelür hem tûl-i farzı"* diyerek ifade eder. Şam bağ ve bahçelerine gelince *"Riyâzıyla büyût-ı lâ-nazîri/'Adîmü'l-misl Firdevs (dür) nazîri"* bağ ve bahçelerden evlerin/binaların rahatlıkla görülemediğini hatta Şam şehrini Firdevs'e benzetmektedir. Cennetin Şam şehriyle özdeşleştiğini ifadeden sonra *"Eger olmazsa cennet Şâm şehri/Neden bu hûr u gılmân ile nehri"* ile Şam şehrinin hurilerini, gençlerini ve nehirlerini delil göstermektedir. Şehirde meyvenin her türünün yetiştiğini *"Fevâkih cins ü nev'i cümle mevcûd/Olur hâsıl şehirde cümle maksûd"* beyitleriyle ifade etmektedir. Şehrin isminin Hz. Nuh'un oğlu Sam ile olan irtibatına *"Binâ itmiş bu şehri İbn-i Nûh Sâm/Anuncün dirler ana belde-i Şam"* diye vurgu yapmaktadır. Şam ismiyle bütünleşen Emevi yapısı olan Emeviyye Câmii'nin Şam şehriyle her daim hemhal olduğunu *"Benî Ümeyye'nün câmi'si nâmı/İder zâyid hemîşe şân-ı Şâm'ı"* beytiyle ifade eder. Adı geçen câmi ile Ayasofya'yı kıyaslamaya giderek *"Ayasufiyye'sidür şehr-i Şâm'un/Ve hem bir ravzası dârü's-selâmun"* diyerek câmiyi Şam şehrinin Ayasofyası mertebesinde görür. Gerçi Ayasofya ile Emeviyye Câmii hem nicelik ve nitelik hem de kronoloji bakımından birbirine benzer özellikler ortaya koymaktadır. Hatta Yahya peygamberin makamının bu câmi içinde bulunmasının *"Derûnında yatur Yahyâ Peygamber/Derûn-ı ravzası pür-misk ü 'anber"* diyerek bu câminin değerini artırdığına işaret etmektedir.

Şam'ın ziyaretgâhının çokluğuna işaret ederek bunların gezmekle bitmeyeceğine vurgu yapmaktadır. Şam Kalesi ile Anadolu'daki kaleler arasındaki benzerliklere dikkat çekmekte ve

ifası (menasik) konusunda okuyucuya geniş bilgi sunmak gayesiyle yazılmıştır. Bizi burada ilgilendiren boyut ise bu tür eserlerden tarih, sanat tarihi ve şehir tarihi gibi hususları ihtiva eden ayrıntıları ortaya koymaktır. Çünkü bu eserler her ne kadar başlık itibarıyla ibadet içerikli olsa da mekân ve şehir tasvirleri konusunda önemli kaynaklardandır. İşte bu minval üzere aşağıda isimleri verilen Osmanlı seyyahlarının Şam şehri ile ilgili izlenimlerini ortaya koymak istedik.[3]

Mustafa Muhlis el-Bosnavî

Eğriboz kadısı olarak bilinen Mustafa Muhlis el-Bosnavî, '*Delîlü'l-Menâhil ve Mürşidü'l-Merâhil*'[4] başlığı adı altında yedi yüz elli beyitlik manzum bir eser yazmıştır. Bosnalı Mustafa Muhlis 1161/1748 yıllarında deniz ve kara yoluyla gerçekletirmiş olduğu hac yolculuğunu beyitlerle anlatmaktadır. Mustafa Muhlis'in eserinin bilinen iki nüshası bulunmaktadır. Bunlardan biri Süleymaniye Kütüphanesi Bağdatlı Vehbi Bölümü'nde diğeri ise özel bir şahsın elindedir. Hac vazifesi tamamlandıktan sonra Mekke'den İstanbul'a dönüş esnasında güzergâhta yer alan şehir ve eserlerle ilgili düşüncelerini mısralara dökmüştür. Biz burada, menzillerden sadece Şam şehrini ihtiva eden bölümle iktifa edeceğiz.

Bosnalı Mustafa Muhlis, Mekke'den başlayarak İstanbul'a kadar olan kara yolculuğunu menâzil tipi hac seyahatnâmesi şeklinde anlatarak menasik uygulamalarında nadir görülen bir yöntemi tercih etmiştir. Zira bu tür çalışmalarda genellikle İstanbul'dan başlayarak Mekke'ye kadar devam eden menziller takip edilmiştir. Mustafa Muhlis Mekke'den başlayarak İstanbul'a kadar olan yolculuğuyla

---

3 Aynı tarihlerde mevcut olan bir diğer seyahatnâme ise Evliya Çelebi Seyahatnâmesi'dir. Evliya Çelebi 1082'de (1671) hacca gitmiş olup seyahatnamesinin dokuzuncu cildinde hac yolculuğunu dolayısıyla Şam şehrini de uzun uzun anlatmaktadır. Evliya Çelebi Seyahatnâmesi bir hayli ele alındığından ve de bildiri sınırlarını aşacağından dolayı bu çalışmaya dahil etmedik. Bu hususta bkz. Evliya Çelebi, *Seyahatnâme*, c. ix, haz. Y. Dağlı-R. Dankoff-S. Ali Kahraman, İstanbul 2005, s. 266-286; Suraiya Faroqhi, *Hacılar ve Sultanlar*, haz. A. Anadol, İstanbul 1995, s. 34-80.

4 Mustafa el-Bosnavî, *Delilü'l-Menâhil ve Mürşidü'l-Menâhil*, Süleymaniye Ktp., Bağdatlı Vehbi no.1024.

BAZI OSMANLI SEYYAHLARININ ŞAM İZLENİMLERİ

Ahmet Çaycı* & Bayram Ürekli**

Hatıranın değişik bir türü olan seyahatnâmeler kişilerin günlük ve biyografileriyle yakından ilgilidir. Seyyahın en önemli malzemesi müşahede ettiği farklılıklardır. Seyyah bu farklılıkları anlatırken bazen sade bir üslup bazen de mübalağaya kaçar. Hatta uydurma haberlere tevessül edenler de olmuştur. Yapılan bir takım araştırmalar az da olsa bazı seyyahların yazdıklarını hayal gücüne ve kütüphanelerindeki kaynak eserlere borçlu olduğunu ortaya koymuştur.[1] Ahmet Haşim, seyahatnâmeleri tanımlarken "*harikuladelikler avı*" olarak ifade eder.[2]

Seyahatnâme yazmak için çeşitli gerekçeler mevcuttur. Osmanlı döneminde kaleme alınan seyahatnâmelerin yazılma gerekçelerini ise şöyle sıralamak mümkündür: Herhangi bir medeniyet veya bölge hakkında okuyucuya bilgi aktarabilme, gurbette görülen ve yaşanılanları paylaşma arzusu, toplum tarafından kutsal addedilen mekânları betimleme, değişik ülkelerdeki acayip ve gariplikleri paylaşma, gezip görme, bilgi ve görgü artırma, görev icabı herhangi bir yerde bulunma, sürgün edilme, eğitim amacıyla seyahat etme gibi gerekçeler bunlardan sadece sınırlı sayıdaki muhteviyatı oluşturmaktadır.

Yukarıda sayılan hususlar arasında hac farizasının yerine getirilmesi için gerçekleştirilen seyahatlerin ise sayıca çokluğu öne çıkmaktadır. Hac konusunu ihtiva eden seyahatnâmeler, hac güzergâhındaki menziller hakkında ayrıntılı bilgi vermek ve haccın

* Necmettin Erbakan Üniversitesi, Sosyal ve Beşeri Bilimler Fakültesi, Sanat Tarihi Bölümü, Konya-Türkiye.

** Selçuk Üniversitesi, Edebiyat Fakültesi, Tarih Bölümü, Konya-Türkiye.

1 Bosnalı Mustafa Muhlis, *Delîlü'l-Menâhil ve Mürşidü'l-Merâhil*, haz. Menderes Coşkun, Isparta 2007, s. 9.

2 Bosnalı Mustafa Muhlis, *a.g.e.*, s. 9; Ahmet Haşim, *Üç Eser: Bize Göre Gurabâhâne-i Laklakan, Frankfurt Seyahatnamesi*, Ankara 1989, s. 169.



İİT | İslam İşbirliği Teşkilatı
IRCICA | İslam Tarih, Sanat ve Kültür Araştırma Merkezi

Alemdar Cad. No. 15,
Bâbıâlî Girişi Cağaloğlu
Fatih 34110 İstanbul, Türkiye
Tel | +90 212 402 00 00
Faks | +90 212 258 43 65

ircica.org
ircica@ircica.org

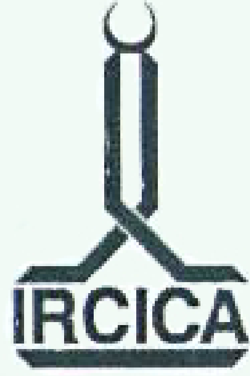
BİLADÜ'Ş-ŞAM'DA MİMARÎ MİRAS: ULUSLARARASI SEMPOZYUMU, AMMAN 2014

Müslüman Milletler Tarihi Serisi; NO. 7
ISBN 978-92-9063-318-1
İSTANBUL 2018

Editör: Doç. Dr. Halit Eren

Yayına Hazırlayanlar: Prof. Dr. Sadık Ünay, Prof. Dr. Fazıl Bayat, Prof. Dr. Najat Khalil, Dr. Betül Ayaz
Sayfa Düzeni: Selahaddin Uygur

Baskı : Seçil Ofset
100. Yıl Mahallesi Matbaacılar Sitesi
4. Cadde No:77 Bağcılar - İstanbul
Tel. 0212 629 06 15 / www.secilofset.com



RESEARCH CENTRE FOR
ISLAMIC HISTORY, ART AND CULTURE

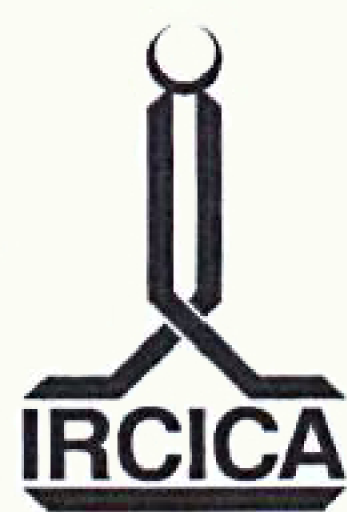


THE WORLD ISLAMIC SCIENCES
& EDUCATION UNIVERSITY W.I.S.E

BİLÂDÜ'Ş-ŞAM'DA MİMARÎ MİRAS

Uluslararası Sempozyumu, Amman 2014

İstanbul 2018


IRCICA



RESEARCH CENTRE FOR
ISLAMIC HISTORY, ART AND CULTURE



THE WORLD ISLAMIC SCIENCES
& EDUCATION UNIVERSITY W.I.S.E

BİLÂDÜ'Ş-ŞAM'DA MİMARÎ MİRAS

Uluslararası Sempozyumu, Amman 2014